مع الهلال والنّجم

رحلة من بومباي إلى إسطنبول
عبر الخليج العربي عام 1868م

للرحّالة الأميركي

أ. لوكر

ترجمة: رنا صالح

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش

روّاد المشرق العربي

مع الهلال والنّجم

رحلة من بومباي إلى إسطنبول عبر الخليج العربي عام 1868 م

للرحّالة الأميركي

أ. لوكر

ترجمة

رنا صالح

مراجعة وتحرير

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS48. 2 L812 2011
.Locher, A
[With Star and Crescent]

مع الهلال والنجم: رحلة من بومباي إلى إسطنبول عبر الخليج العربي عام 1868 م/ للرحالة الأمريكي أ. لوكر؛ ترجمة: رنا صالح؛ مراجعة وتحرير: أحمد إيبش. ط. 1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2011.

636 ص. : مصور ؛ 24 سم. (رواد المشرق العربي)
يتضمن مراجع ببليوجرافية

ت د م ك: 2 978 - 9948 - 01 - 973

1. شبه الجزيرة العربية - - وصف ورحلات.
2. المشرق الأوسط - وصف ورحلات. أ. صالح، رنا. ب. إيبش، أحمد. ج. السلسلة. د. العنوان.

ترجمة كتاب: With Star and Crescent: a full and authentic account of a recent journey with a caravan from Bombay to Constantinope, comprising a description of the country, the people, and interesting adventures with the natives

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

© حقوق الطبع محفوظة
دار الكتب الوطنية
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث
«المجمع الثقافي»

© National library
Abu Dhabi Authority
For Culture & Heritage
"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى 1432 هـ - 2011م

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن رأي هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (المجمع الثقافي)

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص. ب: 2380
publication@adach.ae
www.adach.ae

مـع الهـلال والنّجـم

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقـدّم «هيئة أبوظبي للثقافـة والتّراث» للمكتبة العربيّة بوجـه العموم، ومكتبـة تراث جزيـرة العـرب بوجه الخصـوص، باكـورة نتاجها من هـذه الـتّلسـلة الثقافيّـة التّراثيّة تحـت عنـوان: «روّاد المشـرق العربـي». وهـي مـن خلالها تعكـس اهتمامهـا بتراث الآباء والأجداد، كمصـدر فخر لشـعب الإمـارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّـة، وذلك من خـلال الحرص على جمع كافّـة المصادر المتعلّقـة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا اسـتعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشـر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشـرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّسـاتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسـهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشـر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسـعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شـتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشـريف، الفقه، التاريخ، الفلسـفة والفكر الإنسـاني، الفنون، وسـائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسـة ورياضيّـات وصيدلـة وكيمياء. ومنها أيضـاً الأدب الجغرافـي العربي وأدب الرّحلات.

ومـا دُمنـا بصدد ذكـر تُراثنا الجغرافي، فلا بُـدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّـاراً موازياً له، يضارعه ويسـتقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» اليوم بنشر باكورة أجزائه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث

هذا الكتاب

رحّالتنا لهذا الكتاب «أ. لوكر A. Locher»، رجل أميركي لا نعلم من شؤون حياته اللهـم إلا ما خطّته يداه في كتابـه هذا. وكتابه الذي بين أيدينا يروي وقائع رحلة قام بها مؤلفها في زمن لا يحدّده (واستطعنا حصره بعام 1868) فيذكر بأسلوب شائق ممتع تفاعلي يفور بالوصف والحركة والمشاعر الشخصية، مغامراته ومشاهداته منذ انطلاقه برحلة بحريّة من بومباي في الهند إلى مسقط، ومنها إلى الكويت التي خصّها بوصف جميل وأنيق يندر مثاله، وذكر استقبال شيخها آنذاك عبد الله الصّباح، له ولأصدقائه، وبخاصّة القبطان الاسكتلندي، والكونت الإيطالي السّنيور (P) المجهول. ثم عبر وادي الفُرات الأدنى، فالأوسط، ثم كركوك والموصل فجزيرة ابن عُمر ونصيبين عبر كيليكيا وصولاً إلى ماردين وديار بكر. ومنها إلى بيلان وخليج الإسكندرون على البحر الأبيض المتوسط، حيث ركبوا البحر متوجهين إلى إسطنبول.

فمن كان هذا السّنيور مجهول الاسم؟ ولماذا يصرّ المؤلف كل هذا الإصرار الغريب والمستهجن على عدم ذكر الاسم الكامل لشخصيات رحلته، إلا بالحرف الأول؟ أثمّة سبب.. وماذا يمكن أن يكون؟

في حين لم نظفر بجواب على السّؤال الثاني، ونعزوه لمجرّد الرّغبة المتعالية في التشويق، فبخصوص السّؤال الأول علمنا بوجه الإجمال أنه أحد أبناء الطبقة الأرستوقراطيّة في إيطاليا، أرسله الإمبراطور الفرنسي لويس نابوليون (الثالث) ليجلب له بعض أصائل فحول الخيل العربيّة من موطنها الأصلي في نجد والعراق، واشترط عليه ألا يجلب إلا كل فحل أدهم أو كُميت. وكان أن ترافق لوكر مع السّنيور بيترو Signor Pietro (وهو اسمه الذي لا يبيّنه لوكر)، فكان السّنيور الإيطالي قائداً

لركب الرّحلة ونجحت مهمّته أيّما نجاح.

لـم تكن هذه الرّحلة الأولـى للوكر في المنطقة، فهو يروي أنـه في ربيع عام 1865 قد سـافر من ديار بكر إلى بغداد على متن طوف نهري، بصحبة شـاب أميركي يسـمّيه السـيد (J) - على عادته اللازبة بعدم ذكر الأسـماء صراحةً - لكنه لا يبيّن لنا الغرض من وراء تلـك الرّحلـة، إنما في موضع آخر يذكر أنه التقى بالرّحّالة الفرنسـي غيّوم لوجان Guillaume Lejean الـذي كان يقوم برحـلات أثريّة في المنطقة ذاتها والفترة عينها. وبالفعل، فإنّ للفرنسـي لوجان رحلة نُشرت بباريس بعنوان: «رحلة في بلاد بابل»:

G. Lejean: *Voyage dans la Babylonie*, Paris 1866.

والـذي نفهمـه عمومـاً من خلال نـصّ رحّالتنا فـي كتابه هـذا الذي بيـن أيدينا، أنه لـم يكن مهتماً بالتجـارة والأعمال، بل يسـيطر على فكره التّرحـال والصّيد والقنص. هـذا يـدلّ إذن علـى أن أ. لوكر كان من علية القـوم في أميركا، يهيـم بحثاً عن رحلات الصيد في بلاده في تكسـاس وفي أقطار الأرض، فمرّة تأخذه قدماه إلى بومباي، ومرّة نـراه يتصيّد فـي منطقة Amazooloo Kaffirs في جنوب أفريقيا سـنة 1863 و 1865 ويتذوّق طعم لحم زواحف الإغوانا. والواقع أن الشـغف بالصّيد كان في أواخر القرن التاسـع عشر ومطلع العشرين سـمة لازمة بالطبقة الأرستوقراطيّة، ولا بدّ في كل قصر أوروبي من وجود ركن خاص بتذكارات الصّيد المحنّطة Trophies إلى جانب بنادق الصّيد وبعض الأسـلحة البدائيّة التي تسـتعملها القبائل المحليّة في الهند أو أفريقيا أو بورنيو، أو أي موطن آخر اشتهرت أدغاله بالصّـيد.

* * *

علـى ذلـك كله، تبـدو لنا شـخصيّة المؤلف صياداً خبيـراً جريئاً، وفارسـاً يقدّر كل مـن يتميّز بصفات الشـهامة والفروسـيّة، وهذا ما دعاه إلى إبـداء إعجابه كرجل فارس بأخـلاق أبنـاء العروبة فـي مواطنهـا الأصيلة حيث أقامـت قبائل العـراق، ويطنب في الإشـادة بحميّـة العرب في قِـرى الضيـف، وحماية المسـتجير، وعاداتهـم في تكريم

مشـروب القهوة وربطه بتراث عريق رائع من النّبل والكرم. كما يروي أقاصيص رائعة عن تعلّق العربي الشديد بفَرَسه، وإعطائها أكرم مقام في حياته.

وعلـى الرّغم مـن كبرياء الرّجـل كصيّاد مقدام وابـن برّ لا يهـاب الصعاب، فهو لا يتأنّف أبداً من الاستشـهاد بأقاصيص أصيب فيها بالحرج، أو ناله من ضروب المهانة أو الإصابة أو الغفلة ما جعله أضحوكة في عيون الآخرين. ومن أجمل الجوانب الإنسـانيّة لديه تعاطفه مع الجارية الحبشـيّة التي يسميها «بحري»، والعلاقة الحميمة التي نشأت بينـه وبين حصانه العربي الأثيـر «فيليكس»، وكم تألم لإصابته البالغة واضطراره لتركه في قرية كفري بالقرب من طوز خورماتو.

ولكـن كمـا قلنا في صدر هذه المقدمة، تبقى معلوماتنا عن الرّجل مسـتقاةً ممّا كتبه هو عن نفسـه، والواقع أنّ أسلوبه الحيّ والمليء بالحوادث المثيرة والرّواية الشخصية النّابعة عن مشاهدة عيانيّة، لممّا يساعدنا خير مساعدة على استيعاب نصّه والاستغراق فـي قراءته على اعتباره يمثل أحداثاً حقيقيّة جرت على أرض الواقع، ولو أنه عمد فيها إلى إظهار نفسـه كبطل للرّوايـة ومحور للأحداث، لما كنا وجدنـا فيه لا مصداقيّة ولا شـفافيّة تأسـر القلب. إنما نترك القارئ ليحكم، ونظنّ أنه سيلاقي منه الاستحسـان كما لاقى منا.

ومن القليل الذي يذكره أ. لوكر عن نفسه، أنه كان ما يزال إبّان الرّحلة في شبابه، وأن له أقارب في سويسـرا، كما كانت له أخت تقيم في بغداد مع زوجها، وهو تاجر أوروبيّ يشير إليه بتسمية (W) ولهذا الصّهر عميل تجاري أرمني في ديار بكر. وفي مطلع كتابه ينشـر المؤلف رسماً شـخصياً لنفسـه ويلقّب ذاته بلقب إيطالي: مارابيلّو Marabello دون أن يفسّـر لنـا سـبب هذه التسـمية. ويبدو أنه حبّـذ إضافة بعـض الغموض ونكهة العظمة المسـربلة بالألغـاز، ولا نفهم فيما أفاده ذلك. إلا أن الرّسـم يدلّ على أنه ربما كان في أواخر العشـرينات أو مطلع الثلاثينات من عمره. وليس هناك أدنى إشـارة إلى موطنه الأصلي في أيّة ولاية من أميركا، ولا تاريخ ميلاده.

حتـى تاريـخ قيامه بهـذه الرّحلة لا يذكره أبـداً، ويصرّ على إغفاله رغـم أنه مراراً ما

يصرّح بذكر اليوم والشهر. لكن المرجح أنها كانت في عام 1868 بدلالة ذكر السنيور بيترو العامل لنابوليون الثالث، الذي تنازل عن الحُكم في عام 1870، وكذلك ذكره للرّحالة الفرنسي لوجان وتصريحه بأنه التقاه وكان هو أيضاً يقوم برحلته في الوقت ذاته، والدّلالة الثالثة ما يرويه عن شيخ الكويت وتحديد عمره وتفاصيل عن الكويت في أيامه.

* * *

أمّا العنوان الذي اختاره المؤلف: *With Star and Crescent* فإنّ المقصود منه طبعاً التورية إلى شعار السّلطنة العثمانيّة، صاحبة السّلطة آنذاك على غالبيّة دول المشرق العربي. والتعبير كما يرد في التركيّة: Ay - Yıldız يعني الهلال والنّجم، وغنيّ عن القول إنه ما زال إلى يومنا الحاضر شعار الجمهوريّة التركيّة ورايتها الخاصّة.

* * *

ظهرت الطبعة الأولى للكتاب بعد حصول الرّحلة بمدّة 21 عاماً، أي في عام 1889، وصدرت بدار إتنا Aetna في فيلادلفيا بأميركا، وورد في مقدّمتها أن حقوق نشرها سُجّلت عام 1888. كما صدرت عن الدّار ذاتها طبعة أخيرة نُشرت عام 1891 بتجليد فاخر وموشحة بالصّور، ويبلغ حجمها 634 ص من القطع المتوسط، وعنها قمنا بترجمة النصّ إلى العربيّة والتعليق عليه، عن نسخة نادرة محفوظة في مكتبة جامعة تورونتو بكندا، وأخرى في مكتبة الجامعة الأميركيّة في بيروت.

أمّا بلغتنا العربية، فلم ينشر عن الكتاب سوى وصف زيارة لوكر للكويت ولشيخها عبد الله بن صباح الصّباح، ترجمها عبد الله بن ناصر الصّانع، ونشرها في كتيّب صغير سمّاه: «الكويت عام 1868» طُبع في مطبعة الطلبة بالكويت عام 1959. هذا وقد سمّى الأستاذ الصّانع المؤلف: أ. لوشر، وهذا غلط نقله عنه كلّ من أشار إليه، والصّواب في لفظه «لوكر»، وأصل هذه العائلة في أميركا وبريطانيا يعود إلى أسرة ألمانيّة بافاريّة: Löcher «لوخر».

وثمّة مؤلفات ثلاثة أخرى صدرت للمؤلف ذاته، تحمل العناوين:

«رحلة إلى الهند» *Trip to India*

«في صحراء لورستان» *In the Loorian Desert*

«النخّاسون العرب» *Arab Slavers*

وختاماً، هذا هو النصّ الكامل لرحلة لوكر، نقدّمه لقرّاء العربيّة للمرّة الأولى، ونشير إلى أوجه التشابه بينه وبين رحلة الأديب الأميركي الساخر الشهير مارك تواين «أبرار في الغُربة» عام 1867، ورحلة الرحّالة البريطاني هنري سوانسون كاوپر «من البحر المتوسّط إلى الخليج العربي» في عام 1893.

وكلّنا أمل أن يكون فيما نشرناه من هذه الرّحلات الثلاث ما يفي بقيمتها من المتعة والفائدة اليوم باللغة العربيّة، حيث كان فحواها ومسرح أحداثها أرض العروبة ومجتمعات أبنائها.

والحمد لله تعالى على ما وفّق وأعان.

دمشق، 24 يونيو 2011

د. أحمد إيبش

* * *

مع الهلال والنجم

الرّواية الكاملة والأصلية لرحلة انتهت مؤخراً

مع قافلة متجهة من بومباي إلى القسطنطينية

تتناول وصفاً للبلاد والناس والمغامرات مع السكان

[عام 1868]

بقلم

أ. لوكر

A. Locher

مؤلف «رحلة إلى الهند»

«في صحراء لورستان»

«النخّاسون العرب»

مزودة برسوم توضيحية نفيسة

WITH

STAR AND CRESCENT

A FULL AND AUTHENTIC ACCOUNT OF A RECENT JOURNEY WITH A CARAVAN FROM BOMBAY TO CONSTANTINOPLE, COMPRISING A DESCRIPTION OF THE COUNTRY, THE PEOPLE, AND INTERESTING ADVENTURES WITH THE NATIVES

BY

A. LOCHER

AUTHOR OF "TRIP TO INDIA," "IN THE LOMIAN DESERT," "ARAB SLAVERS." ETC.

FINELY ILLUSTRATED

PHILADELPHIA.
ÆTNA PUBLISHING COMPANY.
1891

راموز عنوان الطبعة الثانية للكتاب، فيلادلفيا 1891

نُقيشة على الفولاذ تمثل مؤلف الكتاب، المغامر أ. لوكر

أو كما يطلق على نفسه بالإيطالية: مارابيلّو Marabello

قائمة المحتويات

I

في بومباي

الاستقبال الحار - التعرّف إلى السّنيور (P) - المعرفة القيّمة - الترتيب لرحلة معاً - التوجه إلى الخليج العربي - الباخرة پينانغ - الركاب المرافقين - أسراب الأسماك.

II

التجول حول مسقط

تفحّص الأرض - ميناء مسقط - تحية الباخرة البريدية - زيارة على الشاطئ - مفاجأة الجنود - تفحص المخزن - في السوق - فتيات جميلات - ركوب خنزير في الطريق - النوم على السطح - العودة إلى الباخرة - انتشار خبر موت الإمام - الجميع على متن السفينة.

III

الرّسو

إيصال البريد - السيد قاضي القضاة الأعلى - العاصفة العنيفة - إشارات الإنذار - الصمود على متن السفينة - المرور بالقلعة القديمة - لنجه - أحمر وأصفر - نساء جميلات - قراصنة - الغوص من أجل اللؤلؤ - الكفاح تحت الماء - على متن السفينة

مرة أخرى - رحلة قصيرة - في ميناء بوشهر - وحيداً على الشاطئ - رمي الأسلحة - مسكن الحاكم - الاختباء وراء التور.

IV

عبور الخليج إلى الكويت

الجنود المتضوّرون جوعاً - الباخرة البريدية الأولى - رجل عربي ثري - السكان المندهشون - الانفجار - منزل الشيخ - المجوهرات الثمينة - تفحص باخرتنا - تقديم السلام - الشربات التركية - تفريغ الممر اترك حذاءك قرب الباب وأبقِ قبعتك على رأسك - حسن الضيافة - المراكب - الحمير البيضاء كالثلج - عشاء على الطراز الشرقي - الغفوات المشوّشة - العودة إلى السفينة - زيارة إلى شط العرب - الجواميس المائية - على ضفة رملية - البَصرة.

V

عبيد المسلمين

منزل نخّاس عربي ـ السرداب ـ تخطى الاختبار ـ مواضيع مبهجة ـ الجمال ـ التسوّق ـ التهريب.

VI

الإبحار إلى بغداد

محمّد علي ـ السّيرناد ـ أخذ السلع المرسلة من مسافرينا ـ شجرة التين على الطريق ـ الضريبة ـ بلاد الرافدين ـ الحديثة ـ القرنة ـ حديقة عدن ـ تسلق الشجرة الشهيرة ـ على ضفة رملية ـ قبر العازر ـ ركاب جدد.

VII

حول بغداد

القناة ـ قنص البجع وبنات آوى ـ محطة الوقود ـ صيد الأسد ـ طرفة ـ الإبل ـ الحصول على الطعام ـ قافلة من البعيد ـ خيمة البدو ـ شماميا ـ إطلاق النار على الخنازير.

VIII

حول بغداد

على الأقدام ـ آثار طاق كسرى ـ طلقة ـ الصمم ـ القطاة ـ حديقة رائعة ـ القنطرة ـ التاريخ ـ صيد الجمال ـ رؤية بغداد.

IX

الإقامة في بغداد

الظهور - فن العمارة الشرقيّة - مشهد طبيعي - الرّسو - تخطي المهمة - الرشوة - الدّين الإسلامي - الجدران والخندق - الحصون - قصر الحاكم - عربة نامق باشا - تحريك الجدران - الشوارع الضيقة - الحرم - حماية النزلاء - الأقنعة.

X

المزيد عن بغداد والمنطقة المجاورة

تميز الطبقات - مقهى نموذجي - مراح الإبل - خمسون سنتاً في اليوم - بيع الماء

بالمناداة – قارب القفّة – الحياة الاجتماعية – الاستعداد لنزهة – مرشدنا – رؤية الغزلان – تدريب الصقر وكلب الصيد – قوس المدائن – خاصيات نساء بغداد.

XI

زيارة الأماكن التاريخية

عقرقوف – الجدار المتوسط – الأصل – نصب زُبيدة التذكاري – الحاجب المسن – مسجد الأعظميّة ـ الهلال الذهبي – (ترومبا) مردود الحدائق – زيارة من قبل سيدات الحريم – الحلّة الغامضة – زيارة ليلية إلى فندق منامة – بنات آوى – ملاحقة البدو – مَحوَل – استقبالنا – الدليل المذهول – الروابي – الوجبات الفخمة – مسكن الحاكم (المحافظ) – استحمام الجنود – النهار.

XII

العيش بخشونة

ندبة البلح – القراصنة – بئر نمرود – كربلاء – إنجاز بطولي في الفروسية – مطاردة مثيرة.

XIII

فصل قصير في المخيم

التحضير للرحلة – الصباح الباكر في المخيم – شراء الجواد العربي – نقل مجاني إلى الخليج العربي ـ في مأزق – قتل الضباع – القصبة – مغامرة – صيد الخنازير – في شقاء أليم – مهمة صعبة – مقابلة قطاع الطرق – قوة تحمّل الجواد العربي.

XIV

بالقرب من قرارة

زيـارة صـديـق قديـم ـ ريـاح الشـرقية بشـكـلٍ جـدّي ـ الضـوء الوامـض - هبوب العواصـف المطريّـة - الانفصـال عـن المخيـم - التحضيـرات لعبـور الصحـراء - القافلة الضخمـة - التحيّـز ضـد الرحـلات البحرية - غلّـة البـازارات - فاتورة - الاسـتئذان من الأصـدقاء بالانصراف.

XV

الابتعاد عن بغداد

عادات عربية ـ اختيار الحراس ـ الملكية المشتركة للجواد العربي - حارس مفرزتنا الشـخصية ـ قداسـة الجواد ـ القسـم ـ حسـن الوفادة البدوية ـ الفرمان الإمبراطوري ـ البريد الصحراوي الملكي إلى أورفة ـ مشـروع فرنسـي ـ هـودج التَّختروان ـ حدوات الخيول العربية.

XVI

التقدّم إلى الأمام

صـورة شـرقية ـ الإشـارة ـ أحمـر وأصفـر مـرّة أخـرى ـ تنظيـم المسـير ـ اقتراب الشـفق ـ المحطـة الأولـى ـ الخانجي الوسـنان ـ تحركات غامضـة ـ النّوم على السـطح ـ الزّهـوان - القبرصلـي - الأخبـار المفرحة ـ تحـدّث العربيـة ـ الفتاة الحبشـية ـ يومان في الحجـز ـ صحـراء اللـور ـ المسـار الخاطئ ـ خمسـون ألف جمـل ـ المتفرّجـون الغرباء ـ البقعة البيضاء المهلكة ـ فيليكس المخلص ـ كِفري ـ تجربة قاسـية ـ شـخصيات مشبوهة ـ حادث.

XVII

أطوار جديدة في السفر

إجراء جرد لأطراف البدن - مجروحاً ودامياً بشدة - فيليكس ينتظر - الإمساك به - حصاني مسروقاً - قف وصوّب - صرير الأسنان - شيءٌ مخيفٌ وشيك الحدوث - مشاهدة الموقع - فرار - تقفي أثر اللص - محاطاً - استسلم - استعادة فيليكس - خان Tholia - خطأ صغير - استراحة قصيرة.

XVIII

معالم شرقية

قلعة كركوك - الفرسان الأتراك - زوّارٌ عسكريون - الشمّام والفاكهة - صناعة النبيذ - فصول المطر - في المخيم.

XIX

بالقرب من أربيل التاريخية

المظهر الحالي - ذكريات قصيرة - قهوة - إنزال المخيم - نهر الزاب الأعلى - حوض النهر - جبال كردستان - الموصل على مرمى النظر - وادٍ جميل - في الموصل - الباشا المخادع - تاجر الموصل - آثار نينوى.

XX

المسير باتجاه الغرب

المظهر الحالي للقافلة - النّوم في الخان - النجاة بأعجوبة - خداع المتطفلين - مشهد

في الوادي الجبلي ـ زاخو ـ الجزيرة ـ مغامرة ـ الفارس الرحّالة.

XXI

حول نصيبين

العرب والضفادع ـ إلى الأمام ـ في نصيبين ـ اشتباك الكونت مع البدو ـ عامودِه ـ استقبال الشيخ لنا ـ لؤلؤة ـ جبل ماردين في البعيد.

XXII

على جبل ماردين

الأغنام المفقودة ـ جبل ماردين أخيراً ـ مشهد لسهول الجزيرة ـ تجربة شراء المؤن ـ مقابلة مع القائم مقام ـ القلعة ـ الجراد المحمّص ـ المُقطِّر الأرمني ـ المؤذّنون ـ هبوط الجبل ـ طلقة في المؤخرة.

XXIII

وادي الجزيرة

في قلب الوادي ـ الالتقاء بقافلةٍ جركسية ـ قرية متشابكة ـ خصوصيات ـ الهروب الجماعي للخيول ـ جنودٌ أتراك يحرسون مخيمنا ـ استخدامات عربة النقل الجركسية ـ الزي الأنثوي ـ الحياة المنزلية ـ إلى الأمام ثانيةً ـ الحصن القديم ـ سباق النعام ـ إطلاق النار على فيل عن طريق الخطأ.

XXIV

حول ديار بكر

قريــة الحَمَـام ـ Laird المــسكيـن ـ قلعـة حصن كيفا ـ عظمـة ديار بكر ـ القنصل الفرنـــي ـ دخــول القلعـــة ـ الخـان ـ إغـلاق البـوابـات في الليـل ـ مقـرّ القـنصلية ـ التسلية في المــاء ـ ديار بكر مع ضـوء القمر ـ إعلان اقتراب النهار ـ الـسوق الشرقي ـ المجنون.

XXV

قرا آمِد

آميـدا Amida القديمـة - جلد وحرير - رقصـة دينية - مواصلـة رحلتنا - الجبال - البريـد التركي - تسـلّق الجبال - التخيـم بين الأكـراد المتنقّلين - الزعيم الكردي - توزيع الهدايا - الوداع يا قرا آمِد Kara Amid .

XXVI

عبر الجبال

الاكتشـاف - التحرّي - كروم العنب في سـويريك - النبيذ الشـرقي - في المخيم لقضاء الليل - انهيار المدينة - التركي المتعاظم - في الطريق إلى بيرِه جيك - مرشدنا الجديـد - أورديـك - لوحة جميلة - طلب المنامة - اسـتراحة قصيـرة - أبناء البلد - أهمية موقع المدينة - قارب المعدّية.

XXVII

في قلب الوادي

القبطـان - مواقع قتال تاريخية - الجـزّ المبتكر لصوف الأغنام - ليلة من الرّاحة - إلى الأمام ثانيةً - الالتقاء بموكبٍ غريبٍ - تحويل العربي عن مجراه - الوشم - عمل نساء البلد.

XXVIII

في طريقنا إلى حلب

الصحـراء - القافلـة الأرمنية - الوادي الخصب الجميل - نهر حلب - حلب في البعيد - مقبرة إسلاميّة - مدخل مدينة حلب - استقبالنا في القنصلية - العشاء المترف - الهجوم على قافلة الكونت - تائه في حلب - تشابه الشوارع - حطام - القناة - المئذنة.

XXIX

في حلب

زيارة القلعة - الحارس - قوّة الحصن - منظر الحدائق - عرض عسكري - ورشات العمل والمستودعات - تجارنا الحلبيون - أزياء أوروبية - نساء حلبيّات - وسيلة استحمامهم - التحضير لمواصلة الرحلة - حادثتنا المضحكة - مرشدنا فائق الجمال.

XXX

مشاهد منوّعة وأحداث

التقدّم إلى الأمام بنشاط - سباق - الغزال الوحيد - التاريخ العاطفي للهبوط -

قافلة تجارية ـ بستان الفاكهة المهجور ـ التخيم في القرية ـ مبلّلين ـ وادي عفرين ـ التهول ـ البيضا ـ الستاحين ـ ضيعة غريبة ـ أشخاص غريبو الأطوار ـ الحراسة ليلاً.

XXXI

الاقتراب من الهدف

رجال المراقبة ـ حجرة التعذيب ـ فقدان الممتلكات ـ قرا صو ـ الإفجيج الرائع ـ المتوسط يلوح في البعيد ـ الممر الضيق ـ المرور تحت الشلالات المتواثبة ـ بيلان العذبة ـ الخان الخصوصي ـ جولة في الطريق ـ التسليم.

XXXII

نهاية رحلتنا

ليلتنا الأخيرة في الخارج ـ الحلوى ـ المنحدر الضيق ـ العاصفة ـ عبر البوابة ـ تسليم البضائع ـ التاجر اليوناني الأنيس ـ ليلةٌ لا تنسى ـ أشياء مألوفة في الجمارك ـ الباخرة البريدية ـ وداعاً يا موطن الإسلام.

* * *

قائمة الرسوم التوضيحية

1. المؤلف «مارابيلّو» Marabello
2. تفحص الأسلحة الإنكليزية الفرديّة المستوردة
3. طريقة مبتكرة لعبور نهر دجلة
4. شاه الفرس
5. زيارة شجرة التين التاريخية
6. منزل الوالي في بغداد
7. بعد الغداء في مقهى بغداد
8. التخييم في ظلال سور «المدائن»
9. جنازة في طريقها إلى كربلاء
10. مغامرة صيد الخنازير بالطعن في جزيرة العرب
11. القتال مع البدو
12. البريد التركي الملكي والحراس
13. طب الأسنان على أديم السّهول
14. إزعاج منتصف الليل
15. سلطان تركية

مقدمة

إن مؤلف هذه الصفحات - وهي وصف لقصةٍ ممتعة - أنجز تلك الرحلة برفقة ملحقٍ بالحكومة الفرنسية مع مرافقين وحراس تم اختيارهم من بين أهالي البلاد التي مرّوا بها أثناء مسيرتههم من بومباي نقطة البداية حتى وصولهم إلى القسطنطينية (إسطنبول) نقطة نهاية تلك الرحلة.

نلاحظ أن وصف الأشياء والعادات والتقاليد الخاصة بالناس والمغامرات والحوادث المضحكة كانت بكاملها من ملاحظات الكاتب وتجاربه الشخصية، وليس للوصف أيّة علاقة بأي كتاب تم طرحه مسبقاً ويتناول موضوعاً مماثلاً، والرسوم التوضيحية التي نراها ضمن الكتاب ليست إلا رسوماً من نتاج القلم الأصلي للكاتب حاول فيها تسليط الضوء على بعض المواقف، وتصف بصدق حقيقة الواقع المتراجع في جزيرة العرب.

بينما كانت القافلة تخيّم في بعض المناطق بين الحين والآخر كانت تتاح للكاتب فرص استثنائية للذهاب في جولات استكشافية وفي مغامرات مع البدو الذين كانوا على علم ودراية بصحارى بلاد فارس والعرب. وكما ترمي الشمس المشرقة بأشعتها المتدفقة فوق الأفق الشرقي ثم يمرّ اليوم ليغدو أكثر ظلمة وحلكة، هكذا كانت حركة التقدم والتنوير وشعارات النشاط الفكري ترمي بخيوطها نحو النصف الغربي من العالم تاركة بشكل جلي بلاد الشرق مهد العائلة البشرية في موقف ثابت غير قابل للتغيير!

الناشرون

الفصل الأول

في بومباي

الاستقبال الحار - التعرّف إلى السّنيور (P) - المعرفة القيّمة - الترتيب لرحلة معاً - التوجه إلى الخليج العربي - الباخرة پينانغ - الركاب المرافقين - أسراب الأسماك.

في صباح الأول من مارس [عام 1868] وصلت إلى بومباي من رحلة صيد في أدغال وغابات كانديش Candeish وناغپور Nagpoor حيث استمتعت برفقة ضابطين في الجيش الهندي - ولعدة أسابيع - بالرياضة الرائعة في مطاردة جميع أنواع الطرائد تقريباً التي كانت الهند الداخلية قد تشتهر بها.

استقبلني أصدقائي في بومباي بمودّة خاصة مميزة وخاصة بالمبعوثين الأوروپيين في الهند. إنها في الحقيقة مودّة لم أشهد لها مثيلاً في رحلاتي السابقة إلى مناطق أخرى، وكان الإحباط قد ظهر جلياً عليهم عندما أخبرتهم أنني مجبر على الرحيل على متن الباخرة البريدية الى جزيرة العرب والخليج العربي، وأن رحيلي سيكون في الثالث من مارس. وفي ذلك اليوم قرروا الذهاب في رحلة الى كهوف الفانتا الواسعة الشهرة، ولسوء الحظ لم تكن هناك أية باخرة أخرى متجهة من بومباي إلى جزيرة العرب حتى نهاية الشهر القادم.

وكما بقيت وقتاً أطول مما نويت في بلاد الهند، كان من الضروري أن أغادر في الثالث من مارس.

في يوم وصولي كنت قد تعرفت الى صديقي السِّنيور[1] (P) – وهو سيّد إيطالي – الذي بدوره بعد الإجراءات التمهيدية لمعرفتنا الجديدة ببعضنا أخبرني أنه سيكون مرافقاً لي في رحلتي وأنه عازم على زيارة جزيرة العرب وبلاد الرافدين بهدف شراء مجموعة من الخيول العربية الأصيلة لناپليون الثالث إمبراطور فرنسا. كان صديقي يحمل عدداً من رسائل التقديم الهامة، وكان دون شك له شأن كبير في تلك البلاد الأجنبية المعروفة، ومنذ بداية معرفتي به كان يفوز بمحبة كل من عرفه في بومباي، رغم أنه وصل إلى هناك من السويس في مصر قبل وصولي بعدة أيام فقط.

عندما علم السِّنيور (P) أن السيد (W) صهري، هو تاجر أوروبي في بغداد، أخبرني أنه سيعتمد على ذلك الرجل، وعبّر بطريقة مهذبة خاصة بالإيطاليين عن سعادته بمعرفتي، ثم اقترح عندما بدات رحلته البحرية على متن سفينة الثالث من مارس أن نترافق معاً في رحلتنا، وكان اقتراحاً قبلته بكل سرور؛ حيث إن السفر برفقة السادة النبلاء وخاصة في بلدان غير متحضرة كشبه جزيرة العرب وبلاد الرافدين كان دائماً مستحباً أكثر من السفر وحيداً، لذلك كان مقدار سعادتي يوازي مقدار واجبي نحوه؛ إذ كان ينبغي أن أساعده في تدبر أمور بعض الأشياء الضرورية والتي كانت عبارة عن خيمة هندية صغيرة، سرج انكليزي، دستة من اللجم، غطاءات للخيول، أغطية للركب، أسلحة نارية، مؤن حربية، أدوية وغير ذلك. كان يتوجب عليَّ أن أكون شخصاً مفيداً جداً بالنسبة له في صفقته، لأنه لم يكن على علم بالإنكليزية، وكذلك الأمر بالنسبة للهندية، وكان أيضا غريباً عن بومباي بينما كنت قد قضيت مدة ثلاث سنوات هناك.

في الصباح التالي توجهنا نحو رصيف مازيغون Mazegon لنودع المشاركين في

(1) نترجم العبارة إلى سِنيور بدلاً من سنيورِه لأن عبارة سِنيورِه في الإيطاليّة Signore تستخدم لدى مخاطبة الشخص: يا سيّد! أما عند الحديث عنه بصيغة الغائب تصبح العبارة: سِنيور Signor، وهي هكذا تشبه العبارة الإسپانية: Señor. أمّا اسم هذا السّنيور فهو كما تبيّن لنا: پيترو Pietro. وأما الإمبراطور ناپوليون الثالث فقد حكم فرنسا بين 1852–1870 وتخلّى عن منصبه عام 1870 بهزيمة الجيش الفرنسي المذلّة في سيدان أمام الألمان. أما السبب الذي جعل لوكر يخفي أسماء شخصيات كتابه تحت الحرف الأول فهو أمر غريب ولا داعي له.

النزهة ونتمنى لهم يوماً بهيجاً، كان عددهم حوالي عشرين سيداً وسيدة مزودين بقارب كامل مليء بالمقبلات والمشروبات. حالما غادر القارب الذي ضم تلك الجماعة المبتهجة عدنا بسرعة الى شارع ميدو، وفي تمام الثانية بعد الظهر وصلنا بعربتنا بأمان، وكنا على متن السفينة (پينانغ) "Penang" لنبدأ رحلتنا باتجاه الخليج العربي. بعد نصف ساعة من الفراغ أبحرنا خارج المرفأ وشقت پينانغ طريقها عبر غابة من السفن والقوارب مختلفة الأوصاف والجنسيات.

كان لدي بالكاد الوقت لألقي نظرة وداع على تلك المدينة الواسعة، النشيطة والممتعة حيث قضيت بعض أمتع سنيّ حياتي، وبالكاد كان لدي الوقت لأنظر مرة أخيرة إلى تلك الجزر الجميلة (سالسيت Salsette، إليفانتا Elephanta، وكاريندجا Carindja) بنباتاتها الاستوائية الرائعة، وتلالها الجميلة المكسوة بأعداد لا تحصى من أشجار جوز الهند والنخيل وأشجار البانيان وغيرها من الأشجار البالغة الضخامة والصبّار ذي الحجم العملاق، حيث تذوّقت لأول مرة طعم الحياة المستقلة للصياد، وذلك عندما مررنا ببيت كولوبا المضيء واجتزنا مياه آزور العميقة في المحيط الهندي. بالعودة من مشهد خيالي ليس له مثيل توجه اهتمامنا فجأة نحو منظر أجبرنا على تذكر المخاطر التي قد تواجهنا؛ فعلى بضع مئات من الياردات أمامنا استطعنا رؤية سفينتين مشغولتين بتفحّص سفينة كانت قد غادرت المرفأ قبل ثلاثة أيام في جو هادئ جداً وجميل كما نحن الآن، ولكن فجأة وفي سحابة من الغموض غرقت بعمق أربعين قدماً من المياه.

هناك كانت تتوضع تلك السفينة الضخمة بصواريها وأعمدتها، تلوح كالهيكل العظمي الخارج من المياه، وكأنها خرجت لتحتج ضد اللعبة القذرة التي تسببت بدمارها، وكان قبطان السفينة قد أدين بخرقها.

ذات مرة كنا خارج حجراتنا وكان لدينا متسع من الوقت لتفحّص زملائنا المسافرين، كان المشهد فضولياً وممتعاً في آن معاً. السفينة كانت عبارة عن مركب كبير يزن ثمانمئة طن محتشداً بحمولة بشرية متنوعة الأجناس، ولكن بجانبي أنا والسّنيور (P) كان هناك

شخص أوروبي واحد من ضمن ممثلي العديد من الجنسيات، وقد أكد أنه شاب كاهن من بلجيكا، عاش وعمل بجد وسرور لعدة سنوات في كولومبو - وهو ميناء ذو أهمية كبيرة على الساحل الشمالي الغربي من جزيرة سيلان - حيث عمل هناك كمبشّر وهو الآن في طريق عودته إلى وطنه الأم. من بين كل ذلك الحشد قررت أن أتخذه رفيقاً إلى جانب السّنيور (P) صديقي الجديد من بومباي. على طاولة العشاء دخلنا في محادثة مع الشاب المبشّر الذي سرعان ما أثبت لنا ذكاءه وعقله المتحرر، وأنه صديق مرح وخفيف الدم، وقد التمس فور معرفته أننا عائدون إلى أوروبا معاً إمكانية كونه العضو الثالث في مجموعتنا في تلك الرحلة، وكان طلبه مجاباً حتماً.

أما الحشد الباقي من المسافرين فقد تألف معظمه من مسلمين وبعض الفرس وبعض الأفغان، ولكن القسم الأكبر كان من سكان ساحل جزيرة العرب الذين كانت لديهم علاقات عمل في الهند، وعدد قليل جداً من الهنود من ضمن هذا التجمع، وكانت هناك طبقة متحجرة مغامرة وجريئة تدعى (الماروارين)، وفي بلدي الأم يوجد نموج شبيه بهذه الطبقة بين اليهود، إن أعظم المخاطر وأكبر المصاعب لا تثنيهم عن متابعة أعمالهم، ويملكون جميع مميزات التجارة الخاصة بجنسهم العبري.

وكدليل على ذلك أود فقط أن أشير إلى الثروة الضخمة التي تبلغ 70,000,000 روبية، أي ما يساوي 35,000,000 $ من الذهب، والتي تم جمعها من قبل السيد برامشوند رويشوند Bramchund Roychund في زمن وجيز لا يصدق؛ فقط ثلاث سنوات. إنه سيد من المارواري في بومباي بدأحياته بمبلغ 2.50 $ ومقدار غير محدود من التأمين، وخلال فترة انتشار الأسهم بكثرة في بومباي والذي كانت نتيجته هزّ وضعضعة أساسات التجارة حتى الجذور منذ عام 1803 حتى 1805، وبينما كان المحيط العام بأكمله عبارة عن فوضى ودمار اقتصادي كان ذلك المارواري المتطلع إلى البعيد يجمع ثروة بمعدل 32,000 $ يومياً. هكذا كان معنى أن تصبح ثرياً لدرجة ترضي نزعة حب الأموال وتجميعها حتى عند أكثر المضاربين الأمير كيين دهاءً.

على نقيض ذلك دعونا نلقي لمحةً ولو لدقيقةٍ واحدة على الرجل الأفغاني الجليل

والمتجهّم بينما كان يمرّ عبر الحشد بسكون محاولاً جذب الانتباه إلى مظهره ووقفته المهيبين، مربتاً بلطفٍ على لحيته السوداء الحريرية، وكم هو غريبٌ التناقض بين طريقته الخاصة في القيام بعمله وطريقة ذاك الماروراي الذي لا يهدأ أبداً. فبينما - بالنسبة للآخر - لا يبدو أي مقدار من المتاعب والكد عظيماً مقابل بلوغ أهدافه حتى يجني ثمرة أعماله، يزدري الأوّل كافة مظاهر التلهّف على شيءٍ ما؛ فينتظر بكل تكبّرٍ وخيلاء من الزبون أن يأتي إليه، ظناً منه أنه من غير اللائق بالنسبة لوقاره أن يبادر هو بالخطوة الأولى.

كانت السفينة تعجّ بالحمولة بشكل مزعج، ولم تكن وسائل الراحة متوفرة في تلك الرحلة على الإطلاق؛ حيث اضطر العاملون على متن السفينة إلى النوم على الأرضية مستخدمين عوضاً عن الوسائد أطرى البضائع التي أمكنهم إيجادها، كحزم القيود الحديدية والبراميل وصناديق السكّر، وكانت حقوق مسافري الحجرات مهملة تماماً من قبل الكابتن الذي كان اسكتلندي الأصل، وقد وجد أن الأوروبيين كانوا أقلّية جداً بين الركاب، وقد كان حدثاً هاماً إذا وجد من ضمن هذا الحشد ركّاباً أصلاً.

لذا تعهّد بوضع سطح مؤخرة السفينة تحت تصرف المسلمين للقيام بنشاطاتهم الدينية وصلواتهم التي يقومون بها خمس مرات يومياً، وهي صلوات لها قداسة من نوع خاص عندهم، وكان ذلك إمّا مراعاةً للمشاعر الدينية لركابه المسلمين أو أنه ـ وهو الاحتمال الأرجح ـ أخذ بعين الاعتبار استقبالهم ومعاملتهم الجيدة لنا في المستقبل. خلال الرحلة التي كانت مستساغة جداً، مررنا بعدة سفنٍ ومراكب عربية تدعى البغلات "Bagalows" تتجه نحو موانئ الخليج العربي والهند، كانت تلك المراكب تتراوح في الثقل ما بين 50 إلى 200 طن، محمّلة بالتمور والقهوة والقمح والصوف... وغير ذلك.

أما أفراد طواقم تلك المراكب فقد كانوا بزي (جنّة عدن) أو بالأحرى بحاجة إلى زيّ كما كان الأمر في جنّة عدن، وحتى الكابتن لم يُستثنَ من ذلك.

وتألفت معظم الطواقم من زنوجٍ صوماليين وزنجباريين بدا جلياً أنهم أصحاب

بنىً جسدية قوية وعضلاتٍ مفتولة، وقد قام النخاسون بإحضارهم إلى جزيرة العرب. عندما أصبحنا على مقربة مئة ميل من الشواطئ العربية، أصبح البحر يعجّ بأفواج الأسماك الضخمة، وكنا بكل معنى الكلمة نشقّ طريقنا عبر سكان الأعماق الزعنفيين. في حياتي كلها لا أذكر أنني شاهدت كتلة ضخمة من الأسماك كتلك التي رأيتها قرب الساحل الشرقي للجزيرة العربية.

* * *

الفصل الثاني

التجول حول مسقط

تفحّص الأرض - ميناء مسقط - تحية الباخرة البريدية - زيارة على الشاطئ - مفاجأة الجنود - تفّحص المخزن - في السوق - فتيات جميلات - ركوب خنزير في الطريق - النوم على السطح - العودة إلى الباخرة - انتشار خبر موت الإمام - الجميع على متن السفينة.

عند الشروق في صباح 8 مارس استطعنا مشاهدة رأس الحدّ - رأس الصخور - من جهة الجانب الأمامي للسفينة وهو أول نقطة يابسة استطعنا رؤيتها عند اقترابنا من الشرق، ولكن تلك اليابسة كانت بعيدة كل البعد عن مظاهر المرح والتفاؤل.

وعلى طول الشاطئ بدت الأرض قاحلة وعقيمة، وفي الأماكن الخلفية كانت هناك مساحة واسعة من التلال الجرداء الصلبة، ذات مسحة صفراء محمرّة، لم تتخللها أدنى بوادر الحياة أو الخصوبة، وبقدر ما أمكننا رؤيته كان الشاطئ بكامله غير مأهول. ساعتان أو ثلاث ساعات أُخر من الإبحار وضعت رأس الخيران Râs Hairan في مرمى أنظارنا - وهو قمة جبلية صخرية ذات ارتفاع شاهق تدخل في البحر وتنحدر إليه بشدة لتشكل بوقفتها تلك الحد الشمالي لمدخل الميناء - عند عبور هذا الرأس ظهر أمامنا حائط طبيعي ذو ارتفاع هائل يبلغ حوالي 250 قدماً في الطول متشكلاً من الصخور الضخمة التي بدت المدينة كأنها غرست بينها بشكل منتظم، وتلك الصخور تشكل الحد الطبيعي لجانبي الميناء الضيق والعميق، وكان من أكثر المشاهد متعة

في العالم، عندئذٍ استطعنا رؤية صف كثيف من البيوت الحجرية الكبيرة المنتصبة على طول الشاطئ في قلب الصخور التي تشكل حدود الميناء، وكان البناء الأكثر وضوحاً من بين الأبنية مكوناً من ثلاثة أو أربعة طوابق وقد أصبح مكاناً لإقامة الإمام أو السلطان وحريمه وعائلته.

على يمين المبنى السابق لاحظنا مبنىً مؤلفاً من طابقين فيه حديقة جميلة جداً يسكنه القنصل الإنكليزي والمندوب السّامي - وهم السكان الأوروبيون الوحيدون في مسقط - ومع مرور الوقت اقتربنا أكثر واستطعنا أن نستكشف كل صخرة وكل تلّة بين تلك الصخور الضخمة المنتصبة فوق الميناء، فرأينا حصوناً صغيرة بدا واضحاً أنها بُنيت بهدف حماية المدنية، وأن سكان تلك المدينة لم يوفروا أيّ جهد أو إبداع في إشادة تلك القلاع العديدة فوق قمم ذات ارتفاعات شاهقة محاولين بذلك زيادة منعة الموقع المحصن طبيعياً وبشكل كامل تقريباً. على الرغم من أن إنجاز هذا العمل متعذّر تقريباً من قبل الإنسان لكن على المرء الاعتراف بأن بناء تلك الحصون بدا أنه ليس منيعاً ضد المدفعية الحديثة؛ حيث إن ضربة واحدة منها كفيلة تماماً بإلحاق الدّمار الكامل بأي من تلك التحصينات سريعة الانهيار، والتي لا نستطيع الاعتزاز بجودة بنائها، وظهر جلياً أنها بنيت لهدف تنفير الغزاة أكثر من هدف التسبب لهم بالأذية.

عند وصولنا إلى منتصف الميناء دوّت التحية المعتادة للسفينة البريدية، محدثة صدى تردّد ست مرات مع دويّ مرعب فعلاً بين تلك المنحدرات الجاسئة، ولم تلبث المرساة تحط في قعر البحر حتى كنا محاطين بفوج من البلام (جمع بَلَم) - نوع من القوارب الصغيرة تبلغ حوالي 20 قدماً في الطول واثنين في العرض - لها نهايات طويلة وحادة وقد تمّ تجويفها من جذوع الأشجار، كل زورق يحمل اثنين من العرب أو الزنوج، وجميعهم يرغبون ببيعنا فاكهة وسمكاً أو يريدون نقلنا إلى الشاطئ.

وبينما كان قارب السفينة الكبير غير مستعدّ بعد للانطلاق، امتلأت أمامنا تلك القوارب فلم يكن لدينا بديل سوى أن نعرّض أرواحنا للخطر في واحد من تلك المراكب غير الآمنة التي لم تكن قواعدها مسطحة حتى، وأقل حركة أو تغيير في

الوضعية ونحن بداخلها ستكون كافية لتسبب انقلاب المركب، ولكن بما أنّ البحر كان مليئاً بأسماك القرش فقد كنا أشدّ حرصاً على البقاء في سكون كلي حتى وصلنا إلى الشاطئ، ولحسن الحظ، دون أية حوادث.

إن أول انطباعٍ بدا علينا في شاطئ مسقط أتى عبر حاسة الشم، التي أُطبق عليها بشكلٍ كريه ودونَ مهرب برائحة لا تشبه أبداً رائحة العطور العربية التي كم سبق لنا أن سمعنا وقرأنا عنها في القصص الخيالية وألف ليلة وليلة، وكشفت لنا تحرياتنا الفورية عن وجود غير مستحب لأعداد لا تحصى من رؤوس الأسماك التي تتراوح في الحجم ما بين حجم حبة الفراولة وحجم رأس العجل. انتشرت تلك الرؤوس على امتداد الشاطئ بمختلف مراحل التفسخ والتحلل التي تمر بها، مطلقة تلك الرائحة المزعجة المذكورة. بدا أنّ السكان المحليين كانوا معتادين كل الاعتياد على أنواع كتلك من الروائح وأنهم على وشك أن يحبّوها؛ إذ على الأقل كانوا يستطيعون مواصلة التحدث لساعات دون اكتراثٍ لوجودهم بجوار تلك الفضلات المقززة. لم نكد نصحو من صدمة حاسة الشمّ تلك حتى كنا محاطين بأعداد هائلة من السكان الذين بدوا مندهشين بعدم اكتراثنا أو باستهتارنا في المغامرة في التجوّل بينهم دون سلاح.

كان حقاً مشهداً خيالياً؛ فالأوروبيون عادةً لا يذهبون إلى مسقط وإذا كانوا مجبرين في حالاتٍ نادرة فإنهم يذهبون إلى الشاطئ مفضّلين بسبب السلوك الطبيعي المتأصل وعادات السكان البقاء على مسافة بعيدة حذراً منهم. وبالدفع والدخول عنوةً عبر الحشد مشينا نحو شارع الأبنية المذكور بأنه أول شيء استطعنا رؤيته عندما دخلنا الميناء، ووجدنا أن تلك الأبنية تشكل القسم الرئيسي من المدينة. كانت عبارة عن بيوت حجرية كبيرة وعالية مبنية حسب الطراز العربي، لها أسطح مستوية والقليل فقط من النوافذ، أكبرها منزل الإمام الذي كان آنذاك غائباً في حملة ضد العرب المعادين في منطقة الحَسَا (الأحساء) أو كما تسمّى: هَجر El Hadjar الواقعة على خط الحدود الشمالي الغربي، والذين كانوا يقومون بغاراتٍ على منطقة الإمام. إلى يسار هذا البناء وبنفس حجمه تقريباً يوجد بناء آخر يشغله (الحرم) أو مسكن نساء الإمام. كانت جميع

نوافذ البناء مغطاة بالحديد المزخرف بدقة بتعريشات كثيفة، وبذلك يكون الحديد فعالاً في منع أولئك الناس في الخارج من اختلاس أي نظرة نحو النزلاء في الداخل.

كان البناءان كلاهما محروسين جيداً من قبل عدّة جنود بدوا - إذا قمنا بإطلاق مصطلح محترم جداً - مجموعة من أشعث وأكدر الشّذّاذ والسّفاحين الذين كانت رؤيتهم من نصيبي، يتمدّدون بكسل على الأدراج وفي زوايا وأركان البيوت، بعضهم يلعب النرد أو غيرها من الألعاب. جميعهم يرتدون اللباس العربي المعتاد وقد تزوّد كل منهم بترسانة خاصة على جسده، كانت عبارة عن بندقية ومسدسين أو ثلاثة مسدسات وسيف وعدة خناجر، وعند مرورنا بهم راحوا يحدّقون نحونا بفتور.

إلى يمين مسكن السلطان يقع مسكن القنصل البريطاني، الذي يقال إنه على علاقةٍ جيدة جداً بالإمام، وقد كان المنزل الذي يسكنه القنصل دون شك أنظف منزل في مدينة مسقط بأسرها، وهذا اعترافٌ أؤكد أنني لا أبالغ فيه على الإطلاق. بعد ذلك تقدمنا إلى ترسانة الإمام الخاصة التي تقع على بعد بضع مئات من الياردات عن منزله، وفي طريقنا إليه عادت أنوفنا مرة أخرى لتستمتع بالرائحة، ولكن هذه المرة كان عطراً جديداً منبعثاً من ذلك الحيوان الذي - كما هو متعارف عليه - يفترض به أنه لا يموت أبداً، كانا حماربن ميتين، وعلى الأرجح أنهما قد أنهيا مهمتهما الدنيوية منذ عدة أسابيع مضت.

وصلنا إلى مستودع الأسلحة - مظهر بائس جداً بالنسبة لمستودع ذخيرة حرب، إذ إنّ البناء كان في السابق نُـزُلاً أو مأوى للقوافل العابرة - وكان عبارةً عن بناءٍ مربع يتألف فقط من أربعة جدران مجرّدة وفناءٍ في الوسط، ويحتل البناء مساحةً تبلغ 200 قدم مربع تقريباً.

عند دخولنا تفاجأنا بظهور اثنين من الحرس الأقوياء المظهر على جانبي البوابة، وقد تزامن ظهورهما مع مجيئنا، وكان لهما نفس هيئة الجنود المتمركزين عند قصر الإمام. بدا أن دهشتهم لم تكن أقل من مفاجأتنا، وذلك عند رؤيتهم (للفرنجة) - الاسم الذي يطلقه السكان على جميع الأوروبيين - فمن الواضح أنهم اعتبرونا أشخاصاً من

ذوي أهميـة عظيمة، ولا شـك أن ذلك بسـبب المظهـر الجليل للسّـنيور (P) الذي لم يخفق جسـده الطويل ومشيته العسـكرية المتميّزة بقامته النبيلة، وشعره ولحيته وشاربه البيض كالثلج في فرض احترامه، وخاصة الشعر الأبيض المهيب ليس بالنسبة للعرب فقط وإنما لكافة المسلمين. لقد اعتاد السّنيور (P) أن يرتدي بأناقة فائقة القبعة التركية أو (الطربـوش) كما يسـميه العرب، هذه القبعـة الصوفية المخروطيـة القرمزية اللون، ذات الشـرّابةِ الزرقاء الطويلة التي يرتديها جنود المشـاة الفرنسـيون، ولا شـك أن هذا ما جعل الحرس يعتقدون أنه مسـؤول تركيٌّ ذو شـأنٍ كبير؛ حيث إننا لم نمرّ إلى الباحة دون أية إزعاجات فقط؛ إنما في الواقع قدّموا أسلحتهم احتراماً وتقديراً لنا عند دخولنا إلى المخزن.

تفحص الأسلحة الإنكليزية الفردية المستوردة

كان هناك عدد كبير من الأسلحة الحديدية والنحاسية الإنكليزية والبرتغالية والتركية والعربية وحتى هندية الصنع، بعضها مرمي في الباحة الخارجية، نصف مدفون بالغبار، والبعض الآخر كان مرفوعاً فوق عربات متضعضعة بائسة المظهر، مجرّدة تماماً من الطلاء وكانت مرابطها الحديدية متحاتّة بفعل الزمن. في الواقع قدمت لنا العديد من العربات مشهداً مسلياً ومضحكاً؛ حيث كانت بدائية الصنع للغاية، تقف على عجلات مصنوعة من كتل خشبية صلبة، تم قطعها بشكلٍ عرضي من شجرةٍ ضخمةٍ ومتينة، ولها تجويف أسطواني واحد في الوسط من أجل محور العجلة وطارة حديدية صلبة تلتف حول العجلات.

إذا استثنينا ثلاثة أو أربعة أسلحة نارية إنكليزية مقدمة منذ عدة سنوات من الحكومة الإنكليزية إلى الإمام - وهي أسلحة لم تكن من الطراز الحديث على الإطلاق كونها أسلحة سفن قديمة وغير مصقولة - كانت كل المدافع الموجودة لدى الإمام - كما دلّ هيكلها المتآكل - قديمة وأثرية إلى أبعد الحدود، وأنا شخصياً لا أضمن أنها آمنة إذا وضعت قيد التجريب، ولا أستسيغ على الإطلاق فكرة الوقوف على مسافة عشر ياردات منها إذا تم اطلاق النار من إحداها، كان قسم الأسلحة الصغيرة أيضاً في حالةٍ سيئةٍ للغاية، وفي الحقيقة لم نتمكن من رؤية شيء سوى كومة من سَبَطانات[1] البنادق القديمة الصدئة محزنة المظهر والتي تنقصها هياكلها، وهياكل تنقصها سَبَطاناتها ويختلط معها هنا وهناك نصل سيف دون قبضته وقبضةٌ دون نصلها، وحرباتٌ متكسرة ومرمية في زاوية البناء، إنه ركامٌ من الحديد القديم أضحى ملاذاً رئيسياً للنمل والسّحالي والجرذان والأفاعي، وقد استطعنا رؤية أعداد هائلة من النوعين الأولين تستمتع بالمسير على طول السّبَطانات والزحف إليها عبر الفوهات، مقدمة بذلك مثالاً

---

(1) أستخدم هذا التعبير لترجمة كلمة Barrel في الأسلحة النّاريّة، لأنها أصح من: ماسورة، أو أسطوانة، على الرّغم من عدم إدراجها في القاموس الوسيط. فالماسورة أو الأسطوانة تعنيان ألف معنى ومعنى لأي تكوين أسطواني الشكل، معدني أو غير معدني، أمّا السّبَطانة فلا تعني إلا ما يخصّ السّلاح النّاري وحسب. وهي في الألمانيّة: Lauf وفي الفرنسيّة: Canon وفي التركيّة: Namlu.

حياً على التعايش المشترك بينها وبين الحديد القديم، وتعرض للناظرين في لوحةٍ واحدة علامات الحرب والسلم معاً. كانت كل المعدّات الحربية الجيدة في الميدان كما قال الحرّاس؛ حيث إن الإمام كان قد فتش ترسانته جيداً بهدف إيجادها قبل ذهابه إلى الحرب مع بدو الحدود المزعجين.

غادرنا مخزن جلالته الملكي بعد أن كنا مقتنعين تماماً بقدرات الإمام القتالية، وعدنا باتجاه (البازار)[1] أي السوق، أو - إذا صح القول - جزء المدينة الذي توجد فيه أكشاك التجار والبائعين وجميع ضروريات الحياة، وكذلك ورشات عمل كافة الحرفيين ابتداءً من المجوهرات نزولاً إلى ورشة شحذ المقصّات، باختصار: هناك حيث تمارس جميع الأعمال والمهن في هذا البلد.

إنه بطبيعة الحال المكان الأكثر نشاطاً وازدحاماً بالسكان في كافة المدن الشرقية وبالتالي إنه المكان الأكثر متعة بالنسبة للغرباء. لكل مدينة غرب آسيوية بازارها الخاص تقريباً؛ حيث يمكنك رؤية صف طويل من محلّات الصاغة التي يكون أصحابها والعاملون فيها منهمكين بجدٍ بصناعة الذهب المخرّم والخلاخيل، والأساور والسلاسل والأقراط وحلقات الأنف والخواتم، أو تراهم مشغولين بوضع اللآلئ والأحجار الثمينة فوق هذه الحلي. انظر إلى هذين البدويين الرثين والقذرين اللذين يبدوان سفاحين بمظهرهما، أتيا إلى المدينة من البادية ليشتريا أو - على الأرجح - ليسرقا شيئاً ما، وها هما يحدقان بجشع بالحلي المزينة بترف بالأحجار الثمينة، يريدان أخذ ما لا يستطيعان دفع ثمنه ولا حتى لمسه، ثم ينسلّان هاربين، إذ إنّ تلك المجوهرات كانت معروضة في صندوق عرضٍ حديدي، مثبت جيداً في الكشك يبدو وكأنه قفص عصفورٍ مربع، أو مصيدةُ جرذٍ ذات شباكٍ حديديةٍ قوية، لا أحد يستطيع فتحه سوى الصائغ الذي يمتلك مفتاحه.

دعونا نختلس النظر إلى هؤلاء العربيات الجميلات الثلاث، ولسوء الحظ، نستطيع

---

(1) البازار لفظة عُرّبت وانتقلت من العربيّة إلى لغات أوروبا لوصف أسواق مدن الشرق. وأصل الكلمة فارسي (بازار) دخل التركيّة أيضاً: Pazar.

فقـط الافتـراض أنهن صـغيرات العمـر؛ حيث كانـت ملامحهن مغطاة جيـداً بنوع من (الإشارب)[1] أو الملاءات المصنوعة من الحرير الأحمر أو الأسود، كتلك التي تلبسها فتيـات الدّوميـنو فـي الحفلات التنكرية في بلدي الأم، ولكـن دعونا نحكم عليهنّ عن طريـق هيئاتهن المتصبة وخطواتهن المرنة وأعضائهـن المصقولة التي يمكن تمييزها بوضوح بالرغم من عباءاتهن الطويلة المبهرجة والملونة التي تغطيهن من الرأس حتى القدم. دعونا نستمد حكمنا أيضاً من نظرات أعينهنّ السوداء الكبيرة التي تبرق بنظرات سـاحرة ومتوهجة من بين الرّموش الطويلة الرائعة، ذقونهن الجميلة، والشفاه الياقوتية التي تكشـف عند الابتسـام عن مجموعة من الأسـنان اللؤلؤية الصغيرة السـاحرة، كل ذلـك كان يدفعني إلى التفكير بأن تلك الفتيات لـسـنَ فقط صغيرات وجميلات، وإنما هنّ بنات عائلاتٍ ثريةٍ أيضاً؛ فقد كانت أيديهن الناعمة والرقيقة وسـواعدهن الممتلئة متلألئةً بالمجوهرات الثمينة من خواتم وأسـاور وغير ذلك. كانت بشـرتهنّ بسـحرها أشـبه ببشرة سـمراوات صقلية، مصبوغة بمسـحة خفيفة من لون الزيتون. كانت هناك ثلاث جوارٍ حبشيات برفقتهن بدا واضحاً أنهن صغيرات أيضاً وأن سيداتهن يعاملنهنّ كصديقاتٍ أكثر من كونهنّ جوارٍ.

جرّبـت إحدى الجميلات الثلاث زوجاً من الأقراط المخرّمة الرائعة، وبينما كانت تجربـه أزاحـت ملاءتها بشـكلٍ كافٍ لتثبـت ودون أن تشـعر بأنها جميلةٌ حقـاً. عدمنا استدارت لتسأل إحدى صديقاتها عن رأيها اكتشفت ولأول مرة أننا نراقبها، فتراجعت مباشرةً، وبصرخةٍ بالكاد مسـموعة توهّجت تحت طيّات عباءتها، ثم انفجرن جميعهن بقهقهةٍ نابعةٍ من القلب ممزوجة ببعض هتافات الدهشـة الشـجيّة. وبالطبع يجب علينا عدم البقاء هناك أكثر من ذلك، إذ إنّ أقل استلطاف من قبل شاب مسيحي لفتاة مسلمة محترمـة ينتهـي بالقتـل الفـوري لذلك الآثـم قليل الحـظ، وبالجلد المبرح الوحشـي يتوجـب علـى هذا الفرد أن يصبح مسـلماً. لقـد عرفت في بغداد قصـة هنديٍ بائس تم تقطيعـه إرباً بكل معنى الكلمة من قبل عصابـةٍ إجرامية متعصبة، وذلك فقط لأنه تجرأ

(1) الإشارب فرنسـية écharpe مُعرّبت، يقابلها الوشاح والخمار واللفاع.

على رفع غطاء ذيل حصان فتاة مسلمة في الطريق، وكانت الفتاة ذات صفات مثيرة للريبة. كان هذا النوع من القصاص ينفّذ بشكلٍ صارم، ولهذا السبب لو حدث أن رأيت فتاة مسلمة قد وقعت في النهر وهي في حالة الغرق، فإنني بكل تأكيد لن أقفز لإنقاذها بوجود المسلمين، أو حتى لن أمدّ يدي لأرفع فتاةً سقطت في وسط الطريق، ذلك لأنني أعرف جيداً أنّ حياتي ستكون ثمناً مقابل شهامتي.

وبالعودة إلى مشهد البازار، شاهدنا ذلك العدد الكبير من الأكشاك والحمالات الممتلئة بالقطن والحرير والصوف وأقمشة اللينين الآتية من جميع أنحاء العالم.

هناك كان يجلس رجل فارسي أو أفغاني متجهماً ومغروراً وكان محاطاً ببضائع من شمال غرب آسيا، وقد تمركز جسده الضخم على نحوٍ مريحٍ وسط سجادة ثمينة جداً مصنوعة في أصفهان أو مازندران، وكان يرتدي قبعةً صوفيّةً مخروطية أو بالأحرى تشبه قالب السكر، وتبلغ حوالي قدمين في الارتفاع، مكونة من سلاسل من صوف الحملان المصبوغ بالأسود بارزةً كالقرن العملاق من خلف رأسه.

كانت الأطراف العريضةُ لعباءته القصيرة والضيقة ذات اللون الأخضر مجموعة بشكلٍ دقيق في حضنه، وبينما كان يسحب بوقار نفثاً من الأنبوب الطري الطويل لنرجيلته العزيزة أو (غليونه المائي) وينفخ بصمتٍ صارم دخان التبغ الأصفهاني ذا الرائحة الطيبة، ويربت بلطف على ذقنه وشاربه الأسودين اللامعين، كان يحدّق إلى الأمام بشكل مبهم كالثور العابس، أو أنه كان يتأمل بدرجة عاليةٍ من الرضا أظافر يديه المصبوغة باللون القرمزي، وبالكاد يتنازل أن ينظر إلى المارّة أو حتى إلى المشترين الذين يتقدمون نحو محلّه. شغل الكشكَ التالي رجلٌ تركي بدين وممِلّ، من الصعب جداً لجسده الملتف والمنتفخ إيجاد أية وسائل تساعده على التحول السريع. كان يرتدي بأناقةٍ عباءة طويلة وفضفاضة، ذات أكمام طويلة ومتدلية، وملونة بشكل عام باللون الأزرق الفاتح والأخضر والبنفسجي والبني، رأسه كان مغطىً بطربوش ثقيل أو قبعة تركية، ملفوفة بوشاح أبيض وأخضر مطرّز باللون الذهبي، إنه غطاء رأس ثقيلٌ جداً ويصعب تحمّله في بلدٍ حار وخانق كشبه جزيرة العرب إلاّ إذا أبقى الرجل

الذي يريد ارتداءه رأسـه محلوقاً جيداً ونظيفاً. كان يجلس بالطريقة الشـرقية التي تبدو للأميركيين غير مريحة إلى حدٍّ ما بالنسـبة لخيّاط؛ حيث كانت سـاقاه متصالبتين تحته، ويدخن بهدوء (الشُّبُق) - غليون مسـتقيم له أنبوب يتراوح في الطول ما بين أربعة إلى ستة أقـدام - ويعرض بضاعته المؤلفة مـن الليـنين والقطن والصـوف الثمين والحرير والمخامل. ورغـم أنه كان بارداً وغير مبالٍ بشـكل واضح، وقد وجـده عملاً صعباً أن يبقي عينيه مفتوحتين جيداً طوال النهار، إلا أنه كان يهتم بشـدةٍ بمصلحته الشـخصية حيث بدا ذلك جلياً في لغته المهذبة والحسـنة التي يخاطب بها زبائنه ويعرض عليهم بضائعه.

أما الأكشاك المجاورة، فقد كانت مشغولة من قبل مسلمين هنود يدعون "Borhas" (بوراس) يرتدون زياً أبيض كالثلج من الرأس حتى أخمص القدم، وعماماتٍ صغيرة، وعبـاءاتٍ طويلة وضيقة إلى حدٍ ما، وسـراويل عريضة مزمومـةً عند الكاحل. لقد آتوا من هندستان محملين بالمنتجات الثمينة الموجودة في تلك الأرض الخصبة والرائعة، والتي تألفت من أنواع عديدة من الأحجار الثمينة النفيسـة، إمّا حرّة كما هي أو موضوعة فـوق الحلـيّ المخرّمـة المصنوعة ببالغ الدقة والأناقة، والتي اشـتهرت بهـا بلاد الهند عموماً وجزيرة سيلان خصوصاً. كانت تلك الأكشاك أيضاً ممتلئة بالمطرّزات الجميلة ذات الألـوان المبهرجـة التي جُلبت من البّنجـاب Punjaub - الإقليم الواقع عند نهر الهنـدوس - إلـى جانـب هـذه البضائع كانـوا يبيعون علـب المجوهـرات والصناديق وقطاعـات الـورق... إلـخ، والتـي كانـت جميعهـا مصنوعة مـن خشـب الصندل ذي الرائحـة الفريـدة ومنحوتةً بدقةٍ وجمال، أو مطعّمة بخشـب الأبنوس أو العاج والفضة المصنوعة في بومباي.

وبمـا أن رائحـة خشـب الصندل تناسـب جنس النسـاء العربيات بشـكل كبير، فقد وجدت تلك المصنـوعات رواجاً هائلاً وكانت تباع بسـرعةٍ كبيرة. لم تكن التجارة في هذا السـوق الممتع تقتصر على المسلمين فحسب؛ إذ رأينا شاباً يهودياً هنا عند حدود الصحـراء، يتحدّى العالم بشـجاعة أن يبيـع بضائع أكثر جودة أو أقـل ثمناً؛ حيث رفع

بانفعالٍ شديد منديلاً رديء الصناعة وعرض أن يبيعه بنصف ثمنه. مع ذلك كان دائماً مصراً على عدم خسارة أية صفقة في هذا العمل الخاص بأصحاب عرقه المغامرين والبارزين.

كانت الأقسام الأخرى من السوق تعجّ بالصناعات الحرفية، وتباع فيها كل مستلزمات العرب والبدو. يا لهذه السُّرج المبهرجة ذات الطراز العربي، وقرابات المسدسات المطرّزة ببراعة، وقوارير المساحيق الجلدية، وحقائب الطلقات النارية واللجامات المزينة (بالودَع) - أصداف بحرية صغيرة بيضاء تستخدم كعملة في بعض أنحاء آسيا وأفريقيا. هناك بعض صنّاع الأسلحة الذين يعرضون ترسانة كاملة من الأسلحة النارية، تشمل أسوأ نماذج المعدّات الحربية، تماماً كما تشمل أحسنها وأكملها، ابتداءً من الصوّان البدوي أو بندقية الفتيل ذات السَّبَطانة الطويلة المربكة، وبندقية السفينة البرتغالية القديمة والثقيلة ذات الحجم الكبير، والبندقية الإسبانية بفوهتها التي يتزايد اتساعها تدريجياً حتى النهاية لتبدو كالبوق، ومسدس الحصان الفارسي المطعم بالفضة بشكلٍ جميل، حتى بندقية الصيد ذات الجفّ الأملس الإنكليزية المصنوعة بمهارة وجمال، بالإضافة إلى السيوف المعقوفة والسيوف التركية المحدبة والفارسية المستقيمة ذات الحدّين، والخناجر الدمشقية التي نقشت عليها عبارات حربية مناسبة مثل: «ليحم الله يد المؤمن التي ترفع هذا السيف» أو «فلتبقَ اليد التي تحمل هذا السيف دائماً منتصرة» أو «لا أذلّ الله خيال حامل هذا السيف».

إجمالاً؛ إنّ زيارة سوق عربي هي الأكثر متعة بالنسبة لطالب علم نفس؛ إذ إنّ المشهد يجب أن يشاهد شخصياً ليتم فهمه بشكلٍ جيدٍ، كونه مشهد يتحدى الوصف.

ولكن مع ذلك حاول أن تصوّر لنفسك صفوفاً طويلة من الأكشاك الخشبية المصفوفة على جانبي الممر الذي يتراوح ما بين ثلاثة إلى ستة أقدام، ويطلق عليه اسم شارع بالمجاملة فقط؛ إذ بالكاد يستطيع حصانان المرور مع بعضهما إذا التقيا وجهاً لوجه. يعجّ هذا الطريق بالناس منذ لحظة شروق الشمس حتى لحظة غروبها، يدردشون ويضحكون ويصيحون ويدفعون ويعصرون بعضهم البعض، أضف إلى

ذلك الضجة التي تصم الآذان الناجمة عن الجهود الموحّدة للنحاسين وهم يطرقون المعدن الذي يقومون بصنعه، ورنين مطارق الحدّادين، وأصوات مئات المطارق الصادرة عن صانعي الأحذية، وضرب الجلود، وصرخات الباعة المتجولين، والقتال المتواصل للكلاب الشاردة التي ليس لها أصحاب وترفض أن تتزحزح من الدرب، والصرخات والشتائم الصادرة عن سائقي الحمير والصيحات المحزنة للهجانين، مع العديد من أصوات الباعة والمشترين، باختصار: إنه مكان يبدو فيه كل شخص يتعمّد إضافة شيء ما إلى هذه الفوضى العارمة، وعندما تتخيل كل ذلك تكون قد رسمت لنفسك صورة باهتة عن البازار الآسيوي.

لم يكن الجو في هذا البازار جيداً بالطبع؛ فقد كانت الحرارة ضمن تلك الممرات المكتظة أكثر ما يبغضه الغرباء على الإطلاق، رغم أنّ هذه الطرقات كانت محمية إلى حدٍّ ما من أشعة الشمس الحارقة وذلك بالحصائر الممدودة فوق الرؤوس على عرض الطريق، والتي كانت تفيد فقط في زيادة ظلمة الممرات الضيقة والمزدحمة، ولكن الطبيعة - كما هي دائماً - مليئة بالمكافآت؛ فهي تلطف هذا الشعور السيء بالروائح المحببة المنبعثة من دكاكين التجار، كروائح التوابل وعطر الزهور وزيوت الزهور وغير ذلك من روائح الشرق. كان عبور ذلك البازار ليس بالأمر السهل على الإطلاق؛ حيث اضطررنا إلى الاحتكاك بتجار مهندمين ومتأنقين ومكسوّين بمختلف أنواع الزي الشرقي، وبالبدو ذوي الثياب الرثة، وبشحاذين نصف عراة، ونسوة متحجبات ومتسترات بحذر، ينزلقن انزلاقاً بدلاً من المشي إلى الأمام بعباءاتهن الصفراء وشباشبهن المغربية الحمراء التي ينتهي الجزء الأمامي منها بنهايةٍ حادّة وينحني إلى الخلف لتبدو كزوج من المزلجات الحديدية، وكنّ يرتدين سراويل فضفاضةً بألوان صارخة، مزمومةً بشكل محكم عند الكاحل ومسحوبةً على الأرض تقريباً.

مع مرور الوقت وصلنا إلى مكان من البازار حيث يقوم الطباخون والحلوانيون والجزارون والسمّاكون وبائعو الخضار والفواكه بممارسة أعمالهم. كان الطباخون يقومون بتجارةٍ نشطة أمام كلّ دكّان من دكاكينهم؛ حيث يسلقون اللحم والخضار في

مرجلٍ كبير، ثم يبيعونها للناس بكميات كبيرة مقابل بعض الأوراق النقدية. كان هذا بطبيعة الحال المكان الذي تجتمع فيه أعداد هائلة من الشحاذين والصعاليك القذرين والجائعين الذين يتنازعون على قطعة ضلعٍ أو عظمةٍ منثورة مع الكلاب الهزيلة التي تغزو بأعدادها الهائلة محلات الطعام تلك. وهناك تجارة مربحة جداً أيضاً تمارس من قبل الحلوانيين في مسقط الذين كانوا يصنعون من ضمن الحلويات الأخرى مادة هلامية صلبة مكونة من حليب الإبل والطحين والعسل البرّي والزبّدة. إنّ هذا النوع من الطعام الذي يطلق عليه السكّان اسم (حلوى) له مذاقٌ طيبٌ جداً وهو مغذٍّ جداً وأعتقد أنه طعام صحّي أيضاً. يباع هذا النوع من الطعام على شكل قوالب يبلغ حجم الواحد منها حوالي إنش مربع واحد، ويباع في جميع أنحاء شبه الجزيرة وبلاد فارس والهند.

يبيع الجزّارون في مسقط بشكل رئيسي لحم الماعز والإبل، أما لحم الغنم والعجل فنادراً ما يتم العثور عليه في المدينة؛ إذ إنه قلّما يتم طلبه من الجزّارين. بالتأكيد كان لحم الخنزير خارج نطاق الجدل تماماً؛ فكون القرآن قد ذكر أنّ لحم الخنزير نجس، فهو يتسبب للمسلمين بالاشمئزاز الشديد.

إنّ أكبر إهانة يمكن أن توجهها لشخص مسلم هي نعته بالخنزير، ولطالما أعرّض حياتي للخطر باستخدام ذلك التعبير عندما أكون غاضباً، وإني لن أتجرأ على ركوب خنزير عبر شوارع أي مدينة إسلامية مقابل كنوز غولكوندا[1] Golconda بأسرها، إلاّ إذا كنت متعباً من الحياة وأرغب في مفارقتها على الفور. أما لحم الجمل فقد كان ذا قيمة عالية جداً في أنحاء القسم الشرقي من جزيرة العرب، ويعدّ عرب الصحراء أن ذبح حُوار صغير لتقديم الطعام للضيف هو أعظم طريقة يمكن فيها تبجيله. إن لحم الجمل البالغ من العمر شهرين إلى أربعة أشهر هو بالطبع طعام ممتاز، وخاصةً عندما

(1) مدينة أثرية في جنوبي أواسط الهند، كان حصنها يضمّ قاعة تعرض فيها أشهر ماسات العالم، وعلى رأسها ماسة كوهينور Kohinoor الثمينة الشهيرة. وسبب معلومات لوكر المستفيضة عن الهند أنه كان قام برحلات فيها، ذكر وقائعها في كتابه: *Trip in India*.

يشوى، فيكون أكثر بياضاً ورطوبة من لحم العجل.

يعيش القسم الأكبر من سكان مسقط وبخاصة الطبقات الفقيرة جداً على السمك، سلعة الطعام المتوفرة هناك بكثرة وبثمن زهيد كما ذكرت سابقاً. وليس لدي أدنى شك بأن هذا الاستهلاك المفرط للسمك والانعدام التام تقريباً للخبز والخضار والفواكه هو سبب انتشار الأعداد المرعبة من المصابين بالجذام في مسقط، وذلك كوَّن وباء شرقياً حصرياً، وهو السمة الأساسية للساحل الشرقي لشبه جزيرة العرب؛ إذ يعمل نصف السكان على الأقل طوال أيام السنة فقط في اصطياد وتقطيع وتجفيف الأسماك.

يتم تصدير كميات هائلة من السمك المدخّن والمجفف بالشمس من هنا إلى بلاد فارس والهند وجزيرة الملايو وجزر زنجبار وموريشيوس Mauritius Bourbon، ويباع جزء كبير للمزارعين الذين يطعمون تلك الأسماك لعمالهم ومستخدميهم. وكميات كبيرة أيضاً تستهلك من قبل طواقم البواخر الآسيوية المؤلفة - باستثناء القباطنة والمهندسين - من (اللسكريين) أو بحارة الهند الشرقية، وزنوج إفريقيا الشرقية الذين يعيشون كلياً على أكل الكاري، وهو طبق هندي كثير التوابل محضّر من السمك المدخّن أو الطازج، والدجاج أو البيض بالإضافة إلى الأرز.

إن سوق الخضراوات في مسقط فقير إلى حدٍ ما؛ كون الأرض المحيطة بالمدينة بأكملها حجرية ومقفرة على نحو استثنائي، والمناخ هناك حارٌ جداً لدرجة أن الخضراوات لا تنمو إلاّ بمقدار كبير من الجهد والعناء، وفقط في الأماكن التي يمكن أن تقام ضمنها مشاريع ري مستمرة.

البصل والثوم ونوع من الجزر الأبيض وثمار تدعى أوكرا (البامية) في الهند، والباذنجان الفرنسي وأنواع من الجركين - الخيار الصغير - كانت كل أنواع الخضار التي رأيتها في السوق تقريباً، ومن الفاكهة استطعتُ فقط رؤية بعض الموز تعيس المظهر، والليمون والرمان والتوت، وهناك التمور والبرتقال والليمون الحلو والبطيخ، إلاّ أننا لم نستطع رؤية هذه الأصناف الأخيرة لأن وقت زيارتنا لم يكن الفصل المناسب لنموها، إن كل شوارع مسقط ضيّقة وكدرة، ومنازل أثرى الطبقات مبنية

بالطوب المجفف بالشمس، ولا تتجاوز الطابقين في الارتفاع، ولها أسطح مستوية ونوافذ صغيرة محمية بالحديد، لتقدم هذه المظاهر مجتمعة مظهراً كئيباً للمدينة تبدو فيه كالسجن. أما الناس الأكثر فقراً فقد كانوا يعيشون في أكواخ صغيرة مصنوعة من قطع اللِّبن المجفف بالشمس، ذات أسطح مستوية أيضاً، ينام عليها السكان ليلاً كونه محال النوم داخل البيوت؛ فالحرّ لا يطاق حتى في منتصف الليل، علاوةً على ذلك هناك أعداد كبيرة من ديدان أم أربع وأربعين وعقارب وفئران وجرذان تمتلك السيادة المطلقة للجزء الأسفل من تلك المساكن عند حلول الظلام، ولكن الشيء الأكثر غرابة من ظهورها هو أنها لا تجرؤ على الصعود إلى سطوح المنازل.

كانت المساكن الموجودة في الضواحي البعيدة مبنية بشكل أبسط وأدنى من تلك الموجودة داخل جدران المدينة؛ فقد كانت ببساطة أكواخاً صغيرة مؤلفة من أطر من الخيزران لا تزيد على سبعة أقدام في الارتفاع، مغطاة بأوراق النخيل أو بحصائر مصنوعة من القصب، وينام سكانها على حصائر أو سجاجيد خشنة ممدودة على الأرض، وسط الحمير والماعز والكلاب والدجاج والحشرات الطفيلية التي لا مفرّ منها. كانت أربع أو خمسة الجوامع أو أماكن العبادة الإسلامية التي رأيتها عبارة عن أبنية حجرية كبيرة ومربعة الشكل، لكنها بسيطة جداً وذات مظهر متقلقل، ولولا القباب التي تعلو أسطح الجوامع والمآذن المتاخمة لها لكان من الصعب جداً بالنسبة لي أن أميّزها عن باقي الأبنية الحجرية.

يحيط بمدينة مسقط عاصمة ولاية مسقط المستقلة من ثلاث جهات جدار - هو الآن أكثر خراباً وتقلقلاً من ذي قبل - وكانت الممرات عبر البوابات الثلاث أو الأربع الموجودة ضيقة جداً ومظلمة.

صُنعت البوابات من الخشب المدعّم بالحزم الحديدية القوية، إلاّ أنها لا توفّر حماية كافية للسكان في حال تعرّضهم لأي اعتداءٍ كان. يعيش في مدينة مسقط من ستين إلى سبعين ألفاً من السكان، تسعة أعشارهم يعتنقون الدين الإسلامي، والبقية الباقية مؤلفة من يهود وهندوس، وكان لاحقو الذكر يقيمون هناك بشكل مؤقت فقط.

تعتبر مسقط واحدة من أكثر المناطق حراً تحت أشعة الشمس، وذلك دون أن تطالب بالتفوق وحدها في هذا المجال، حيث تراوحت درجة الحرارة على ميزان الترمومتر ما بين 34 إلى 44 درجة مئوية في الظل؛ أي ما يعادل 110 إلى 130 درجة فهرنهايت وذلك خلال تسعة أشهر الحرّ. إن الأمطار هنا نادراً ما تهطل أو أنها لا تهطل أبداً، وذلك كون المدينة واقعة على درجة عرض 28 شمالاً. وهناك أشهر الشتاء التي تمتد لنقل ما بين ديسمبر وفبراير، تكون التربة مبللة ورطبة بسبب الندى الكثير.

ليست هناك أية حياة نباتية على الإطلاق ولا يمكن حتى رؤية خصلةٍ من العشب إلاّ عندما يتم استنباتها بالطرق الاصطناعية. يتم رفع المياه المستخدمة في الأغراض المنزلية بواسطة حبل مربوط بإحكام إلى دلو مصنوع من جلد الماعز، يتدلى هذا الدلو إلى أحواض أو آبار جرّ يتراوح عمقها ما بين خمسين إلى مئة قدم بواسطة عجلة مثبتة على فوهة البئر وتعمل بواسطة حصان أو حمار أو جمل. وأينما صادف وجود تربة تغطي الصخور تكون التربة خصبة بشكل كافٍ لنموّ الأعشاب والحبوب والخضراوات وذلك بأقل جهدٍ ممكن، وفقط الريّ هو الشيء الضروري لنموّها.

بعد أن انتهينا من استكشافنا وتفحصنا لهذه المدينة الممتعة أسرعنا إلى الباخرة، وفي طريق عودتنا إليها بالمركب المتضعضع الذي نقلنا قبل ذلك إلى اليابسة، مررنا بالحطام العائم لسفينة أوروبية كانت قبل بضعة أيام فقط ترسو بهدوء محملة بالتمور، ولكن أثناء الليل اندلع حريقٌ تسبب بإتلاف المركَب بالكامل. قبل مغادرتنا لمسقط بوقت قصير شاع في العاصمة خبرٌ مفاده أنّ السلطان قد توفي فجأة في ميدان المعركة، وأن أحد إخوته الأصغر منه اتخذ على عاتقه إدارة الجيش وأنه كان يبذل أقصى ما بوسعه ليحول دون وصول خبر موت الإمام إلى العاصمة. لكن رغم ذلك يبدو أنّ الأخ لم ينجح في ذلك؛ فبعد مدة أسبوع من ذلك انتشر في بومباي أنّ السلطان قد تمّ اغتياله هناك حيث أطلق أحد إخوته النار عليه، لقد كان هو نفسه الذي تولّى إدارة أمور القوّات ونصّب نفسه خليفةً للعرش.

لم يتدخل أحد في هذه القضية على الإطلاق، وسلطان مسقط الآن هو نفسه قاتل

أخيه، ولكن عاجلاً أم آجلاً ستتم خدمته من إخوته الأصغر تماماً كما خدم هو آخاه الأكبر. بعد ساعة من الزمن تقريباً أبحرنا خارج المرفأ شمالاً باتجاه بندر عباس - وهو ميناء بحري صخري يقع على الشاطئ الشمالي أو الفارسي لمدخل الخليج العربي عند مضيق هرمز.

وبينما كنا نخرج ميناء مسقط التقطنا نظرة خاطفة على مدينة الغبرة Gobra، وهي ميناء بحري صغير وجميل، بحيث كان يرسو أسطول الإمام الحربي الصغير المؤلف من سفينتين خشبيتين شراعيتين صغيرتين وخمسة أو ستة مراكب شراعية ذات صارين.

تقع الغبرة Gobra على مسافة أربعة أميال تقريباً شمالي مسقط، وهي محاطة كسابقتها بجروف عالية ولا يفصلها عن العاصمة سوى سلسلة من الصخور التي تشكل الحدود الغربية لميناء مسقط.

* * *

الفصل الثالث

الرّسوّ

إيصال البريد - السيد قاضي القضاة الأعلى - العاصفة العنيفة - إشارات الإنذار - الصمود على متن السفينة - المرور بالقلعة القديمة - لنجه - أحمر وأصفر - نساء جميلات - قراصنة - الغوص من أجل اللؤلؤ - الكفاح تحت الماء - على متن السفينة مرة أخرى - رحلة قصيرة - في ميناء بوشهر - وحيداً على الشاطئ - رمي الأسلحة - مسكن الحاكم - الاختباء وراء السور.

بعد عشرة أميال شمالي ميناء مسقط مررنا بالقرب من مهبّ ريح لجزيرة صخرية صغيرة لا يتجاوز محيطها ثلاثة أميال، ولا تسكنها سوى حيوانات الماعز البرية، والتي أذهلتنا طريقة عيشها؛ إذ ليس هناك سوى القليل القليل من الأعشاب يمكن رؤيتها على سطح الجزيرة.

في الصباح التالي دخلنا في مضيق هرمز الذي يبلغ عرضه في أضيق نقطة منه حوالي عشرين ميلاً، ويشكل نقطة الخروج من الخليج العربي إلى المحيط الهندي. وهناك مررنا برأس وجزيرة مُسندم Musen Dorm إلى يسارنا، والتي كانت في الوقت الراهن آنذاك محطة التلغراف الهند - أوروبي.

كان هناك منزل حجري ضخم يسكنه أربعة من موظفي البرق، وجميعهم من الإنكليز. إن مساحة جزيرة مُسندم Musen Dorm لا تتجاوز مئتي باردة، وهي مجرد صخرة عارية، يتم جلب كافة مستلزمات الحياة إليها بما فيها الماء بقوارب من بندر عباس، وفي الواقع لا

أحـد أبداً (فرسان البرق) المساكين هؤلاء، المتروكين للاستمتاع بأي متعة من متع الحياة التي يمكن إيجادها فوق تلك الصخرة الخاوية والموحشة. عند وصولنا إلى مرسى بندر عباس كنا مجبرين على إلقاء المرساة قبل ميل ونصف من الشاطئ؛ فقد كانت المياه ضحلة جداً لدرجة لا يمكننا الاقتراب أكثر من ذلك، ثم أوصلنا البريد الذي رافقته بنفسي إلى الشاطئ ورأيته يسلّم بأمان ليد رجل مسنّ ومؤكد أنه من أبناء البلد، وقد جمع في شخصه مختلف أنواع موظفي الحكومة؛ فقد كان قاضياً ورئيساً لإدارة الجمارك ومراقباً للشرطة ومديراً لمكتب البريد في الميناء الصغير. كان انطباعي حول المدينة غير مستحبّ، وذلك كونها المكان الأكثر بؤساً على الإطلاق، تألفت المدينة من حوالي مئتي كوخ طيني، بنيت جميعها على الرمال وكانت كدرة جداً إلى حدّ لا يوصف، وبمقارنة مسقط مع هذا المكان بدت مسقط مدينة رائعة الجمال.

لم تكن هناك أية حياة نباتية على الإطلاق باستثناء بعض أشجار النخيل الكئيبة ونصف الجافة؛ فقد كانت الأرض حول بندر عباس مقفرة جداً ورملية.

ترتفع خلف الميناء البحري الصغير سلسلة هائلة من الجبال التي تصل أعلى قممها إلى ارتفاع 9000 قدم فوق سطح المحيط، وتمنح الناظرين من البحر مشهداً عظيماً جداً يمكن رؤيته من مسافات شاسعة. تشكل سلسلة الجبال تلك الحدود الطبيعية للأقاليم الفارسية الجنوبية الثلاثة إقليم بلوشستان الواقع إلى شرق السلسلة، وإقليم كوهستان في الشمال، وإقليم كرمان الذي يقع فيه بندر عباس في الغرب.

مع اقتراب المساء أصبح الجو أكثر حرارة ورطوبة، ومزعجاً إلى حَدّ كبير، كما اتخذت السماء الغربية لوناً نحاسياً، وقبل أن يكون لدينا الوقت الكافي لإنهاء عملنا على الشاطئ هبت فجأة ريح صرصر ضربت البحر بضراوة خلال فترة قصيرة جداً، التفّت الأمواج عالياً جداً بشكل مخيف؛ لدرجة أنّ الأمواج المتكسرة حملت في طريقها كافة الأكواخ القريبة من الشاطئ، وبالكاد نجا السكان البائسون بأرواحهم.

كانت العاصفة فجائية جداً، وبالمناسبة تسببت برمي قارب جاف إلى الأعلى فوق الشاطئ.

بعد أن استمرّت الرياح لمدة ساعة من الزمن هدأت فجأةً تماماً كما بدأت، وكعادته كان الكابتن قلقاً جداً على سلامتنا بين هؤلاء الجبناء والمتعصبين، وخوفاً من هبوب عاصفةٍ أقوى مرة أخرى أطلق إشارات الإنذار لينبهنا إلى العودة إلى السفينة فوراً، بمساعدةٍ من بعض السكان اللطفاء قمنا بعدة محاولات فاشلةٍ لإنزال القارب إلى الماء، وكالعادة كان الموج يدفعنا إلى الشاطئ.

بعد الكثير من الصعوبات ذهبنا إلى الباخرة عوماً، وقد جاهدنا كثيراً في الوصول إليها، ولكن التيّار كان قوياً جداً، فانحرفنا على نحوٍ مميت باتجاه هبوب الريح، ولولا يقظة وفطنة الكابتن لكان محالاً إخراجنا من البحر. عند رؤيته للمخاطر المحدقة بنا أمر بإنزال قاربين مزوّدين بمئات الحبال لمساعدتنا، وبحكمة وحذر مطلقين اعترضوا مسارنا، فأمسكنا بحبالهم وتمّ حملنا بنجاح إلى متن الباخرة ولكن بعد المرور بمخاطر وصعوبات هائلة. بعد ذلك رفعنا المرساة متجهين نحو لنجه Linga أو Congoon، وما كدنا نفعل ذلك، حتى مهدت لنا الريح العنيفة نفسها التي انفجرت فجأة وهدأت فجأة الطريق نحو هدوءٍ تام.

انتهى اليوم بمساءٍ هادئ وجميل، ومع اقتراب الغروب أصبح البحر العاصف لطيفاً جداً وصافياً تماماً. في الصباح الباكر من اليوم التالي مررنا بين جزيرتين صغيرتين؛ قِشم Kishm في الشمال وهُرمُز في الجنوب، حيث سمّي مضيق هرمز الذي يربط خليج عمان بالخليج العربي بهذا الاسم نسبة لها. كانت الجزيرة التالية الذكر أصغر بكثير من سابقتها، لكنها ذات أهمية تاريخية، وذلك بحكم كونها سابقاً معقلاً رئيسياً للپرتغاليين في الخليج العربي، ويمكننا من مسافات بعيدة عن الجهة الشرقية للجزيرة رؤية أنقاض حصن بُني من زمن بعيد من قبل هذه الأمة، ويقال إنه توجد حصون قديمة مماثلة على الشواطئ الشمالية والجنوبية لجزيرة قِشم Kishm، وكانت هذه الحصون في السابق سبباً للسيطرة المطلقة للپرتغاليين على مضيق هرمز لمدة أكثر من قرن، ولكن (الشاه عباس) ملك الفرس قام بإبعادهم عن ذلك الموقع بمساعدة الإنكليز عام 1622. أما الآن فتقع الجزيرتان كلتاهما تحت حكم إمام مسقط، ويسكنها بعض الصيادين وعائلاتهم فقط.

سرعان ما اختفت الجزيرتان عن أنظارنا عندما كنا نبحر على طول خط الساحل الفارسي الذي تكثر فيه السلاسل الجبلية، وفيه قمم عالية تبقى مغطاة بالثلوج معظم أيام السنة، في المساء التالي شاهدنا ميناء لنجه البحري الصغير الذي لا يبعد كثيراً عن نهر Congoon عند حدود إقليمي لورستان Loristan الشرقي وفارستان Farsistan الغربي. خلال زيارتنا القصيرة لذلك المكان قمنا - أي أنا وصديقا رحلتي - بزيارة إلى الشاطئ ووجدنا بالرغم من أن لنجه تنتمي إلى بلاد فارس إلا أنها مبنية ومسكونة من قبل العرب، أو السكان الأصليين للساحل الشمالي للخليج الفارسي. كان الفرق بين بناء الأكواخ الفارسية والأكواخ العربية كبيراً جداً؛ حيث كانت جميع الأكواخ الفارسية ذات سطوح منحرفة مغطاة بحصائر سميكة بينما تلك الأكواخ العربية ذات أسقف مستوية ومصنوعة من الخشب المصقول والمنظف وفيها سدود صغيرة للماء مصنوعة ومغطاة بطبقات سميكة من الطين الممزوج بالعشب القصير المقطّع.

إن قرية لنجه مؤجرة من قبل الشاه الفارسي لشيخ البحرين العربي مقابل مبلغ جيد من المال ولمدة مئة عام. تحتل هذه المستوطنة الصغيرة بقعة جميلة وخصبة من الأرض، مع مصدر لا ينضب من المياه العذبة التي لا تقدر بثمن. تشكل لنجه نقيضاً مباشراً وملفتاً للنظر لبندر عبّاس البائس؛ فبالرغم من كون البيوت مبنية فقط بالطوب أو القرميد المجفف بأشعة الشمس، وكذلك أيضاً الشوارع، إلا أنها نظيفة بدقة، والقرية بأكملها كانت واقعة ضمن دائرة من أشجار النخيل التي كانت أوراقها الخضراء الوارفة تنعش الرؤية رغم أنها محاطة من الخارج بالكثير من الجدب والقحط.

رغم أننا كنا في أرض تابعة للفرس، فإنّ السكان جميعهم ينحدرون من عرقٍ عربي صافٍ، ويصرّون على المحافظة على لغتهم الأم وعاداتهم وتقاليدهم، وقد بدا لي إلى حدٍ بعيد أنهم أرفع مقاماً من جنس الفلاحين الفرس المتواجدين في الموانئ الصغيرة على طول الخليج العربي.

بما أنّ العرب كانوا على أرضٍ غريبةٍ هناك فقد بدا أنهم يفخرون بأنفسهم بمحافظتهم على هويتهم القومية؛ الجنسان كلاهما منهم يرتدي بشكلٍ مرتب الزي العاطفي

لوطنهـم الأم. لم يكن مـسموحاً للعرب من سـكان لنجه بالتقدّم إلـى الداخل أكثر من مئة ميل، وفي الواقع لم يكونوا أنفسـهم يتمنون ذلك؛ فقد بدت سـعادتهم واضحة في بقائهم ضمن ما يمكن تسميته بحق (جنّة الخليج العربي).

اعتقـدت نسـاء البلـدة الفضوليات - إذ كما يقـال الفضول خاصة اسـتثنائية لجنس النسـاء في جميع أنحاء العالم - أننا مخلوقات ذات أهمية كبيرة، وبالرغم من أنّ عادات البلاد تفرض عليهن تغطية وجوههنّ بالكامل أكثر من فاتنات مسـقط، وأن يتجنبن أي لفـت انتباه للغرباء، إلا أنهنّ لم يسـتطعن كبح فضولهنّ؛ فبعـد أن مررنا بمجموعة من النسـوة استطعنا سـماعهن يثرثرن ويضحكن، ورأيناهنّ يختلسـن النظر عبر الحصائر التي تستخدم كأبواب لمنازلهن.

إن الرجال والنسـاء في لنجه يلبسـون تماماً كما يلبس سـكان مسـقط، لكنهم أرفع منهم في أسلوبهم وهيئاتهم ونظراتهم، وسبب ذلك هو الموقع الصحي الذي يعيشون فيه والاستهلاك الأقل للسمك كوسيلة من وسائل العيش. إنهم أيضاً مهذبون وأنيقون فـي عاداتهم، علـى عكس فُرس السـاحل القذرين ورثـي الهيئة. بـدا الجنس اللطيف تحديداً أرفع مسـتوى من مثيله في مسـقط وذلك من كل النواحي، وظهر أنّ النساء في لنجه مغرمات بشغف باللونين الأحمر والأصفر؛ حيث ترتدي جميع النسوة ثوباً بأحد هذيـن اللونيـن اللذين يزيدان بمسـحتهما الخاصة المظهر المشـرق والبهيـج للقرية، لتغدو وكأنها واحة وسط الصحراء.

كان هنـاك حشـد ملون من النسـوة والفتيـات يرتدين ثيابـاً مبهرجةً مغطـاة بالخرز والحلي والأصداف الصفراء، يتقدمـن ببطءٍ، ولكن كن منتصبات القامات كالتماثيل، أتيـن من بين أيكات أشـجار النخيل الجميلـة التي كانـت تحيط بسـدود القرية وآبارها الكبيرة، يحملن فوق رؤوسـهنّ بتوازنٍ ومهارة جرار ماء مدورة ومحدبة القعر، وبتلك الصورة يشـكلن مادة قيمة تسـتحق قلم موريلّو Murillo أو سـالڤاتور روزا Salvator Rosa. يبلغ عدد السـدود التي تزود تلك المسـتوطنة بالمياه اثني عشـر سداً على الأقل، متوزعة بين أشجار النخيل الكثيفة وتبعد حوالي نصف ميل عن شاطئ البحر، ويمكن

رؤية هذه السدود من مسافات بعيدة؛ إذ يعلو كلاً منها شيء كالغطاء أو السقف المبني من الطين المجفف بالشمس، وتشبه تلك الأغطية بمظهرها شكل الضريح.

أما الآبار فيبلغ عمقها 50 قدماً وقطرها حوالي 20 قدماً ويبلغ ارتفاع الأبنية المشادة فوق الآبار والسدود حوالي 20 قدماً، وقد بنيت بهدف حماية الماء من أشعة الشمس والغبار، وبذلك تبقى هذه المادة النقية بلذتها عذبة وصافية كحبيبات الكريستال.

وعلى الجانب العربي من الخليج العربي يسار لنجه مباشرة يقع رأس أوفير[1] Ofir أو Aufir، وإلى غرب هذا الرأس تقع جزيرة البحرين التي يحكمها شيخ أو رئيس عربي مستقل. وسكان هذه الجزيرة متأخرون جداً كأنهم لا يزالون في العام 1850، ويغلب عليهم صيت ذائع بسبب ممارستهم لأعمال خارجة عن القانون، كمهاجمة السفن وتجارة الرقيق بشكل كبير، ولولا انتياب البوارج الحربية الانكليزية المتواصل في مياههم لكانوا تسببوا بالمشاكل والإزعاجات للتجارة والتجار.

إلى الشرق من رأس أوفير Aufir تقع شواطئ اللؤلؤ الشهيرة في الخليج العربي[2]، حيث تجد في مواسم محدّدة من السنة حشوداً من العرب والفرس والهنود الذين خرجوا لاصطياد أصداف اللؤلؤ الثمينة والتي توجد بكثرة أحياناً على عمقٍ يتراوح بين 20 إلى 60 قدماً.

ويمارس هذا النوع من الصيد على النحو التالي: يكون الصياد عارياً ولا يملك شيئا

(1) يبدو أنه يقصد جزيرة رأس ركن إلى أقصى الشمال من شبه جزيرة قطر. وتسمية أوفير ترد في التّوراة بسفر التكوين (الأصحاح 10) وسفر الملوك الأول (9: 28) بوصفها بلاد الكنوز من الذهب والنفائس الثمينة. وأصل التسمية في سفر التكوين أنه اسم أحد أبناء يقطان (قحطان)، ولم يحسم الخلاف حول موقع أوفير هذه، هل هي في القرن الأفريقي في إثيوبيا أو جيبوتي، أم في جنوبي جزيرة العرب (مهد الذّهب أو اليمن). وحتى قد تكون كما يروي لوكر هنا في الخليج العربي، على اعتباره الممرّ التجاري للبضائع القادمة من الهند. لكن على أيّ حال ينبغي ملاحظة تقارض التسمية مع العربيّة: وفير.

(2) يقصد السّاحل المتصالح، وهو اليوم دولة الإمارات العربيّة المتحدة، زادها الله رفعة وتقدماً ومجداً يضاف إلى أمجاد ماضيها.

سوى حقيبة أو جراب مربوط بإحكام حول خاصرته ليحمل بداخله صدف اللؤلؤ، ومسلحاً فقط بسكين طويل وحاد ذا غمدٍ جلدي مربوط حول الجزء العلوي من ساعده الأيسر، ويمسك بقوة وبيديه كلتيهما وزنا ثقيلاً - حجراً أو كتلةً من الحديد أو الرصاص - مربوطاً بأحكام إلى حبل تكون نهايته مثبتة بالقارب، ثم يقفز من فوق المركب مع هذا الوزن في يديه وبالتأكيد ينزل بقوة إلى قاع البحر، وهناك يستطيع بكل سهولة حمل الوزن الذي بالكاد استطاع رفعه فوق سطح المركب، ويمشي في القاع وعيناه دائماً مفتوحتان قدر الإمكان، ليجمع أكبر عدد ممكن من أصداف اللؤلؤ ليضعها في الحقيبة المثبتة حول خاصرته، وطبعاً لا يقوم بترك الوزن أبداً إلى أن يصبح غير قادر على البقاء أكثر دون هواء، عندها ما عليه سوى ترك الثقل حتى يخرج كالفلينة إلى سطح الماء، حيث يتم رفعه إلى المركب، ويُسحب الوزن من الأعماق بواسطة الحبل المثبت به، ويبقى الغواص على متن القارب حتى يفرغ من إفراغ حقيبته من صدفات اللؤلؤ التي تفتح من قبل أحد أفراد الطاقم، ويكون دائماً الشخص نفسه الذي يفتح الصدفات، وذلك لتجنب الاحتيال والسرقة.

ثم تستخرج اللآلئ إذا وجدت داخل المحارات - وليس بالضرورة أن توجد دائماً - وغالباً ما يتم جلب محارات قد مات فيها الحيوان منذ عدة أسابيع أو شهور أو سنين، وفي هذه الحالة إما تكون الصدفة فارغة أو أنها تحتوي على صدفة صفراء أو بنية فاتحة أو سوداء فاتحة، وتقريباً ليست لهذه اللآلئ قيمة على الإطلاق، إلا أنه من الصعب جداً - إن لم يكن مستحيلاً - تمييز المحار الحيّ من المحار الميت عندما يكون الغواص تحت الماء. وبمجرد أن يستعيد الغواص أنفاسه وقونه بشكلٍ كافٍ ليقوم بالرحلة الثانية إلى الأعماق يقفز على متن القارب مرة أخرى، وعادة يوجد غواصان على متن كل قارب يقومان بالغوص بالتناوب، وبذلك بينما يكون الأول على متن القارب يتجول الثاني في قاع البحر.

يستطيع الغواصون بشكل عام البقاء مغمورين بالماء لمدة دقيقتين أو ثلاث دقائق فقط، وهناك عدد قليل جداً منهم يستطيع البقاء لمدة خمس دقائق. إنها بالإجمال

حرفة صعبة وخطرة جداً وغير مفيدة؛ حيث تؤثر بشكل مخيف على صحة الرئتين، ولا يتقدم هؤلاء الأشخاص المساكين في العمر نهائياً - على الأقل لن تجد أي غوّاص مسن. إنهم أشخاص هزيلون على نحوٍ مفرط، ولهم نظرة محدقة خاصة، وهي النتيجة الطبيعية لإرهاق أعينهم عندما يكونون تحت الماء.

يتطلب غواص اللؤلؤ مقداراً كبيراً جداً من الشجاعة ورباطة الجأش؛ فتلك المياه مليئة بأعداد كبيرة من أسماك القرش التي غالباً ما تهاجمهم ولكن لا تحصل من هذا الهجوم إلا على الهزيمة؛ حيث إن هؤلاء الأشخاص الجريئين يكونون دائماً في أشد حالات الحذر واليقظة وذلك لمعرفتهم الجيدة بأنهم لن يستطيعوا الهروب من عيني ضباع الأعماق المالحة تلك. إنهم لا يرفضون الصراع أبداً، وغالباً ما يأتون منتصرين، ومع ذلك كل موسم يقوم العديد منهم بدفع حياتهم ثمناً لشجاعتهم، ومقابل هذه المخاطر تُدفع لهم النقود بسخاء، وخاصة لخبراء الغواصين الذين يندر وجودهم بطبيعة الحال؛ إذ يختفي كل موسم - كما ذكرنا - عدد كبير منهم في المعدة الكبيرة لوحش الأعماق. إن بعض السيدات عندما يزينَّ أنفسهن بتلك الأشياء النفيسة يظهرن دائماً أية مخاطرات مخيفة بالأرواح قد جُلبت لهنّ.

بعد أن رست پانغ في لنجه، أبحرت ثانية باتجاه (بوشهر) أو (بندر بوشهر)، وبقي الساحل الفارسي المنعزل في مرمى أنظارنا. وصلنا إلى هناك في صباح اليوم التالي، وتفحصنا من البعيد المدينة المبنية على البحر ببيوتها الحجرية والطينية الصفراء. كان علينا أن نلقي المرساة قبل ميلين من المدينة وذلك لوجود صخور بحرية طويلة وخطيرة مقابل الميناء. على بعد ميلين من أقصى نقطة في الرأس الرملي استطاعت تلك الصخور منع أية سفينة من الاقتراب نحو الشاطئ. كان هناك خمس أو ست سفن أوروبية، والعديد من المراكب العربية والفارسية التي تقف في المرسى. جميعهم كانوا منهمكين بإحضار وتفريغ الحمولات. لقد كان معنا عدد كبير من الركاب وحمولة ثقيلة جداً من السلع المختلفة لهذا الميناء، لذلك استغرق تفريغ البضائع طوال اليوم، ما دفعني إلى إنهاء نهاري بالذهاب إلى الشاطئ مع أصحابي حيث يمكننا إلقاء نظرة على المكان.

تقع بوشـهر في إقليم فارسستان Farsistan، وهي ميناء فارسـي هام على الخليج العربـي، وتضـم ما بيـن 15 إلى 20 ألف نسـمة، جميعهـم تقريباً وعلى نحو اسـتثنائي مـن الفرس والأفغان. بنيت المدينة على أبعد نقطة مـن رأس رملي منخفض، والجزء الداخلي منها منخفض جداً لدرجة أن بوشـهر تصبح في المد العالي جزيرة تقريباً.

لا تبدو منازل تلك المدينة سيئة المظهر بالنسبة لمساكن أناس من الفرس، وبالطبع هناك بعض المنازل مبنيٌ بشكل جيد إلى حد ما، سطوحها مستوية ولها - كحال جميع البيوت الإسـلامية - نوافذ صغيرة جداً من جهة الشـارع. أما الشـوارع فهي ضيقة جداً لدرجة أن المرء إذا مشـى باسـطاً يديه كلتيهما يستطيع ملامسة المنازل المتوضعة على طرفي الطريق، وهي متسخة بشكل مفرط، وتعجّ بالكلاب الشاردة، والكلاب الهجينة المزعجة كثيرة العدد التي تتقاتل مع بعضها طوال اليوم، وتنبح بكـل على ضوء القمر عند حلول الظلام. ومنزل الحاكم عبارة عن بناء حجري كبير مربع ومتقلقل، مع العديد من الحجرات الخارجية التي يشغلها على الأرجح العديد من الخدم.

في وسـط الفناء كانت تقف سارية علم لائقة جداً، وبدا واضحاً أنها من صنع جنود أوروبيين، ويخفق على قمتها علم فارسـيّ لونه أخضر ويتمدد في وسـطه أسـد أصفر وفي الخلفية يظهر شـروق الشـمس باللون الأصفر أيضاً. وفي جهة مقابلة من المدينة تقع سارية العلم ومنزل القنصل البريطاني والمندوب السامي. ظل هذا القنصل المقيم الأوروبي الوحيد في المنطقة إلى أن تم إنشـاء مؤسسـة البـرق الهند - أوروبية؛ حيث وصـل إلـى هنـاك أربعة موظفين إنكليز يسـكنون الآن فـي مكتب البريد الواقع وسـط المدينة.

يرتدي سـكان بوشـهر الذكور ثياباً شـبيهة جـداً بلباس التجار الفـرس المذكورين فـي وصف بازار مسـقط؛ حيث يعتمرون جميعهم تقريباً القبعة المخروطية التي تشـبه قالب السكر المصنوعة من صوف الخراف المصبوغ بالأسود ويلبسون معاطف ضيقة ومغلقة من الأمام ذات لون أسـود أو أخضر أو أزرق أو بني مع وشـاح أبيض أو ملون حول الخصر، يحملون فيه عموماً خنجراً جيداً منقوشاً ومصنوعاً من الفضة، أو زوجاً

من المــدســات الطويلة وحيدة الـتَّـبَطانة. بعضهم أيضاً يحمل ســيفاً قصيراً وعريضاً ذا حدّيـن، لـه نهايـة حادة ومســننة ليس بعيداً في الشـبه عن الســيوف التي اسـتخدمها المصارعون الرومان المتدلية من أحذية جلدية.

جميـع الرجال تقريباً صغاراً وكباراً كانوا قد لونـوا أظافرهـم بلون قرمزي، وصبغوا راحـات يديهــم بالحناء، وهي نوع مـن البودرة البنيــة المحمرة التي بعـد خلطها جيداً بواسـطة عصا عريضــة يصبح لونها ثابتاً جداً على البشـرة حيث لا يمكن غســلها، ولا يتلاشـى لونها لعدة شـهور. تشبـه الأعضاء المصبوغة بلونها يدي شـخص كان يقشـر الجوز الأخضر. تسـتخدم الحنّاء بشـكل كبير من قبل الفرس والعرب والأتراك وحتى المسـيحيين الشـرقيين المحليـين، يصبـغ بهـا الرجال شـعرهـم ولحاهم وشـواربهم، لتعطيهم لوناً بنياً محمراً يعتـبر أنيقاً جداً ورائجاً بالنسبة لهم، وخاصة بين المسلمين. أما المرأة الفارسـية فترتدي ثياباً شـبيهة جداً بثياب شقيقاتها العربيات والتركيات، باسـتثناء الحجاب الذي يختلف عند نساء العرب الشرقيين؛ حيث يكون عبارة عن قناع حريري صغير ذي لون أسـود أو أحمر قاتم، يغطي الوجه من تحت رموش العين السفلية حتى الفم تقريباً ليبقي العينين والفم والذقن مكشـوفة، بينما ملاءة النسـوة الفارسيات تتألف من قطعة من الموسلين الأبيض عرضها حوالي عشـرة إنشات وطولها ثلاثة أقدام تتدلى فـوق الوجه بأكمله مربوطة بخيط حول الرأس ومتدليـة تقريباً حتى الركب. تم اقتطاع القمـاش حول العينيـن ووضع مكانه نوع من التطريز الذي يشـبه الشـبكة حيث تكون الرؤية منه أكثر وضوحاً من الرؤية من خلال الموسلين.

تقوم العديد من النسوة الفارسيات بتلوين أو صبغ أصابعهن وراحات يديهن بالحناء وكذلك أولادهن الفتيات تحت عمر ثماني سنوات لا يلبـسن الخمار، وتتزوجن – كما هو حال شقيقاتهن الهنديات والعربيات والتركيات – في عمر مبكر جداً، ومن الشائع جداً رؤية فتاة آسـيوية زوجة وأماً معاً عندما تكون فقط ما بين عشـر سـنوات إلى اثنتي عشرة سنة وغالباً ما تكون قد زُوجت من رجل يبدو والد جدها. يتمتع الرجال الفرس بشكل عام ببنية جسدية جيدة قوية، وملامح بارزة وقامة منتصبة.

أما النساء فبالنسبة للرجال صغيرات إلى حدٍ ما لكنهن ترعرعن بشكل جيد وهن بشكل عام حسناوات في صغرهن، لهن ملامح مصقولة؛ عيون واسعة سوداء مع تعابير وجه رقيقة جداً، حواجب مقوّسة بشكل جميل، فم صغير وأسنان جذابة، مع ذلك فجمالهن يخبو بسرعة وغالباً السبب هو زواجهن المبكر، والمرأة التي تبلغ الثلاثين من العمر تعتبر مسنّة. يمتلك سكان فارس الذين ولدوا وعاشوا في البحر بشرة ذات لون داكن أكثر من أولئك الذين يعيشون في المناطق الداخلية ذوي اللون الأشقر تقريباً كالأوروبيين. ونلاحظ الشيء نفسه بين أهل جزيرة العرب والهند وإفريقيا كلها، وفي الواقع الشيء نفسه في جميع أنحاء العالم.

إن فرس بوشهر لهم بشرة أغمق من بشرة أهل طهران أو أصفهان، وعرب مسقط وعدن ذوو بشرة سمراء جداً مقارنة بعرب بغداد ودمشق، وهنود ساحل الملبار Malabar أكثر سُمرةً بعدة درجات من هنود راجپوتانا Rajpootana، وصوماليو الساحل البحري تقريباً سود، بينما صوماليو غالا Galla ذوو بشرة لونها بني ماهوغاني، وسكان كلّ من: Fingo, Caffres, Anpenda, Zulu على السواحل الجنوبية الشرقية لإفريقيا يمكن تسميتهم (زنوج) أمام سكان Matabete – Macololo في الداخل. وهذا كله يؤكد لنا حقيقة أنه ليست الحرارة وحدها وإنما الحرارة ورطوبة الجو تجتمعان لتؤثرا على لون بشرة الإنسان.

* * *

الفصل الرابع

عبور الخليج إلى الكويت

الجنود المتضوّرون جوعاً - الباخرة البريدية الأولى - رجل عربي ثري - السكان المندهشون - الانفجار - منزل الشيخ - المجوهرات الثمينة - تفحص باخرتنا - تقديم السلام - الشربات التركية - تفريغ الممر «اترك حذاءك قرب الباب وأبقِ قبعتك على رأسك» - حسن الضيافة - المراكب - الحمير البيضاء كالثلج - عشاء على الطراز الشرقي - الغفوات المشوّشة - العودة إلى السفينة - زيارة إلى شط العرب - الجواميس المائية - على ضفة رملية - البَصرة.

عند الغروب كانت الباخرة مستعدة للمغادرة، وعندما اختفى آخر شعاع للشمس الراحلة وراء الأفق الغربي أبحرنا متجهين نحو الغرب عبر الخليج إلى الكويت[1] أو القُرين Kurein، أثناء الليل مررنا جنوب جزيرة[2] Karak الصغيرة، وعلى الطرف الشمالي الشرقي منها يوجد معقل فارسي صغير بائس المنظر، يشغله بعض الجنود نصف الموتى من الجوع، وتبدو عليهم سيماء الجنود الهاربين لتوّهم من هزيمة كاسحة. وحوالي العاشرة صباح اليوم التالي مررنا جنوب جزيرة «فيلوچه» Feludsheh (فيلكا) الصغيرة، وهي جزيرة رملية مسطحة ومنخفضة، وبالكاد يمكن

(1) ترد التسمية في الكتاب مصحفة: El Kurweit.

(2) كذا ترد التسمية Karak مصحفة بالأصل، ولعلّه يقصد جزيرة فارورة أو جزيرة كبر. وهذا منطقي، لأن هاتين الجزيرتين تقعان إلى الجنوب من جزيرة فيلكا، وكانت باخرتهم قادمة من الجنوب من مسقط مروراً ببندر بوشهر.

رؤيتها فوق سطح البحر، تعود لشيخ أو حاكم الكويت.

وصلنا إلى ميناء الكويت بعد ساعة من الزمن، ورسونا على بعد ميل ونصف تقريباً من الشاطئ لأن الكابتن كان يجهل حال هذا الميناء؛ فهذه هي المرة الأولى التي ترسو فيها سفينة بريدية في هذا المكان، وسبب مجيئنا إلى هنا هو أنه من بين ركابنا كان هناك تاجر عربي غني جداً لديه عدة مئات من حزم البضائع التي جلبها من بومباي على متن سفينتنا، وقد كان أحد الأقارب المباشرين لشيخ الكويت[1]، وبالتالي فهو رجل ذو نفوذ كبير في هذا المكان، وقد وعد الشركة بكل المساعدة والرّعاية التي يمكن لقرابته مع الشيخ أن تؤمنّها إذا اضطرت الباخرة أن تحط هنا مرة كل شهر.

عند دخولنا إلى الميناء أو بالأحرى إلى الخليج أطلقت الباخرة ثلاث إشارات نارية دوت بصوتٍ عالٍ فوق سطح الخليج الواسع والهادئ الذي يشبه المرآة، محاطاً من الغرب والشمال والجنوب بصحراء رملية.

جذبت الإشارات النارية انتباه سكان تلك المدينة الصغيرة بأسرهم، والذين توافدوا إلى الشاطئ يحدّقون ويشيرون إلى المكان الذي نضع فيه مرساتنا. باستثناء هذا كان الهدوء البارد يعم كل مكان، ولا يوجد أي قارب يطفو في أي اتجاه مع أننا كنا نرى العديد منها مسحوبة إلى الأعلى وجافة على الشاطئ.

وبالنظر من بعيد بدت كأنها تماسيح ضخمة تصطلي بأشعة الشمس الحارقة، وبدا على السكان أنه ليس لديهم أي رغبة في جعل القوارب تطفو في البحر أو تأتي إلى جانب السفينة.

---

(1) التاجر المذكور هو الشيخ يوسف بن عبد الله الإبراهيم، شقيق إحدى زوجات الشيخ صباح بن جابر الصّباح، وبالتالي خال الشيخ عبد الله بن صباح حاكم الكويت وشقيقيه الشيخين محمّد وجرّاح. وكنا التقينا بالشيخ يوسف في كتاب الرحّالة عبد الله وليَمسون المسلماني «رحلات المغامر العربي»، وفيه أخبار إضافيّة عنه وعن حادثة مقتل الشيخين محمّد وجرّاح على يد أخيهما غير الشقيق الشيخ مبارك بن صباح وابنيه عام 1896، وكيف ظلّ الشيخ يوسف الإبراهيم معارضاً لهذا العمل حتى وفاته عام 1908. ومن الجدير بالذكر أنّ الشيخ يوسف غدا إبّان حكم ابن أخته محمّد بن صباح الصّباح (1892-1896) الآمر النّاهي في الكويت وكأنه الحاكم.

بعـد ذلـك بقليل لاحظنا عدداً مـن الرجال نصف العراة يخرجون مـن مبنى كبير محترم تبين بعد ذلك أنه مسكن الشيخ. واستطعنا رؤية الرجال منهمكين بنشاط بحمل وترتيب شيء ثقيل عندما - فجأة تم إطلاق عيارين ناريين متعاقبين بسرعة والضربة الثالثة أتت بعد ذلك بقليل لترعد فوق الماء مع تحطم هائل سبّب ارتباكاً واضحاً بين الحشود المجتمعة على الشاطئ وجعلنا نعتقد أن هناك حادثاً كبيراً قد حدث حيث لم نسمع شيئاً بعد ذلك[1]. بعد قليل شاهدنا مركباً كبيراً مندفعاً ومزوداً بنوع من قمرة خاصة بالمركب مصنوعة من إطار خشبي مغطاة ببساط أخضر كبير، وقد اصطف في هذا القارب عشرة أو اثنا عشر عربياً أقوياء البنية، عراة حتى الخصر جاؤوا بخط مستقيم نحو الباخرة.

كان على دفة قيادة المركب[2] زنجي أسود فاحم ذو حجم عملاق يغنّي بصوت جهوري أغنية طويلة جداً، ويمضي وقتاً مع المجذفين المصطفين بكسل على طول القارب يردّدون االلازمة عند نهاية كل مقطع، وتنتهي الكلمة الأخيرة دائماً بلحن غارق حزين ورقيق. كان القارب يعجّ برجال ذوي طلعة حسنة بثياب بدوية صارخة الألوان مدجّجين بالسلاح يحملون بنادقَ ذوات سَبَطانة مفردة طويلة جداً ومسدساتٍ ذوات قدّاحة صوّانيّة وسيوفاً عربيّة ويَطَقانات[3] حدباء وخناجرَ. وهؤلاء الرجال المدجّجون بالسلاح هم الحراس الشخصيون للشيخ، الذي عند وصول مركبه إلى جانب سفينتنا خرج من حجرته وصعد على متن الباخرة حيث خفّ لاستقباله قريبه التاجر العربي، فتعانقا بالطريقة العربية المعتادة حيث قبّل كل منهما الآخر على كتفيه ثم قام التاجر بتقديم الكابتن للشيخ والعمل كمترجم ليترجم لغة الشيخ العربية إلى الهندية، اللغة التي يفهمها الكابتن[4].

* * *

---

(1) لكنه بعد ذلك يذكر أن أحد المدافع القديمة قد انفجر، وأدّى إلى مقتل رجلين وإصابة آخرين.

(2) يعرف ماسك الدّفة في التراث البحري للخليج العربي بتسمية: «السكوني».

(3) اليَطَقان تسمية تركيّة Yatağan تعني نوعاً من السّيوف القصيرة المحدودبة، لها في مقدّمة نصلها حدبة مشطوفة مزدوجة الحدّ.

(4) سبق الذكر أنّ الكابتن اسكتلندي الجنسية.

والشيخ[1] رجل طويل القامة، مفتول العضلات ذو ملامح جذابة ولحية فضية مرسلة، يبلغ من العمر أكثر من ثمانين عاماً وتبدو على وجهه ملامح الذكاء، وهو مهذّب جداً في كلامه وعاداته الشرقية.

كان يلبس رداءً عربياً حريرياً رائعاً، وعلى كتفيه تدلت «عباءة» أي دثار بنفسجي اللون مطرز بالذهب بسخاء، وتلألأت يداه بالمجوهرات، وفي الوشاح الأبيض الحريري الملفوف حول خصره وضع خنجراً صغيراً ذا مقبض من الذهب الخالص مرصعاً بأحجار اللؤلؤ، والفيروز، والياقوت، والزمرّد، وهو سلاح الهدف منه التزيين أكثر من الاستخدام.

وكان الشيخ مصحوباً بحشد من المرافقين جميعهم يرتدون زياً رائعاً ويتزينون بالمجوهرات. رأينا بين هؤلاء الناس عدة زنوج فتيان، أحدهم يحمل سيف الشيخ الأحدب المنقوش والمرصع بترف والمصنوع بطريقة متأنقة جداً، وفتى زنجي آخر حمل معه نرجيلته أو غليونه المائي الأكثر ترفاً والفارسي الصنع، وزنجيان آخران حملا له (الشّطب) "shattab" أو الغليون التركي الطويل الذي يسميه الأتراك (شُبُق) "chibook"، وكذلك كان مزيناً ومزخرفاً بشكل مفرط. بدا جلياً أن الشيخ كان مجهزاً لتلك الزيارة وقد استعد لاستقبال الكابتن بأبهى حلته.

ألحّ الشيخ على رؤيته للباخرة من الداخل، فتم إطلاعه على غرفة الكابتن الرئيسية، الصالون، حجرات المسافرين، المطبخ وغرفة المحرك، وكانت - كما ظهر عليه - رؤية أبهجته حقاً، وخصوصاً رؤية المحرك الذي شُغّل ليقوم بحركة أمامية وخلفية من أجل زيارة وتفحص الشيخ، إنها رؤية لم يشهدها من قبل، فعلى الرّغم من أنه رأى

---

(1) كان شيخ الكويت آنذاك الشيخ عبد الله بن صباح بن جابر بن عبد الله بن صباح العُتبي الشملاني، وهو خامس شيوخ الكويت من آل الصّباح، ويُعرف بعبد الله الثاني. ولي الحكم عام 1866 وتوفي إلى رحمة الله عام 1892 فخلفه أخوه الشيخ محمّد حتى مقتله عام 1896. فتولّى بعده الشيخ مُبارك بن عبد الله (مُبارك الكبير) حتى وفاته إلى رحمة الله سنة 1915، وجميع آل الصّباح حكام الكويت الحاليين هم من ذريّته حصراً.

سـابقاً عدة سـفن في عرض البحر لم تتسـنَّ له فرصة الصعود على متـن أي منها، ولم يسـبق أن جاءت إحدى السفن إلى شاطئه. وهذا يجعلنا نفترض أنها كانت سفناً حربية بريطانية، واحدة أو اثنتين منها كانت تجول الخليج العربي باستمرار لتمنع تجارة العبيد والقرصنة في تلك المياه.

عنـد مرور الشـيخ بين حشـد الـركاب المحليين الذيـن كانوا على متن السـفن كان الجميع يحيّونه بكل احترام على الطريقة الشـرقية، أهل هندستان وجزيرة العرب كانوا يقومون بـسلامهم الخاص الذي يكون عند هاتين الأمتين بانحناءة منخفضة، يلامسون عنـد الانحنـاء أوسـط جبهتهم بأطـراف أصابـع أيديهم المفتوحـة براحة اليـد موجهة للداخل، بينما ينحني الأتراك والفرس بالتحية وأيديهم متصلبة فوق صدورهم.

وبيـن تلك الأقـوام الأربعة كانت العادة أن يحيي الشـخص الأقل مرتبة الشـخص الأعلى منه أولاً؛ وذلك بإمسـاك الطرف السفلي لثوب أو عباءة الآخر وطبع قبلة عليه، تحيّة توري عن أقصى درجات الخنوع المذلّ وتحقير إلى منزلة متدنيّة لا يمكن تحمله في الحياة المتحضرة.

بما أن الشـيخ تناول معنا في الصالون بعض الأشـربة المنعشـة والمقبلات المؤلفة مـن فنجـان صغير من القهـوة الصافية قوية المـذاق على الطريقة الشـرقية، وكأس من الشـربات أو الليمونـادة الشـرقية وبعض اللحوم الحلـوة، قام بدعـوة الكابتن وجميع الركاب الأوروبيين إلى العشاء معه وقضاء الليل معه على الشاطئ، وكانت دعوة قبلها الكابتن ليتفضّل على الشـيخ، وفي سبيل العمل أكثر ما يكون من أجل سروره الخاص، وكونـه ألـح عليّ بمرافقته مضينـا إلى الأمام وتركنـا أوامر أن يأتي قـارب ليأخذنا عند الشروق في صباح اليوم التالي.

في طريقنا إلى الشاطئ أخبرنا الشيخ أن أحد مدافعه قد انفجر متسبباً في قتل رجلين في مكان الحادث وإصابة أربعة أو خمسـة رجال بجروح خطيرة. وكان سيقوم بإطلاق عـدد أكبـر من العيارات الناريـة تحية لنا لولا الحادث الذي ثـبط عزيمته. عند وصولنا وجدنا الشـاطئ يعج بجمهور من الجنسين كليهما توّاقين لرؤية «النُّوخَذه»، أي قبطان

«سفينة النار» كما كانوا يسمّون الباخرة التي تشق عباب البحر دون أيّة أشرعة مثبتة حتى عندما لا يكون هناك أي نسمة هواء ودون استخدام المجاذيف. كان كابتن سفينتنا الاسكتلندي الصغير مكسواً بأناقةٍ ببذلته الرسمية الجديدة ولديه سيف صغير مستقيم يتدلى من جنبه، وكان ـ كخنجر الشيخ ـ يحمله للمنظر أكثر من كونه للاستخدام. لولا وجود الشيخ لكنا بالتأكيد سحقنا من قبل جماهير السكان الذين كانوا متلهفين لإلقاء نظرة أو لمحة على الفرنجة أو الفرنكين (الأوروبيين)؛ فالعديد منهم وخاصة النساء لم يسبق لهم أن شاهدوا مخلوقات مثلنا طوال فترة حياتهم. قام حراس الشيخ بفتح ممرّ بين الحشد من أجلنا بطريقة خشنة إلى حد ما، بعد ذلك وصلنا بأمان إلى مكان إقامته؛ وهو بناء مبني بالطوب مربع وقوي فيه باحة فسيحة في الداخل وفي وسطها كتلة من الأشجار غير المنتظمة والأزهار كبديل عن الحديقة. قام الشيخ باقتيادنا إلى قاعة الاستقبال الخاصة به، إنها غرفة واسعة ومرتفعة تسمح بدخول الهواء النقي وضوء الشمس عبر شبّاكين وباب يؤدي إلى الباحة.

كانت الغرفة ببساطة عبارة عن جدران وسقف مطليين بالكلس ورُسم عليهما نوع من اللوحات الجصّية ذات اللون الأزرق الفاتح، إنها الزخرفة الوحيدة للبيوت الإسلامية؛ فوجود صور لأي كائن حيّ محرّم بشدة في القرآن، كانت الأرض بكاملها مغطاة بسجاد إيراني فاخر وعلى طول جدران الغرفة توجد الدّواوين، وهي ضرب من أنواع الأرائك منخفضة ومسطحة وعريضة، ويجثم عليها الفرس والعرب والأتراك، الرجال منهم والنساء مصالبين أرجلهم تحتهم (متربّعين) على طريقة خياطينا المبدعين عندما يعملون. إنها جلسة متعبة وغير مريحة إلى حدٍ ما بالنسبة للأوروبيين ولكن سرعان ما يعتاد المرء عليها، وهي الطريقة المعتادة للجلوس عند جميع المسلمين وعند معظم سكان آسيا أيضاً الذين يستطيعون البقاء بتلك الوضعية لمدة ساعات وحتى أيام دون أن يصابوا بالتعب.

هناك عادة إسلامية هي أنه عندما يدخل رجل أو أمراة إلى غرفته أو غرفة شخص غيره يتركون أحذيتهم أو شباشبهم خارج الباب أو على الأقل يخلعونها قبل جلوسهم

على الديوان بالطريقة المذكورة في الأعلى، جميع المسلمين باستثناء رجال الجيش باختلاف مراتبهم يذعنون لتلك العادة، وهناك شيء يعدّ علامة من علامات الاحترام هو أنه عندما يوافق الزوار الأوروبيون على خلع أحذيتهم يلبسون نوعاً من الخف المغربي الخفيف بدل أحذيتهم طوال فترة بقائهم في الغرفة.

في مجتمعات البلدان المتحضرة جيدة التربية يعدّ عدم خلع المرء لقبعته عند دخوله الغرفة إهانة عظيمة، ولكن بين المسلمين على العكس تماماً؛ فهم لا يخلعون أغطية رؤسهم وإن كانت عمامات - قبعات فارسية أو كوفية أو طربوش - إلا عندما يذهبون إلى النوم.

لن يقوم أي شخص أوروبي إذا كان على معرفة بعادات المسلمين بخلع قبعته في وجوههم إلا اذا كان ينوي توجيه إهانة عظمى بحقهم. لذلك عندما دخلنا غرفة الشيخ أبقينا قبعاتنا مربوطة فوق رؤسنا لكننا خلعنا أحذيتنا عند ظهور أربعة صبية زنوج يرتدون ثياباً صارخة الألوان، كل منهم يحمل في يده زوجاً من الخفّ المغربي الأصفر الرائع والجديد ذي النهايات المعقوفة.

قمنا بارتدائها ثم مشينا مرتبكين إلى الديوان، وعندما دعانا الشيخ للجلوس قمنا بخلع نعالنا مرة أخرى وجلسنا متربعين بطريقة شرقية حقيقية. بدأ الكابتن بمحادثة لطيفة مع مضيفنا بوجود التاجر العربي كمترجم[1]. تم إحضار النراجيل والغلايين العابقة بتبغ الرائحة العطرة والتي تم إشعالها مسبقاً من قبل الصبية الزنوج، فقمنا بالتدخين ونفث الدخان بقوة.

آنذاك سرعان ما قام أحد العبيد بإحضار مبخرة فضية ثقيلة تشبه الشمعدان تبعث منها أطيب رائحة على الإطلاق ووضعها في وسط الغرفة، العبيد الآخرون تمركزوا واحداً بجانب كل أوروبي وواحداً بجانب مترجمه، يلوحون بمراوح كبيرة[2] مصنوعة من ريش النعام لتحرّك بلطف الهواء المعطر وتطرد الحشرات الطائرة التي لا تحصى.

---

(1) أي الشيخ يوسف الإبراهيم المذكور أعلاه.

(2) وتسمى هذه المراوح بالمهفات.

ثم ظهر آخرون من العبيد كل منهم يحمل صينية صغيرة ووضع عليها خمسة أو ستة كؤوس ذهبية صغيرة بدت كأكواب البيض مملوءة بالقهوة الممتازة ولكنها قوية جداً، حيث قدموها وانسحبوا ليعودوا بعد قليل بصوانٍ أخرى ويقدموا لنا كؤوساً وردية اللون مملوءة بالشربات - شراب فارسي لذيذ، وكثيراً ما يشبه في طعمة الليمونادة الجيدة - أما النبيذ والمشروبات الرّوحية فقد كانت محرّمة بشدة على أولئك الذين يؤمنون بالقرآن. وإلى جانب الشربات قدموا لنا (الحلوى) من مسقط - الحلويات الذي تم وصفها سابقاً.

باستثناء السّنيور (P) الذي قضى مدة عشرين عاماً في مصر وجزيرة العرب، لم يشعر أي منا بالرّاحة في تلك الوضعية الشرقية التي اتخذناها وأرجلنا ملتفة تحت جسدنا، وكان ذلك واضحاً من وجوهنا الملتوية ونظراتنا القلقة التي كنا نوزعها بعضنا على البعض. أخيراً بعد أن أصبح الوضع لا يُحتمل تم إنقاذنا بأن ذهبنا في جولة سيراً لرؤية المدينة، عندها أمر الشيخ ثمانية حراس أو مرافقين بالذهاب معنا.

حاول الكابتن جاهداً وبطريقة مهذبة أن يرفض تلك المرافقة ولكن عبثاً، ولكن قدّم المرافقون لنا فائدة عظيمة في إبقاء هذا الحشد المدهوش والشحادين المزعجين على مسافة بعيدة منا. وجدنا أن المدينة تشبه مسقط إلى حد كبير، لكنها تختلف عنها كثيراً من جهة النظافة؛ فقد تبين بشكل ملحوظ أن الكويت كمدينة عربية كانت نظيفة جداً، ومع ذلك نادراً ما قام أحد الأوروبيين بزيارتها في السابق وكانت تعدّ مكاناً خارج الطريق حتى من قبل العرب. تقع الكويت على مسافة أربعين ميلاً جنوب فتحة شط العرب - نقطة تلاقي نهري دجلة والفرات - أي على السواحل العربية، إنها ميناء بحري يسكنه من خمسة عشر إلى عشرين ألف نسمة جميعهم تقريباً من العرب.

وهي أبعد ميناء بحري من جهة الشمال عن منطقة الحَسَا (الأحساء) والتي تعرف منطقتها باسم جزيرة العرب، وبما أن مدينة الكويت محاطة من الشمال والجنوب والغرب بصحراء الدّهناء Eldahana الموحشة فإن مناخها حارّ لدرجة مخيفة، وبالتأكيد المناطق المجاورة للكويت أيضاً حارة جداً ومقفرة باستثناء حديقة الشيخ

الصغيرة الموجودة وسط باحة منزله، وعلى مدّ النظر لم نستطع رؤية شجرة ولا شجيرة ولا حتى ورقة عشب واحدة في داخل أو خارج المدينة. ليس هناك تربة، لا شيء سوى الرّمال المتوهجة المنجرفة من الصحارى المجاورة، والعديد من البيوت البعيدة عن الشاطئ المدفونة حتى الأسطح تقريباً بالرمال المنجرفة. ولكن هناك مقولات أنه توجد بعض الواحات في الصحراء على بعد ثلاثين ميلاً من المدينة تنتشر هنا وهناك كجزر في المحيط، مواقع ينمو فيها العشب والشجيرات نتيجة لوجود الماء، مياهها وافرة نوعاً ما ويتدبّر الكويتيون مؤنهم من الخضار والطعام للبشر والبهائم من تلك البقعة الخصبة ومن البَصرة قرب مدخل شط العرب.

يجلبون من (البَصرة) بمراكبهم حمولات كاملة من الأرز، التمور، القهوة، الشعير، الذرة، التبن وغيرها.

تلك المراكب عبارة عن قوارب شراعية ثقيلة رديئة الصنع، تحمل ما بين خمسين إلى مئتي طن من الشحن، هيكلها يتخذ شكل الوتد العريض، عارضتها الرئيسية حادة والدفة غليظة جداً كونها غير مصقولة إلى حدٍ مضحك. في الجزء الخلفي من المركبة هناك غرفة أو حجرة خاصة بالسفينة، يقف على قمتها قائد الدفة، يدير الدّفة صعبة المأخذ لثقلها بواسطة محور طويل مثبت في إحدى نهايات مكان أفقي في الدفة؛ حيث بتثبيته بتلك الطريقة يشكل قبضة أو رافعة للدفة، يحمل هذا المركب صارياً واحداً فقط يقف في الوسط، ولكن بدل أن يكون هذا الصاري مستقيماً إلى الأعلى أو مائلاً إلى الخلف قليلاً كما هو الحال في مراكبنا الأميركية فهو مائل إلى الأمام بزاوية ستين درجة تقريباً. على قمة هذا الصاري يوجد الشراع الكبير والوحيد يرفع بواسطة بكرة.

والخاصية الأكثر غرابة وإدهاشاً لهذا المركب أنه عندما يكون محملاً للإبحار فإن مقدمته ترتفع فقط من اثنين إلى ستة أقدام فوق سطح الماء بينما يرتفع رجل الدفة عن سطح الماء فقط عشرة أو حتى عشرين قدماً - تبعاً لحجم المركب - وبصرف النظر عن الشكل الأخرق، على نحو استثنائي لتلك المراكب فإن البحارة العرب يبرعون في

قيادتها إلى حدٍّ باهر، ويقدمون بجرأة على الخروج حتى في أسوء حالات الطقس، وفي بعض المراكب الكبيرة يقومون برحلات بعيدة إلى حدود الهند، مدغشقر، والساحل الإفريقي الشرقي.

إن جميع سكان الكويت من الرجال تقريباً يعملون كتجار أو بحارة يتبادلون مع البصرة والشواطئ الفارسية أو مع القبائل البدوية البربرية في الصحراء اللآلئ، البخور، الأسلحة النارية، المؤن الحربية، القماش، السروج، السجاد والكثير غير ذلك مقابل الجلود، صوف الخراف، وبر الجمال، المصطكاء العربية، القهوة، التمور وغيرها. والكثير من السكان يربون قطعان الأغنام، والأحصنة، والحمير، والماعز والجمال التي تنشط تربيتها قرب الواحات المذكورة في الأعلى، وإبلهم مشهورة في أنحاء جزيرة العرب لسرعتها وقوة تحملها، وكذلك حال حميرهم ناصعة البياض. ونساء الكويت ذائعات الصيت بصناعتهن ومهارتهن في جميع أنواع الأعمال اليدوية كالحياكة والغزل والنسيج وغيرها من الصناعات، وكذلك هنّ مشهوراتٍ بملاحتهنّ وطلعتهن البهية، ويعدّهن الفرس والأتراك من أكثر النساء حُسناً على طول ساحل الخليج العربي.

* * *

عند عودتنا إلى منزل الشيخ وجدناه يجلس متربع الرجلين بالوضعية نفسها التي تركناه بها عندما مغادرتنا، وكان منهمكاً بإلقاء الأوامر على خدمه الذين كانوا يقومون بالتحضير لتقديم العشاء. كانت الطاولة - إذا صحّت تسميتها بهذا الاسم - مجهّزة مسبقاً على شكل حصيرة قش هندية جيدة القوام، حوالي عشرة أقدام مربعة ممدودة على السجادة الفارسية الفاخرة التي غطت الأرض، ونصف دستة من الوسائد الطرية مكسوة بالقماش الأزرق، ولها شرّابات من كل زاوية، كانت ملقاة على الحصيرة بشكل دائري ومسافة متساوية البعد عن بعضها البعض والغرض منها أن تكون مجالس للضيوف. وأمام كل وسادة وضع بساط صغير من القش الأصفر مدوّر تماماً يبلغ قطره قدمين تقريباً وكان محبوكاً بشكل جيد تماماً كقبعة بنما. في وسط كل من تلك البسط

وضـع وعـاء فضي ثقيل لا يزال فارغاً، وكان على جانبيه كأسـان فضيان؛ الأول مملوء بالماء والآخر فيه حليب حامض الطعم يسميه العرب (لبناً)، ولكن من أي حيوان جاء أو مـن أيـن أتى به الشـيخ؟ هذا ما رغبت في معرفتـه كوننا لم نرَ أي بقـرة، أو عنزة، أو فـرس أو ناقـة في جميع أنحاء المدينة. بعد ذلك تم إخبارنـا بأنه من حليب النّوق[1] أو الإبـل العربية المرباة بأعداد كبيرة مـن قبل الكويتيين في إحدى واحات الصحراء التي تم ذكرها، وأن اللبن تم إحضاره إلى المدينة بواسـطة أكياس مصنوعة من جلد الماعز حملـت على ظهر إحدى الحيوانات - وهي الطريقة المعتادة لجلب الماء، والحليب، والزيت والسّمن في جزيرة العرب.

ولكن الشيء الذي استوقف انتباهي بقوة عند تجهيز طاولة الطعام كان مجموعة من السـكاكين الفضيـة الجميلة أوروبية الصنع، والتي بدا واضحاً أنها جديدة ولـم تستعمل مـن قبل؛ حيث علمنـا بعد قليل أن التاجر العربـي أحضرها معه من بومباي. بالطبع كنا متلهفين جداً لرؤية الشيخ وابن أخيه المقدام وهما يسـتعملان للمرة الأولى في حياتهما أدوات فـن الطعـام المتحضرة. تم تقديم الطعـام بطريقة مذهلة؛ حيـث أحضر الخدم أعـداداً هائلة من الأطبـاق المؤلفة من لحم الماعز المسـلوق، خروف كامل مشـوي، لحم جمل مشـوي، دجاج، ثلاثة أنواع من السـمك، شرائح بصل، لوز، زبيب ودجاج محمّـر، وهـو من الأطباق العربية المحلية ويشـبه إلـى حد ما طبقاً مشـهوراً في الجزء الشمالي من إفريقيا يدعى «الكُسـكُس».

إلى جانب تلك الأطباق كان هناك كميات كبيرة من الخضار والفواكه الموجودة في جزيرة العرب ولكن تم إحضارها من البَصرة. كان الطعام بكامله جديراً فعلاً بأن يكون سيد الأطعمة. بعد تقديم كل الأطباق قام مضيفنا باتخاذ جلسـته الشرقية وأومأ لنا بأن نفعل مثله تماماً، وسـكب لنفسـه أولاً حصة من كل طبق، ليـس رغبة في تفضيل نفسـه إنما هي عادة عربية ليؤكد أن الطعام غير مسـموم ولم يتم التلاعب به. وحالما أنجزت شـكليات تذوق الطعام من قبل مضيفنا شرعنا جميعنا ومنحنا أنفسـنا حرية اختيار من

(1) وهذا اللّبن يسـمّى لبن الخلفات، وهي النّياق الوالدة اللبونة.

أي شيء. توقفت المحادثة لبرهة من الزمن إلى أن انتهى العشاء تقريباً، وأذهلتنا بشدة الطريقة التي قام بها الشيخ وقريبه باستخدام شوكاتهم وملاعقهم، وبدا عليهم جلياً أنهم اعتادوا أكثر على تناول الطعام بأصابع أيديهم. لم تكن الملاعق والشوكات تستخدم في أي مكان من قبل أهالي العرب، وبذلك يتوجب على جميع الشرقيين وربما بالإكراه الانحياد عن عادات وتقاليد أسلافهم عند الحاجة.

وأتساءل ما إذا كان السلطان نفسه يقوم باستخدام الملاعق والشوكات عندما يتناول طعامه وحيداً.

كان الخبز المقدم لنا على الطاولة جيداً مخبوزاً على شكل فطيرة محلاة ومصنوعاً من الحنطة المطحونة بالطواحين اليدوية الشرقية المعروفة، المؤلفة من حجرين مدوّرين ومسطحين يشبهان أحجار الرحى، متوضعين أفقياً فوق بعضهما البعض، يدور الحجر العلوي على محور في الوسط عندما يتم تحريكه بواسطة قبضة حجرية مثبته عمودياً قرب حافة الحجر، وتوضع الحنطة لتدخل بين الحجرين من فتحة موجودة في الحجر العلوي، وهناك يتم سحقها وطحنها عن طريق ضغط واحتكاك الحجر العلوي بالحجر السفلي لتخرج أخيراً بشكل طحين خشن.

وأود بقوة أن أقول: إنها أكثر مطحنة بدائية على الأطلاق، وغالباً كانت تستعمل في زمن إبراهيم، كان هناك أيضاً كميات وافرة من السّمن والجبن ومع ذلك كان الأول منهما غير سائغ وذا طعم قوي غير مستحبّ، ومصنوعاً من حليب الأغنام. أما الجبن الذي كان يدعى من قبل السكان (جبن) "chibben" فهو لذيذ ذو لون أبيض مخضرّ، مصنوع من حليب الماعز والأغنام، وما أخشاه أن شهيتنا بدت فظة أمام مضيفنا وقريبه اللذين أكلا بشكل حريص جداً وبشكل رئيس من الخضار، كون رجال العرب متقشفين جداً ويفضلون الخضار على الطعام الحيواني. وبعد انتهاء العشاء واصلنا تدخين الغلايين وشرب القهوة والشربات التي عادت لتقدّم من جديد.

في ذاك الوقت كان النهار قد مضى بسرعة والشمس تتلاشى في الغرب بشكل خاطف، ممّا دعا مضيفنا أن يستأذننا بالذهاب ليؤدي فرائض وضوئه وصلاته. خلال

فترة ذهابه تحدثنا عن تجربتنا الممتعة في هذا اليوم، عند عودته قام بدعوتنا لمرافقته إلى سطح منزله المستوي، وهو في جميع أنحاء جزيرة العرب المكان المعتاد للتنزه كونه المكان الأفضل للاستمتاع بنسيم المساء، ويعدّ السطح أيضاً مهجعاً لسكان المنازل المجبرين على النوم فوق أسطح منازلهم بسبب المناخ شديد الحرارة، وهو المكان الوحيد المكشوف للهواء العليل والخالي نسبياً من الغبار والحشرات الطفيلية. يُحمل الفراش إلى داخل المنزل في الصباح ثم يوضع على السطح مجدداً قبل الغروب بقليل. ومن قمة السطح تمتعنا برؤية شاملة للخليج الساكن الذي يشمل 3024 جزيرة صغيرة ومقفرة، ورأينا باخرتنا بوضوح وهي راسية.

بدا أن جميع سكان الكويت دون استثناء اجتمعوا فوق سطوحهم ليستمتعوا بالنسيم المنعش الذي أتى برفقة محملاً برائحة عليلة عبر الخليج، كان المشهد أمامنا يمنح متعة عظيمة. فهنا يوجد مسلمٌ صالحٌ لا يزال منهمكاً في صلاته الخاشعة وهناك زوجان فتيان يتهامسان أحاديث الحب الرقيقة، وفي مكان أبعد أمٌّ ترعى صغارها، وعذراوات عربيات يغنين الأغاني المحلية الحزينة والشجية، وهناك بعيداً في الصحراء العديد من المسافرين المنفردين، على الأقدام، على ظهر الخيل وعلى ظهر الجمال، أجسام داكنة تتناقض بشكل غريب مع الأفق الذهبي في الخلف.

وشخص أميركي ينام للمرة الأولى في حياته على سطح منزل عربي ويشعر بأنه بحالة مربكة إلى أبعد الحدود؛ فقد تلاشت خصوصية غرفة النوم تماماً، وينتابه ذاك الشعور البائس لكونه هدفاً للفضول الحاد لسكان المنازل المجاورة وأن جميع تحركاته مراقبة عن كثب؛ مع ذلك فسرعان ما كان لطريقتهم غير المهتمة وعدم اكتراثهم بخصوصية جيرانهم أثر في إعادة الطمأنينة إلى قلبه، لذلك انسحب إلى النوم بكامل البرودة والرزانة. كما هو الحال في جميع البلدان الجنوبية يحل الظلام سريعاً بعد غياب الشمس، بما أنه بالكاد يوجد شفق في جزيرة العرب فترى المسافرين المنهكين يسرعون إلى القرى قبل حلول الظلام لتجنب الوقوع في أيدي قطاع الطرق، والمرور بالوحوش المفترسة أو فقدان الطريق وغير ذلك من المخاطر الوشيكة التي

قد يتعرّض لها بعد حلول الظلام المتأخر في التجوال وخاصة إذا كان عليه التنقل في الصحراء. حينما يهبط الليل تتلاشى همهمة الأصوات البشرية تدريجياً ولا يخترق الصمت الهادئ إلا النباح الكئيب لعدد لا يحصى من الكلاب الشريدة التي تغزو المدن الشرقية والتي يبدو أن شهيتها تثار بنسيم المساء العليل والمنعش، أثناء الساعات الأكثر حراً من النهار تقوم الكلاب بالتمدد والنوم بين الرّكام والأماكن الثانوية حيث تنبثق من هناك مع حلول الظلام.

عند منتصف الليل تصبح الكلاب متعبة من النباح، ولكن بالكاد ما ينقطع ضجيجها لمدة خمس دقائق حتى يسمع من بعيد العواء المنتحب لابن آوى، وحالما يجتمع بآخر ثم بثالث ورابع وهكذا إلى أن تبدو تلك الضجة المرعبة صادرة عن الآلاف من تلك الحيوانات الماكرة الجبانة التي تطوف بالليل.

ولكن أصغِ! ما هذا الصوت الخارق للطبيعة الذي يصل إلى الأذنين بهذه اللحظة؟ ولماذا تلاشت فجأة واختفت أصوات بنات آوى؟ ألا يمكن سماعه مرة أخرى؟! ضحكة مبحوحة مرعبة، ضحكة رجل ممسوس؛ لا! لا! إنها ليست ضحكة بشرية. انظر إلى الكلاب الجبانة كيف تنسلّ هاربة عبر الشوارع المهجورة وذيولها مقحمة بين أضلاعها، تبحث بخوف عن مكان تلجأ إليه، ولو استطاعت التحدث لأخبرت بأنها سمعت ضحكة الضبع المروّع الذي انجذب ربما من مسافة عشرين ميلاً إلى رائحة نتنة منبعثة من الجيفة المتعفنة لأحد الحيوانات الصريعة المتمددة في مكان ما من الضواحي، وقد حملت الريح اللطيفة المنبعثة من البحر رسالة الرائحة الكريهة إلى ضبع الصحراء الموحشة.

قام مضيفنا بتزويدنا بأرائك مريحة تمتعنا عليها طول الليل بنسيم البحر العليل ونمنا بعمق لدرجة أن الشيخ كان مضطراً لأن يوقظنا في الصباح خشية أن تسقط الشمس المشرقة أشعتها القوية فوق وجوهنا قبل أن ننهض، وهو الشيء المروّع جداً بالنسبة لكل العرب؛ إذ إنه دائماً يسبب ألماً حاداً في الرأس للنائم المستهتر. عندما جُلنا بنظرنا رأينا القارب الملحق بالسفينة ينتظرنا قرب البحر آنذاك، مما عجّل في مغادرتنا. بعد

الشكر العميق لمضيفنا على ضيافته السخية - الشيء الذي جلب إلى وجهه المتجهّم والكدر ابتسامة كإشراقة الشمس - توعدّ الكابتن بأن يستخدم كل قدراته في الإقناع ليجعل الكويت من الآن فصاعداً مكاناً تقصده بواخر الشركات دائماً، الوعد الذي جعل سيماء مضيفنا الدائمة الجدّية تشرق، ولا زالت ضيافته غير المحدودة تفوق مديحنا؛ حيث إن الضيافة مزّية تخص كل عربي مهما كان فقيراً، لم يكن هناك شك بأن مضيفنا توقع أن يسمع هذه الملاحظة من الكابتن، الشيء الذي كان له تأثير كبير على عمق كرم وفادته لنا الأكثر من طبيعي. قام الشيخ بمرافقتنا إلى الشاطئ وكانت كلماته الأخيرة اعتذاراً لعدم إطلاق تحية المغادرة عند رحيلنا، والسبب هو الخوف بعد النتائج الكارثية لانفجار أحد الأسلحة عندما أراد تحيّتنا عند الوصول؛ إذ يخشى أن يكون مصير التلاحين الباقيين كمصير سابقهما إذا وضعا تحت التجريب مرةً أخرى.

إن الهلاك الوشيك الذي قد يتعرّض له رجاله إثر إطلاق آخر للنار بدا لنا أنه اهتمام ثانوي بالنسبة له وكانت نظرته للأشياء برمّتها ليست سوى عمل مادي كما اعتقدنا. بعد أن وصلنا على متن السفينة أمر الكابتن بإطلاق ثلاثة عيارات كتحية وداع، ثم أبحرنا خارج الميناء وكنوع من التعذيب بقي الشيخ على الشاطئ محاطاً بشعبه إلى أن ابتعدنا عن أنظاره.

قبل ساعة من شروق الشمس في صباح اليوم التالي، دخلنا إلى مصبّ شطّ العرب، وهو الاسم المطلق من قبل السكان على مكان اجتماع مياه نهري دجلة والفرات. يبلغ شط العرب حوالي ميلين في العرض وهو صالح لملاحة السفن الكبيرة من مصبه حتى البَصرة. ترزح المنطقة الواقعة على الضفة اليمينية تحت الحكم التركي، وكذلك من الضفة اليسرى باتجاه الأسفل حتى المُحمّرة Mohammara، ومن هذا المكان حتى مصب النهر تعود المنطقة الواقعة على الضفة اليسرى للفرس. بعيد دخولنا النهر مررنا بمدينة الفاو، إحدى محطات التلغراف الهند-أوروبي تقع على الضفة اليمنى حيث المكان منخفض جداً وسبخي، لذلك فهو غير صحّي أبداً وخاصة في الفصل

الحـار. تتألف محطـة التلغراف من بناء خشـبي رديء المنظر مزود بشـرفتين ومحاط بأكواخ محلية وزوج من الحجرات الخارجية، ويسكنه أربعة من عمال البرق الإنكليز صغـار العمر، يعملون في خدمـة الحكومة البريطانية. تلك المدينة المسـتنقعية مغطاة من كل الجوانب بقطعان كبيرة من الماشية وخاصة جواميس الماء العربية.

إن جاموس الماء يعود إلى سـلالة الثيران ـ كما يشـير اسـمه ـ ومع أن قامته ليسـت مرتفعـة كثيراً كقامة ثور ناضج لكن جسـده أطول وأثقل وبنيتـه أقوى إلى حد بعيد من الآخر، جلده سـميك جداً لونه أسـود مزرق، وتقريباً مجرّد من الشـعر، يشبه جلد الفيـل بعض الشيء، لكنه مشدود بإحكام فوق جسد الحيوان، الشعر القليـل الذي يمكن رؤيته له لون أسود أو رمادي غامق، وخشـن جداً وكلما تقدم الحيوان في العمر أصبح مجرداً أكثر من الشـعر لذا فجلد الجواميس الصغار مغطى أكثر بالشـعر، رأسـه كبير وأعجف مـزود بزوج مـن القرون السـوداء القوية يصل طولهـا أحياناً إلى أكثر مـن ثلاثة أقدام، وتنزل بانحناءة حول عنق الحيوان، تكون الجبهة مغطاة بخصـل شـعر سـوداء والأذنان بشـعر طويل وخشـن، العنـق قصير جداً وصلب إلـى حدٍّ ما، ويحمـل الحيوان عموماً رأسـه مشـدوداً أمامه مباشرةً، قوائمه سـمينة جداً وكثيرة العظام وتبدو أقصر من قوائم الثور، مشـيته بطيئـة جداً ومتمهلة ولكـن عندما يهتاج يمكنه أن يركض بسـرعة كبيرة. بغـضّ النظر عن شـكله الوحشـي فهو بشـكل عام حيـوان ذو طبيعة جيـدة، إن حليب جامـوس الماء ليس أبيض اللـون كحليب البقر المعروف وله لـون مزرّق قليلاً وليس غنياً أو مغذياً.

طريقة مبتكرة لعبور نهر دجلة

وكمـا يدل الاسـم فـإن الحيـوان يقيم في المـاء ولا يسـتطيع النمو بقـوة والترعرع فـي النواحـي والجنبات حيث لا يوجـد ذلك العنصر بوفرة. إنه يبقى خلال السـاعات الأكثر حراً من النهار مغموراً تماماً بالماء ولاشيء منه سوى منخريه خارج الماء، وفي الأماكن غير العميقة بشـكل كاف لغمر جسـمه، يقوم بالتدحرج حتى يغطي نفسـه كلياً بالطين. إنه سباح ماهر لهذا السـبب يستخدم من قبل العرب الذين يقيمون على ضفاف دجلة والفرات كقارب عبور. يجتاز السـكان هذين النهرين على الظهر العريض لتلك الحيوانـات. إن جاموس الماء حيوان محلي في الهند، جزيرة العرب، ومصر وجنوب إفريقيا حيث يربى هناك بأعداد كبيرة، لحمه أدنى درجة من لحم الثيران.

بعد ساعة من مرورنا بالفاو وصلنا إلى المُحمَّرة Mohammra، وهي مدينة صغيرة بائسـة على الضفة اليمنى أو الطرف الفارسـي للنهر، محاطة بغابات كثيفة من أشـجار النخيل وهي تقريباً الأشجار الأولى التي يمكن رؤيتها عند الإبحار في النهر.

تقع المدينة على بعد ميلين من ضفة شطّ العرب على قطعة الأرض المثلثة المتشكلة من التقاء نهر كارون Kuren أو Karoon بشط العرب، يشكل الأول رافداً هاماً للآخر، وينبع من المناطق الجبلية في إقليم لورستان Looristan.

إن مدينة المُحمَّرة Mohammra مكان قذر بشكل مريع، ومسكونة من قبل حوالي خمسـة آلاف شخص معظمهم من العجم الذين يعيشـون في بيوت صغيرة بائسة مستوية الأسـطح مبنية من قطـع الطين المجفف بالشـمس، وتقع المدينة تقريباً على مسـتوى سـطح البحر محاطة بعدد هائل من المسـتنقعات، لذلك يعتبر المكان غير صحي على الإطلاق حتى من قبل السـكان وبالتأكيد غير مأهـول بالأوروبيين ـ على الأقل خلال فترة الصيف. كانت المُحمَّرة وبوشـهر تحت سـطرة الإنكليز منذ ثلاثين سنة مضت، عندما كان هؤلاء الأنفو الذكر منغمسـين في حرب مع الفرس، ولكن الشـاه الفارسـي قام باستعادتهما بعد ذلك بفترة قصيرة.

بعيد مرورنا بالمحمّرة حوالي السـاعة الثامنة صباحاً وصلنا قرب جزيرتين صغيرتين واقعتيـن في وسـط النهـر بعد إبحار لمدة سـاعة. كانـت الجزيرتان مغطاتين بأشـجار

النخيل التي نمت بشكل عظيم، هنا صادفت الباخرة فجأة ضفة رملية لكننا نجونا منها دون جهد كبير. ساعة أخرى من الإبحار حملتنا على الرسو مقابل مكتب الجمارك في البَصرة، هنا كان علينا أن نترك الباخرة الجيدة (بينانغ) والتي حملتنا بأمان بعيداً إلى هذا المكان.

بعد تمنّي (رحلة موفقة) من القلب للكابتن نقلنا أمتعتنا إلى المركب النهري (دجلة) "Tigris" الذي كان عليه أن ينقلنا إلى بغداد، ثم ذهبنا لزيارة مدينة البَصرة حيث وجدناها مدينة تعيسة كدرة وغير صحية إلى حدٍّ لا يستهان به، كائنة في موقع سبخي منخفض جداً معروف بتفشي الحمّى والملاريا فيه. قبل عدة قرون مضت كان هذا المكان يغطي مساحة من عدة أميال ويسكنه آنذاك أكثر من مئتي ألف نسمة، ولكن في وقت زيارتنا كان عدد السكان بالكاد يصل إلى أربعين ألفاً معظمهم مسلمون، وهذا التضاؤل في عدد السكان يعزى بكامله إلى وباء الطاعون الذي زار المكان مراراً وتكراراً بالرغم من كونه مكاناً مثيراً للاشمئزاز. مع أن هذا الوباء المرعب يشبه إلى حدٍ ما مرض الكوليرا لكنه مفاجيء ومميت أكثر منه، وأولئك الذين يصابون بالمرض لا يمكن لهم أن يتعافوا منه نهائياً، إنما يموتون بعد عدّة ساعات من انتياب المرض لهم، ويصبح الجسد بعد الوفاة ذا لون رصاصي شاحب. كانت آخر زيارة لهذه الكارثة عام 1831، عندئذٍ - كما أعتقد - سقطت أعداد هائلة أمام هذا العدو القاتل، لذلك ترى البَصرة الآن قليلة السكان، والمكان في حالة من أكثر الحالات بؤساً على الإطلاق، كما عانت أيضاً من غارات القبائل البدوية المعادية خلال القرن الماضي.

بنيت مدينة البَصرة على يد الخليفة عمر الأول عام 635، وبقيت حتى القرن السابع عشر أحد أهم المراكز التجارية الرئيسية في غرب آسيا، ولكن الجزء الأكبر منها الآن تحول إلى خراب. تقع على مقربة ميل واحد من الضفة اليسرى للنهر المتصلة معه بقناة طينية ضيقة والتي عبر مياهها الضحلة يتم التواصل مع دجلة عن طريق البلام (مفردها بَلَم) - وهي المراكب الصغيرة المتضعضعة التي تم ذكرها في وصف مسقط. يحيط بمدينة البَصرة حائط طيني ضخم قد يكون ساهم في أوقات سابقة بتأمين الحماية

ضد البدو الغزاة، لكنه الآن ليس سوى أطلال خربة. الشوارع ضيقة، ملتوية وقذرة، والبيوت كئيبة ذات طابق واحد أو طابقين مبنية بالطوب المجفف بالشمس، ذات أسطح مستوية، بينما تعيش الطبقات الأفقر في أكواخ صغيرة مصنوعة من الطين المخلوط مع القش القصير والمقطّع. أمّا البازار الذي كان ذائع الصيت عبر آسيا من قبل، فهو يبدو الآن بمظهر بائس للغاية وبأشياء لا تستحق الرؤية. وجو البَصرة حار ومضايق بشكل رهيب، ما يجعل المدينة لا تشهد سكناً من قبل الأوروبيين طوال فترة الصيف، وتحتلها حامية عسكرية تابعة للقوات التركية يبلغ عديدها حوالي ألف جندي، وفي النهر يقف الأسطول التركي البغيض المتمركز في الخليج العربي والمؤلف من أربعة مراكب شراعية بصاريين ومسلحة بشكل تعيس، وغير قادرة على الإبحار.

تكمن أهمية البَصرة الآن فقط في كونها مكاناً لتصدير الخيول، وصوف الأغنام، والتمور والحبوب التي تنتج بكميات كبيرة، وحوالي ثلاثين ألف طن من الإنتاج يصدّر كل عام، بشكل أساسي إلى الهند، وموريتانيا، وإلى موانئ البحر الأحمر وأوروبا. تشتهر البَصرة كمسقط بأسواق الرقيق ـ المتاجرة بالبشر ـ رغم كونها محرّمة ظاهرياً من قبل السلطات التركية إلا أنه في الواقع لا يتم التدخل على الإطلاق من قبل هؤلاء الأشخاص الصالحين، إلاّ إذا رفض أحد النخاسين أن يدفع الرشاوى الضرورية التي تكون أحياناً عبارة عن هدية قيّمة وهي جارية جيدة، وذلك كون الرقيق متداولاً كالنقود وهذه الأخرى ليست متوفرة دائماً بين اليدين، وإلى هذا الوضع تعزى حقيقة أن منازل كبار ضباط ومأموري الحكومة تعدّ من أبرز وأفضل المخازن التي تعجّ بالعبيد في المدينة.

خلال إقامتي اللاحقة في بغداد كان هناك داعٍ لأن أرافق صديقاً شاباً من البَصرة بغرض العمل الذي يتطلب الإقامة لمدة يومين في ذاك المكان، كان عملنا قبل أن يتم توظيفه في عمل قانوني قد اشتغل مطوّلاً بالعبيد، وكان على علاقات جيدة مع جميع تجار الأجساد البشرية في البَصرة تقريباً، وهي معرفة لا تكتسب بسهولة كما هو متوقع، كون النخاسين في هذا الجزء من البلاد كتومين ومتيقظين على نحوٍ خاص،

كان عميلنا متلهفاً لجعل إقامتنا في مدينة البَصرة البائسة مستحسنة قدر الإمكان؛ فقد دعانا ذا صباح للذهاب معه إلى البازار. وبعد ساعة من التجول في هذا الموقع المكتظ بالناس، لجأنا هروباً من الحرّ البالغ إلى أحد منازل القهوة المرتجلة التي تكثر في جميع المدن الإسلامية.

يتألف هذا (المقهى) كغالبية بيوت شرب القهوة العربية تلك من مجرّد فسحة صغيرة ذات أرضية مسطحة مظللة بسقف من أوراق أشجار النخيل، مدعمة بأربعة عواميد يقف تحتها عدد لا متناهٍ من الكراسي الخشبية المتقلقلة، ومقاعد كبيرة للزبائن. في إحدى الزوايا يوجد موقد مصنوع من الطين، تطقطق بداخله نار صغيرة من أجل تحضير المشروب المفضل لدى العرب أو في الواقع لدى المسلمين، والذي يسميه العرب قهوة، الاسم الذي نشتق منه كلمتنا (coffee).

بعد أن ابتلعنا فنجان (القهوة) المألوف - وهو كوب صغير ليس أكبر في حجمه من أكواب البيض - المليء بالقهوة اللذيذة، أمتعنا وقتنا بالنرجيلة التي لا يمكن اجتنابها، والدّخان المهدئ الذي بدا آنذاك مصدر سعادتنا التامة. لقد انحدرنا بشكل ملحوظ في إحدى تلك المؤسسات الاجتماعية من هذا النوع في المدينة، ذلك أنها كانت تعج بزبائن من جميع الأجناس، والعادات، واللغات، توافدوا من كل جزء في آسيا الغربية، البورا (Borah) المقدام أو التاجر المسلم الآتي من هندستان، الأفغاني المتحفظ، البلوشي (beloochoe) المزعج، الفارسي المتجهم، التركي السمين، الكردي أو التركماني الكسول، العربي الرصين، البدوي الحذر، الأميركي اليقظ، اليهودي أو العبري المتنبه على نحو جامح، والزنجي اللامبالي، جميعهم كانوا موجودين تحت سقف المقهى الحفيّ وقد جذبوا انتباهنا.

لاحظت لبعض الوقت أن رجلاً عربياً قوي البنية ذا قامة طويلة يبرز من ثوبه المفتوح صدراً بنيّاً قد يحسده عليه هرقل، كان يلقي نحونا نظرات من نوع خاص، وبدأت أشك لدرجة كبيرة بأنه ينوي الأذى، ولكن سرعان ما اكتشفت أن المسألة لم تكن كذلك؛ فقد مشى مباشرةً نحو عميلنا، وربت على كتفه دون التفوه بأية كلمة ثم مشى خارج

المؤسسة. بدا أن العميل كان على معرفة به وعرف أيضاً ما المقصود من التربيت على كتفه حيث نهض من فوره واستأذننا بالانصراف (التعامل المستمر مع الأوروبيين أكسبه معرفة قليلة باللباقة)، وأنه سيعود على الفور. على مسافة قريبة من المقهى قام الاثنان بمباحثات مختصرة ثم تفرقا ليختفي الشخص الطويل وسط الحشد الذي تعجّ به شوارع البازار الضيقة والكئيبة بينما تابع الآخر جلسته بقربنا. بدا الآخر غير راغب في الكلام لبرهة من الزمن، ثم أخبرنا بعد ذلك فجأة بأن أخاه في بغداد أرسل له لكي يشتري له فتاة من العبيد، وأنه سيكون معتزاً جداً بصحبتنا إذا لم يكن لدينا مانع في مرافقته إلى منزل النخاسين.

* * *

الفصل الخامس

عبيد المسلمين

منـزل نخّـاس عربـي ـ السّـرداب ـ تخطـي الاختبـار ـ مواضيع مبهجـة ـ الجمال ـ التسوّق ـ التهريب.

إنّ الدعوة المفاجئة والسـريعة أغرتنا لقبولها بسـرعة فتبعنا صديقنا على الفور عبر التعاريـج المعقدة لشـبكة من المتاهات الضيقة إلى أبعـد الحدود. ممرات ضـيقة قذرة وملتوية، وما كانوا يسـمونه طرقات مختصرة أوصلتنا من شـارع السـوق الرئيـسي إلى مسـكن النخـاس العربي. بعد المشـي برشـاقة لمدة ربع سـاعة توقفنا فجـأة أمام بيت سـكني كبير ومحترم الشـكل، على الأقل محترم بالنسـبة لتلك البقعة من العالم، طرق دليلنا مرتين بطريقة مميزة على الباب الخشبي الفخم ولكن بدا أن لا أحد يتحرّك داخل المنزل. كل شيء كان هادئاً كالقبر، وتردّد صدى نداءاتنا بشـكل موحش عبر ممرات وقاعات، بناء بدا جلياً أنه غير مسـكون. إن الخيبـة الواضحة لجهود صديقنا المتكررة للحصول على إذن في الدخول لم تثبط همته؛ فقد واصل الدق برزانة مع وجود بعض الفواصل بين الطرقات، إلى أن تكلل صبرنا بالنجاح.

سـأل صـوت كئيـب صادر من خلف تعريشـة خشـبية لنافذة شـرفة بـارزة من فوق الشـناشل – chanashiel – سأل ماذا نريد. لفظ عميلنا اسم الرجل الطويل الذي تكلم معه على جنب في دار القهوة، عندئذٍ تردد شيء كصوت الخنزير ينم عن الرّضا. آنذاك سـمعنا أحداً يتقدّم عبر الباحة المرصوفة، ويسـحب خفيّه بكسـل ليفتح الباب الثقيل

الذي أحدث صريراً عالياً وظهرت منه أمامنا عجوز زنجية واهنة.

عرفت العجوز في الحال دليلنا المشهور حيث قامت مع نصف ابتسامة ونصف تكشيرة بإمساك حاشية عباءته الطويلة لتطبع عليها قبلة خضوع وخشوع، أما بالنسبة لنا كغرباء فقد ألقت السلام المتعارف عليه، وفي الوقت نفسه ألقت نظرة قلقة على صديقنا كما لو كانت تستعلم ما إذا كان عليها أن تسمح لهذين المشركين بعبور العتبة، ولكن عندما علمت منه أننا أصدقاؤه شعرت بالراحة على الفور، في ذاك الوقت كان الرجل الطويل القوي الذي أخذ صديقنا بطريقة غير رسمية إلى مكان جانبي في البازار ثم اختفى، قد ظهر من السرداب (نوع من غرفة سفلية مقنطرة خاصة بالتكون الجيولوجي للبلاد الرافدين)، وبعد تبادل السلامات المعتادة قام عملينا بتقديمي أنا وصديقي إلى صاحب المنزل، بطريقة نصف شرقية ونصف فرنسية أحدثت ابتسامة لا إرادية ظهرت على وجوهنا وأنا أعترف أنه أكثر سلوك غير لائق وغير مؤدّب يمكن أن يظهر في حضور رجل عربي متزمّت وخاصة أنه غريب، مع ذلك فإن صديقنا الجديد لم يلاحظ خرقنا لآداب السلوك الإسلامي، وقادنا إلى سرداب (غير الذي خرج منه الرجل) حيث جثمنا متربعين (على الطريقة الشرقية) فوق ديوان طري وجيد، وسرعان ما تم تقديم فنجان القهوة اللذيذة المعتادة، ونرجيلة ذات رائحة زكيّة لكل واحد منا من قبل صبيين نوبيّين يبلغان من العمر حوالي عشر سنين، ويلبسان زياً عربياً بشكل جميل. لا يمكن لأية اتفاقيات عمل أن تتيسّر في العراق العربي دون الإجراءات التمهيدية في احتساء القهوة وتدخين التبغ.

شاه الفرس (نُقبشة فولاذية)

وبعد أن أنهينا نرجيلتنا بقليل صعد صاحبنا الجديد إلى الناقوس (وهو نوع من الجرن المعدني يتدلى كالجرس من سلسلة مثبتة في السقف) وقرعه مصدراً بذلك صوتاً عالياً مهتزاً، وكان واضحاً أن سبب قيامه بهذا الفعل هو إعطاء إشعار بقدومنا؛ فالعبيد يجب أن يتحضروا لهذه الزيارة، وبعد حوالي خمس دقائق أشار إلينا أن ننهض ونتبعه، وامتثالاً للإشارة تم اقتيادنا من قبل المالك عبر باحة المنزل إلى التر داب الذي ظهر منه عند دخولنا المنزل، بينما كنا نعبر الباحة سمعنا محادثة جذلة لأصوات أنثوية بلغة غريبة مختلطة بكلمات عربية ولكن تلك المحادثة توقفت على نحوٍ مفاجئ عند دخولنا التر داب (قبو جميل ومعتدل ذو أبعاد كبيرة، لكنه مظلم إلى حدٍ ما بسبب قلة ضوء النهار الذي مع ذلك تم تحسينه بعض الشيء برفع حصائر القش المتدلية فوق فتحات النوافذ) وهناك وجدنا أنفسنا في حضرة حوالي عشرين أنثى فتية من الجنس النوبي، والحبشي، والغاني، والصّومالي، ومن جميع الأعمار المتراوحة ما بين عشر إلى ثماني عشرة سنة، وبوضعيات رشيقة إلى حد ما ومختلفة جلسن على ديوان كبير ممتد على ثلاثة جوانب من الشقة، وجميعهن ارتدين قمصاناً قطنية واسعة جداً ذات لون أزرق داكن وتصل تقريباً إلى أقدامهن، لقد بدا عليهن جميعاً أنهن يتمتعن بصحة جيدة وأنهن راضيات تماماً عن وضعهن، والبعض أيضاً بدَونَ مبتهجات، يبتسمن بشكل خافت لا يكترثن بشكل كبير لوجود مالكهن ومرافقنا العربي، لكنهن يحدّقن نحوي أنا وصديقي، وبدا واضحاً أنه من باب الفضول وليس من باب الرّهبة كونهن لم يسبق لهن أن رأين شخصاً أميركياً أو أوروبياً، كانت الفتيات الحبشيات أكثر حُسناً بكثير من باقي المجموعة، وكانت واحدة أو اثنتان منهنّ بجمالهما كالخلاسيين تقريباً، ملامحهن كانت طبيعية ونادراً ما تظهر أية آثار للأصول الأثيوبية. كان شعرهن أو بالأحرى صوفهن طويلاً جداً، وكنّ نحيلات وتقريباً لسن قويات المظهر كشقيقاتهن الأغمق لوناً، إنما لديهن أيدٍ وأرجل صغيرة جداً، أمّا النوبيات الجميلات فكنّ تقريباً سوداوات ذات بشرة فيها نوع من النعومة المخملية وحملن صفات من العرق الإثيوبي أكثر من العرق الحبشي ولكن ليس إلى حد البشاعة، ولهنّ وجه بيضوي، وجبهات مرتفعة إلى حد ما، وعيون لامعة مدورة وواسعة شفاه مرجانية مثيرة، وأجمل أسنان

لم يتمتع بمثلها إنسان من قبل، مع ذلك كان البياض الثلجي لتلك الأسنان ربمّا ضارباً جداً بسبب التناقض الغريب مع لون البشرة الداكنة، كانت فتيات (غالا) Galla أجمل من النوبيّات؛ فبشرتهن ذات اللون الجوزي الغامق وملامحهن الناعمة أظهرتهن كالزنجيات بعض الشيء، ولكن شعرهن أو (صوفهن) كان قصيراً جداً، كنّ قويات البنية أكثر من الحبشيات والنوبيّات ومائلات قليلاً إلى البدانة، أما الفتيات الصّوماليات فقد حملن صفات زنجية أكثر من الأخريات؛ بشرتهن كانت سوداء بكل معنى الكلمة ولهن ملامح زنجية أصولية مع شعر قصير، ورقاب قصيرة، وأكتاف عريضة، وأقدام كبيرة، وأيدٍ صغيرة. إذا طلب منا كما طلب من الأمير (باريس) Paris في القديم أن يعطي جوائز لكل أمَة حسب مزاعمه الشخصية في الجمال كنا سنعطي الجائزة دون تردّد للحبشيات، ثم النوبيّات في المرتبة الثانية، وفتيات Galla (غالا) في المركز الثالث، بينما الصوماليات يحصلن على المركز الأخير أو على جائزة الترضية.

بينما كنا أنا وصديقي منشغلين بمناقشة المميزات الشخصية لممثلات الجنسيات الأربع هؤلاء، طلب المالك بإشارة من يده من أكثرهن حسناً في المظهر، وهي فتاة حبشية تبلغ من العمر ستة عشر عاماً، أن ترافقه هو وصديقنا العربي إلى النهاية الأخرى من السرداب حيث كان المكان أكثر إضاءة.

ذهبنا أنا وصديقي أيضاً إلى نهاية السرداب معتقدين أن صديقنا العربي أنهى مهمته واشترى الفتاة التي تبعتهم، وهناك شاهدنا الاختبار الأخير الذي كان يشبه اختبار جزّار أو سائس خيول لثور أو حصان ينوي شراءه؛ إذ قاموا برفع جفونها بأصابعهم الفظة وحدقوا في عينيها، تلمسوا أسنانها وقاموا بعدها، تحسسوا أردافها، تفحصوا صدرها وغير ذلك. بدا الشاري المدعي راضياً عن مظهرها وحالتها، وقد يكون مسروراً أيضاً؛ فوجهها كان حسن الهيئة لدرجة أن ڤينوس نفسها كانت لتحسد نهديها. بعد حوالي عشر دقائق لفظ سيدها كلمة «روحي» أي اذهبي فاستدارت إذ ذاك متبسمة نحو صاحباتها الجالسات على الديوان، ورغم ذلك يبدو أن العربيين لم يتفقا على سعرها الذي كان 8500 مجيدي تركي ما يعادل 383 دولاراً من الذهب الأميركي،

إذ قاموا فيما بعد بمناداة أقوى البنات تقريباً وأخضعوهن لنفس العملية مع أننا كنا أنا وصديقي مشمئزين تماماً من طريقة معاملة تلك المخلوقات المسكينة، لكننا لم نستطع أن نترك الغرفة كي لا نكون بذلك وجهنا إهانة دون أن نقصد لصاحب المنزل وصديقنا العربي اللذين كان كلاهما ذوي نفوذ في المنطقة. لذلك انتظرنا حتى أنهيا صفقة العمل الشائنة التي رست بالنتيجة على فتاة نوبيّة قوية البنية تبلغ من العمر أربع عشرة سنة، لها ملامح جميلة ولكنها تتمتع ببشرة سوداء كالغربان، مقابل مبلغ 5250 مجيدياً تركياً ما يساوي 226 دولاراً أميركياً ذهبياً تدفع عند التوصيل.

كانت بطلة مسألة العمل هذه أكثرهن عدم اكتراث؛ حيث لم تعرف شيئاً عن قدرها حتى اليوم التالي عندما تم نقلها إلى منزل شاريها. بالرغم من أن المسائل المذكورة في الأعلى ليست مبهجة ليتأملها المرء، لكن حياة العبيد مروّعة أكثر مما يمكن تصوره على الإطلاق، ومع ذلك فهي أفضل إلى حدٍ بعيد من حياة عبد في مزرعة في الهند الغربية وإلى حد أبعد من حياة عامل صيني أو هندي، وهي سعادة مطلقة بالمقارنة مع حياة والد فقير لديه عائلة كبيرة وعليه أن يناضل ليحصل على الرزق من أجل زوجته المحبّة لكن ربما المقعدة بالإضافة إلى نصف دستة من الأولاد أو أكثر بقليل. إن الرقيق هنا يتم إطعامه وإلباسه بشكل جيد ولديه فقط القليل من العمل للقيام به، إذا كانت جارية فيجب عليها فقط العناية بطفل أو اثنين، والقيام ببعض مسائل الطهي أو إذا صادف أن تكون صغيرة وجميلة فتقضي حياة راحة وكسل في جناح الحريم، أما إذا كان عبداً فربما عليه أن يبقي سرج حصان سيده مرتباً ونظيفاً ويعتني بنظافة باحة المنزل، ويذهب في مهام أو يقدم القهوة التقليدية وأدوات تدخين التبغ للسيد وضيوفه. يأكل العبيد نفس الطعام الذي يأكله أسيادهم وأحياناً من الطبق نفسه، وينامون على نفس السطح مع عائلة أسيادهم، ومسموح لهم أن يتزوجوا، وأولادهم يعامَلون كأفراد من العائلة تقريباً، ليس بالضرورة اعتبارهم عبيداً، ومقابل أي ثمن نادراً ما يتم التخلص منهم من أجل المال.

وبسبب تلك المعاملة اللطيفة فإن مسألة هروب العبيد من سيد مسلم ليست منتشرة

ونادراً ما يترك الرقيق سيدهم أو سيداتهم حتى بعد أن يمنحوهم حريتهم، وبالطبع يتوجب عليهم جميعاً اعتناق الدين الإسلامي ويتم تربية أطفالهم على تلك العقيدة. وبشكل عام إناث العبيد يحرزن ثمناً أغلى من ثمن الذكور كونهن أقل عدداً في السوق، ونقلهن أصعب وأغلى من نقل الجنس الآخر، وأيضاً احتمال هروبهن من أسيادهن أقل من احتمال هروب الذكور لذلك فهن مطلوبات أكثر.

والعدد الأكبر من العبيد الزنوج في آسيا قد أتوا من شرق إفريقيا حيث تم أسرهم من قبل صيادي العبيد الماهرين، ثم تم بيعهم من قبل هؤلاء الصيادين مقابل نقود أو بضائع في الموانئ الموجودة على طول الساحل. هناك يتم نقلهم قسماً عبر البحر وقسماً عبر البر إلى مصر، وجزيرة العرب، وتركية، وبلاد الرّافدين، وبلاد فارس وأفغانستان، ومنذ القديم حتى العام 1850 كان المسلمون يستقدمون الآلاف من العبيد سنوياً إلى جزيرة العرب، وبلاد الرافدين وبلاد فارس، ثم يباعون مقابل مجرد مبلغ تافه (لنقل 20 دولاراً)، ولكن منذ ذاك الوقت قامت السفن البريطانية الطوافة في البحر الأحمر، والمحيط الهندي والخليج العربي بإفساد تلك التجارة المزدهرة بناء على أفكار ذوي النفوذ المرتبطين بهذا الشأن؛ حيث كانوا يشنقون النخاسين ويحطمون جميع السفن المتورطة في تلك التجارة المشينة كلما أمسكوا بهم. إنه إجراء يفخر بهم العالم لأجله.

* * *

الفصل السّادس

الإبحار إلى بغداد

محمّد علي ـ التّيريناد ـ أخذ السلع المرسلة من مسافرينا ـ شجرة التين على الطريق ـ الضريبة ـ بلاد الرافدين ـ الحديثة ـ القرنة ـ حديقة عدن ـ تسلق الشجرة الشهيرة ـ على ضفة رملية ـ قبر إلعازر ـ ركاب جدد.

بما أن الباخرة النهرية دجلة "Tigris" (وهو الاسم العربي لنهر دجلة Tigris) التي كان عليها نقلنا إلى بغداد لم تغادر البَصرة حتى صباح اليوم التالي، فقد قبلنا دعوة على العشاء من السيد (J) نائب القنصل البريطاني في البَصرة والذي يقيم في خان كبير واسع أو سراي سلطاني (بناء شرقي فيه باحة فسيحة في الوسط تتسع بمساحتها لقافلة صغيرة)، يقع الخان على بعد أربعة أميال من البَصرة فوق النهر عند ضفته اليمنى في مكان يسميه العرب «الماركيل» Marghill أو «كوت الفرنج» (koot frankee)، وهذا الاسم الأخير يعني (ميناء الفرنجة أو الأوروبيين) لأن البناء الرئيسي في تلك القرية الصغيرة هو الخان الذي يسكنه أوروبيون. يعيش سكان «الماركيل» Marghill في أكواخ صغيرة بائسة مصنوعة من الطين ومغطاة بأوراق أشجار النخيل المصنوعة على شكل حصيرة سمكية، وهذه الأشجار متوفرة بكثرة على طول النهر حيث إنها بكل معنى الكلمة تغطي في بعض المناطق الضفتين كلتيهما لشطّ العرب الواسع مشكلة غابات كثيفة.

عبرنا النهر من البَصرة إلى «الماركيل» Marghill بواسطة القارب الشراعي الصغير

التابع لسفينة Penang (بينانغ)، ولما كان هناك نسيم قوي جداً آنذاك فقد أبحر القارب الفخم عبر النهر بطريقة رائعة بالرغم من وجود التيار القوي ورسونا في «الماركيل» Marghill في وقت قصير جداً. استقبلنا السيد (J) بحرارة وقام بتقديمنا إلى جلالة محمّد علي (الأخ الأصغر لإمام مسقط المقتول) والذي كان يخيم مع أخيه قليل الحظ والقوات عند الحدود، وعند معرفته باغتيال الإمام من قبل أخيه (السيّد سالم) Said Selim قرر أن يتجنب قدراً مماثلاً من أيدي هذا القريب العزيز بالهروب السريع متخفياً على ظهر جمل سريع وحيد السنام عبر صحراء الحماد أو الدَّهناء Eldahna إلى مقاطعة تركية ووضع نفسه تحت حماية السيد (J) نائب القنصل البريطاني في البَصرة.

ومحمّد علي رجل صغير يبلغ عمره حوالي ستة عشر أو سبعة عشر عاماً، وهو صغير القامة إلى حد ما مقارنة مع سنه، بشرته بنية فاتحة، ملامحه جذابة، شعره أسود فاحم، عيناه سوداوان كبيرتان، أنفه ذو مظهر حسن، شفاه سميكة بعض الشيء، ظهرت لحيته وشاربه بشكل طفيف وله فم مملوء بالأسنان الجميلة. كان يرتدي ملابس أوروبية بلون بني فاتح ويعتمر قبعة تدخين لونها أحمر متوهج مطرزة بالذهب بترف، مصنوعة من الكشمير، موضوعة بأناقة على الجانب الأيمن من رأسه. كان يتحدث اللغة العربية، والهندية، والفارسية، والتركية بطلاقة، ولكن رغم ذلك لم يبدُ ذكياً بوصفه يملك حضوراً بليداً ومتاقلاً، لقد بدا أنه لم يكن في أدنى حالات الاضطراب بسبب النهاية المفاجئة والمحزنة لأخيه الأكبر، وظهر عليه فقط أنه سعيد لوجود رأسه مازال منتصباً بين كتفيه، والسبب في بقاء رأسه في مكانه غالباً لا يُعزى إلى حصافته ودهائه بالدرجة التي يعزى بها إلى ولاء بعض الفقراء الجائعين من الهجانين أو سائقي الجمال، الذين قادوه بأمان عبر صحراء الحماد الموحشة إلى البَصرة عندما كانت حياته في خطر، لقد وجدنا السيد (J) نائب القنصل يقيم في مسكن مريح جداً في «الماركيل» Marghill في بناء كان أكبر عشرين مرة بالنسبة لرجل أعذب. كانت الشقق التي يشغلها مفروشة ببذخ ومزودة بكل وسائل الراحة الأوروبية المتوفرة، بذلك يشعر الزائرون إلى حدٍ

كبير أنهم في منازلهم ويستطيعون أيضاً الاستمتاع ببهو البلياردو، ومسكن مجهز ومكيف بشكل جيد، وهي رفاهية نادرة لا يمكن رؤيتها في تلك البلاد.

كان العشاء كل ما يمكن توقعه من حسن الوفادة السخية المعروف بها مضيفنا، بعد العشاء أو بالأحرى المأدبة صعدنا إلى سطح البناء المستوي حيث وجدنا الأسرّة قد فُرشت، هناك استمتعنا لبرهة من الزمن بسيجار مضيفنا الفوّاح الملفوف بورق المانيلا، ثم نزلنا لنلعب البلياردو لكن الجوّ كان حاراً بشكل مزعج لدرجة أننا لم نستطع البقاء في غرفة البلياردو؛ إنما كنا مجبرين على العودة إلى السطح، ومع اقتراب الليل اعتقدنا أنه من الصائب أن نأوي إلى فراشنا لنرتاح ولكن سرعان ما اكتشفنا أن النوم كان مسألة خارج نطاق السيطرة؛ فبالرغم من أن أسرّتنا كانت مزودة بناموسيات جيدة نجحت تلك الكائنات المجنحة الصغيرة المؤلمة بطريقة أو بأخرى في الوصول إلى داخلها، وبدأت هجومها علينا بهبوط انتقامي على كل إنش لم يكن مغطىً من جسدنا.

أما احتمال أن نخبئ وجوهنا تحت الملاءات سيكون بكل بساطة محاولة للانتحار خنقاً؛ فالهواء كان حاراً لدرجة لا تحتمل ولكن حتى مع عدم وجود البعوض الكريه كنا سنجد النوم عملاً شاقاً بسبب الضجة الصادرة عن ملايين الضفادع الميّالة الى الموسيقى، وكلاب لا تحصى تنبح على القمر وأكثر من ذلك العواء والصياح غير المستحب لعصابات كبيرة من بنات آوى المحتشدة في غابات شجار النخيل المجاورة وعلى ضفاف الأنهار المستنقعية، كانت ضجة تصيب بالصّمم وتستعصي على الوصف بكل معنى الكلمة. باندفاع يائس قفزنا من أسرّتنا بسبب فكاهة أميرنا العربي الهارب ابن تلك البلاد البائسة ومضيفنا المقيم قديماً في هذا المكان اللذين كونهما متأقلمين تُركا دونما أذية من البعوض، ومع مرور الزمن أصبحا معتادين على الألحان الليلية المذكورة في الأعلى وباستخدام تعبيرهم الخاص نقول: «لقد أحبّوها إلى حدٍ ما». إنها حقيقة معروفة أنه في جميع البلدان حيث يكثر البعوض وبراغيث الرمل وغيرها من فاصدات الوريد ذات النوع نفسه، فإن القادمين الجدد أو المقيمين الجدد سيكونون أكثر عرضة للمعاناة من هجماتها من السكان الأصليين أو أولئك

الذين عاشوا طويلاً على تلك الأرض.

في الحقيقة، يبقى السكان الأصليون عادةً دون أن تمسّهم تلك الحشرات الكريهة، وبكل بساطة فقط لأنهم متأقلمون. هذه المخلوقات الصغيرة المعذِّبة تكثر في المناخ الحار حيث يكون دم سكان تلك المنطقة مائي القوام وأفتح لوناً من دم الأشخاص القادمين من مناخ أبرد، لذلك إنه لشيء طبيعي أن الحشرات والبراغيث تفضّل دم الآخرين عندما يكون لديها فرصة للحصول عليه.

رغم أننا لم نستسغ فكرة البقاء مستيقظين طوال الليل كان علينا أن نرضخ بالقوة ونحقق الجانب الأفضل من صفقة سيئة، لذلك تجاوزنا الإحسان واللباقة إلى سيجار مضيفنا ومشروباته، محافظين على جو من الدخان الكثيف ومحادثة جذلة تقريباً حتى انبلاج الفجر، حينما سمعنا الضربة البعيدة لسفينتنا ذات عجلة التجديف وهي تثير النهر. ومع انبثاق الخيوط الأولى للشمس المشرقة كنا على متن (دجلة) متجهين إلى بغداد ومحملين حتى سطح الماء بحمولة بشرية متنوعة وبضائع من كل الأوصاف. كنا أنا والسّنيور (P) والسيد (M) أو الأب (M) كما اعتدنا أن نناديه المسافرين الأوروبيين الوحيدين على متن الباخرة. مرافقونا كانوا تجاراً من جميع أنحاء الخليج العربي ذاهبين إلى بغداد في عمل، وعدداً من العرب من كلا الجنسين، وبعض اليهود من البَصرة، ومعظم اليهود كانوا مترافقين مع عوائلهم وخارجين في رحلة مقدسة إلى (عِزرا Ezra، إلعيزر el Asr، عُزير Oseir) نوع من ضريح أو بناء فوق قبر حيث حسب تقاليد اليهود، دفن فيه الرّسول عِزرا Ezra والذي نسبةً إلى الكتاب المقدس عاش في بابل سنة 458 قبل الميلاد.

أبحرنا طوال اليوم بين غابات لا متناهية من أشجار النخيل التي غطت ضفتي شطّ العرب وأعطت البلاد مظهراً مبهجاً وخصباً، مع ذلك فإن هذه الغابات لا تنمو بعيداً في الداخل، فأشجار النخيل لا تزدهر إلا حيث الماء الوفير وحيث يمكن توفير ريّ متواصل.

يبدو أن السكان البعيدين عن النهر إما شديدو الكسل أو على الأغلب أفقر من أن يجروا

القنوات إلى داخل المدينة، إذ لم يكن هناك أية أشجار مرئية وراء خمسمئة ياردة. فيما بعد علمت أن هذا التقصير البيّن ليس سببه التكاسل أو الصعوبات المادية من جهة السكان؛ ولكن ببساطة كان السبب الحكم المستبدّ للسلطات التركية التي تفرض ضرائب سنوية لا تقل عن خمسين ليرة تركية، أي ما يعادل دولارين وربع من الذهب الأميركي، على كل شجرة نخيل مزروعة من قبل السكان مهما كانت صغيرة، وبما أنها تستغرق على الأقل عشر سنوات من الوقت تزرع فيه شتلة حتى تحمل ثمرتها الأولى، فإن الشجرة الواحدة تكلف مالكها للحكومة فقط مبلغ سبعة وعشرين دولاراً من الذهب، بغضّ النظر عن الجهد المطلوب والري الطبيعي أو الصناعي إذا تطلب الأمر في الليل والنهار تقريباً دون توقف خلال فترة عشر سنوات، عندما تصبح الشجرة كبيرة بشكل كافٍ لتحمل الثمار تعطي غلة سنوية تقدر من واحد إلى أربعة دولارات، تطالب الحكومة التركية بدولارين وربع من تلك الغلة كضريبة سنوية، لهذا السبب ليس شيئاً مذهلاً ولا يعتبر دليلاً ينمّ عن الكسل أن هؤلاء السكان المضطهدين ليسوا فقط ممنوعين من زراعة أشجار النخيل إنما يتلفون الآلاف من تلك الأشجار التي رغم كونها ناضجة بشكل كامل فإنها لا تنتج غلّة كافية لدفع الضرائب الباهظة المفروضة من السلطات.

هل لازال شيئًا مذهلاً وغير قابل للتفسير أن بلاد الرافدين التي كانت واحدة من أجمل وأخصب البلدان وأكثرها تعداداً للسكان أصبحت الآن لا شيء سوى صحارى لا متناهية وذاوية ومحترقة بالشمس اللاهبة وبالكاد مسكونة من قبل أحد غير البدو المتنقلين والوحوش المفترسة.

في القديم كانت بلاد الرافدين (جنّة عدن) مهد الحياة البشرية، والآن أصبحت تقريباً مهجورة من قبل البشر، ومناسبة فقط لأن تكون مسكناً للجمل المتقشف، الضبع الجبان والنسر البغيض، ويستطيع الثاني والثالث الحفاظ على حياتهما من الموت جوعاً فقط بالتهام الجثة النحيلة للأول.

إن بلاد الرافدين التي كانت يوماً توفر الطعام لأكثر من خمسين مليون شخص واليوم بالكاد تؤمن الحاجات البسيطة للقليل من القبائل البدوية المشردة، لا زالت تحتفظ

بنفس التربة الغنية المتجة التي ازدادت زهوّاً عندما اختار الله تلك البلاد لتكون مكاناً للفردوس، وخلق أبانا آدم ليمضي حياته هناك في نعيم لامتناهٍ، إنها الأرض الخصبة نفسها التي كانت عندما كان الجبارون البابليون وأهل نينوى ـ الذين أصبحوا الآن شبه أسطورة ـ في قمة مجدهم، وظهرت أيضاً كأنفس الجواهر الموجودة على التاج الملكي الآشوري القديم والقوي. ولكن العدد اللامحدود من الحروب الوحشية، والدمار الناجم عنها، والمجاعة والطاعون مؤيداً بالحكومات الاستبدادية كل ذلك أحدث نقصاً طبيعياً في عدد السكان ودماراً شاملاً للبلاد.

مررنا بقرية الحَديثة Hadidsha الصغيرة الواقعة على الضفة اليسرى من النهر، وبعد ساعة من الزمن وصلنا إلى قرية القُرنة Gorna (محطة تقف فيها البواخر لمدة ساعة أو ساعتين لتتزود بالوقود).

القرنة هي قرية عربية صغيرة مستترة بدفء بتجمعات من أشجار البلح، والتين، والرّمّان، والليمون، والبرتقال، تقع في النقطة الأبعد من الرأس المتشكل من التقاء المياه العريضة العظيمة ورائعة النظافة لنهر الفرات الشهير مع المياه الأقل عرضاً، لكنها أعمق وطينية أكثر من مياه نهر دجلة الذي لا يقل شهرة عن سابقه، كلاهما يستمد مياهه من منطقة ألبيّة الهيئة تقع شمالي كردستان، حيث يتدفقان دجلة في الشمال والفرات في الجنوب على طول بلاد الرافدين ليشكلا أخيراً نقطة تلاقٍ في القرنة حيث تتدفق المياه المجتمعة تحت اسم شط العرب نحو الخليج العربي، وتحت القرنة بعدة مئات من الياردات تستقبل مياه رافدها (الشّعب) The Shaab أو (كرشة) الذي ينبع من القمم المغطاة بالثلج في الإقليم الفارسي لورستان، ينساب ببطء عبر مستنقعات سامرغا Samarga المميتة العظيمة الكبر لتمتزج مياهه الراكدة مع مياه شطّ العرب الضخم ذات اللون الحبري.

من المستحيل إيجاد منطقة أكثر سحراً وجمالاً في بلاد عطشى وقاحلة كبلاد الرافدين من هذه (القرنة) الجميلة، منطقة التقاء تلك الأنهار الثلاثة العظيمة باختلاف صفاتها.

ولكن الشيء الذي يجعل هذا المكان محط اهتمام الجميع رغم كونه بالكاد معروفاً

في العالم المتحضر هو الإيمان القوي للأتراك والعرب والفرس تماماً كإيمان علماء العالم المتحضر أنّ هذا الموقع هو مكان حديقة عدن أو حديقة الفردوس كما في الكتاب المقدس (سفر التكوين، الأصحاح الثاني، المقطع الرابع عشر)، وعدد قليل من هؤلاء الآنفي الذكر يحاولون إقناع أنفسهم والعالم بالاعتقاد أن أبانا آدم وطئ بقدمه تربة الفردوس إما في جزيرة سيلان أو في وسط آسيا. بالطبع شعرت برغبة متقدة لرؤية شجرة التين البرية المعقدة، المشار إليها من قبل السكان لجميع الزائرين على أنها الشجرة المنحدرة من سلالة الشجرة نفسها التي كان لها شرف لا يوصف قبل خمسة أو ستة آلاف سنة في تقديم المادة التي كانت أول لباس لأبوينا المشتَرَكَين آدم وحواء.

رغم أنني كنت أضمر بعض الشكوك حول سلالة شجرة التين التي يتشوّق جميع سكان القرية إلى عرضها للزائرين لم أستطع أن أكبح مشاعري عندما وصلنا قرب البقعة التي أشار إليها رجل عربي ممن كان بمثابة دليل لنا على أنها الأرض التي وطئتها أقدام الزوج السعيد أبوينا الأولين.

كانت الشجرة المعنية مخبأة ضمن كتلة من أشجار بأنواع مختلفة، ليست أبعد من خمسمئة ياردة عن المكان الذي نرسو فيه مركبتنا. كان الكابتن الذي زار المكان عدة مرات قبل الآن غير قادر على إيجاد الشجرة رغم أنها بدت بالنسبة لي سهلة التميز من المظهر الصخري المعقّد لجذعها، المغطى بأحرف وأسماء لزوار سابقين لا تزال مرئية، اثنان أو ثلاثة منها بالكاد تم نقشها من قبل أصحابها فقط لتدوين حماقاتهم، إذ لم يكونوا مؤمنين بالهوية التاريخية لتلك البقعة من العالم أو بالنسب الشهير للشجرة نفسها، وكوننا كنا قابلين لأن نؤمن بأن هذه البقعة هي الموقع الأصلي للفردوس أكثر من إيماننا بنسب الشجرة فقد استدرنا لنعاود أدراجنا نحو الباخرة، عندما ظهرت لنا فكرة أنه حريّ بنا أن نأخذ كتذكار من تلك البقعة الجديرة بالذكر قطعة صغيرة من المادة الأولى التي كانت لباساً لأسلافنا، لذلك استدرنا نحو الشجرة التي بالمناسبة تبلغ حوالي عشرين قدماً في العلو وقطرها يبلغ تقريباً ثلاثة أقدام، ولها ساق معقد ومليء بالبثرات لكنه منتصب بعض الشيء.

زيارة شجرة التين التاريخية

حاولنا أن نلتقط بعض الأوراق ولكن كون الفروع السفلية كانت مقطوفة بالكامل لم نستطع الوصول للأعلى للحصول على أية واحدة، لذلك قررت أن أتسلق الشجرة وألتقط ما أختاره من الفاكهة والورق، عندها ياللهول! كنت قد عانقت الساق نصف المتضعضع وكثير العقد تمهيداً للتسلق عندما رأيت أفعى جميلة ذات لون أخضر رائع على الظهر وأبيض مصفر عند البطن تخرج من فتحة في الشجرة فوق رأسي تماماً حيث كان هناك غصن قد انكسر ووقع فوق العشب الطويل الأصفر الجاف تحت الشجرة، لكنها اختفت قبل أن يتمكن أصحابي من قتلها بعصيهم. كان طولها تقريباً خمسة أقدام لكن محيطها حول أعرض منطقة في جسمها لم يكن أكثر من إصبع واحد، وتنتمي بأصلها إلى نوع من الأفاعي يكثر في حدائق ومزارع الهند وبعض أجزاء الخليج العربي، وتدعى حيّة السوط نسبة إلى جسدها النحيل الذي يشبه سير السوط، تعيش هذه الأفعى بشكل استثنائي تقريباً في الأشجار ذات الأوراق الخضراء، وكونها بنفس لون الأوراق تستطيع التخفّي بسهولة لتنقضّ من تحت الأوراق على العصافير، والفئران، والسناجب وغيرها. فيما بعد رأيت أنواعاً عديدة من تلك الأفاعي في حدائق بغداد حيث كانت تختبئ بشكل عام بين الأوراق الغضة والفواحة لأشجار البرتقال وشجيرات الياسمين، ويقال إن تلك الأفاعي سامة. إن حادثة ظهور الثعبان تلك كان لها أثر في تعزيز إيماني بهوية هذا المكان.

بعد ذلك قمنا بالطرق على الجذع المجوّف بوساطة عصيّنا للتأكد من عدم وجود أية أفاعٍ أخرى، ثم زحفت للأعلى وحصلت على مؤونة جيدة من تلك الأوراق ذائعة الصيتِ التي اعتزمت أن أجففها وآخذها معي إلى أميركا، ولا أعلم إن كان صديقاي قد نجحا في فعل ذلك أو لا.

عندما سمعت بعض الفتيات الصغيرات في بغداد، وحلب، وسامرّاء أنني أمتلك بعض الأوراق التي قامت بواسطتها أمّنا حوّاء بأول محاولة لها في صنع الثياب كنّ متلهفات جداً للتعرف إليّ ومصادقتي، وقد نجحن بالفعل؛ إذ استطعن بتملقهن أن يجرّدنني تماماً من تلك الأوراق، من ناحية أخرى إذا أرادت أيّ من فتيات أميركا

الصغيرات الفاتنات أن ترى الأداة الأولى في ثوب أمنا حواء فما عليها سوى أن تطلب من الكابتن (H) من بغداد في بلاد الرافدين والذي هو بالمناسبة رغم كونه متزوجاً زير مسن، وسيكون بغاية السعادة عندما يزور المخزن الأصلي للقبعات النسائية ويحضر الغرض المطلوب.

بينما كنت أرنو إلى موقع الفردوس القديم فكرت أنّ بإمكاني استغلال الفرصة لأسأل عن الشجرة التي تحمل التفاحة المهلكة ذاك الطعم الذي أغرق الزوج السعيد في بحر من المشقات حتى هذه اللحظة، ولكن لا أحد يعرف شيئاً عن هذه الشجرة، رغم ذلك عندما نظرت في الاتجاه الذي اختفت فيه الأفعى لم أستطع أن أصدق بأن شجرة التفاح قد زالت.

توهجت جميع أحداث الأيام الخوالي لآدم وحواء في الفردوس بشكل لا إرادي في أذهاننا، وفي الواقع قام البعض منا بالاستدارة أكثر من مرة في طريق عودتنا على الأرجح خوفاً من رؤية الملائكة يحملون سيوفهم الطويلة المتوهجة ويلحقون بنا لاسترجاع الأوراق والثمرات التي قمنا باختلاسها من شجرة التين في حديقة عدن. لقد توقفنا في القرية لوقت أطول مما توقعنا بكثير ولكن أخيراً رفعنا المرساة مرة أخرى وأبحرنا بدرجة من السرعة عبر النهر المتعرج بهدف الابتعاد بسرعة قدر المستطاع عن الزفير القاتل لمستنقعات Samargha الهائلة الممتدة بين نهري دجلة وشعاب Shaab وكذلك مستنقعات أبو كلام Abokelam الممتدة بين نهري دجلة والفرات.

بالطبع لم تكن تلك المستنقعات موجودة في أيام آدم، إذ أنه غير مرجح على الإطلاق أن الخالق قد أحاط جنة عدن الخلابة، مسكن تحفته الرائعة ـ الإنسان ـ بسبخات مروعة كتلك التي تطوق القرنة الجميلة بمحيط من المياه الراكدة والقصب الطويل، وتعجّ بالزواحف والطيور المائية من كل المواصفات.

من الواضح أن السبب الحقيقي لوجود تلك المستنقعات هو الإهمال التام والقنوات العديدة المتتالية التي شقها قدماء البابليين من نهر إلى آخر بهدف ريّ المنطقة المتوسطة، لكن الزمن والإهمال كانا كفيلين بتغيير معالم البلاد بشكل مفجع

منذ سقوط البابليين.

ثمّة سهول لا متناهية من العشب الطويل تحتلّ المكان الذي كان سابقاً حقول ذرة ممتدة على الاتساع نفسه. وحيث عاش الملايين من البشر السعداء في السابق، الآن تتجول الأسود، والضباع، وبنات آوى، والخنازير البرية، والذئاب والغزلان، وتفقس الملايين من طيور النعام، والبجع، والكركي، والإوز، والحجل، والدجاج البري وغيرها وزواحف لا حصر لها، جميع تلك المخلوقات منغمسة في حرب أبدية بعضها مع البعض الاخر. ياله من ميدان أداء رائع بالنسبة لمحبّي الصيد، ليس أدنى بكثير من أدغال هندستان الشاسعة أو القاروس اللامحدودة في جنوب إفريقيا، حيث في بلاد الرافدين يستطيع الصياد الجسور أن يركب جواداً ليس له ندّ في الكون نظراً لصفاته الفائقة التي تجعل من الحصان صياداً ماهراً، وكذلك جوهرة نفيسة بالنسبة للصياد الحقيقي. لقد استمتعت بملذات حياة الصيد في أدغال الهند، والقاروس في جنوب إفريقيا وفي غابات مدغشقر، وأؤكد بجسارة أنه لم يبق لي أن رأيت حصاناً مكافئاً للجواد البدوي الأصيل في بلاد الرافدين.

إذا كانت بلاد الرافدين مهد البشرية، فهي أيضاً الموطن الأصلي والطبيعي للحصان، دع الآخرين يقولون ما يريدون عن الأحصنة الإنكليزية الأميركية أو أي نوع آخر، فإن رأيي غير القابل للتغير هو أن الجواد العربي، ومن ضمن هذا العرق جواد بلاد الرافدين بالتحديد، هو ملك سائر أنواع هذا الجنس الفريد، سواء في الجمال أوفي تناسق الجسد وأيضاً في تلك الصفات التي غالباً ما تبدو أنها وهبت له لسبب ما.

أثناء الليل قمنا بتوقف مفاجئ لعدة ساعات فقد صعدت الباخرة في الظلام فوق قرارة رملية في النهر، ولكن بالقوة والجهد الشاق استطاع أفراد الطاقم أخيراً إنزالها، ووصلنا إلعازر Elasr أو عُزير Osier في الصباح التالي عند شروق الشمس، حيث قام غالبية الركاب من اليهود بمغادرة السفينة.

يعتبر العازر ملاذاً عظيماً للحجاج اليهود، ويقال إنه يوجد هناك قبر النبيّ عازر الذي حسب تعاليم الإنجيل كان رجلاً ذا حظوة عند أرتحشستا Artaxerxes ملك

ميديا وبابل سنة 457 قبل الميلاد.

يقع الضريح على الضفة اليمنى للنهر بالقرب من حافة المياه، وهو مكون من بناء كبير من الطوب مرتفع ومربع الشكل وبدا جلياً أنه قديم جداً، له نافذتان أو ثلاث نوافذ صغيرة مدعّمة بالحديد على كل من جوانب البناء ويرتفع عن الأرض حوالي عشرين قدماً على الأقل، تعلو رأسه أو بالأحرى سطحه المستوي قبة كبيرة مغطاة بالقرميد اللامع ذي اللون الأزرق المخضر كالجوامع أو المعابد الإسلامية أو مثل بعض الكنائس الرّوسية. ولكي نرضي فضولنا ذهبنا لنلقي نظرة على هذا المكان المبجلّ بشدة من قبل اليهود، عند دخولنا البناء وجدنا أنفسنا في باحة كبيرة مربعة مرصوفة ببلاط قرميدي لامع مُزجى على طريقة الفسيفساء. كان هناك بئر لجرّ الماء أو جبّ يشغل وسط الفناء، يقوم الحجّاج بسحب الماء منه بواسطة عجلة ملفوف حولها حبل مربوط في نهايته دلو جلدي. من تلك الباحة يوجد دهليز ضيق ومظلم يؤدي إلى قاعة رحبة مربعة الشكل بالكاد مضاءة ببضعة قناديل نحاسية متدلية من السقف.

كان مركز القاعة مشغولاً بشاهد كبير ذي لون رمادي غامق وضع على قبر النبيّ، مغطى بكلام منقوش بالأحرف العبرية. واصطفّ على طول الجدران العارية عدد من اليهود من الجنسين كليهما، كباراً وصغاراً، يميلون بوجوههم نحو الحائط وظهورهم نحو القبر ويخبّئون وجوههم، بعضهم يصلي والبعض يصرخ ويومئ وآخرون ينشجون ويبكون، كل ذلك كان تحسّراً واضحاً على وفاة النبيّ. كانت هناك غرف أخرى في المبنى، ولكن بما أننا وجدنا الجو العام لتلك القاعات المسردبة أكثر اتقاداً وملقحاً برائحة متعذرة التفسير، لم ننظر حتى إلى تلك الأجزاء الأخرى، إنما قمنا بانسحاب سريع نحو الهواء الطلق.

على متن السفينة وجدنا العديد من الرّكاب الجدد من الجنسين كليهما، جميعهم من يهود بغداد كانوا عائدين إلى بيوتهم بعد أن أنجزوا واجبهم الديني في النحيب على النبيّ المتوفى. جميعهم ودون استثناء يحملون تلك الملامح الواضحة التي تكشف أتباع الدين اليهودي في جميع أنحاء العالم.

الجبهة العالية الضيقة والمتراجعة، العيون الكبيرة والحواجب السميكة، الأنف الناتئ المعقوف، الشفاه الشهوانية الممتلئة، والذقن المدوّرة بشكل جميل إضافة إلى لحية وشارب كثيفين بالنسبة للرجال، إنّ إيحاءاتهم المغرضة والمعبّرة بأيديهم وأكتافهم وحواجبهم تشي بأصلهم على الفور.

أما يهود الشرق فيمكن أيضاً تمييزهم بسهولة من الطريقة التي يلبسون بها؛ يرتدي الرجال قميصاً أبيض طويلاً وعريضاً من الموسلين وفوقه عباءة طويلة مغلقة من الأمام تصل على أقدامهم ومصنوعة من قماش قطني مخطط، ولها أكمام عريضة ومفتوحة، وبنطال عريض من القطن أو الموسلين الأبيض، مفتوح عند أسفل الساق، ليس مشدوداً كالجراب حول الكاحل كما في اللباس الإسلامي.

يرتدي الرجال أيضاً صدرية طويلة مخططة ذات ألوان صارخة، مغلقة من الرقبة إلى الأسفل بعدد من الأزرار الفضية المسطحة المربعة الشكل.

والجنسين كلاهما يرتديان جوارب بيضاء قصيرة ونوعاً من الشبشب المغربي ليموني اللون، لمقدمته نهاية حادّة ملتفة إلى الأعلى كالحديد الموجود على المزلاج، ويرتدي الرجال حول الخصر وشاحاً من الموسلين الأبيض أو الملون، يحملون فيه بطريقة تشبه طريقة حمل الخنجر محبرة نحاسية صغيرة ذات غطاء مغلق بإحكام، مربوطة إلى قضيب من المعدن نفسه، يحتوي على أقلامهم المصنوعة من القصب الرفيع، ويرتدي الرجال أيضاً على رؤوسهم المحلوقة جيدا باستثناء خصلة طويلة من الشعر تتدلى من كل صدغ قبعة حمراء كبيرة أو طربوشاً له شرّابة ثقيلة من الحرير الأزرق محاطاً بوشاح من الموسلين المنقط أو المخطط، وتتدلى الشرابة فوق الجزء الخلفي من الرأس.

الغريب أنه في رحلاتي كلها لم أرَ يهودياً شرقياً يحمل سلاحاً من أي نوع، حتى عندما كانوا يسافرون عبر الأنحاء غير الآمنة في البلاد. لا أستطيع أن أجد تفسيراً لذلك ولا أعلم حتى إن كان حمل السلاح محرماً في عقيدتهم. أما الجنس اللطيف فيرتدين سراويل عريضة جداً من الموسلين الأبيض الرقيق المطرز بالورود تصل إلى الأرض

تقريباً مشدودة حول الكاحل، وفوق هذا اللباس يرتدين شيئاً كالثوب مصنوعاً أيضاً من الموسلين المطرز أو القطن المخطط، وله أكمام ضيقة تماماً كزي سيدات بلادنا منذ أربعين عاماً مضت عندما كنّ يجهلن التنورة المطوقة آنذاك. هذا الثوب كان مفتوحاً من الأمام فوق الصدر المغطى بقطعة من الموسلين الشفاف مربوطة حول أعناقهن كالشيء الذي كان الفرنسيون يدعونه chemisette - القميص. وشعرهن الأسود الكثيف مفروق في الوسط بثبات ويتدلى للأسفل فوق ظهورهن على شكل ضفائر كثيفة تتراوح بين اثنتين وست ضفائر.

وهنّ يرتدين منديلاً على طراز القبعة فوق رؤوسهن، ذا لون أزرق، أبيض أو أخضر فاتح، مائلاً بخفة إلى جهة واحدة. أحياناً ترتدي الفتيات والنساء الصغيرات وخاصة المنتميات إلى طبقات غنيّة قبّعة صغيرة من الحرير أو المخمل الأحمر، الأزرق، الأصفر أو الأبيض، مطرزة بسخاء وملفوف حولها المنديل الذي تم ذكره على طراز العمامة (التُّربان)، وتتحرك النسوة والفتيات داخل بيوتهن ووجوههن مكشوفة، ولكن عندما يخرجن من منازلهن فإنهن يغطين وجوههن بالنقاب (قطعة قماش من شعر الحصان الأسود طولها حوالي ثمانية عشر إنشاً واثني عشر في العرض، مربوطة بخيط حول جبينهن)، وهذا القماش شفاف تماماً ولكن لا يمكن خرقه من قبل أعين الغرباء. وفوق جميع ثيابهن يرتدين الإشارب (نوع من ملاءة رقيقة أو شال من القطن المخطط أو الحرير متعدد الألوان) تشبه الوشاح الذي ترتديه سيدات مالطة، وإسبانيا، والمكسيك والبيرو ولكنها أكبر بكثير، تتجعد بشكل جذاب فوق أجسادهن تغطيهن من الرأس حتى القدمين باستثناء الوجه المغطى بشكل جيد بالخمار. يتمتع اليهود الذكور منهم والإناث بشكل عام بمظهر حسن، ولكن النسوة صغيرات وضعيفات البنية وسرعان ما يتلاشى جمالهن بعد الزواج.

* * *

الفصل السّابع

حول بغداد

القنـاة - قنـص البجـع وبنـات آوى - محطـة الوقود - صيد الأسـد - طرفـة - الإبل - الحصـول علـى الطعـام - قافلـة من البعيـد - خيمة البدو - شـماميا - إطـلاق النار على الخنازير.

مع اقتراب المســاء في اليوم نفســه وصلنا إلى حصن مدمّر ومهجور يدعى Yuwar (ياور) يقع على الضفة اليمنى للنهر حيث يوجد آثار قناة كبيرة وعريضة لا تزال مرئية، ندعى هذه القناة من قبل العرب أمّ الجمال "Ommal Chamâl" وتمتلئ الآن بالوحل والأعشاب النامية بشكل كبير.

بدا جلياً أنها كانت تسـتخدم في أوقات سـابقة لأغراض الـريّ، أو كطريق مختصر لعبـور القوارب مـن الفرات إلى دجلـة وبالعكـس، إذ يمكن في يومنا هـذا العبور فقط عبـر مركـب أو قارب بالذهاب نحو الجنوب إلى القرنـة Korna عند اجتماع النهرين. كان يبدو أن عمر القناة يعود إلى زمن بعيد جداً وأنها على الأرجح شقت من قبل أحد حكام كلدان القدامى عندما كانت بابل العظيمة في قمّة ازدهارها.

إن الامتداد الواسع لبلاد الرافدين فوق وتحت بغداد يستفيض بتلك القنوات الجافة والمهجورة، وعلى الأرجح جميعها يعود إلى الزمن الذي كانت فيه تلك البلاد حديقة العالم آنذاك.

برأي الشـخصي إن الطبيعة المسـتنقعية للقسـم الجنوبي من بلاد الرافدين والجدب

الموجود في القسم الشمالي ليس سوى نتيجة الإهمال الفظيع لتلك القنوات.

كلما اتجهنا لأعلى النهر بدت البلاد أقل مستنقعية وقلّ النبات على ضفاف النهر، وبعد اجتيازنا لبلدة ياور[1] Inwar سرعان ما اختفت المستنقعات بشكل كامل. قمنا بتمضية وقتنا بهناء على متن الباخرة إذ أمتعنا أنفسنا منذ الصباح حتى المساء بممارسة الرّمي، مستخدمين مهارتنا في رمي الأعداد الهائلة من الإوز البري والبط الذي يطير أمامنا في جميع الاتجاهات.

أطلقنا النار أيضاً على طيور النّحام الضخمة ذات اللون الأحمر الوردي والأبيض، التي تطوف بانخفاض فوق المناطق الضحلة من النهر بحثاً عن الفرائس وتقف منتصبة كالجندي على سيقانها الطويلة والنحيلة، في بعض الأحيان كنا نطلق رصاصة تطير محدثة طنيناً إلى وسط تجمع من البجعات المستغرقات في التفكير أو بليدات المظهر، كانت تقف دون حراك على ضفاف النهر الرملية، تمتع أجسادها البيضاء كالثلج بأشعة الشمس الحارقة، وهي أكسل من أن تطير قبل أن ترى أن إحدى أعضاء المجموعة قد تم رشقها برصاصة، عندئذ تهرب البجعات بأقصى سرعة وترتفع بشكل دائري عالياً في الهواء لكنها تعود إلى مكانها عندما نكون خارج مجال الرمي.

قبل حوالي ساعة من الغروب رأينا زوجاً من بنات آوى يتسللان على طوال ضفاف النهر، يترصّدان للأعداد الهائلة لطيور الحجل التي خرجت من قلب العشب الطويل إلى الضفة لتطفئ عطشها.

وقمنا بإرداء العديد من بنات آوى بواسطة بنادقنا فتدحرجت من الضفة إلى النهر واتخذت طريقاً مجانياً عبر النهر إلى الخليج العربي.

في الصباح بعد مرورنا بمدينة ياور[2] Inwar صحونا عند الشروق على الصريخ والصياح الهائل لركاب المركب، وفي ذاك الوقت سمعنا عدة عبارات نارية أطلقت،

---

(1) قبل قليل ذكر المؤلف الموقع باسم: Yuwar فما الصحيح؟

(2) قبل قليل ذكر المؤلف الموقع باسم: Yuwar؟

بتعاقب سريع قفزنا بسرعة من أسرتنا معتقدين بشدة أن الباخرة قد هوجمت من قبل البدو، ولكن بالنظر من خلال نوافذ الحجرة رأينا ثلاثة أسود آسيوية عظيمة تمشي ببطء على الضفة، أحدها كان ذكراً جميلاً كبير الحجم له مظهر بارز، توقف واستدار للخلف بجلال وشاهد بهدوء السفينة المكتظة بينما كانت تعبر على مسافة ستين ياردة منه، يتساءل بجلاء عن السبب الذي يجعل هؤلاء الناس يثيرون تلك الجلبة.

لسوء الحظ، كان الكابتن نائماً بعد، إذ أنه قبل وقت قصير فقط خلد إلى النوم وذلك بعد ليلة طويلة من المراقبة على متن السفينة. أخبرنا في وقتٍ لاحق أنه لو رأى تلك الأسود كان سيوقف السفينة لكي نتمكن من إصابتها بأسلحتنا. ولكي يكتمل الحظ السيّئ دخل مركبنا في منعطف نهري قبل أن نتمكن من إحضار أسلحتنا النارية. بعد ذلك بعدة ساعات وصلنا إلى محطة الوقود الثانية للباخرة الواقعة على بعد حوالي نصف ساعة من المشي من القرية العربية الصغيرة التي تدعى جبيلة Yubeila على الضفة اليمنى للنهر، الضفة التي رأينا عليها الأسود.

توقفنا هناك لمدة ساعة ونصف من الزمن للتزوّد بالوقود، لذا ذهبنا إلى الشاطئ (بصحبة ضابط المحاسبة وهو شديد العشق للصّيد) نحمل بنادقنا على أكتافنا، لنسأل الرجل العربي المسؤول عن المحطة إن كان هناك أية طرائد في الجوار. وجدنا الرجل في كوخه الطيني الصغير ينظف سلاح الفتيل الضخم الطويل وحيد السَّبَطانة الخاص به، ولم يكن في مزاجٍ جيد على الإطلاق.

عندما سألناه عمّا يعكرّ صفوه، أخبرنا أنه قبل يومين فقط قامت الأسود بقتل إحدى بقرتيه وهما كل ما يملك، ثم سحبت جسدها إلى داخل العشب الطويل المليء بالقصب، وهناك افترستها.

في الصباح التالي قام بتتبع مسارها فوجد عظام البقرة التعيسة وقرونها في المكان نفسه الذي كان قد أطلق فيه النار على أسدٍ قبل ثلاثة أشهر. وكان جلد ذاك الأسد في حوزة الكابتن (H) كابتن مركبنا النهري.

قبل يوم من مجيئنا أقسم العربي المكفهر على الانتقام، لذا أحضر حماراً محتضراً حمله على كتفيه طوال الطريق من جيلة Yubeila . وأراد ان يجعل منه طعماً للأسود، فوضعه قرب المكان الذي وجد فيه بقايا البقرة المقتولة. قام بحفر حفرةٍ عميقةٍ هناك، وغطّاها جيّداً بالأغصان المقطوعة تاركاً فتحةً صغيرةً فقط يستطيع من خلالها إخراج سَبطانة سلاحه. وقام بستر نفسه بداخلها بعد حلول الظلام مباشرة، منتظراً بتلهف ظهور الأسود التي سمع من مكانٍ ليس ببعيد صوت زنيرها القوي وذلك بعد ظهور القمر على الفور. لقد انتظر وانتظر منحنياً كالقرد، في حفرة المراقبة الضيقة والعميقة، مختنقاً من شدة الحرّ، يعاني من عطش رهيب ناجم عن هذا الحرّ ولا يجرؤ على الحراك.

عند الساعة الثالثة صباحاً سمع صوتاً لخطى بالكاد مسموعة في الخارج، فنظر من المنفذ واستطاع رؤية أسد ضخم هرول مسرعاً واختفى في العشب الطويل حاملاً معه جسد الحمار بسهولة كما يحمل القط الفأر. لقد كان ذلك الحيوان المتوحش مرتاباً، لذلك تسلّل على معدته إلى الحمار الهالك، فخطفه وانطلق كلمح البصر. بالطبع فكّر العربي أنه من غير الحكمة اللحاق به في الظلام لذا عاود أدراجه حزيناً إلى كوخه الواقع على ضفة النهر، حيث وجدناه يندب حظه السيء، وبدا واضحاً أنه ليس في أحسن حالاته، إذ كان قد رجع لتوّه من مسيرة عبر القصب دون أن يتعقب الأسد أو فريسته.

بعد ذلك بأسبوعين أحضر الكابتن (H) إلى بغداد جلد أسد مسلوخ حديثاً، كان هديّة من العربي الصبور الذي ظلّ يترقب الحيوان الوحش حتى نجح في إقحام رصاصة في قلبه بينما كان يشرب من النهر.

رغم أن الأسد الآسيوي أقل مرتبة من أخيه الأفريقي في الحجم والقوة والشجاعة، فهو أبعد ما يمكن عن كونه غريماً وضيعاً بالنسبة للصياد وخصوصاً إذا ما كان جريحاً . إن الأسد الأسيوي تماماً كاللبوة، ليس لديه لبدة حول رأسه، بينما الأسود الأفريقية وخاصة تلك التي في شمال وجنوب أفريقيا تمتلك لبدة بنيّة داكنة جميلة، تصل أحياناً

إلـى الأرض لتعطـي الحيوان مظهـراً ملكياً قوياً، لا يمكن نسـيانه أبـداً عندما يُرى من مسـافات قريبة، ولكن بالكاد يمكن رؤيته على النموذج المسـكين الموجود في معرض الوحوش.

إن الأسـد الآسيوي نادراً ما يزمجر، وعندما يفعل تكون عبارة عن زمجرات قصيـرة منفـردة، في حيـن أن الوديان الحجرية لجبـل الأطلس في الجزائر وسـهول القاروس القاحلـة وضفـاف القصب علـى وادي أورانـج Orange، وفال Vaal، ونهـر ليمپوپو Limpopo في جنوب أفريقيـا، جميعها أحياناً تهتز تماماً في ليلة قمرية شـديدة الحرارة بتأثيـر الصّدى الهائل القـوة الذي يحدثه صوت ملك البـراري، زمجرة طويلة منقبضة ومهتـزة، تلـك القـوة الهائلة كفيلة بـأن تلتقي الرعب فـي قلوب بقية العالـم الحيواني بأكمله وترهق أعصاب حتى أشـجع الرجال عندما تـسمع لأول مرة من داخل القماش الرقيق لخيمة متقلقلة.

يعيش الأسـد الآسـيوي في جزيرة العرب، والجزء الجنوبي من فلسطين، وجنوبي بلاد الرافدين، وجنوب بلاد فارس، وفي شـمال غرب الهند، ولكنه أكثر ما يتواجد في جنوب بلاد الرافدين ومقاطعة راجپوتانا Rajpootana في شمال غرب الهند، وأشـك أن يكون متواجداً على مسـافة أبعد من 35 درجة عن خط الاستواء.

هـذه الطرفـة التي ترد أدناه تـمّ إخباري بها من قبل عدة أوروبيـيـن مقيمين في بغداد منذ بضعة سنوات، كان الكاپتن (S) مقيماً في بغداد ويرأس البارجة النهرية الموضوعة تحت خدمة القنصلية البريطانية العامة في المدينة، أبحر عبر النهر في البارجة المشـار إليهـا عائداً من حملة صيـد قرب بغداد مع عدة أصحاب مقيميـن أوروبيـين في بغداد. كانت خيولهم على متن السـفينة، وتوقفوا في محطة الوقود التي ذكرتها سـابقاً، عندما ذعر فجأة حصان الكاپتن وهو جواد خارق ـ وقفز إلى الشاطئ. لقد خبّ بعيداً، نشـواناً بحريته المؤقتة، واختفى في العشب الطويل.

تـم البحـث عنـه لعـدة سـاعات ودون جـدوى تجّـل الظلام وكانـوا مجبريـن على الاستسلام، وبما أن السـفينة لا تـستطيع البقاء هناك لمدة أطول، لذلك تركت التعليمات

عند الرجل العربي في المحطة بإرسال الجواد دون تأخير إلى بغداد، إذا تم العثور عليه حياً.

في الليل صعدت السفينة على قرارة رملية، وعندما تم إنزالها في الصباح تقدمت قليلاً إلى الأمام. عند الشروق كان انتباه الركاب منجذباً إلى ضجة وحفيف عاليين آتيين من الأعشاب الطويلة على طول الضفة. كم كانت دهشتهم عندما رأوا بعد قليل حصاناً أبيض أدركوا على الفور أنه حصان الكابتن (S) يركض عبر الدغل كهزيم الرعد بأقصى سرعته، يقطر عرقاً ويصهل بقوة احتفاءً برؤية السفينة.

لكنّ ذاك الحيوان الشهم كان مطارداً عن قرب من قبل أسد ضخم، أتى خلفه يرعد بقفزات جبارة، لسانه يتدلى من فمه المفتوح باتساع، وجهه وصدره القوي ملطخان بالدماء، وهكذا استمرت المطاردة الشرسة إلى أن أتوا بالسفينة التي اقتربت من الشاطئ وأطلقت عياراً نارياً. تخلى الأسد المشدوه عن المطاردة عندما فزع من الوهج المفاجئ والدوي العالي للنار، ثم اختفى في الأجمة.

أما الجواد الشجاع فقد خرج لتوه مغطى بالزَّبد والعرق ويلهث بصعوبة، من الواضح أنه خاض أطول سباق على مدى الحياة، ولكنه بدا كأنه استمتع به، إذ كان كلما اقترب مطارده الضاري من سيقانه اندفع الجواد الشجاع بإرادة قوية وانجرح رأس الأسد بشكل محزن، وتغطى صدره الواسع بدمائه.

بالتأكيد نُقل الفرس سريعاً إلى ظهر السفينة وتم الاعتناء به.

لا يزال الفرس حياً حتى الآن، وقد رأيته في بغداد، يملكه السيد (A) ورغم كونه هرماً جداً فهو مازال جواداً خارقاً.

في الصباح التالي عند الشروق وجدنا الضفة اليمنى من النهر مغطاة على مدّ النظر بقطعان ضخمة من الإبل المتنوعة الأحجام والألوان، جميعها تعود لقبيلة المُنتفِق البدوية، التي تقطن كامل المنطقة الممتدة على جنوبي بلاد الرافدين إلى يمين نهر دجلة وشمال صحراء الحَمَاد أو الدَّهناء.

يصـل تعدادهـم إلى أكثر من ثمانيـة آلاف رجل وامرأة وطفـل، ويمتلكون أكثر من مئـة ألـف جمل، وأكثر من أربعين ألـف حصاناً، وأعداداً لا تحصى مـن البقر والماعز والأغنام، يعيشـون حياة متنقلـة «كما تدل كلمة بدو» فيقضون السـنة بكاملها في خيام كبيرة مصنوعة بشـكل محكم من القماش الأسود الخشـن المصنوع من صوف الأغنام أو شعر الماعز، ومثبتة جيداً بجذوع الأشجار. وبسبب ندرة وجود العشب الجيد على سـهول الرافدين العطش يتوجب عليهم أن يسـافروا حول البلاد مـع قطعانهم الهائلة، ويمكنهم البقاء في المكان نفسـه فقط إلى أن يؤكل العشـب بكامله من قبل ماشـيتهم، عندهـا عليهـم الرحيل والبحث عن مـكان آخر، لذلك من الصعب جـداً إيجادهم في البقعة نفسها لأكثر من أسبوعين.

تنقسـم كل قبيلـة بدوية إلى عـدد من الأفخاذ الصغيرة، تسـافر كل واحـدة منها في اتجاه مختلف بحثاً عن الكلأ والماء لقطعانها.

من غير الممكن أن يكون هناك مشهد أكثر جمالاً ومتعة بالنسبة للرحالة والمسـافرين أكثر من رؤية قبيلة بدوية مسـتقرة، والنشـاط الصاخب الذي يسـتدعي بقوة ذاكرة حياة الترحال الأبوية المصورة في الكتاب المقدس والتي عاشها إبراهيم، ولوط، وإسحاق، واليسـع، ويعقـوب... وغيرهم، حيث كانـوا جميعهم متنقلين أو بـدواً. إن حياة البدو البرابرة في أيامنا هذه تشـابه تماماً الحياة التي عاشـها أسـلافنا المذكورون في الكتاب المقـدس. بعيداً جداً على السـهل المقفر، ترى القافلة الكبيـرة تتحرك ببطء نحو النهر الذي بسـبب رطوبة الأرض ضفتاه دائماً مغطاتان بالخضرة حتى أثناء فصل الحر الذي تجـف فيه وتحتـرق كل ذرة نابتة في الصحراء. وتماماً كالثعبـان العملاق الذي يتمعّج بجسـده الضخم ببطء وانتظام على طول السـهل اللانهائي كان الموكب الضخم يتقدم أقـرب فأقـرب، حتى أصبح من الممكـن رؤيـة مقدمته بوضـوح بالرغم مـن الوضع المتموج فوق السـهل.

تصاعدت غيوم من الغبار بسـبب مجموعة من الفرسـان الجامحين السُّـمر البشـرة، يلتفون بعباءات بنية مخططة بالأبيض وتسـتطيع بوضـوح رؤية أغطية رؤوسهم المشنشلة

بكثرة ترفرف في الهواء، سيوفهم، خناجرهم وأسلحتهم الطويلة المتوهجة كالبرق في وسط الشمس، ومع كل حركة كان يتحركها الفرسان المندفعون لمعت آلاف النصول كالنجوم البراقة.

وبين الحين والآخر كنت ترى عشرين أو ثلاثين راكباً للخيل يخرجون من أرتال المجموعة التي تقترب أكثر فأكثر. وبصرخة جذلة قصيرة يندفعون من قلب القافلة بسرعة الغزلان، ينظفون القنوات، والأحجار والأغصان برشاقة وسهولة رائعين، يلوحون طوال الوقت بسيوفهم المنقوشة اللامعة بطريقة لعوب وحربية وحشية في الوقت ذاته، ويديرون رماحهم وأسلحتهم اللامعة فوق رؤوسهم.

تتجه سرعتهم المتهوّرة نحو تلال رملية بعيدة، وتستطيع على الفور رؤيتهم يخبّون بتأنٍّ على طول القمم ويقومون بواجبات المستكشفين، بينما ينطلق قسم منهم من اتجاه مختلف ولكن بطريقة مماثلة، نحو الطابور البطيء الحركة، ليقدّموا تقريرهم، يركبون بأقصى قوة وثقل يمكن لجيادهم اللاهثة تحملها، لا يكبحون لجام خيولهم إلا قبل عشرة ياردات تقريباً من مكان القافلة الأصلية، عندئذ يوقف الراكبون المندفعون جيادهم المختلفة بشيء من السحر؛ إذ يتوقفون فجأة كأنهم صعقوا بفعل البرق. بينما يقترب هؤلاء الفرسان أكثر يمكنك أن تلاحظ أنهم مرؤوسون من قبل فارس مسن، لكنه مازال مندفعاً، له لحية وشارب وشعر فضي منساب، عينان غائرتان، سوداوان كالليل وحادّتان كعيني النسر، أضف إلى ذلك امتياز معدّاته، وفخامة لباسه، وسوف لن يكون من الصعب لك أن تميّز أن هذا الرجل هو الشيخ أو سيد القبيلة. انظر كيف يبقى سائر الفرسان خلفه على مسافة من الاحترام، وكيف تبقى وجوههم الداكنة متجهة نحوه حينما يشير إلى بقعة خضراء على ضفة النهر، يقصد بهذه الإشارة أنه قد اختار هذا المكان لإقامة مخيمهم المؤقت.

عند وصولهم إلى البقعة إياها، يقفز الجميع في الوقت نفسه من على صهوات جيادهم اللاهثة، ويبقى السيد وحده على سرج حصانه، يدرس الموقع بينما يبدأ رجاله بعقل أحصنتهم؛ إما بربطها إلى رماحهم الطويلة المثبتة عمودياً في الأرض، أو

بتقييدها بزوج من الأصفاد الحديدية المقفلة بإحكام.

حالما تصبح الجياد آمنة، يندفع معظم الرجال معاً إلى النهر، حيث بعد أن يغسلوا وجوههم، وأيديهم وأرجلهم، يجثون ليشربوا مقداراً وافراً من الماء.

مع مرور الوقت تحركت النسوة للأعلى دون ضجيج، وبينما كنّ يقتربن من النهر كانت رؤوسهن الذكية مرفوعة، وكنّ يحدقن حولهن بتساؤل، بعيونهن العسلية الكبيرة الرقيقة. في مقدمتهن تأتي تلك اللواتي يحملن زوجات الشيخ، إذ أنه كمسلم صالح لديه من واحدة إلى أربع زوجات. تقريباً كل رجل في القبيلة لديه زوجة أو أكثر، إذ يتكيف العدد مع قابليته لإعالتهن.

كانت النساء الشيخ مثله تماماً يمكن تمييزهن بسهولة حتى من مسافة بعيدة، من الجمال الطويلة والجميلة التي يركبنها، ومن الشدائد المزينة بترف، ومن النوعية المتميزة للثياب التي يلبسنها، ومن الإفراط في المجوهرات التي زينّ بها أنفسهن بشكل عام وبخاصة الزوجة الأولى أو الزوجة الرئيسية للشيخ، التي إلى جانب أشياء أخرى من الحلي ترتدي مجموعة كاملة من النقود الذهبية القديمة، الفارسية والعربية والمصرية والتركية والهندية، جمعت بعضها مع بعض بطريقة تشبه فيها حراشف السمكة أو كدرع على شكل خوذة أو قبعة يضعنها على رؤوسهنّ. ذات مرة أمسكت يدي إحدى حلي الرأس الحرشفية تلك لأعرف وزنها، فكانت تزن أكثر من أربعة أرطال.

لطالما تساءلت كيف بإمكان كائن بشري أن يمشي طوال اليوم تحت الشمس العربية الحارقة وعلى رأسه غطاء كهذا دون أن يسقط ميتاً إثر ضربة شمس أو حمّى في الدماغ، ولكن النساء البدويات لا يعانين حتى من أقل درجات الصّداع عند ارتدائهن لتلك الأشياء.

بعد عائلة الشيخ مباشرة تمشي نساء وأطفال باقي رجال القبيلة، والجميع طبعاً يركبون الجمال، تحمل النسوة المتزوجات صغارهن على ظهورهن بشيء كالملاءة

الصغيرة، بالطريقة التي يحمل فيها الجنود جراب المؤونة الخاص بهم. إن الفتيات البالغات أيضاً يمتطين الجمال، وأحياناً اثنتان أو ثلاث منهن يركبن على الدابة نفسها، يتعلقن بها تعلقاً أكثر مما يجلسن على ظهرها، إذ يمسكن أنفسهن بثبات بواسطة الصوف أو الشعر الموجود على ظهر البهيمة، بدا جلياً أنهنّ يستمتعن بهذه الطريقة من الركوب لهدف الصحبة أكثر من هدف الراحة، إذ أن شداد الجمل مهيأ لشخص واحد فقط.

أما الأولاد الصغار فكانوا يغنون، يضحكون ويثرثرون بطريقة من المبهج جداً سماعها، في حين أن النسوة المتزوجات يبذلن جهودهن في المحافظة على هدوئهن مع الأطفال الذين يصرخون ويزعقون بسبب انزعاجهم من سحابات الحشرات الطائرة التي تزحف فوق وجوه هذه المخلوقات المسكينة المختنقة تقريباً بالغبار. وخلف الجمال التي تحمل الناس تأتي أعداد هائلة من حيوانات الفصيلة ذاتها للتحميل على سنامها يوجد شدادٌ، وفيها عواميد خيام مربوطة، أغطية الخيمة، وسائد، بطانيات، قن للدجاج، أقفاص للحمام، دلاء جلدية، قربات للماء، حصائر من القش، سجادات، أحجار لطحن الذرة، يقطين، أدوات طبخ، أباريق للماء وإمدادات والكثير الكثير غيرها، وتقاد تلك الجمال بواسطة رجال على ظهور أحصنتهم. في هذا القسم من القافلة يمكنك رؤية الجمل في جميع حالات الوجود، من المخلوق الصغير المرتعد الذي ولد قبل عدة ساعات، صعوداً إلى الحيوان الضعيف الأعمى المهتز الأضلاع الذي على وشك أن ينهار بسبب التقدّم في العمر. وبعد البهائم المحملة بالمتاع ظهر الكثيرون من الغلمان نصف العراة والرجال المسنون الذين يعتلون ظهور إناث الخيول الولّادة التي لا زالت ترضع صغار المهور، ولذلك يجب معاملتها بلطف، تدفع هذه المجموعة أمامها قطيعاً هائلاً من البقر، العجول، الثيران، الحمير والماعز والأغنام، محاطاً من كل الجوانب بأكثر من مئتي كلب هجين كبير أشعث ومتوحش المظهر. ويرافق كلاب البداوة في هذه المهمة مئات الصبية الرثّين أو بالأحرى العراة تماماً يركبون على حمير عارية الظهر، وكل واحد من أولاد البادية المفعمين بالأمل هؤلاء

يحمل في حضنه كلباً كسيحاً أو قطة حديثة الولادة أو حملاً صغيراً. أما ذيل القافلة فهو مكون أخيراً من قوة عظيمة أخرى من الرجال الراكبين المدجّجين بالسلاح، واجبهم حماية القافلة من الخلف وحمل المشردين الذين قد يصادفونهم.

ويوجد إلى يمين ويسار هذه القافلة الطويلة عدد من الكشافة على بُعد يتراوح من مئتي إلى ألفي ياردة على القافلة، وبالطبع جميعهم يركبون الخيول ويقومون بالمراقبة الجيدة، وخاصة عندما يعلمون أن هناك قبائل أخرى تخيم في الجوار. رغم أن القبائل البدوية ليست دائماً في حرب مستمرة مع بعضها، فهم ليسوا أحياء الضمير حيال اغتنام ماشية جيرانهم عندما تسنح الفرصة بذلك، وغالباً ما يكون غنْم المواشي السبب في اشتباكاتهم. إن بدو (المُنتفِق) مولعون جداً بغنْم الماشية من بدو بني (لام) الذين يحتلون الحدود الشمالية الشرقية لنهر دجلة وتقريباً صحراء اللور Lorian بكاملها، أما بدو (عُنِزَة) في المنطقة الشمالية لبلاد الرافدين، فيحتلون المنطقة الواقعة جنوب الفرات، ويسعدون في نقلهم للماشية عبر بدو شمّر في المنطقة الشمالية للفرات وبالعكس.

حالما وصلت القافلة بكاملها إلى المنطقة التي اختارها الشيخ تكاتفت جميع الأيادي لتحرّر الأنعام من عبئها. وبعد الانتهاء من ذلك يشير الشيخ إلى المكان الذي يرغب في نصب خيمته فيه، وذلك بمقتضى الامتياز الذي يتمتع به، وأن تنصب جميع خيام عائلته دون تمييز حول خيمته التي تكون فيما بعد مركز المخيم المتالي. تترك مسافة عشرين ياردة على الأقل من جوانب خيمة الشيخ، وتكون هذه المسافة فيما بعد مكاناً لاجتماعات الرجال العامة، الذين يجتمعون هناك عادة، صباحاً ومساءً يدخنون غلايينهم ويتحدثون عن أمورهم، بعضهم يقف وبعضهم يمشي والبعض الآخر يتربّع على الأرض متصالب الأرجل على الطريقة الشرقية، أو يتكئ على حصائر القش، والجلود أو البسط.

إنَّ خيام جميع القبائل البدوية مصنوعة على نحو ثابت لا يتغير من القماش الغليظ الأسود أو البني، تصنعها النساء من صوف الغنم أو شعر الماعز، ورغم كون

هـذا القماش شـفاف تقريباً إلاّ أنـه عازل للماء ومرن جداً. وتكـون هذه الخيام مدعمة بالأعمدة ومثبتة بالأرض بواسطة أوتاد خشبية وحبال مصنوعة من شعر الماعز. تغطى الأرض بحصائر القش أو الجلود أو السجاد، وذلك حسب موارد القاطن فيها.

تفرش الأسرّة من قبل النسـاء عند الغروب، وعند الشـروق تطـوى ثانية وتخبأ في إحدى الزوايا.

أيـاً كان مـن يدخل الخيمـة وحتى إن مالكها نفســه يخلع نعليه عنـد المدخل. فقط الأميركيـون والأوروبيـون مـسـتثنون من اتباع تلك العادة، ولكـن العرب يعتبرونها قمة في الاحترام بالنسـبة إليهم إذا ما رضخ شخص أوروبي أو أميركي لهذه العادة الشرقية. إن هـذا يزيـد إلى حدّ هائل مقدار حسـن وفادتهم الذي تضرب بـه الأمثال، لدرجة أن الشـخص الأجنبي سـيجد أن مـن مصلحته القيـام بعمـل المجاملة التافه هـذا. تكون الخيول مربوطة بشكل ثابت عند مدخل خيمة صاحبها وبذلك يستطيع أن يبقيها تحت أنظاره طوال الوقت.

عنـد هبوط الليل، يضع البدوي أصفاداً حديدية خاصـة على أفضل جياده ولا أحد غيـره يملك مفتـاح تلك الأصفاد. في بعض القبائل الأكثر تطرفـاً، يبقي كلّ رجُل أحد جياده مسـرجاً باستمرار مسـتعداً لحالات الطوارئ. إن الخيول البدوية دون استثناء تقريبـاً هادئة جيـدة الطباع على نحو ملحـوظ، لدرجة أني رأيتها ذات مـرة تتمدّد على الرمـال تتمتع بالشـمس بينما كان هناك ولدان عاريان تمامـاً من عفاريت البدو الصغار بالكاد يبلغان الثانية من العمر يزحفان ويتسـلقان على أجسامها، يشدان ذيولها وآذانها وعرفهـا ويزحفـان حتـى بين أضلاعها، مـع حصانة مطلقـة ودون أي ردّ فعـل. لا يتم إحضـار قطعـان الإبل والبقر إلى المخيم نهائياً، إنما فـي الليل يتم تجميعها في الجوار وتـم حراسـتها بحذر من قبل حراس مسـلحين وعدد من الكلاب التـي تطلق بدورها إنـذاراً فوريـاً عند أقل دنو للخطر. عادةً يعيش البدو إلـى أعمار متقدّمة جداً، وإنه ليس مـن غير الشـائع أن تـرى بينهم أشـخاصاً يتجاوزون مئة سـنة من العمر، فهـواء البادية النقـي، والحرارة المرتفعة ولكن الثابتة، وتمارينهم المسـتمرة في الخلاء، وفوق ذلك

كله عاداتهم الصحية المعتدلة، وذلك كله يسهم في طول العمر.

استغرق عبور السفينة من أمام مضارب قبيلة (المُنتفِق) البدوية المذكورة أعلاه ساعتين كاملتين ثم أبحرنا في النهر لوقتٍ لا بأس به محاطين بسهول مقفرة من اليمين والشمال، وبدت تلك السهول غير مأهولة على الإطلاق، خالية أيضاً من معالم الحياة الحيوانية، حتى وصلنا أخيراً إلى سارود[1] القنطرة Seroot al Cantâra (معقل تركي مهجور يقع على ضفة النهر اليمنى، له جدران طينية سرعان ما تفتت إلى أجزاء).

وإلى أبعد نقطة في مرمى نظرنا، لم نستطع رؤية أية علامة تدل على وجود حياة نباتية حول هذا الحصن، ما يدل على أن القوّات التي تمركزت سابقاً في هذا المكان البائس كانت مجبرة على التزوّد بالمؤونة من قرية كوت العمارة Koot aL Amâra (قرية واقعة فوق النهر بحوالي ستين ميلاً).

تقع سارود القنطرة Seroot al Cantâra قرب المكان الذي قام فيه الإسكندر ملك مقدونية، الفاتح العظيم بعبور نهر دجلة بجيشه العظيم، عازماً على غزو الهند، سنة 330 قبل الميلاد، ولا تزال هناك بعض آثار الجسر القرميدي الذي بناه لهذه الغرض يمكن رؤيتها بوضوح على ضفتي النهر.

يجتمع نهر دجلة على بعد خمسة عشر ميلاً عن سارود القنطرة Seroot al Cantâra في الضفة اليسرى برافد يدعى نهر مندلي، أو Congetoon أو Badrâi البدرائي، جميعها لنهر واحد أطلقت عليه من قبل القبائل المختلفة التي تسكن بادية اللور والتي تمتد ليشكل نهر دجلة حدها الجنوبي الغربي وسلسلة پَشتي كوه Pushti Kooh الجبلية حدها الشمالي الشرقي، من مستقعات سامرغا Samargha البائنة إلى ما بعد بغداد، لتصل تقريباً إلى ثلاثمئة ميل في الطول على الأقل، وحوالي ستين في العرض، من نهر مندلي الذي يشكل المنبع الوحيد، والذي يمتد في السلسلة الجبلية التي تشكل الحد الجنوبي الغربي لبلاد فارس، أما الجزء السفلي من النهر فلم

(1) الساروود مصطلح آرامي شائع في أرياف العراق وسوريا، ومعناه: مجرى مائي موسمي تجري فيه المياه في الشتاء من الينابيع أو مباشرة من المطر، ويجفّ في الصيف.

يتم التعرف عليه من قبل الجغرافيين، فهو يجري في منطقة ليست مستكشفة من قبل الرجال المتحضرين، وذلك بسبب التصرف العدائي المفرط الملتقى من قبل السكان الهمجيين تجاه جميع الدخلاء.

إن سكان هذه المنطقة المنعزلة المهجورة من العالم هم بدو بني لام الذين يحتلون المنطقة بكاملها على طول نهر دجلة من بغداد حتى القرنة، ويسكن وسط بادية اللور بدو Abladani، أما الهماوند[1] Hamawend المريعون، وهي قبيلة غير محسومة الهويّة، نصفها من العرب والنصف الآخر من العرق الفارسي، فتتجوّل حول نهر مندلي على المنطقة السّهلية بين النهر والجبال الحدودية الفارسية.

هذه القبيلة آنفة الذكر تشتهر كثيراً عبر بلاد الرافدين بوحشيتها وجراءتها، والصراخ الشيطاني لرجال الهماوند Hamawend النهّابين يلقي الرعب والفزع على كل قافلة مهما كانت قوتها، إذ تجتمع في هؤلاء المتمرّدين الميول القتالية عند كلب البولدوغ، وضراوة النمر، وحذق القرد، ومكر الثعلب.

إنهم لا يكفون عن المراوغة ومضايقة وأذى القافلة إذا ما تمركزت هناك حتى يتدبروا أمر فريستهم، الويل الويل لتلك القافلة التي لم تبق حراسة جيدة طوال الليل، الويل لهؤلاء التائهين سيئي الحظ الذين صادف لهم أن يتيهوا عن جماعتهم أو يضلوا طريقهم، فأولئك مصيرهم مسدود إذ قبل أن يعوا حالتهم، سيكون رجال الهماوند Hamawend أكثر الفرسان ضراوة في العالم، فوق رؤوسهم، ولن يتوقفوا عن القتل حتى يجهزوا على كل رجل وامرأة وطفل؛ كي لا يتمكن أحد من رواية الحادثة.

من المعروف عنهم أنهم لا يظهرون الرّحمة أبداً ولا يقومون بطلبها حتى، في الواقع إنهم مجموعة خطيرة من المجرمين الذين ليس لهم مثيل في العالم. العديد من القصص المؤثرة والدموية تحكى من قبل سكان بلاد الرافدين عن تمادي وخداع الهماوند Hamawend المرعين، الذين وفقاً لما يمليه عليهم عملهم الخارج عن

(1) الهماوند جماعة قبليّة في العراق من أصل إيراني، يقال لهم هموند وهماوند چلبي. قيل إنّ أصلهم من عشيرة الجاف الإيرانيّة، وقيل أتوا من إيران حوالي عام 1180 هـ أو 1190 هـ.

القانون سوف لن يرهقوا أنفسهم بتربية الماشية، ولا حتى سيحتفظون بالحيوانات، باستثناء الكلاب والخيول.

تتكون خيامهم من بطانيتين صوفيتين أو أغطية اللباد، وعصاتين، ولا تزن الخيمة الواحدة أكثر من عشرة أرطال، ويمكن نصبها وانتزاعها في دقيقتين.

ويتألف أثاث هذا المنزل بكامله من وعاء نحاسي للطبخ، وقربة أو جراب الماء، وحصيرة من القش، وتقريباً الرجال النساء والأطفال على حدّ سواء يمتطون الخيول باستمرار، ونادراً ما يعيشون في المكان نفسه لأكثر من يومين، جميع الغنائم التي يسلبونها يتم تخليصها من بعض القبائل المرسلة بالخفاء إلى بلاد فارس أو بلاد الرافدين الشمالية.

إنهم أناس لا يمكن التغلب عليهم، إذ أنه من المحال إرسال قوات ضدهم إلى الصحراء العارية التي هم وحدهم يعلمون ميزاتها ومداخلها، وبدهائهم الحذر يمكنهم أن يلحقوا الدمار الكامل بأية قوة مرسلة ضدهم، ولحسن حظ البشرية أنهم ليسوا كثيري العدد ويجب التخلص منهم بأسرع ما يمكن، إنهم ليسوا مسلمين كالعرب والفرس، ولكنهم عبدة شياطين.

إلى مسافة قريبة فوق التقاء نهر مندلي بدجلة وعلى الضفة اليمنى للنهر تقع قرية مندلي، مكان صغير بائس يتألف من حوالي عشرين كوخاً طينياً بأسطح مستوية، وبعض خيام البدو، لكنه مشهور بعقاربه المميتة، ويقول العرب إن لدغة أحدها تعني الموت المحتم، إلا إذا تم قطع أو حرق العضو المسموم من الجسم على الفور. لتلك العقارب شكل العقارب الأخرى نفسه، لكنها أصغر ولا تبلغ أكثر من إنشين اثنين في الطول، ولها لون ضارب إلى الرمادي وتعيش في الجدران القديمة والحفر الموجودة في الأرض.

عند الغروب وصلنا إلى كوت العمارة Coot al Amâra، وهي قرية عربية صغيرة ذات أهمية كبيرة، ويحكمها شيخ، تقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة - تماماً كباقي

القرى التي مررنا بها منذ أن غادرنا الحديثة Hadidsha - تحت بلدة القُرنة بمسافة تقدر بثلاثمئة ميل تقريباً.

وكوت العمارة هي محطة الوقود الثالثة بالنسبة للباخرة، وتأتي أهميتها بالنسبة لبغداد فقط من كونها سوقاً لبيع صوف الأغنام الذي يجلبه بدو بني لام للبيع.

تحت هذه القرية بقليل يتفرع نهر دجلة إلى فرعين: الفرع اليميني هو نهر دجلة الأساسي، والفرع اليساري هو شطّ الحياة الذي يتدفق نحو الجنوب ويلتقي بالفرات عند قرية الفارية Alfaria. تبلغ المسافة من كوت العمارة إلى بغداد بخط مستقيم حوالي مئة ميل، ولكن عبر النهر فإنها تزيد على مئتي ميل، وذلك بسبب التعرج الشديد؛ إذ تصل المسافة بين بعض المنعطفات إلى عشرين ميلاً في حين إذا أردنا قياسها بخط مستقيم فبالكاد تبلغ الميلين.

في الصباح التالي وصلنا إلى الشمامية Shamamia وتدعى أيضاً العزيزية Azizia. تقع هذه البلدة على الجانب الأيسر من النهر، ورغم أنها ليست كبيرة، مع ذلك فهي ذات أهمية بالنسبة لتجار بغداد، وتنعم بفوائد البازار الصغير، حيث يشتري منه البدو جميع ضرورياتهم وكمالياتهم.

بينما كنا نبحر عبر النهر في المساء، رأينا قطعاناً جمة من الخنازير البرّية التي كانت تعدو حول الضفاف، وأكثر من مرة رأينا بعضها تعبر النهر، أطلقنا النار على واحد منها، لكنه غرق مباشرة فلم نستطع إحضاره، وكان من الجيد أننا فقدناه؛ إذ كنا سندخل في جدال حاد مع الكابتن لو حاولنا جرّه إلى متن السفينة، والجدال الأكثر حدة سيكون مع أصحابنا المسافرين اليهود والمسلمين.

لقد قام الكابتن بلفت انتباهنا إلى هذه العاقبة قبل أن نطلق النار، مؤكداً أنه لن يستطيع الحصول على أي ركاب مسلمين آخرين طوال فترة عوم الباخرة إذا ما علموا بوجود خنزير على متنها.

إن اليهود والمسلمين يبغضون الخنازير إلى حدّ كبير، ففي بعض مناطق الشرق نرى

أنـه مـن الصعب جداً والنادر تربية النباتات وذلك بسـبب الأعـداد الهائلة من الخنازير البرية التي تقوم بإتلافها، ويرفض السكان قتلها أو حتى التواصل معها أو لمسها وذلك طبعاً لأسباب دينية.

وإنهم ليهجرون المنطقة ويتخلون عن الزراعة بكاملها لكي لا يضطروا إلى تلويث أنفسهم بلمس تلك الحيوانات.

إنّ القسـم الأكبر من سكان آسـيا يمقتون الخنزير بشدة، وخاصة العبرانيين والهنود والمسلمين، بعضهم لأسباب دينية والبعض الآخر لأسباب صحية.

* * *

الفصل الثامن

على الأقدام ـ آثار طاق كسرى ـ طلقة ـ الصمم ـ القطاة ـ حديقة رائعة ـ القنطرة ـ التاريخ ـ صيد الجمال ـ رؤية بغداد.

على بعد ثلاثين ميلاً من العزيزية، على الضفة اليمنى، تقع القرية العربية الصغيرة طويّة Tuaya، حيث ينعطف النهر بشدة ليصل محيط الالتواء إلى ما يقارب اثني عشر ميلاً، هناك كان معظم مسافرينا يجلسون على الشاطئ بشكل مؤقت، نتيجة صعود السفينة على ضفة رملية.

ولكي نتيح للطاقم فرصة تحرير السفينة بقدر استطاعتهم، مضينا على الفور لنمشي عبر خط اليابسة الضيق الذي يبلغ عرضه ثلاثة أميال.

فكرت أنا وصاحباي الأوروبيان أنها فرصة مناسبة لنحصل على بعض اللهو، فذهبنا إلى الشاطئ بواسطة القوارب، وخلال تجوالنا في شبه الجزيرة تلك قمنا باصطياد عدة أزواج من الحجل الجيد وأرنبين بريين، أجفلنا أيضاً الكثير من الخنازير البرية، لكننا لم نتعرّض لها. وصلنا إلى الجانب الآخر من شبه الجزيرة قبل الغروب بقليل وكنا متقدمين عن السفينة التي تم إخراجها بسهولة بحوالي ساعة تقريباً. خلال الليل كانت السفينة بالكاد تتقدم إلى الأمام وذلك بسبب كثرة الأرصفة الرملية الموجودة في هذا القسم من النهر الشديد التعرّج. وبالرغم من كل هذه الاحتياطات صعدت الباخرة على تلك الأرصفة عدة مرات، وعند انبثاق الفجر وجدنا أنفسنا أمام الآثار الرمادية المهيبة لطاق كسرى كما يسميها العرب، عندما رسونا لنتزود بالوقود.

أخبرنا الكابتن أن الباخرة لن تغادر قبل ساعتين من الزمن، لذلك استفدنا من هذه الفرصة في استكشاف الآثار التي تبعد أقل من ميلين عن الضفة اليسرى للنهر.

وصلنا إليها بعد مشية نشيطة في هواء الصباح الباكر المنعش. لقد استوقفنا التساؤل عند هذا المبنى العظيم الجبار الذي يعتبر واحداً من أعظم الآثار وأكثرها جلالاً في الشرق، وحسب تخميني يحتل مرتبة أدنى بقليل فقط من آثار بعلبك، حوالي خمسين ميلاً شمال شرق بيروت، أو آثار تدمُر في الصحراء التي تقع على بعد مئة وخمسين ميلاً شمال شرقي دمشق، وكلاهما له شهرة ذائعة في جميع أنحاء العالم. هذا البناء الضخم المعروف باسم «طاق كسرى»[1] "Taak Kesra" هو مبنى متين رباعي الزوايا مبني بالطوب والطين، الطين الذي أصبح مع مرور الزمن متحجراً وملتحماً بقوة مع القرميد، حتى غدا من المستحيل فصلهما عن بعضهما. إن قطع الطوب أصغر بكثير من تلك الضخمة الموجودة في بابل، وتبلغ حوالي قدم مربع واحد وثلاثة أو أربعة إنشات في سماكتها، وهي مكونة من الصلصال الأصفر لكنها ليست مغطاة بالنقوش كتلك التي في بابل. أما في جودتها فهي ليست أدنى درجة بكثير من الأخرى، والعرب المجاورون لها مدركون تماماً لحقيقة تفوقها الكبير على القرميد الحديث، لذلك فهم دائماً منهمكون في انتزاعها وبيعها في بغداد للحدادين والخبازين والطباخين ليبنوا منها أفرانهم ومواقدهم ومداخنهم، إذ أن هذا القرميد يمكنه مقاومة أقصى درجات الحرارة وهو غير قابل للتخريب.

يا له من شيء يدعو للأسف أنَّ وعي السكّان لقيمة هذا القرميد يكون باقتلاعه من مكانه، إنهم بذلك يفسدون مظهر هذا الصرح الجليل أكثر مما هو عليه، ويعجّلون في دماره، في الوقت الذي يمكن له أن يتحدّى عوامل الزمن بنجاح ويصمد حتى ألفية جديدة.

---

(1) من المفيد الرّجوع إلى ما ذكره عن طاق كسرى الرّحالة البريطاني المعاصر للوكر، هنري سواينسون كاوبر H. S. Cowper في رحلته المثيرة من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي عبر الجزيرة الفراتية، عام 1893. انظر الفصل الخامس عشر.

إن الأبعاد التقريبية لطاق كسرى هي: ثلاثمئة قدم عرضه من الأمام، عمقه حوالي مائتا قدم، ارتفاعه مئة وعشرون قدماً وسماكة الجدران في جميع أرجائه تتراوح ما بين ستة إلى عشرة أقدام.

يتألف المبنى من قنطرة عملاقة في وسط الواجهة الأمامية، تمتد حتى وسط المبنى لتشكل المدخل، لكنها لا تخترق الجدران الخلفية. ومدخل صغير يبلغ تقريباً خمسة أقدام في العرض وتسعة في الارتفاع، ويشكل المخرج الوحيد في الخلف، هذه القنطرة الرائعة مبنية على ارتفاع مئة قدم، وعرض ثمانين قدماً وبطول مائتي قدم. في الوقت الراهن جوانبها غير مزخرفة على الإطلاق ولها لون رمادي، ولكن على الأرجح أنها كانت مزينة أصلاً. واجهة المبنى تشبه بشدة قصراً ضخماً، وذلك يعزى إلى وجود خمسة أو ستة صفوف من الكوى التي تبدو بمظهرها كالنوافذ الكبيرة العديدة التي اصطفت فوق بعضها وجعلت المبنى يظهر كأنه مؤلف من عدة طوابق. مع ذلك فليس ثمة شيء يدل على وجود بيوت أو حجرات مرتفعة فوق الأرض، رغم أنه قد يكون هناك العديد منها في عصور سابقة وذلك بحكم كمية الحطام الذي يكسو الأرض.

في الزاوية الأمامية اليسرى للبناء، إلى يمين المدخل عبر الرواق، يوجد بوابة صغيرة وضيقة تؤدي من الدهليز الأساسي أو القنطرة إلى غرفة مربعة، وكونها مجردة تماماً من النوافذ أو من أيّة فتحات من الجدران باستثناء الباب، فقد كانت مظلمة للغاية وشديدة البرد، محيط أشبه بالقبر يجعل عظام الزوار ترتجف.

كنّا تواقين جداً لرؤية الغرفة من الداخل، لذلك قمنا بإشعال كومة من العشب اليابس عند المدخل فاستطعنا بواسطة الوهج المنبعث من تلك الكومة أن نرى أن الغرفة كانت كبيرة وفارغة ومقنطرة بشكل جميل، ولكنها تعج بالأفاعي والعقارب والخفافيش التي كانت خائفة على نحو واضح من زيارتنا وإضاءتنا غير متوقعتين، وخصوصاً الخفافيش التي رفرفت بأعداد هائلة فوق رؤوسنا.

وفي سبيل أن نبقيها على مسافة آمنة منا قمت بإطلاق عيار ناري ولا يمكن أن أنسى نتائجه طوال حياتي، إذ إن الأب (M) أحد مرافقي الأوروبيين في رحلتي، واثنين من

العرب الذين رافقونا من السفينة قد سقطوا فجأة كأنما صعقهم البرق، وصديقي (P) بدا شاحباً كالموتى وغير قادر على الكلام. لمدة دقيقة من الزمن، كنت بائساً بشكل رهيب، خوفاً أن أكون أرديتهم، رغم أنني لا يمكن أن أتخيل كيف، إذ إنهم كانوا خلفي، تفحصت سلاحي لأرى إن كان قد انفجر، ولكن لا، كان على ما يرام. تماماً عندما كنت أنحني لأتفحص الأجساد المفترض أنها عديمة الحياة، قفزوا إلى الأعلى جميعاً كأنما لدغهم عقرب، واندفعوا خارج المكان الموحش ليحرروني من العبء الثقيل، إذ إن خروجهم كان الدليل الأكثر إقناعاً على أنهم لم يكونوا أمواتاً، ولكن هذا ما أربكني أكثر. عندما استدرت نحو السنيور (P) رأيته يومئ بعنف، ويفتح ويغلق فمه، لكنني لم أستطع سماع أية كلمة. كنت أخشى أن صديقي فقد صوته، فاندفعت بفزع خارج الحجرة المميتة. عند وصولي إلى العراء كنت أخاطب من قبل الثلاثة الذين توهمت أنني قتلتهم. رأيت إيماءاتهم وحركات أفواههم ولم أسمع أية كلمة أيضاً. يا للهول!

اكتشفت أني كنت أصم على جناح من السرعة، ولحسن الحظ بقي هذا الصّمم لمدة عشرة دقائق فقط، حينما عادت حاسة سمعي تدريجياً. شعر السّنيور (P) بالآثار نفسها كما شعرت أنا والسبب طبعاً سهل التفسير. إن الدويّ الذي أحدثه السلاح في تلك الغرفة المغلقة التي تعبأ بالجو الثقيل أسفر عن هذه الرجة الهائلة في الهواء، حيث تسبت للبعض بفقدان الوعي التام، وجردتنا بشكل مؤقت أنا والسّنيور (P) اللذين كنا أقل توتراً من حاسة سمعنا، مولّدة في آذاننا لبعض الوقت صوت ضجة عالية وطنّانة. في عدة أماكن من البناء كان هناك جذوع خشبية ضخمة ناتئة من الجدران المتقلقلة رغم أن هذه الأخشاب تعود دون شك إلى أكثر من ألف سنة مضت، لكنها ما زالت محمية محافظاً عليها. وتبدو أنها أخشاب أشجار الأرز، إذ لا تزال تنبعث منها رائحة قوية كتلك التي تنبعث من أشجار الأرز في لبنان، ولها اللون المحمرّ نفسه.

عند قمة القنطرة الضخمة تقريباً، يوجد صدع مثلث الشكل يبلغ حوالي عشرين قدماً في العرض يسمح الآن بدخول ضوء النهار ويسيء بشدة إلى المظهر الجليل

للبناء، ولكن من ناحية أخرى إنه مصون جيداً وشكله مهيب على نحو ملحوظ.

يؤكد العرب الذين يعيشون في الجوار أن هذا الشق يعود إلى ستين عاماً من الزمن، وأن سببه هو ضربة من صاعقة مروّعة ذات قوة هائلة، إذ إنها لم تفتح فقط تجويفاً كبيراً ومرعباً عبر السقف البالغة سماكته عشرة أقدام، وإنما صدعت بكل معنى الكلمة هذا البناء العملاق من القمة وحتى أسفل الأساسات.

بسبب هذا الصدع ليس من الصعب الآن التسلق من الخارج إلى قمة هذه الأطلال البارزة، حيث يمكن من هذا المكان المرتفع التمتع برؤية المناظر الخلابة التي تكون بمثابة مكافأة عظيمة للزائر، مقابل مشقة الصعود للأعلى.

قبل شروق الشمس ببعض الوقت، تسلقت الأطلال أنا وصديقاي المسافران والعرب الذين أشرت إليهم من قبل، وكان المشهد ساحراً بالفعل. فوق السهول القاحلة واللامتناهية لصحراء اللور Loorian بزغت أمامنا بجلال كرة النهار الملتهبة، لتنشر بخيوطها الأولى البراقة مسحةً من اللون النحاسي فوق هذا النموذج والمتأثر بعوامل الجو ولكن المهيب والرائع لفن العمارة القديم، بينما كانت السهول المكسوة بأطلال المدينتين الشهيرتين سلوقية وطيسفون (المدائن)، لا تزال متشحة بالسديم الباهت للفجر الباكر، ومحاطة بصمت غامض يشبه صمت القبور، يتحطم أحياناً بصوت عواء الرحيل الخافت الآتي من بعيد لإحدى بنات آوى التي تتراجع مرغمة إلى حجرها قبل ظهور رسول النهار المشرق، أو بفواصل من الصرخات التي يصعب سماعها كأسراب الطيور المائية المجفلة، المستيقظة من سباتها بسبب الضجيج المختلط للسلاسل المجلجلة والأصوات البشرية على متن الباخرة.

ارتفع نجم الحياة المتألق ببطء في السماء أعلى فأعلى ولكن بثبات، ليحيي النهر الصامت، ويحوّل بسرعة هائلة مياهه الخاملة إلى تيار لامتناهٍ من السائل الفضي ذي البريق الساطع، ليصبح النهر العريض بتعرّجاته الجميلة والعديدة أشبه بثعبان فضي ضخم يموج جسده الحرشفي فوق السهول الشاسعة.

مع مرور الوقت تمتعت البلاد بكاملها بضوء النهار الساطع، واندفعت طيور الباز والصقور التي كانت مختبئة أثناء الليل في شقوق الجدران العملاقة لطاق كسرى، محدثة صرخة متوحشة حادة، بحثاً عن الطرائد. واجتمعت طيور الحمام البري مع طيور القمري بأعداد كبيرة على القبة وأحاطت بجدران مسجد صغير يقع إلى يسار الآثار على بعد ثلاثمئة ياردة تقريباً، كانت تهدل بسرور وتفرد أجنحتها في أشعة الشمس، بينما حطت سحابات هائلة مكونة من آلاف طيور القطاة على السهول الرملية المحيطة، بحثاً عن الطعام القليل. إنّ طائر القطا أو (الغانغا) أو - إذا صح التعبير - طائر القطا طويل الذيل، معروف بعادته في الهجرة، وهو موجود في كل المناطق الرملية الجافة لجنوب أفريقيا وغرب آسيا شمالاً حتى البحر الأسود، يحلق تحليقاً سريعاً وبمجموعات كبيرة، لتظهر كأنها غيمة عملاقة تجري فوق الأراضي المقفرة. تحط تلك الطيور بين الحين والآخر بهدف الراحة والطعام ولا تحط أبداً على الأشجار أو الأغصان أو البقع الخضراء، إنما تحط بشكل دائم على الأراضي الرملية الجرداء، لذا عندما تحط للاستراحة في الليل يقضى عليها بأعداد لا تحصى من قبل بنات آوى المتجولين.

ويجب عدم الخلط بين طائر القطا طويل الذيل وطائر القطاة المطوّق الذي يوجد بندرة في جنوب بلاد الرافدين ولكن بكثرة في سهب جنوبي روسيا.

* * *

على بعد ميلين تقريباً من الواجهة الأمامية لأطلال طاق كسرى التي تحتل مركز الوسط من المساحة الواسعة لآثار المدائن، انتشرت الآثار الضخمة لـ (سلمان پاك)[1] وهي حديقة سليمان التي تغطي مساحة من الأرض تفوق الألف فدان وتقع كالمدائن

(1) يذكر لوكر الاسم في كتابه: سليمان باغ، ويظن أنه يعني: حديقة سليمان، حيث أن (باغ) في الفارسيّة تعني الحديقة. والصواب أن سلمان پاك تسمية أطلقت على المدائن لوجود قبر الصحابي سلمان الفارسي بها. وعلى أي حال، قمت بتصويب الاسم في الترجمة كما هو مفترض.

على الضفة اليسرى لنهر دجلة.

وحسب أحاديث العرب، يقال إن هذا المكان كان في السابق حديقة فتانة، يملكها الخليفة المولع بالجهاد عمر الأول، الذي جعل منها في أحد الأيام هدية لمولاه سليمان عندما أسدى لسيّده خدمة قيّمة في حماية نسائه بإخلاص من بعض المهاجمين في الوقت الذي كان فيه مولاه غائباً في معركة ضد أعداء بلاده. ولكن وأسفاه على تلك الحديقة الرائعة التي كانت في القديم بهجة بلاد الرافدين، لم يبق الآن شيء سوى جزء من الحائط الطيني العملاق الذي بالكاد يبلغ الآن ثلاثين قدماً في الارتفاع وسماكته عند القاعدة حوالي أربعين قدماً، هذا الحائط الذي أحاط سابقاً بهذه البقعة الجميلة من الأرض أصبح الآن مجرد صحراء تكسوها بعض الجنبات الفقيرة. إن تلك الجدران تتفتت وتتلاشى ببطء، وبالتالي بعد مرور عدة قرون أخرى ستصبح على الأرجح مستوية تماماً مع الأرض.

على الضفة اليمينية للنهر - تماماً مقابل آثار مدينة (المدائن) أو طيسفون والتي تتألف بالمناسبة من مجرد سلسلة من الركام الهائل الكئيب والمتفاوت والمنثور بشكل غير منظم على مساحة تبلغ أكثر من عشرين ميلاً مربعاً - يلمح الزائر الأطلال المترامية لمدينة سلوقية. ومسالك الشوارع ومقرات الأبنية الرئيسية في هذه المدينة المشهورة لا تزال مرئية بوضوح، حسب ارتفاع الأرض على جانبي الطريق القديم، ولكن ليس ثمة لبنة واحدة أو حجرة يمكن رؤيتها في منطقة هذه المدينة العظيمة بأسرها، التي يمكن تخيلها من امتداد جدرانها الطينية العملاقة التي لاتزال مرتفعة أكثر من ثلاثين قدماً فوق سطح الأرض، ويفترض أنها كانت تغطي مساحة شاسعة ليست الآن إلا صحراء واسعة.

وفوق البقعة التي انتصبت فيها قبل ألفي سنة مضت قصور ومعابد وصروح وآلاف الأبنية الضخمة، وتتشابك معها شوارع لا تعدّ ولا تحصى تعج بالأرواح البشرية، يتسلل الآن ابن آوى الجبان والضبع البغيض، ويجري الخنزير البري الضارّ، ويثب الغزال الرشيق، بجهالة سعيدة بالأمجاد السابقة للمدينة.

علـى الرغم من وجود اختلاف شـديد بيـن الكتّاب المؤرخين حـول أصول هاتين المدينتين، فإن معظمهم يتفقون على أن سـلوقية تعود بأصلها إلى سلوقس الأول أحد أهـم قادة الإسـكندر ملك مقدونية، والذي نصب نفسـه ملكاً على إمبراطورية سـوريا التي تضم سوريا وبلاد الرافدين، وذلك بعد وفاة الفاتح العظيم في أغسطس سنة 324 قبل الميلاد.

يقـال إنـه في عام 311 قبل الميلاد كانت سـلوقية لا تزال قريـة صغيرة ولكنها نمت بسـرعة وأصبحت فيما بعد عاصمة الإمبراطورية، وكذلك ضمّت أكثر من ستمئة ألف من السكان اليونان بشكل أساسي.

كان للمدينـة مجلـس أعيـان مؤلف مـن ثلاثمئة من النبـلاء، وقوانين ومؤسسـات يونانية، وحافظت بإخلاص على طابعها اليوناني الأصلي رغم كل الحوادث والتغيرات العديدة التي مرّت بها.

بُعيد وفاة سلوقس بقليل سقطت بابل في أيدي الفرس، الذين بدؤوا بناء مدينة على الضفة اليسرى لدجلة مقابل (سلوقية) مباشرة وسمّوها (طيسفون)[1] Ctesephon.

ويقال إنه عند اندلاع الحرب بين الروم والفرس ما بين سنة 114 ـ 117 قبل الميلاد، كانت (طيسـفون) لا تزال مدينة صغيرة جداً، وأنها سـقطت مع سلوقية في أيدي الروم المنتصريـن آنـذاك. بعد ذلك قـام (ترايانـوس) Trajanus الإمبـراطـور الروماني ذاك الحيـن بضـم المناطق المخضعة إلى إمبراطوريته. وبعد حوالي سـتين عاماً قام الفرس باسـترجاع أراضيهم المغتصبة، ونمت (طيسفون) بسـرعة كبيرة تحت رعاية حكامهم، وبعـد وقـت قصير فقـط ضاهـت مدينة سـلوقية وأصبحـت كأختها إحـدى عاصمتي إمبراطورية الفرس العظيمة.

خـلال الحـرب الثانية بيـن الروم والفـرس قام ماركـوس أوريليـوس (الإمبراطور

(1) طيسفون أو قطيسفون عاصمة السّاسانيين القدامى، تقع إلى الجنوب من بغداد ببضعة كيلومترات، كانت تسمى بالبهلويّة تيسفون. ومقابلها مدينة سلوقية التي بناها قبل ذلك سلوقس الأول نيكاتور قائد الإسكندر.

الروماني) باستعادة الأرض، فنهب ودمّر المدينتين كلتيهما كلياً علم 165 للميلاد.

هكذا كان تعبير الروم المنتصرين عن غضبهم وانفعالهم، إذ يقال إن ثلاثة آلاف من سكان سلوقية هلكوا أثناء احتلال المدينة وتدميرها عن بكرة أبيها.

بعد ذلك لم تنهض سلوقية من خرابها مطلقاً، ولكن سرعان ما أعيد تشييد مدينة (طيسفون) من قبل الفرس الذين سيطروا عليها لمدة ثلاثين عاماً فقط، حينما سقطت مرّة أخرى في أيدي الرومان، وتم تدميرها تماماً حتى الجذور عام 198 للميلاد إبان حكم الإمبراطور سيتيميوس سيڤيروس.

ومن جديد عادت لتنهض من حطامها كالعنقاء ولكن رغم وصفها آنئذ بعاصمة الإمبراطورية الفارسية، فإن المدينة لم تعد إلى سابق حجمها وعظمتها، إنما انتكست بسرعة كبيرة لدرجة أن الإمبراطور الروماني جوليانوس الذي ظهر أمام طيسفون عام 362 للميلاد بجيش مؤلف من خمسة وستين ألفاً من الجنود، وجد ناحية واحدة فقط من عاصمة الفرس الشهيرة، التي اندرجت قبل أربعة قرون مضت ضمن أكبر وأعظم المدن في العالم المعروف آنذاك.

اتخذت المدينة الاسم الآشوري كوخ[1] "Coche" واللغة والعادات الآشورية والعلم والفن اليوناني وكل ما ازدهر في هذه المدينة تلاشى واختفى تماماً، والعاصمة السابقة لإمبراطورية الفرس الشاسعة، اضمحلت إلى درجة من النسيان المطلق لمدة تقارب الثلاثة قرون.

توفي الرسول محمّد[2] عام 632 للميلاد (في السنة العاشرة للهجرة)، وامتثالاً لدعوته بدأ ممثلوه الخلفاء على الفور بنشر الإسلام (العقيدة المحمّدية) بالجهاد والقتال في جميع أنحاء جزيرة العرب وبلاد الرافدين.

---

(1) كتب لوكر: يُلفظ الحرف ch في هذه التسمية حلقياً كما في العبارة الاسكوتلنديّة: "loch" التي تعني بحيرة lake.

(2) صلّى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

مع بداية عام 637 قام الخليفة عمر الأول على رأس جيش من أتباع محمد بالاستيلاء على طيسفون، أو كوخ "Coche" وأعطاها الاسم العربي (المدائن) الاسم الذي يطلقه العرب الآن على أطلال مدينة طيسفون.

ومنذ ذاك الحين جعل المسلمون الملهمون دينياً من المدائن المركز الرئيسي لهم، من حيث نشروا الإسلام تدريجياً في كل أنحاء فارس والهند الغربية.

إبّان الحكم الآنف الذكر أنشئت مدينة البَصرة قرب مدخل شطّ العرب بعد أن كان أساسها معسكراً للمسلمين. تمت الإبادة الكاملة لمدينة طيسفون (المدائن) عام 1258 للميلاد، عندما قامت جماعات المغول المتوحشة بزعامة قائدهم الضاري (هولاكو) بغزو منطقة غرب آسيا بكاملها؛ فدمروا بغداد وكذلك فعلوا في المدائن. من الواضح أن طاق كسرى، تلك الآثار العظيمة الموصوفة التي تشكل نقطة الانجذاب الرئيسية إلى المدائن، كان مبنياً بشكل قوي جداً، وإلا كان سينهار حتى الجذور إثر التدمير المغولي، ومع ذلك فليس هناك أدنى شك بأنهم قاموا بنهبه، ودمّروه جزئياً؛ إذ توجد دلائل على أن البناء ليس كاملاً الآن، ويبدو جلياً أنه في زمان مضى كان البناء أعلى مما هو عليه الآن بكثير. كانت الأرض مشورة بحطام الطوب وأجزاء من الجدران المتضررة إلى حد بعيد، إلى جانب ذلك كانت هناك علامات تشير إلى وجود عدة أبنية خارجية كانت متصلة سابقاً مع الصرح الرئيسي، وليس ثمة منها الآن شيء. تختلف آراء علماء الآثار الذين زاروا تلك الأطلال حول عمر وهوية البناء؛ فبعضهم يؤكد أنه ذو أصل يوناني ويعود إلى سنة 300 قبل الميلاد وأنه كان قاعة اجتماعات، وآخرون صرّحوا أنه من صنيع الرومان، وقد بني كقصر لحاكم المستعمرة في عهد تراجانوس، وآخرون أيضاً يعتقدون أنه تابع لفن العمارة الفارسي وأنه كان إما مكاناً للتعبّد أو قصراً لملوك الفرس في القرن الثاني من العهد المسيحي، بينما لا زال آخرون ينسبونه إلى أحد الخلفاء، وغالباً أنه عمر الأول الذي كما أشرنا من قبل قبل أنه قدم هدية لخادمه الحديقة الجميلة المعروفة للأجيال كلها بحديقة سليمان Soliman Bagh.

أما السيد غ. لوجان[1] G. Lejean الرحالة الفرنسي وعالم الآثار ذو المهارة الرفيعة الذي جاب بلاد الرافدين تقريباً في الوقت نفسه الذي جبتها أنا فيه، والذي يشرفني أن أكون على معرفة شخصية به، فهو يعزو بناء طاق كسرى إلى (كسرى السّاساني) أو (خُسرو) أو (Kosroes كُسرويس) الأوّل، والمعروف أكثر باسم (أنوشروان العادل) حاكم فارس (531-579 للميلاد)، ويعزو دماره إلى الخليفة أبي جعفر المنصور الذي أسس بغداد سنة 762 للميلاد.

لطالما زرت تلك الأطلال الحافلة بالأهمية التاريخية خلال فترة إقامتي في بغداد، بهدف الصّيد، ولكن كوني دائماً على ظهر حصاني وبندقيتي على كتفي، ويرافقني أصدقائي الذين لا يأبهون بالتنقيب عن الآثار، فلم أستطع العثور على أي شيء له قيمة حقيقية.

مع ذلك فقد رأيت الكثير من العرب هناك يحفرون ويبحثون عن التحف التي سرعان ما يجدون لها مشترين، وأحياناً يبيعونها بأسعار باهظة إذا تمّ إحضارها إلى بغداد، التي لا تبعد أكثر من عشرين ميلاً فوق النهر، وفي الصباح عندما يكون الجو صافياً يمكن رؤيتها بسهولة من قمة الأطلال المنعزلة لطاق كسرى وذلك بسبب طبيعة السهول البالغة الاستواء في البلاد.

ذات صباح بينما كنا نقف على هذه البقعة المرتفعة، تفاجأنا بظاهرة رائعة ذات كمال فتان، رغم أنها لم تكن جديدة على الإطلاق بالنسبة لي، كوني غالباً ما رأيت مشاهد مماثلة في رحلاتي إلى مصر والهند وجنوب إفريقيا. إنني أتحدّث عن السّراب، الظاهرة الجوية المدهشة التي لا يمكن رؤيتها إلا في الصحراء أو في المناطق التي يكون فيها الجو رقيقاً أو صافياً.

إن وصفاً دقيقاً للسّراب وخاصة بالطريقة التمثيلية التي أستطيع أن أقدّمها، لن يكون

(1) غيّوم لوجان Guillaume Lejean (1824-1871) رحّالة فرنسي قام برحلة في العراق حوالي عام 1865 نشرت بعنوان:

G. Lejean: *Voyage dans la Babylonie*, Paris 1866.

مملاً على الإطلاق. عند وصولنا إلى قمة الأطلال، ذهلنا جميعاً في آن واحد بسمات الجو الاستثنائية في ذاك الصباح الباكر.

إلى جهة الشمال الغربي التي ظهرت فيها تلك التلال والأغصان والجدران صافية للغاية ولم تكن تبعد أقل من ميلين، تهيأ لنا أننا رأينا حجراً يقذف في ذاك الاتجاه، وقد يكون وصل ناحيتها، أو على الأقل كانت بلا ريب طلقة من مسدس ما.

مع مرور الوقت، عندما أشرقت الشمس فوق الأفق، هناك عند الحد الأقصى للأفق ظهرت غشاوة خفيفة بلون رمادي داكن، ثمَّ نمت أكثر وأصبحت أكثر وضوحاً، حتى تحوّلت شيئاً فشيئاً بشكل رائع إلى أعظم مشهد في الوجود بالنسبة لنا.

ورأينا أمامنا بحيرة كبيرة ورائعة ذات سلسلة من التعرجات والخلجان الصغيرة والجميلة، بدت مياهها الفضية الهادئة صافية جداً إلى حدٍّ توهمنا فيه أننا رأينا الأسماك التي تعيش في القاع.

كانت حدود البحيرة مغطاة بشكل جميل بالعشب الأخضر الندي وعدد من مجموعات أشجار النخيل الطويلة والنحيلة التي تنحني بشكل ظاهر باتجاه ثقل الثمر وتلقي بظلها اللطيف فوق المرآة الشفافة، وتنظر إلى داخلها بجمال تماماً مثل نرسيسوس الأسطوري. وكانت هناك آثار للعديد من القصور الضخمة القديمة البناء، بأحجام هائلة وعدّة عواميد فخمة، وقناطر شديدة التحدّر، تزيّن حواف البحيرة وكانت تنعكس بدقة بالغة الروعة فوق الصحيفة الفضية الموجودة أمامها، هناك تقدمت قافلة ليس لها نهاية ببطء نحو المشهد الخيالي للبحيرة، كانت مشية الجمال المنتظمة الوقورة، والحركة المتأرجحة لسائقي الجمال كما كانوا يجلسون على سنام الحيوانات التي تتقدم ببطء، وحتى الرّماح الطويلة التي حملها الرجال، جميعها كانت مرئية بشكل واضح وطبيعة على نحو غريب، وكأن ذلك المشهد الخيالي بكامله كان حقيقة، وكأن الرجال والأنعام الذين يسيرون في القافلة كانوا من لحم ودم حقيقيين وليسوا أشباحاً.

وبتساؤل غير مدّعٍ، وإدراك مؤثر في قلوبنا لقوى الطبيعة السامية وخالقها العظيم،

حدّقنا بتلك الظاهرة الساحرة، ثمّ واأسفاه! بدأ المشهد يبهت على نحو متزايد.

في البداية اختفى الخط الجانبي للبحيرة، فبدا المنظر للحظات على الجانب الآخر كأنه يطفو بين السماء والأرض، وبدت القافلة كأنها تتحرك في الفضاء، أصبحت مظلمة أكثر فأكثر، أولاً؛ الصحراء في الخلفية التي ظهرت منها القافلة تتقدم نحو الحدود الخضراء المغرية للبحيرة الفضية، ثم تلاشت القافلة، أولاً الجمال البعيدة؛ ثم هؤلاء في الوسط، وأخيراً القادة بعد ذلك، تضاءلت عواميد القصور المهدمة، عموداً تلو الآخر، ثم الأشجار بعد دقيقة، ومن ثم البحيرة نفسها تلاشت في التموّج الخفيف، ولكن رغم ذلك كان الجو شفافاً إلى حد بعيد، والمشهد الاستثنائي العظيم قد رحل.

استدرنا إلى بعضنا لأول مرة ونحن نتنفس بثقل، وبصعوبة وجدنا الكلمات المناسبة لنعبّر بها عن إعجابنا بالمنظر الفتان الذي استمتعنا به. إنه ليس من الصعب تصديق القصص العديدة الشائعة بين البدو أنَّ قوافل بكاملها أصيبت بالجنون بسبب آلام العطش، فقد عُرف أنهم انحرفوا عن مسارهم الصحيح بحثاً عن الانتعاش بالمياه الكريستالية لبحيرة وهمية كتلك أو للراحة والطعام في الظل الساحر لواحات النخيل الخيالية. يؤكد البدو أنَّ الجمال غالباً ما تنخدع بالسراب المميت، وأحياناً عندما تعاني من العطش الشديد، لا يمكن منعها من الاندفاع بسرعة مباشرة نحو البحيرة الخيالية، ولا تخفف من سرعتها أبداً حتى تخرّ ميتة لشدّة العطش والإرهاق.

إن السراب رغم كونه لا يظهر يومياً، فهو ظاهرة أكثر شيوعاً في المحيط الرملي اللامحدود لصحاري شمال أفريقيا، وجميع أنحاء مصر وجزيرة العرب وجنوب الرافدين وصحراء كالاهاري في جنوب إفريقيا، ولكن على وجه الخصوص في المنطقة الواقعة شرق بغداد والتي تشكّل جزءاً من صحراء اللور. إنه أكثر ما يرى في الصباح عند أو بعد الشروق بقليل، وأحياناً مع أنه نادراً جداً، في المساء عند أو بعد الغروب بقليل، على الأقل لم أرَ السراب في أية أوقات أخرى.

بعد أن كنا راضين بشدة عن نتيجة زيارتنا لهذا المكان الممتع، عدنا إلى الباخرة لنبقى على متنها ولا نغادرها أبداً حتى نصل إلى بغداد، المدينة التي تأمّلنا أن نصل

إليها قبل الغروب من ذاك اليوم.

في طريقنا إلى النهر، الذي لا يبعد أكثر من نصف ساعة من المشي، اصطدنا ثمانيةً وعشرين طائراً من الحجل الجميل المرقّط بالأبيض والأسود، المعروف فقط في سهول الرافدين، وهناك أعداد غفيرة منه في الجنبات حول سلوقية والمدائن، إذ إنه من المستحيل أن تتقدم مسافة مئة ياردة دون أن تجفل بعضها.

إن العرب رماة غير ماهرين بأسلحتهم الرديئة نوعاً ما بالنسبة للطرائد المتحركة، ولا يستطيعون قتل تلك الطيور عندما تطير أو تركض، ولكنهم يحضّرون حفراً عميقة في ضفاف النهر الرملية حيث يختبئون فيها ويطلقون النار على الحجل طوال النهار حينما تخرج الطيور من الجنبات في طريقها إلى حافة النهر لتطفئ عطشها، فيقتلونها بهذه الطريقة ويضعونها في عربات نقل ويجلبونها إلى بغداد حيث يبيعونها مقابل عشر بارات على ما أظن أي ما يعادل سنتاً واحداً للطير، وتعدّ هذه الطيور طعاماً ممتازاً، فلحمها أكثر بياضاً وأطيب طعماً من لحم الدجاج.

يقتل العرب الغزلان بالطريقة نفسها، رغم أنها تأتي لشرب الماء فقط بعد حلول الظلام، ولكنّ العربي الماهر ينعم بصبر عجيب، إذ إنه من المستحيل أن يستلقي في انتظار الغزلان ويكون انتظاره دون جدوى. يجلب العربي غنائمه إلى المدينة عادةً حيث يبيع الحيوان بكامله الذي يزن عادةً ما بين ثلاثين إلى أربعين رطلاً، مقابل مبلغ يتراوح ما بين عشرة إلى عشرين مجيدياً تركياً (من أربعين إلى ثمانين سنتاً أميركياً).

إن لحم الغزال - تحديداً الصغير منه - عندما يتم تحضيره بشكل جيد، يكون طرياً جداً ومقبّلاً، وبرأيي إنه يفوق جميع أنواع لحوم الطرائد التي تذوقتها في حياتي.

عند عودتنا إلى المركب، وجدنا ركابنا الآسيويين منهمكين بنشاط في تجهيز بضائعهم وعبيدهم لمغادرة السفينة فور وصولها إلى بغداد.

خلال متابعة طريقنا عبر النهر، لاحظت أن الضفتين كلتيهما بدأتا تظهران مسكونتين بكثافة كلّما اقتربنا من العاصمة، المركز الرئيسي لبلاد الرافدين الجنوبية. بعد مرور

ساعة من مغادرتنا للمدائن، مررنا بضفاف (القصبة) العالية وشديدة الانحدار، على الجانب الأيسر من النهر، حيث خيّمت هناك أثناء الليل قافلة كبيرة آتية من صحراء اللور، وكانت الآن تحضّر لمتابعة رحلتها نحو بغداد. بعد ساعةٍ أخرى وصلنا إلى مصب نهر ديالى، وهو نهر كبير وجميل ينبع من جنوبي بلاد فارس ويلتقي بدجلة حوالي عشرة أميال قبل بغداد، وذلك بعد أن يعبر الحد الشمالي الغربي لصحراء اللور.

وهناك مررنا بباخرتين للحكومة التركية تجريان عبر الحدود النهرية إلى البَصرة، لكنهما كانتا مرفوعتين وجافتين فوق القرارة الرملية، لم يكبّد أفراد الطاقم التركي الكسولين أنفسهم أدنى عناء لإنزال الباخرتين مرّة أخرى، بل جلسوا بفتور في ظلال الخيام وراحو يدخنون غلايينهم بهدوء، وبدا جلياً أنهم يريدون إعطاء السفينة فرصة لإخراج نفسها بنفسها، ساعة أخرى من الإبحار أوصلتنا عبر زوج من الالتواءات شديدة التعرج في النهر إلى قرية القرارة Carara، وهي قرية صغيرة فيها أكواخ طينية تقع على الضفة اليسرى على بُعد حوالي ستة أميال من النهر، ولكنها تبعد على اليابسة فقط ميلين اثنين عن بوابات بغداد.

* * *

الفصل التاسع

الإقامة في بغداد

الظهور - فن العمارة الشـرقيّة - مشهد طبيعي - الرّسو - تخطي المهمة - الرشوة - الدّين الإسلامي - الجدران والخندق - الحصـون - قصـر الوالي - عربة نامق باشا - تحريك الجدران - الشوارع الضيقة - الحرم - حماية النزلاء - الأقنعة.

توجهنـا مـن القرارة Carara عبـر النهر إلى الأعلى وبخطٍّ مسـتقيم تقريباً، الشـيء الـذي مكنّنا من رؤية بغداد، بغداد مدينة الخلفـاء ذائعة الصيت، بغدادُ ألف ليلة وليلة، بغداد أيام أمجاد الخليفة هارون الرشـيد، وربما بغداد ملكة مدن الكون بأكملها. هناك تقـع حزينة وقـد تم تغييرها، ولكـن في الحقيقة منـذ أيام حاكمها الشـهير تخلّدت في التاريخ والأغاني والقصص الشـعرية القصيرة، ولذلك لا تزال جميلة وغامضة ومليئة بالمتعة بالنسـبة للزائرين.

هنـاك تقع بغداد مثل كتاب ضخم مفتوح ليروي قصته. تمتدّ إلى البعيد على ضفتي النهر، مسـترة ببسـاط عملاق فاخر من الحدائق الخضراء على الدوام، المليئة بالأزهار الرائعة لعشرات الآلاف من الشجيرات دائمة الخضرة. الياسمين - الورود - والبرتقال - والليمون - والخوخ - وأشجار الرّمان وأصناف لا تعدّ من الأشجار والشجيرات الأخرى التي تبعث أروع عبير على الإطلاق، وخاصة عند الصباح والمسـاء.

تغطـي الحدائـق والمنازل علـى طول النهـر غابـات لا متناهية من أشـجار النخيل الضخمة، التي تكاد جذوعها الطويلة والرفيعة تنكسـر تحت أوزان الثمار الذهبية، بينما

تلقي تيجانها الرائعة الدائمة الاخضرار بظلٍّ لطيفٍ على الأرض تحتها.

ثمّة أعداد هائلة من الأبنية التي تمثل فن العمارة الشرقي، تغطي ضفاف النهر العالية والمنحدرة، وبخاصة تلك التي تقع على الضفة اليسرى، فعندما تُرى من البعيد تبدو ذات حجم كبير ومظهر مهيب.

كان أبرز تلك الأبنية المآذن العالية والرفيعة والجوامع الواسعة، التي ترتفع قبابها عالياً فوق كافة أبنية المدينة، فوق أعلى شجرة نخيل أيضاً.

كانت جميع تلك القباب مبنية بالقرميد المصقول جيداً ذي اللون الأسود، والأزرق، والأبيض، والأخضر، وقد تم رصفها على طريقة الفسيفساء، وفي أشعة الشمس تتألق بإشراقة لامعة تجعلها مرئية من مسافات بعيدة. يعلو قمة القبة هلال فخم مطلي بالذهب، إنه شعار الإسلام أو دين محمّد، تماماً كما الصليب هو شعار المسيحيين.

يعلو هذا الهلال قمّة كل مئذنة وجامع أو ضريح مسلم، ويبهر العين كالنجم الساطع من بعيد فوق البلاد، ليشكل مع المآذن العالية وقباب الجوامع الضخمة إحدى السمات الرئيسية للمظهر الخارجي لأية مدينة إسلامية، وبغداد على وجه الخصوص.

بينما كنا نبحر عبر النهر من القرارة Carara إلى بغداد محاطين بهذا المنظر الجميل، فرضت القناعة نفسها على ذهني بأن في العالم بأسره ليس هناك مدينة يمكن أن توازي بغداد في جمال منظرها، عندما تُشاهد من باخرة تعلو النهر.

بعد مسير قصير لمدة ساعة، وصلت السفينة إلى مرساها مقابل مركز الجمارك، على الضفة اليسرى مباشرة تحت الجسر العائم التعيس الذي يعبر النهر. كان مكان الرسوّ وكذلك الجسر العائم يعج بأناس من جميع الجنسيات والمهن، يلبسون لباسهم المحلي المبهرج، فيهم الجنود الأتراك، اليهود المزعجون، الأميركان النشيطون، الأكراد النعسون والكسولون، أو سكان كردستان الأصليون، والبدو الرثون، والنساء الملثمات جيداً، وأطفال نصف عراة، وأخيراً وليس آخراً ستة أو سبعة أوروبيين أقرباء وأصدقاء لي وللكابتن (H). بعد أن استقبلنا هؤلاء آنفو الذكر بحرارة كبيرة، تلقّى

السنيور (P) بسعادة الترحيب المقدّم من قبل صهري وبقي معنا، بينما اتخذ الأب (M) من مقر المبشرين الفرنسيين في بغداد مسكناً له، كونه كاهناً من الروم الكاثوليك. وبعد أسبوعين من التحضيرات لزيارةٍ مدتها عدة شهور إلى القبائل البدوية المتعددة التي تسكن الضفاف السفلى لنهر الفرات، والذي توقع أن يجد عندهم العدد المطلوب من الجياد العربية الأصيلة الخالية من العيوب التي كان مكلفاً إحضارها إلى الإصطبلات الخاصة بإمبراطور فرنسا، همّ السنيور (P) بالرحيل إلى الصحراء.

أما بالنسبة لنا أنا والأب (M) اللذين قررنا انتظار عودة (P) إلى بغداد في سبيل أن نسافر بصحبته إلى شواطئ المتوسط، فقد أمضينا فترة غياب (P) عن بغداد بسعادة قصوى في القيام مع أصحابنا البغداديين بجولات يومية على ظهور الخيول بغية التعرّف جيداً على مدينة الخلفاء وضواحيها.

إنَّ بغداد هي عاصمة ومقر الحكومة الباشوية أو إقليم الرافدين الأدنى، أو (العراق العربي) كما يسميه العرب، إقليم واسع يمتد على مساحة تبلغ حوالي سبعين ألف ميل مربع، وهو بالنسبة للمساحة أكبر إقليم تابع للإمبراطورية العثمانية، ولكنه يضم فقط مليوناً وثلاثمئة ألف نسمة.

يخضع العراق العربي لحكم باشا، أي حاكم يتم تعيينه بمنصبه العالي وقوّته الضرورية من قبل السلطان.

تم إنشاء مدينة بغداد من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور عام 762 للميلاد، ويقال إن بناءها بالكامل أنجز في زمن قصير مدته أربع سنوات، وأنها وصلت إلى قمة بهائها إبّان عصر الخلفية الحكيم هارون الرشيد في أواسط القرن الثامن عندما وصل تعداد سكانها إلى مليوني نسمة - كما يقال - وأنها كانت مركزاً للفن والعلم والتجارة في آسيا الغربية.

يحكى أنَّ الأتراك قاموا بهدم بغداد وإبادتها حتى استوت على الأرض، وذلك بالكاد بعد قرنٍ واحدٍ من خلافة هارون الرشيد، ومن ذاك الوقت كانت تبنى وتدمّر من

جديد مراراً وتكراراً.

قـام (هولاكو) حفيد القائد المغولي البغيض (جنكيز خان) بالاستيلاء على بغداد وإبادتهـا بشـكل كامل عام 1258 . أمـا تيمورلنك أوتامرلين الفاتـح، وهو خان مغولي مستبدّ وأشد ضراوة من جنكيز خان وهولاكو، فقد دمّر بغداد عن بكرة أبيها عام 1392 واحتفل بهذا النصر بأن أنشأ على ركام المدينة البائسة هرماً مكوناً من تسعين ألف رأس بشـري. وفي عام 1412 دمّرت بغداد مرّة أخرى من قبل (قرا يوسـف) قائد التركمان. أما في القرن التالي، فقد استولى على المدينة (الشـاه إسـماعيل) حاكم الفرس. ومنذ ذاك الوقت حتى عام 1638 كان الفرس والأتراك يتنازعون باستمرار على سيادة بلاد الرافدين، إلى أن نجح السـلطان مُراد الرابع (أموراث) في الاستيلاء على بغداد، ولا زال الأتراك يحتفظون بالسيادة من حينها.

واليـوم بالـكاد يتجاوز عدد سـكانها ستين ألفـاً، مؤلفين من أتـراك، عرب، فرس، أكراد، أميركان، سوريين، أفارقة، والقليل من الهنود الآسيويين.

خمسـة وأربعـون ألفـاً من السـكان تقريباً يعتنقون الإسـلام، واثنا عشـر ألفـاً منهم يعتنقـون اليهوديـة، وثلاثـة آلاف يدينون بالدين المسـيحي، ومن بيـن الأخيرين هناك حوالي عشرون مقيماً أوروبياً.

يحصّـن المدينة الحالية سـور يبلغ محيطه خمسـة أميـال، وارتفاعه أربعـون قدماً، وتتراوح سـماكته ما بين ستة إلى ثمانية أقدام، مبني بالطوب المجفف بأشعة الشمس، إذ لا يمكن إيجاد أحجار مناسـبة لأغراض البناء في منطقة المئة ميل المحيطة ببغداد؛ وفـي الواقع إن منطقـة الرافدين الدنيا بكاملها، من بغداد حتـى البَصرة خالية تماماً من الأحجار. وخارج نطاق السّور، يمتد خندق عمقه ثلاثون قدماً، وأربعون قدماً عرضه، ويبـدو أنـه في السـنوات الغابـرة كان هذا الخنـدق يُملأ بمـاء النهر ليغدو مـع الحائط حمايـة كافيـة للمدنية من الأعداء المسـلحين بأسـلحةٍ صغيرة، أما فـي الوقت الحالي فـإنّ الخندق جافّ تماماً، والجدار يتفتت إلى قطع بحيث يمكن للممتطي الجريء أن ينجح في تسلقه من عدّة مناطق حتى على ظهر الخيل.

إن التحصينات المحيطة بالمدينة تشكل مثمناً منتظماً، يعلو كل زاوية من زواياه برج مستدير يحمل زوجاً من المدافع الحديدية القديمة الصدئة التي تقبع مكشّرة بطريقة مغمّة فوق الجدران المتقلقلة المهجورة. وتتم حراستها من قبل بعض الخفر فقط، وهم يرتدون زيّاً موحّداً رثّاً ومغبراً. ويستمتعون عموماً بغفوات هادئة على الجانب الظليل للحاملات الخشبية المتداعية التي تحمل مدافع ذوات عمرٍ وقوةٍ مريرين، إذ يجب أن أخشى الوقوف ضمن مسافة عشرين ياردة القريبة من المدافع أو التور إذا تم إخضاع المدافع للتجربة بالقذيفة والبارود، ليس خوفاً من الإصابة بالطلقة وإنما خوفاً من خطر الموت بسبب انفجار المدفع، أو من أن أدفن بحطام الجدران المتساقطة.

على الجانب الداخلي من الجدار، أي الجانب الذي يطل على المدينة، يصطف رتلان من الحفر، الرتل فوق الآخر، تلك الحفر كانت مجّوفة بشكل بسيط، ويبلغ عرضها حوالي ستة أقدام، وارتفاعها ستة أقدام أيضاً، خمسة أقدام عمقها، وعلى الأرجح كان الغرض منها أن تمنح للمدافعين عن المدينة حماية من أشعة الشمس الحارقة. بسبب تلك التجاويف، بدا الجانب الداخلي لجدران المدينة يشبه إلى حدٌ ما المظهر الخارجي للمدرّج الروماني أو لقناة الجر الرومانية.

على ضفة النهر اليسرى أو الشرقية توجد ثلاث بوابات خشبية مصفحة بالحديد المطاوع القوي، وأسماؤها: باب مادرن Madern، وباب البُستان، وباب السَركيس Bab al Sarkis، وهي دائماً محروسة عن قرب من قبل جنود أتراك، وضابط من الجمارك، يفرضون ضرائب زهيدة على محاصيل البدو العرب المساكين، الذين يجلبون إلى المدينة كل صباح على ظهور حميرهم صوف الأغنام، شعر جلد الماعز، الخضراوات، البيض، لحم الطرائد، الحليب، الجبن، الزبدة، والحطب الصغير وغير ذلك.

في المساء عندما يغادرون المدينة يتم تفتيشهم بدقّةٍ لئلا يكونوا قد حملوا معهم بعض الأغراض المسروقة، إلاّ إذا استطاعوا رشوة موظفي الجمارك، وهو بالمناسبة شيء ليس من الصعب القيام به.

تغلق البوابات عند غروب الشمس بانتظام، ولا يتم فتحها لأي أي سبب من الأسباب حتى الشروق، إنها عادة خرقاء لا تفيد إلاّ في إزعاج الأشخاص المحترمين والشرفاء، إذ إنَّ اللصوص والنهابين يمكنهم بسهولة إيجاد مدخل ومخرج إلى المدينة في الليل والنهار، وذلك بواسطة تسلق الجدران المتداعية للمدينة.

أما الجدران المحيطة بالمدينة على الضفة اليمنى فهي في حالة أسوأ من أي مكان آخر، وهي في عدة أماكن منها مستوية تماماً مع الأرض. خلال الليل تتوقف الاتصالات عبر الجسر العائم بين الضفتين اليمنى واليسرى للمدينة منذ المغيب وحتى الشروق، وذلك بإبعاد القاربين الموجودين في الوسط.

إن جسر القوارب هذا، هو الجسر الوحيد الموجود في منطقة الرافدين الدنيا عبر نهر دجلة ويبلغ ستمئة وعشرين قدماً في الطول. ويمكن بسهولة الحصول على قارب مستدير لعبور النهر وفي أية ساعة من اليوم.

في هذا القسم من المدينة الواقع على الضفة اليسرى أو الشرقية للنهر يوجد السَّراي (قصر الوالي أو الپاشا) وجميع الأبنية الهامة في بغداد، ومساكن الأوروبيين والمسيحيين المحليين، واليهود وجميع الأثرياء الأتراك، بينما يحتل الفرس والأفغان الأكراد والطبقات الفقيرة من الأتراك والعرب الضفة اليمنى أو الغربية.

بالتالي إن القسم الشرقي هو القسم الرئيسي والهام من بغداد، والأهم من ذلك كون البازار الرئيسي أو السوق الذي يسمى بهذا الاسم والذي بناه الوالي السابق داوود پاشا يقع أيضاً في هذه البقعة، وهو مشهور بكونه من أحسن وأفخم الأسواق وأكثرها اتساعاً في غرب آسيا. تتصف الشوارع في أرجاء المدينة بكونها ضيقة إلى حدٍّ بعيد، وقذرة وكثيرة الالتواءات، كتلك الموجودة في أكثر المدن الشرقية؛ رغم أنَّ الوالي نامق پاشا قام بتحسينها إلى حدٍّ ما خلال السنة الماضية.

بما أنه شعر بعاطفة نحو القيادة استولت عليه فجأة، فقد أحضر من بومباي عربة جديدة بثمنٍ باهظ. تمكّن حوذيه من قيادة العربة لعشرة ياردات فقط، قبل أن يصطدم

بالحائط، عندئذٍ طفح الباشـا بالغيظ، وأمر بجميع الأبنية التي تضايقت عربته بسـببها، وجميع الجدران في الشـوارع التي قرّر المرور بها، أن تُبعد مسـافة ثلاثة أو أربعة أقدام للخلف.

تفي تلك الحادثة بتصوير طبيعة الطرقات الشرقية، والطريقة الاستبدادية التي يقضي فيها المأمورون الأتراك على الصعوبات. إن معظم الشـوارع ضيقة جداً إلى درجة أن جمليـن محمّلين بالأغراض أو رجلين على ظهور جيادهما لا يسـتطيع أحدهما تمرير الآخـر، الوضـع الـذي دفع الباشـا إلى إصـدار أمـرٍ بعدم مـرور الجمـال المحمّلة عبر المدينة. والجزء الجنوبي الشرقي من الضفة اليسرى للمدينة غير مسكون تقريباً؛ هناك مئات البيوت المهجورة، وهي إما مخرّبة أو سـريعة التحطم إلى عدّة قطع، وتسـتخدم فقط كملاجئ لأعداد لا تحصى من الشـحاذين والمتشـردين والـكلاب التي ليس لها صاحب والتي تعجّ بها بغداد كسائر المدن الشرقية. كان هذا الجانب المهجور بكامله مكتظاً بالسـكان سابقاً، ولكن الطوفان أو سـيل دجلة كان قد زار بغداد في عدة أوقات مختلفـة، وكذلك الوباء القاتل أو الطاعون الذي يجـب عدم الخلط بينه وبين الكوليرا الآسيوية كونه مهلكاً وقاتلاً أكثر بكثير من الوباء الآخر. كانت المرّة الأخيرة التي غزت فيها هذه الكارثة الفظيعة بغداد في عام 1831، إذ لـم تخنّي ذاكرتي، حينها سقط خلال ثلاثة أشهر أكثر من أربعين ألفاً من السكان وكانوا ضحايا لفورتها القاتلة.

بنيت البيوت في بغداد على الطراز الإسـلامي المعتاد، فالطبقات الفقيرة تعيش في بيوت طينية وضيعة أو بالأحرى أكواخ ذات أسـقف مسـطحة، بالكاد تبلغ عشـر أقدام في الارتفاع، وتحوي فقط شـقة أو شـقتين، أما مسـاكن الطبقات الأكثر ثراءً فهي مبنية بشكل أفضل إلى حدٍّ ما ولكن من المواد نفسها.

وهـي أيضاً ذات أسـقف مسـطحة ولكـن أعلاها لا يتجـاوز ارتفاعه أربعيـن قدماً، وجميعهـا مـزوّدة بنوع من الشـرفات يدعوها العـرب «شناشِـل» Shenashil وتكون هذه الشـرفات نائتة بشكل واضح عن الجدران بحوالي عشرة أقدم فوق الشارع. وهي مسدودة جيداً بقضبان حديدية أو بالخشب المعرّش.

معظم البيوت والشوارع تشبه بعضها في مظهرها الخارجي؛ بحيث يغدو من المستحيل تمييز أحدها من الآخر، وكون البيوت غير مرقمة والشوارع غير مسمّاة فتصبح بالنسبة للغرباء، وخاصة الأوروبيين منهم، معضلة طامّة في إيجاد الشارع أو المنزل الذي يبحث عنه، ويكون متأكداً أنه ضلّ طريقه إذا كان دون مرشد في متاهة الأزقّة الضيق، والملتفة بين الجدران الرمادية الكئيبة والخطرة المتداعية، التي تهدّده كل لحظة بالسقوط فوق رأسه.

في الليل تكون الشوارع في قمة الظلام إلاّ عندما تضاء بنور القمر، وتعج بكلاب شريدة أكسل من أن تتنحى عن الطريق، بعضها تنبح بشكل مثير للشفقة عندما يُداس عليها، والبعض تنبح بشراسة، وكل ذلك إزعاج لا يطاق، في وسط كل بيت يوجد فناء مفتوح للهواء السماوي الطلق، ومزين عموماً بشجرة نخيل ضخمة وسط حديقة صغيرة.

تعيش العائلة بكاملها في هذا الفناء طوال اليوم، باستثناء فترة الظهر، ربما عندما تكون الشمس قد ارتفعت عالياً في السماء لدرجة أنها لم تترك أي بقعة مظللة، لذلك يضطرون للانسحاب إلى داخل السرداب حتى الساعة الخامسة بعد الظهر تقريباً، والسرداب هو قبو أو ديماس مربّع تحت الأرض ويوجد غالباً في جميع البيوت ذوات الحجم الاعتيادي، وفيه يكون الجو معتدلاً جداً وممتعاً طوال النهار يدخله الضوء عبر فتحة الباب، والنوافذ المفتوحة باتجاه الفناء. تكون تلك السراديب مفروشة على الطريقة الشرقية بدواوين وهي أرائك عريضة منخفضة، تصطف على طول الغرفة أو على جانبين منها فقط.

تغطي الأرض سجادات أو حصائر من القش، وذلك حسب قدرات المالك. هذا هو الأثاث الكامل للسراديب أو لغرفة الاستقبال عند السكان الآسيويين، والأوروبيون وحدهم هم الذين يستخدمون الطاولات والكراسي والساعات. وكل تلك الأشياء التي تستورد بشكل رئيسي من بومباي.

في الطابق الأول والوحيد للمنزل توجد غرف نوم العائلة، التي تستخدم فقط في

الفترة ما بين نوفمبر وفبراير، حين يكون الجو قارساً جداً على النوم فوق الأسطح في الهواء الطلق، وهو المكان المعتاد للنوم خلال تسعة الأشهر الباقية من السنة، وهي الفترة التي لا يهطل فيها المطر نهائياً في بلاد الرافدين الدنيا. ورغم أن المناخ شديد الحرارة خلال أشهر الصيف، فإنه يعدّ صحيّاً، إذ قلّما يتجاوز ميزان الحرارة درجة 110 بمقياس فهرنهايت في الصيف، وفي أبرد أيام الشتاء لا يشير إلى أقل من أربعين درجة فوق الصفر. وبالطبع مسألة الثلوج خارج نطاق الجدل، حيث كما أعلم لم يسبق أن شوهدت أي ثلوج في بغداد.

* * *

يقع «السّراي» أو قصر الوالي على مسافة قريبة فوق جسر المراكب العائم فوق النهر، ويقال إنه يقع في المنطقة نفسها التي كانت تحتلها قصور الخلفاء في عصور سابقة. إنه بناءٌ هائل له باحة تبلغ على الأقل مئة ياردة مربعة، ويقع على أقصى ضفة النهر، ليمنح الناظرين مشهداً رائعاً فوق دجلة العظيم وتحته.

إنّ البناء بسيط جداً ويبدو كأنه ثكنة ضخمة للفرسان أو سجنا حكومياً، أكثر مما يبدو أنه قصر؛ غرفة استقبال الباشا عبارة عن غرفة كبيرة مربعة، بجدران مطلية باللون الأبيض، ومزخرفة ببعض اللوحات الجصّية الزرقاء المرسومة بشكل جدير بالازدراء، وثريات كريستالية بسيطة جداً تتدلى من وسط السقف. والأثاث الوحيد الموجود بداخلها هو الدّيوان أو المقعد الذي لا مفرّ منه والسجادات الفارسية التي تغطي الأرض. إنّه ليس بخلاً أو قلة اهتمام حتى من أثرى أثرياء المسلمين أنهم يبقون غرفهم فقيرة وذات مظهر بائس، إنما تعاليم القرآن التي تحرّم بشدة وجود أية صورة أو تمثال لأي كائن حي في بيوت المسلمين. تقع الزنزانة أو جناح حريم الباشا ضمن البناء الكبير ولكنها تشكل بيتاً مستقلاً بحاله. لتلك الزنزانة فقط القليل من النوافذ محجوبةً بشكلٍ جيد ومحاطةً بسورٍ يفوق ارتفاعه عشرين قدماً. ولها بوابة محروسةً عن قرب بعدّة جنود، بينما يحرس أبواب الغرف وباب المنزل خصيان وجاريات إناث من البيض والسود.

مع ذلك سـرعان ما يؤذن بالدخول للسـيدات الأوروبيات على زوجات نامق باشا اللاتـي لديـه منهن أربعة، أكبرهنَّ تبلغ من العمر اثنتين وعشـرين سـنةً، والأصغر فقط أربعة عشر عاماً، وهي چركسـية جميلة قُدّمت له كهدية من السلطان عبد العزيز وعندها قتل. كل زوجة لها من أربع إلى سـت نسـاء مرافقات، أو خادمات إذا صحَّ القول، من العرقين الأبيض والأسـود كليهما، وتلك الخادمات كسيداتهن مراقبات دائماً من قبل الخصيـان. تتمتـع تلك الجـواري بحياة هنيئة جداً؛ إذ ليـس لديهن شـيء يفعلنه سـوى إلباس سـيداتهن والغناء والرقـص والضحك واللعب معهـن، أو رواية قصص الحب أو القصـص الخرافية، في الوقت الذي تسـتلقي فيه سـيداتهنّ علـى الأرائك الحريرية الناعمـة، يلعبـن بجواهرهـنّ، ويعجبـن بصورهنّ المنعكسـة علـى المـرآة، أو يدخنّ نرجيلاتهنّ التي تشكل نقطة الضعف عند المرأة الشرقية.

منزل الوالي في بغداد

لطالما زارت أختي برفقة السيدة (B) تلك السيدات الأسيرات، وكانتا دائماً ضيفتين مرحّباً بهما بحرارة وتعامَلان باحترام عميق من قبل جميع أفراد السَّراي، وكان عليهما باستمرار أن يجيبا على كم هائل من الأسئلة حول عادات وتصرّفات السيدات الأميركيات، العازبات منهنّ والمتزوّجات، والذي عليه تقوم زوجات الپاشا بصوت عال بالإشادة بالسعادة التي تعيشها نسوة بلادنا، كونهن الوجهة الوحيدة لعشق أزواجهنّ، بينما للمسلم الحقيقي عدة زوجات، من وجهة نظرهنّ إنه من المستحيل أن يتم تبادل العواطف مع حب الجميع من قبل رجل واحد فقط. إنهنّ أيضاً يحترمن الحرية المطلقة التي تتمتع بها نساء أميركا اللاتي يسمح لهن أن يمشين ويركبن في الزمان والمكان الذي يرغبن، ويبقين إلى الوقت الذي يشأنه، ويظهرن وجوههنّ في أي وقت يردن، في حال أن زوجات السلطان المتعدّدات المسكينات يسمح لهنّ فقط في الركوب أو المشي مرة أو مرتين في الأسبوع، ولمدة ساعة فقط أو ساعتين، وهن دائماً متحجباتٍ بحذر، ومحروساتٍ بحشدٍ كاملٍ من الخصيان الجبناء والجاريات، الذين يتبعونهم عن قرب كما لو كانوا ظلالهم.

لقد وجدن أنه من الصعب جداً تصديق أنَّ النسوة الأوروپيات المتزوجات والعازبات يتناولن طعامهنّ مع أزواجهنّ أو إخوتهنّ إن وجدوا، وأحياناً مع غرباء تماماً، دون حتى أن يضعن غطاءً أو حجاباً على وجوههن، بينما على تلك الأرواح البائسة أن تأكل وتشرب وحدها، ولم يكن مسموحاً لهن ترك غرفهنَّ تحت أي ظرفٍ من الظروف إلاّ إذا كنّ مترافقات بالجواري والخصيان. والشيء الأكثر أسفاً أنهنّ لا يستطعن القراءة أو الكتابة، أو العزف على القيثارة أو الپيانو، والكثير من الأشياء الأخرى التي لا تملكها الكثير من نساء المسلمين، لأنهنّ كما أعلم غير مسموح لهن، أو لا يتم تشجيعهنّ على تنمية ذكائهن إلى أي درجة من الدرجات.

مع ذلك، باستثناء تلك السيئات، يبدو أنهنّ سعيدات طوال النهار، وتلك السيدتان اللتان دخلتا إلى خصوصيتهن لم تجدهنّ غيورات أبداً أو يتشاجرن مع بعضهنّ، رغم أنّ الفتاة الجركسية كانت في ذاك الوقت الفتاة المفضلة لدى الپاشا، وهي كذلك فقط

لأنها أنجبت له صبيّاً.

نامق باشا Namyk Pasha هو الحاكم المدني والعسكري لإقليم العراق العربي، أو بلاد الرافدين الدنيا، ووزير الحرب أيضاً، وواحداً من أربعة مشيرين، أو المارشالات الميدانيين للإمبراطورية العثمانية، وهو الشخص ذاته الذي نجا برأسه ببراعة من اشتراكه بجريمة المجزرة الشائنة التي حصلت للمقيمين الفرنسيين والإنكليز في جدّة على البحر الأحمر، والتي وقعت في الخامس عشر من يونيو عام 1858 عندما كان حاكماً لتلك المدينة الساحلية.

إنه رجل طويل ونحيل ووسيمٌ إلى حدٍّ ما، ويبلغ من العمر حوالي سبعين عاماً؛ هرم قليلاً وله شعر وشارب ولحية رماديّة اللون، وهو مسلم متعصّب لكنه مثقّف جداً، ومهذب جداً ومولع بالمحادثة.

نامق باشا رجلٌ حصيفٌ جداً وأكثر السياسيين قسوةً في الإمبراطورية التركية بأسرها. لقد شغل ولعدة سنوات المنصب الرفيع لوزير خارجية الباب العالي، ولكنه لأنه كان طموحاً جداً وجيّاشاً بالمؤامرات، فقد خشي السلطان منه على سلامته الشخصية وأبعد وزيره الذي يشكل خطراً عن إسطنبول قدر الإمكان. وكتهدئة لسيربيروس Cerberus الحارس اليقظ، قلّده منصب حاكم العراق العربي، الإقليم الأبعد عن مقر الإمبراطورية، حيث يقوم الآن بجمع النقود بسرعة ووضعها طبعاً داخل جيوبه، ويفعل ما يريد ولا يأبه لأي فرمان أو أمر من سيده السلطان إذا لم يكن يناسبه. لقد أنهى دراسته في باريس وبرلين وسافر إلى جميع أنحاء أوروبا، ويتحدث التركية، العربية، الإنكليزية، الفرنسية والألمانية بطلاقة، ومع ذلك يحاول هذا الشخص المخادع إقناع المقيمين الأوروبيين في بغداد أنه لا يستطيع أن يفهم أي كلمة من اللغات السابقة الذكر. وهو يرتدي دائماً بدلة الجنرال التركي، ويبقى دائماً محاطاً بالجنود والعديد من التابعين والخدم والعبيد.

ورغم كونه مسلماً متعصباً خطيراً فهو أذكى من أن يدع الأوروبيين يعرفون ذلك. على العكس تماماً، إنه دائماً ما يدّعي الصداقة القوية بهم، وخاصة القنصلين الإنكليزي

والفرنسي، فيقبل دعواتهم للعشاء، وبالمقابل يقدّم لهم الاحتفاء وحسن الضيافة المناسبين، ولكنه يكرههم في حقيقة الأمر. ليس هناك من جميع الأوروبيين في بغداد من كان على علاقةٍ وطيدة بنامق پاشا كما هو صهري، الذي كان نامق پاشا يزوره مراراً في مكتبه خلال فترة إقامتي في بغداد، مصحوباً دائماً بحشد من المرافقين الشخصيين وأشخاص من جميع المواصفات، وفي ذاك المكتب كانت أول مرّة تعرفت فيها إلى الپاشا. كان نامق پاشا يقوم بتجارة واسعة مع صهري، الذي كان كل سنة يبيعه البضائع الأوروبية مقابل مبلغ كبير، من أجل استخداماته الخاصة واستخدامات جنوده.

وحول السَّراي، هناك العديد من الثكنات الكبيرة أو مساكن الجنود، مشغولة من قبل قسم من القوة التركية الثابتة المؤلفة من حوالي خمسة آلاف رجل، ومدفعية، وفرسان، ومشاة، لكن تلك القوات منظمة بشكلٍ سيء وتتقاضى أجراً سيئاً، فكون مدراء القسم الحربي - من الجنرال نزولاً إلى الأسفل - متنبهين تماماً لمصلحتهم الشخصية، فإنهم يخصصون جزءاً عظيماً من ذخيرة هذا القسم لمصالحهم الخاصة، وعليه يتبعون المثال الجيد المقدّم لهم من الپاشا نفسه، الذي يجمع أموال العامة على جانبيه يميناً ويساراً، وبالتالي يقال إنه ثريّ إلى حدٍّ لا يوصف. وعاجلاً أم آجلاً سيخسر الپاشا منصبه العالي، لذلك هو حريص على جمع المال، لكي يكون متوفراً معه في الأيام المقبلة.

مقرّ الجمارك هو مبنى آخر من المباني الضخمة في المدينة، يقع عالياً على ضفة النهر، أسفل الثكنات الواقعة قرب المكان الذي يمتد فيه الجسر العائم عبر النهر، حيث ترسو البواخر البغدادية الأربع والكثير من المراكب، أو القوارب العربية التي تسافر باستمرار بين بغداد والبَصرة.

يقال إن جزءاً من مقرّ الجمارك هذا كان قديماً مطبخاً لهارون الرشيد، الخليفة المشهور، هناك نقش عربي عن هذه الحقيقة، محفور بحروف عربية بارزة ضخمة، يعود إلى ذلك الزمان القديم، وهو محفوظ جيداً ومقروء بشكل واضح على الحائط المقابل للنهر.

لا أحـد يجتـاز النهـر عبـر الجسـر العائـم دون أن يـرى إدارة الجمـارك، التي تعجّ بالموظفين الثانويين ذوي الأوصاف المختلفة، يصرخون ويصيحون ويشتمون طوال اليوم، كأنهم كانوا ملزمين أن يقلّدوا نماذج معيّنة من موظفي الجمارك المتحضرين - كما يدعونهم - في بلادنا.

كانت الأبنية المسكونة من قبل القنصل الفرنسـي والقنصل الإنكليزي وتلك التي يقطنها أوروبيون آخرون وبعض السـكان المحليين الأثرياء ضخمة جداً ومريحة جداً إلـى الحـد الذي يمكن توقعـه في هذا المكان مـن العالم، وخصوصاً تلك المسكونة مـن قبل الأوروبيين، وتقريباً جميعها تقع قريباً من الضفة اليسـرى للنهر، فقط حدائق صغيرة تحول بينها وبين النهر.

إنَّ منـازل الأوروبيين مفروشة بشكل جيـد على طريقة نصف أوروبية ونصف شرقية، وما جعل منزلي القنصلين سابقي الذكر الأكثر وضوحاً بين باقي الأبنية ساريتا العلم الطويلتان المتوضعتان فوقهما، واللتان تبديان أن المالكين الشخصيين قد عزما علـى أن يفوق أحدهما الآخر بطول تلك الساريتين، وكأنَّ وجودهما وسلطتهما عند الحكومة التركية تعتمد على طول سارية العلم الخاصة بكل منهما.

قد يكون المنزل الأكبر والأكثر راحةً في بغداد هو مسكن صاحب الجلالة الملكية إقبال الدّولة "Agbal al Daula" نائب (نوّاب) الملك السـابق في لكنؤ Lucknow بالهنـد، والذي بعد الثورة الهندية (1857-1859) تقاعد إلى بغـداد بمنحة تدفعها له الحكومة البريطانية وتبلغ حوالي 30,000 دولار أميركي ذهبي، في السنة.

يقـال أنـه فائق الثراء وأنه جلب معه من الهند أكثـر من مئتين من التابعين. وبعد فترة قصيرة من وصوله إلى مدينة الخلفاء بنى لنفسـه (حرماً)، وبنى لبطانته المسكن الكبير المذكـور في الأعلـى، الذي يقع قرب الضفة اليسـرى لدجلة، محاطاً بحدائق جميلة تطل على النهر، ومجهزة بكل الرفاهيات الآسيوية.

تحتـوي بغداد مـا بين أربعين إلى خمسـين مسـجداً، ومـآذن بعددها (وهـي أبراج

أسطوانية الشكل للمؤذنين أو مرتلي الأذان للعامة). وتكون المساجد أبنية مربعة واسعة ومرتفعة، محاطة بجدار عال، يشبه جدران إصلاحياتنا. وتعلو المسجد نفسه قبّة كبيرة من القرميد اللامع المصقول، أو بلاط خزفي ذي ألوان متعددة، مرصوف بطريقة الموازييك، وكما أشرنا في السابق يعلو كل قبّة هلال ذهبي أي القمر في بدايته، وهو شعار المسلمين.

أما داخل الجامع فهو مجرد قاعة فارغة، جدرانها مزينة بآيات قرآنية ولوحات جصية، عدا ذلك لا يوجد أية زخارف أخرى في القاعة باستثناء بعض العواميد الرخامية أو الخشبية التي تدعم السقف، مشغولة في بعض الجوامع بالطريقة العربية البسيطة وفي البعض الآخر على الطراز المغربي أو البيزنطي الأنيق.

يوجد في بعض الجوامع الرئيسية عدة أوانٍ ذهبية أو فضية متدلية من السقف أو القبة بواسطة حبال أو خيوط حريرية، وتستخدم كمصابيح من جهة ومن جهة أخرى يحرق فيها البخور.

تكون أرضيات الجوامع بكاملها وحتى أكبرها حجماً مغطاة ببلاط رخامي أبيض وأسود مستورد من كردستان أو من بلاد فارس، ومرصوف بطريقة الموازييك. تمتد على الأرض سجادات صغيرة الحجم تبعد عن بعضها مسافات منتظمة، وعليها يؤدّي المسلمون صلواتهم.

حتى وقت قريب لم يكن للسكان المسيحيين الذين كان معظمهم من الرّوم الكاثوليك أي مكان آخر للتعبد سوى السرداب الواسع الموجود في مقر المبشرين الفرنسيين، الذين تمكنوا منذ عدة سنوات بالمثابرة الشديدة وتحت صعوبات كبيرة من الحصول على رأسمال تم جمعه من التبرعات وصل إلى حوالي 40,000 دولار، والذي به بنوا وأثثوا كنيسة كبيرة وجميلة جداً على الطراز القوطي.

أما العشر أو الاثنا عشر أوروبياً اللذين ليسوا روماً كاثوليك فوضعهم هو الأسوأ؛ إذ ليس لديهم الآن أي مكان للعبادة وذلك بسبب المبشرين الإنكليز الذين بشّروا

وعلّموا في بغداد لعدّة سنوات، وكان انسحابهم أسفاً شديداً للجميع، وخاصّة للسكان المحليين الذي كان المبشرون معهم كرماء ومحسنين جداً، وقد عملوا بإصرار على تعليم أولادهم حتى أصبح بعضهم قادراً على قراءة ليس لغتهم فحسب وإنما اللغة الإنكليزية التي أبدى العديد منهم ولعاً شديداً بها واكتسبوها بسهولة تامة. بالنسبة للأميركان الذين كانوا جميعهاً كاثوليك شرقيين، فقد كانوا يجتمعون من أجل طقوس اللاهوت المقدسة في المبنى الذي يسكنه مطرانهم، كان رجلاً مسناً طويلاً وشهم المظهر، له لحية فضية متدلّية، أكثر الرجال نعومة في الهيئة وفي الوقت ذاته أكثر رجل مهيب رأيته في حياتي.

* * *

الفصل العاشر

المزيد عن بغداد والمنطقة المجاورة

تميز الطبقات - مقهى نموذجي - مراح الإبل - خمسون ستاً في اليوم - بيع الماء بالمناداة - «قارب القفّة» - الحياة الاجتماعية - الاستعداد لنزهة - مرشدنا - رؤية الغزلان - تدريب الصقر وكلب الصيد - قوس المدائن - خاصيات نساء بغداد.

إنّ المدينة الواقعة على الضفة اليمنى أصغر بكثير من تلك التي على الضفة اليسرى، ومأهولة بالجزء الأكثر تعصباً من السكان المسلمين في بغداد، وهم من الفرس، الأفغان، الأكراد والطبقات الفقيرة من العرب والأتراك الذين لن يسمحوا لأي يهودي أو مسيحي أن يسكن في هذا القسم من المدينة. المنازل الموجودة على هذا الجانب من نهر دجلة أدنى بكثير من تلك الموجودة على الجانب الأيسر من حيث الراحة والحجم، والعديد منها كانت مجرد أكواخ، مؤلفة من أربعة جدران خشنة مبنية باستهتار من الطين المجفف بالشمس، ولا تبلغ عشرة أقدام في الارتفاع، مغطاة بأسطح مستوية من الأغصان أو القصب الملتصق في الأعلى بطبقة سميكة من الطين. وبالطبع كانت النوافذ خارج نطاق السؤال.

تسمح فتحة الباب المعتادة، وفجوة أو اثنتين مربعتين في الحائط، بإدخال مقدار من ضوء النهار كافٍ فقط ليتمكن ساكنو الأكواخ من رؤية بعضهم البعض وهو الشيء المطلوب فقط، إذ لم يكن هناك خطر من تخرب أثاث المسكن البائس؛ فباستثناء بعض حصائر القش الممدودة على الأرض وربما بعض الأباريق الخزفية وأواني طبخ

نحاسية موضوعة في إحدى الزوايا، وطفل رضيع عارٍ تماماً، أو زوج من الكلاب الصغيرة أو الأطفال في الزاوية الأخرى، لم يكن هناك أي شيء يعترض الطريق داخل الكوخ.

يوجد في المدينة الواقعة على الضفة اليمنى بازار خاص بها، يقع في أقرب شارع إلى النهر ويوازي الآخر تماماً، إلا أن هذا البازار أدنى بكثير من ذاك الموجود على الضفة اليسرى، وهو معروفٌ فقط بالأعداد الهائلة من بيوت القهوة الموجودة فيه، أو بالأحرى مؤسسات شرب القهوة، كونها في الواقع ليست بيوتاً على الإطلاق ويستطيع المالك، وهو المواطن السعيد في هذه المدينة - التي تكاد لا تعرف المطر - أن يستغني عن البيت بكل بساطة.

لذلك يقوم النجار بصنع مقعد أو كرسي غير مصقول للمالك ويضعه في مكان جيد للعمل، وبشكل عام يكون قريباً من حافة النهر، حيث المياه متوفرة ويستطيع الزبائن الاستمتاع بالنسيم الرقيق والمشهد الأخّاذ للنهر العظيم. إذا كان رجلاً واعياً ومالكاً سعيداً لبعض القروش، فإنه سيقوم باستثمار رأس ماله في توفير بعض الظل لزبائنه، وذلك بحماية مؤسسته من أشعة الشمس الحارقة عن طريق ظلّة مصنوعة بأكثر الطرق بدائية على الإطلاق. أربعة عواميد مثبتة عمودياً بالأرض وتبعد عن بعضها عشرين قدماً، بزوايا قائمة وحصيرة قش كبيرة وغليظة ممدودة بينها وترتفع حوالي اثني عشر قدماً عن الأرض.

يتظلل الزبائن تحت هذه المظلة ويتخذون مقاعدهم ببطء ورزانة وينظرون من القهوجي أن يحضر لهم نرجيلة أو شطب (غليون طويل)، أو سبيل (غليون قصير) مليئاً بالتبغ، مشعلاً وجاهزاً للتدخين، وبمقتضى خبرته يعرف القهوجي أي نوع من أنواع أدوات التبغ الثلاثة تلك يفضل الزبون.

بينما يخضع الآخر بكل إلى التأثيرات المهدئة للتبغ.

يسرع القهوجي إلى مطبخه – وهو عبارة عن نار صغيرة مشتعلة بين ثلاث أو اربع

قرميدات كبيرة مصطفة فوق بعضها على الأرض - حيث يغلي القهوة بمرجل حديدي أو نحاسي، ثم يرفعه من النار ساخناً يغلي ويحمله إلى زبائنه، يملأ له فنجاناً صغيراً (وهو كوب صغير لا يتسع لأكثر من ملعقة أو ملعقتي طعام من القهوة) بالمشروب اللذيذ الذي يقدّم منه فنجاناً أو اثنين لكل زبون.

أدعوه مشروباً لذيذاً لأنه كذلك في الواقع، فهو مزيج استثنائي من مخدّر مقزز له شرف مناداته باسم القهوة عندما يحضّر بعدّة طرق في جميع أنحاء العالم، ولكن العرب يعرفون كيف يحضّرون القهوة بالطريقة المثلى التي يجب أن تحضّر بها. إن الأتراك والفرس بارعون جداً في إعداد القهوة أيضاً، ولكن لا أحد يستطيع أن يضاهي العرب في إعدادها.

ولم يسبق لأيّ من الأمم المذكورة في الأعلى أن طحنوا حبوب البن المحمّص، إنما كانوا يدقونها بهاون حديدي أو حجري، ولا شك أنَّ ذلك الاختلاف في طريقة الصنع له تأثيرٌ كبير على شرابهم المتفوّق في طعمه عن غيره، إن قهوتهم كثيفة جداً وقوية لا يوجد فيها ذاك الطعم غير المستحب للقهوة المقطّرة أو المركّزة، والمسلمون لا يشربون قهوتهم محلاّة على الإطلاق.

أعتقد أن السبب الذي يجعل الأوروبيين لا يستسيغون القهوة العربية في بادئ الأمر، هو عدم وجود السكر فيها، ولكنني سمعت مراراً وتكراراً من أولئك الأوروبيين الذي اعتادوا على شربها لفترة طويلة، أنهم مهما حصل لن يتذوقوا القهوة الأوروبية مرة أخرى.

بعد الغداء في مقهى بغداد

فـي هذا القســم من الضـفة اليـمنـى للنهر وفي أبعد نقطة عـن النهر تقع الإصـطبلات العديـدة لجمـال القوافـل الكبيرة التي تأتـي إلى بغداد وتعـود كل يوم تقريبـاً، محملة بالبضائع من جميـع أنحاء أوروبا وآسـيا وإفريقيا.

وتلك الإصطبلات ذوات بنية بسيطة جداً مؤلفة فقط من سلسلة من مناطق الأرض المنبسطة كبيرة أو صغيرة، مسوّرة بجدران من القرميد أو الطين القاسي، يبلغ ارتفاعها عشرة أقدام، تشطرها بوابة أو بوابتان كبيرتان. تستخدم تلك الإصطبلات فقط في الليل، إذ إنّ الجمال تؤخذ كل يوم أولاً إلى النهر لتشرب، وبعد ذلك إلى الصحراء التي تحيط بضواحي بغداد من كل الجوانب، حيث تأكل طوال النهار من المورد الضئيل الموجود من الشجيرات الشوكية، التي تبلغ عموماً ثمانية إنشات في الارتفاع ولها لون أخضر فاتح، وطعم لاذع جداً.

هذا النوع من النبات الذي لا أستطيع تذكره، موجود حصرياً في جزيرة العرب، وهو الشيء الأخضر الوحيد الموجود في البادية، وفي فصل الحرّ يقلّ وجوده كثيراً في عدة مناطق من البلاد. وعند المغيب تقاد الجمال مرة أخرى إلى المدينة وتحبس طوال الليل في الحظيرة.

تغطي ضواحي بغداد على طول ضفتي النهر عدّة حدائق غنّاء، يحيط بكلٍّ منها حائط طيني يرتفع ثمانية أقدام. وبسبب مناخ هذه البلاد شديد الحرارة، فإنه يتوجب ريّ هذه الحدائق ليلاً نهاراً دون توقُّف، وذلك بواسطة نوع من بئر الجرّ، محفور بعمق يتراوح من عشر إلى عشرين قدماً، حتى ضفة النهر، تسحب المياه منه عن طريق ثورين أو حصانين، يرفعان الماء من الأسفل بجراب جلدي مربوط إلى نهاية حبل ملفوف حول عجلة مثبتة فوق فوهة البئر، والنهاية الأخرى للحبل معلقة بالحيوانين الذين يشدانها فيعمل البئر. إن الجراب الجلدي مصنوع بشكل منظم جداً، إذ إنه حالما يصل إلى سطح الأرض يفرغ نفسه بنفسه داخل حوض خشبي، فينقل الحوض المياه إلى القنوات الصغيرة كثيرة العدد والتي تتفرع في مختلف الاتجاهات عبر الحدائق. وبذلك المورد غير المنقطع من الماء تبقى النباتات ريّانة ونضرة بشكل رائع على مدار السنة

لدرجة أن تلك الحدائق تعوّض لمالكيها كل الجهد ونفقات الري عن طريق الكميات الهائلة التي تقدمها من التمور والأعناب والتوت والتين والبرتقال والليمون والرّمان والدرّاق والخوخ واللوز والشمام والبطيخ، وجميع أنواع الخضراوات والأعداد الكبيرة من الأزهار المتوفرة من كل صنف. ذات مرّة رأيت تاجراً فارسياً، ومقطّراً للروائح الشرقية المستخرجة من زيت الزهور يدفعان 2000 كران فارسي نقداً، ما يعادل 500 دولار ذهبي لمالك إحدى الحدائق متوسطة المساحة مقابل محصول الزهور لفصل واحد فقط.

والمعيشة في بغداد رخيصة جداً، حيث أنه يمكن للعائلات المحلية أن تعيش ببحبوحة بمبلغ كرانين (تقريباً 50 سنتاً) يومياً، والأوروبي إذا كان عازباً يستطيع العيش براحة مطلقة بمبلغ أربعة آلاف كيران سنوياً أي عشرين ألف ليرة تركية أو ألف دولار ذهبي. بهذا المبلغ يستطيع أن يستأجر أكثر البيوت راحة ورفاهية في المدينة، ويحتفظ باثنين أو ثلاثة خدم من أبناء البلد، وحصان أو حصانين، ومائدة جيدة جداً على مدار السنة. يضطر سكان بغداد إلى إحضار الماء الذي يستخدمونه من نهر دجلة، إذ إنه في نطاق عشرين ميلاً المجاورة لا يوجد أي مصدر آخر للمياه الصافية، فالسدود القليلة البعيدة عن النهر تحتوي مياهاً غير صالحة ذات طعم فاسد ومالح وتسبب الحمّى والملاريا.

أما مياه دجلة، فرغم كونها عكرة قليلاً، لكنها جيدة جداً ويمكن الشرب منها بكميات كبيرة دون أن تتسبب بأية آثار سيئة، وخاصة عندما تتم تنقيتها وذلك بواسطة أباريق أو بالأحرى جرار فخارية خاصة تدعى (شربة) كثيرة المسام وغير مطلية، يصنعها العرب.

تحفظ المياه في تلك الأواني في إحدى الزوايا المظلمة من المنزل، وخاصة في المكان الذي يوجد فيه هواء.

حالما توضع المياه في (الشربة) تبدأ بالتنقية، حيث يستقر الطين في قعر الإبريق ويجعل الهواء الذي يضرب الجرة المسامية من الخارج محتوياتها صافية تماماً ولذيذة

وباردة لدرجة أنه قد تتسبب للشخص بألم في الأسنان عندما تدخل إلى الفم.

تنقل هذه المياه من النهر إلى البيوت بواسطة رجال أو صبية يدعى الواحد منهم (السقا) أي حامل المياه، كل واحد منهم لديه حمار وجراب ماء جلدي كبير مصنوع من جلد الماعز، يتسع لخمسة غالونات من المياه، التي يعبئونها من النهر يربطون فوهة الكيس أو الجراب بخيط ويرمون به على ظهر الحمار، وهكذا يحملون الماء إلى زبائنهم.

هناك الآلاف من الناس يكسبون رزقهم بتلك الطريقة، ليس فقط في بغداد وإنما في جميع أنحاء الشرق، ويسدّون باستمرار الطرقات الضيقة التي تميّز المدن الشرقية.

من المضحك جداً أن ترى الفزع الذي يظهر على وجه الغرباء وخاصة الأوروبيين منهم، عند تذكرة فكرة أنهم يجب أن يطفئوا عطشهم من مياه النهر التي يروون منها كل يوم الآلاف والآلاف من الناس، من جميع الأعمار والأجناس والملل والألوان يستحمون بماء النهر، رأوا أكثر من مرة جملاً أو حصاناً أو بغلاً أو حماراً أو كلباً ميتاً، ينجرف مع التيار، وأحياناً جثة إنسان متحللة ومتفسخة.

لا شيء على الإطلاق يجعل الغرباء والقادمين الجدد إلى بغداد يطعنون بأيمانهم التي أقسموها بسرعة أنهم لن يلمسوا مياه دجلة؛ سوى العطش الشديد الذي يعانون منه خلال الأسابيع الأولى لإقامتهم هناك.

يستخدم سكان ضفاف دجلة والفرات وبشكل خاص سكان بغداد قارباً غريباً أو على نحو أدق سلّة بغية عبور النهر. يطلق السكان على هذا القارب اسم (قُفّة)، وهو في الواقع ليس سوى سلة ضخمة مدورة تماماً ولها شكل رغيف مستدير، أو كساعة ثخينة ذات وجهين.

يتراوح محيط تلك القوارب ما بين أربعة إلى ثمانية أقدام، وتحمل وزناً ما بين الطن الواحد إلى طنّين، أو من أربعة إلى عشرين شخصاً، وتصنع من الأماليد القوية جداً وتُطلى بطبقة كثيفة من القطران من الداخل والخارج لتصبح كتيمة للماء بشكل كامل.

إن القُفّة تشبه البَلَم - الزورق الموصوف سابقاً، ويسيّرها رجل أو رجلان يستخدم كل منهما مجدافاً قصيراً يشبه الملعقة أو الرفش، ويشبه مجاذيف الهنود أو سكان الأسكيمو. بهذا يقومون بدفع القُفّة عبر المياه، ببطء شديد عندما لا يكون فيها حمل أو قوة للدفع، باستثناء القليل من الماء بداخلها إلاّ إذا كانت محمّلة بوزن ثقيل.

إجمالاً إنه قارب غير مصقول وغير مصنوع ببراعة، وممكن أن يسير عكس التيار فقط بالقوة والجهد العظيمين وبالتغيير المستمر للتجذيف، وذلك بتوزيع الضربات بالتناوب مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار، ولكن عندما يكون عليه الذهاب إلى أماكن بعيدة عبر النهر، فيتم سحبه بواسطة حبل؛ يسحب هذا الحبل رجل أو أكثر يمشون على طول ضفة النهر بسبب قلة أو إذا صحّ القول ندرة الرياح على سهول الرافدين الدنيا، لذا تلجأ جميع القوارب أو المراكب الشراعية التي تم ذكرها سابقاً عندما تسافر في دجلة بين بغداد والبَصرة، وفي الفرات بين (الحلّة) والبَصرة، حاملةً بضائع وحطباً، إلى توظيف من أربعة إلى ثمانية رجال يدفعون القارب عكس اتجاه التيار الطريقة نفسها التي ندفع بها (القُفّة) عبر النهر، فالأشرعة نادراً ما تنتفخ بشكل كافٍ من الرياح لتدفع القارب عكس التيار دون مساعدة الرجال.

إن دفع هذا القارب صعب جداً، أكثر مما هو متوقع، وما يجعل الأمر أكثر سوءاً هو الأجور الزهيدة التي يتقاضاها الرجال، حيث يدفع لكل رجل ليرتان تركيتان فقط في اليوم أي ما يعادل تسعة سنتات بالدولار الأميركي.

يعمل هؤلاء الرجال بشكل عام خلال الليل وفي الصباح الباكر، ذلك بسبب الحرّ الشديد أثناء النهار، فيعملون في الوقت ما بين السادسة مساءً وحتى العاشرة صباحاً، وبينما يكون القارب راسياً في الوقت الأكثر حراً من النهار يكون أفراد الطاقم بكاملهم منهمكين بمناجاة مورفيوس (إله الاحلام) باستثناء رجال المراقبة. أحياناً يقوم البدو الغزاة بمفاجأة ونهب تلك القوارب، فيحرقونها أو يغرقونها، وبعد ذلك يقتلون أفراد الطاقم ويرمون بهم في النهر إذا أبدوا أية مقاومة.

تستغرق رحلة هذه القوارب باتجاه الأسفل من بغداد أو من الحلّة إلى البَصرة

حوالي ثمانية أيّام، في حال أنها تستغرق باتجاه الأعلى وقتاً ما بين أسبوعين إلى ثمانية أسابيع.

إن القُفّة دون شك هي أكثر المراكب البدائية المعروفة، ولا بدّ أنّ أوّل استخدام لها كان منذ ثلاثة آلاف سنة مضت، إذ إنها تشبه إلى حدٍّ بعيد آثار ذاك المركب غير المتقن الذي وجد عند التنقيب في حطام بابل، نينوى وسلوقية، والذي قام بوصفه: , Botta Layard ,Niebuhr ,Rich ,Della Valle ورحالون آخرون. وهناك وسائل أخرى للإبحار، وهي أقل بدائية بقليل مثيرة للاهتمام أيضاً، إنها (الكلك)[1] Keleck - وهي نوع من طوف صغير مصنوع من إطار من العواميد وأغصان الأشجار المتوضعة بشكل متقاطع ومشدودة جيداً إلى العواميد بواسطة حبال أو شرائط من الجلد أو الصفصاف. يكون هذا الطوف مدعّماً ومرفوعاً حوالي ستة إنشات على الأقل فوق سطح الماء بواسطة عدد كبير من جلود الماعز المنتفخة، مربوطة إلى الجزء السفلي من الطوف بمسافات تتراوح من ستة إلى اثني عشر إنشاً بين بعضها والبعض الآخر، وهكذا يكون الطوف البالغ مساحةً عشرة أقدام مربعة مدعّماً بعدد من جلود الماعز المنفوشة يتراوح ما بين مئة إلى أربعمئة، وذلك حسب الوزن المحدد الذي يستطيع الطوف حمله.

يكون عادة الحجم المألوف لتلك الأطواف حوالي خمسة عشر قدماً في الطول وعشرة أقدام في العرض، وعموماً تكون مزوّدة برجلين يعملان بالتناوب كون القارب مزوداً بمجذاف واحد فقط، يساعد في التوجيه أكثر من الدفع، لذا ليس لدى الرجلين عمل سوى إبقاء الطوف في منتصف مجرى النهر، أو المياه العميقة، وذلك لمنع تمزّق الجلود عند اصطدامها بالعقبات الخفية أو الصخور الحادة.

تستخدم تلك الأطواف فقط في الإبحار في الجزء الأدنى من النهر، فأولئك الذين يصلون إلى بغداد عادة يأتون من مدينتين كبيرتين تقعان في مناطق أعلى من النهر، إذ يأتون من ديار بكر عاصمة كردستان ومن الموصل عاصمة بلاد الرافدين العليا، من حيث يكونون محملين بالبضائع التي أحضروها من القوافل الواقعة على شواطئ

(1) الكَلَك (بمعنى الطوف) عبارة تركيّة دخلت العاميّة البغداديّة قديماً إبّان الحكم العثماني.

المتوسط، ويكون النقل عبر النهر أقل تكلفة وأكثر سرعة وأكثر أمناً من النقل باليد. يقوم العديد من تلك الأطواف بإحضار المسافرين أو الأحجار أو الأخشاب من أجل البناء إلى بغداد، حيث لا يوجد أحجار كبيرة على مسافة مئتي ميل من المدينة، وأيضاً لا يوجد أخشاب أثخن من مقبض المقشة باستثناء أخشاب أشجار النخيل التي لا تصلح لأغراض البناء.

أما الأطواف التي تصنع من أجل الأوروبيين فهي مقارنة بالسابقة مريحة جداً؛ إذ يوجد عليها بيت خشبي صغير أو خيمة منصوبة فوق الطوف من أجلهم، حيث يمكنهم أن يستكينوا بهدوء.

في ربيع عام 1865 سافرت بصحبة السيد (J) ابن بلدي على متن أحد تلك الأطواف من ديار بكر إلى بغداد، مسافة تبلغ أكثر من ستمئة ميل.

أبحرنا ليلاً نهاراً، استغرقت الرحلة من ديار بكر إلى الموصل خمسة أيام، وستة أيام من الموصل إلى بغداد، كان بإمكاننا أن ننهيها في وقت أقصر لو لم نتوقف في عدة قرى رئيسية واقعة على ضفتي النهر. مهما حييت لن أنسى تلك المشاهد الرائعة التي صادفتنا في طريقنا، وخاصة مشهد ضوء القمر كان لدينا متسع من الوقت وكنا مرتاحين جداً آنذاك، لقد طهونا طعامنا على متن طوف (الكلك)، وكنّا مزودين بمخزون احتياطي وافر من نبيذ ديار بكر الفاخر وسيجار المانيلا، كان معنا على متن الطوف نصف دستة من الدواجن الحية التي مشت بحريتها المطلقة هناك وكانت تضع البيض أيضاً، بينما كان الديك يتولّى شيئاً مفيداً عندما كان يوقظنا كل صباح قبل بزوغ الضوء بصياحه العالي المبهج. وكنا نقضي النهار بكامله ونحن نطلق النار على البط والإوز والنحام والبجع، التي نراها تتنزه على ضفاف النهر، وفي الليل كنا نطلق على الأعداد الهائلة من قطعان الخنازير البرية، والغزلان وبنات آوى، التي كانت تأتي إلى النهر لتشرب، دون أن تلمح طوفنا ينساب بسلاسة وهدوء عبر التيار الفضي، رغم أن القمر كان مضيئاً جداً حتى بدا الليل كالنهار، كان لدينا سريران جيدان ومريحان، ولكننا قلّما استخدمناهما؛ إذ كنا نقضي الليل بالغناء والحديث والتدخين عندما نشعر بالتعب من إطلاق النار.

تعاني الحياة الاجتماعية في بغداد بطبيعة الحال من انحسارٍ شديد؛ فالمسارح والحفلات الراقصة والحفلات الموسيقية وغيرها... كانت جميعها خارج نطاق المسألة، ومعظم الأوروبيين المقيمين هناك كانوا عازبين؛ بعضهم اتخذ من الفتيات المحليات زوجات لهم، واللاتي رغم أنهنّ حاولن جاهدات تصنع العادات الأوروبية، فقد وجدنها صعبة جداً أن يتخلصن من البلادة والتحفظ والخجل السخيف الذي يميز النسوة الشرقيات، واللاتي بسبب ثقافتهن المتخلفة، لا يأبهن، أو بمعنى أصح لا يستطعن الشروع في أي حديث سوى الأمور المحلية، لذلك فإن الأوروبيين في بغداد مقيدون بالتسلية في الهواء الطلق كركوب الخيل والصيد وركوب الزوارق، وبعضهم يملك قوارب شراعية وزوارق تجذيف أوروبية الصنع، ولكن جميع وسائل الترفيه في الخارج لا يمكن ممارستها خلال تسعة أشهر من السنة إلا في الصباح الباكر وفي المساء المتأخر وذلك بسبب حرارة الشمس الشديدة في الأوقات الأخرى من النهار.

منذ بدء زيارتي إلى بغداد رحلت معظم السيدات الأوروبيات اللاتي كنَّ هناك، ولم يكن يتجاوز عددهن خمس أو ست سيدات، وذلك بسبب عدم تحملهم للعيش في هذا المناخ المضني.

خلال فترة إقامتنا، قمنا بعدّة جولات إلى المناطق المجاورة للمدينة، من أجل الصّيد من جهة ومن أجل حب الفضول والاستطلاع من جهة أخرى، وبما أن أصدقاءنا وضعوا خيولهم العديدة والرائعة تحت تصرّفنا، فقد استفدنا جيداً من لطفهم معنا.

أول جولة لنا من هذا النوع كانت بعد أسبوع واحد من وصولنا، وقد كانت إلى أطلال طيفون (المدائن) التي تم وصفها مسبقاً، وذلك بهدف صيد الغزلان والصقور والكلاب السلوقية العربية، وتلك كانت بالنسبة لي رياضة بديعة وغير مألوفة، ومن هنا سأقوم بسرد جزء مختصر من الأحداث التي صادفتنا خلال يوم صيد واحد. غادرنا المدينة قبل بزوغ الفجر بحوالي ساعتين، وطوال الطريق تقريباً جعلنا خيولنا المتحمسة تخبّ بسرعة قوية جداً حتى وصلنا عند الشروق تماماً الجامع الموجود

بجـوار آثار طاق كسـرى مباشـرة. كان حارس الجامـع رجلاً بدوياً اسـمه عبد الله بن إسـماعيل، ومشهور جداً بين عرب تلك المنطقة بأنه صيّاد صقور بارع ومدرّب كلاب سلوقية ومروّض خيول.

وقـد بدا أنه شـعر بفخر كبيـر بزيارة الفرنجة السـتة (الأوروبيـين) غيـر المتوقعة له. عند سـماعه بسبب زيارتنا أكد أنه مسـتعد لتلبية رغباتنا، قبل انبثاق الضوء بكثير أيقظنا البدوي من غفوتنا الصباحية، وبدأنا في ميدان العمل، كان يقود الموكب الصغير.

راكباً على ظهر حصان قزم قبيح جداً، مجرداً تماماً من الحدوات، التي بالمناسبة لا يستخدمها البدو إطلاقاً. كان يرتدي العباءة البدويـة الصـوفية البنية الداكنة الفضفاضة المعتـادة، ووشـاحاً حول خاصرتـه. على يده اليمنـى الممدودة التي يرتـدي بها قفازاً جلدياً سـميكاً كان يجثم صقر قوي، حجمه بحجم طائر الحدأة مكتمل النمو، وله قبعة جلدية مزركشة مشدودة جيداً فوق رأسه.

وبيـده اليمنـى كان يمسـك بلجام فرسـه وحبـلاً طويـلاً مربوطاً حول طـوق كلبين سـلوقيين مـن النـوع الأول، كثيفـي الوبر، هزيلين بشـكل مرعب، ويهـرولان بصمت بجانـب حصان سـيدهما، مسـتعدين للانزلاق في أيـة لحظة. كان ابن مرشـدنا يلحق بوالـده عن قـرب وكان راكبـاً ومجهزاً تمامـاً مثل والده، وكنـا أنا وأصدقائـي نتبعهما بصمت بطريقة الرتل الهندي. كان البدويان كلاهما مسـلحين بسـكين طويل فقط، بينما كنا نحن نحمل مسدسـاتنا تحسـباً في حال تعرضنا للهجوم من قبـل البدو الذين كانوا معروفين بارتكابهم عمليات النّهب والسلب في الطرقات تلك المنطقة.

ركبنا على ظهر خيولنا مسـافة ستة أميال تقريباً، باتجاه شـرقي تماماً، عندما بدأ الفجر بالانبلاج، وبعد قليل وقعنا على قطيع من عشـرين غزالاً تقريباً، وكانت أمامنا مباشـرة ترعى بهدوء من العشب القليل وجنبات السـهل الهزيل.

أشار إلينا البدويان بأن نخفف سرعة خيولنا وأن نمشي ببطء جنباً إلى جنب معاً، في الوقـت الذي انحرف فيه هو بزاوية خمس وأربعين درجة تقريباً من المسـار الذي كان

قد اتخذه، فتبعنا مساره عن قرب، وتجاوزنا الغزلان إلى مسافة ميل تقريباً.

لم نستطع أن نمنع تلك الحيوانات الرشيقة المستعدة دائماً للقفز هاربة من رؤيتنا؛ إذ بدت الصحراء كأنها دكّ مستوٍ واحد ليس له نهاية، ولكن بما أن الغزلان تملك ثقة مطلقة بسرعتها المدهشة، فلم تكترث لأمرنا بتاتاً، حتى انحرفنا عن المسار، عندها رفعت الغزلان رؤوسها لتنظر إلينا متسائلة عن السبب الذي كنا نتنقل من أجله في الصباح الباكر، إلا أنها شعرت مجدداً بالثقة وبأننا لا نقصد الأذى عندما رأتنا نتقدم بهدوء وصمت باتجاه منحرف عنها قليلاً فتابعت طعامها باطمئنان.

حالما خمدت شكوك الغزلان، عاود البدوي ببطء وبشكل غير مرئي اتجاهه السابق وبذلك أصبحنا على مسافة ثلاثمئة ياردة منها، حينما قام ذكر كبير رائع بدا أنه قائد القطيع وبكل كبرياء برفع رأسه المزين بقرنين جميلين مليئين بالعقد، وضرب الأرض تكراراً بإحدى أطرافه الأربعة المستدقة، وكأنه يحاول تحذير أصحابه من الخطر المحدق، وعليه رفعت جميع الغزلان الباقية رؤوسها دفعة واحدة لتراقب خطواتنا.

مباشرة ظهر عليها نوع من الاهتياج الواضح، متبوعاً بنوع من الصفير الثاقب أو صرخة خارجة من منخري الذكر الكبير الحذر، ثم بسرعة مذهلة ومرونة فائقة في الأطراف قفزت الغزلان هاربة عبر السهول القاحلة، تاركة وراءها غيمة من الغبار لتدلنا على الطريق الذي سلكته.

ولكن، واأسفاه! فبالرغم من سرعتها الفائقة، تمكنا من اللحاق بها، وفي اللحظة التي أطلق فيها الذكر العجوز صفيره، أزيح بُرفع الصقر، وفي الوقت نفسه ارتفع الطائر المزهوّ في السماء كأنه سهم انطلق بقوة من القوس، وفي تلك الأثناء أفلتت الكلاب التي بقيت طوال الوقت صامتة إلى جانبنا من رسنها ـ رغم أنها لمحت الغزلان حالما لمحناها نحن ـ وانطلقت بسرعة هجومية وراء الطرائد الرشيقة.

وبصيحة حماس مبهجة، انطلقنا كالبرق نطاردها بأقصى سرعة يمكن لخيولنا إحرازها فوق تلك الأرض الوعرة التي كان يخترق سطحها أعداد كبيرة من الشقوق

الواسعة والعميقة، الناجمة عن حرارة المناخ المرتفعة، والتي كانت خطرة جداً بالنسبة للفرس والفارس كليهما؛ فالحصان المنطلق بأقصى سرعته سيكسر ساقه حتماً إذا تعثّر عثرةً واحدة، وستنزل ساقه في أحد هذه الشقوق الفاغرة فمها، لحسن الحظ كانت جيادنا جميعها ثابتة القدم؛ إذ لم نتعرض لأي حادث قط، وفرقتنا التي يرأسها البدويان بقيت على ما يرام، وبالرغم من أنهما يركبان فرسين بشعين ومهزولين، فإنهما وضعا ثقة مطلقةً بجواديهما، إذ قاما بترك اللجام على رقبة الحصانين، ولم ينظرا ولو لمرة واحدةٍ إلى الأرض الوعرة تحتهما، بل أبقيا نظرهما ثابتاً على بقعة سوداء بالكاد مرئية عالياً في الفضاء، لم تكن هذه البقعة سوى الصقر الشجاع الذي كان ينقض كالصاعقة من الغيوم إلى وسط الغزلان المصابة بالفزع، ويحط على رأس أجمل غزلان القطيع، ويمسك بمخالبه الحادة وكذلك بمنقاره جلد جبهة الغزال الهالك بطريقة قوية وحازمة. بعد ذلك يبدأ بمهاجمة عيني الطريدة المرتجفة بجناحيه الكبيرين القويين، ونتيجة ذلك يتخلف الغزال عن أصحابه السريعين، منهمكاً بمحاولة يائسة وغير مجدية لتحرير نفسه من معذّبه الوقح، إما بتحريك رأسه فجأة وفي جميع الاتجاهات أو بطعنة بقرونه الحادة، حيث ينسى المخلوق التعيس تماماً أمر الكلبين الكبيرين اللاهثين، اللذين أتيا يركضان باتجاهه وبسرعة لا توصف.

بعد دقيقة واحدة كان الغزال الجميل يتدحرج هنا وهناك مسبباً سحابة من الغبار، وسرعان ما كان مكبلاً على الأرض من قبل مطارديه الضاريين ذوي الأنياب.

أطلق الحيوان قليل الحظ صرخة موتٍ عاليةٍ ومحزنةً حقاً، وناضل جاهداً حتى وثب البدوي الذي كان أول الواصلين من على ظهر حصانه ووضع حداً لمعاناة هذا الكائن المسكين، وذلك بضربة سريعة وحادة قطعت عنقه. عند رؤية الدماء، قام الصقر الذي لم يرخِ قبضته طوال فترة الاشتباك وحتى عندما كانت حياته في خطر، قام بتغيير وضعيته استعداداً للطعام من اللحم القوي الرائحة الخاص بضحيته التي هاجمها بضراوة خاصة بصنفه. لم يتذوق الطائر المغوار طعاماً منذ ثلاثة أيام، إذ يتوجب على مربّي الصقور أن يجوّعوا طيورهم وكلابهم ليحثوها على ملاحقة أية طريدة كانت،

وأحياناً لا يطعمونها حتى بعد أن يمسكوا بطريدتهم، وذلك بهدف إجبارها على اصطياد طريدة ثانية وثالثة في اليوم نفسه، إذ إنها لن تفعل ذلك بعد أن تشبع جوعها.

بعد أن قضي على الغزال، بطح الكلبان الشجاعان نفسيهما على الأرض لاهثين بثقل وألم شديد كما كان يبدو، فقد كانت المطاردة طويلة وعنيفة. مع ذلك، سرعان ما قام الصبي البدوي بإعادتهما إلى وضعهما السابق وذلك بعد أن رشّ بعض الماء فوق رأسيهما وصدرهما ومعدتهما، وكانت المياه التي يحملها على سرج حصانه داخل الكيس الجلدي من أجل تلك الغاية.

بعد حوالي ربع ساعة من الراحة، ربط الصبي الغزال إلى سرج حصانه، وتابعنا سيرنا ببطء إلى المدائن، ورغم أن الفترة لم تكن أكثر من ساعتين بعد شروق الشمس، فإن حرارة أشعتها كانت قد بدأت بالارتفاع تدريجياً، إن البدو نادراً إن لم يكن أبداً ما يطاردون الغزلان بعد شروق الشمس، آخذين بعين الاعتبار عدم إرهاق خيولهم وكلابهم، وعدا عن ذلك أكدوا جميعهم أن حرارة الشمس في الصباح المبكر أكثر ضرراً بكثير لكل من الإنسان والحيوان من حرارة الشمس في الوقت المتبقي من النهار؛ حيث إن تغيّر الحرارة من الليل إلى النهار يكون أكبر بكثير ومباغتاً أكثر من تغير الحرارة بين المساء والليل.

في طريق عودتنا إلى المنزل شاهدنا على جانبينا من اليمين واليسار عدّة مجموعات أو قطعان صغيرة أخرى ولكنها كانت جبانة جداً؛ إذ إنها انطلقت هاربة قبل وصولنا إلى مسافة نصف ميل منها، إلى جانب ذلك كان الكلبان منهكين تماماً وواهنين، مما أعطانا أسباباً كافية لئلا نفكر في مطاردة أخرى.

ليس بعيداً عن طاق كسرى بكثير أجفلنا عدة دجاجات بريّات، يطلق عليها العرب اسم (حُبارى). كانت تلك الطيور الكبيرة ذات لون رمادي مائل إلى الزرقة والبياض، وتشبه إلى حدٍّ كبير الإوزة الضخمة، في شكلها وحجمها.

تحمل على رأسها قنزعة من الريش يمكن لها أن ترفعها كعرف البغاء، وهي جبانة

جداً، وتستعدّ للطيران بسرعة، ولكن سرعان ما تهدأ ثانية إذا لم تُلاحق. تعيش تلك الطيور على العشب وأنواع أخرى من الخضار، ولحمها لذيذ جداً، مع أنه ليس رطباً كلحم الإوزة البلدية. يصطادها العرب بواسطة الصقر، الذي يصطادها ببراعةٍ فائقة عندما يكون مدرّباً جيداً، حيث ينقض على رؤوسها ويقتلع أعينها. وعندما يهاجم الصقر الحبارى، تنفش ريشها تماماً كالديك الرومي، وتقوم بعدة محاولات خرقاء للصّراع مع منقاره؛ إذ تبدو لها فكرة القتال أفضل من فكرة الفرار هرباً أي (عش لتقاتل يوماً آخر). أما الصقر فهو يعتزم العمل فيقوم سريعاً بمباغتة وهجوم تلك الطيور الجبانة بإرادة لا تنتهي حتى يشلّ فريسته أو يجهز عليها، وهي لا تكون دائماً سهلة المنال؛ إذ إنّ طيور الحبارى الجبانة لديها القوة بقذف مادّة لزجة كريهة من تحت ذيلها، تقذفها بدقة فتاكة، فإذا ما وصلت إلى عيني غريمها تسبّب له العمى الفوري، وإذا نزلت على ريشه جعلته غير قادر على الطيران، ذلك عقاب يجعل الصقر يشمئز لدرجة أنه إذا قام طائر حبارى بخدمته بتلك الطريقة الحيوية، سوف لن يستدرج إلى مواجهة أحد الزبائن المقرفين مرّة أخرى، ولكن الصقر الآخر الصغير الذي يرافقنا قام باصطياد ثلاثة منها في طريق عودتنا دون أن يتعرّض لأيّة حوادث مقرفة.

يدرّب العرب الصقور بالطريقة التالية: أولاً يقومون تبجويعها، ثم يجبرونها من صغرها على أكل الطعام الذي يحصلون عليه (والمؤلف دائماً من اللحم النيء الطازج) من جبهة رأس غزال محنّط، حيث يكون اللحم مربوطاً به بحبل. وحالما يحط الصقر على رأس الحيوان المحنّط ويبدأ بتمزيق اللحم، يلوّح بالرأس ذهاباً وإياباً في كافة الاتجاهات، وذلك بهدف تعليم الطائر التشبث بفريسته وعدم السماح لها تحت أي ظرف من الظروف أن تحرّر نفسها منه.

بعد أن يتعلم الصقر القليل مما يتوجب عليه فعله في المستقبل، يُربط اللحم على جبهة غزال داجن حي أو معزاة بلون الغزال. سرعان ما يتم نزع القلنسوة الجلدية التي يجبرون الطائر على ارتدائها، يطير الصقر ليهاجم اللحم بضراوة، فيقحم براثنه في جلد الحيوان المسكين الذي يتعذب من الألم ويحاول بالطبع تحرير نفسه من معذبه

بتحريك رأسه بعنف وفي كافة الاتجاهات أو التدحرج على الأرض وغير ذلك.

أمّا الصقر المصمّم على التشبث جيداً باللحم، فيقوم بطبيعة الحال بالرفرفة بجناحه حفاظاً على توازنه، ويساعده ذلك على إرباك الحيوان وإصابته بالعمى، ويكون الطائر حينئذٍ متشبثاً بقوة برأس الحيوان. أحياناً مع أنه ليس غالباً، ينجح الغزال في قتل غريمه بطعنه بقوة بقرونه الحادة، أو بعصره عندما يدحرج نفسه بقوّة على الأرض.

كثيراً ما يصطاد العرب الغزلان دون الاستعانة بالصقور، وإنما فقط بكلاب الصيد، ولكنه عملٌ مميتٌ بالنسبة للخيول والكلاب المسكينة، ويمكن إنجازه فقط بعد عدة أيام من المطر، حينما يصبح سطح الأرض رطباً وممدوداً. عندها يدهن صيادو الغزلان أرجل الكلاب والخيول بالزيت بشكل كلي لئلا يلتصق الطين بأسفل أقدامها، بينما يلتصق في أسفل أقدام الغزال، ما يعوق سرعة الغزال إلى حدٍّ كبير، فيتم إدراكه من قبل الخيول والكلاب في آن معاً.

أما في الجو الجاف والأرض الصلبة فلا يوجد أي مخلوق آخر، سوى الصقر أو أحد أنواع الطيور فائقة السرعة، يمكنه المنافسة في السرعة مع أسرع رباعي أرجل على وجه الأرض. في بعض المناسبات، يصطاد البدو الغزلان على ظهر الجمال، إذ إنّ الغزلان تكون أقل فزعاً عند اقتراب الجمل من اقتراب الخيل. بقوة الصبر العظيم، وبالاستلقاء على وجههم كأنهم نائمون فوق ظهر جمالهم، يقترب البدو الماكرون مسافة مئة ياردة من القطيع، وحينها يستطيعون اصطيادها بسهولة بواسطة طلقة واحدة.

* * *

الفصل الحادي عشر

زيارة الأماكن التاريخية

عقرقوف - الجدار المتوسط - الأصل - نصب زُبيدة التذكاري - الحاجب المسن - مسجد الأعظمية - الهلال الذهبي - (ترومبا) مردود الحدائق - زيارة من قبل سيدات الحريم - الحلّة الغامضة - زيارة ليلية إلى فندق منامة - بنات آوى - ملاحقة البدو - مَحوَل - استقبالنا - الدليل المذهول - الروابي - الوجبات الفخمة - مسكن الوالي (المحافظ) - استحمام الجنود - النهار.

بعد عدة أيام من رحلة صيد الغزال قمنا بجولة ممتعة أخرى إلى آثار (عقرقوف) الواقعة على بعد اثني عشر ميلاً شمال غرب بغداد، على الضفة الغربية لنهر صغير يدعى نهر الصّقلاوية، وتبدو تلك الآثار أنها كانت في السابق قناة تصل نهر الفرات بنهر دجلة.

انطلقنا من بغداد قبل بزوغ الفجر بقليل، كان عددنا خمسة أشخاص، ويرافقنا خدم بعددنا يحملون التجهيزات، وجميعنا كنا على ظهر الخيول. كان القسم الأوّل من طريقنا يمر على طول الضفة اليمنى لنهر دجلة الجميل، محاطين بحدائق دائمة الخضرة وأشجار النخيل العالية، حتى وصلنا إلى (الخور) وهو رافد يميني مترع لدجلة، ويلتقي به تحت مدينة بغداد تماماً. وهنا تفسح الحدائق وأشجار النخيل مجالاً لنمو تجمعات ضخمة من العشب الأحمر الطويل، يغطي بكثافة ضفتي الجدول المستنقعي الذي يبدو أنه كانت هناك قناة تصله سابقاً بنهر الصّقلاويّة المذكور في الأعلى.

كانت ضفافه القصبية تعجّ على نحو جميل بالبط البري والإوز والبجع وطيور الكركي والعديد من الطيور المائية، وقد اصطدنا أعداداً كبيرة من طيور النوع الأوّل. عند وصولنا إلى عقرقوف أصبنا بالإحباط الشديد لرؤيتنا أنّ كل ما كان مرئياً من الآثار هو مجرد أكوام من التراب أو الرّوابي التي كان معظمها منخوراً بالثغرات التي حفرها العرب بحثاً عن اللقى القديمة.

كان أحد تلك الأكوام أكثر من البقية بقليل، ويعلو قمته برج مربع منخفض لا بدّ أنه كان ذا ارتفاع لا بأس به في السابق، ولكن الثلاثة أو أربعة آلاف سنة التي مضت على وجوده، كان لها أثر فعال في تقليص البرج - أحد أروع آثار الفن العمراني في تلك الفترة - إلى أبعاده الحالية التي بلغ بها مئة قدم في الارتفاع، وثمانين قدماً في المحيط.

بني هذا البرج من القرميد المجفف بالشمس الذي تدخله طبقات من الطين المتحجّر، وأعشاب القصب، وكان الجزء الأعلى منه لا يزال مصاناً جيداً مقارنةً مع باقي الأجزاء، إذ إنّ أساسه كان يتفتت سريعاً إلى قطع، وذلك بسبب التنقيب المستمر لسكان المنطقة بحثاً عن الكنوز والآثار.

بدا على البناء أنه لم تكن فيه أية نوافذ، ولم تكن هناك أية علامة تدل على وجود فتحات للنور، وذلك على الأقل في الجزء الذي لا زال موجوداً من البرج.

الشيء الذي أدهشني أكثر في مظهر تلك الآثار الاستثنائية، هو حقيقة أنه لم يكن هناك أيّة فتحات مرئية تشكل المداخل والمخارج إلى البرج، ويقول بعض العرب الذي قاموا بتسلق البناء من الخارج إن الجدران سميكة إلى حدٍّ كبير، ولكن عدم وجود فتحة دخول إلى البرج، سببه الحطام المتراكم من القرميد والطين المختلط بالرمال. يقول علماء الآثار: إن البرج كان يستخدم برجاً للمراقبة وحصناً في آن معاً.

حتى في وضعه الحالي وارتفاعه المتقلّص، يسيطر البرج على مشهد يفوق مئتي ميلٍ مربع، فوق الوادي المنبسط تماماً لنهري دجلة والفرات.

يُعتقد أن عقرقوف يعود إلى زمن بعيد جداً، ولكن التاريخ لا يذكره إلاّ مصادفةً ولا يذكر تاريخ انهدامه أبداً. على مسافة اثني عشر ميلاً أعلى السهل، حيث عادت البلاد تتخذ مظهرها الصّحراوي، تمتد آثار الحائط المتوسط الشهير، الذي يطلق عليه العرب اسم سدّ نمرود، الذي وصلنا إليه بعد ساعة من الجري السريع على ظهر الخيول، عبر السّهل الرهيب المقفر والموحش امتد هذا الحائط في السابق عبر البلاد، من الضفة الغربية لنهر الفرات، متصباً بين هذين النهرين العظيمين حتى يصل إلى الضفة الشمالية لنهر دجلة.

تظهر آثار هذا الحائط الضخم من بعيد جداً، وتشبه إلى حدٍّ بعيد سلسلةً طويلة من التلال الشاهقة المنحدرة، ذات القمم المسطحة والمساوية في الارتفاع، أو تشبه آثار حائط (سلمان پاك) التي وصفتها سابقاً في حديثي عن آثار طيسفون وسلوقية.

إنّ الحائط المتوسط، كالحائط الآخر، عبارة عن مجرّد حائط ترابي، ولكنه ذو حجم هائل، إذ يبدو ذلك من الآثار المتبقية على الأرض، ولا بدّ أن ارتفاعه الأصلي كان مئة قدم على الأقل، وسماكته كانت تتراوح ما بين ثمانين إلى مئة قدم، ومن ستين إلى سبعين ميلاً في الطول.

التخيم في ظلال سور «المدائن»

حسب دلالة الاسم العربي لهذا السدّ، يفترض أنه بني من قبل نمرود، وهو أحد الحكّام الأوائل لإمبراطورية بابل أو كلدان. وحسب الأقاويل المنقولة، كان هذا الجدار محاطاً بأبراج ضخمة، أو قلاع مبنية من الطين، ومتوضعة على مسافات منتظمة البعد عن بعضها البعض، وكانت تلك القلاع على مدار السنة مربطاً عسكرياً لأعداد كبيرة من الجنود البابليين. أما بالنسبة لنشأته وأصله، فقد اختلف المؤرخون وعلماء الآثار بشكل كبير في آرائهم؛ فبعضهم يعزوه إلى نمرود كما هو مذكور سابقاً - الذي حسب تعاليم الكتاب المقدّس كان قد حكم البلاد حوالي سنة 2200 قبل الميلاد - وآخرون يرجعون تاريخ إنشائه إلى حوالي 1000 قبل الميلاد، واكتماله إلى 700 ق. م. ولكن الرأي الآخر غير صائب على الأرجح. مهما يكن فمن المؤكد أن هذا البناء العملاق يعود إلى مئات آلاف السنين من تاريخ البشرية، وما زال ثابتاً منذ مئات القرون ربما. وقد اعتبره اليونان الدقيقون أحد عجائب فن البناء في العالم.

كان هذا الحائط دون شك حاجزاً منيعاً عندما لم تكن فكرة المدفعية وأسلحة البارود مطروحةً بعد، وقد دافع هذا الحائط عن البلاد بشكل أفضل من جيش مغوار وجنودٍ مستميتين. ولا شكّ أنه كان مهمة صعبةً جداً بالنسبة للغزاة. مع ذلك فقد تركت براثن الزمان علامات محزنة فوق هذا الأثر التاريخي القديم، إذ إنه بالكاد يصل الآن إلى نصف حجمه الأصلي، وقد استوى تماماً مع الأرض في عدة مناطق ولعدّة أميال، ولكن لم يتبيّن حتى الآن ما إذا كان سبب دماره من فعل إنسان أو زلزال أو فيضان.

الشيء الذي فاجأني بشدة عند زياني للحائط المتوسط، هو المحيط الواسع الذي لم يكن فيه أي ترع أو تجاويف، باستثناء القنوات المجاورة للحائط، والتي دلّت على أن الكميات الهائلة المتطلبة من التراب لبناء الحائط العملاق كانت مأخوذة من تلك القنوات التي تقطع هذا الجزء من البلاد وكانت مجلوبة إلى تلك القنوات إما من أماكن بعيدة جداً أو من التلال الواسعة المنتشرة فوق السهول، وقد سوّيت تلك التلال تماماً لتسد الحاجة الكبيرة من التراب المطلوب، وقد لاحظت هذه المزيّة قرب حائط سلمان باك.

بعد مغادرتنا للحائط المتوسط قرابة الساعة الثالثة بعد الظهر، ومسيرنا مسافة عشرة أميال باتجاه شمالي غربي، وصلنا إلى تلّ الحير Tell Heir وهي قرية عربية صغيرة على الضفة اليمنى لنهر دجلة، حيث أرحنا خيولنا لمدة ساعة من الزمن، ثمّ تابعنا رحلتنا، فتبعنا الطريق المتجه جنوباً على طول ضفتي النهر العظيم، ووصلنا إلى بغداد تماماً قبل أن تغلق البوابات من أجل الليل. بعد ثلاثة أيام قمنا بزيارة إلى نصب زُبيدة التذكاري، وهو عبارة عن ضريح ضخم يقال إنه تم إنشاؤه من قبل الخليفة هارون الرشيد، تخليداً لذكرى زوجته المفضلة، التي توفيت في ريعان شبابها وجمالها الأنثوي، وفي تلك البقعة بالتحديد.

شُيّد الضريح على بقعة رملية مرتفعة قليلاً، ويقع حوالي ثلاثة أميال غربي بغداد، بين نهر دجلة وجدول (الحور)، قرب نقطة اجتماعهما، كان النصب عبارة عن بناء مربع مركب من قطع طينية كبيرة ذات لون رمادي مصفر، وتبلغ الواحدة حوالي مئة قدم من كل جانب وثلاثين قدماً في الارتفاع تقريباً. بدا أن الغاية من هذا البناء أن يكون قاعدة لبرج كبير مستدير ولولبي الشكل، مقطوعاً من القمة بشكل أفقي، الطول المحتمل لهذا النصب أو الضريح بما فيه البرج كان يتراوح ما بين مئة وعشرين ومئة وأربعين قدماً.

كان سطح البناء السفلي أو القاعدة مسطحاً، وعلى كل زاوية من زوايا تلك المنصة برزت قبة صغيرة تشكل السقف أو القنطرة لغرفة صغيرة تحتها، أما الوصول إلى قمة البرج فقد كان من الداخل؛ إذ إن عرض التعاريج اللولبية المحيطة بالبرج بالكاد يتجاوز ثمانية عشر إنشاً، وهو فراغ أصغر من أن يسمح بالصعود من الخارج.

لم يكن هناك سوى باب واحد للبناء بكامله، وليس هناك أي نوافذ على الإطلاق، إنما يسمح بدخول الهواء والضوء عن طريق سلسلة من الفجوات الصغيرة الموزعة

في أنحاء مختلفة من المبنى.

يسمح للمسلمين فقط الوصول إلى داخل البناء الذي يشبه المسجد المألوف - كما ذكرت سابقاً.

كان حارس البناء درويشاً أو شيخاً مسلماً مسناً ذا شعرٍ أشيب، ويقال إنه لا يغادر المبنى أبداً. قمنا أيضاً بعدة زيارات ممتعة جداً على ظهر الخَيل، إلى جامع المعظّم[1] (الأعظميّة) EL Madem الذي يقع على مسافة أربعة أميال فقط شمالي بغداد، وبالكاد يبتعد ميلاً واحداً عن الضفة اليسرى لدجلة.

يتّصف هذا الجامع بكونه أجمل أماكن العبادة لدى المسلمين، ليس فقط في بغداد وإنما في جميع أنحاء بلاد الرافدين. إنه بناءٌ مربع كبير الحجم، وقد كانت مآذنه الطويلة والرفيعة وقبابه الكبيرة الواضحة مزخرفة بشكل فائق الجمال بالفسيفساء الملوّن بالأخضر والأزرق والأصفر والأسود، والمغطى بطبقة من الزجاج، مما يجعله يتلألأ كالجواهر في أشعة الشمس. عالياً فوق هذه يتألق الهلال الذهبي، شعار المسلمين، ويمكن رؤيته من البعيد البعيد في الصحراء، ليكون بمثابة نجم مرشد أو بوصلة بالنسبة للمسافر المرهق في المحيط الرملي، والذي يجلس على سفينته الحيّة الجمل العربي المخلص.

تحيط بمسجد المعظّم (الأعظميّة) EL Madem ومن جميع الجوانب حدائق مليئة بأشجار النخيل الطويلة والنحيلة، والجنبات وأشجار الفاكهة المغدودنة.

يقال إن مسجد المعظّم (الأعظميّة) EL Madem هو مكان قبور العديد من خلفاء بغداد، وهو كبقية أماكن تعبّد المسلمين، لا يسمح بدخوله لغير المؤمنين. إن المسجد الوحيد الذي دخلته في حياتي هو مسجد السلطان حسن في القاهرة بمصر، وأعتقد أنه المسجد الوحيد الذي يسمح بدخوله لجميع الملل.

(1) المقصود مسجد الأعظميّة، نسبة إلى الإمام الأعظم أبي حنيفة النّعمان. ولقد التبس على الكاتب تسميّة باب المعظّم الذي يفضي إلى محلّة الأعظميّة (وسمّي بالمعظّم نسبة إليها) فظنّ لوكر أنّ اسم المسجد ذاته (المعظّم).

تقـع بيـن مـسـجد المعظّـم (الأعظميّـة) EL Madem والضفة اليـسـرى لنهر دجلة حدائـق "Tromba" (ترومبـا) التي تعود إلى الحكومة التركيـة، أو بمعنى أدق، تدّعي الحكومة التركية ملكيتها بالطريقة الاعتباطية التي عادةً تحسـم بها النزاعات المتعلقة بـ (هذا لي وهذا لك).

تمتدّ هذه الحدائق الجميلة على نطاقٍ واسـع، ورغم أن هنـاك بعض المصاعب في إبقائهـا منظّمـة، فإنها مليئة بأجمـل الزهور وأطيب الفاكهة التي يمكـن أن تنتجها تلك المنطقة الخصيبة عندما تروى بشـكلٍ جيد. إن الأرباح السـنوية العائدة من بيع الزهور وخاصـةً الـورد واليـاسـمين وكذلـك البرتقـال والليمون والتمـور والتـوت والجوافة والخوخ والدراق والأعناب والشـمام والخيار.. وغير ذلك مدهشـةٌ فعلاً. يوجد قرب المدخل شـيءٌ كبيتٍ صيفي أو سـرادق، تتردّد عليه جماعة حريم الباشـا اللاتي تزرن تلـك الحدائـق باسـتمرار، طبعاً لا يـؤذن لأحـدٍ غيرهن بالدخـول أثنـاء زيارتهن. في مناسـباتٍ كتلك تشـكل دائرة النـسـوة في مؤسـسة الباشـا موكباً كبيراً ومسـلياً، وتكون سـيدات الحريم متسـترات بحذر، ويركبن منفرجات السـاقين - وهي عادةٌ معروفة عند نسـاء آسـيا وإفريقيا - على حميرهنّ الناصعة البياض والمغطاة بغطاءٍ مزركشٍ للغاية، وتلك الحمير هي من سلالةٍ خاصة موجودة فقط في بغداد والبصرة والكويت، مرغوبة فقـط لأحجامها وميزاتها الفائقة عن غيرها، لذلك فهي مطلوبة بكثرة في بلاد الرافدين وجزيـرة العـرب وسـوريا. يحيط بالفارسـات الإناث المسـرورات مـن كل الجوانب عـدد من الخصيان، معظمهم زنوجٌ نوبيون وحبشـيون، وهـم بمثابة حرّاس شـخصيين مدججيـن بالسـلاح، ويبـدون خطيرين إلى حدٍ ما على ظهـور خيولهم العربية الجميلة التي تثب بالحماس. رغم ذلك فإن هؤلاء الأشـخاص البارزين ليسـوا مستميتين كما يظهرون؛ إذ توجد في سمات شخصيتهم الحقيقية أقصى درجات الجبن والانحطاط، وليـس بإمـكان أي واحـدٍ منهم في حالات الخطـر أن يجمع الشـجاعة الكافية للدفاع عن النسـاء السيئات الحظ الموضوعات في أمانتهم، إنّما سـيستخدم على الفور جواده الخارق في إبعاد نفسه قدر الإمكان عن مشهد الخطر.

بعد أسبوع أو أسبوعين من زيارتنا إلى (عقرقوف) و (سدّ نمرود) قمنا بتحضيراتٍ لزيارة بابل[1] المكتنفة بالأسرار! تلك المدينة العملاقة التي مرّت عليها أربعة آلاف سنة، نصف هذه المدة تقريباً في صمتٍ وعزلةٍ كئيبين.

كنا خمسة أشخاصٍ يرافقنا حارسان تابعان من أبناء البلد، جميعنا نمتطي خيولاً مجهزة جيداً، بدأنا رحلتنا مساء السبت من بغداد، باتجاهٍ جنوبي على طريق (الحلّة)، عندما خرجنا من بوابات بغداد كانت الشمس لا تزال فوق الأفق، وقد أعطتنا الفائدة التامة من أشعتها الحرّاقة عندما ظهرنا من تحت آخر شجرة مُظللة من أشجار النخيل التي تنمو على طول الطريق، وترشد كذلك إلى الطريق على طول النهر، ولكن سرعان ما وجدنا أنفسنا في وسط السهل المقفر عندها علمنا أنه علينا المسير تحت ضوء القمر حتى نهاية الليل تقريباً، مشينا بتمهل حتى حوالي الساعة السابعة مساءً، حينما بدأت كرة النهار المتّقدة بالاختفاء بعظمة شيئاً فشيئاً وراء سلسلة التلال الرملية المنعزلة في أقصى نقطة من الأفق الغربي، والتي احتفظت قممها بمسحةٍ ذهبيةٍ برّاقة لوقتٍ طويلٍ بعد المغيب.

حالما ارتفع القمر ضاعفنا سرعة تقدمنا، وبعد المسير حتى الساعة التاسعة تقريباً فوق أرضٍ مسطحةٍ تماماً ومقفرّة، ومن الجلي أنها غير مسكونة على الإطلاق، سمعنا نباحاً بعيداً لعدّة كلاب، وبعد ذلك بقليل لمحنا على مسافة ميلٍ تقريباً المعالم المظلمة للخان، أو لنُزُل Bironoos (بيرونوس) الذي يبعد حوالي اثنين وعشرين ميلاً عن بغداد، حيث أعطينا خيولنا استراحةً لعدة ساعات.

كان الليل جميلاً وصافياً ومبهجاً، وأصحابنا كانوا بأفضل مزاجٍ، فاغتنمنا لأنفسنا فرصة إلقاء نظرة على النزل؛ إنّه بناءٌ قرميديٌّ كبيرٌ ومتين، تبلغ مساحته حوالي متي

---

(1) نحيل القارئ إلى ما ذكره الرّحالة البريطاني المعاصر للوكر، هنري سواينسون كاوپر H. S. Cowper في رحلته المثيرة من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي عبر الجزيرة الفراتية، عام 1893. وكذلك إلى تحفة الآثاري البريطاني أوستن هنري لايارد: «مكتشفات أطلال بابل ونينوى». وكلاهما سيصدران تباعاً في سلسلتنا هذه.

قدم مربع، وله جدران يبلغ ارتفاعها عشرون قدماً، وسماكتها تتجاوز ثلاثة أقدام.

على ارتفاع خمسة عشر قدماً عن الأرض وعلى كامل محيط البناء كان هناك صف من المنافذ أو الفتحات الصغيرة التي تسمح بدخول الهواء والنور، وكانت تلك هي الفتحات الوحيدة الموجودة في الجدران، باستثناء البوابة الخشبية الثقيلة المصفحة بالحديد التي تبقى مفتوحةً كل النهار ولا تغلق إلاّ في المساء. فوق الباب وُجد كلام منقوش بحروف عربيةٍ كبيرةٍ زرقاء تخبر القارئ أنّ هذا النزل أو الخان شُيِّد على نفقة تاجرٍ فارسي ثري؛ ليؤمّن الحماية والمأوى للمسافرين المتعبين، وهو هديةٌ مناسبةٌ جداً في بلادٍ تطوف فيها باستمرار جماعات البدو الخارجة عن القانون عبر السهول والصحارى لتهاجم وتنهب المسافرين المنفردين أو القوافل الصغيرة، وترتكب الجرائم الوحشية وأحياناً بالقرب من بوابات بغداد. هناك كان المأوى مؤمناً لكل من الإنسان والحيوان خلال الساعات الأكثر حرجاً من النهار في تلك السهول القاحلة؛ حيث لا يوجد شجرة ولا بناء يمكن أن يمنح الظل، ولا حتى قطرة ماءٍ واحدة في نطاق عدة أميال. يتألف داخل النزل من سلسلة من الغرف المقنطرة والدهاليز حيث يتمتع الإنسان والحيوان بالحماية من أشعة الشمس الحرّاقة. تحتلّ وسط البناء باحةٌ كبيرةٌ مكشوفةٌ إلى السماء، وفي وسط تلك الباحة يوجد حوض أو بئر جرّ يبلغ عمقه حوالي أربعين أو خمسين قدماً، تسحب منه المياه بواسطة دلوٍ جلدي مربوط إلى حبل. عند كل زاوية داخل البناء هناك سلم يؤدي الى سطح مستوٍ والذي كجميع الأبنية العربية يستخدم كمكان للاسترخاء والراحة في الليل.

بعد غياب الشمس مباشرةً يقوم جميع النزلاء بمدّ سجاداتهم أو حصائرهم القشية بانتظام، ويخلدون إلى النوم، فالحرارة المنبعثة من الأرض تجعل الجو في تلك الغرف المقنطرة حاراً جداً في المساء ويصبح من المستحيل النوم في الأسفل، إضافة إلى ذلك هناك آلاف البعوض وأم أربع وأربعين والعقارب والفئران والجرذان التي تخرج من الفجوات الموجودة في الجدران أو من الأرض مباشرةً بعد المغيب. ولكن النائمين على السطح لن تزعجهم ولا حتى واحدة من تلك المخلوقات البغيضة؛ إذ

يمكنك هناك الاستمتاع بالنسمات اللطيفة للهواء العليل، وبجمال ضوء نجم الليل، وتلك المتع يمكنك رؤيتها فقط في جزيرة العرب وبلاد الرافدين.

عندما وصلت جماعتنا إلى النزل، كانت الباحة مليئة بالخيول والبغال والحمير والجمال ومعظمها كانت مسرجة ومجهّزة لمتابعة رحلتهم. بعد ذلك فوراً اكتشفنا أنّ معظم نزلاء الخان كانوا من الفرس ودون أن نرى أحداً منهم حينها، فقد كانوا جميعهم تقريباً نائمين على السطح.

من السهل جداً في جزيرة العرب أن تكتشف ملّة وجنسية الشخص المسافر، وذلك من مظهره والتجهيزات الموجودة على الحيوان الذي يركبه.

الأعداد الكبيرة من البغال في الباحة والعديد من التختروان (الهودج) ـ وهو عبارة عن كرسي سفر محمول للسيدات والعجزة ـ والأجراس الكبيرة المربوطة إلى الكرسي والتي تشبه الإجاص، والخيول الوحشية ذوات العظام السميكة والرقبة القصيرة التي تصرخ وترفس ويعض بعضها بعضاً دون تمييز، والسروج واللجامات المميزة، والصوت الطنّان لبعض سائقي البغال الناعسين – ولكن حتى الآن غير مرئين – وهم يلقون بلسان غريب لعنات وشتائم مرعبة على الخيول المزعجة – كل هذه الحقائق جعلتنا نلاحظ مباشرةً أن القسم الأكبر من أصحابنا المسافرين كانوا من الفرس – ترافقهم العديد من فتيات الجنس اللطيف، وكانوا ذاهبين في رحلةٍ مقدسةٍ إلى كربلاء أو (مسجد الحسين) وهي مكة الفرس والأفغان والتركمان الذين لا يستطيع العديد منهم الذهاب إلى مكة الحقيقية.

يقع خان طويبة تماماً عند النقطة التي يتفرع منها الطريق إلى فرعين؛ الفرع المتجه إلى اليمين هو الطريق المباشر إلى كربلاء والفرع المتجه إلى اليسار يقود إلى الحلّة. تقع كربلاء على بعد حوالي خمس وعشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي، كما تقع الحلّة على بعد خمس وعشرين ميلاً مباشرةً جنوب هذا النزل.

دفعنا فضولنا إلى التأكد من صحة اعتقادنا بأنّ معظم نزلاء الخان كانوا من الفرس

إلى تسلّق السلالم والصعود إلى السطح أو المنصة، وعرفنا جيداً أننا سنجدهم كلهم أو معظمهم يغطّون في نومٍ عميق. عندما وصلنا إلى السطح وجدناه مشغولاً بأكثر من مئتي شخصٍ من الذكور والإناث، يتمدّدون على فراشهم أو سجاداتهم أو حصائرهم وبعضهم على عباءاتهم (ثوب طويل للسفر) والبعض على سروجهم وأمتعتهم، وظهر جلياً أنهم يغطون بالنوم جميعاً، باستثناء ثلاثة عبيد نوبيين.

لم يلحظ أحد وصولنا ولم ينخفض صوت الشخير المشوّش لبعض النائمين أثناء تحرياتنا على السطح. كان العبيد ينحنون إلى حدٍ ما أكثر من الجلوس قرب السلّم الذي صعدناه، استدار اثنان منهما نحونا بظهرهما الأسود العاري الرياضي المظهر، وكانا مشغولين بمحادثةٍ بلغةٍ غريبة وصوت منخفض بالكاد مسموع، أما الثالث الذي كان حتى لحظة ظهورنا يصغي بهدوء إلى الاثنين الآخرين، فقد تابع سحبه البطيئة والطويلة المتقلصة من نرجيلته شبه المهملة.

لم تبؤ نظرته المحدقة الثابتة والمعبرة بالفشل في جذب انتباه صديقيه اللذين استدارا نصف دورة على وركيهما، رمقانا للحظة، ثم تابعا محادثتهما بهدوء رغم أننا اقتنعنا بفرضيتنا بمرحٍ وفكاهة، لكننا كنا أشدّ الحرص على عدم إزعاج بقية أصحابنا المسافرين، فمشينا بصمتٍ تام إلى الطرف الآخر من السطح بحثاً عن مكان مريح نستلقي فيه.

عند مرورنا بهدوء عبر المسافرين، أتينا أولاً على اثني عشر تقريباً من الأرمن الذين كانوا جميعهم رجالاً صغار باستثناء واحدٍ أو اثنين، ظهر عليهم أنهم من سكان بغداد وتجار توابل؛ إذ دلّ على ذلك الرائحة القوية المنبعثة من الصّرر التي كانوا يستخدمونها عوضاً عن الوسائد.

كانوا جميعاً نائمين بعمق ومسلحين على نحوٍ سيّء؛ حيث رأيت بحوزتهم اثنين أو ثلاثة من بنادق (الجفت)[1] ذات الصناعة البلجيكية الرخيصة وبعض المسدسات

(1) الجفت عبارة تركيّة Çift دخلت العاميّة العربيّة في بلاد الشام عموماً، وتعني بندقيّة الصيد ذات السَّبطانتين بجفتّ أمس وتستخدم طلقات نثار الرّصاص (الخُردُق lead shot). ولعدم

النارية وحيدة السَّبَطانة.

بعد هؤلاء بقليل أتينا على جماعة من اليهود من السهل التعرف عليهم في ضوء القمر الصافي؛ وذلك من ملامحهم الخاصة التي تكشف فوراً أبناء العرق العبري في جميع أنحاء العالم، وسواءً قابلتهم في نصف الكرة الشرقي او نصف الكرة الغربي فإنك لن تضلّ أبداً في التعرف عليهم مباشرةً.

على الأرجح أن بعض التجار اليهود كانوا يتوجهون إلى (الحلّة) من أجل مقايضة عرب المناطق المجاورة على الآثار التي لا ينفك العرب يحفرون وينقبون عند موقع بابل القديمة. وإلى جانبهم تستلقي عائلة عبرية مؤلفة من أب وأم وابنتين في ريعان الصّبا.

عند ذهابهما إلى النوم كانت تلك الآخرتان حريصتين على عدم خلع خمارهما (الحجاب المربع الصغير المصنوع من شعر الخيل) ليس لإبعاد ضوء القمر عن أعينهما فحسب وإنما لتجنب التحديق بهما من قبل (المتطفلين) خلال نومهما. لسوء الحظ، لم تجدِ إجراءاتهما التحفظية نفعاً؛ فإما أنهما وجدتا الجو حاراً جداً ولا يطاق فكشفتا عن وجههما بشكلٍ طوعي، أو بينما كانتا تنقلبان من جنبٍ إلى آخر انزلقت قطعة القماش القاسية. في جميع الأحوال حدّقنا في تلك الوجوه الساحرة التي كانت تعابيرها الملائكية المسالمة قد ازدادت بشكلٍ طبيعي بتأثير ضوء القمر الهادئ.

فقط السيدة المسنة التي عرفناها مباشرةً من التجاعيد الموجودة على يديها ورقبتها، احتفظت بخمارها ثابتاً في مكانه المناسب. لقد خشيت أن يسعل أحد أصدقائي المبتهجين، أو بطريقة ما يوقظ أو يفزع هاتين الجميلتين النائمتين، ولكن بدا في تلك اللحظة أن إحساساً مفاجئاً بالرزانة عمّ فريقنا بكامله؛ فكانوا جميعاً هادئين إلى حدٍ

وجود مفردة مقنعة في العربيّة الفصحى آثرت استعمال هذا التعبير الشائع جداً. وعلى أيّ حال فالعبارة في الإنكليزيّة هي: Shotgun، وفي الألمانية: فليتِه Flinte، وفي مصر تسمّى: بندقيّة رشّ، وهذا تعبير غير دقيق على الإطلاق، لأنه يلتبس مع الأسلحة الرّشاشة. وفي الخليج يسمّى هذا السّلاح: شوزن، نقلاً عن الألمانيّة: Stutzen شتوتزن.

يمكنك من سماع أزيز البعوضة في الهواء.

لم يكن أي من اليهود مسلحاً، أو على الأقل لم نر أي أسلحة بالقرب منهم، وفي الواقع أعتقد أنها قاعدة أنّ اليهود لا يحملون السلاح أبداً، وعندما يتعرضون للهجوم سيقومون مباشرةً بتقديم كل ما يملكون حفاظاً على أرواحهم.

لطالما سافرت مع يهود شرقيين، ولم نلحظ أبداً أنهم يحملون أي نوع من السلاح مهما يكن، ولكن لا أستطيع أن أفسر السبب، فالبرغم من أن اليهودي في هذه الأيام نادراً ما يجعل من نفسه شخصاً بارزاً بشجاعته وبساله وولعه بالقتال، إلاّ أنّ مآثر أسلافه مثل شاؤول، وداود، وشمشون، وغيرهم كثير... تثبت تماماً أن الجبن والتخاذل ليسا آفة متوارثة في تلك الأمة.

قلّما يسافر اليهود وحدهم؛ إنما يضعون أنفسهم عموماً تحت حماية القوافل، أو يستأجرون رجالاً ليحرسوهم.

في الزاوية المقابلة للزنوج الثلاثة الذين كانوا يدخنون ويتحدثون، كان ضابط تركي مزنر بسيفٍ وعدة مسدسات ينام على سجادة، ويضع سرج حصانه موضع الوسادة، بينما تمتد حوله حصائر من القش انتشر فوقها ستة أو ثمانية جنود قذرو المظهر، يلبسون بذلاتٍ رثة ويخرخرون على نحو حيواني، يضع كل منهم يده على سرجه وبندقيته في متناول يده.

لا شك في أن هذا الحشد الصغير من الرجال كانوا حرّاساً للتجار الأتراك الأربعة، الذين كانوا ينامون محاطين بكومةٍ من الأمتعة والحقائب وغيرها من عدّة السفر، والذين بدا عليهم أنهم رجالٌ أثرياء، وذلك من فراشهم والجواهر التي يضعونها في أيديهم.

وهناك بعدهم تمدّدت مجموعة من حوالي عشرين بدوياً ذوي بشرة داكنة ونصف عراة تقريباً، كانوا يستلقون على عباءاتهم الصوفية الخشنة، وبدا جلياً أنهم مالكو الجمال العديدة الموجودة في الباحة أو أنها كانت موكلة إليهم، فقد دلّت على ذلك

لحاهم وشواربهم المهملة، وثيابهم الفضفاضة الخشنة، وأقدامهم العارية، وملامحهم الجامحة بشكلٍ عام، وذلك عدا عن أسلحتهم المؤلفة من الكثير من الرماح وأسلحة بدوية ذات طابعٍ خاص، والعديد من المسدسات ذات القدّاحة والسَّبَطانة الطويلة والرفيعة، والسيوف المعقوفة، والخناجر والكثير غير ذلك، وكل تلك الأسلحة موضوعة بالقرب منهم استعداداً لأي هجومٍ مباغت.

أما الجزء الأكبر من الطرف الآخر للسطح، فقد كان مغطىً بأناسٍ نائمين بدا واضحاً أنهم من جنسية فارسية، وكان تعدادهم مئة شخصٍ على الأقل. إن أجسادهم قوية البنية، وشعرهم الأسود الداكن، لحاهم وشواربهم اللامعة، راحات أيديهم وأظافرهم المطلية بالحنة، قبعاتهم الطويلة التي تشبه قالب السكر والمصنوعة من جلد الخراف، أثوابهم المحبوكة جيداً، سراويلهم الواسعة، جواربهم الملونة، أحذيتهم غريبة الشكل المصنوعة من القنّب، سيوفهم القصيرة المستقيمة المعروفة بذات الحدّين، مسدساتهم ذات السَّبَطانة الطويلة والرفيعة، خناجرهم العريضة المعقوفة الحادة والمطعّمة بترف بالذهب أو الفضة، كل ذلك كان كفيلاً بكشف هويتهم مباشرةً.

كان هناك حاجز من الأمتعة والصناديق والأسرجة والخيام وأدوات الطبخ يفصلهم عن نسائهم وأطفالهم الذين كانوا لا يقلون عن الخمسين، وذلك حسب الفراغ الذي يحتلونه، من خلال الفجوات الموجودة في ذلك الحاجز المؤقت، استطعنا رؤية بعض النسوة النائمات اللاتي يغطين وجوههن بملاءاتٍ بيضاء إسلامية. إنّ جميع النساء الفارسيات دون استثناء محتّم عليهنّ وبشكلٍ صارم عدم السماح لأي شخصٍ غريب برؤية ملامحهن. وفي هذا المجال إنهنَّ متحفظاتٍ إلى حدٍّ بعيد أكثر من جميع النساء الشرقيات الباقيات. ولكم وددنا لو نقارن بين ملامح الفتاتين اليهوديتين الجميلتين وبعض الجميلات الفارسيات لكننا لم نحظَ بتلك الفرصة، لذلك رأينا أنه من الحكمة الانسحاب بهدوء قدر المستطاع دون أي تأخير، بالرغم من أننا كنا مسلحين جيداً، ولسنا خائفين من القتال، لكننا عرفنا تماماً الشخصية الانتقامية المتعصبة عند الفرس، وخاصة عندما يتخيلون أن نسائهم قد تعرّضن للإهانة من قبل الكفرة، وعدا ذلك كان

عددهم يفوق عددنا بعشرين مرة على الأقل.

لقد كان التوقيت الأنسب لانسحابنا؛ إذ إننا ما كدنا نصل إلى الطرف الآخر من السطح حتى سمعنا صوت طلقتين متتابعتين، أيقظتا طبعاً جميع النائمين في الخان، فقفز معظمهم على أرجلهم وأمسكوا أسلحتهم بقوة معتقدين أن الخان قد تعرّض للهجوم من قبل البدو. ولكن كان جزعهم أحمق وغير ضروري برأي تاجر التوابل الأميركي التافه، الذي نهض خلال تحرياتنا على السطح ليروي عطشه، وفي طريقه إلى كيس الماء الجلدي المعلّق على الحائط رأى حيواناً ما، قد يكون ابن آوى أو ذئب الصحراء، يطوف بين الشجيرات المنخفضة الموجودة حول الخان، فأطلق عليه النار من سلاح العشرة دولارات الذي كان معه، معتقداً أنه سيحصل على مكافأة بسبب هذه الضربة.

كانت الساعة تناهز الثانية صباحاً عندما أتى مرافقونا ليعلمونا أن خيولنا أصبحت جاهزة لتكمل الرحلة، وبعد عشر دقائق انطلقنا خارج بوابات الخان وتقدّمنا بتمهل باتجاه الحلّة، حيث توقعنا أن نصل إليها قبل شروق الشمس؛ كونها تبعد خمساً وعشرين ميلاً فقط عن طويبة.

كان الليل لا يزال جميلاً وصافياً، ورغم أن الجو كان حاراً إلى حدٍّ ما كان هناك سكون مهيب يعمّ الصحراء تتخلله في بعض الأحيان الصرخة الحزينة لبعض طيور الليل غير المرئية التي تحوم فوق رؤوسنا. أحياناً كنّا نسمع ضجة صاخبة ونرى ظلالاً لقطيع من الغزلان الشاردة التي فزعت عند اقترابنا فاختفت بسرعة الرياح. كنا نرى بين الحين والآخر معالم مظلمة لزوجٍ من بنات آوى ينظران إلينا بمكرٍ وقلّة ثقة من على قمم بعض التلال الرملية المجاورة.

عندما كان موكبنا الصغير يمرّ بهدوء كانت تلك الحيوانات الماكرة تقف على مقربة من بعضها ومنّا أيضاً؛ حيث وجدنا صعوبة في الامتناع عن رميها بالنار، ولكن كنّا قد قررنا أننا لن نطلق أيّة طلقة غير ضرورية تحت أي ظرف من الظروف خلال مسيرنا الليلي، وذلك لتجنب لفت انتباه البدو وقطّاع الطرق الذين يطوفون البلاد على شكل

عصابات من خمسة إلى خمسين رجلاً قوياً على خيولهم الفريدة بحثاً عن الغنائم، وخاصة خلال موسم رمضان شهر الصيام العظيم عند المسلمين، ففي هذه الفترة توجد أعداد هائلة من قوافل الحجّاج الفرس المتجهين إلى كربلاء. إلاّ أن المسافرين الأوروبيين أقل عرضةً لهجماتهم من أي أقوامٍ آخرين، وسبب ذلك أن البدو يعرفون حق المعرفة أنّ الأوروبيين عندما يسافرون عَبر هذه البلاد يكونون دائماً مسلحين بشكلٍ جيد ومحروسين بشكلٍ جيد، وعموماً سيتفانون في القتال عندما يتعرضون إلى الهجوم، وفي حالاتٍ كهذه يعرفون جيداً كيفية استخدام البنادق والمسدسات.

ويعلم البدو أيضاً أن الأوروبيين نادراً ما يسافرون في تلك البلاد بغرض العمل، وإنما دائماً يسافرون من أجل المتعة، لذا نادراً ما يحملون النقود أو البضائع التي تستحق خطر مهاجمتهم.

إن البدوي حذر جداً عندما يكون وحيداً، والبدو عموماً يقاتلون فقط عندما يكونون بأعداد فائقة، ولكنّ رؤية البدوي لصديق له جريحاً أو مقتولاً أو حتى مخدوشاً خدشاً طفيفاً على جسده كفيلة بخفض معدّل الشجاعة لديه فوراً إلى درجة الصفر، فيختفي فجأة كالشبح تماماً كما ظهر فجأة على جواده السريع. في منتصف الطريق بين طويبة والحلّة مررنا بضفّتي جدولٍ ناضب، وهو رافدٌ لنهر الفرات. عندما كنا على مسافة مئة ياردة تماماً من تلك البقعة، أزعجت أعضاء الشم لدينا أكثر رائحة نتنة على الإطلاق، والتي عرفنا حسب تجربتنا السابقة أنها كانت منبعثة من جسدٍ ميتٍ ما إمّا لإنسان أو لحيوان، وقد قطعت مراحلَ متقدّمة من التفسّخ والتحلل، وموجودة في مكان ما في الجوار، ولكننا في بادئ الأمر لم نستطع أن نعرف أين. بعد عبورنا الجدول مباشرة لاحظنا على مسافة حوالي مئة ياردة إلى يميننا جسدين ميتين لبغلين أو حصانين ممدّدين على مسافة قريبة من بعضهما.

وكانا محاطين بثلاثة أو أربعة ضباع منهمكة بنشاط بالبحث والتحري فوقهما، وتلك الضباع كانت مصحوبة بما يقارب خمسين ابن آوى، لكنّ أولئك الأخيرة بقيت على مسافة لا بأس بها، منتظرة بتلهّف أن يحين دورها في الطعام. لقد لفت انتباهها

وقع خيولنا فانطلقت كارهة، ولكن كانت نيتها واضحة في العودة فوراً بعد انصرافنا.

كانت رؤية هذا التجمع من حيوانات الليل الطوّافة شيئاً كبيراً بالنسبة للسيد (P) الذي سدّد نحوها ضربةً أردى فيها أحد بنات آوى وجرح آخر، رغم الاتفاق القائم على عدم إطلاق أية رصاصة أثناء الليل إلاّ في حالات الضرورة القصوى.

لا أعلم إن كان الفضول أو التحذير الربّاني هو الذي دفع صديقنا الصيّاد للذهاب إلى المكان الذي اجتمعت فيه بنات آوى، ولكنه فور وصوله إلى هناك شاهد جثتين بشريتين تتمددان بين الخيول الميتة، فنادانا إلى هناك. مشينا في حدود عشرين ياردة من تلك البقعة المغمّة، ولكن تلك الرائحة النتنة الفظيعة التي جعلتنا نشعر بالغثيان وهيّجت خيولنا إلى حدٍّ ما منعتنا من القيام بأي تحرٍّ أقرب من ذلك.

رغم أن الجسدين كانا متحوّلين بعض الشيء على هياكل عظمية، فكل شيء كان يدل على أنهما كانا ضحيتين لعصابات قطّاع الطرق، إذ لم تكن عليهما أية قطعة ثياب أو أغراض وتجهيزات.

كان الرجلان التعيسان ملقيين جنباً إلى جنب قريبين من بعضهما ووجهاهما متجهان نحو الأرض، كما لو أنّ القتلة قد خشوا الالتقاء بالنظرة المحدّقة لعيون ضحيتيهم.

على الأرض الرملية المحيطة كانت لا تزال هناك آثار اشتباك وطبعات أقدام الخيول، وشربة مكسورة (وعاء الماء الفخاري)، وقطعة من حبل مصنوع من شعر الماعز، وهذا كلّ ما قد خلّفه السارقون وراءهم.

لا بدّ أن الجريمة قد حصلت قبل اكتشافنا لها بمدّة أسبوعين على الأقل.

لم يعد بإمكاننا تحمّل هذا الجو المقرف في تلك البقعة الموحشة، فتابعنا رحلتنا، متوقفين عن التفكير بتلك الطلقة غير الضرورية التي أطلقها صديقنا، ومشينا إلى الأمام متأملين في ذاك المشهد المبكي الذي رأيناه للتو، بعضنا يشعر بالنعاس، ولا أحد منّا راغب في التحدّث. وفي سبيل أن أبقي نفسي مستيقظاً وأخلّص نفسي من الرائحة الكريهة التي يبدو أنها لا زالت تلاحقني، قرّرت أن أمتّع نفسي بالتدخين بهدوء وقد

انضم إليّ صديقي السيد (J).

بعد أن حضّرنا السبيل (نوع من غليون التبغ العربي القصير) نادينا مصطفى (أحد مرافقينا) ليعطينا شعلة، ولكن في محاولة لإشعال النار أوقع قطعة الفولاذ على الرمال، وكان مضطراً للترجّل للبحث عنها، وانقضى بعض الوقت قبل أن يتمكن من إيجادها، مما جعلنا نتخلّف قليلاً عن بقية الموكب ولكن ليس أكثر من متي ياردة. عندما اقتربنا من الفرات بدأت المنطقة تتخذ طابعاً متموجاً بعض الشيء، وذلك يعزى إلى وجود سلسلة من الروابي المنخفضة المتوزّعة هنا وهناك. مشيت إلى جانب السيد (J) وكلانا نستمتع بغلايينا، وكلٌّ منا مستغرقٌ في أفكاره الخاصة، وعندها توهمت مرّة أو اثتين بأنني رأيت رأس بدوي يظهر من فوق قمة تلة رملية مجاورة، ويختفي مباشرة، ولكن عندما فتحت عينيّ الناعستين بثبات ونظرت في ذاك الاتجاه، لم أستطع رؤية شيء سوى الرمال المقفرة.

هذا جعلني أعتقد أنني تخيّلت أحد حيوانات ابن آوى الطوّافة على أنه رأس بدويٍّ داكن، وكيلا يعتقد أصحابي أنني مبتدئ أو جبان، لم أقل شيئاً عن ذلك حينها.

فارتفعت قليلاً عن الركاب، وهذه المرة كنت متيقناً ولم أكن مخطئاً، وذاك الذي أعتقدت أنه ابن آوى، لم يكن في الحقيقة سوى رأس رجلٍ مغطى بالكوفية البنية الخشنة المعتادة التي يلبسها البدو في تلك البلاد.

عندها أفضيت بشكوكي مباشرةً إلى السيد (J) ولكن لم أكد أفتح فمي حتى قام مصطفى الذي كان يسير بجانبي والذي لم يفهم أي كلمة مما أقول بإلقاء نظرة إلى الاتجاه نفسه - وقد تكون مصادفة - وفجأة انعطف بسرعة فائقة حتى رأيناه بعد دقيقة واحدة منحرفاً تماماً عنّا، ومتجهاً نحو التلة الصغيرة التي لا تبعد أكثر من مئة ياردة عن يسارنا، وعندما أوقف حصانه على نحو مفاجئ على قمة التلة أطلق عيارين نارين سريعين متاليين، وسرعان ما كنا على جانبه، لنصل في الوقت المناسب ونرى ثمانية عشر أو عشرين بدوياً يفرّون كالبرق فوق السهل بأقصى سرعتهم ومواسير بنادقهم اللامعة، ونصول رماحهم تتوهج في ضوء القمر الساطع، ثم تلاشوا أخيراً في

المسافات البعيدة، لم أر في حياتي قط فرساناً يركبون خيولهم بسرعة فائقة كتلك، ففي أقل من دقيقة واحدة كانوا خارج نطاق الرمي ولكنَّ ذاك النذل داكن اللون الذي جعل من نفسه مستكشفاً لتلك العصابة المتمرّدة لم يكن كذلك؛ لا بدّ أن حصانه قد أصيب بطلقة مصطفى، فقد رأينا ذاك الخيّال يبذل جهده في زيادة سرعة حصانه، وكان بإمكاننا أن ندركه بسهولة ونجهز عليه، لولا خشيتنا أن يكون الفرار المفاجئ للآخرين ليس إلا (خدعة حرب) ليبعدونا عن بقية أصحابنا، ويجرّونا إلى كمين، وهي حيلة غالباً ما تستخدم من قبل هؤلاء القوم الماكرين. حتى وان كانت هذه نيتهم، فلا بدّ أن هؤلاء المتشردين الجبناء قد توقعوا وابلاً دقيقاً ومباشراً من رصاص بنادقنا ومسدساتنا، إذ إنهم عند فرارهم المستعجل هذا، انحنوا على الجانب اليمني لخيولهم حتى لم يعد أي جزء من جسدهم مرئياً، وبتلك الطريقة المربكة تناثروا في جميع الاتجاهات، وكانوا يغيّرون في كل دقيقة اتجاه الجري الهائج لخيولهم، لكي لا يجعلوا من أنفسهم هدفاً ثابتاً أمام أعيننا.

كان لتلك الحادثة أثر لمعالجة جمع أفراد جماعتنا من نعاسهم، بوقت قصير رائع، ولم يعلم العضو الرئيسي في حملتنا ما المسألة لكنه سرعان ما انضم إلينا ووصل تماماً في وقته ليشهد اختفاء أولئك الهاربين في البعيد.

بالطبع، أثنينا جميعاً على مصطفى (الذي شعر بالغرور كالطاووس) لحدّة ذهنه وتصرفه الفوري وشجاعته، ولقاء ذلك وعدناه ببقشيش سخي (إكرامية) وهو مسدّس كان قد رغب به بشدّة، وقد قدمناه له فور عودتنا إلى بغداد.

رغم أننا كنا متأكدين تماماً من أن هؤلاء المتمردين لن يجرؤوا على إظهار أنفسهم أمامنا مرّة أخرى في تلك الليلة، فقد رأينا أنه من الحكمة أن نبقى من الآن فصاعداً إلى جانب بعضنا.

فيما بعد، روى لنا مصطفى عدة حوادث كتلك السابقة، ومعظمها كان قد شهدها بنفسه في أماكن مختلفة من جزيرة العرب وسوريا وبلاد الرافدين، وبذلك أصبح يعرف جيداً هؤلاء الماكرين المستخدمين من قبل البدو المتمرّدين، ليشعروا ضحيتهم

بالأمـان، وقال مصطفـى: إنه في حالتنا كان قـد لمح صدفةً رأس الوغـد الداكن الذي يـبـرزه قليلاً من على قمة سلـسـلة الهضـاب الرملية المنخفضـة، وأدرك من فوره مدى خطـورة أن يفاجئونـا، لذلـك قطع الطريق من أمـام رفاقنا ورأى أننا لـن نخرج من هذا المـأزق إلا إذا قلبنـا الموازيـن باتجاهنا، وفاجأنـا الذين كانوا سـيفاجئوننا، فقد عرف تمامـاً الآثار التي سـتخلفها بعض الطلقـات المصوّبة جيّداً على عصـب جماعة البدو عندما تتم مباغتتهم فجأة لذلك تقدّم سريعاً ليمارس خبراته على أرض الواقع.

فـي حوالي الرابعة صـباحاً وصلنا إلى المَحـوَل Mahawal، وهو نزل قديم متداعٍ، واقع بين رافدين لنهر الفرات، وعلى بعد ميل واحد فقط من شط النيل، وهو قناة قديمة ومهجـورة على الأرجح أنها تعود إلى أيام بابل، وتصل نهر الفرات بدجلة في المنطقة الواقعة فوق بابل بقليل وتحت كوت العَمارة Koot AL Hamara، وقفنا في المَحوَل Mahawal زمنـاً لا بأس به لنمنـح مصطفى الوقت الكافي لإعلام نزلاء الخان بوجود بعض الأشخاص السيئين يحومون في الجوار، وقد ظهر أن النزلاء كانوا مدركين تماماً لوجودهم، كونهم وضعوا حرّاساً متيقظين وحذرين طوال الليل فوق سطح النزل.

عندما علموا أنـا مررنا بجثتي الرجلين والحصانين الميتـين، الممدّدين في الجدول الجاف بين الطويبة وهذا الخان أخبرونا أنّهم على علم بهم، وأن الرجلين قليلي الحظ كانـا أميركيـين من الحلّـة متجهين إلى بغداد، كانـا أحد أعضاء قافلـة صغيرة مرّت في المَحوَل Mahawal من مدّة أسبوعين سابقين.

من الواضح أن أولئك المسـكينين كانا قد تخلّفا قليلاً عن قافلتهما دون أن يشـعرا، تماماً كما حصل معنا، فهوجما وأبعدا تماماً عن بقية القافلة، وسُـلبا وقُتلا، ولا شـك أ نه من قبل العصابة نفسها التي كانت تترصّد بنا.

مـع بزوغ الفجر عبرنا القناة التي ذكرتها سـابقاً، يبدو أن النهايـة العلوية لتلك القناة كانت تشـكلّ الجزء الشمالي من الخندق أو القناة الضخمة التي يقال إنها كانت تحيط بجـدران بابل. ومـا إن انتهينا من عبور القناة حتى اسـتقبلت آذاننا أصوات صياح لعدة ديكـة من البعيـد، ونباحٍ عـالٍ وغاضب لكلاب البدو الضـخمـة، وصوتٍ متنافر لحمار

أرق، وأقـول: اسـتقبلت، لأنهـا في الواقع أصـوات ترحيب رغم بعدهـا كل البعد عن التناغم بالمسـافر المرهق بعد رحلته الليلية الطويلة على ظهر حصـانه.

هذه الحيوانات تكون دائماً دليلاً قاطعاً على أن البشر ليسوا بعيدين عن هذا المكان، الذين يقدّمون وسائل الراحة للإنسان والحيوان إما احتفاءً وإما من أجل النقود.

لطالما راودني هذا الشـعور بالرّضا، وخاصةً أثناء سفري عبر الهند وجزيرة العرب وبـلاد الرافدين وجنوب إفريقيا، حيث تفرض حرارة الجو في النهار السـفر في الليل، وقد يكون من الصعب جداً وصف مشاعر الفرح التي راودتني أنا وحصاني معاً عندما كنّا في غاية التعب والعطش والجوع والنعس، وسمعنا أصوات تلك الحيوانات المحبة للفن.

لـم يخفـق النداء الصباحـي المتكرر لتلـك المخلوقات في جعلنا نبصـر عدة خيام بدوية سـوداء صغيرة، نصبت بالقرب من ضفتي القناة، على بعد سـتمئة ياردة من يسـار الطريـق، وجهنـا خطـوات خيولنا مباشـرةً نحو تلك الخيـام، وبذلـك ازدادت ضراوة الكلاب المتوحشة الغريبة، حتى ظهر بدوي مسن رمادي الشعر عارٍ تقريباً، من إحدى الخيـام، وببعـض الكلمات الغاضبـة وبعض الضربات الموجهة جيـداً فرض الصمت على تلك الكلاب الضارية، ثم تقدّم نحونا خلسـةً وقام بالحركة التقليـدية؛ بلمس جبهته قليـلاً بأطراف أصابع يده اليمنى، وألقى علينا التحية المعتادة (السـلام عليكم) فرددنا عليه التحية مترافقة مع حركة اليد نفسـها قائلين (وعليكم السـلام).

بعد تلك المقدّمة القصيرة تقدّم مصطفى ليشـرح له أن هؤلاء الفرنجة جاؤوا لرؤية المدينـة البائـدة، ويريـدون رجلاً يرشـدهم عبـر المدينة، إن مـن الحماقة أن تسـألهم اصطحابك لمشـاهدة مواقع الأبنية المختلفة المذكورة في تاريخ تلك المدينة العظيمة الزائلـة، أو إعطـاءك معلومات حولها، إذ إنهم لا يعرفون شـيئاً عن تاريخ بابل أكثر مما يعرفـه رجل هندي أميركي، كل ما يمكنهم أن يروك إيّاه هو الحدود المفترضة للمدينة السابقة، الحدود التي وجد في نطاقها جميع أنواع التحف والآثار، بالنسبة للآثار كانوا بشـكل طبيعي متحفظين إلـى حد ما، وينظـرون بريبة إلى القادميـن الغرباء، وينظرون

إليهـم علـى أنهم دخـلاء ومتطفلون جاؤوا للتنقيـب عن الآثار وسـرقتهم في ديارهم، وفـي مـا يعتبرونـه حق بكوريتهـم، إن شـعور المنافسـة هذا قـوي جداً يجعل سـكان تلـك المنطقة كارهين لزوار جميع الأجناس والجنسـيات، لذلـك إن من غير الحكمة الذهاب لزيارة هذا المكان إلا بصحبة أناس آخرين مسـلحين جيداً ومعهم حرّاسـهم، ولكن بما أننا عرضنا أن ندفع بتسـاهل أيّ مبلغ مقابل أي تحفة سـنأخذها معنا حتى لو أخرجناها بأنفسـنا فقد تلاشى بذلك الشك والتردّد الموجود في نفس الرجل العجوز، وكان على أتم استعداد لإرسـال أحد أبنائه كدليل معنا عبر الأطلال، معتقداً بشـدة أن الفرنجـة سـيلتقطون كل لبنة يصادفونها فـي طريقهم، ثم يدفعون له بكـرم لقاء الجهد والعناء الذي مرّوا به، ولكنه كان مخطئاً بعض الشيء في اعتقاده هذا؛ إذ إن الفرنجة لن يلتقطوا الكثير من تلك النفايات المنثورة فوق الأرض كما كان يتوقع، خلال محادثتنا نهض كل سـكان الخمس عشرة أو العشرين خيمة من أسَرتهم، حوالي اثنا عشر رجلاً خامديـن وكدري المظهر، يلفّون أنفسـهم فقـط بعباءاتهم، أو ثيابهم الصوفية الخشـنة البنيـة اللون، وأخذوا يحدقـون نحونا، بينما أبعد عدد كبير مـن الصبيـة العراة الهزيلين ذوي الشـعر الأشـعث الماعز والكلاب المهدّدة بارتباك شـديد، ومـع الوقت ظهرت بعض النسـاء المسـنات والفتيات الصغيرات، تكسـوهنّ أثواب طويلة بنية أو زرقاء أو بلـون أحمـر قاتم، معلّقة بشـكل غير ثابت علـى أكتافهن، وتصـل إلـى أقدامهن، وهي الملابس الوحيدة الموجودة على أجسـادهن، كان من الممكن أن تبدو بعض الفتيات أنيقات ولائقات المظهر، إذا ما تم إخضـاعهنّ إلى عملية غسيل وتمشيط شاملة، ولكن لم تبدُ أي منهنّ متلهفة إلى تحسـين مظهرهـا؛ إذ ذهبن من فورهنّ لإحضار الماء ليس للاستحمام وإنما من أجل الطهو وحلب البقر والماعز الموجودة حول الخيام.

عندمـا علمنا أننا سنسـتغرق حتى الظهـر تقريباً لنصل إلى الأطـلال، اتفقنا على أن يسبقنا خدمنا وعليّ (مرافقنا الثاني) على الفور إلى الحلّة التي تبعد حوالي ستة أميال، وذلك لتسـليم رسـالة تقديمية حملناها معنا للحاج محمّد بن السـيد أحمد، وهو تاجر عربي ثري وأحد معارف صهري في العمل، والذي وفقاً لحسن ضيافة العرب، سيضع

حالاً بكل تأكيد منزله تحت تصرفنا.

هناك كانوا سيرتّبون الأمور بشكل مريح قدر المستطاع، ويحضّرون لنا مأدبة فاخرة عند وصولنا، الذي رتّبنا أن يكون عند الساعة الحادية عشرة صباحاً، وكنوع من إجراء التخفي قررنا أن نرسل معهم إلى الحلّة رجلين مسلحين جيداً على ظهري حصانيهما من رجال تلك الخيام، يقبضان مبلغ خمسة ليرات تركية لكل منهما عند وصولنا إلى هناك (أي ما يعادل خمساً وعشرين سنتاً أميركياً)، أما المرشد الذي سيذهب معنا فسيتقاضى مبلغ عشر ليرات تركية في الحلّة.

بعد ذلك تناولنا الفطور السريع المؤلف من لحم الدجاج البارد، والبسطرما (نوع من الحم النيئ كثير التوابل والمجفف بالشمس يشبه البلدوغ الذي يتناوله الفلاحون الهولنديون في جنوب إفريقيا) والحليب الطازج، والبقسماط (نوع من البسكويت البني الصلب)، وتلك المؤونة كنا قد أحضرناها معنا من بغداد، في رحال خيولنا، ثم انطلقنا جميعنا ثانيةً؛ ذهب عليّ والخادمان برفقة البدويين باتجاه الجنوب مباشرةً إلى الحلّة وذهبنا نحن برفقة مصطفى ودليلنا باتجاه شرقي عبر السهل.

كانت الشمس تشرق لتوّها وتلقي ضوءها بجمال على السهل الواضح اللامتناهي الذي تحدّه من جهة الشرق فقط هضبة طبيعية طويلة ومنفردة يبلغ ارتفاعها ثمانين قدماً، وتبدو أنها شديدة الانحدار، انطلقنا نحوها مباشرةً بسرعةٍ فائقة فوق أرضٍ مستوية تماماً تنمو فوقها في بعض المناطق بعض الشجيرات القصيرة، وفي البعض الأخر تنتشر بقع صغيرة من العشب الضئيل، بينما بدت المدينة من جهة النهر والقناة حيث التربة غالباً أكثر رطوبة، وبالتالي أكثر إنتاجاً مزروعةً بشكلٍ جيد ومغطاة بحقول واسعة من الشعير - المحصول الزراعي الرئيسي في جزيرة العرب وبلاد الرافدين، والذرة الهندية، والبطيخ وغير ذلك.

بعد مسيرنا عشرة أميال تقريباً وصلنا إلى أسفل الهضبة التي لم يكن مظهرها الغريب ملفتاً للنظر كما كان من البعيد، حتى ذاك الحين لم نتفوّه بأية كلمة، ولكن عندما وقفنا في أسفل التلّة قفز دليلنا ومصطفى من على ظهري حصانيهما، كأنما باتفاق متبادل

وأشارا إلينا بأن نفعل مثلهما.

عندئذٍ خطر ببالنا أن الوقت المناسب قد حان لكي نشرح لهم أننا لم نأتِ من بغداد لنرى إن كان بإمكان خيولنا أن تتسلق الهضاب المنحدرة هناك أم لا، إنما أتينا فقط لرؤية آثار بابل، ولكن الدهشة أخذت دليلنا البدوي إثر هذه الملاحظة المفاجئة؛ فوقف بفم مفتوح واشمئزازٍ غير مصطنع يتأمل جهلنا الذي لا يغتفر وفي الواقع بدا مشدوهاً غيّر قادرعلى النطق بكلمة واحدة، أما مصطفى فقد حطّم تلك الدهشة عندما علق بهدوء أن هذه كانت إحدى آثار تلك المدينة المندثرة مشيراً إلى قمة تلك الهضبة الخالية.

الآن جاء دورنا لنبدو سفهاء وحمقى، ولا شك أننا بدونا كذلك عندما نظرنا إلى بعضنا كأننا نرغب باستقبال الانطباع المتعذر محوه المرسوم على وجه كلٍّ منا، ولم يكن هناك أدنى شك في ذلك؛ كوننا لم نسمع مصطفى ينطق بكذبة مطلقاً من قبل، وهي مزية نادرة الوجود بين المرافقين والحراس، وقد قدم الملاحظة بأعصاب هادئة جداً فعرفنا أنها صحيحة.

ترجلنا عن ظهور خيولنا وتسلقنا بصعوبة الجانب الشديد الانحدار من الهضبة المثيرة للجدل، حتى وصلنا إلى القمة.

أما خيولنا المسحوبة من اللجام فلم تجد صعوبة أبداً في اللحاق بنا، إن كل الخيول العربية بارعة في تسلق أو هبوط المنحدرات؛ فهي ثابتة القدم على نحو خاص.

أخيراً وصلنا إلى القمّة، ومن ذاك المكان المرتفع لم يكن من الصعب أبداً رؤية أن تلك التي حسبناها هضبة لم تكن في الحقيقة سوى جزء من آثار الجدران العملاقة التي كانت تحيط بمدينة بابل القديمة، فبالرغم من أنها مستوية تماماً مع الأرض في عدة مناطق ولعدة أميال، فقد استطعنا تتبع مسارها السابق بوضوح.

لا بد أن هذه الجدران كانت تشكل متوازي أضلاع منتظماً، ضلعان منه يتجهان بتوازٍ نحو الجنوب الشرقي والآخران بزاويتين يمينيتين يوازيان مجرى نهر الفرات،

هذا النهر العظيم الذي استطعنا رؤيته بوضوح، على بعد ثلاثة أميال إلى اليمين تقريباً يعرض سطحه الهادئ الفضي بصمت وفخر أمام نظراتنا المبتهجة. على الضفة اليمنى أو الغربية للنهر لمحنا المخيم الواسع والمتنوع لقبيلة بدو شمّر، ويصل تعداد خيامه إلى أكثر من ثلاثة آلاف خيمة مصنوع جميعها من قماش شعر الأغنام الخشن الأسود أو البني أو من صوف الخراف.

لو لم تكن تلك الخيام المخفضة داكنة الألوان تعجّ بالبشر والقطعان الهائلة من الجمال والخيول والحمير وجواميس الماء والبقر والثيران والأغنام المنتشرة بالآلاف حول مدينة الخيام المؤقتة تلك، لمنحت الناظر غير ذي الخبرة مظهراً كئيباً وغير مستحبّ، ورأينا الحلّة أيضاً التي تقع على بعد ستة أميال من أسفل البقعة التي يخيم فيها البدو، وعلى الضفة نفسها وعلى مسافة قصيرة من أسفل إحدى التعاريج الجميلة المتعددة للنهر العظيم، التي يقال إنها أضفت صفات السحر الأساسية على مدينة بابل، المشهورة حسب المتعارف عليه بكونها أعظم المدن وفي الوقت نفسه أكثرها فتنة وروعة في ذاك الزمان، كان للبلاد من حولنا مظهر غريب؛ فقد بدت المنطقة الواقعة إلى يميننا على طول نهر الفرات جميلةً وخصبةً ومبهجة في الوقت الذي بدت فيه تلك الواقعة إلى يسارنا لا شيء سوى صحراء قاحلة يندر فيها وجود النبات على مدّ العين والنظر.

بعد أن استمتعنا لبعض الوقت بالمنظر من فوق قمة تلك التلة، هبطنا إلى السهل، وبالمناسبة كان هبوطنا أصعب بكثير من الصعود، ثم لحقنا بمرشدنا بتمهّل عبر الأرض المقفرة باتجاه تلّة أخرى تقع على مسافة لا تزيد على مئة ميل عن نهر الفرات، وتقع تقريباً في وسط الحدود المفترضة لمدينة بابل، لم تكن تلك التلة عالية كسابقتها، ولكنها كانت مستوية تماماً في القمة وذات امتداد واسع يبلغ ميلين مربعين على الأقل.

إنّ الموقع المتوسط لتلك الهضبة، وامتدادها الشاسع وأبعادها المنتظمة إلى حد ما، وحقيقة أن العرب استخرجوا من هذه التلة بالذات آثاراً قيمة أكثر مما استخرجوه من غيرها، كل هذا جعلني أكون فكرة أن تلك الهضبة لا بدّ لها أن تكون موقعاً لأحد

القصور أو المعابد القديمة.

قد يكون هذا هو موقع القصر العظيم للملك «نبوخذ نصر».

يوجد في تلك الهضبة أماكن مثقوبة، فيها فجوات حفرها العرب أو البدو بحثاً عن التحف والكنوز، وغالباً ماتتم مكافأة هؤلاء العفاريت المساكين بكرم لقاء متاعبهم؛ حيث إنهم قلّما يجدون أشياء ذات قيمة حقيقية كالنقود الذهبية والفضّية والنحاسية والخواتم والأحجار المنقوشة والأسطوانات، وهي نوع من الخرز الحجري أسطواني الشكل يصل إلى إنش في الطول واثنين في العرض تكون هذه الأسطوانات عادة من حجر أسود أو أبيض أو بني رمادي داكن مصقولٍ وملمع بشكلٍ جميل ومحفور عليه بدقّة رائعة صوراً للآلهة والملوك والملكات والمحاربين والتجار والنساء والحيوانات أو حروفاً باللغة الآشورية أو الكلدانية[1].

يوجد فتحة طولانية تمرّ من وسط كل حجر، وهذا دليل واضح على أن تلك الأحجار كانت تُلبس على شكل سُبحة أو كحلية حول الرقبة أو المعصم أو الذراع أو الكاحل، وعلى الأرجح من قبل الذكور والإناث، إذ إن بعضها قد وجدت كبيرة جداً وثقيلة لدرجة أنها لا تستطيع امرأة أن ترتديها.

هناك العديد من تلك الأسطوانات تباع في بغداد بأسعار خيالية تتراوح ما بين خمسة إلى خمسمئة مجيدي تركي، وذلك حسب جودة صناعتها ووضعها الحالي.

بينما كنا نتفحص هذه التلة، لمحنا بعض العرب الذين يرتدون ملابس رثة وممزقة، كانوا منهمكين باستكشاف فجوة حفرت مؤخراً في الجانب الشرقي من التلة، عندما مشينا باتجاههم عرضوا لنا كمية من الآثار، بعضها كان قد استُخرج لتوّه، وهي عبارة عن عدّة أسطوانات منقوشة، خواتم وأقراط وأساور غريبة الشكل، ومصباح برونزي له شكل عجيب، ولون أخضر مزرقّ، وقطع من أباريق طينيةٍ، ونقود فضية ونحاسية،

(1) نرجو من القارئ مراجعة كتاب الأثاريّة البريطانيّة ماري تشَب Mary Chubb الرّائع: «مدينة في الرّمال» في هذه السلسلة، حول اكتشاف مدينة إشنونّا السّومريّة في العراق، ففيه معلومات وافية حول هذه الأختام الأسطوانيّة الفريدة.

وتمثال نحاسي صغير يمثل إنساناً يجلس على كرسي أو عرش، قمنا بشراء بعض تلك التحف بثمن قليلٍ نسبياً، وعرض علينا العرب أيضاً بعض قطع القرميد التي استخرجوها مؤخراً، كل قطعة منها تحمل نقشاً باللغة الكلدانية، لا تزال طبعته واضحةً ومحفوظةً بشكل رائع بالرغم من عمر تلك القرميدات القديم[1]، كنا مضطرين أن نرفض شراءها بسبب حجمها الكبير ووزنها الثقيل.

عندما غادرنا تلك البقعة أخذنا مرشدنا إلى وادٍ له العرض نفسه من أول نقطة فيه وحتى آخره، ويتجه نحو الجنوب الشرقي، مباشرة باتجاه الفرات، بدا واضحاً أن طول هذا الوادي يصل إلى ألفي ياردة، ولكن عمقه لا يتجاوز الخمسين قدماً تحت مستوى السهل، كان محدوداً ببعض التلال الصغيرة من هنا وهناك، تنمو عليها بعض الشجيرات القصيرة والأعشاب.

أما أسفل الوادي فقد كان مستوياً تماماً وتنمو أيضاً في بعض أجزائه بعض الشجيرات، التي كان يخرج منها بين الحين والآخر خلال تقدّمنا زوج أو أكثر من (الفرانكولين) الأسود الجميل المنقّط بالأصفر، وهو طائر حجل بلاد الرافدين، الموجود بكثرة على حدود دجلة والفرات.

لا شك أن هذا الوادي الواضح من صنع يدٍ بشرية، ومن أكثر من ألفي عام مضت، وعلى الأرجح أنه كان أحد الشوارع أو القنوات التي كانت تقطع تلك المدينة الضخمة آنذاك.

عندما وصلنا إلى ضفاف الفرات، لمحنا تلة كبيرة أخرى على بعد عدة أميال من

---

(1) أيضاً نحيل القارئ الكريم إلى كتاب تشَب: «مدينة في الرّمال» في هذه السلسلة، حيث تروي في مطلعه أنّ اكتشاف مدينة إشنونّا السومريّة في ديالى العراق قد تمّ من خلال عثور بعض البدو على آجرّات مشابهة تحمل كتابات سومريّة في تل يدعى تلّ أسمر. كما يروي الرّحالة البريطاني المعاصر للوكر، هنري سوايـنـون كاوبر H. S. Cowper في رحلته المثيرة من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي عبر الجزيرة الفراتية، عام 1893، عند زيارته لخرائب قصر النّمرود في بابل كيف رأى بعينه آلافاً من هذه الآجرّات التي تحمل نقوشاً بابليّة، وهي تعرض للبيع أو تتعرّض لأبشع أشكال التلف المتعمّد.

أسفل النهر، تبرز بشدة في داخل النهر لتجعله يلتف حولها التفافة كبيرة.

قررنا أن نلقي النظرة الأخيرة على المكان من على قمة هذه التلة، فتمكنا من هذا المكان المرتفع من رؤية ليس فقط نصف مدينة بابل الواقع على هذا الجانب من النهر، وإنما النصف الآخر الواقع على ضفة النهر اليمنى المقابلة والآثار الموجودة على ذاك الجانب. ورغم أنه بالكاد لا تزال هناك آثار، فقد كان الجزء الأكبر منها عند زيارتنا مغطى بالخيام الكثيرة وكل معدات الحياة البدوية لقسم من قبيلة شمَّر، أما الجزء المتبقي من الآثار التي يمكن رؤيتها من قمة التلة فقد كان لها صفات الآثار المذكورة سابقاً نفسها.

لا أستطيع أن أنكر أننا كنا مُحبطين جداً لدى زيارتنا لأطلال بابل، ولذلك كان بإمكاني أن أطلق اسم (أطلال) على تلك التلال الباقية غير مرئية والمكونة من الرّمل والطين الأصفر، وهي العلامات الوحيدة التي تظهر عظمتها القديمة، وأنا متأكد من أن جميع الأوروبيين والأميركيين الذين زاروا المكان قبلنا وسيزورونه بعدنا كانوا وسيكونون محبطين مثلنا تماماً.

لطالما تخيلت أنه سيمكنني على الأقل رؤية بعض الجدران العملاقة للقصور السابقة أو بعض الأعمدة والمعالم الضخمة أو جزء كبير من آثار حدائق «نبوخذ نصر» المعلقة، ولكن لا، لم يكن كذلك؛ فباستثناء بعض التلال التي تبدو كالهضاب الطبيعية، وبعض الممرّات المستقيمة الموجودة بين تلك التلال والتي تشبه الوديان الطبيعية الصغيرة، لم يكن هناك أيّة علامة باقية لتخلّد أقدم مدينة في التاريخ، والتي حسب تعاليم الإنجيل تم وضع أول حجر أو أول لبنة فيها قبل أربعة آلاف عام مضت، كم يختلف مصير مدينة بابل عن مصير البناء الضخم لأهرامات الجيزة، وسقارة **Sakkarah** وعن مصير طيبة **Thebes** الماجدة، وعن الأقصُر **Luxor** الغامضة، وعن بعلبك المهيبة (مدينة الشمس) وعن تدمُر المملكة العظيمة، رغم أنها تعود إلى الزمن نفسه تقريباً، ولكن تلك الآثار كانت وستبقى ولعدة قرون أدلة صامتة ومتحدثة بصوتٍ عالٍ في آن معاً عن العظمة والأمجاد السابقة، بينما بالكاد تترك بابل أم المدن وملكتها أدنى أثرٍ لحياة سابقة منذ أن انقطعت عن الوجود،

باستثناء ذلك الموجود في سجلات التاريخ.

وفوق تلك الأرض التي وطئتها سابقاً أقدام البلاط الملكي العظيم لسميراميس، والحاشية المنتصرة لنبوخذ نصر المولع بالحرب، وفيالق الإسكندر الفاتح التي لا تقهر، تنسلّ الآن وباستحواذ تام جماعات البدو المتشردة، والغزلان الهاربة، وبنات آوى الماكرة، والضباع الجبانة، وجميعها تخاف من ظلّها الخاص.

تابعنا طريقنا ببطء على طول الضفّة اليسرى للنهر، حتى وصلنا مقابل بلدة الحلّة الصغيرة عند الظهر تقريباً، كان علينا أن ننتظر هناك حتى يقرر القُفّجيّة الكسولون أصحاب القُفّة (وهي نوع من القوارب العربية) الموجودون على الضفة الأخرى إيصالنا بمراكبهم الخطرة الظهر.

كانت الشمس في ذروتها تقريباً وسطعت فوقنا بقوتها الشديدة، لحسن الحظ، لم يتأخر القُفّجيّة في الظهور، فجاؤوا وجدّفوا بنا عبر النهر واحداً تلو الآخر دون حوادث، لكن شعر أحد الخيول بالدوار من الحركة الدورانية على متن القُفّة، فقفز مجازفاً وسبح عبر النهر، ووصل إلى الحلّة قبل المركب الذي كان من المفروض أن يقلّه.

بعد أن حللنا النزاع الذي لا مفر منه مع القُفّجيّة حول البقشيش أو الإكرامية (كل سائح يذهب إلى البلاد العربية يعرف أن هذا سيكون أحد الإزعاجات الرئيسية في السفر عبر الشرق)، امتطينا خيولنا ومشينا عبر البلدة باتجاه المنزل الذي يقودنا إليه خدمنا الذين كانوا ينتظرون وصولنا بتلهف عند ضفة النهر وكان ينتظرنا هناك عشاء فاخر مُترف.

كان مضيفنا الحاج محمّد ابن السيد أحمد، رجل عربي مسنٌّ ومجعد الوجه، ورمادي اللحية، يرتدي عباءةً أرجوانية طويلة، وصدرية خضراء مطرزة ببهرجة، وقميصاً إسلامياً أبيض، وسروالاً أبيض عريضاً مربوطاً بإحكام حول الكاحل وطربوشاً أبيض مطرزاً باللون الذهبي وخفّين جلديين بلون قرمزيّ وذؤابات معقوفة، وبالطبع كان أكثر الأفراد بهاءً في طريقة ارتدائه.

استقبلنا بسلام حارّ جداً، وكاد أن يسجد أمامنا، وأسهب في اعترافه بالشرف العظيم الذي حظي به عند زيارتنا له، وبالترحيب المميز للعرب وضع منزله بكامله تحت تصرفنا، وبصعوبة مطلقة تم إقناعه بأن يجلس معنا على ديوانه الخاص وأن يشاركنا أيضاً في طعامه الخاص.

استمتعنا بمائدة مغذية مكونة من لحم الضأن المحمّر والدجاج المحمّر واليخنة كثيرة التوابل، والبيض والعسل البري والجبن والبطيخ والعنب والبرتقال، وبعد العشاء قدّموا لنا الشربات (نوع من الليمونادة الحلوة) والقهوة اللذيذة بأكواب فضية صغيرة يسميها العرب (فنجان) وغلايين التبغ الفوّاح.

بعد ذلك أخذنا غفوة حتى الساعة الرابعة بعد الظهر، إلى أن هدأ الجو الهائج الذي ازداد خلال النهار بتأثير رياح السموم الخانقة، أو الرياح الجنوبية الآتية من الصحراء، بغض النظر عن القيظ وأسراب الحشرات، غفونا بعمق لعدة ساعات يرافقنا عن قرب خدم المنزل الذين كانوا يلوّحون بمراوح كبيرة بلطف أثناء نومنا، عند الخامسة بعد الظهر ذهب جميعاً لنلقي نظرة على البلدة، تجولنا عبر شبكة من الممرات الترابية القذرة الضيقة والمتعرّجة، تلتف بين فوضى من البيوت المنخفضة المظلمة القذرة وبائسة المظهر ذات الأسطح المستوية، كانت جدرانها غالباً مبنية بالطين المجفف بالشمس والممزوج بالقش الصغير المقطّع، معظم البيوت لم تتجاوز اثني عشر قدماً في الارتفاع، وبين الحين والآخر كنا نمر بمساجد ومآذن عالية، ونُزُل أو خان متضعضع، أو سلسلة من إصطبلات الجمال دون أسقف، حيث انبعثت رائحة قوية ولكنها ليست كريهة، خاصة بسفينة الصحراء التي تسكن تلك الإصطبلات فقط في الليل.

تقع أفضل المنازل في الحلّة بقرب النهر، وكان بعضها حتى مبنيّاً بالطوب المجفف بالشمس والخشب، ويبلغ ارتفاعها عشرين أو ثلاثين قدماً، مع شناشل chenachils واطئة.

من بين تلك البيوت كان يظهر جلياً منزل المحافظ، أو ممثل الحكومة التركية، إنه

بناء مرتفع واسع، له فناء كبير ومفتوح في الوسط ويبدو كالنُّزل.

كان البناء مظلماً وكئيباً ويمكن فقط تمييزه على أنه منزل الوالي من عدد الجنود الأتراك رثي الهيئة، والمرافقين الوسنين القذرين مهملي الهيئة الذين يتسكعون حول المبنى.

يقع المنزل على ضفة النهر، ويضفي مظهراً جميلاً للضفة اليسرى المقابلة، وإلى جانبه مباشرة تقع ثكنتان أو ثلاث ثكنات (أي مهاجع الجنود)، إن تلك الثكنات عبارة عن أبنية قرميدية كبيرة، ولكن بنوافذها المسدودة بقوة بالحديد تبدو كسجون أكثر من كونها منازل للجنود، في فترة الليل يأوي إلى تلك الأبنية أكثر من ألفي جندي تركي وأثناء زيارتنا كان جميعهم تقريباً في النهر، بعضهم مشغول بغسيل بياضاته، والبعض يستحم.

ولا شيء من تلك الأعمال كان مفرطاً أو غير ضرورياً بالنسبة لأولئك الجنود الأتراك البائسين.

كان هناك المئات من النساء والفتيات والصبية، ترتدي النسوة والفتيات قمصاناً صوفية طويلة وخشنة، بلون بني داكن أو أحمر أو أزرق داكن، وتصل إلى كواحلهن تقريباً، أما الأولاد فقد كانوا في حالة من العري يمشون جميعهم ببطء ولكن بقامات منتصبة، من وإلى النهر، يوازنون ببراعة أباريق الماء أو الجرار الفخارية فوق رؤوسهم وأكتافهم.

رغم كون تلك القمصان الطويلة الرداء الوحيد الذي ترتديه معظم الإناث إلا أن آذانهن، وجبهاتهن ورقابهن ومعاصمهن وأصابعهن وعند بعض النسوة، أنوفهن وكواحلهن وأصابع أقدامهن كانت مزيّنة بأنواع من الحلي الزجاجية والعاجية والنحاسية والفضية أو الذهبية.

لم ترتد الإناث منديلاً أو خماراً مصنوعاً من شعر الخيل كما كانت شقيقاتهن في بغداد يفعلن، وفي الواقع لم تكن النسوة يرتدين حجاباً على الإطلاق.

رغم أن بعض الفتيات الصغيرات يهملن بشــكل مشــين مظهرهن وشعرهن الأسود الفاحم الطويل، لكنهن يتمتعن بمظهر حســن، ويذكرنني بـ (ربقة) Rebecca المذكورة فـي الكتاب المقـدّس، التي كانت قبل 3725 سـنة تحمل جرّتها بالطريقة نفســها التي تحملها أخواتها العربيات الآن، والتي تم تصويرها من قبل الفنانين بالزي نفسـه الذي ترتديـه فتيـات هـذه الأيام، فقد كانـت (ربقة) حســب تعاليم الكتـاب المقدّس إحدى فتيات بلاد الرافدين.

* * *

الفصل الثاني عشر

العيش بخشونة

ندبة البلح - القراصنة - بئر نمرود - كربلاء - إنجاز بطولي في الفروسية - مطاردة مثيرة.

إن مياه الفرات تشبه الكريستال بصفائها، ولكنها مع ذلك ليست سلسة كالمياه العكرة لنهر دجلة، التي أظنها بلا شك من أفضل المياه التي تذوقتها في حياتي عندما تكون مرشحة جيداً، رغم أن بعض سكان بغداد يعطونها صفات سيئة للغاية، ذلك بسبب حبّة بشعة أو نوع من التقرّح خاص ببلدان محدّدة واقعة بين البحر المتوسط والمحيط الهندي[1]، يشكل هذا الدمّل أو التقرّح روعاً لكل المدن والقرى المصابة به، يسمّيه الأوروپيون المقيمون في بغداد (ندبة البلح) ويسميه العرب (أخت البلح أو التّمر)، أما المقيمون الفرنسيون فيعطونه التسمية الأكثر ملائمة وهي: Boutons de Bagdad أي بثور بغداد، كونهم لم يستطيعوا الوصول إلى أيّة معلومة مؤكدة عن أصل تلك البثور.

(1) تسمّى هذه الآفة في بغداد باسم: حبّة العمر، وفي حلب: داغة حلب. ولقد تبيّن سببها بعد عصر لوكر، وكان مصيباً في تكهنه، بأنها ناجمة عن لدغة بعض الحشرات الطائرة. ولقد اختفت إجمالاً في عصرنا.
ورواية لوكر الشائقة والممتعة لرحلته المثيرة وما شهده بها من مغامرات ومخاطر، تدلّ كم كان السّفر والترحال في عصره صعباً عسيراً وتكتنفه شتى أنواع المخاطر، عدا عن المتاعب والمنغّصات الكثيرة. وأمّا هذه الحبّة المخيفة فهي حقاً كما يصفها كابوس حقيقي، ولقد أدركت في طفولتي بجبل لبنان بعض جيراننا المصطافين من أهل حلب وبغداد ممّن كانوا يحملون هذه البثرة المريعة في وجوههم.

تظهر تلك التقرحات المثيرة للاشمئزاز على أجسام السكان المحليين عندما يكونون أطفالاً رضّعاً، وعموماً عندما يكونون بين السنة إلى السنتين من العمر، أما الغرباء - لا يهم من أيّة أمة أو جنس أو عمر أو نمط حياة قد أتوا - فلا يصابون بها إلاّ بعد إقامتهم من شهر إلى اثني عشر شهراً في بغداد اعتباراً من لحظة وصولهم.

تظهر البثور على الوجه بشكل عام، وخاصة على الجبهة والخدّين، وتظهر على سطح اليد، ونادراً ما تظهر في راحة اليد، أو على الأصابع أو المرافق أو الفخذين أو الرُّكب والأقدام، وتظهر بشكل بقعة صغيرة جداً لا تزيد على عضة البرغوث، لكن لونها أحمر جداً متوهج، تكبر تلك البقع يوماً بعد يوم ولكن ببطء شديد، حيث تستغرق أحياناً عدة شهور حتى تصل إلى حجم حبة البازلاء المفلوقة، وذلك دون أيّ ألم يذكر، ولكن بعد انقضاء ستة إلى تسعة أشهر - يعتمد ذلك على قوام الجسم المصاب - تصل البثرة إلى ذروتها وتبدأ بالتقيّح شيئاً فشيئاً وتصبح مؤلمة جداً، وتبدأ بإفراز مادة دبقة كريهة الرائحة لونها أصفر مخضرّ، وتتدفق تلك المادة ببطء ولكن باستمرار ليلاً نهاراً، وفي تلك الحالة تمرّ الضحية البائسة المصابة بها بمرحلة من العذاب العظيم الذي يستحق الشفقة بكل تأكيد.

إذا قام المصاب بوضع ضماد يخفي المظهر المقزز لهذا الشيء، سيتصلب الضماد خلال ساعة واحدة بسبب تلك المفرزات، فيصبح المصاب مضطراً إماً لقص الضماد حول التقرّح أو انتزاعه تماماً، مسبباً له معاناة فائقة، ولا يمكنه استخدام الماء لتنديته؛ إذ من المعروف عموماً أن أي تلامس مع الماء الساخن أو البارد لن يفيد إلا في زيادة حجمها وتأخير الشفاء، ومن ناحية أخرى إذا لم يتم تضميد البثرة فإن أبسط احتكاك بها سيؤدي بالمصاب إلى أقصى درجات الألم، وكل قطعة ثياب وفراش ستغطى بالمفرزات النتنة، وسيدخل الغبار إلى القرح، وسينجذب إليه البعوض والذباب ليسبب له أصعب أنواع الألم والمعاناة، في هذا الوقت تكون البثرة وصلت إلى محيط يتراوح بين نصف إنش إلى إنشين، وتكون الرائحة لا تحتمل على الإطلاق، وأعرف أشخاصاً ذوي صحة واهنة يتقيؤون ويصابون بالإغماء من رائحة تقرّحاتهم الخاصة.

ومن الغريب جداً أنه باستثناء الغثيان الذي تسببه رائحة التقرح والألم الحاد الناجم عن الاحتكاك العرضي بها، يشعر المصاب أنه بصحةٍ جيدة طوال الوقت ويأكل ويشرب وينام كما كان من قبل، وبعد انقضاء شهرين أو ثلاثة أشهر، يبدأ إفراز المواد بالتناقص شيئاً فشيئاً، حتى يتوقف تماماً، ويجفّ التقرح على درجات، ويغطى بقشرة رمادية مصفرة سميكة وصلبة، ومع مرور الوقت تسقط تلك القشرة تاركة ندبة بنيّة لا تختفي بشكل كامل أبداً، وتظهر دائماً ندبة أو نقطة حمراء أو زرقاء في الجو البارد، أو عندما يغسل الجزء الذي كان مصاباً بالماء البارد، وذلك طوال حياة ذلك الإنسان.

أنا نفسي أملك لمدى الحياة ستة عشرة ندبة بلح، لذلك كان لدي فرصة مطوّلة لأشاهدها من البداية حتى النهاية.

إذا نجح أي شخص في اكتشاف علاج فعال ضد هذه الكارثة الفظيعة فإنه لن يهب نعمة كبيرة لسكان هذه البلاد فحسب، وإنما سيصبح ثرياً جداً وسيخلّد اسمه مادام النيل ودجلة يتدفقان.

ما الذي سيحول دون الباشا الثري عن دفعه مقابل منع تلك الندبة من تشويه الوجه الجميل لحريمه الصغيرات؟ وما الذي سيمنع الأوروبي الثري أو الزوج العربي عن دفعه إذا كان بإمكانه أن يحفظ الوجه المضيء لزوجته الصغيرة الجميلة، أو أن يحمي الملامح الملائكية لطفله الصغير الحبيب من التشوّه الذي تتركه آفة البلاد تلك؟ والتي رغم كونها غير مميتة فإنها تترك علامات من المتعذر محوها وليست أقل شناعة من بثرات الجدري المقززة.

هناك تأثير كبير لموقع القرح وحجمه؛ فالبقعة الأكثر خطورة التي تظهر فيها تلك البثرات هي قمة الأنف، وفي تلك الحالة تشوّه مباشرة هذا الجزء البارز من الوجه، بشكل قبيح كما يفعل السرطان، وأيضاً من المؤلم جداً إذا تفشّت تلك القروح بجانب العينين، فتتسبب بتقليص البشرة وبذلك تتوسع الأجفان لتعطي نظرة محدقة جامحة ومريعة قد تبقى مدى الحياة، ويكون من المزعج جداً رؤيتها.

أما الأشخاص الذين يصابون بندبة البلح في ذقنهم أو فكهم أو شفاههم أو فروة رأسهم فإنَّ شعرهم لن ينمو مجدداً أبداً في منطقة الندبة.

رغم أن ندبات البلح تلك - كما يدعوها الإنكليز - لا تحسّن ملامح أحد، فإنها أقل أهمية بالنسبة للرجال من النساء اللاتي تكون بطبيعة الحال مفاتنهن الشخصية ذات قيمة وأهمية أكثر من مفاتن الرجال، ولسوء الحظ هناك حقيقة غريبة في تلك البثرات؛ فيبدو أنها تتلذذ بالظهور على وجوه الإناث، بينما غالباً ما تظهر بين الرجال على اليدين والذراعين والساقين.

تكون تلك البقع عند الأشخاص الذين يتمتعون بصحة قوية ودم وافر، أكثر عدداً وأكبر حجماً من تلك التي تظهر عند الأشخاص الضعفاء، فبعضهم تظهر لديهم بقع كثيرة تصل حتى أربعين، والبعض فقط بقعة واحدة أو اثنتين أو ثلاث بقع، ومن الغريب جداً أن من بين كل سكان بغداد أكثر من يعاني من تلك الآفة هم السكان المسيحيون، وإلى جانبهم المسلمون وبخاصة الزنوج الذين تترك فوقهم ندباً شنيعة رمادية اللون، ثمّ المقيمون الأوروبيون وأخيراً اليهود.

لا أستطيع أن أعرف سبب أن اليهود أقل عرضة للإصابة بندبة البلح، ولكنها حقيقة معترف بها من قبل كل سكان بغداد.

حتى الآن لم يستطع أحد أن يعرف سبب تلك التقرّحات، بعضهم يعزوه إلى الأكل من البلح، والبعض إلى مياه دجلة، والبعض الآخر إلى (التسموم) أو رياح الصحراء الحارّة، وآخرون يعزونه إلى لدغة من حشرة ما ولكن لا يستطيعون أن يحدّدوا أيّة حشرة هي.

أما بالنسبة لي، فأعتقد أن ظهورها ليست له علاقة بأكل البلح، وأستطيع أن أشهد، أنه في حالتي كان قد تم تحذيري مسبقاً، فاتخذت احتياطاتي ولم آكل أو حتى ألمس بلحة واحدة، جافة أو رطبة كانت، حتى رأيت اثنتين من ندب البلح تظهران على كفّي، ولا يمكن أيضاً أن تكون مياه دجلة أو رياح التسموم هي السبب، إذ لا أحد من سكان

القرارة – بلدة صغيرة بائسة واقعة على بعد ميلين فقط من أسفل النهر – لديه ندبة واحدة من ندب البلح على جسده، إلاّ إذا أقام لمدة أسبوعين في بغداد، ولا أحد أيضاً من سكان المنطقة الواقعة ضمن الثلاثمئة ميل أعلى أو أسفل النهر، رغم أنهم يشربون مياه دجلة ويتفحون بالرّياح نفسها التي تهبّ على سكان بغداد.

إن البَصرة الواقعة على مصبّ شطّ العرب أو نقطة التقاء مياه دجلة والفرات، معروفة بانتشار ندب البلح فيها، حيث كل شخص موجود هناك تعرّض أو سيتعرض للإصابة بها، بينما تلك الندب ليست معروفة بتاتاً في القرنة الواقعة على النهر نفسه.

ليس هناك أيّ وجود لندبة البلح بين بغداد والموصل التي تقع أيضاً على ضفة دجلة، ولكنها توجد بكثرة في الموصل، وهي بين الموصل وديار بكر غير موجودة نهائياً، ولكنها توجد أيضاً بكثرة في ديار بكر.

ومن ناحية أخرى، تنتشر ندب البلح في أماكن بعيدة جداً عن ضفاف دجلة؛ ففي كربلاء مثلاً التي تقع في الصحراء وتبعد مسافة ستين ميلاً عن دجلة وعشرين ميلاً عن الفرات، تنتشر أيضاً في حلب التي تقع على نحو يبعد حوالي مئتي ميل عن دجلة، هناك شيء يشبه ندبة البلح – إذا لم يكن نفسها – وهو الشيء الذي يسميه الإنكليز (البثرة المصرية)، وهو وباء منتشر بشكل أو بآخر في جميع أنحاء مصر.

من ناحيتي الشخصية، أنا ميّال للاعتقاد أن ندبة البلح سببها لدغة أو لسعة من حشرةٍ ما، وعلى الأرجح أحد أنواع الذباب الذي لم يعرف بعد شبيهة مثلها تقريباً رغم أنها ليست مميتة كذبابة (تسي تسي)، وهي ذبابة منتشرة في مناطق معينة من جنوب إفريقيا، انظر المرجع:

Livingstone's Missionary Travels & Researches in South Africa

والتي تسبب لسعتها الموت المحتّم للخيول والبقر والثيران والماعز والأغنام والكلاب، ولكنها ليست قاتلة تماماً بالنسبة للإنسان والبغل والحمار والفيل ووحيد القرن.

ورغم أن كل مقيم هناك، غريباً كان أو محلياً يتعرض حتماً للإصابة بها، فلم تسجل أي حالة وفاة، وكذلك بالنسبة لندبة البلح التي بالمناسبة ليست مقتصرة فقط على الجنس البشري حيث سبق لي أن رأيتها مراراً على أنوف وآذان وشفاه الكلاب والهررة والخيول والماعز والأغنام، ولكن لا يبدو أن تلك الحيوانات تعاني من الأعراض السيئة لتلك الندب. تعدّ هذه البثور المرعبة بين الأوروبيين المقيمين في بغداد والموصل وديار بكر وحلب، طابع التأقلم، وتشكل دائماً الموضوع الأساسي لأحاديثهم كما تفعل حالة الطقس في أوروبا وأميركا.

بالعودة على موضوعنا الرئيسي، قمنا بجولة حول البازار.

رغم أن (الحلّة) بلدة صغيرة، ولا يتجاوز عدد سكانها ألفي نسمة، معظمهم من العرب والقوات التركية، فإنها تتميّز بوجود بازار واسع إلى حد ما، والسبب الرئيسي لوجود هذا السوق هو موقعها القريب جداً من الصحراء، وبالتالي تنشأ تجارة ناشطة مع القبائل البدوية العديدة التي تسكن الصحراء، والذين يبيعهم تجار (الحلّة) الثياب، المؤن، الجواهر، السروج، الأسلحة والذخيرة، مقابل الجمال والخيول والحمير والماعز والأغنام وصوف الأغنام وشعر الماعز وشعر الإبل.

يقال إن (الحلّة) بنيت حوالي سنة 1100 للميلاد، ولكن منذ ذاك الوقت تمّ الاستيلاء عليها ونهبها وتدميرها من قبل البدو وجماعات آخرين، وأعيد بناؤها عدة مرات أخرى.

قام الأوروبيون، وخاصة الإنكليز منهم، بعدة محاولات لاستكشاف الفرات، الذي يقال إنه صالح لملاحة البواخر النهرية التي لا يغمرها الماء أكثر من خمسة أقدام، وذلك من نقطة التقائه بنهر دجلة في القرنة صعوداً حتى بيره جيك Biradshig أو Birachich الواقعة على الضفة اليسرى للنهر، وتبعد مسافة أربعين ميلاً غربي مدينة أورفة Orfa وستين ميلاً شمالي شرق مدينة حلب. غادرت البعثة الأخيرة التي أرسلت لهذا الشأن بغداد قبل عدة سنوات، وكانت بقيادة الكابتن قائد السفينة الحربية البريطانية "Comet" (كوميت) الراسية في دجلة آنذاك، رافق تلك البعثة عدة أصدقاء للكابتن،

وكان صهري والقنصل الفرنسي من ضمنهم، وقد ذهبا لإرضاء فضولهما أكثر من أيّ شيء آخر. سارت البارجة عبر النهر صعوداً وكان كل شيء على ما يرام، إلى أن وصلوا إلى السّماوة Semauwa وهو أحد أربعة حصون تركية مهجورة واقعة على الضفة اليمنى عند التقاء مياه خور عبد الله Chor Allah بمياه الفرات.

هناك ارتطمت السفينة بالأرض، وأدّى الارتطام إلى خرقها، فكانت مضطرة للوقوف عدة ساعات لإصلاح الضرر.

مع اقتراب المساء، هوجمت السفينة فجأة من قبل مئات البدو الذين أطلقوا النار من الضفاف على الطاقم والركاب، متسببين بمقتل اثنين من أفراد الطاقم وجرح العديد غيرهم، إلى أن ردّ لهم جميلهم الكابتن (S) الذي أخذته المفاجأة في البداية، فسدّد نحوهم عدة قنابل متتالية من المدافع المنصوبة على جانبي السفينة، تسبّبت بإسقاط عدد كبير من المهاجمين ودفعت البقية الباقية منهم إلى الفرار بارتباك تام، حاملين قتلاهم وجرحاهم معهم.

وقع الهجوم في منطقة كان النهر فيها ضيقاً جداً، والضفاف مغطاة بكثافة بالشجيرات والعشب الطويل، لذلك تمكّن البدو من الوصول إلى هناك بسهولة دون أن يلفتوا الأنظار، وإضرام النار في البارجة العاجزة آنذاك، كان جميعهم يمتطون الخيول، ولكنهم تركوا العديد من خيولهم الميتة والجريحة عند الضفة، من الواضح أنهم كانوا يراقبون الباخرة الصغيرة التي كانت تحمل ما يقارب ثلاثين شخصاً فقط بكامل العدّة، وكونهم اشتبهوا بوجود عطل ما في السفينة، فقد قرروا مهاجمتها، ثم الصعود على متنها ونهبها بعد تدميرهم للفرنجة، ولكن خططهم ونواياهم تلك قد أحبطت، إذ إنهم لم يدركوا وجود ألاعيب كالقذائف والقنابل العنقودية تلك.

تمّ إصلاح الخرق، وتابعت السفينة رحلتها باتجاه الأعلى، ولكنها كانت بين الحين والآخر ترتطم بالقرارات الرملية، الشيء الذي أضجر الكابتن وجعله يعود بالسفينة إلى بغداد على جناح السرعة.

على مسافة ستة إلى عشرة أميال جنوب (الحلّة)، تقع قرية عربية صغيرة بائسة، مكونة من ثمانية عشر أو عشرين كوخاً طيني الجدار، ويسكنها ما بين ثمانين إلى مئة نسمة، تدعى هذه القرية الصغيرة من قبل العرب بـ(بئر نمرود)، ويقول المؤرخون إنها تقع في البقعة نفسها التي انتصب فوقها برج بابل منذ خمسة آلاف سنة تقريباً، ولكني أرغب بشدّة بالقول إنه لم يكن هناك أدنى آثار أو علامات باقية من ذاك البناء الشهير.

تقع القرية على الرأس الصغير الموجود على الحد الشرقي لبحيرة الهنديّة Hindija وهي بحيرة جميلة تتصل عند نهايتها الشمالية بقناة قديمة تصلها بنهر الفرات الذي تستمدّ منه مياهها، وتبلغ البحيرة حوالي أربعين ميلاً في الطول وثمانين ميلاً في العرض.

على ضفافها الجنوبية تقع أثار الكوفة ـ لئلا يتم الخلط بينها وبين آثار عقرقوف قرب الحائط المتوسط ـ ومن تلك الآثار بالكاد يوجد الآن أي علامات باقية، رغم أن الكوفة تعود إلى زمن مدينتي سلوقية والمدائن، وكانت سابقاً مثلهما من أضخم المدن في بلاد الرافدين الدنيا.

هناك جدول مائي صغير لا يتجاوز طوله خمسة أميال يصل بحيرة الهنديّة Hindija ببحر النجف، وهو بحيرة أو سبخة - إذا صح القول - أكبر من سابقتها بقليل وتقع على الضفة الشمالية لهذه البحيرة قرية (مشهد علي) العربية الصغيرة وتبعد حوالي خمسة أميال عن جنوب غرب الكوفة، أما على ضفتها الجنوبية فتقع قرية الشنافيّة Shinafieh الصغيرة حيث يوجد هناك جدول يخرج مياه بحر النجف ويصل طوله إلى خمسة عشر ميلاً، ويتجه إلى بحيرة أو سبخة ثالثة يسميها السكان خور عبد الله Chor Allah، وتقع إلى الجنوب الشرقي قليلاً من سابقتيها ولكنها أصغر حجماً وأقل عمقاً منهما إلى حد ما، وأخيراً تعود مياهها إلى نهر الفرات بواسطة جدول صغير يصل أيضاً إلى طول خمسة عشر ميلاً، تمر بأربعة حصون تركية صغيرة ومهجورة وهي: Grahim, Kiran, Semanwa, Dshera، تقع البحيرتان الأخيرتان في سهل منخفض قليلاً نصفه رملي والنصف الآخر سبخي، ولا يزال يحمل آثاراً لوجود عدة

قنوات في السابق كانت تقطعه في جميع الاتجاهات.

إن هذا الوضع يجعلني أعتقد أن تلك البحيرات ليست إلا النتيجة الطبيعية لشق تلك القنوات التي كانت تستخدم في السابق لريّ البلاد والتي تثبت أن تلك البحيرات تعود إلى زمن قديم نسبياً؛ إذ يحتاج الطين قروناً عديدة ليسدّ القنوات الضخمة بهذه الطريقة. تحوي كل تلك البحيرات وبخاصة بحيرة الهنديّة Hindija الأكثر عمقاً ثروة غنية من الأسماك الآتية من مياه الفرات، حيث يحتوي هذا النهر على أسماك يصل وزن بعضها حتى مئة رطل تقريباً.

تتصف حواف البحيرات بكونها سبخية جداً ومغطاة بالقصب الطويل الذي يشكل ملجأ لأعداد هائلة من البجع وطيور النّحام والكركي والبط والإوز والأفاعي والسّلاحف وغيرها. وتهبّ أعداد كبيرة من الطيور الخائفة والمجفلة عند سماعها لصوت عيار ناري، وتتصف المدينة بكاملها بكونها مسطحة تماماً ومجرّدة من الأشجار، ولكنها تمنح المرعى لقطعان هائلة من الجمال والخيول والحمير والجواميس والثيران والأبقار والماعز والأغنام التي تعود الى بدو شمّر والمُنتفِق، الذين يمكنك رؤية القرى المؤلفة من خيامهم السوداء متنشرة على شكل مخيّمات مضارب عديدة فوق السهول اللامتناهية حيث يعيشون هناك قريري العين، من نتاج قطعانهم الضخمة وغنائم المطاردات متجاهلين ببساطة المشاكل التي يتعرّض لها باقي سكان الكون.

في الواقع إن حياتهم حرة ومستقلة تماماً كحياة النسر الطائر بين الغيوم. وعلى مسافة ثلاثين ميلاً تقريباً شمالي غرب (الحلة) وخمسة عشر ميلاً جنوب غرب الفرات بنيت على كلا الجانبين لرافد صغير للفرات مدينة كربلاء الهامة، أو مسجد الحسين الذي سمّي نسبة للإمام الحسين الذي يُبجّل بشدة من قبل الفرس والتركمان والأفغان الذين يؤكدون أنه مدفون هناك.

لهذا السبب تعدّ كربلاء أدنى من مكة بقليل بالنسبة للأمم الثلاثة التي ذكرتها للتو، إذ تكمن أهميتها في اعتبارهم لها مكاناً للعبادة والحج.

إن كل مؤمن حقيقي فارسي أو تركماني أو أفغاني مهما كان فقيراً يبذل جهده للقيام برحلة مقدّسة إلى هذا المكان المبهج، ولو لمرة واحدة في حياته على الأقل إذا لم يكن باستطاعته تحمل التكاليف الباهظة للرحلة إلى مكة.

ويقوم الأشخاص الأثرياء بدفع مبالغ طائلة من الأموال لكي يحنّطوا الأموات من أفراد أسرهم ويضعوهم في صناديق ثم يرسلونهم إلى كربلاء ليتم دفنهم هناك.

لا يقتصر إرسال الأعداد الكبيرة من الجثث على أفراد الأمم الثلاث السابقة الذكر الذين يقيمون في بغداد والبَصرة، وإنما تصل الجثث من كابُل وطهران وأصفهان وهمذان وشيراز وكرمنشاه، والعديد من الأماكن الأخرى التي تبعد مسافات تتراوح بين المئتين إلى ألف ميل عن كربلاء.

بسبب الرحلة الطويلة للنعش الصلب المربوط على ظهر الحصان أو البغل أو الجمل، والتي تمتدّ ما بين الشهر إلى ثلاثة أشهر، فإن الجزء الأكبر من هذه الحمولة البشرية المروّعة يتحطم إلى قطع بكل معنى الكلمة قبل وصول القافلة إلى كربلاء.

ذات مرة بينما ما كنت أمتطي حصاني عائداً إلى بغداد مع بعض الأصدقاء صادفني الحظ السيء عندما رأيت إحدى تلك القوافل الجنائزية التي تفوح منها روائح كريهة جداً رغم أنه من المفروض أن تكون الجثث كلها محنطة، لكن الرائحة كانت رهيبة جداً حتى إننا كدنا نسقط مغشياً علينا، لذا أفسحنا مجالاً واسعاً لعبور القافلة، من المؤكد أن سائقي البغال الفرس لا يتمتعون بحاسّة شم قوية، إذ إنّهم كانوا يتأرجحون وسط هذا الجو المقزز طوال الطريق، وقد بدا جلياً أنهم مرتاحون إلى أبعد الحدود؛ يدندنون أغنياتهم المضجرة، أو يدخنون غلايينهم، لا بل وأكثر من ذلك فقد رأيت أحدهم يتناول فطوره الاقتصادي المؤلف من الخبز القاسي والتمر في أحضان رائحة المقابر تلك وبشهية مفتوحة كتلك الموجودة عند أي شاب متأنق يريد الاستمتاع بتناول عشاء فاخر في فندق (فيفث آفينيو) في نيويورك.

جنازة في طريقها إلى كربلاء

تقع كربلاء في موقع جغرافي صحي؛ فهي تجاور الصحراء العربية الشاسعة مباشرة إلا أنها بسبب حالة منازلها وشوارعها وضواحيها القذرة والمقززة، ولا شك أيضاً أنه بسبب وجود المقابر العديدة وسط أحياء المدينة، فإن كل أنواع الأوبئة تجتاح كربلاء باستمرار وبخاصة الكوليرا التي قضت على عشرة آلاف شخص، أي ما يعادل تماماً ثلث السكان في أقل من ثلاثة أشهر، وذلك بعد زيارتي إلى هناك مباشرة.

بني في كربلاء فوق قبر الإمام الحسين مسجدٌ جميل ذو حجم هائل يشكل مركز المدينة وهو البناء الوحيد لائق المظهر في المدينة.

رغم أن الأسواق كانت مظلمة جداً وقذرة ومليئة بأكثر الأجواء النتنة التي يمكن تخيلها، إلا أنها واسعة على نحو جميل وتفيض بمختلف منتجات آسيا الغربية وكذلك بالبضائع الأوروبية.

على مسافة خمسة عشر ميلاً شمال شرق كربلاء وعلى الضفة اليسرى للفرات تقع بلدة المُسيِّب Mussejjib أو Mushedjib الصغيرة محاطة بحدائق مزروعة بشكل جيد، وتجمّعات من أشجار النخيل الوارفة حيث يتوجب على جميع المسافرين من أو إلى كربلاء عبور النهر منها كما فعلنا نحن في الحلّة.

تبدو هذه البلدة من الداخل والخارج أكثر بهاءً من كربلاء إلى حدّ ما، ولكن رغم ذلك فإن مظهرها مخرّب جداً؛ طرقاتها قذرة للغاية؛ يحيط بها كمدينة كربلاء سور طيني قديم باستثناء المنطقة الواقعة قرب النهر، ولكن هذا السور في حال يرثى لها وليس له أي نفع الآن.

تضم البلدة حوالي عشرين ألف نسمة معظمهم من العرب والفرس، وتحتلها حامية عسكرية تركية صغيرة، وينتشر في البلدة العديد من المساجد ذوات القباب البيضاء والمآذن المرتفعة التي تحسّن مظهرها إلى حد كبير. فباستثناء بعض البيوت الواقعة على طول النهر وثكنات الجنود، ترى المنازل أبنية بائسة عبارة عن ألواح طينية مربعة، ومستوية الأسطح، بالكاد تبلغ عشرة أقدام في الارتفاع ومن عشر إلى عشرين قدماً مربعاً.

انطلقنـا مـن المُسـيَّب Mushedjib حوالـي الرابعـة مســاءً لكـي نصـل إلـى خان Tuweibah طويبـة الذي يبعد عشـرة أميـال تقريباً، قبل غروب الشـمـس، وفي طريقنا رأينا على مسـافة نصف ميل من يسـارنا فرقة من الفرسـان البدو يقبلون بسـرعةٍ هائلة عبر السـهل مباشـرةً باتجاهنا. بالطبع اعتقدت أنا وأصدقائـي أنهم كانوا عصابةً أخرى من السلابين يريدون أن يهاجموننا، واستعددنا لمهاجمتهم وفقاً لذالك، عندما استدار مصطفى الذي كان يسبقنا بعدة ياردات ورأى استعداداتنا الحربية، فالتمس منا بابتسامة أن نكـف عـن ذلك؛ إذ لم تكن لتلـك الجماعة التي تقبل نحونا بشـكل ثائر كالبرق أية نوايـا عدوانية. لم يكد مصطفى ينهي كلامه حتى كانوا على مسـافة عشـرين ياردة منا، وكانوا لا يزالون في أوج سرعتهم، فبدأنا نشعر بالتوتر الشديد، ثم، يا إلهي! لقد توقفوا فجأةً كأنما فتحت هوّة واسعة أمامهم مباشرةً.

كان حقّاً إنجازاً بطولياً بالنسـبة للفروسـية الهمجية، وحيث لـم يقم أي من الفرسان سُـمر البشـرة بتخطي الحـد، ووقفت جيادهـم اللاهثة كافـةً على خطٍّ واحـد بأرجلها المغروسـة بثبـات في الأرض كما لو كانت قد نمت هناك. بعـد التحية المعتادة اقترب الفارس الأكبر بينهم - وهو رجلٌ طويل عريض المنكبين، لا يبدو منه إلا جلد وعظام، له ملامح مرسـومة بوضوح، عينان سـوداوان صغيرتـان غائرتان لهما قـوةٌ ثاقبة، أنفٌ معقوف جميل، وشاربٌ ولحية أبيضان، وقد بدا جلياً أنه كان قائد المجموعة - وسـألنا بطريقة رزينة هادئة خاصة بالبدو ما إذا كنا قابلنا أو رأينا شـخصاً يمتطي فرسـاً حلـساء دون سـرج ويتجه إلى المُسيَّب Mushedjib، ثم واصل حديثه ليعطينا أدق مواصفات الفـرس مضيفاً أنها قد سُـرقت قبل ثلاث سـاعاتٍ من التقائنا بهـم، عندما كانت ترعى فـي المناطـق المجاورة لخيامهـم المنصوبة على بعد عشـرة أميالٍ شـرقي خان طويبة Tuweibah. أخبرنـاه أننا لم نصادف أحداً منـذ أن غادرنا نهر الفرات. أثناء ذلك لمح أحد الفرسـان البدو في الأفق البعيد للسـهل الواسع الممتد أمامنا فارساً وحيداً يمتطي حصاناً أسـوداً داكن اللون، ولكنه لم يسـتطع أن يميز ما إذا كان لونه أسـود أو كستنائياً أو بنياً من تلك المسـافة البعيدة، وجّه الجميع أنظارهم نحو الاتجاه الذي أشـارت إليه

يـد البدوي الثاقـب النظر، وبعد فاصلٍ من الصمت المطلق اقتربوا من بعضهم وأجروا بصـوتٍ منخفـض محادثة قصيـرة غير مفهومـة، ثمَّ اسـتأذنوا بالانصراف، وبالسـرعة الغاضبـة نفسـها التي تقدّمـوا بها نحونا انطلقـوا نحو الفارس الوحيد الذي سـرعان ما اختفى وراء الأفق الغربي. كان هؤلاء البدو الذين ينتمون إلى قبيلة المُنتفِق، مدجّجين بالسـلاح، فبعضهم كان يحمل رماحاً يصل طولها إلى اثني عشـر قدماً تقريباً، والبعض يحمل أسـلحةً عربية طويلةً وحيدة السَّـبَطانة، وآخرون يحملونهم مسـدسـات وسيوفاً وخناجر، لذا فقد كان سارق الفرس في حالة لا يُحسـد عليها أبداً إذ تمكنوا من أمساكه ذاك المسـاء. لم نتمكن أبداً من معرفة نتيجة تلك المطاردة العشـوائية.

عنـد المغيب مباشـرةً وصلنا إلى خـان طويبة Tuweibah حيـث توقفنا هناك حتى السـاعة العاشـرة تقريباً عندما ارتقى القمر عرش السماء. كان ظهور القمر هو الإشارة لمتابعة رحلتنا، ووصلنا إلى بغداد في صباح اليوم التالي تماماً عند بزوغ الفجر.

* * *

الفصل الثالث عشر

فصل قصير في المخيم

التحضير للرحلة - الصباح الباكر في المخيم - شراء الجواد العربي - نقل مجاني إلى الخليج العربي - في مأزق - قتل الضباع - القصبة - مغامرة - صيد الخنازير - في شقاء أليم - مهمة صعبة - مقابلة قطاع الطرق - قوة تحمّل الجواد العربي.

عند وصولي إلى بغداد وجدت رسالة تنتظرني من السّنيور (P) الذي كان لا يزال بين البدو يشتري الخيول والجمال وجواميس الماء. تم إحضار هذه الرسالة من الديوانية بواسطة فارسٍ بدوي، وقال لي ألا أتوقع وصول صديقي إلى بغداد قبل شهر آخر. استقبلت هذه الأخبار بترحيبٍ كبير؛ إذ كنت متلهفاً إلى قضاء أسبوعين من الصّيد على طول ضفاف نهر دجلة، ومشتاق بكل معنى الكلمة إلى التسفر عبر البلاد واستكشاف أطلال المدن البائدة والتنقيب عن الآثار، وفي النهاية توصلت إلى نتيجة أن كل ذلك كان عملاً أحمق إلى حدٍّ ما.

إنّ ما كنت متلهفاً إليه هو المتعة، وقد عرفت أنني سأجد المتعة الكاملة في التخييم لمدة أسبوعين على الضفة اليسرى لنهر دجلة، أسفل مدينة بغداد، واصطياد الحجل والبط والإوز والبجع وطيور النّحام والحُبارى والثعالب وبنات آوى والغزلان والخنازير البرية والضباع والأسود، حيث توجد جميع هذه الحيوانات في ذاك الموقع، ومن الممكن جداً تنويع هذا الصّيد بقضاء يوم عرضي أو يومين في اصطياد الأسماك، فقد كان كل من دجلة والفرات يفيض بالأسماك الكبيرة والممتازة. أبى

أصدقائي الذين دعوتهم للانضمام إليّ في حملتي تلك الدعوة، وأجابوا بلا مبالاة تامة أن الفصل كان حاراً جداً ولا يحتمل حتى التفكير بالصّيد، وأنني سأتسبب بموت حصاني في غضون عدة أيام بالاصطياد في جوٍّ حار ومرهقٍ كهذا. لحسن الحظ، أو بالأحرى لسوء الحظ تفشت الكوليرا في بغداد في اليوم التالي، وانتشرت بسرعة هائلة حيث قضى هذا الوباء المميت على مئات السكان في غضون عدّة أيام.

طرأ تغييرٌ عجيبٌ ومفاجئٌ على أصحابي اللامبالين؛ فاستنتج جميعهم في وقت واحد أن أجسامهم بحاجةٍ إلى تغيير في الهواء على وجه السرعة ودون أيّ تأخير. من الغريب جداً أنه رغم تصريح كلّ واحدٍ منهم بعدم خوفه بتاتاً من الآفة الكريهة فإنّ شعوراً أكيداً راودهم فجأةً وهو أنّ كل ما كانوا يحتاجون إليه هو المتعة ولكن ليس في هذه المدينة الكدرة؛ إنما خارجاً في الصحراء الواسعة وتحت حرارة الشمس التي عبّروا عنها سابقاً بقولهم مضايقة ومرهقة، ولم تكن لديهم أية مخاوف أخرى من إرهاق خيولهم.

باختصار: بعد ثلاثة أيام فقط لم يبق في بغداد أي مقيم أوروبي باستثناء بعثة المبشرين الفرنسيين؛ فقد كان جميعهم يعسكرون في الخيام على نحو أنيق في بقعةٍ مبهجةٍ جداً تقع حوالي ميلين أسفل مدينة طيسفون (المدائن) بين أطلال حائط سلمان پاك والضفة اليسرى لنهر دجلة، تماماً مع المكان الذي أردت إحضارهم إليه. حتى بالنسبة لسكان بغداد الأصليين فإن جميع هؤلاء الذين لديهم القدرة على العيش على إيرادهم لعدة أسابيع قاموا بهجر بيوتهم في المدينة على الفور ونصبوا خيامهم على ضفاف النهر خارج المدينة، في منتصف الطريق بين جدران المدينة وقرية قرارة الصغيرة. تألف مخيمنا من حوالي ثلاثين خيمةٍ تم نصبها في دائرة عريضة، وفي الوسط وقف أربعةٌ وثلاثون فرساً ممتازاً وكانت مربوطة جيداً ومحروسة ليلاً نهاراً من قبل عشرين شاباً من البدو المسلحين الذين جعلوا حراسة القوافل وحمايتها مهنتهم، وعددٍ جيد من كلاب الحراسة الممتازة وكلاب الصيد، وأخيراً وليس آخراً كانت محمية بأسلحة البارجة الصغيرة الجميلة (ساتيلايت) "Satellite" التي كانت موضوعةً تحت خدمتنا بتكرّم

من القنصل البريطاني قائد الجيش في بغداد، وكانت ترسو بقوة في النهر العظيم مقابل مخيمنا تماماً.

إن محاولة غزو ممتلكاتنا لم تكن مسألةً سهلةً على الإطلاق بالنسبة لأية عصابةً بدوية غازية، حتى وإن صادف أن كان الفرنجة الذين يصل عددهم إلى حوالي العشرين ومزوّدين بمجموعة كبيرة من أفضل الأسلحة النارية بعيدين عن حدود المخيم. ومع ذلك لم يصدف أبداً أن كنا جميعاً غائبين عن المخيم في آن معاً؛ حيث كانت هناك عدة سيدات في رعايتنا شاركننا حياتنا في المخيم واستمتعن بها إلى أبعد الحدود. قضينا وقتنا بطريقة مذهلة وبالطبع بدأ نشاطنا الصاخب قبل انبلاج النهار؛ فكان يمكنك آنذاك رؤية سائسي الخيول داكني البشرة منهمكين بتدليك الخيول وسرجها ووضع لجاماتها، وآخرون منهمكون بجمع كلاب الصيد، وهنا صيادٌ يتفحصّ بدقة أسلحته النارية وذخيرته، وهناك آخر منهمك بعملٍ بالغ الدقة في حزم بعض تلك المعدات بالقدر الذي يمكن حمله، وهناك بين الشجيرات القصيرة على بعد مئتي ياردة من المخيم يتلاشى العواء الكئيب الأخير لابن آوى بينما يعود إلى مخبئه مع اقتراب انبلاج الفجر.

باكراً في الصباح انطلقت سرية من الخيالة الصامتين خارج المخيم بقيادة بدويٍ يحمل صقراً لاصطياد الغزلان على يده اليمنى المغطاة بقفازٍ جلديٍّ سميك، ثم تبعوا مسار النهر العريض حتى اختفوا أخيراً في السديم الأربد للصباح الباكر. من جديد عاد الصمت لمدة ساعة أو أكثر ليعمّ المخيم، ولم يقتحم الغفوات الهادئة لسكان المخيم أي صوتٍ باستثناء السعال المتقطّع لأحد الخيول أو صوت الشخير العالي لسائسي الخيول النائمين أو صوت الرذاذ المفاجئ الناجم عن ارتطام بعض السمكات بالماء أو صيحة: «وينك» أي أين أنت لأحد الحرّاس البدو في المراقبة؛ إذ يحّيي البدوي بهذا السؤال صديقه الواقف في الجهة المقابلة من المخيم بين الحين والآخر فيقوم الآخر بالرّد عليه ليثبت له أنه ليس نائماً فيقول: «هوني» أي هنا، وتنشأ هذه المحادثة القصيرة بين الحرّاس حوالي كل ربع ساعة في الليل وفي النهار. مع مرور الوقت

اختفت الستارة الليلية تماماً وبقي نجم الصباح وحيداً في السماء، ولكنَّ حتى ضوء هذه المنارة الليلية الأخيرة كان يتلألأ بعدم استقرار ويأفل بشكل سريع حتى يختفي تماماً في غضون عدة دقائق. وفي الوقت الحالي صعد بشير الصباح الديك الصّاحي المغرور على كومة حطب النار المكدسة قرب المطبخ البدائي وصفّق بجناحيه ومطّ عنقه وحيّا ولادة اليوم الجديد بصوته المبهج المجلجل. وبدفعةٍ مفعمة بالحياة من يديه قفز الحاج حبيب قائد الساسة واستدعى مرؤوسيه الذين لا يزالون نائمين بعمقٍ للقيام بواجباتهم. كانت هناك بعض الخيول المدلكة والمُسرجة والمُلجمة، بعضها للسيدات وبعضها للسادة الذين خرجوا للتو من خيامهم وانطلقوا صحبةً بمرحٍ خارج المخيم للقيام بركوبهم الصباحي المعتاد باتجاه آثار المدائن أو خارجاً إلى الصحراء، فيما بقي اثنان أو ثلاثة من الخواجات (السّادة) في المخيم للتأكد من أن كل شيءٍ يجري على ما يرام. أما رجال المراقبة الليلية فقد تم الإفراج عنهم من قبل الرجال الآخرين فذهبوا إلى خيامهم ليرتاحوا. أشعلت بنشاط نيران المخيم من أجل طهو مختلف أنواع الفطور، ونفد صبر الخيول فراحت تصهل بقوة من أجل الشعير والماء، وتصدّت الكلاب بصوتها العالي لعددٍ من القامات البشرية الداكنة التي مشت بتمهّل نحو المخيم. تلك القامات هي نساءٌ بدويات يحملن الحليب والسّمن والجبن والبيض والدجاج والماعز... وغير ذلك من الأشياء للبيع. ولا يسمح لاولئك النسوة بدخول المخيم إذ أن لديهن هوسٌ فضولي كبير.

لذا خرج بعض المستخدمين لمقايضتهنَّ على مسافة خمسين ياردة من المخيّم قرب حافة النهر، حيث كانت هناك فرصة لمستخدمي البارجة الحربية للانضمام إليهم، بين الحين والآخر كانت تطلق رصاصةً إمّا من قبل ضباط البارجة أو من أحد الأشخاص الذين بقوا في المخيم، على مجموعةٍ من البط البري أو الإوز أو طيور الحجل التي تطير فوق رؤوسهم أو تحطّ على النهر أو تخرج من بين الشجيرات باتجاه الماء لتروي عطشها، بينما يكون أفراد طاقم السفينة الآخرون منغمسين في صيد الأسماك. بعد حوالي ساعةٍ أو ساعتين من النشاط الصاخب والكادح عادت المجموعة التي خرجت

لتستمتع بالركوب الصباحي المبكرّ وقد كان كل من البشر والبهائم في مزاج رائع؛ فبالنسبة للآدميين عادوا ووجدوا فطورهم جاهزاً على الطاولة التي وجّهوا نحوها اهتماماً فوق الطبيعي، وحتى من قبل الحسناوات رقيقات المظهر اللاتي فتحت شهياتهنّ بشكل عجيب بتأثير نسيم الصحراء الصباحي العليل بعد الفطور، قاموا بممارسة عدة ألعاب كالويست Whist والإيكارتيه Écarté والشطرنج والدّومينو، وذلك حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة تقريباً الوقت الذي تعود فيه عادةً مجموعة الصيادين، وقد أعلن عن هذا الحدث السار من قبل حارسٍ كان يترقب عودتهم من فوق أطلال الجدران العملاقة القريبة من مخيمنا. كانت تلك الجدران الشيء الوحيد المتبقي من آثار سلمان پاك. وأخيراً أطلّ علينا صيادونا العظماء يحسبون أنفسهم (النّمرود) بذاته ولكن ليس بالخبب الجريء لخيول مجموعة السيدات والسادة التي عادت لتوّها من جولة الركوب الصباحي؛ إنما ببطءٍ وثبات وكلّ من الخيول والفرسان يغطيها العرق والغبار، ويبدون بالإجمال شرّ من تحملّ وأرهق. حتى الصقر المغرور كان يدلّي جناحيه ورأسه، وكانت كلاب الصيد بذيولها المرتجفة بين سيقانها تعرج متألمة بجانب الجياد اللاهثة، وأفواهها مفتوحة باتساع وألسنتها بارزة ومتورّمة.

باختصار شديد كان كل شيء يوحي بأن فرقتنا الصغيرة قامت بمطاردة خطرة إلى أبعد الحدود خلف الغزلان السريعة المتّصفة بجدارة بكونها أرشق الحيوانات على وجه الأرض. ولكن بدا أن سرعتها كانت عديمة النفع بالنسبة للبعض منها أمام الطيران المندفع للنسر الشامخ، حيث كان يمكنك رؤية اثنين منها يتدليان من سروج اثنين من الفرسان بالإضافة إلى ثعلبٍ رماديٍ رائع وأرانب بريّة متعدّدة، وطيور الحجل والحُبارى... وغيرها. رحّبت الخيول الموجودة في المخيم على نحوٍ حيواني بالموكب الصغير، وذلك بصهيل يصيب بالصمم، بينما ركضت الجراء الصغيرة لتلاطف زملاءها في اللعب من كلاب الصيد، لكنَّ هذه الأخيرة كانت متعبة حتى الموت بسبب عملها الشاق، وكانت كأنها ميتة من الجوع، لذلك لم يكن لديها مزاجٌ للّعب، فراحت تعضّ الجراء اللطيفة بضراوة كلما اقترب أحدها منهم.

رحّب جميع أفراد المخيّم بحرارة بتلك الفرقة الشجاعة الصغيرة. وبعد أن تم انتزاع سروج الأحصنة، مشت مباشرةً نحو بقعة رمليةٍ كبيرةٍ قريبة، حيث تمدّدت على الفور وراحت تتدحرج فوق الرمال الناعمة اللامحدودة. إن جميع البدو يحبّذون هذه العملية التي تقوم بها الخيول لدرجة أنّ العديد منهم يرفضون بشدة شراء الخيول التي لا تتدحرج على الرمال بمجّرد فكّ سروجها بغض النظر عن عمرها، أو كم هي متعبة أو جائعة أو عطشى. وبعد أن تدحرجت الخيول على الرمال تم تسييرها لمدّة عشرة دقائق تقريباً ثم قاموا بربطها وتدليكها وإطعامها، ولكنهم لا يعطونها الماء إلاّ مرّتين في اليوم؛ مرةً قبل الشروق والأخرى بعد الغروب بصرف النظر عن العمل الذي قد تقوم به في الوقت المتخللّ.

بعد الغداء - الذي كان يُعدّ فطوراً بالنسبة للصيادين المرهقين - أخذنا غفوةً حتى انقضت الفترة الأكثر حرّاً من النهار، وبعد ذلك حصل اندفاعٌ جماعيّ مفاجئ للقيام بحمّام منعشٍ في النهر، ثم قمنا بجولةٍ قصيرةٍ بواسطة قوارب الباخرة. بعد الغروب قُدِّم العشاء الأكثر ترفاً وسخاءً على الإطلاق وسط الهواء الطلق حيث قُدِّم الخمر الفرنسي والنبيذ الشيرازي وحتى شراب المزر الهندي وتدفقت جعة پورتر بحرية وسخاء، ثم تبعتها الشمپانيا.

بعد أن سوّيت هذه المسألة الهامة، اجتمع تقريباً كل سكان المخيم في البقعة المستوية في الوسط للاستماع بالمساء الجميل لتلك المنطقة، يستمعون إلى سلسلة من الأغاني أو القصص الأوروپية أو العربية، أو إلى حفلةٍ موسيقية عظيمة نُظِمت بالجهود المشتركة لهواة الغيتار والكمان والفلوت والمثلث الموسيقي، أو يشاهدون الرقصة الحربية للحرّاس البدو العقيل Aghels الذين كانوا يرتدون كامل المعدات الحربية الخاصة بقبيلتهم ومهنتهم، وكانوا فخورين بعرض مهاراتهم في استخدام أصواتهم وأطرافهم وأدوات الحرب والموسيقى. مع انتهاء هذه الطقوس حلّ الظلامُ ثانيةً فانسحب كلٌّ من النساء والأطفال والرجال المتزوجون والعازبون المسنّون إلى خيامهم الخاصة. ولكن بدا أنّ الرجال الصغار والشّبان ودون سرعةٍ جديرة بالذكر

يرغبـون فـي معانقة مورفيـوس - إله الأحـلام - فقد قامـوا بطلب النرجيلـة وغلايين (الشـطب) و(التـبيل) و (meerschaums) والسـيجار والسـجائر أو أيّ وسـيلة من وسائل التدخين المولعين بها (في بلاد الرافدين الجميع يدخّن دون استثناء).

ومـع انقضـاء الوقت راحوا ينفثـون دخان التبغ بهـدوء إلى أن سـمعوا صـوت أول عواءٍ لابن آوى، عندها هجموا بمسدساتهم وبنادقهم على أكتافهم إلى مـسافةٍ قريبةٍ من النهر لينصبوا كميناً للطريدة التي جاءت في ذاك الوقت تقريباً لتشرب من النهر، ولكن نـادراً ما يحصل ذلك، لقد عادوا إلى مـساكنهم صفر اليدين، عـادةً كانوا يرجعون إلى المخيّم ما بين السـاعة العاشرة ليلاً ومنتصف الليل. عندما اقتربوا من المخيم اعترضهم الحـرّاس المتيقظون والكلاب الأكثـر تيقّظاً، وبالطبع كان عليهم الرّد مباشـرةً، إلاّ إذا كانـوا يرغبـون فـي المجازفة بأن يتم رميهم بالرّصـاص - وهو أقل شـيء مزعج وخطر في الوقت نفسه ممكن أن يتعرّضوا له - فأولئك الحرّاس أصحاب الوجوه الداكنة هم أشـخاصٌ جريئون للغاية، ومستعدون للإطلاق مباشرةٍ عند الشعور بأدنى إنذار، ورغم كونهـم مزودّيـن بمسـدسـات الزند المصوّنـة العربية المألوفـة فإنهم رمـاةٌ بارعون في المسـافات القريبة. عند وصولهم إلى المخيم كانت الأسـرة قد حملت خارج الخيام، وفُرشـت فوق الأرض في وسـط السـاحة قرب الخيـول، إذ إنّ الشـبّان وصغار العمر يفضّلـون النوم في الهواء الطلق تحت السـماء المزدانة بالنجـوم على اختناقهم بالغبار وبجو الخيام المرهق. وعند ذهابهم إلى النوم وضع كلٌّ منهم مسدسـاً أو بندقية ملقّمةً تحت وسـادته، ليـس بهدف الحماية بقدر ما هو بهدف منع بنات آوى من الاقتراب؛ إذ إنـه بمجرّد أن يصبـح المخيم هادئاً تطوف حيوانات الغنائـم تلك بمجموعاتٍ صغيرة حول الشجيرات القصـيرة التي تحيط بالمخيم، تجذبها الرائحة المغرية للطيور السمينة ولحم الطرائد ولحم الضأن والسمك المتوفرّ.

بعد قليلٍ كان كل من في المخيم نائماً بعمق باستثناء اثنين من جراء الصيد الخرقاء يسترسـلان في اللعب بمرحٍ صاخب، لقد كانا مبتهجين بضوء القمر السـاطع ونسـيم الليـل المنعش، وعازمين على ألاّ يسـمحا لأحدٍ بالنوم، لذا كانـا يواصلان بعزمٍ وعناد

مطـاردة أحدهمـا للآخر، يوقعـان كل ما يصـادف طريقيهمـا؛ النرجيـلات، القوارير، الكراسـي، الدّلاء، ويركضان بيـن أرجل الطاولات والخيول، يتعثـرّان بأعمدة وأوتاد الخيام، يأخذان جزمة أو حذاء أحدٍ ما، يسـحبان أغطية الأسرّة، يقيمان سباقاً للقفز من فوق القامات البشـرية المتمددة في جميع الاتجاهات، أو يتدحرجان من فوق الفراش ويدفناهـا مع النائمين بالرمال كما لو أنها كانت ممدودة فقط من أجل تسـلية الكلاب. في ذاك الوقت سـمعت شـتيمة مفعمة بالطاقة متبوعة برفسـةٍ مصوبـةٍ جيداً اصطدمت بعنـف بـرأس أحد الجرويـن الصغيريـن لتظهر للعيان شـخصاً حقيراً خارقـاً للطبيعة، وتسبب اختفاءهما المفاجئ والمذل. لم يكد يعمّ الاستقرار مرة أخرى حتى سُمع من جهة الشـجيرات المجاورة عواءٌ طويل منقبض لابن آوى نصفه حزين ونصفه مبتهج. وسـرعان ما تبعته كل المواهـب الصوتية المتوفرة عند أبناء جنسـه في الصحراء، لتثير الاشمئزاز الشديد لجميع المخلوقات الحية على وجه الأرض باستثناء أنفسـها.

أيّمـا امرئٍ حل عليه سـوء الحـظ بأن عزفت لـه حيوانات الليـل الطوافة تلك لحن (التـيريناد) الليلي يـدرك تماماً مقدار الحقد والضغينة الذي يكنّه لها كل شـخص في المخيـم. بعـد قليل ربما لاحظ أحد هؤلاء المترصّدين بعينه الحادة حركةً بالكاد مرئية رغـم أنهـا كانـت بين القامـات البشـرية المتمددة علـى الأرض. تلقّت الـكلاب لحن (التـيريناد) الفظيـع بنبـاحٍ مسـعور، ولكن سـرعان ما تمّ إسـكاتها بعدّة كلمـاتٍ آمرة خرجت بنبرة صوتٍ منخفضة. كان بالإمكان رؤية حوالي سـتة أشـخاص من النائمين يقلبون وجوههم للأسـفل ببـطءٍ وينبطحون دون حراك، ومسـدسـاتهم وبندقياتهم في أيديهم استعداداً لاستقبال مزعجي الليل بالطريقة الملائمة.

وبعد قليلٍ ظهرت الحيوانات المتوحشة على قمة التلة المرتفعة على مسـافة حوالي مئة ياردة من المخيم. توفرّ هذه التلة رؤية ممتازة لبنات آوى، لذا فأوّل ما تمركز أنفسـها فوقها من أجل أن تـستكشف إن كان كلّ شيءٍ هادئاً. ها! هناك واحد، وهنا آخر، وهناك ثالـث، وهلمّ جرّا، جميعها هادئة لا تصدر أدنى ضجة، ويقوم كلٌّ منها بآذان مفتوحة وأنف متنشـق وعيونٍ مطّلعة بإجـراء تفحص عام للوضع، وقبـل انقضاء خمس دقائق

كانت تحتل التلّة أكثر من أربعين من تلك الأجسام الداكنة الموقرة. ثم سُمعت أوامر بصوتٍ بالكاد مسموع في المخيم تقول: (انتباه!) (أطلق!)، ثم ضجة داوية؛ انطلق الرصاص من أكثر من نصف دستة من البواريد، كأنه كان دفعةً واحدة موجهة من رجل حربٍ بارع، وفي أسفل التلة كانت تتدحرج أعداد وأعداد من المتطفلين – كما كانوا سيصبحون – بعضها أموات والبعض يموت، وأخرى تعرج وتسعى للهرب بقلق، لكن سرعان ما تتم مباغتتها وإعدامها دون شفقة من قبل الحرّاس ثاقبي النظر الذين يخوزقونها على رماحهم، ويعتبرون أنّ البارود أثمن من أن يتم هدره على طرائد كتلك. سحبت الجيف مباشرةً نحو حافة النهر ورُميت في مياه دجلة، وبذلك حصلت على نقل مجاني إلى الخليج العربي.

كان هذا وصفاً دقيقاً ليومٍ واحدٍ في المخيم خلال فترة إقامتنا قرب أطلال المدائن. سأتجرّأ على إضافة بعض الحوادث التي حصلت مع مجموعتنا خلال تلك الفترة، وذلك من أجل المطالعة لقرّائي الذين يشعرون بأنهم مهتمون بالمشاهد ومغامرات الصيد. ذات مساء، عندما كنت عائداً مع اثنين من أصدقائي إلى مخيمنا من نزهة إلى أعلى النهر على ظهور جيادنا شاهدنا قبل مسافة خمسة أميالٍ من المخيم، على الضفة اليسرى للنهر، في مكانٍ يدعى القصبة Casseba حقلاً يعود لعربٍ فقراء، يعملون في حراسة محطة وقود في مكان بعيد أسفل النهر. وجدنا الحقل مدمّراً تماماً بفعل الخنازير البرية التي كان يمكن تمييز آثار أقدامها بسهولة، وبدا جلياً أن التدمير تمّ قبل وقتٍ لا يزيد على أربع وعشرين ساعةٍ الماضية، فقرّرنا أن نترصّد للطرائد في المساء التالي. في صباح اليوم التالي أرسلنا اثنين من الرجال إلى المنطقة ومعهم رفوشهم ليحفروا ثلاث حفر تكون أماكن اختبائنا، حيث لم يكن هناك أيّة شجيرات أو أشجار، على مدار خمسمئة ياردة من الحقل.

قبيل الغروب بقليل أرسلنا ثلاثةً من رجالنا الصغار إلى هناك، وكان برفقتهم حمارٌ قويٌّ ليحمل الغنائم إلى المخيم في حال كان النجاح حليفنا، وبما أنه لم يكن هناك مخبأ للرجال ولا للحمار كنا مضطرين أن نتركهم على مسافةٍ خلفنا مع تعليمات بعدم

الحراك، ولكي نمنع الحمار من النهيق ربطنا بذيله حجراً يزن خمسة أو ستة أرطال، وهو إجراء وقائي متّبع من قبل السكان العرب؛ حيث إن الحمار لا ينهق إذا لم يستطع رفع ذيله. تركناهم هناك مع تلك القيود والتعليمات، ومشينا نحو الحفر التي كانت تبعد عن بعضها حوالي مئة ياردة، ويصل عمقها إلى ثلاثة أقدام، وحوالي اثنين ونصف محيطها.

بمجرد اختفاء الشمس في الغرب انسحب كلٌّ منا إلى حفرته، وأنزل نفسه وبندقيته بأفضل طريقةٍ ممكنة داخل هذا النُزل الضيّق. لم يمضِ وقتٌ طويلٌ قبل أن يكون صبري وصبر صديقيَّ الإثنين محطّ اختبارٍ صارم؛ كانت الشمس تسطع طوال النهار بقوةٍ هائلة داخل الحفر التي نشغلها، والتي كانت جوانبها تختزن الحرارة، وتنشرها بصفاء نيّة حتى نصبح غير قادرين على إسناد ظهورنا إليها، بينما تسبب لنا الحرّ المنبعث من القعر بظهور البثور عندما جلسنا. كان هناك تناغمٌ تام بين الجو داخل الحفر والحرارة المنبعثة من الجوانب، لذا تدفّق العرق بوفرة من كل مسامةٍ في أجسادنا، وبفعّالية تامة أكثر من أكثر الأجواء حرارةً داخل أي حمّام تركي. لسوء الحظ لم يكن هذا كلّ شيء؛ فقد كانت الحفر تعجّ بعشرات الألاف من ذباب الرمل، وهي بالغة الصغر لونها بنّي مصفر، ويبلغ حجمها حوالي سدس حجم البعوضة ولكنها تلدغ بتشبثٍ أكثر، قادتني هجماتها الضارية إلى اليأس، وأجبرتني على تغطية رقبتي ووجهي بمنديلي، وعلى حمل بندقيتي بين ركبتيّ ووضع يديّ في جيبي. لو كان مسموحاً لي أن أشعل غليوني لكنت تخلصت من تلك الحشرات التي تعذبني على الفور؛ إذ إنها لا تستطيع مقاومة الدخان نهائياً. ولكنَّ هذا التسامح كان خارج نطاق السؤال؛ حيث تمتلك الخنازير البرية حاسة شم حادةٍ، وسوف لن تظهر نهائياً في الحقل إذا اشتّمت رائحة الدخان، ونظراً إلى العذاب الذي كنت أتحمله كان ظهورها هو الشيء الذي أتمنى حدوثه بأكبر سرعةٍ ممكنة لعلّي بذلك أستطيع التحرّر باكراً من حفرة الجحيم التي أقبع بها.

مددتُ رقبتي عدة مرات لأستكشف الجوار، ولكن رغم أن سحابة الليل قد حطّت منذ وقتٍ على ضفة النهر كان كلّ شيءٍ محاطاً بصمت كصمت القبور باستثناء الخفاش

الذي كان يخفق بجناحيه حولي بين الحين والآخر، وسمعت أيضاً صوت الرذاذ الناجم عن سمكة أو سلحفاة في النهر. لو لم أكن أرى النجوم المتلالئة فوق رأسي لراودني الشك أني كنت مدفوناً حيّاً بطريق الخطأ. جلست مثنياً كالقرد لمدة ساعتين، وركبتاي تصلان إلى أذنيّ وورحت أعدّ النجوم فوق رأسي من مجرّد الضجر، ولكن عندما تشوّشت الأعداد ببعضها بعد أن عددتها مرتين أو ثلاث تخليت عن العد، ورحت أتساءل إن كان صديقاي يستمتعان بالأماكن الفاخرة التي يختبئان بها كما كنت أفعل، أو أنهما قد تركاني وحيداً لأتأمّل بصفاء في تفاهة الوجود البّشري.

لا أعلم كم بقيت على هذه الحال، ولكن كلّ ما أتذكره هو أنني شعرت بالنعاس، وكنت على وشك أن أسترسل في غفوةٍ لا إرادية، عندما عدت إلى عالم الواقع بسبب ضجة غريبة تشبه سعال كلبٍ ضخم يحاول إخراج قطعة عظمٍ عالقةٍ في حلقه مددت رقبتي بطولها الكامل، ونظرت في الاتجاه الذي ينبعث منه الصوت، لكنني لم أستطع رؤية شيءٍ يتحرك. في غضون ذلك كانت الضجة قد اختفت تماماً، إلا أنني كنت متأكداً من عدم كوني مخطئاً، لذلك ولكي أشعر بالرضى التام نظرت بثباتٍ إلى مسافةٍ أبعد فرأيت جسماً مظلماً يقف دون حراك في منتصف الطريق تقريباً بين حفرتي وحفرة صديقي (W)، حيث كان طول الخط المستقيم بين حفرتي وحفرته حوالي خمسين ياردة. ورغم أنّ القمر كان ساطعاً لتوة فإنه لم يكن هناك ضوء كافٍ لأبصر أيّ نوع من الحيوانات كان، ولكنني كنت أتساءل ماذا حلّ بكلٍّ من صاحبيّ؛ إذ يجب أن يكونا قد سمعا تلك الضجة إذا كانا لا يزالان في أماكن اختبائهما، ومستيقظين.

كنت على وشك أن أسدّد ضربةً إلى البهيمة، عندما بام! بام! توجهت رصاصتان في الوقت نفسه تقريباً، فتمكنت من رؤية أنّ الجسم الذي أطلق عليه النار لم يكن خنزيراً برياً؛ كان إما ضبعاً أو ذئباً ضخماً. سقط الحيوان المتوحش على الأرض دون أن يئن كما لو أنّ صاعقةً ضربته، ولكن بمجرد أن خرج صديقي (W) من كمينه قفز الحيوان وانسلّ هارباً. وعند مروره من أمام مخبئي أطلقت عليه رصاصةً أردته مباشرةً على الأرض دون أن ينهض مجدّداً. ثبت أنه ذكر ضبعٍ ضخم وكان على الأرجح آتياً ليخمد عطشه من ماء النهر.

اخترقت جسده ثلاث رصاصات؛ واحدة عبرت من أسفل عنقه والثانية من بين كتفيه والثالثة خرجت من الجزء اللحيم في القسم الخلفي من جسده. رغم أننا كنا نفضّل اصطياد خنزيرٍ صغيرٍ وسمين بدلاً من هذه البهيمة القذرة، فقد بدا واضحاً أننا لن نحظى بفرصةٍ لاصطياد الخنازير في تلك الليلة؛ فمن المؤكد أنها أصيبت بالهلع وفرّت هاربة إثر صوت رصاصنا، لذلك قررنا أن نحمل الضبع إلى المخيم، ونجرّب حظنا مع الخنازير في يوم آخر. انضمّ إلينا العرب بينما كنا نتفحّص الجيفة، ولكن ما لبث الحمار حينما لمح الضبع أن نصب أذنيه وهزّ رأسه واستدار فجأة، ثم رفس الرّجل العربي الذي يقف إلى جانب الضبع الميت على رأسه بعنفٍ وهرب، كان تصرّفا مفاجئاً جعلنا بالتأكيد ننفجر ضحكاً بصوتٍ رنّان. لقد تكلّفنا عناءً جماً في سبيل استرجاع الحيوان الهارب وإعادته إلى حيث نريده أن يكون، ولكنه رفض بإصرارٍ حمل غنيمتنا إلى المخيم فوق ظهره، فنهق بضراوةٍ وهزّ رأسه، وراح يشبّ ويرفس في جميع الاتجاهات كلّما حاولنا أن نضع الحيوان فوق ظهره.

بعد أن أدركنا خيبة محاولاتنا في إجباره على القيام بهذا النوع من العمل، تخلّينا عن فكرتنا هذه، وقرّرنا أن نسلخ الضبع، العمل الذي تمّ إنجازه بسرعة تامة بعد ذلك، تركنا الجيفة هناك وأخذنا الجلد فقط. ظنّ العربي أن الحمار لن يرفض حمل الجلد فامتطى ظهر الحمار ورمى له صديقنا (J) الجلد، بينما قمت أنا بتغطية عينيّ الحمار، ثمّ سار كل شيءٍ على ما يرام، كان العربي يمتطي ظهر الحمار ويضع جلد الضبع على كتفيه، في حين كنّا نتبعه سيراً على الأقدام، منغمسين في التدخين، أخبرنا العربي أنّه بمجرّد أن أطلقنا رصاصنا اندفع قطيع كبيرٌ من الخنازير البرية من جانب مخبأه بين الجنبات، يقوده خنزيرٌ ذكرٌ أكبر من حماره، ولو لم نطلق الرصاص على الضبع المقزّز لحظينا بعد وقتٍ قصير دون شك بفرصةٍ لاصطياد الخنزير، التي رغم كونه مسلماً، فإنه لن يمانع بأن يلمسها إذا ما دفعنا له، ولكنه لن يأكل منها مقابل أيّ مبلغٍ كان.

بالكاد أنهى العربي حديثه عندما لمح الحمار عن طريق الصدفة الجلد البغيض مرّةً أخرى، وبعد أن كان يمشي طوال طريق العودة بحركةٍ رشيقة، أقحم رأسه فجأةً

بين أطرافه الأربعة، واندفع بسرعةٍ وفرّ هارباً مع العربي التعس، رغم كل المحاولات اليائسة للآخر في إبقائه على المسار الصحيح، واندفع مباشرةً عبر الريف، وأخيراً قام بقذف راكبه إلى شجيرات الشوكيات. مرّةً أخرى كان سيد نفسه؛ فلم ينتظر وصولنا بل انطلق باتجاه المخيّم الذي يبعد حوالي ميلين، ولم يخفف من سرعته أبداً حتى وصل إلى هناك، في حين قمنا نحن بالتقاط صاحبنا العربي، ولحسن الحظ أنه سقط داخل جلد الضبع الذي فقدناه في سباقنا الإلزامي عبر الحقول. بعد ذلك بحوالي ساعة وجدنا الهارب طويل الأذنين يقف بهدوءٍ قرب الخيول في المخيّم.

بعدة عدّة ليالٍ ذهبنا ثانيةً إلى القصبة Casseba لنجلب خنزيراً برياً بغية تغيير نظامنا الغذائيّ قليلاً؛ إذ رغم أنني لست مغرماً بأكل لحم الخنزير بأيّ شكلٍ كان فإنّي لا أتردّد مطلقاً في أكل لحم الخنزير البري أو ذكر الخنزير كونه أفضل بكثير من لحم الخنزير المدّجن، وذلك للأسباب الصحية التالية: إن الخنزير البرّي نقي في طعامه أكثر بكثير من الآخر، وهو نباتي تماماً وغير مولع بالتمرّغ بالوحل والقاذورات؛ على العكس تماماً؛ فهو مولع بالمياه النظيفة التي يشرب منها بطبيعة الحال، وبالإضافة إلى ذلك إنه سباحٍ ماهر وطوال حياته يستنشق هواء البراري النظيف والمنعش، ونظراً لميله إلى التجوّل دون راحة فهو لا يسمن أبداً بطرقٍ غير طبيعية. ولهذه الأسباب يظهر جلياً أن صحته وبالتالي لحمه يفوق لحم الخنزير المدجّن، الأمر المصدّقَ عليه بإسهاب من قبل الفحوص الطبيعية.

بالعودة إلى مغامرتنا، وجدنا الحفر التي نزلنا بها المرة السابقة على ما هي عليه، فنزلنا فيها مرّة أخرى بعد الغروب مباشرةً. هذه المرة لم يكن علينا انتظار الطريدة لوقتٍ طويل؛ إذ لم نكد أن نستتر في أماكن اختبائنا حتى سمعنا حفيفاً عالياً للأوراق الجافة التي كانت تغطي سطح الحقل، وبين الحين والآخر كنا نسمع قباعاً مفاجئاً تُعلمنا باقتراب زبائننا ذوي الشعر الأهلب الخشن. لم أستطع أن أكف عن رفع نفسي لإلقاء نظرة عليها، ثمّ وقفت هناك في وسط الحقل على مسافة ستين ياردةٍ تقريباً من مخبئنا. كانت عائلةً ضخمةً مؤلفةً من عشرة خنازير، ثمانية منها متوسطة الحجم،

ويبدو أنها لا تتجاوز السنة من العمر، وكانت تحت رعاية اثنين من الخنازير البالغة الضخامة، وقد بدا جلياً أنهما والداها. قام الآخران بالمراقبة جيداً، قلمّا كانا يخفضان رأسيهما الثقيلين، بينما كانت الصغار منهمكة بالحفر لتطمر خطومها حتى آذانهم بالأوراق اليابسة والسويقات.

جذب انتباهي - وقد أقول إعجابي على نحو خاص - ذلك الحيوان الكبير الضخم؛ حيث وقف هناك في الشفق المتلاشي بسرعة، وكان جسده القوي مغطىً بكثافة بغطاءٍ طبيعي من الشعر الأهلب الطويل الخشن، المتوضع بشكلٍ قائم تقريباً فوق ظهره العريض، وكان رأسه المربع الثقيل بوزن جسده تقريباً، وفكه السفلي مسلح بأنيابٍ هائلة ملتفة إلى الخلف بوضوح وتشبه بشكلها نصل المنجل أو الهلال، ويبلغ طولها تحديداً ثمانية إنشات، بينما لا يقل وزن الحيوان عن أربعمئة رطل. وقف الجد الداكن لهذا المخلوق المفترس المظهر بانشراحٍ واضحٍ تحت السماء المصبوغة باللون الوردي الباهت التي شكلت خلفية جميلة لهذا المنظر الطبيعي المسائي لحدود صحراء اللور المضاء بآخر مسحات الشفق الراحل، ولم أستطع أن أمنع نفسي من الاعتراف بأنَّ هذا الذكر القوي كان يستنشق الهواء ويضرب على الأرض بأطرافه الأربعة مقدّماً مثالاً حيّاً عن الاستقلال والجموح البرّي المتوحّش.

دفعتني هذه الحالة إلى الرغبة في الحصول على رأسه، رغم أنني كنت أعرف أنّ لحمه في طبيعة الحال سيكون قويّ المذاق وأقل لذّةً بكثير من لحم أصحابه الصغار وذلك بسبب عمره وحجمه الكبيرين في الوقت الحاضر، آنذاك رأيت الخنانيص تتقدّم ببطءٍ بقيادة الحيوان الكبير نحو مكان اختبائي، كانت على مسافة لا تتجاوز أربعين ياردة من مخبئي، وكنت على وشك تصويب بندقيتي نحوها، عندما انفصلت عن طرف الحفرة كتلتان كبيرتان من التراب وسقطتا فوق قدميّ. مع أن الضجة التي نجمت عن هذا السقوط كانت خفيفة جداً، فإنها كانت كافية لإثارة شكوك قائد المجموعة المحترس الذي رفع رأسه البشع مباشرةً وبذلك لمح جزءاً من بندقيتي أو من رأسي، وقبل أن يكون لدي الوقت الكافي لأسدد نحوه ببندقيتي (الجفت) أطلق

قباعاً قوياً حاداً، وانطلق مندفعاً عبر نبات الفول، ثم دوّت الرصاصتان اللتان أطلقتُهما بتتابع سريع، ورغم أن محاولاتي للنيل من الحيوان الكبير قد خابت، فإنني اكتفيت ورضيت برؤية أحد أفراد ذرّيته يتدحرج وينقلب فوق الأرض، فرّ الأخَر مباشرة نحو الدغل الذي يبعد حوالي خمسمئة ياردة، وتبعتها أربع رصاصاتٍ أخرى صادرة عن أصدقائي الذين نجحوا بشلّ حركة الخنزيرة الكبيرة على نحوٍ خطير، وقلبها رأساً على عقب، ولكن قبل أن نتمكنّ من مباغتتها نهضت على أقدامها مرّةً أخرى ونجحت في الاختفاء.

مع ذلك شعرنا بالمتعة عند رؤيتنا للعربي الذي تركناه في المكان نفسه حيث اختفت الخنازير، وهو يقدّم لنا عرضاً مجانياً لقدراته في الجري. رغم أنه كان مسلحاً بمسدس الزند المصوّن البدوي وخنجر معقوف، فإنه عند رؤيته الحيوانات الهاربة تندفع مباشرة نحوه فكّر أن الاحتراز هو الجزء الأفضل من الشجاعة، وانطلق بسرعة كسرعة كلب الصيد تاركاً بشكلٍ مخجلٍ حماره خلفه ليتصرف بدهائه الخاص. عندما لاحظ الحمار التشتت والفرار المفاجئ لسيدّه فهم التورية مباشرةً وانطلق خلف صاحبه يضرب كعبيه بالأرض وينهق بشكلٍ هائج. لم أشهد في حياتي مشهداً مضحكاً أكثر من هذا.

عندما عدنا إلى حيث تمدّد ضحيتنا وجدنا الضحية خنزيراً حوليًا سميناً وجميلاً يزن حوالي مئة رطل وهو الشيء الأنسب تماماً لحفلة عشاء. بعد ذلك بقليل سمعنا صوتاً بعيداً لصاحبنا العربي يدفع حماره العجوز إلى هرولةٍ بطيئة وذلك بسلسلة من الصيحات الغريبة والضربات القوية بعقب سلاحه ورفساتٍ مصوّبةٍ جيداً. عندما أتى أكّد لنا أنَّ الخنزير الذكر العجوز قد رآه وأنه كاد يبعجه لو لم يبتعد عن الطريق، وكان الخنزير محنقاً جداً بتأثير جرح في كتفه، والذي منه كانت تتدفق الدماء - كما أفاد العربي - أثناء اندفاعه إلى الأمام، هذه المرّة لم نتعرّض للصعوبات والمعاناة في تحميل الطريدة على ظهر حمارنا؛ ذلك أننا اتخذنا التدابير الوقائية اللازمة بلفّ الخنزير ببطانيةٍ صوفيةٍ كبيرةٍ كنّا قد أحضرناها معنا لهذا الغرض تحديداً.

في طريق عودتنا أجهزنا على اثنين من بنات آوى اللتين كانتا بصحبة أخريات يتفرّجن على القمر الساطع من على قمة تلةٍ تقع فوق مدينة طيسفون (المدائن)، وأجفلنا قطيعاً صغيراً من الغزلان كانت ترقد على مسافة مئتي يارد من يسارنا، ورغم أنا أطلقنا ثلاث طلقات نحوها فإننا لم نفلح في اصطيادها؛ وذلك بسبب خفة حركتها التي تُضرب بها الأمثال؛ فعلى الأرجح أنها هربت قبل حتى أن نتمكن من رؤيتها. بعد ثلاثة أيام قمنا باصطياد اثنين منها، ولكن بواسطة الصقور وكلاب الصيد المدّربة جيداً على الاصطياد، وهي الطريقة المفضلة لصيد الغزلان بين العرب، وقد تم شرحها بدقة في جزءٍ سابقٍ من هذا الكتاب.

ذات صباحٍ خرجت قبل بزوغ الفجر لاصطياد الحجل أنا وأربعةٌ من أصدقائي، وكان من بينهم اثنان من المبشرين الانكليز، السيدان (B) و(E) اللذان عاشا مع عائلتيهما في بغدادٍ مدةً تجاوزت عشر سنين. افترقنا على مسافة عدّة أميالٍ من المخيم، فطاف المبشران برفقة شخص آخر من المجموعة بحثاً بين الجنبات المنخفضة حول الجدول المتشكل من السبخة المتصلة بالنهر، بينما تتّبعنا أنا وصديقي (T) مجرى النهر وقمنا باصطياد العديد من أزواج الحجل والبط، ونتيجة حرارة الشمس التي غدت مع اقتراب فترة الظهر مزعجة جداً قررنا العودة إلى البيت، وقد شعرنا أيضاً بالجوع وكنّا على مسافةٍ بعيدةٍ من المخيم.

عندما كنا على وشك أن نعود أدراجنا لفت انتباهي صديقنا (J) إلى قرارةٍ رملية صغيرةٍ في النهر تبعد مسافة ميل واحد تقريباً إلى الجنوب، وكانت بكل معنى الكلمة مغطاة بالبط والإوز والبجع والنحام، ومن بين الصنف الأخير كانت هناك طيورٌ جذابةٌ جداً على نحو خاص؛ ذلك أن ريشها كان وردياً وقرمزياً برّاقاً، مما أغرانا إلى التقّدم ميلاً آخر بالرغم من الاحتجاج الجدّي لمعدتينا الخاويتين. وعندما أصبحنا على مسافة مئتي ياردة من جزيرة الطيور، وبينما كنت أتسلّل عبر القصب الطويل النامي على الضفة لأبقى بعيداً عن أنظار الطيور رأيت حيواناً ضخماً بدا إلى حدٍّ بعيدٍ كأنه كلبٌ بدويٌّ

ضخم يربض فوق تلّة منخفضةٍ مغطّاة بالعشب على الضفة المقابلة، ويحدّق بوضوح إلى جماعة الريش التي تحط على تلك الجزيرة الصغيرة. كان المتفرّج المقابل ذا لونٍ بنيٍّ فاتح وصدر أبيض مصفر، ورأس مدوّر، وله نظرةٌ خاصةٌ كالقطط.

لمعرفتي بعدم وجود أية مخيمات بدوية في المنطقة راودني الشك بكونه كلباً ولكنّ فكرة أن يكون أسداً كانت منافيةً للعقل إلى حدٍّ ما؛ إذ إنه نسبةً إلى أقوال السكان أصبح الأسد نادر الوجود في المنطقة منذ زمنٍ بعيد، وإذا كان هناك أسد وحيد يطوف في الجوار لكان دون شك فرَّ خائفاً قبل ذلك من الصاعقة الدّورية التي تصدرها أسلحة الباخرة، والتي كانت تطلق كلّ مساءٍ عند الغروب، ولا بدّ أنها كانت تُسمع في هذا المكان؛ إذ إنه حسب مسارنا كان بعيداً جداً عن مخيمنا وذلك بسبب تتّبعنا لمجرى النهر كثير التعرّجات، إلا أنه في الواقع كان يبعد حوالي ميلين فقط بخطٍ مستقيم.

بعد أن أصبحت محتاراً جداً بأيّ اسم اسميّ ذاك الحيوان قرّرت أن من الأفضل أن أخبر صديقي بأن هناك كلباً يتولىّ أمر القرارة الرملية، وعند سؤاله (أين؟) أشرت باتجاه الحيوان فأكّد لي مباشرةً أنّ نظيرنا المقابل هو الأسد. عندما وجدت أننا كنا نجتمع على الرأي نفسه أومأت له بأن ننحني بانخفاض لنناقش المسألة معاً؛ لو كنّا نحمل بواريدنا بدلاً من بنادق الرش التي لا تتسبب بالأذى لكان كل شيء على ما يرام، وكنا تمكنّا من القضاء عليه بإصابةٍ مباشرة وسلامةٍ تامةٍ لأنفسنا، ولكن كوننا لا نملك سوى الخردق والطلقات الصغيرة الخاصة بالطيور كان علينا أن نجّرب حظنا في أنسب فرصة يمكن للمرء أن يتمناها.

بذخيرةٍ كتلك كان من المستحيل أن نتسبب له بأدنى أذى رغم أن عرض النهر في ذاك المكان لم يكن يتجاوز ثمانية ياردات. فتّشنا في جيوبنا وأحزمتنا محاولين إيجاد ذخيرةً أقوى وأكبر، ولحسن الحظ وجدنا طلقةً واحدة، واحدةً فقط! وكانت رصاصة بندقيةٍ محلزنة، لذلك كانت أصغر بكثير من أن تكون لسلاحٍ ذي جفّ أملس، ولكن ذلك لم يثبّط همتنا؛ حيث تطلّعنا إلى إكمال القطر الناقص بلّف مزقةٍ من منديلي حول

الرّصاصة[1]، ثم قمنا بحذر بحشو سَبَطانات الأسلحة المتبقية بالطلقات الخفيفة، وكنا ننظر بين الحين والآخر من بين القصب إلى الأسد الذي بدا في حالة مفرحةٍ من الجهل بوجودنا وبنوايانا المميتة.

تـمّ الاتفاق على أنني يجب أن أطلق الرصاصة أولاً، ثم بمجرّد أن يثب على أرجله سنرشّـه بثلاثة أمشاط من الطلقات. صوّبت جيداً بدقةٍ وثباتٍ ثم أطلقتُ ولكن عجباً! اسـتقرّت الرّصاصة الرديئة علـى مقربة قدمٍ واحد من البهيمة. وبسـرعةٍ كالبرق نهض الحيوان المهيب على أرجله برأسـه المنتصـب وذيله المتموّج ونظر حوله بفخرٍ وكأنه فـي حيرةٍ يريـد أن يعرف ما كان يعني ذلك، ولكنه لم ينتظـر التوضيح طويلاً حتى بام! بام! بام! أمطرناه بوابلٍ من الطلقات التي أحدثت حوله سحابةً من الغبار، وجعلته يقوم بوثبةٍ مدهشة ثم يختفي عن أنظارنا إلى الأبد بين القصب الطويل على ضفة النهر، ولا يترك لنا خلفه إلاّ ذكراه.

بعـد أن أصبنـا بخيبـة أملٍ مخيفة حملنـا أمتعتنـا واتجهنا نحو المخيّـم، لاهين عن الصيحـات العالية لمئات طيور النّحام والإوز وغيرها من الطيور المائية، التي أجفلت بتأثير أصوات أسلحتنا وأصبحت الآن تحوم عالياً فوق رؤوسنا.

خـلال جولاتنا العديدة قرب طيسـفون أنـا وصديقيَّ (J) و(W) عدنـا إلى المخيم عـدة مـرات نحمل خنازيـر بريّة أطلقنـا عليها الرصـاص، وذات مرّة على العشـاء في

(1) هذا التصرّف من أغبى ما يكون، وينمّ عن جهل لوكر المطلق بأصول الأسلحة النّارية، فما فعله هو التالي: لديه بارودة صيد ذات جفْت أملس Shotgun بماسورتين من عيار 12 على الأغلب، والطلقة الوحيدة التي يذكرها هي طلقة رصاص لبندقيّة ذات جفْت محلزن (ملولب) Rifle ربما تكون من عيار 256. إنشاً الشائع في عصره بالبواريد المحلزنة ذوات السّبَطانتين (على شاكلة جفت الصيد). فمزقة القماش التي لفها حول الخرطوشة النحاسية كانت بهدف تثبيت طلقة الرّصاص النحيلة ضمن حجرة نار جفت الصيد.. حسنٌ، هذا سيمكّن الإبرة من قدح كبسولة الإطلاق وتفجير البارود، ولكن المقذوف الرّصاصي لن يمكن له بهذه الحالة الاندفاع بقوّة من فوهة السّبَطانة بسـبب عدم انحصار الضغط ضمن جفْت يعادل قطره قطر المقذوف، وهذا ما أدّى إلى سقوط الرّصاصة بغير قوّة انطلاق على بُعد مسافة تافهة. أيّ صياد أنت يا لوكر!

مخيمنا علّق شابٌ انكليزيٌّ يدعى الكابتن (C) تعليقاً سخيفاً بأن اصطياد الخنازير بالبارود والرصاص لم يكن صيداً ولا شهامة؛ إنّما يجب أن يتمّ اصطياده بثباتٍ على ظهر الحصان وبواسطة الرمح. أخبرت السيد (C) أنني حظيت بشرف معرفة الميجور بروبين Major Probin قاتل النمور المشهور ذي اليد الواحدة في الهند الغربية، والكابتن دافيدسون Davidson وباومغارتنر Baumgardtner صاحبي الشهرة الواسعة بالصيد في الهند، والسيدين غرين Green وأندرسون Anderson من جنوب إفريقيا اللذين لديهما غرام قنص الفيلة، وكثيرين غيرهم، جميعهم معترفٌ بشهامتهم وبأنهم صيادون من الدرجة الأولى، ولم يعدّ أيّ منهم أنَّ ضرب خنزير بريّ برصاصة من بندقيته التي لن تخطئ أبداً، سيقلل من وقارة أو يسيء إلى سمعته في الصيد.

اقتنع الكابتن (C) جزئياً بنقاشي هذا، ورتّب للذهاب في حملةٍ لاصطياد الخنازير بالطّعن، على أن تكون الأسبوع المقبل. في اليوم المحدّد لذهابنا خرج سبعة أو ثمانية فرسانٍ من المخيم قبل الشروق بوقت طويل، وكانوا يعتلون ظهور خيولهم بشكلٍ مذهلٍ مسلحين برماحٍ طويلة. وفي مكانٍ ليس بعيداً عن المخيّم مررنا بقطيع صغير من الخنازير التي اختبأت عند اقترابنا في الأجمة الشوكية الكثيفة القريبة، ونظرا للعدد القليل الذي يرافقنا من العرب الذين يثيرون الطرائد من مكانها - وهم رجال يسيرون على الأقدام مهمتهم إخافة الطرائد وتسييرها أمامهم وذلك بالصراخ وضرب الشجيرات بعصيٍّ غليظةٍ يحملونها معهم - كان على رجالنا الصيادين القيام بمعظم هذا العمل الكريه بأنفسهم؛ وذلك بإقحام خيولهم عبر أكثف الأجمات. وبقوة الجهد الجبّار اللابشري تقريباً نجحت جماعتنا في استدراج الخنازير خارجاً إلى السهل، ولكن مقابل أيّ ثمن! كانت أرجل الرجال المساكين وكذلك الخيول الشهمة ممزّقة على نحوٍ فظيع بفعل الشجيرات، والإجاص الشوكي ونباتات شوكية أخرى، وقد رسمت الدّماء مسارهم بينما كانوا يتقدّمون.

وبمجرّد أن تم اقتياد الخنازير إلى الخارج بدأت مطاردة حامية الوطيس، يا للخنّوص المسكين! كان يستخدم قوائمه بتصميم وإرادة محاولاً الوصول إلى مخبأ آخر يبعد

بضع مئات الياردات، عندما تمت مطارته عن قرب من قبل الصيادين الذين يمتطون جيادهم جيداً، والذين راحوا يغرزون رماحهم الحادة في جسده يميناً ويساراً وفي أيّ مكانٍ يستطيعون الوصول إليه، وبالمناسبة إنه ليس بالعمل السهل؛ إذ رغم سرعة الجياد العربية التي تستطيع بسهولة إدراك أي خنزير بريٍّ بركضةٍ مستقيمةٍ مباشرة، فإنَّ هذا الأخير عندما تتم مطاردته لا يتّخذ مساراً مستقيماً نهائياً؛ إنما سيراوغ ويتجنب مطارديه بالانحراف مستديراً على نحو مفاجئ إما لليمين وإما لليسار، وبالركض بخطٍ متعرّج وبالتوقف فجأةً والاستدارة وتغيير وجهته، وبالركض إلى الخلف نحو الاتجاه الذي أتى منه.

مغامرة صيد الخنازير بالطعن في جزيرة العرب

إن طعن الخنازير على حدود صحراء اللور هو عملٌ شاقٌ وخطيرٌ على نحوٍ استثنائي؛ فليست فقط الخنازير في هذه المنطقة أسرع من أية خنازيرٍ أخرى في باقي البلدان؛ وإنما المنطقة بحدّ ذاتها غير مستحسنة وخطيرة بالنسبة للفرس والفارس على حدٍّ سواء بسبب طبيعة الأرض الطينية التي تبدو كأنها مخبوزة وصلبةً كالحجارة بفعل حرارة الصيف الحارقة، وتتقسمها في جميع الاتجاهات شقوق عميقة تتراوح ما بين إنش واحد إلى اثنين في العرض، ومن واحدة إلى ستة أقدام في العمق، لذلك لا بدّ للجواد الذي ينطلق بسرعته القصوى أن يكسر ساقه إذا ما انزلقت داخل أحد هذه الشقوق الكبيرة، وفي الوقت ذاته يمنح لراكبه فرصةً مذهلة في كسر رقبته، إنه ترويحٌ عن النفس يعتبر ثمن الانغماس به باهظاً إلى حدٍّ ما مقابل الحصول على الخنزير البري الحقير.

بعد مطاردةٍ مثيرة لمسافة ألف ياردةٍ تقريباً نجح كلٌّ من السيد (E) والسيد (J) - وهما فارسان ممتازان - باصطياد خنزيره الخاص، بينما كان الكابتن (C) الذي رفض صيد الخنازير بالرّصاص لا يزال مندفعاً خلف الخنزير المراوغ الذي خصّه بأن يكون فريسته لاهياً عن الأرض الخطرة التي انطلق فوقها بسرعة البرق وعيناه مثبتتان بعزمٍ نحو الطريدة المغطاة بالهلب، والتي بالكاد تبعد عنه خمس ياردات، كان على وشك إقحام رأس رمحه اللامع في طرف الخنزير المرهق اللاهث، عندما حصل الانهيار! تعرّض الحصان والراكب معاً لصدمةٍ فظيعة.

عندما وصلت بقية المجموعة إلى تلك البقعة كان مشهداً شنيعاً يفرض نفسه؛ فقد كان الحصان المسكين يقبع بأطرافه الأربعة محشورةً في أحد تلك الشقوق مذهولاً تماماً إثر هذه السقطة المريعة ورأسه وصدره وركبه ممزقة وتنزف بشكلٍ مرعب، وعلى مسافة عشرين قدماً منه يتمدّد الراكب تعيس الحظ ووجهه متجهٌ للأسفل تماماً كما سقط، ويبدو كأنه مجرّد جثةٍ هامدة، عندما رفعناه وجدنا وجهه مجرّد كتلة مروّعة من الدم المتدفق من الأنف والفم والأذنين، بينما كان جفناه مغلقين وقد ارتفعت العين إلى أعلى. كانت زجاجة البراندي الميدانية هي كلّ ما يتوفر لدينا من المشروبات

الكحولية، استخدمناها مباشرةً ولكن دون جدوى؛ إذ لم يبدِ أدنى إشارة تفيد بأنه على قيد الحياة، وبما أنه لم يكن هناك وسائل مناسبة لنقل الرجل إلى المخيم بحالته الخطرة تلك فقد أرسلنا أحد الفرسان إلى الخيام لإحضار حمالة وفراش وتأمين الحضور الفوري للجرّاح الموجود على متن البارجة.

وفي الوقت الذي لازم فيه بعض أفراد المجموعة الرجل المنبطح أرضاً باشر آخرون بتخليص الحصان، وعندما وجدوا أن أطرافه الأربع قد كسرت تم نحره على الفور طبعاً بواسطة الخنجر الموجود بين يدي أحد مثيري الطرائد العرب.

سرعان ما وصلت المساعدة من المخيم. وبعد المعاينة الدقيقة والمتأنية أعلن الطبيب أنَّ الرجل المنبطح لا يزال حيّاً ولكنه في حالةٍ خطيرةٍ جداً؛ فقد أصيب بارتجاجٍ دماغي وكسرٍ في ذراعه اليسرى، وآخر في معصمه الأيمن وثالث في عظم الترقوة، ولولا بنيته القوية لكان هذا المتعذّب ميتاً إثر جراحه الخطيرة. عندما نقل إلى المخيم كان لا يزال فاقداً للوعي ولكن سرعان ما استردّ عافيةً كافية لتمكنه من فتح عينيه. لقد استغرق المريض ثلاثة أشهر للشفاء التام من آثار الحادث، ولم يجرؤ ثانيةً أبداً على التحدّث معي حول المهارات الشخصية في طعن الخنازير ورشق الخنازير.

بعد عدة أيامٍ حصلت معنا أنا وأحد أصدقائي حادثة، ولكنها كانت أقل خطورةً بطبيعتها من سابقتها، وجعلت منّا أضحوكة الدّعابات المزعجة لبعض الوقت. فخلال ذهابنا لاصطياد الأسماك والسباحة كنا نلاحظ مراراً وتكراراً سرباً كبيراً من الإوز البرّي اعتاد مع اقتراب الغروب أن يحطّ على الطرف الأقصى لرأس رمليٍّ في النهر من أجل قضاء الليل هناك، مما دفعنا ذات مساءٍ لمراقبتها ومحاولة رشقها من خلف أجمة صغيرة من الشجيرات القصيرة التي تنمو على ارتفاعٍ ضئيل من ضفة النهر الرملية. حطّ سرب الإوز في مأواه المعتاد بُعيد الغروب مباشرةً فأطلقنا النار عليه في آنٍ واحد وقتلنا اثنين من الطيور على الفور، وتسببنا لاثنين آخرين بجراحٍ خطيرة لدرجة أنهما بقيا يناضلان ويخفقان بجناحيهما في البقعة نفسها، ولأننا كنا متلهفين للإمساك بهما وكانا يحاولان الوصول إلى الماء وبتلك الحالة قد نفقدهما، فقد تركنا أسلحتنا على

ضفة النهر كيلا تتعرض للبلل، وركضنا بأقصى سرعةٍ نحو الطيرين تعيسي الحظ.

ولكن على مسافة ست ياردات من أحد ضحايانا على نحوٍ فجائيٍّ بسبب ارتباكي المفرط انغمرت حتى خاصرتي بالوحل الطري الذي توهمت أنه يابسة، هناك كنتُ مقحماً برسوخ في الطين كالفلينة المقحمة في عنق القارورة، وبشعورٍ رهيبٍ بالاشمئزاز استدرت لأنظر إلى صديقي الذي كان أطول وأكثر وزناً مني، وعندها يا للهول! رأيته خلفي على مسافة ثلاث ياردات تقريباً واقعاً في المأزق نفسه الذي وقعت به ويضحك بشكلٍ مفرط.

رغم أن رؤية وجه صديقٍ مبتهجٍ بالقرب مني كان فيها بعض العزاء لكنها لم تكن كلّ ما تمنيته؛ إذ مع أنّ المسافة بيننا كانت بضع ياردات فقط فقد كنّا عاجزين عن تقديم أحدنا المساعدة للآخر كما لو كانت المسافة ثلاثين ميلاً، ولو كنا ميالين للموسيقى وقتها لكانت حالتنا الخاصة فرضت علينا أن نغني مع الشاعر (إنك مني قريب، ولكنك عني بعيد). إن احتمال أن ندفن أحياء ونحن واقفان وسط ضفة طينية ولا شيء بقربنا سوى إوزتين ميتتين وأخريين كسيحتين وقد يمضي أسبوعٌ بكامله دون أن يمرّ أحدٌ من هذا المكان، لم يكن مبهجاً أبداً.

ولكن ما كنّا متأكدين منه تماماً هو أننا لن نتعرض إلى خطر أن تتشممنا بنات آوى الفضوليّة، أو أن تأكلنا الضباع الجائعة؛ حيث إنَّ هذه المخلوقات أعقل من التجرّؤ على الاقتراب من منطقةٍ غادرة كتلك، حتى وإن كانت متهورة كفاية لتصرّ على الإطلاع علينا عن قرب فإنها ستدفع نتيجة ذلك الوقوع في نفس ورطتنا، ولكنّ فكرة قضاء ليلةٍ واحدة في هذا الفراش الرطب الضيّق دفعتنا إلى القيام بأشقّ المحاولات لتحرير أنفسنا. ولكن سرعان ما استسلمنا، فقد رأينا أننا لن نجني شيئاً سوى الغرق أكثر وأكثر؛ حيث أصبحنا الآن مغمورين حتى إبطينا بالوحل الطري. إنه شيءٌ مبهجٌ حقاً! مع احتمال إضافي لاختفائنا تماماً من فوق السطح أثناء الليل دون أن نترك شيئاً من أثرنا فوق سطح الأرض باستثناء قبعاتنا التي ستصبح كشواهد لقبورنا.

اختفى الأثر الأخير للشفق، ولمع النجم الوحيد هنا وهناك في الأفق المظلم، ولم

يتخلل صمت الطبيعة الكئيب سوى العواء البعيد لابن آوى الطوّاف أو الرذاذ الناجم عن حركة سمكة في مياه دجلة الفضية المتدفقة، وكنا قد تخلينا عن أدنى أملٍ في النجاة عندما دوّت من بعيد صرخة مرعبة لعجوزٍ عربيٍّ أشعث يدفع حماره الكسول المحمّل بحزمتين من الأغصان المقطوعة، تردد صدى تلك الصرخة على طول ضفاف النهر وبدت كأغنية ذات لحنٍ سماوي مقدس في آذاننا. صرخنا بأعلى صوتنا تحت الخطر الوشيك لانفجار رئتينا (تعال، تعال) وتابعنا هذا الصراخ على نحوٍ متواصلٍ حتى غمرتنا الفرحة التي لا توصف عندما اكتشفنا أننا نجحنا في جذب انتباهه.

أوقف الرّجل العجوز حماره على الفور مدركاً تماماً الفرصة الذهبية في الحصول على جائزة التحرير، تقدّم بهدوء ليفرغ حمل الحمار ليستفيد من الحبال والأحزمة الجلدية في عملية إنقاذنا. بجمع تلك الحبال والأحزمة مع بعضها صنع حبلاً طويلاً له طرفٌ واحد، ثم رماه بقوة ليصل إلى صديقي الذي أمسك به بحماس. ولكنه كان بحاجة حبلٍ أقوى بكثير ليسحبه من الوحل؛ فقد كان هذا الحبل في كل مرّةٍ يضعه العربي تحت الاختبار ينقطع فجأةً ويتباعد عن بعضه، فيجلس العربي بفظاظةٍ على الأرض في حال ينزلق صديقي المسكين بشكلٍ لا إرادي عائداً إلى حالته السابقة، تشجعه الضحكة العالية الصادرة عن صديق محنته الذي رغم كونه واقعاً في المأزق نفسه، فهو لم يستطع تمالك نفسه من الشعور بالمتعة أمام المحاولات العديمة الجدوى التي كان يشاهدها.

عندما وجدنا أن القيام بأية محاولاتٍ أخرى بتلك الوسائل الضعيفة لن يجدي نفعاً، طلبنا من العربي أن يذهب إلى المخيم ويجلب حبلاً أقوى من عند الحاج حبيب رئيس الساسة، مع أوامر صارمة بعدم إخبار أي شخصٍ عمّا حلّ بنا، ولكن في الحالات الطارئة أن يقول لهم إننا نحتاج الحبل لنسحب به طريدتنا إلى المخيم. امتطى العربي حماره على الفور وذهب مباشرةً باتجاه المخيم، وبسبب الظلمة المتزايدة بسرعة لم يلحظ أسلحتنا الملقاة فوق جنبةٍ صغيرة رغم أنه كان على مسافة ثلاث ياردات منها، ولحسن الحظ أنّ ذلك قد حصل؛ إذ إنّ هذا الشخص العجوز الذي كان غريباً عنا

تماماً كان سيفضّل امتلاك أسلحة الجفت[1] الرائعة على البقشيش المتوقع - الجائزة - وكان بكل تأكيد سيختفي مع تلك الأسلحة إلى الأبد تاركاً صاحبيها الشرعيين ليواجها قدرهما.

في أثناء ذلك الوقت، وصل العربي إلى المخيم وقدّم طلباً إلى الرجل المناسب لإعطائه الحبل المطلوب، لكنّ الشكّ راود حبيب حول نزاهة مقدّم الطلب فرفض بصراحةٍ إعطاءه الحبل، وأبدى رغبته في مرافقته إلى مشهد البؤس المذكور. كان العربي توّاقاً إلى الحصول على كامل البقشيش لنفسه، ولكن عند اقتناعه أنه ليس هناك مهرب وافق رغم أنفه، وقام الحاج حبيب بمرافقته على ظهر حصانه مسلحاً جيداً ويحمل حبلاً طويلاً ومتيناً. كاد السائس المخلص أن يغمى عليه عندما سمع أصوات سيدَيه وهما مغمورَان بالوحل حتى أكتافهما، ولكنه لم يتوانَ أبداً عن رمي الحبل إلى صديقي، وبالمساعدة الجاهدة من ابن بلده نجح في إيصاله إلى اليابسة.

بعد ذلك شرع ثلاثتهم في العمل بعزيمةٍ قوية لتحرير حضرة جلالتي، وقد أنجز هذا العمل أيضاً دون أية صعوبةٍ تُذكر. اطمأننا على الفور على أسلحتنا ومؤونتنا، ووضعناها في أمانة الحاج حبيب بينما قفزنا نحن في النهر بثيابنا للتخلص من الطبقة السميكة من الطين اللزج الذي كان بالطبع يغطينا من رأسنا حتى أخمص أقدامنا.

بعد نصف ساعة من الزمن وصلنا بأمانٍ إلى المخيم، تسللنا بهدوء إلى خيامنا لنبدّل ثيابنا، ودفعنا لمنقذنا العربي، ثم اجتمعنا مع باقي المقيمين في المخيم وكأنّ شيئاً لم يكن. ولكن رغم أن الحاج حبيب أقسم بلحيته - الطريقة المعتادة عند المسلمين لقسم الأيمان - أنه لن يبوح بشيء فإنّ القضية انتشرت في النهاية بطريقةٍ أو بأخرى، وأصبحنا لعدّة أسابيع ضحايا السخرية والدّعابات البغيضة.

في إحدى تلك الليالي المقمرة الخيالية التي تشتهر بها بلاد الرافدين وجزيرة

(1) ذكرنا أعلاه أن الجفت عبارة تركيّة Çift دخلت العاميّة العربيّة في بلاد الشام عموماً، وتعني بندقيّة الصيد ذات السّبطانتين بجفتٍ أمس وتستخدم طلقات نثار الرّصاص (الخُردُق lead shot). ولعدم وجود مفردة مقنعة في العربيّة الفصحى آثرت استعمال هذا التعبير الشائع جداً.

العرب عن استحقاق حول العالم، ذهبت إلى حافة النهر لأحاول اصطياد غزالٍ على ضوء القمر، يرافقني صديقي نفسه الذي شاركني في فراشي الطيني. اخترنا مدخلاً ضيقاً إلى النهر ليس بعيداً عن المخيم حيث كانت تلك المخلوقات الجميلة تأتي لتشرب في منتصف الليل. وبما أنَّ تلك المنطقة كانت مجرّدة من مادة الخضرة على جميع أنواعها فقد كنا مضطرين إلى حفر حفرتين عميقتين خلال النهار، وقد أوينا إليهما قبيل منتصف الليل منتظرين بتلهّفٍ وصول الطرائد.

كان ضوء القمر ساطعاً جداً حتى إنه كان بإمكاننا قراءة كتابٍ بسهولةٍ لولا وجود أسراب البعوض المزعجة التي كانت تطير حولنا بعشرات الآلاف، وتتطلب كامل اهتمامنا لإبقائها على مسافةٍ منا. كان الليل هادئاً على نحو رائع كما كان دائماً بعد يومٍ حارٍّ ومرهق، وباستثنائنا نحن ومعذبينا بالغي الصغر بدا أنَّ كل الكائنات الحية تغطّ في النوم، أو أنها كانت في حالةٍ من الخدر والخمول بتأثير الجو الذي كان لا يزال شديد الحرارة والرطوبة.

جعلنا هذا الهدوء بشكلٍ طبيعي نشعر بالنعاس، وكان كلاً منا سيغطُّ في غفوةٍ لولا أن ظهرت في تلك اللحظة مجموعةٌ من حوالي عشر بنات آوى تتقدم ببطءٍ إلى أسفل ضفة النهر باتجاه الماء. أثناء ذلك كانت تقوم بمراقبة جيدة وتتشمّم الهواء بأنوفٍ متجهة للأعلى، وكأن الشكوك كانت تراودها بأنه لم يكن كل شيء على ما يرام. ولكن سرعان ما اختفت تلك الشكوك بمجرّد وصولها إلى الماء بين مخبأينا اللذين لم يتجاوز بعدهما عن بعضهما مسافة أربعين قدماً. مشى أحد الحيوانات الطوّافة دون ريبةٍ إلى حافة حفرتي، وكان قريباً جداً لدرجة أني كنت أستطيع أن أمسك بإحدى أقدامه لو لم أكن خائفاً من أسنانه الحادة. وكم كانت دهشته عندما اكتشف أنه ينظر مباشرةً إلى رجلٍ في الأسفل يحمل بندقيته. سعلت قليلاً فور مشاهدته لي لأفزعه وأنفّره دون أن أفسد فرصتنا في اصطياد الغزلان بالإطلاق على بنات آوى. التفّ ابن آوى المذعور بشدّة إلى الخلف بصيحةٍ مكبوتةٍ كانت إشارةً لفرارٍ جماعي عام ومفاجئ ومثيرٍ للضحك.

مرّة ثانية التفّت الطبيعة بوشاحٍ من الصمت العميق، وكانت الكائنات الوحيدة المرئية بضعة خفافيش تحوم فوق رؤوسنا دون ضجةٍ على الإطلاق، والصوت الوحيد الذي ضرب آذاننا هو الصيحة الحادة «كي - وي» لطائر القطقاط الصحراوي، وهو طائر له حجم ولون طائر العقعق، وله سيقان طويلة حمراء ومنقارٌ باللون نفسه، ويمكن سماع تلك الصيحات ليلاً نهاراً تتخللها فواصل قصيرة في كل المناطق المنعزلة في شمال جزيرة العرب وبلاد الرّافدين وسوريا. عند منتصف الليل تماماً صحوت من نعاسي على صوت رشّة خفيفة في الماء عزوتها في بادئ الأمر إلى قفزةِ سمكةٍ ما، أو لأحد الطيور المائية المجفلة، ولكن عند سماعي للضجة نفسها بعد ذلك مباشرةً رفعت رأسي قليلاً، وعندها يا لمفاجأتي السارة رأيت أمامي مباشرةً عند أقصى الجدول الصغير ثمانية غزلان أو عشرة تقف على عمق قدم واحد في الماء تقريباً، بعضها يشرب وبعضها يتأمل قامته الرشيقة في المرآة الفضيةً، والبعض الآخر يرفع رأسه ويستطلع. عدّلت بندقيتي بهدوء وكنت على وشك التصويب نحو الغزال الذي يقف في المقدمة في الماء، عندها حصل توهجٌ مفاجئٌ متزامنٌ مع انفجار قطع عليّ الأمور بسرعة. أطلقت الطرائد سيقانها للريح بسرعة البرق، وبالكاد منحتني وقتاً لأطلق رصاصةً عشوائية إلى غمرة الهاربين، وبدا واضحاً أن نتيجة الرصاصة لم تكن سوى تشتيتها والإسراع في اختفائها في الصحراء الواسعة. أما الشيء التالي الذي رأيته فقد كان ظبياً جميلاً متمدّداً على جنبه ويرفس وهو في سكرات الموت، نصف جسده في الماء والنصف الآخر على اليابسة، وكان صديقي قد أرداه برصاصةٍ في الصدر. حمل غنيمته على أكتافه إلى المخيم حيث أمضينا هناك الجزء المتبقي من الليل.

عند اقتراب الصباح، ذهبنا لاصطياد الحجل وكنا موفقين جداً. ولنستمتع بمشهدٍ أفضل للشروق العظيم تسلقنا إحدى عدة تلال تشكّل آثار سلمان پاك، حالما وصلنا إلى القمة شاهدنا ثلاثة أو أربعة من بنات آوى تجتمع في السهل الفسيح على مسافة نصف ميلٍ من حيث وقفنا، وبدا جلياً أنها تتعارك من أجل شيءٍ ممدّدٍ على الأرض. فكرّنا أنه من الغريب جداً أن تنسى بنات آوى نفسها لتسمح للشمس بمشاهدة شجارها، وقررنا

أن نتحرّى القضية ونرسلها إلى بيوتها. لدى شعورها باقترابنا بدأت بالمشي خلسةً رغماً عنها، حتى أطلقنا عيارين خلفها ففرّت مسرعة بعزيمةٍ حماسيةً جيدةٍ.

وعندما أتينا إلى الشيء الذي كانت تتعارك من أجله وجدناه غزالاً له ثقب رصاصةٍ في عنقه، كان الجسد لا يزال رطباً وبدا واضحاً أنه مات منذ بضعة ساعاتٍ فقط، لذلك لم يكن لدينا أدنى شك أنه كان أحد تلك الغزلان التي كنا نراقبها الليلة الماضية، وقد جرح مصادفةً برصاصتي الطائشة عند هروبه السريع، مما أدى به إلى النزيف ثمّ الموت؛ إما من الوني أو من بنات آوى. لقد كان الجسد ممزقاً بشكلٍ مريع من قبل الوحوش الدنيئة لذلك كان عديم القيمة، ووحده الرأس كان غير مشوّه ومسلح بزوجٍ من القرون الجميلة التي قطعناها وأخذناها معنا إلى المخيم.

خلال فترة إقامتنا رجع العربيّان المستخدمان للذهاب بالتناوب على حماريهما كلّ يومٍ إلى بغداد لإحضار البقالة والخضراوات والأشياء الأخرى الضرورية لمخيمنا عدّة مرّات، بعد بضع ساعاتٍ من مغادرتهما دون أية نقود أو مؤونة يتذرعان بأنهم تعرّضوا للهجوم وسرقة النقود التي ائتمنوا عليها من قبل عصابة مؤلفة من خمسة نهّابين من البدو على ظهور خيولهم، وأكدّا أنهم كانوا يطوفون باستمرار حول القصبة Casseba، المكان الواقع في منتصف الطريق بين مخيّمنا ومصب نهر ديالى الذي يلتقي بنهر دجلة تماماً في منتصف الطريق بين آثار طيسفون ومدينة بغداد.

إنه نفس المكان الذي أطلقنا فيه على الضباع المذكورة سابقاً، كان مغطىً بكثافة بالجنبات وخاصةً على طول الطريق أو ممرّ المشاة إذا صحّ القول، وباعتبار أنه لم يكن يوجد سكان من البشر على مسافة ثمانين ميلاً من تلك المنطقة فقد منحت لقطّاع الطريق مكاناً رئيسياً للاختباء ولم يسبق لرجالنا العرب أن تعرّضوا للهجوم وهم في طريق عودتهم إلى المخيم؛ إنّما كانوا يتعرّضون لهم دائماً في طريقهم إلى البلدة؛ أي عندما تكون النقود حاضرة بحوزتهم، وكانوا يجرّدونهم من النقود فقط إذ إن الحمارين كليهما مدموغان[1] على وركيهما، وقد يشكلان عائقاً بالنسبة للسارقين

(1) نستعمل هذه العبارة لشهرتها، ولو أنها تركيّة مشتقة من: تمغة، أي خاتم.

في حال حصول أي مطاردة، بالإضافة إلى أنَّ الحماريـن كانا عجوزيـن وعديمي القيمة تقريباً رغم أنهما كانا يوازيان ثروات العالم بأكملها بالنسبة للرجلين البائسين اللذين كان مظهر ثيابهما الرثة والعارية تقريباً لا يثير أطماع أيّة عصابة، وقد كان هذان الرجلان مشهورين بالكذب في المخيم، وقد انتشر في بلاد الرافدين مثلٌ يقول: (ليس ثمّة فرقٌ كبير بين السارق والكاذب) لذلك راودتنا الشكوك بأن هذين كانا إما يسرقان النقود لأنفسهما أو أنهما متحالفان مع قطّاع الطرق، فيسمحان لهم بسرقتهما من أجل الحصول على حصتهما من الغنيمة بعد ذلك.

في غضون أقلّ من شهر فقدنا أكثر من ألف مجيديه تركية؛ أي ما يعادل 45 دولاراً أميركياً بالطريقة نفسها، ولكن لم تكن سرقة النقود تزعجنا إلى الحد الذي أزعجنا فيه اضطرارنا إلى الاستغناء عن البقالة والخضراوات لمدة أيام أحياناً، وهو الشيء المكروه بشدة من قبل سيدات وأطفال المخيم الذين كانوا يفضّلون إلى حدٍّ ما طعام الخضراوات على الوجبات الحيوانية - أحد سمات الحياة الأوروبية في شبه الجزيرة وبلاد الرافدين - لذا تقرّر أن يذهب كلّ يوم ثلاثة من شبابنا المسلحين جيداً على ظهور خيولهم لحماية العربيين حتى يصلا إلى ديالى؛ حيث يكون خطر تعرّضهم للهجوم قد تلاشى تماماً بعد ذلك، ولكن من الغريب جداً أنّ المرافقين لم يروا أبداً أو يقابلوا أية شخصيات مشبوهة على الطريق، وفي المرّة الأولى التي بقي فيها الشبان في المخيم عاد العربيان بوجهين واجمين مجردين من نقودهما بالتأكيد. أثار هذا سخط كلّ من كان في المخيم فأقسمنا على الانتقام والإيقاع بالخسيسين الأفّاقين.

عند الغروب ظهر رجلٌ عربيٌ غريب في المخيم مجرّداً من الثياب تقريباً وبدا جلياً أنه مذعورٌ ومُنهك، وكأنه أرسل بهدف تبرئة الاثنين من أبناء بلده اللذين كانت شكوكنا المصيرية قد رست عليهما. بعد أن قام بإمساك وتقبيل الأيدي - الطريقة المعتادة في تقديم شخص لنفسه والتماسه للحماية بين العرب - أوّل شخص قابله خارج المخيم والذي كان السيد (R) وهو شابٌ يتحدث ويكتب العربية تماماً كالعرب، أخبره الغريب أنه جاء من بغداد وهو في طريق عودته إلى العزيزية (بلدة صغيرة على نهر دجلة تبعد

حوالي ستةً وثلاثين ميلاً جنوب سلمان پاك) وقد تعرّض للهجوم في أجمات القصبة Casseba من قبل خمسة رجالٍ متوحشين جرّدوه من فرسه البنية الصغيرة المسرجة والملجمة، وبطانية صوفية وسيف ومسدسين ومبلغ صغير من المال، ومن كل ملابسه باستثناء سروال قديم.

التمس العربي السماح له بقضاء ليلة في المخيم؛ فقد كان متعباً وعطشاناً ومنهك القوى. بدا أنه شخصٌ صادقٌ لذا استجبنا لطلبه شريطة ألا يغادر حتى بزوغ الفجر في الصباح التالي، وقد وعد بذلك بصدق. أثناء ذلك تم الاعتناء به بشكلٍ جيدٍ من قبل أبناء بلده في المخيم، وبعد أن جدّد نشاطه قليلاً راح يصف قطاع الطرق الخمسة الذين قاموا بنهبه، كان وصفه لأولئك الأشخاص مطابقاً تماماً للوصف الذي قدمه لنا سائقو حميرنا. رغم أن القصة احتوت على كل مظاهر الصدق والأمانة إلاّ أنه كان في المخيم رجالٌ على معرفةٍ جيدة بصفات أهل المنطقة عموماً والخدع البدوية خصوصاً، لذا لم يطمئنّوا تماماً لها؛ لقد ارتابوا في كون هذا الشيطان البائس شريكاً في جريمة النهب، وقد أُرسل إلى المخيم بهدف التجسس أو من أجل السرقة.

فكرنا أنه من الحكمة عدم إظهار أيّة شكوك وأن نعامله ظاهرياً على أنه ضحية السارقين، ولكن في الواقع كنا نراقب جميع تحركاته عن قرب من قبل الحرّاس البارعين العقيل Aghels الذين تقرر أن ينام في خيمتهم أثناء الليل، وكانوا مسؤولين على حمايته، وكانت لديهم أوامر صارمة برميه بالرصاص إذا حاول مغادرة المخيم قبل الشروق. قبل أن نخلد إلى النوم قررنا بالإجماع أن نزوده بحمارٍ في الصباح، وأنه يجب أن يذهب مع أحد سائقي الحمارين بهدوء باتجاه بغداد، وأن ندفع له من أجل هذه الرحلة مبلغ مئتي مجيدية تركية - ما يعادل عشرة دولارات أميركية - في حال تعرّض للهجوم مرّةً أخرى في المناطق المحيطة بالقصبة Casseba، وقد وافق على ذلك. بعد هذه الترتيبات ذهب كل من في المخيم ليرتاح باستثناء الحرّاس الذين قاموا بمراقبة حذرة فوق المعتاد في تلك الليلة، ولكن الغريب نام بعمقٍ وتم إيقاظه في الصباح التالي.

بعد شروق الشمس مباشرةً، ركب الرجلان حماريهما ومضيا باتجاه بغداد ومعهما مبلغٌ صغيرٌ من المال لشراء المؤونة. لم يكادا يختفيا عن أنظارنا حتى عمّت المخيم بأسره عاصفةٌ من النشاط الصاحب. تمّ سرج الخيول ولجمها بأقصى سرعة، وتم فحص البنادق والمسدسات وتلقيمها أيضاً، وبعد عشر دقائق انطلق ثمانية فرسان ببطءٍ وهدوء خارج المخيم باتجاه القصبة Casseba ليس من الطريق الذي اتبعه العربيان؛ إنما من طريقٍ فرعية طويلة وحجبوا أنفسهم عن الرؤيا بواسطة سلسلة طويلة من الجبال العالية التي تشكل آثار سلمان پاك وطيسفون، وبذلك يستطيعون بنجاح تجنب مشاهدتهم من قبل العربيين. أما بالنسبة للطريق الفرعية الطويلة فقد كان علينا أن ننطلق بأقصى سرعة ممكنة لنتمكن من الوصول إلى القصبة Casseba قبل الرجلين.

على مسافة ميلين تقريباً أعلى طيسفون في مكان حيث يشكل الطريق الرئيسي إلى بغداد ممراً ضيقاً عبر شقٍ في أحد الجدران أو التلال الطينية الضخمة رأينا الرجلين يختفيان خلف التلة غير مدركين نهائياً أنهما مراقبان عن كثب. حالما اختفيا بين شجيرات الجهة المقابلة من التلة وزّعنا أنفسنا؛ أربعة رجال يتبعون مجرى النهر الذي كانت ضفافه في هذه المنطقة مكسوّة بالقصب الطويل والأجمات لعدة أميال، بينما يتبع الأربعة الآخرون سلسلة التلال حتى أقصى نهايتها محافظين على حجب أنفسهم جيداً خلف التلال إلى أن يسمعوا صوت الرصاص، عندها عليهم الاندفاع بسرعة إلى السهل الفسيح وإلقاء القبض على النهابين أو حتى قتلهم. انضممت أنا وصديقي (J) إلى المجموعة الأخرى التي وصلت إلى نهاية التلال بعد حوالي عشرين دقيقة من انفصالنا عن أصحابنا.

بعد وصولنا مباشرةً ترجلنا عن خيولنا، وتسلقنا القمة من أجل الاستكشاف. منحتنا باقة كبيرة من الأعشاب الجافة هناك ستراً ممتازاً لوجوهنا. امتد السهل المدغل بأكمله كخريطة ضخمةٍ أمامنا، كان كل شيء مرئياً بوضوح من مكاننا المرتفع، وإضافةً إلى ذلك حظينا بمزيّة وجود الشمس وراءنا. في بداية الأمر لم نستطع رؤية أيّ آدميين باستثناء الرجلين العربيين الذين يمشيان مجهدين واحداً تلو الآخر بسبب ضيق الممر الذي يلتف كالثعبان عبر الأدغال. كانا على مسافة ستمئة ياردة فقط من يسارنا، يمشيان

ببطءٍ إلى حدٍّ ما، وكأنهما إما جاهلين أو غير مهتمين لطبيعة المنطقة الخطرة.

أثناء ذلك رأيناهما يضربان خواصر حماريهما بأكعاب أقدامهما العارية، وحتى سمعناهما يصرخان بالطريقة المعتادة التي يصرخ فيها العرب على حميرهم لدفعهم إلى المسير بسرعةٍ أكبر، إلاَّ أنها كانت حماقةً فاجأتنا إلى حدٍّ ما، إذ لا بدَّ أنهما كانا يدركان جيداً أن إصدار الكثير من الجلبة في هذه المنطقة مخالفٌ تماماً لقوانين الحذر والحيطة.

أضفت هذه الأصوات البشرية تغيراً بسيطاً على المشهد الممتد أمامنا، فسرعان ما ازداد حماسنا عند رؤيتنا لحركة خفيفة في الأجمات الكثيفة التي تقع أمام المسافرَين على مسافة بالكاد تبلغ ثلاثمئة ياردة، وعلى مسافة مئة ياردة من الجهة اليسرى لمسارهم استطعنا أن نرى بوضوح الوجه الداكن لرجلٍ عربي يمتطي جواداً كميتاً، ويرتفع عن ركاب السرج، يمدّ رقبته ويفحص بدقة المنطقة المحيطة بأكملها، بعد بقائه لمدة نصف دقيقة على تلك الوضعية، ترجّل بسلاسة وجرَّ حصانه من لجامه بعجلة، ثم اختفى بعد ذلك في الدغل على مسافة مئة ياردة.

في الوقت نفسه تقريباً غمرتنا فرحة لا توصف عند رؤيتنا للوجه الأنثوي الرقيق لصديقنا الطويل (W) وطربوش صديقنا (R) الأحمر، كانا يختلسان النظر بحذر من فوق دغلٍ كثيف، لا يبعد أكثر من مئتي ياردة عن المكان الذي اختفى فيه ذاك الشخص المشبوه، بدا أنهم غير مدركين لمكان وجود الرجلين العربيين، وغير مدركين أيضاً لوجود الآخرين.

اقترب المسافران أكثر فأكثر من مكان الخطر، ثم وقفنا بسرورٍ مترقبين رؤية الأنذال ينقضّون على الرجلين البائسين، ولكننا تريثنا طويلاً على قمة التلة آملين في كل لحظة أن نرى حفلة الرقص قد بدأت، ثم أسرعنا بالنزول وثبنا فوق سروجنا، واستعددنا جيداً للهجوم، ورحنا ننتظر الإشارة بفارغ الصبر.

انقضت عشر دقائق على الأقل قبل أن نسمع الصوت المدوّي للمسدسين العربيين. اندفعنا كالبرق حول الزاوية، وانطلقنا مباشرةً نحو مجموعة من أشجار النخيل العملاقة التي تنمو قرب مصب نهر ديالى ويمكن رؤيتها من مسافة أكثر من عشرين ميلاً.

قتال مع البدو

ولكن ما إن وصلنا إلى السهل الفسيح، حتى رأينا خمسة رجال من البدو متواضعي المظهر بثياب رثّة يمتطون جياداً جيدة، ويندفعون بسرعة خطيرة إلى أبعد الحدود من قلب الأدغال الواقعة على مسافة ثلاثمئة ميل من يسارنا تقريباً، وهم ملاحقون بشكلٍ مثير من قبل أصحابنا الأربعة الذين حاولوا جاهدين الإمساك بهم ولم يطلقوا عليهم أية رصاصة في بادئ الأمر.

أطلق الشُذاذ الخسيسون صرخة غضبٍ شديدٍ عندما لمحونا نحن الأربعة نندفع نحوهم من الاتجاه المعاكس، وفور وصولهم إلى الأرض المنبسطة لوّحوا برماحهم الطويلة لمجابهتنا قبل أن يتوفر لدينا الوقت لمنعهم ومقاطعتهم. على الرغم من أنهم كانوا على مسافة ثلاثمئة ياردة على الأقل أمامنا فإننا لم نتنازل عن أمل الإمساك بهم، وواصلنا المطاردة بسرعة خطيرة لبعض الوقت، ولكنهم كانوا يركبون خيولهم بشكلٍ ممتاز، وكانوا أيضاً على علمٍ ودرايةٍ بالمنطقة التي ينطلقون فوقها، لذا لن يسمحوا لنا بإمساكهم بتلك السهولة.

عندما لاحظوا أننا تمكنا بنجاح من تقصير المسافة بيننا على نحوٍ لا بأس به، ازداد رعبهم وكانوا على وشك القيام بمراوغتهم المعتادة في التفرّق والانطلاق باتجاهاتٍ مختلفة، لكننا أمطرناهم بوابلٍ من الرصاص لم تكن نتيجته سوى زيادة سرعة خيولهم، بينما قام الركّاب المجازفون - متوقعين بشكل طبيعي وابلاً آخر - بالانحناء إلى الجانب الأيمن وهو الجانب الأبعد لخيولهم، وبذلك يكونون خارج أهدافنا تماماً، ليتركوا فقط ساقهم اليمنى مرئية فوق السرج، وكأن خمسة جيادٍ كانت تنطلق مندفعة وحدها دون أي ركّابٍ على الإطلاق.

لم أشهد في حياتي ركوب خيل بتلك الجرأة، ولكن ما إن انقضت دقيقتان من الزمن، حتى كنا بصدد عملٍ بطولي آخر من أعمالهم، وقد تجاوز الأوّل إلى أبعد الحدود، وملأنا بالدهشة والتساؤل. كما توقعوا تماماً؛ أمطرناهم بوابلٍ آخر، ولكن هذه المرّة كان من بنادقنا ومسدّساتنا، حيث فكّرنا أنهم كانوا خارج مجال الرّمي بالمسدسات. كان هذا الوابل أكثر تأثيراً من سابقه، فقد أسقط الحصان الذي كان في

المقدمة، وتسبب له بارتطامٍ فظيعٍ، ثم راح الحيوان المسكين يتدحرج ويتدحرج، أما راكبه الذي كان على الأرجح يظن نفسه خارج الهدف وتابع جلسته بالطريقة نفسها على السَرج، فقد ارتمى على الأقل مسافة عشرة ياردات أمام حصانه، منبطحاً على وجهه. سواء قتل تماماً أو أنه كان فقط فاقداً للوعي، ذلك ما بقي لغزاً لا أحد يستطيع حلّه سواه هو إذا تعافى أو أصحابه الهمج إذا كان ميتاً؛ إذ لم يكد يلامس الأرض حتى أتى اثنان من أصحابه دون أن يخففا ولو للحظة واحدة من السرعة المرعبة لخيولهما، جاءا إلى صديقهما المنبطح أرضاً واحداً من كلِّ جانب، انحنيا فجأةً من فوق سرجيهما، وبقبضة هرقلية بطولية رفعا الجسد كلياً عن الأرض في وقتٍ واحدٍ معاً، ووضعاه بأمان في حضن واحدٍ منهما، وأثناء القيام بذلك بقيا مندفعين بأقصى سرعة يمكن أن يجري بها حصاناهما.

إنّ غرابة وحداثة وجراءة هذا الأداء، كلها مجتمعة أثارت على وجوهنا بشكل لا إرادي علامات الدهشة وكدت أقول الإعجاب أيضاً، ويجب ألا أنسى إضافة أنه في اللحظة التي وقع فيها الخيل والخيّال استدار بقية السلابين بخيولهم وراحوا يطلقون النار نحونا، وأعتقد أنه ليس من أجل ردّ الثناء علينا بقدر ماهو من أجل إبقائنا على مسافةٍ بعيدةٍ منهم، لتسهيل عملية إنقاذ صديقهم تعيس الحظ، ولكنّهم سدّدوا إلى نحوٍ مرتفعٍ جداً وكانت رصاصاتهم تئز فوق رؤوسنا دون أن تتسبّب بأي ضرر. عندما وصلنا إلى الحصان الذي كان لا يزال ملقىً على الأرض وبدا أنه غير ذي حياة، تنحينا عن المطاردة، ولدى فحص الحيوان تبيّن أنه كان مصعوقاً فقط من أثر السقطة التي كان سببها دون شك رصاصة بندقيةٍ مخروطية ضربت لوح الكتف باتجاه منحرف، لذلك ارتدّت محدثةً جرحاً فظيعاً لكنه ليس خطيراً، كانت البهيمة المسكينة كهلةً لكنها فرس جميلة بنية اللون من أنقى سلالات خيل عشيرة عُنزَة.

بعد أن شعرنا بالارتياح لأنها ستكون على ما يرام بعد بضعة أسابيع إذا تم الاعتناء بها جيّداً، قمنا بتضميد جراح الفرس الكثيرة التي تسببت بها السقطة المؤلمة، إلى جانب جرح الرّصاصة.

وسرعان ما صحت من غفوتها، ثم تمّ إحضارها بلطفٍ إلى المخيم، حيث اعتنى بها الحجّي حبيب قائد ساسة خيولنا، الذي كان يحظى بسمعة جيدة في كونه جراحاً بيطرياً ماهراً، وقد نجح في إعادتها إلى وضعها الممتاز في بضعة أسابيع.

بعد ذلك تم بيعها بالمزاد العلني في مخيمنا، فرسا المزاد على صديقنا السيد (J) الذي بقي محتفظاً بها حتى أعجب بفرسٍ أكبر. أما السّرج والرمح المستولى عليهما اللذان كانا لصاحبهما القديم فقد تم منحهما إلى مرافقها الطبي، وبالنسبة للعربي الذي تعرّض للسرقة من قبل السلّابين ولجأ إلى مخيمنا فقد قبض نصف المبلغ العائد من المزاد العلني للفرس المأسورة، وانطلق فوراً بهذا المبلغ إلى بغداد ليشتري لنفسه حصاناً آخر وكل ما يلزمه من تجهيزات من أجل رحلته إلى العزيزية.

لكي يتم فهم لقائنا بقطّاع الطرق بشكل جيد من الضروري أن نشرح أنَّ الفرسان الأربعة الذين شكلوا القسم الآخر من مجموعتنا ساروا بمحاذاة ضفة النهر بسرعةٍ كبيرةٍ حتى وصلوا إلى المكان الذي لمحنا فيه اثنين منهم من على قمة التلة.

توقّفوا هناك ليتمكنوا من معرفة مكان وجود العربيين اللذين تم الانقضاض عليهما من قبل قطّاع الطريق الذين أطلقوا عيارين ناريين لإخافة العربيين فور وصولهما إلى المنطقة التي كان يختبئ بها أولئك النهابون، وهي خدعة تمارس عادةً من قبل البدو النهابين. بالطبع جذب صوت الرصاص انتباه فرساننا الأربعة المتمركزين بقرب النهر، فانطلقوا مباشرةً إلى المكان الذي صدر منه الصوت، ولسوء الحظ أدركت خيولهم التي كانت جميعها فحلة وقادرة على الاستيلاد، وجود الأفراس وبدأت تصهل بشهوةٍ حيوانيةٍ عارمة، لزيادة خيبة أمل أصحابها، فما إن وصلت الضجة إلى آذان البدو حتى بدأ الشك يراودهم، فتخلّوا عن أدنى أملٍ في السرقة وفرّوا بسرعةٍ ونشاطٍ كبيرين كما تم الوصف سابقاً.

لو لم يحدث هذا الصهيل غير الضروري لاستطعنا على الأقل إلقاء القبض على جزءٍ من السارقين إن لم يكن عليهم كلهم.

إن هذه الحالة هي أحد الأسباب الرئيسية التي تدفع العربي وخاصة البدو السلاّبين إلى تفضيل الأفراس، كونها - نادراً أو بالأحرى - لا تصهل أبداً، بينما معظم الفحول العربية قد تصهل عند رؤيتها لأيّة فرس وإن كانت لا تزال بعيدة جداً، إلاّ أنها ستصهل حتماً عند رؤيتها لفرسٍ ما. تتمتع الخيول العربية بموهبة استثنائية في تميز الأفراس من مسافاتٍ بعيدةٍ نوعاً ما.

ذات مرّةٍ عرض عليّ الشيخ (فرحان) رئيس إحدى عشائر قبيلة شمّر البدوية المراهَنةَ على أيّ عددٍ من الأغنام إذا لم يتمكن من معرفة جنس الحصان من مسافة ميلين، وذلك حسب تصرّف فحله كستنائي اللون الأصيل والجميل، واشترط بالطبع أنه يجب أن يتمركز هو وحصانه في مكان يستطيعان منه رؤية الجسم محلّ الخلاف من البعيد، وقد قبلتُ رهانه ثلاث مرات إلاّ أنني كنت أخسر في كلّ مرّة.

* * *

الفصل الرابع عشر

بالقرب من قرارة

زيارة صديق قديم - رياح الشرقية بشكلٍ جدّي - الضوء الوامض - هبوب العواصف المطريّة - الانفصال عن المخيم - التحضيرات لعبور الصحراء - القافلة الضخمة - التحيّز ضد الرحلات البحرية - غلّة البازارات - فاتورة - الاستئذان من الأصدقاء بالانصراف.

مع اقتراب نهاية إقامتنا في الصحراء قمت بزيارة السيد (V) وهو ميكانيكي بلجيكي يعمل لصالح الحكومة التركية في بغداد، والذي خلال فترة تفشي الكوليرا كان يخيّم مع عائلته بالقرب من قرارة - القرية الصغيرة التي تحدثنا عنها سابقاً.

وحطّ أيضاً حول خيامه العديد من العائلات الثرية لسكان البلدة الأصليين، الذين بدا أنهم كانوا يمتّعون أنفسهم بطرقهم الخاصة، كما كنا نفعل في (سلمان پاك).

لم أسرع في العودة إلى مخيمي، فقد كنت أتوقّع ليلة مقمرة، وعندما شعرت أنني أستطيع الوصول إلى المخيم الذي يبعد ثمانية عشر ميلاً، بسهولةٍ في غضون ساعتين على ظهر جوادي الفتي الممتاز، لم أغادر قرارة قبل الغروب بوقتٍ طويلٍ.

كان الجوّ أثناء النهار حارّاً ورطباً بشكلٍ غير اعتيادي، ولم يغيّر غروب الشمس شيئاً من حالة الجو، ودلّت المسحة السديمية الموحشة للأفق الجنوبي بوضوحٍ على اقتراب جائحة الصحراء السّموم، وهي رياحٌ محرقة معروفة في البلدان المتحضرة

باسمها الإيطالي Sirocco (الرياح الشرقية)، ولم أكد أصل إلى القرية الصغيرة الواقعة على الضفة اليمنى لديالى حتى بدأت تعصف تلك الريح المروّعة.

يكسب سكان هذه القرية الأشقياء رزقاً ضئيلاً عن طريق نقل المسافرين والقوافل عبر النهر بواسطة قارب عبور خشبي غشيم، يبدو - إلى حدٍّ ما - كحذاء خشبي ضخم، مربوط إلى حبلٍ مزدوج سميك وطويل مصنوع من سعف النخيل، ويمتد على طول النهر بعرض ثمانين ياردة تقريباً.

لجأت إلى أكبر الأبنية في المدينة، كان كوخاً صغيراً مبنياً بالطين المجفف بأشعة الشمس، يقع في ساحة صغيرة، وتحيط به جدران مبنية بالمادة نفسها. تركت حصاني في الساحة وأعطيته بعض التبن المحروق - الطعام الوحيد المتوفّر في المنطقة - ونزعت عنه السرج واللجام، ثم أويت إلى الزاوية الأبعد في الكوخ، المختنقة تقريباً بالجوّ المضايق والغبار الكثير الذي دخل كالزوبعة من خلال كل شقٍّ في الباب المتداعي، أما مرافقاي الوحيدان في ذاك المكان البائس فقد كانا عجوزاً عربياً أبتر وكلبه المتضوّر جوعاً، وكلاهما قد دفن نفسه بكومةٍ من العشب الجاف المتروك في إحدى الزوايا، وقد بدا لي أنه سرير جامع لكليهما، أو كان المراد منه أن يجمع كافة الأشخاص الموجودين. استمالني هذا الشيء إلى الانضمام لهم، فجعلت من سرج حصاني وسادةً، ومن عباءتي الصوفية البيضاء أو غطاء الركوب حجاباً ضد الغبار الكثيف، وتمدّدت إلى جانب شريكيّ في السرير وانتظرت بهدوء زوال العاصفة الخانقة.

إن السّموم أو Sirocco رياحٌ جنوبيةٌ حارقة تهبّ على شكل نفحات، وبذلك ترفع كل رمال الصحراء التي تشبه الطحين، وتقذفها فوق المدينة بشكل سحاباتٍ عظيمةٍ مهددةً البشر والدواب بالحرق، وتدمير أي شيء غير مصنوع من الحجر أو المعدن، تصبح المصنوعات الجلدية بصلابتها وسرعة تهشمها كالزجاج أمام تلك الرياح البغيضة، أما القرون والعظام والعاج والخشب فإنها تتحطم وتتشقق، ويلتوي كل ما هو مصنوع من الورق أو الورق المقوى، وتتقطّع حبال الكمنجة متباعدة عن

بعضها، وينفجر البيانو ويخرج عن اللحن تماماً، ويتمزق الأثاث، وييبس شعر كل من الإنسان والحيوان، ثم يتكسّر ويتساقط، وتتلاشى الصور، أما الدهان والورنيش والتذهيب فإنه يطقطق كليّاً، وحتى المرايا تتحطم بشكل كامل، ويصبح الزئبق سائلاً ويسيل فوق الزجاج، لدرجة أنّ مصلّح المرايا يستطيع جني ثروة بسهولة من السفر عبر شمال أفريقيا وجزيرة العرب بهدف جمع المرايا المتكسرة بسبب السّموم.

على الرغم من أنها بعيدة كل البعد عن كونها نعمة موهوبة لجزيرة العرب وبلاد الرافدين، فإنّ السّموم في هذه البلاد ليست مدمّرة تماماً كما هي حالها في بلدان شمال أفريقيا، وخاصة في الأراضي الخاضعة لحكم الطربوش وفي المغرب؛ حيث تعرّضت قوافل بكاملها إلى الموت حرقاً أثناء سفرها عبر تلك الصحارى اللامتناهية.

ترفض الجمال التقدّم بعنادٍ شديد، فتتمدّد على الأرض وسرعان ما تدفن بالرمال المتقّدة الخانقة عندما تدركها السّموم، التي من بين ميزاتها السيئة الأخرى أن لها أثراً مميتاً في التسبب بالعطش الشديد الذي يوهن الإنسان والحيوان معاً.

أحياناً يقوم بعض الناس بحماية أنفسهم وحيواناتهم؛ وذلك بلف العباءات والكوفيات والبطانيات وغير ذلك حول رؤوسهم، وبهذا ينجحون غالباً في منع دخول الرمال إلى جهازهم التنفسي.

إن الحوادث المميتة من هذا النوع ليست نادرة على الإطلاق؛ فأنا نفسي خلال فترة إقامتي في بغداد عرفت قافلةً اختفت تماماً في الصحراء بتلك الطريقة وهي في طريقها من بغداد إلى دمشق، وفُقِدَ العديد من سعاة البريد الصحراوي البريطاني الملكي بالطريقة نفسها بين المدينتين المذكورتين في الأعلى.

تهبّ السموم عادةً في أكثر الأيام حرارة خلال شهري أغسطس وسبتمبر، وعلى نحوٍ استثنائي، ولكنها نادرة الحدوث في أكتوبر، وعلى مدى ضئيل جداً في الشهرين الأخيرين من السنة.

بعد حوالي ساعتين من وصولي إلى ضفاف ديالى، خمدت السّموم تماماً، إلاّ أن

الجو لم يتحسّن بفعل الرياح، وكانت السماء لا تزال مغطاة بسديم كثيف جعل النجوم غير مرئية والليل حالك الظلام.

مع ذلك عزمت على الوصول إلى المخيم في تلك الليلة، إذ لم أتمكن أنا أو حصاني من الحصول على أي شيءٍ لائقٍ للأكل في تلك القرية البائسة، إلى جانب ذلك كان فقط مسير أربعين ميلاً من ديالى إلى المخيم، واعتقدت أنني أعرف الطريق جيداً رغم حلكة الليل، لذا لم أتخلَّ عن فكرة الوصول إلى المخيم حتى وإن كنت سأضلّ طريقي، فكل ما كان عليّ فعله هو البقاء على الجانب الأيمن الذي سيعيدني بشكلٍ أو بآخر إلى ضفاف دجلة، وباتباع مسار هذا النهر سأتمكّن من إيجاد وجهتي المعنية.

لقد نصحني الرجل العجوز بتواضع أن أبقى معه حتى طلوع الفجر؛ فالليل كان شديد الظلمة، وقد تهبّ السّموم ثانية، وقد أضلّ طريقي أو أتعرّض للهجوم من قبل الوحوش المفترسة، أو حتى من قبل السارقين الذين سيقتلونني لا محالة.

ولكنني أصررت على عنادي كالثّور، وأشرت إلى مسدسيَّ على أنهما المأزق الفظيع المزعج الذي سيقع فيه أي شخص يغامر في التعرّض لي، ثمَّ تكرّمت عليه بمتليك - خمسة قروش تعادل حوالي خمسةً وعشرين ستاً أميركياً - وطلبت منه أن ينقلني عبر النهر بمعدّيته.

أطاع بصمت، وحملني وحصاني بأمان متضرعاً لله أن يحميني، ثم عبر النهر بصمت مرّة أخرى.

أشعلتُ غليوني بعد أن قدت حصاني فوق الضفة المرتفعة، واعتليت السّرج ثم انطلقت إلى الصحراء الواسعة شديدة الظلمة.

لم يكن هناك أدنى خطر في المرور فوق أي رجل أو الاصطدام بجدارٍ أو شجرةٍ، أو التعثّر بقناةٍ أو مستنقع؛ فقد كانت الأرض من ديالى حتى القصبة Casseba تقريباً

- أي على مسافة ثمانية أميال - مسطحة تماماً وجافة وملساء تماماً كطاولة البلياردو. عندما أشعلت غليوني نظرت إلى ساعتي فكانت تشير الى التاسعة تماماً حينما غادرت ديالى.

بعد انطلاقةٍ طويلة توقفتُ وأشعلت فتيلاً، ثم نظرت إلى آلة الزمن خاصتي مرّة أخرى. لقد كانت الحادية عشرة والربع! ولكن كيف لهذا أن يحصل؟ فبالسرعة التي انطلق بها حصاني الشجاع، لا بد أن نكون قطعنا على الأقل مسافة عشرين ميلاً، ولكني لم أصل إلى جنبات القصبة Casseba حتى الآن! كان الأمر واضحاً؛ لا بدّ أنني أضعت نفسي في هذا السهل الواسع، وهناك كنت واقعاً في حيرة، كيف لي أن أخرج نفسي من هنا؟! لقد كنت في حالة من الضياع لا أستطيع فيها التخمين.

هناك كنت في الصحراء، في مكان حيث لم أكن، وعلى الأرجح أنه لم يكن أحد غيري أيضاً من قبل محاطاً بالظُّلمة المصرية[1]، التي لم تمكنني من رؤية يدي الممدودة أمام وجهي، ودون نجم أو ضوء أو شجيرة أو ارتفاع في الأرض أو أي شيء آخر ممكن أن يكون مرشداً لي. حاولت الإصغاء إلى صيحات بعض الطيور المائية لأتبيّن اتجاه نهر دجلة ولكنَّ كل شيءٍ كان هادئاً تماماً كصمت القبور، ولم يتخلله حتى نباح ابن آوى الشارد.

وبدا أنَّ الضبع الجبان نفسه لم يجرؤ على التجوّل في تلك المنطقة الموحشة وفي ليلة حالكة الظلام كهذه. ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ لم يكن هناك فائدة ممكنة من مواصلة مسار دون كيخوته Don Quixote البطولي هذا؛ فقد كان من الممكن أن أقود حصاني إلى مكانٍ بعيدٍ وعلى الأرجح في اتجاهٍ معاكسٍ تماماً لذلك الذي انطلقت منه، علاوةً على ذلك، بدأت علامات التعب تظهر على حصاني؛ حيث كان يخبّ بسرعة كبيرة لأكثر من ساعتين متواصلتين دون انقطاع، لذلك قررت أن أبقى حيث أنا وألاّ أمشي إنشاً واحداً دون أن أعرف إلى أين أتجه.

---

(1) يستخدم المؤلف تعبير: Egyptian darkness فما هي هذه الظلمة المصريّة؟!

ترجّلت عن حصاني، وأرخيت أحزمة السرج وجلست على الأرض منتظراً حدوث تغييرٍ ما. عندما رأيت أن هذا التغير كان متقاعساً في الظهور بدأت أشعر بالوحدة وبالنعاس، ما دفعني إلى اللجوء إلى المواسي المخلص والناجع دائماً للصّياد المنفرد، والجندي المرهق والبحار الوسن، إنه غليون التبغ المهدّئ.

كان الوقت يمضي، وعقارب ساعتي تشير إلى الواحدة، ثم إلى الثانية ولكن لازالت فرصتي في التحرّر بعيدة جداً كما كانت من قبل.

كنت على وشك البدء بحساب كم سيستغرق النهار الكسول حتى ينبثق، عندما لمحت فجأة ضوءاً خافتاً من مسافة بعيدة جداً على جهتي اليسرى، إلاّ أنه ومض للحظةٍ واحدةٍ ثم اختفى تماماً عن ناظري بعد ذلك.

على الرغم من أنني كنت أجهل تماماً في أي اتجاه من اتجاهات البوصلة لمحت ذاك الضوء، أو من هم الناس الذين أشعلوه، فلقد قرّرت أن أنطلق مباشرةً باتجاهه إذا حالفني الحظ ولمحته مرّة أخرى، بغضّ النظر عن النتائج، فقد يكون الضوء منبعثاً من مخيمنا، أو من القرية الصغيرة الواقعة على ديالى، أو من مخيم البدو، أو من منارة أحد الصيادين على ضفاف دجلة وقد يكون من قطّاع الطريق في أدغال القصبة Casseba.

يالفرحتي العارمة! لقد ظهرت الشعلة الصغيرة مجدّداً. بادرت على الفور بربط أحزمة السرج ثم اعتليته وانطلقت بالسرعة القصوى نحو نجمي الهادي.

سرت بسرعة شديدة لمدة نصف ساعة تقريباً، ثم يا لحيرتي الكبيرة! لقد اختفى الضوء مجدداً، لكنني واصلت انطلاقي إلى الأمام، إلاّ أنَّ سرعتي كانت قد تباطأت لئلا أتجاوز هدفي.

فجأة، سمعت صوت نباحٍ هائجٍ لكلاب إلى الأمام مني قليلاً، إنها ضجة تردّدت في آذاني كالموسيقى. بعد ذلك مباشرةً سمعت صوتاً خافتاً لرجلٍ يحاول أن يسكت الكلاب الغاضبة، وفي اللحظة نفسها تألق ضوءٌ لامعٌ في عيني.

لقد كان الوقت المناسب لأكتشف مكان وجودي؛ حيث لمحت أمامي على مسافةٍ بالكاد تبلغ عشرين ياردةً ضفاف ديالى العالية والمنحدرة، وكان هناك قارب المعدّية الذي نقلني عبر النهر منذ ست ساعات مضت مربوطاً على الضفة المقابلة.

ترجلت عن حصاني وبدأت بمناداة الرجل الموجود على الضفة الأخرى، لكنه لم يستجب، بينما واصلت الكلاب عملها الصاخب. عندما أدركت أنَّ الرجل ليس ميّالاً إلى ملاحظتي إمّا بسبب خوفه أو بسبب كسله، وعندما لم أعد أرى أي شخص آخر حول النار، أطلقت رصاصة من أحد مسدساتي في سبيل استثارة الرجل العجوز الذي نقلني عبر النهر، وقد نجحت بذلك؛ فسرعان ما ظهر وصاح لي.

أجبته بأنني الفرنجي الذي أقلّه في المساء السابق، وأنني فقدت طريقي، وأرغب في الانتظار في قارب المعدّية خاصته حتى طلوع الفجر.

كان مدركاً تماماً للبقشيش الجيّد الذي سيحصل عليه، ويعي جيداً مصلحته الشخصية، لذا تقدّم ذلك الوغد العجوز مباشرةً نحوي بقاربه، وحملني إلى الجنب الآخر، حيث اتخذت أنا وحصاني المكان نفسه الذي اتخذناه في المساء الماضي.

مع تباشير النهار الأولى عبرت النهر مرة أخرى ووصلت إلى القصبة Casseba عند الشروق، ثم مررت بآثار طيسفون ووصلت إلى المخيم بمزاجٍ رائع ولكنني كنت جائعاً كالأسد وقد وصلت تماماً في وقت الفطور.

بعد حوالي أسبوع من هذه المغامرة، انتهى مخيمنا في سلمان پاك، حيث أمتعنا أنفسنا إلى أبعد الحدود ولمدة شهر من الزمن، وقد انتهى بسبب انحسار وباء الكوليرا من البلدة، ولكن السبب الرئيسي هو اقتراب موعد الأمطار السنوية. يبدأ الفصل الماطر عموماً في إقليم الرافدين الأدنى عند نهاية نوفمبر تقريباً، وينتهي في أوائل مارس، في حين لا تهطل نقطة مطر واحدة خلال الفترة المتبقية من السنة.

في الصباح الباكر لليوم المقرر لعودتنا إلى بغداد، كان كل شخصٍ في المخيم مشغولاً بعملٍ ما؛ كحزم الصناديق، وترتيب الحقائب الجلدية، وإنزال الخيام، ونقل

المتاع والخدم على متن "Comet" (كوميت).

بعد أن انتهينا من إنجاز أعمالنا، صعد الخدم والأطفال والنساء على متن الباخرة مباشرة، وسرعان ما رفعت الباخرة مرساتها أثناء إطلاقها لتحية المغادرة، وشقت طريقها في النهر صعوداً، وتبعتها هتافات وصيحات رجال مخيمنا الذين كان عليهم الذهاب إلى بغداد على صهوات خيولهم. لقد كنّا بحاجة إلى كل الخيول والحمير المتوفرة، والتي كانت حوالي أربعين دابة تقريباً، وبعد عشر دقائق من مغادرة موكبنا للبقعة التي عمّها النشاط الصاخب والفوضى لعدة أسابيع، عادت البقعة نفسها ثانيةً إلى عزلتها السابقة، وبعد نصف ساعة تقريباً لم يكن فيها سوى اثنين من البدو يطوفان خلسةً عند حدود مخيمنا بحثاً عن الأشياء الصغيرة التي قد تكون ضائعة في الرمال المتحركة، أو قد يكون الفرنجة خلفوها وراءهم عن قصد.

بعد وصولنا إلى المدينة بقليل سمعنا أن قافلة الحج سوف تغادر بغداد قريباً باتجاه مكة، وهي مدينة تقع في جنوب شبه جزيرة العرب، على مسافة مئة وخمسين ميلاً من جدّة - الميناء البحري الصغير الواقع على الشاطئ الشرقي.

كما هو معروف، مكة هي مسقط رأس ومكان دفن محمّد[1]، النبي المشهور الذي تأسّس على يديه دين الإسلام، والذي كما ذكرت سابقاً ولد هناك في أبريل سنة 571 للميلاد، وبعد وفاته التي كانت عام 632 تم إحضاره إلى مكة ودفن فيها[2]، يعترف كل أنصار الإسلام بمحمّد على أنه رسولهم وهو الرجل القريب من الله، ونتيجة هذا الاعتقاد تعدّ مكة من قبل جميع المسلمين - كونها تحتضن جسد محمّد - المكان الرئيسي للعبادة والحج[3]، تماماً كما كانت القدس بالنسبة للمسيحيين أثناء الحملة

(1) عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.
(2) هذا غلط بالطبع، فقد دُفن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام في المدينة المنوّرة. ومعلومات لوكر التاريخيّة تغلب عليها العاميّة، فهو رحّالة عادي وليس بمستشرق.
(3) ليست مكّة مقدسة لوجود أيّ قبر كان، بل هي مكرّمة لوجود الكعبة فيها، أول بيت بني لعبادة الله الواحد الأحد، على يدي أبي الأنبياء إبراهيم عليه السّلام.

الصليبية ولا تزال.

ليس هناك أي مؤمنين بأي دين من أديان العالم يلتزمون بتعاليم دينهم على نحوٍ صارمٍ كما يفعل المسلمون، الذين تكمن ذروة طموحهم الدنيوي في حصولهم على لقبِ (حاج) أي الذي ذهب إلى الحج في المدينة المقدّسة، وهو لقبٌ يوضع قبل أسمائهم الشخصية، والطريقة الوحيدة للحصول على هذا الامتياز المرغوب به بقوّة هي القيام برحلة إلى مكة.

إن هذه الرحلة ليست على الإطلاق رحلةً سهلةً بالنسبة لأي شخص، إنما هي رحلة صعبة جداً بالنسبة للبائسين الفقراء الموجودين في تركية وبلاد الرافدين وبلاد فارس والهند وأفغانستان، فبلادهم بعيدة جداً عن مكة ويتوجب على هؤلاء الأشخاص أن يقطعوا مسافة تتراوح ما بين ألفين إلى خمسة آلاف ميل، ما يفرض عليهم نفقات هائلة حتى بالنسبة لأكثر المسافرين اقتصاداً وتوفيراً وهو الذي يسافر وحيداً، دون ذكر أولئك الذين يأخذون معهم قافلة كاملة من النساء والعبيد والخدم، فعلى سبيل المثال، قامت ملكة سابقة في الهند الشرقية ـ وهي مقيمة في بغداد منذ الثورة الهندية ـ خلال فترة إقامتي في مدينة الخلفاء، باستئجار باخرةٍ ضخمة من شركة ملاحة بخارية في بومباي، وبثمنٍ باهظٍ، لكي تنقل جلالة سموّها الملكي من البصرة إلى جدّة، من حيث تريد الذهاب إلى مكة.

هناك عددٌ قليلٌ جداً من الناس المؤمنين الذين يستطيعون إنفاق النقود بحرّية وسخاء كتلك المذكورة للتو..، وهناك الآلاف والآلاف من الرجال الفقراء الذين يذهبون سنوياً برّاً وبحراً إلى الحج بصفتهم مرافقين شخصيين أو ساسة خيول أو حلاّقين أو أمناء سر لأشخاصٍ قادرين على الدّفع لهم مقابل خدماتهم، وعلى تحمّل نفقات سفرهم.

إن الطريقة الأسهل والأقل تكلفة للذهاب إلى مكة بالنسبة لمعظم المسلمين، هي الذهاب عن طريق البحر؛ حيث يستطيعون السفر على متن السفينة في رحلةٍ تبعد يومين أو ثلاثة أيام من مكة. منذ زمنٍ قريب فقط كان الناس يبدون كرهاً فظيعاً للرحلات

البحرية، ويدعمون تحاملهم الشديد هذا بأنهم يفضلون المخاطر والمتاعب الجمة لرحلةٍ تمتد من ستة أشهر إلى اثني عشر شهراً فوق الرمال الملتهبة في جزيرة العرب، على العوائق التافهة نسبياً التي قد يتعرّضون لها في الرحلة البحرية.

في السنة الماضية حصلت شركة جريئة من بومباي على الإذن من باشا بغداد لنقل الحجّاج إلى مكة، من ميناء البَصرة في العراق العربي أو (بلاد وادي الرافدين الأدنى) إلى جدّة، واشترطت الشركة بأن أفراد طاقم السفينة المخصصة لهذا العمل وقائدها ينبغي أن يكونوا من المسلمين، وأن السفينة مخصصة لنقل الركاب المسلمين فقط.

تم قبول هذه الشروط وبدأت السفينة بالعمل في الوقت المناسب، وبحمولةٍ كاملةٍ من المسلمين وصلت بأمان إلى جدّة وأثبتت ـ كما قيل لي ـ أنها مشروعٌ مربحٌ ونافعٌ جداً بالنسبة لأصحابها. يجتمع سنوياً حول بغداد من أربعين إلى ستين ألف حاجٍّ من بُخارى وأفغانستان وفارس وكردستان والرافدين، من أجل الانضمام إلى قافلة مكة العظيمة التي تغادر بغداد عادةً عندما يقترب الجو من الاعتدال.

والآن كان آلاف الحجّاج قد وصلوا إلى بغداد، ينتظرون بفارغ الصبر وبرصانة المسلم الحقيقي، اكتمال القافلة الضخمة بوصول قوافل صغيرة يومياً من جميع أنحاء آسيا الغربية. تظهر الشوارع الضيقة لمدينة الخليفة، قبل عدة أسابيع من مغادرة أتباع مذهب محمّد المتدينين، بمظهرٍ ممتعٍ جداً، ويزداد يومياً ازدحام هذه الشوارع التي كانت بالأصل ضيقة جداً بالنسبة لعددِ السكان الأصليين، فتعج بالمسلمين الذين يمثلون كل الأمم في آسيا وأفريقيا ـ وأغلبهم من الرجال ـ يعرضون مختلف الأزياء والملامح والعادات والتقاليد التي يمكن مشاهدتها فقط في المراكز التجارية الضخمة في آسيا وأفريقيا.

أصبحت بطبيعة الحال الأسواق الممتدة في هذه المدينة الشهيرة الملتقى الرئيسي لهؤلاء الأجانب الذين - على الرغم من كونهم متجهين في رحلةٍ دينية - لم يظنوا أنه من غير اللائق الجمع بين الأعمال المقدّسة والأعمال التجارية، لذلك أحضروا معهم كميات كبيرة من بضائع ومنتجات بلادهم الأم، وكانوا جميعاً توّاقين إلى التخلّص من

تلك البضائع في أسواق بغداد.

لم يسبق لي أن رأيت أي سوق في أي مدينة شرقية يعج بالبضائع باختلاف أوصافها كما هو الوضع الذي أعجبتني جداً مشاهدته في بغداد خلال تلك الفترة.

هناك في هذا المعرض العالمي المرتجل يمكنك رؤية أية سلعة يمكن توقعها؛ صناعية أو إنتاجية خاصة بآسيا الغربية، بالإضافة إلى تشكيلة واسعة جداً من البضائع الأوروبية.

أفخر شالات الكشمير، أسمك أنواع (الكنفا) العربية، ومن أكثر أنواع المجوهرات تلألؤاً من الماس والياقوت والزمرّد والفيروز التي يتم صنعها في الهند وبخارى وبلاد فارس، نزولاً إلى أخف أنواع الحلي النحاسية والمصنوعة من التوتياء، ومن أجمل بنادق الجفت المصقولة بشكل رائع، الإنكليزية أو الفرنسية الصنع نزولاً إلى البندقية القصيرة الأفغانية الثقيلة وبندقية الفتيل البدوية الأصلية، ومن أطيب زيوت الورد والعطور الشرقية الأخرى نزولاً إلى أفظع روائح زيوت السمك.

باختصار: في تلك الفترة يجب أن يتوفّر كل شيء، من أجل الحصول على النقود أو على أشياء بقيمة النقود.

إنَّ هذا النشاط الصاخب لم يكن مقتصراً على المدينة فحسب؛ بل كان أيضاً في الضواحي التي كان معظم سكانها من المزارعين والرعاة يحتشدون أمام البوابات العديدة من الشروق حتى الغروب بمحاولاتهم التّواقة لتزويد المدينة المكتظة بالخضار والفواكه من كل نوع، بالإضافة إلى البيض والحليب والسّمن والجبن والذرة والدجاج ولحم الطرائد الطازج، والحطب وغيرها من ضروريات الحياة التي يتم إحضارها إلى المدينة على ظهور الآلاف من الحمير، التي عندما تعود بالسّلال الفارغة على ظهرها تصاب على الفور بارتباكٍ رهيب من قطعان الأغنام والماعز المأخوذة إلى الجزّار في المدينة.

لطالما رأيت البوابات الضيقة مسدودة بهذه الحيوانات ـ الحمير ـ التي تتم مضايفتها

باستمرار ومن كل الجوانب بصرخات وعصيّ سائقيها، وهذه الطريقة الغبية لا تتسبب بطبيعة الحال سوى بزيادة الارتباك المريع للحيوانات، لتقدّم بالتالي مشهداً يعجز عنه الوصف.

كانت ضواحي المدينة الواقعة على الضفة اليمنى مغطاة بكل معنى الكلمة بخيام يسكنها أشخاص لم يستطيعوا إيجاد مأوىً لهم في المدينة المكتظة. إن معظم هؤلاء الذين يعيشون خارج جدران المدينة، هم من بدو الصحراء وضفاف الفرات الذين كانوا يمقتون إلى حدٍ بعيدٍ حياة المدينة، كونهم أمضوا كامل حياتهم في الهواء الطلق، ولكن الشيء الذي كان يجذبهم إلى المدينة هو الطلب الكبير على الجمال والخيول والبغال والحمير، والتي يحتاجها الحجّاج حتماً من أجل رحلتهم إلى مكة. لقد جلب البدو معهم الآلاف والآلاف من هذه الحيوانات، وفي بعض الأحيان كانوا يقومون بتجارة نشيطة ومربحة للغاية؛ كونهم يعلمون أنهم يستطيعون طلب أية مبالغ مقابل حيواناتهم تلك، وذلك بسبب حاجة الحجّاج الماسة لها.

* * *

في اليوم المحدّد لمغادرة القافلة، تماماً قبل شروق الشمس، ركبتُ حصاني بصحبة أصدقائي وانطلقنا فوق الجسر العائم الممتد عبر نهر دجلة في وسط المدينة، وبعد أن اجتزنا حدود المدينة الواقعة على الضفة اليمنى وصلنا مباشرة إلى السهول الواسعة الممتدة بين نصب زُبيدة التذكاري وسدّ نمرود (سدّ مدين)، حيث انبسط أمام أعيننا مشهدٌ عظيمٌ؛ كان أكثر من ثمانين ألف شخص يختلط معهم مئة ألف على الأقل من الجمال والخيول والبغال والحمير، السابقو الذكر يرتدون أزياءهم المختلفة، واللاحقة الذكر تكسوها أغطية مزركشة ومجهزة بكل متطلبات الرحلة الشخصية، تغطي السهل حتى أقصى نقطة استطاع نظرنا الوصول إليها.

إنَّ هذه الكتلة الضخمة من البشر، والضجة الصامّة الناجمة عن اختلاط أصوات الكثير من البشر والحيوانات، والنشاط الصاخب، وبريق أعداد لا تحصى من رؤوس الرماح، والسيوف المطلية بالفضة، والبنادق والمسدسات وغيرها مع الخيوط الأولى

للشـمس المشرقة، كل ذلك رسـم صورةً يسـتحيل على قلمي وصفها ويستحيل على ذاكرتي نسيانها.

كان الآبـاء والأبناء والأزواج والأقارب والأصدقاء يتودّعون للرحيل عن عائلاتهم بالعناق الحميم، ويطبع كلٌ منهم قبلة وداع على كتف الآخر.

هناك كان سكان بغداد يواسون بعض النسوة الصغيرات اللاتي غادر للتوّ أزواجهنَّ الذين قد لا يعودون أحياء أبداً.

هنا ترى زوجةً صغيرةً تنشج بالبكاء، محاطةً بوالديها وإخوتها وأخواتها، عوضاً عن العيش طوال هذه المدة مع شكوكها حول مصير سيدها، كان عليها مرافقته ومشاركته للأعباء والمخاطر الجمّة لتلك الرحلة.

وهنا ترى اثنين من الفرسان المنطلقين يرتفعان عن سرجيهما، وهناك ترى مجموعةً مـن البدو المكفهّريـن الذين يحاولون جعـل جملٍ جامحٍ يبرك علـى الأرض ليتمكن راكبه من امتطائه أو وضع أمتعته فوقه.

وهنـاك أيضاً ترى درويشـاً ـ شيخاً مسـلماً متجـولاً، أو بالأحرى رجلاً نذر نفسه للدين، يعيش على الصدقات ـ ذا لحيةٍ طويلة وثياب مهترئة، يطوف بين الحشد بوقار، وهنا طفلٌ ضائع في هذه الفوضى يبكي بأسى بحثاً عن أمه أو أبيه.

وهنا زوج من الفرس مفتولي العضلات، يركبان حصاني قزمين وثّابين لهما مشية خاصة (رهوان) Rachawans ـ وقد تم وصفها سابقاً ـ وهناك عدد من العرب يمتطون جياداً من أفضل السـلالات، وهنـا جماعة من البـدو يغطّون وجوههم حتـى أعينهم، ويجثمون على ظهور جمالٍ طويلةٍ وقويةٍ ووحيدة السنام، يركبونها على نحوٍ رائعٍ عبر الحشد الكثيف لينضموا بذلك إلى الرتل الطويل للقافلة التي بدت ليست لها نهاية.

تألفـت مقدمـة القافلة بشـكل رئيسـي مـن المرشـدين البـدو والخفـر المدجّجين بالسـلاح، بدؤوا برحلتهم قبل الشـروق بوقتٍ طويلٍ، وقد اختفوا الآن تماماً في سديم الأفق البعيد، في حين كانت القافلة نفسـها كجسـم الأفعى الضخمة التي تلتوي وتلتفّ

ببطءٍ ولكن بانتظام عبر السهل الفسيح، باتجاه بلدة (هيت)، وهي بلدة صغيرة تقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات وتبعد حوالي ستين ميلاً عن غرب بغداد، حيث يعبر الحجّاج النهر في هذا المكان وتكون المياه ضحلة جداً. من ثمَّ يتقدّمون نحو وادي صواب، ويبقون دائماً على مسافة عشرة أميال من النهر الذي يشكل مجراه رافداً يمينياً لنهر الفرات.

من هناك يعبرون الصحراء السورية باتجاهٍ غربي، حتى يصلوا إلى تدمُر، المعروفة أكثر باسم (آثار پالميرا)، ومن ثم يتابعون طريقهم عبر منطقة أخرى أشد قحطاً وجفافاً، أولاً باتجاه الغرب، ثم باتجاه الجنوب الغربي، إلى دمشق.

وفي ملكة المدن السوريّة هذه يستريح الحجّاج لمدة أسبوعين تقريباً، وفي غضون ذلك تتزايد قافلتهم الضخمة يومياً بانضمام قوافل حجاج أخرى أصغر حجماً إليها من سوريا وكردستان وآسيا الصغرى، يلتقون جميعهم في دمشق، وفي يوم يعرفه كافة المسلمين في هذا الجزء من العالم تبدأ القافلة الضخمة بأكملها المسير المستمرّ في (درب الحج الشامي) أو طريق الحج السوري باتجاه الجنوب نحو شواطئ البحر الأحمر، ومن ثم عبر المدينة إلى مكة.

* * *

الفصل الخامس عشر

الابتعاد عن بغداد

عادات عربية ـ اختيار الحراس ـ الملكية المشتركة للجواد العربي - حارس مفرزتنا الشخصية ـ قداسة الجواد ـ القسم ـ حسن الوفادة البدوية ـ الفرمان الإمبراطوري ـ البريد الصحراوي الملكي إلى أورفة ـ مشروع فرنسي ـ هودج التَّختروان ـ حدوات الخيول العربية.

مع نهاية شهر يوليو ظهر السّنيور (P) مجدّداً في بغداد ومعه اثنا عشر رأساً من أجمل الخيول الفحول الأصيلة التي رأيتها في حياتي، تحرسها مجموعة من أربعين رجلاً من البدو المكفهرين الهمجيي المظهر، ذوي وجوه مهزولة وملثّمة كالمومياء المصرية، وعيون سوداء غائرة ذات بريق متوهّج ونظرة ثاقبة.

كانوا جميعهم يمتطون خيولاً سيئة على الرغم من أنَّ قبيلتهم تمتلك أروع وأعظم الخيول الموجودة في بلاد الرافدين وفي أيّ مكان آخر.

قام هؤلاء الأشخاص الماكرون بالإجراء التحفظي الذي يميز معظم القبائل البدوية؛ حيث حرصوا على ترك خيولهم الجيدة في بيوتهم بعد أن تعلّموا جيداً من تجاربهم التعيسة؛ فقد تثير خيولهم عند إحضارها إلى بغداد إعجاب الپاشا أو القاضي أو (ريّس پاشا) أي قائد اللواء، الذين يطمعون في الحيوانات الجيدة، وبإدراك حكومي للعدالة معروف جيداً، فهم إمّا يعرضون على المالك تعيس الحظ مبلغاً يساوي ربع القيمة الحقيقية للحصان، أو إذا رفض ترك دابته مقابل هذا السعر قد يجد نفسه معتقلاً

تحت حجةٍ ما، قبل مضي عدّة ساعات أما بالنسبة لحصانه - السبب الجلي لاعتقاله المفاجئ - فيتم الاعتناء به أيضاً، ولكنه يختفي بالطبع بشكلٍ غامضٍ ومبهم أثناء حبس صاحبه.

هل يمكن للسجين عديم الحظ أن يحالفه الحظ فيحصل على حرّيته ثم يتهوّر ويسأل عمّا حلّ بصديقه ذي الأرجل الأربع؟ هذا ما لا يعرفه أحد، ولكن أفضل نصيحة يمكن تقديمها للبدوي البائس هي مغادرة المدينة مباشرةً إذا كان لا يتمنى أن يدخل السجن مرّة أخرى، أو أن يبتلع شيئاً ما في قهوته لا يتوافق مع معدته نهائياً.

كما قلت سابقاً؛ كان البدو الذين يحرسون السّنيور (P) يركبون ـ لأسبابٍ واضحة طبعاً ـ خيولاً وضيعة يعرفها العرب باسم (كديش).

لم تكن معدّاتهم أيضاً ذات وصفٍ يثير مطامع الآخرين. كانوا يرتدون الثوب الطويل والفضفاض المعتاد، المنسوج من صوف الأغنام البني، المربوط حول الخصر بوشاحٍ أو حبلٍ صوفي، وتتدلى من على أكتافهم العباءة البيضاء المعروفة أو البرنس التركي الذي وصفناه سابقاً بأن جميع رجال القبائل البدوية تقريباً يرتدون مثله، وكذلك سكان الرافدين كافةً وجزيرة العرب، وشمال أفريقيا.

كانوا جميعهم حفاةً، لهم شعر أشعث طويل لونه أسود فاحم، وشارب ولحية خفيفان، باستثناء اثنين أو ثلاثة من الكبار الذين كان لون شعرهم ولحيتهم أبيض كالثلج، ورؤوسهم مغطاة بالكوفية المعروفة، المنديل الكبير متعدّد الألوان وأحياناً يكون مزيّناً بكثرة بالشرّابات، يلبسه العرب فوق رؤوسهم وأكتافهم.

كان لأسرجتهم شكلٌ غريب، ومقعدٌ ضيقٌ جداً وقربوسٌ مرتفعٌ بشكلٍ جلي، وحِنْوُ السرج كان مغطى بجلد الماعز المدبوغ ومزيّن بالتطريز الخشن، ومزوّداً بحلقات ركاب حديدية كبيرة رباعية الزوايا تتدلى من حبال جلدية، وهذا النوع من حلقات الركاب الحديدية خاص جداً بالمسلمين، تكون قاعدتها محدبة قليلاً وواسعة بشكلٍ كافٍ لتستند عليها قدم الرّاكب، بينما تفيد زواياها الحادّة في حثّ الدابة واستعجالها،

أما لجاماتهم فقد كانت شرائط مصنوعة من شعر الأغنام، والمكبح مصنوع من الحديد الملتف وله شكلٌ غريبٌ أيضاً؛ حيث لـه حلقة يبلغ محيطها ثلاثة إنشات ونصف مربوطة في وسط العصا العرضية أو جزء اللجام الموجود في الفم، وكبيرة جداً لتمرّ فوق الفك العلوي للحصان بسهولة، وعندما يُشدّ العنان تضغط الحلقة على الفك السفلي وبذلك تعمل على الفك كنوع من الرّافعة. إنه اللجام الأكثر قساوةً ويتسبب بتعذيب الحصان على نحوٍ خطيرٍ عندما يتم شدّه بقوّة، ولكنه لا يستخدم نهائياً مع الخيول العربية المعروفة عموماً بكونها وديعة ومطيعة.

كان جميع الحرّاس من البدو يحملون رماحاً تتراوح ما بين عشرة إلى اثني عشر قدماً في الطول، وهو السّلاح الأصلي والمفضل لدى البدو، والذي يستخدمونه ببراعة تامة، وكانوا مزودين أيضاً بالخنجر المعقوف المعروف ذي الحدّين، أو (الكريس)[1] Kris الذي يحمله كل العرب تقريباً. أما بالنسبة للأسلحة النارية، فقد حملها بضعةٌ منهم فقط، وكانت عبارة عن بندقية عربية طويلة السَّبطانة ومسدسات توضع في الأحزمة.

كان جميعهم من عشيرةٍ تابعةٍ لبدو شمّر تسمى صقلاوي سِمري "Sacclavi Simbri" تخيم في الوقت الحالي فوق السهل، بين ثلاث بحيرات تمّ ذكرها سابقاً: الهنديّة Hindijia وبحر النَّجف Bahr Nedjef وخور عبد الله Chor Allah وبين الضفة اليمنى للفرات، وهي على الأرجح القبيلة نفسها التي قامت منذ اثنتي عشرة سنة بهجومٍ على بعثة البارجة الحربية "Comet" (كوميت) إلاّ أنهم ينكرون ذلك بشدّة.

بما أن السّنيور (P) قد أحضر الجزء الأكبر من خيوله من هذه القبيلة، وقد استمتع بحسن ضيافتهم لمدة أكثر من شهرين، فقد فكّر بأنه من الأفضل اختيار حرّاسه من القبيلة نفسها، كونه يعلم جيداً بأنهم يفضّلون العناء حتى الموت على السماح لخيولهم بالوقوع بين يدي أحد القبائل السلاّبة المعادية.

---

(1) الكريس نسبة غير عربيّة، بل تشيع في إندونيسيا وماليزيا وتايلاند وبروناي، وهو نوع من الخناجر الكبيرة ذو نصل متعرّج.

إنهـا خاصيّةٌ معروفة جيداً بين القبائل البدوية المشـهورة جداً بخيولها، فبالرغم من عدم رفضهم لبيع أحســن فحولتهم ـ بشـرط أن يسـتلموا ثمن الخيول ويحصلوا على موافقة الشـاري بإرسـال الخيول عبر البحر ـ يشـترطون عدم بيع أيّ منها أو إعطائها أو نقلها بأي طريقة أخرى إلى ملكية قبيلة بدوية أخرى.

تعدّ أهمية هذا الشـرط في صفقةٍ كتلك كبيرة للغاية، إذ إنَّ الشاري ليس مجبراً على توقيع ورقة حول هذا الخصوص فحسـب، إنما في الواقع يجبرونه أيضاً على القَسَـم حسـب تعاليمـه الدينية الخاصـة، بأنه لن ينتهك هذا الشـرط، والاسـتثناء الوحيد لهذا العهد هو سرقة الحصان أو موته.

حتـى يجعل شـيخ الصّقـلاوي سِـمري Sacclavi Simbri وقوع حـدث كهذا من المسـتحيلات، قـام بتزويد السّنيور (P) الـذي تظاهر بأنه يشـتري الخيول للسـلطان عبد العزيز وليس لفرنسـا، بحراسـةٍ من أربعين رجلاً ليحرسوه جيداً ويجعلوه يمر من المناطق التي تعجّ بالقبائل البدوية المعادية بأمان.

لحسـن حظ البائع والشـاري كليهما لم تحصل أية حادثة للخيول، ووصلت جميعها بأمانٍ إلى بغداد.

لو ظهرت أية محاولات من قبل عصابات القبائل الأخرى السـلاّبة للحصول على الخيول لكان الحرّاس سيدافعون عنها بأرواحهم، أو أنهم كانوا مهما حصل لن يعودوا إلى خيامهم على ضفة الفرات إلاّ إذا نجحوا في سرقتها مجدَّداً من أي أحدٍ كان باسـتثناء أصحابها الشرعيين الجدد.

يتميز البـدو بأفراسـهم الولاّدة التي لا يسـتغنون عنها تحت أي ظرفٍ من الظروف، بغـضّ النظـر عن أي مبلـغ يدفع مقابلهـا، أو عن الشـخص الذي يريدهـا، وبتقديرهـم الخـاص لـن تكون عاقبة كبيـرة إذا ما قُتل نصف دسـتة مـن رجال قبيلتهـم مقابل منع خسـارة فرس ولاّدة ممتازة بالسـرقة أو بوباءٍ ما أو إثر حادثٍ ما.

إن الفرس الولاّدة هي فخر الرجال، والمفضلة لدى النسـاء، ورفيقة اللعب بالنسـبة

للأطفال، ويتحسّر عليها كل أفراد القبيلة إذا ما تم فقدانها.

تتم مراقبتها بتلهّف وقلق، وتحرسها العيون الثاقبة ليلاً نهاراً كالجوهرة التي لا تقدّر بثمن، وفي الواقع إنّ الفرار بها ليس مهمةً سهلة على الإطلاق، حتى وإن كان من أكثر سارقي الخيول مراوغةً وخداعاً. في عدّة مراحل من نموها، وخاصة عندما تكون مهراً، لا تعيش فقط في خيمة نصبت خصيصاً من أجلها؛ إنما تقيّد باستمرار أيضاً بواسطة حلقاتٍ حديدية قوية حول رسغ أرجلها الأربعة، ويبقى مفتاح هذه الأصفاد باستمرار مع رئيس القبيلة أو مع أحد مالكيها.

يتم امتلاك الخيول القيمة، وخاصّةً الأفراس الولاّدة المشهورة من قبل اثنين أو ثلاثة أو أربعة أشخاص أو حتى أكثر من ذلك بين العرب عموماً والبدو خصوصاً، فيكون الحيوان في هذه الحالة ملكية مشتركة مقسمة إلى حصص، تباع وتشترى بين أفراد العائلة أو القبيلة أو العشيرة أو المعارف، تماماً كما تنتقل ملكية أسهم السكك الحديدية والمستندات المالية وغيرها في سوق البورصة في الولايات المتحدة.

وعلى الأرجح قد يصادف أن يكون حصان ما ملكاً مجزّأً لعدة أشخاص الأول في البادية والثاني في بغداد والثالث في البَصرة.

يكون الشخص الذي يطعم الحصان مخوّلاً باستخدامه، ولكن لا يسمح له تحت أيّ ظرف من الظروف مفارقة الحيوان أو التخلي عنه أو عن مهره أو عن خدمته، إلاّ إذا حصل على موافقة خطية من كل من أصحاب الأسهم في هذا الحيوان.

إن الهدف من وراء هذه الملكية المشتركة واضحٌ للغاية. تدبّر أمور الملكية بهذا الشكل، حتى في حال تم فقدان الحصان بسبب سرقة أو وباءٍ ما، فإن الخسارة النقدية لن تنزل ثقيلة جداً على شخصٍ واحد؛ إذ من المؤكد أنه لم تكن آنذاك شركات التأمين معروفة بعد في جزيرة العرب وبلاد الرافدين.

هذا ويكون المخيم البدوي الكبير مراقباً ومحروساً بدقة من قبل عدة مئات من الكلاب الضخمة، كثيرة الشعر والمترعرعة بقوّة، وهي معروفة بضراوتها ومشهورة

فـي كل أنحاء الشـرق بمراقبتها جيداً، تعلن اقتراب أي شـخص غريب - عندما يكون على مسافاتٍ لا تصدّق- بالنباح الهائج المسعور، وعندما يكون الشخص خارج نطاق الرؤية تماماً.

الويـل الويـل للغريب الذي يجرؤ على دخول المخيـم، إلاَّ إذا كان يمتطي حصانه، وبالتالي يكون بعيداً عن منالهم. أما إذا كان ماشـياً على قدميه، فإنه سرعان ما سيتمزّق إرباً من قبل هذه الكلاب المسعورة، إلاَّ في حالة التدخّل السريع لسكان هذا المخيم.

رغم هذه الاحتياطات الاسـتثنائية، ينجح أحياناً بعض السـارقين المحتالين بالفرار بالجواد المطلوب.

روى أحد الرحّالة المعروفين ما يلي: ذات مساء وقبل هبوط الظلام مباشرةً، وصل أحد سادة الصحراء المتجوّلين هؤلاء وكان يمتطي جواداً سيئاً ومجهزاً بشكلٍ سيئٍ، إلى قبيلة بدويةٍ غريبةٍ، مشـهورة جداً بخيولها الممتازة بشـكل عـام، ولكن على وجه الخصـوص بامتلاكهـا لفرس دهماء جميلـة، ويقال إنه ليس هنـاك أي حصان آخر في الصحراء يجاريها في سرعتها.

شـاءت الأقدار أن يكون أوّل شـخص يقابله الغريب عند وصوله للمخيم هو مالك هذه الماسة الفريدة المحظوظ.

قام عابر السـبيل بطلب ضيافة البدوي على الفور، وبكل تأكيد كان ذلك ما قدّمه له ضحيته المطمئن عن طيب نفس؛ حيث كانت الضيافة وحسن الوفادة أحد أهم الفرائض التي تركها النبيّ (محمّد)[1]، وكان البدو يمارسونها بشدّة حتى تجاه ألدّ أعدائهم.

تظاهـر الغريب بأنه ينتمي إلى قبيلةٍ صديقـة، وأنه كان يصطاد الغزلان مع مجموعة من أصحابه، ولكنه افترق عنهم وقام قطّاع الطرّق بمطاردته. كان حصانه الهزيل بائسـاً ومتعبـاً بالفعل، ولكنه أتعبه وجعله يعرج عمداً، حتـى تبدو قصته معقولة إلى أبعد حدٍ ممكن. وكما هو متوقّع، لم يكن هذا الغريب سوى سارق خيول محترف، مصمم على

(1) عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الحصول على الفرس الدّهماء الشهيرة.

كانت كل الظروف مواتية بالنسبة للنذل المخادع، وفي تلك الليلة كان الجو مضايقاً أكثر من عادته، شديد الحرارة والرطوبة، حتى إنَّ الكلاب الضارية الشديدة اليقظة قد غرقت في سباتٍ عميقٍ.

نهض الغريب خلسةً في منتصف الليل وزحف بحذر إلى المكان الذي تقف فيه الفرس، وضع لها اللجام، ونزع الأصفاد بهدوء، وكان عند أقصى خيمة في المخيّم على وشك إخراج الفرس تماماً إلى الخارج، عندما أطلق أحد الكلاب إنذاره متبوعاً على الفور بإنذارات الكلاب الأخرى.

امتطى ذاك الوغد الوقح المتهوّر الفرس غير المسرجة بسرعة البرق، واختفى كالشبح في الظلام. اكتشفت السرقة بعد دقيقةٍ واحدةٍ فقط، فنهض المخيم بأكمله، وبعد بضع دقائق قام حوالي مئتين من الفرسان الجريئين بالانقسام إلى مجموعاتٍ صغيرة وانطلقوا باتجاهاتٍ مختلفة يندفعون بقوة فوق الصحراء اللامتناهية، ويقسمون على الثأر من الهارب المتطاول.

تقدّموا أكثر فأكثر فوق السهل الخاوي بسرعة كسرعة الغزلان. مرَّت الساعات ولكنَّ تقدَّمهم المتهوّر لم يتباطأ أبداً، ولم يتبادلوا أية كلمةٍ بينهم، إلاَّ أنَّ صمتهم كان بليغاً أكثر من أية لغة، وملامحهم المنقبضة، وأفواههم المغلقة والمتشنجة وعيونهم المتوهجة كانت معبّرة بوضوح على عزمهم ونيّتهم على الثأر، يا للكارثة التي ستحل على ذاك البائس إذا ما أدركوه!

أثناء ذلك ظهرت من جهة الشرق مسحة رمادية خفيفة على السّماء المزدانة بالنجوم، وراح امتدادها يزداد شيئاً فشيئاً. اختفت النجوم الصغيرة اللامعة بسرعة حتى نجم الصباح بدأ تألقه يبهت حتى تلاشى تماماً بعد ذلك.

بعد نصف ساعةٍ أخرى، تلاشت أجنحة الظلام وأذنت سحابة نحاسية اللون في الأفق الشرقي بمجيء رسول النهار.

ولكـن من هـو ذاك الذي يرعد بتلك السـرعة المخيفة فوق السـهل القاحل وكأنما يتقـدّم مباشـرةً نحو الهدف في سـباق ما؟ إنه سـباق الحيـاة أو المـوت. إنَّ هذا الهائم المـسرع هو سـارق الفرس المتهوّر، وخلفه مطاردوه، البـدو الذين أحـسنوا ضيافته.

انظـر كيف كانت الأرض ترتعد عند اقتـراب الرّاكبين الثائرين! وكيف تبقى الفرس الجميلـة بشـرف فـي الطليعـة! ولكن واأسـفاه! لا بدَّ أن يتـم إدراكها، فبالرغـم من أنَّ فارسها وغدٌ وفارسٌ رائع، فهي غير مسرجة، وليس لديه أية وسيلة لحثّها على السرعة سوى كعبي قدميه العاريتين، وصوته الأجش الذي بدا غريباً بالنسبة لها.

بضع خطوات سـريعة أخرى وسيكون مطـارده الأكثر انفعالاً إلـى جانبه. «اقرص أذنها اليـسـرى أيها الكافر!» ـ إنَّ أحد أسـوأ الإهانات التي يمكن أن يوجهها مـسلم إلى مسلم آخر هي مناداته بالكافر أو غير المؤمن ـ «اقرصها من أذنها اليـسرى يا كافر!» صاح مرّةً أخرى هذا الشـخص المـسنّ ذو الشـعر الرمادي، الذي كان على وشـك الإمساك بالهارب، فهم اللص الإشـارة على الفور، ويالدهشـته المطلقة! كان بذلك يدفعها إلى الأمـام، كما كان قد علمها سـيّدها الأصلي منذ صغرها، فانطلقت الفرس مسـرعة من أمام مطارديها، وسرعان ما اختفت عن الأنظار.

«الله أكبر»، «الله كريم» صاح البدوي الفخور ولكن تعيس الحظ، بينما كان يتراجع عـن المطـاردة التي أصبحت الآن غير مجدية، ويرى فرسـه المحبوبـة تبتعد للأبد عن أنظاره.

عندمـا سـأله أصحابه عن سـبب إعطائه بلسـانه معلومـة لذاك النذل تكون السـبيل الوحيـد إلـى فراره، أجاب والحزن يكاد أن يخنقه: «لم يسـبق لتلـك الفرس أن أدركها جوادٌ آخر، وإنّي لأفضّل خسـارتها إلى الأبد، على أن تخسـر هي سمعتها»... وقد كان جواباً جديراً بالبطولة - من وجهة نظر شخص بدوي.

* * *

روى الرّحالة نفسـه حكايةً أخرى توضح قداسـة وحُرمة الضيافة من وجهة نظر البـدو:

ذات يوم اشتبك بدويان من قبيلتين مختلفتين في نزاع وسط الصحراء الواسعة، وكانت نتيجته طعن أحد المتنازعين في قلبه.

فرَّ القاتل ـ الذي كان يسافر وحيداً ـ مباشرةً بعد ارتكابه لتلك الجريمة البشعة، ولكنه بالطبع كان ملاحقاً عن قرب من قبل أصحاب القتيل.

عندما أدرك أنه عاجلاً أم آجلاً سيتم الإمساك به، قاد حصانه مباشرةً نحو مخيّم بدوي لمحه في البعيد، وذلك لمعرفته حق المعرفة أنه هالك لا محالة وأنه سيتمّ تقطيعه إرباً إذا أمسك به مطاردوه قبل أن يصل إلى المخيم ويلتمس حماية وضيافة أحد رجال القبيلة، الذي سيكون ملزماً بحماية الهارب بحياته الشخصية، وذلك إذا كان الهارب محظوظاً كفاية في الوصول إلى عتبة خيمة حاميه قبل أن يتم الإمساك به.

بالتأكيد قام القاتل بنخس فرسه للسير بأقصى سرعتها، واستطاع الوصول إلى أقصى خيمة في المخيم قبل أن يتمكن أعداؤه المنتقمون من الوصول إليه.

قفز القاتل الملاحَق على الفور من على صهوة حصانه اللاهث، واندفع إلى الخيمة، ووضع يده على اللحية الفضية لبدوي مسنٍّ مجعّد الوجه ـ الطريقة التقليدية في طلب الحماية بين أبناء البادية الثائرين ـ وبهذا العمل السريع أمَّن سلامته؛ إذ لم يكد يدخل الاثنان إلى الخيمة حتى وصلت الجماعة المتعطشة للدماء محدثةً صوتاً كالرّعد، تحمل للرجل المسن أنباءً أنه يؤوي قاتل ابنه الوحيد.

كذلك شاءت الأقدار! أن يلتمس القاتل الحماية ويجدها دون أن يعلم عند متعقبيه الثائرين، ليس في مخيّمهم فحسب، وإنّما في خيمة والد ضحيته أيضاً. لا بدَّ أن الخبر كان رهيباً جداً بالنسبة للأب المحروم من ولده، ولكن الرجل المسنّ وأولئك الذين يجب أن يكونوا منتقمين حافظوا على حسن الضيافة؛ إذ إنّها أكثر قداسة وحرمة من أن تُنتهك حتى في مخاطر وحالات عظيمة كهذه.

تم الاعتناء جيداً باللاجئ وحصانه من قبل الرجل المسنّ، ولكن بعد منتصف الليل بقليل أيقظ الرجل ضيفه الغريب بحذر وأخبره أن ينطلق مباشرةً إذا كانت حياته ذات

قيمة بالنسبة له، ودلّه على الاتجاه الذي يجب أن يسلكه للوصول إلى مخيم قبيلته الذي يبعد ثلاثين ميلاً تقريباً، ووعده بأن يمنحه مدّة نصف ساعة بعد انطلاقه ـ يوقّتها بواسطة الساعة الرملية ـ ولكنه حذّره جيداً بأنه بعد انقضاء المدة سيكون نفسه في مطاردة عدوّه، ومعه مئة وخمسون فارساً، سيطلبون الدّم مقابل الدم إذا نجحوا في الإمساك به.

لا أحتاج لأن أقول إنَّ ضيفه لم يمكث أبداً بعد ذلك، أو إنه لم يرحم حصانه في سباق الموت والحياة ذاك.

بعد نصف ساعة من مغادرته، انطلق في الظلام مئة وخمسون فارساً يقودهم الرجل المسنّ يركبون أسرع خيولهم ومسلحين على نحوٍ استثنائي ممتاز، واكتسحوا الصحراء الموحشة يبحثون عن الهارب الذي لا بدَّ أنَّ جواده قد أحرز وقتاً جيداً في الوصول، حيث عاد متعقبوه دون إدراك الرجل أو البهيمة.

إنَّ تقديم الضيافة والحماية عند البدو ليس حظوةً خاصة بالبالغين من جنس الرجال فقط، ولكنها أيضاً خاصة بالنساء بشرط أن يكنَّ من المتزوجات. بالنسبة لهم ليست هناك أية ضيافة أو حماية يتم احترامها كتلك المقدّمة من المرأة الحامل، إنه في الواقع الاحترام والتوفير المقدّم لمستنسِخة البشرية تلك، حيث إنَّ الإمساك بحاشية ثوبها من قبل الضحية الملاحقة تعني الحماية الأكيدة لهذا الرجل الهالك لولاها، حتى وإن حصل ذلك في الصحراء الواسعة بعيداً عن أية خيمة كانت.

* * *

إن وصول العديد من الخيول الجميلة التي يحرسها أفراد قبيلة بدوية نادراً ما يُشاهدون داخل جدران بغداد أحدث اضطراباً بكل معنى الكلمة بين السكان، الذين كانوا جميعهم تقريباً حكاماً جيّدين في أنواع الخيول.

كانت بغداد مؤخراً السوق الرئيسي في آسيا لبيع الخيول العربية، ولكن السلطان الحالي عبد العزيز أصدر فرماناً أو مرسوماً ينص على منع تصدير أي جواد عربي أصيل

خارج الإمبراطورية التركية خلال الأربع سنوات المقبلة.

حتى ذلك الحين، كانت ترسل خمسة آلاف أو أكثر من الجياد سنوياً من بغداد إلى كافة أنحاء العالم، ولكن بشكل رئيسي إلى الهند، حيث كان البعض منها يباع مقابل مبلغ عشرين ألف روبية (10,000 دولار ذهبي).

لقد دفع تجار الخيول مبالغ مغرية جداً لبدو بلاد الرافدين ـ المشهورين عن استحقاق بخيولهم ذات الدم والعرق الصافي ـ الذين باعوا تقريباً كل الأنواع الجيدة الموجودة لديهم.

صدر الفرمان الإمبراطوري بهدف زيادة هذا النوع الذي يتناقص بسرعة من أبرز الخيول في العالم، وإذا اكتشف أن رجلاً قام بخرق هذا الفرمان يتم إرساله إلى السجن على الفور، أو تصادر خيوله من قبل الحكومة.

رغم أنَّ الفرمان كان نافذ المفعول خلال فترة إقامتنا في بغداد، فإنه لم يشكل عائقاً في وجه السّنيور (P) الذي كان يحمل تصريحاً خطياً موقعاً من السلطان نفسه يسمح بشراء وتصدير العدد المطلوب من الخيول لقريب السلطان صاحب الفخامة، رئيس وزراء فرنسا السابق، وعلى الأرجح أنَّ عبد العزيز كان يعي أنَّ رفضه لمجاملةٍ سخيفة كتلك سيكون سياسة سيئة؛ فقد تؤثر فظاظته على علاقته بابن عم أبيه في فرنسا ويردّها له بالمقابل.

قبل وصول الخيول إلى بغداد بقليل، وصل إلى هناك مئتا جمل ومئة وثمانون جاموسَ ماء، واثنان وستون حماراً أبيض تولّى أمرها بدو الضفاف السفلية لنهر الفرات حيث كان السّنيور (P) قد اشتراها من أجل نائب الملك الحالي في مصر، ليعيد تزويد تلك البلاد بهذه الحيوانات النافعة؛ حيث تم فقدان أعداد كبيرة منها منذ مدة عامين بسبب وباء غير معروف، نوع من طاعون الماشية.

تم نقل الجمال والجواميس والحمير على الفور إلى مصر عن طريق كردستان ثم سوريا، وفلسطين، موكلين إلى أربعين من عرب بغداد، ومن الغريب جداً القول إنه

بالرغم من أنَّ تلك الحيوانات كان عليها أن تسافر مسافة ثلاثة آلاف ميل في الصحراء، وكان عليها أن تقاسي جميع أنواع المتاعب وبخاصة الجوع والعطش، فإنَّه لم يمت أيّ واحد منها، ووصلت جميعها إلى أرض الفراعنة آمنة ومعافاة باستثناء اثنين من الجمال التي سرقت على الأرجح.

نجحت الحكومة البريطانية بتأسيس بريد برّي يكون مساره بين بغداد ودمشق أو بالأحرى بين بغداد وبيروت ـ الميناء البحري الرئيسي في سوريا ـ مباشرةً عبر الصحراء، وذلك بواسطة الهدايا السخية التي تقدّمها لشيوخ أو رؤساء القبائل البدوية المتطرّفة شمّر وعَنِزَة وغيرها من القبائل التي تتنقّل في الصحراء الممتدة جنوب الفرات بين إقليم الرافدين الأدنى وسوريا.

مقابل الضريبة السنوية البالغة أربعين ألف مجيدي تركي (حوالي 18,000 دولار) التي تدفعها الحكومة البريطانية للشيوخ، تمّت الموافقة على السماح لسعاة البريد بالعبور من مناطقهم دون أن يتعرّضوا للمضايقة، شريطة ألاَّ يحملوا شيئاً سوى الرسائل، وفي حال تعرّض رجال البريد إلى أيّ حادثٍ تقوم القبائل بتزويدهم بالجمال وحيدة السنام النشيطة لمتابعة رحلتهم. وكما هو متوقّع يتم اختيار سعاة البريد من البدو، العدد الأكبر منهم كان من قبيلة العَنِزَة الأقوى بين القبائل، والذين ادّعوا أنهم المالكون الشرعيون للقسم الأكبر من المنطقة التي يسافر عبرها سعاة البريد.

إلى جانب ذلك، يشتهر بدوي قبيلة العَنِزَة - تماماً كجمله وحصانه - بقوّة التحمّل والشجاعة والبأس، وخصوصاً في ركوب مركبته الحيّة ـ الجمل المخلص وحيد السنام ـ عبر محيط لا متناهٍ من الرّمال.

إن الحيوانات المستخدمة في خدمات البريد الصحراوي هي نوع من أنواع الهجن وحيدة السنام السريعة يطلق عليها البدو اسم الذَّلول المهريّة Heiri، وهي أصغر بكثير من الإبل أو وحيد السنام المخصص للحمل، وبنيتها أقل قوة، وجلدها أقل سماكة وشعرها ليس خشناً جداً، لكن جسدها مكتنز أكثر ومشيتها أكثر مرونة وكل حركات جسدها أسرع من غيرها، باختصار: إن المنزلة التي تحتلها الذَّلول المهريّة

الأصيل بالنسبة للإبل أو الجمل وحيد السنام تماماً كالمنزلة التي يحتلها حصان Heiri الجري بالنسبة لحصان عربة الجر.

إنَّ هذه الهجن لا تستخدم في أغراض الحمل نهائياً، ولا تتحرك مسافة إنشٍ واحدٍ إذا تم إجبارها على حمل وزن ساكن، إلاَّ أنها سريعة وصبورة على نحوٍ استثنائي، وتستطيع بسهولة حمل رجلٍ لمسافة ثمانين إلى مئة ميل يومياً عبر الصحراء الرملية، وذلك على مدى عدّة أسابيع متواصلة، فعلى سبيل المثال، تقوم بالرحلة التي تبعد مسافة خمسمئة ميل تقريباً من بغداد إلى دمشق بزمن قدره من خمسة الى سبعة أيام.

البريد التركي الملكي والحراس

يبدو أن هذه الهجن لا تعرف أية مشية أخرى سوى هذا النوع الغريب من الهرولة المتمايلة بخطىً طويلة وثقيلة، وهي مشية متعبة جداً لأولئك الذين لم يعتادوا على هذا النوع من السفر، وتسبّب لهم في أول يومين أو ثلاثة أيام ألماً شديداً في الصدر والعمود الفقري والخواصر، وفي أسفل الظهر، وأيضاً ألماً مبرحاً في الرأس، في الواقع تسبب بشكل عام بالشعور نفسه الناجم عن دوار البحر.

وسبب ذلك ـ كما أوضحت سابقاً ـ هو المشية الخاصة بهذه الحيوانات والتي تكون بتحريك الطرفين الموجودين على الجانب نفسه معاً، فتضرب على الأرض القدم الأمامية والخلفية اليساريتين في آنٍ واحدٍ، ثم الأمامية والخلفية اليمينيتين معاً أيضاً، أما الحمير والأحصنة والثيران وغيرهم فلا تحرّك الطرفين الموجودين على الجانب نفسه في الوقت نفسه أبداً؛ بل دائماً تحرك اليسرى الأمامية واليمنى الخلفية معاً والعكس بالعكس.

تعدّ هذه المشية السابقة خاصة بوحيد السنام، والجمل ذي السنامين، والزرافة، ويبدو أن تلك الحيوانات تدين لهذه الخاصيّة بقدرتها على الجري طوال النهار بهذه الطريقة المتأرجحة من الهرولة، وبذلك يصبح أحياناً من المستحيل إيقافها حالما تباشر في مشيتها تلك.

إنها رؤية تستحق المشاهدة، وهي بحق مزيّة من مزايا الحياة العربية أن ترى أحد أبناء الصحراء السود مجهّزاً للقيام برحلة فردية عبر المحيط الرملي، تاركاً خلفه الأبواب المفتوحة لمدينة الخلفاء، ومتجهاً إلى شواطئ المتوسط، يجثم متربّع الأرجل على ظهر جمله وحيد السنام، الجزء الأعلى من جسده يتحرك دون إرادة للأمام والخلف كرقّاص الساعة المتحرك الذي يحسب وقت الحركة المتأرجحة للحيوان الذي يحمله في تلك الرحلة المضجرة.

هنالك يجلس ملثّماً كالمومياء المصرية بكوفيّته الزاهية والطيّة الكبيرة لعباءته الطويلة، يتدلى عن يمين ويسار السرج غريب الشكل عدة حقائب جلدية، تلك الموجودة على الجهة اليمنى تحوي البريد الملكي البريطاني، أما تلك الموجودة على

الجانب الأيسر فتحوي الأغراض القليلة لهذا المسافر المقتصد، والتي تتألف من بضعة أرطال من البلح المجفف القاسي وعدة حفنات من الأرز وشريحة (بسطرما) ـ نوع من اللحم المقدّد بالشمس ـ وحقيبة صغيرة مصنوعة من جلد الماعز مليئة بالماء، أما الجمل الذي يركبه فقد حصل على طعامه وشرابه قبل أن يبدأ رحلته، وعليه الآن أن يخبّ مسافة مئة أو مئتي ميل قبل أن يصل إلى مكانٍ يستطيع فيه إعادة ملء معدته.

يكون ساعي البريد البدوي الجريء مسلحاً فقط بمسدسين بالإضافة إلى سيف أحدب أو رماح أو بنادق، وذلك كون تلك الأشياء ثقيلة جداً ومزعجة في مسيرةٍ قسريةٍ كتلك. وإلى جانب رجل البريد، يخبُّ فارسٌ مجهّزٌ بجميع معدّات البدوي، وعلى الأرجح يكون أحد أصدقائه وسيرافقه لمسافةٍ قصيرة.

بعد البوّابة ببضع مئات من الياردات يتبادل البدويان عدّة جمل قصيرة، ثم يستدير الفارس بحصانه فجأةً ويترك الآخر ليقود بأسرع ما يمكن (سفينة الصحراء خاصته) حاملة البريد الملكي البريطاني الصحراوي عبر المحيط الرملي المتعب إلى حدٍّ لا يوصف.

يبقى هذا الحيوان المخلص مندفعاً لمدة سبعة أيام بلياليها، بصمتٍ بل وبمرحٍ أيضاً، ودون أدنى تشجيعٍ بكلمةٍ أو جلدةٍ في تلك العزلة اللامتناهية التي تبدو كعزلة القبر، إنه انفرادٌ مضجرٌ جداً لدرجة أن الرّاكب القوي يرتعد ويرتجف لا إرادياً عند سماعه صوته الخاص.

ومع ذلك، فعلى الرّغم من المشهد المخيف حقاً الممتد أمامه، لا بدَّ لقوة جمله المخلص أن تضعف، أو لا بدَّ لعينيه الناعستين - اللتين أصبحتا محتقنتين بالدّم بسبب الاستيقاظ المتواصل الذي لا يرحم - أن تخطئا نجمه المرشد المعتاد مع عشرات الآلاف غيره الموجودة في السماء، عندها ليس هناك شيءٌ سوى معجزة خاصة يمكنها تخليصه من التعرّض لأشنع الميتات (الموت من العطش). هذا الرعب الذي لا يستطيع أحد حتى ان يتخيّله إلاّ إذا كان نفسه قد جرّب ألم ومعاناة الظمأ.

دعونـا نفتـرض أنـه خـلال تجوالـه كان محظوظاً فـي العثـور على مخيـم بدو في الصحـراء يعـود لقبيلته الخاصـة، فإنهم سـرعان ما سـيحيطون به عندمـا يجدونه، ثم يقومـون بتفحّص كل ما يحمل، يقومون بفظاظةٍ بفتح أية رسـالة تحتوي على مواضيع هامـة وتقرأ محتوياتهـا كلّياً وجهراً، ولكنهم عادةً يعيدون الرسـالة نفسـها دون أن يتم تمزيقها.

أمـا إذا وقـع في أيدي أيـة قبيلةٍ متنقّلةٍ أخرى غير قبيلته، فإنه يُسـلب من كل شـيء، وعليه أن يعتبره منّاً وفضلاً عظيماً إذا سُـمح له بالتقاط رسـائل البريد التي تكون حينها ممزقـة ومبعثرة علـى الأرض، والنجاة بحياته بعد أن يتم تجريـده من أدنى قطعة ثيابٍ وأسلحة ومؤونةٍ يملكها.

أما الجمل المخلص الملك الخاص بالحكومة البريطانية والذي دفعت ثمنه ما بين عشر إلى عشـرين ألف مجيدي تركي أي ما بين (450 إلى 900 دولارٍ ذهبي)، فغالباً ما يتم الاستيلاء عليه وإعطاء السـاعي عوضاً عنه جملاً عجوزاً بطيئاً جداً لا تتجاوز قيمته ثلاثين دولاراً.

يـا له من شـعور فظيع وشـائن أنه علـى الجميع تحمّل هذه الخسّـة؛ حيث لا توجد هناك أية طريقة لمعاقبة هؤلاء الأنذال.

لن تسـتطيع كل جيوش أوروبـا وأميركا مجتمعة أن تفعل شـيئاً أمام واحدٍ فقط من هؤلاء المتشـرّدين؛ إذ إنَّ هذا الشـخص المراوغ سينسـحب ببساطة إلى الصحراء ويجر كل من يحاول اللحاق به إلى الهلاك الأكيد. ويعتبـر الشـحص الذي يحاول الإمسـاك بأحـد قطّـاع طرق الصحـراء هؤلاء تماماً كمن يحاول الإمسـاك بقـرشٍ ضخم في قاع الأطلسي.

إن الحرمان والمخاطر والمعاناة التي يتعرض لها حامل البريد البائس، والشـجاعة التـي يبرزهـا في كل رحلةٍ له، تسـتحق بالفعل أن تجعل منه بطلاً، ولكن يالشـقائه!... فـكل مـا يحصل عليه من أجر إذا نجح في الوصول سـالماً، هـو ألف مجيدي تركي أو

حوالي خمسة وأربعين دولاراً ذهبياً، يا له من ثمنٍ زهيدٍ للحياة البشرية.

نتيجة النجاح النسبي لمسار البريد الصحراوي الملكي البريطاني، قامت مجموعة من التجار الفرنسيين في بيروت منذ عدّة سنوات بإنشاء شركة هدفها تنظيم مسار مباشر للقوافل بين بغداد وبيروت.

فقد أنهى مؤخراً الكونت (de B.) وهو مقيم في بيروت ومدير للمشروع عدة زيارات لقبائل الغنِزّة وشمّر وغيرهم من القبائل المقيمة على طول الطريق المنشود، وذلك بغية إقامة معاهدة معهم حول مرور القوافل في المستقبل من مناطقهم مجاناً وبأمان، وكان يرافقه مجموعة كبيرة مؤلفة من مترجمين أحدهما كان أوروبياً، واثنين من المرشدين العرب، وكاتباً عربياً وحوالي اثني عشر رجلاً من البدو المسلحين جيداً، وجميعهم يركبون جمالاً ممتازة من وحيد السنام.

بعد مغادرة هذه القافلة الصغيرة لبيروت في بداية شهر مارس من العام المذكور سابقاً، اتجهت إلى دمشق ومن ثم باتجاهٍ شمالي شرقي مرّت بآثار تدمُر، ثم مباشرةً باتجاه الضفة الجنوبية لنهر الفرات، وباتباع مجرى النهر المنحدر جنوباً وصلوا إلى بغداد بسهولةٍ تامة، ولكن نظراً لكونهم مجبرين على زيارة كل قبيلة موجودة على طول هذا الطريق لتسوية المعاهدة معها، فقد استغرقت الرحلة أكثر من ثلاثة أشهر، وتمّ توزيع مبالغ كبيرة وهدايا جمة بين القبائل المختلفة من قبل الشركة المقاولة، وبدا أنَّ البدو راضون تماماً؛ حيث استقبلوا زوّارهم بترحيب واحتفاءٍ عظيمين، وعاهدوهم على القيام بكل ما هو مطلوبٌ منهم، ووصلت البعثة إلى بغداد في حالةٍ من الابتهاج العارم بسبب تحقيق النجاح.

حتى ذاك الوقت كان على جميع القوافل المتجهة من سوريا إلى بغداد ـ ذلك أن الطريق لم يكن آمناً من دمشق باتجاه الشمال الشرقي عبر الصحراء، أي طريق البريد الصحراوي الملكي البريطاني ـ القيام بالتفافة كبيرة جداً؛ حيث تذهب القافلة شمالاً باتجاه حلب وتعبر الفرات عند بيرِه جيك Biradshick وتتقدّم على طريق أورفة Orfa وماردين ـ وهما مدينتان هامتان في وادي الرافدين الأعلى ـ إلى الموصل عاصمة هذا

الإقليم، ومن ثم على طول نهر دجلة إلى بغداد، إنها دورة طويلة تبلغ أربعمئة ميل على الأقل.

وبالتالي سيثبت طريق القوافل الجديد هذا أنه أقصر بكثير، وأنه بالتأكيد سيكون مرحّباً به بشدة من قبل التجار والمسافرين، ومن ناحية أخرى سيثبت النتيجة في النهاية كم كان هذا المشروع الفرنسي ناجحاً.

خلال زيارته لبغداد، أقام الكونت (de B.) مع السيد (P) نسيبه ونائب القنصل الفرنسي في تلك المدينة، والذي كانت والدته وزوجته بعد إقامتهما هناك لعدّة سنوات متحرّقتين جداً للذهاب مع قريبهما الكونت إلى بيروت؛ حيث قام بدعوتهما للعيش هناك لمدة سنةٍ أو اثنتين، وذلك لاستعادة صحتهما؛ فالحرارة الشديدة لمناخ الرافدين الأدنى تقلل من نشاط الأوروبيين المقيمين هناك إلى حدٍّ كبير، وخاصّةً الإناث منهم.

أكّد نائب القنصل للسيدتين أنه حالما يحصل على إذن رسمي من حكومته بالمغادرة سيتبعهما إلى سوريا، ولن يعود إلى بغداد نهائياً، لذا تقبلت السيدتان بسرور دعوة الكونت الذي كان بالمناسبة صديقاً حميماً لرفيق رحلتي السّنيور (P).

كان كلّ من هذين السيدين على رأس قافلة صغيرة، وبما أنَّ كلاً منهما كان يؤمن جيداً بالقول المأثور «في الاتحاد قوة» فقد عزما على السفر معاً، وتقرّر أن يكون يوم المغادرة في الثلاثين من شهر أغسطس. باشر الطرفان كلاهما العمل على الفور لتكون قافلة كل منهما مجهزة بشكل جيد.

اشترى الكونت (de B.) البغال اللازمة والهوادج (التّختروان) Dachterwan وهو عبارة عن كرسي محمول واسع يُثبت على البغل أو الحصان، وتلك كانت الطريقة المعتادة لسفر المسنين والضعفاء في الشرق، وخاصة بين الفرس والتركمان والتتار.

هناك نوعان من (الهوادج)، الأول يشبه كثيراً الحمّالة المعروفة في الهند الشرقية، ولكنه مزوّد بعمودين كالكرسي المحمول، ليتم حمله من قبل اثنين من البغال أو

الخيول، أحدهما أمام الآخر، وتوضع الشرائط على ظهرهما لتحمل الحمّالة أو الكرسي المعلّق، وتحافظ على توازنه بواسطة سرج أو حامل من اللباد مربوط جيداً بأحزمة على ظهر الحيوان، أما النوع الآخر من (الهودج) فليس مختلفاً كثيراً، ولكنه مجرّدٌ من الأعمدة، لذلك فهو مخصصٌ لخيلٍ أو بغلٍ واحد، وبهذه الحالة يكون بمثابة سرج آمن وواسع على نحو كافٍ ليجلس فيه شخصان، وهو مربوط على ظهر الحيوان تماماً كالسرج المألوف بواسطة أحزمة جلدية قوية.

إن هذا النوع أكثر استخداماً من سابقه؛ إذ إنّه أقل تكلفة ويحتاج حيوان واحد فقط لحمله، إلاّ أنّه أقل ثباتاً، فهو يتأرجح ويعيد توازن نفسه باستمرار عندما يكون الحيوان ماشياً، لذلك فهو أكثر عرضة للانقلاب من الآخر، ومع ذلك فإن العديد من المسافرين يفضلونه وخاصة في الطرقات الوعرة أو الممرات الجبلية، حيث يكون حمله أسهل حول التعاريج والمنعطفات الحادة.

يعود الهودج أو (التّختروان) Dachterwan ـ كما يدلّ اسمه ـ إلى منشأ فارسي، وهو أكثر ما يستخدم في تلك البلاد، إلى جانب هذه العربات، كان على الكونت (de B.) الحصول على عدة خيام وإبلٍ وخيول وغير ذلك، بينما بالنسبة للسّنيور (P) فقد كان عليه الحصول على خيوله كلها متضية، وذلك لم يكن بالأمر السهل؛ فبالرغم من كونها وديعة بطبيعة الحال، فهي لن تخضع طوعاً لعملية كتلك، وذلك أنها لم توضع لها أية حدوات من قبل.

لم يكن هذا مألوفاً بين البدو؛ حيث إنَّ حوافر خيولهم تبقى صلبة جداً ولا تحتاج إلى نعال، فقط عرب المدن يحدون خيولهم، ولاشك أنّهم تعلّموا هذه العادة من الفرس أو الأتراك.

إن لحدوات الخيول التي يصنعونها شكلاً خاصاً؛ فهي ليست من ذات سماكة ستة إنشات، ومصنوعة من أجود أنواع الحديد الأملس، ومزوّدة بحافة حادّة جداً حول السطح السفلي.

تغطي هذه الحدوات أسفل الحافر بالكامل باستثناء الوسط، حيث تترك فتحة بيضوية لتسمح بدخول الهواء النظيف الضروري جداً، وإلاَّ سيصبح الحافر طرياً ونتناً. ويوجد مسمار برشام يربط نهايتي القفل ببعضهما، ويكون مثنياً قليلاً إلى الأعلى من هذه الجهة والجهة المقّابلة، وبذلك يلائم النعل الحافر على أحسن وجه. يثبت النعل بواسطة خمسة مسامير مربعة ورفيعة رأسها مسنن وحاد، وهي من الحديد الناعم اللّين جداً، تصل إلى حوالي إنش ونصف الإنش في الطول، تكون ثلاثة منها متجهة إلى الخارج، واثنان داخل محيط نعل الحصان.

تلتصق النعال بحافر الحصان بشكلٍ جيدٍ جداً، وتبقى لزمنٍ طويلٍ وهي خفيفة للغاية وتحمي الحافر من الحجارة أكثر من أيٍّ من نعالنا الأميركية أو الأوروبية.

إنها لا تسبب على الإطلاق بجرح قدم الحصان أو ساقه، ويمكن شراؤها من أي بائع خرداوات في جزيرة العرب، ويمكن وضعها بسهولة من قبل أي شخص كان، ويمكن أيضاً حملها في أية رحلة دون أية متاعب، وهي أقل خطورة على أقدام الخيول القوية من نعالنا الثقيلة. باختصار: أعتبر هذه النعال متفوقة إلى حدٍّ بعيدٍ على نعالنا، وخاصة بالنسبة لجياد الركوب والحمل الخفيف.

* * *

الفصل السّادس عشر

التقدّم إلى الأمام

صورة شرقية ـ الإشارة ـ أحمر وأصفر مرّة أخرى ـ تنظيم المسير ـ اقتراب الشفق ـ المحطة الأولى ـ الخانجي الوسنان ـ تحركات غامضة ـ النّوم على السطح ـ الرّهوان - القبرصلي - الأخبار المفرحة ـ «تحدّث العربية» ـ الفتاة الحبشية ـ يومان في الحجز ـ صحراء اللور ـ المسار الخاطئ ـ خمسون ألف جمل ـ المتفرّجون الغرباء ـ البقعة البيضاء المهلكة ـ فيليكس المخلص ـ كِفري ـ تجربة قاسية ـ شخصيات مشبوهة ـ حادث.

وأخيراً جاء يوم الثلاثين من أغسطس، وفي حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، قدّمت الساحة الخالية الواقعة خارج جدران المدينة بين البوابة الشمالية أو باب المعظّم Bab-el-madem وبناء المحجر الصحي حيث كان المكان المحدّد لالتقاء القافلتين، مشهداً نابضاً بالحياة إلى أبعد الحدود، مشهداً شرقياً تماماً، يختلف بشدة عن مظهرها المهجور أثناء حرارة النهار.

كان مركز الساحة مشغولاً بحوالي ستة عشر جملاً وحيد السنام، وحيوانات طويلة وقوية، بعضها كان محملاً بحقائب جلدية، وصناديق وخيام وفُرش ومؤن وقِرب «Toolochs» أو قِرب الماء، وحطب، باختصار: بكل ما يلزم لمجموعة أوروبية مسافرة، وعازمة على القيام برحلة عبر مناطق الرافدين الخاوية وقليلة السكان، وذلك بأكبر قدر ممكن من الراحة.

كانت هناك سيدتان أوروبيتان رفيقتان وفتاة صغيرة يرافقهن اثنتان من المربيات العربيات، وقد شكلّن جزءاً من المجموعة. وقفت الجمال كالتماثيل دون حراك، ومدّت أعناقها الطويلة وتفحصت بنظرة تساؤل خاصة بها حشد المتفرجين متعدّد الألوان الذي انبثق من بوابات المدينة ليشهد المغادرة.

لا شك أن الرجال الذين جاؤوا مع الحشد لم يحضروا إلاّ لمشاهدة الخيول الجميلة التي كانت على وشك أن تترك موطنها الأصلي إلى الأبد، أمّا النساء فقد كنَّ متشوقات لإلقاء نظرة خاطفة على السيدتين الفرنجيتين.

ربما عددٌ قليلٌ منهنَّ فقط سبق له أن شاهد امرأةً أوروبية من قبل، حيث كانت النساء الأوروبيات قليلات جداً في بغداد.

إنه لمن غير المعتاد خروج السيدات إلى الشارع في بغداد، إلاّ إذا كانت برفقة واحدٍ أو اثنين من الحراس، أو العبيد المسلحين، الذين لم يكن الغرض من مرافقتهم لهنَّ حمايتهن من الأذى والإهانة حيث لم تكن هناك خطورة عليهن من هذه الناحية، إنما كان عملهم الأهم هو إفساح مجال لمرور السيدات عبر حشد الرجال والخيول والحمير... الخ.

يشعر السكان المحليون بنوع من الاحترام المتّسم بالخشية والخنوع تجاه السيدات الأوروبيات، أو بالأحرى تجاه كامل الجنس الأنثوي الأوروبي الأصيل.

وإنه من المزعج تقريباً بالنسبة لهم رؤية المرأة الأوروبية مقبلة عبر تلك الممرات الضيقة، ولسوف يحشرون أنفسهم في الزوايا، أو يستديرون باتجاه الحائط عند اقترابها.

ها هو ذا الرجل الفارسي المتجهّم يرفع بصره ويحدّق في الهدف الذي يثير اهتمامه، غافلٌ تماماً عن عواقب إهماله لعمله، وهذا الضابط التركي الكدر يرفع قامته إلى أقصى طولٍ ممكن ويزرّر بسرعة أزرار معطفه البالي، والبدوي الرّث الذي يحاول تغطية صدره البني الداكن المكشوف للرؤية العامة، وهذه بنت البلد التي تتمشّى في

الشارع بمجرد رؤيتها لشقيقتها الأوروبية توجّه كامل اهتمامها نحوها، وهي إما تدير رأسها إلى الخلف أو ترفع قليلاً خمارها المتيبّس، لتحصل على رؤية أفضل للأنثى الآتية من وراء البحار، والتي لديها الجرأة الكافية لتغامر في الظهور في الشارع دون حجاب يستر وجهها.

حتى الكلاب البائسة توقفت عن القتال لبعض الوقت آنذاك، والحمار النعسان صحا ونصب أذنيه عند رؤية المنظر الفريد لهذا الكائن البشري الذي يتحرّك أمامه، ملفوفاً حتى الخصر ببالون من الحرير الذي يصدر صوتاً حفيفاً.

أمّا الجمال المحمّلة، فقد وقفت بهدوء تحدّق نحو حشد المتفرّجين، والأخرى كانت تربض على الأرض كما تفعل عادةً، بذلك القسم من أطرافها الأربعة من الركبة وحتى الأسفل مثنياً تحت جسدها، والساقان الخلفيتان مشدودتان إلى الوراء، وبهذه الوضعية يتم تحميل هذه الحيوانات بالأشياء والمعدات.

مع ذلك فقد أثبتت جمال قافلة الكونت (de B.) أنها صعبة المِراس على نحوٍ خاص، ورفضت بشدة السماح بوضع أي شيء فوق ظهرها، وسبب هذا العناد هو بقاؤها دون استخدامٍ لمدة تجاوزت ثلاثة أشهر منذ وصولها إلى بغداد.

إن كل الجمال تقريباً ترغو عندما يتم تحميلها، والضارية منها تحاول العضّ حتى، وأحياناً تتسبب بجروح شديدة.

يتراوح طول أسنانها ما بين إنشين إلى ثلاثة إنشات، وهي مغطاة دائماً بلعابٍ أخضر أو مائل إلى الصّفرة، ولطالما رأيت رجالاً من العرب تعرّضوا لجراحٍ خطيرة من قبل الجمال المتوحشة، وهناك بعض الجمال التي تستمتع بالرفس بأطرافها الخلفية على الرغم من أن أخفافها مؤلفة فقط من إصبعين ضخمين وقويين جداً مجرّدين من الأظافر وملتصقين ببعضهما من الأسفل بواسطة جلدٍ سميكٍ جداً أو منسم، وتتمتّع الجمال بقوّة هائلة في قوائمها الطويلة المهزولة، فتستطيع بسهولة كسر ساق أي رجلٍ بضربةٍ واحدةٍ فقط.

لحسن الحظ، أنَّ معظم الجمال طيبة الأخلاق على نحوٍ تضرب به الأمثال.

عندما يتم إجبار الجمال على البروك ليوضع حملها فوقها، أو حتى عندما تتخيّل نفسها محمّلة، تكون صرختها التي تصدرها مرعبة جداً وغريبة بالنسبة لآذان الغرباء، وتبدو في الوسط ما بين الزئير القوي للأسد وصيحة الضبع المقرقرة المبحوحة، إنها صرخة معبّرة عن المعاناة الشديدة، وإذا تمّ سماعها مرّة واحدة، لا يمكن نسيانها طوال العمر.

خارج مجموعة الجمال، وقفت أربعة خيول وحوالي ثمانية بغال، كانت الخيول مسرجة وملجمة ومهيّأة جيداً لتحمل الكونت (.de B) ومترجميه الاثنين وحارسه أو تابعه المسلّح، وقد بدا عليهم جميعاً أنهم يفضّلون الخيول على الجمال، وذلك كونها مستخدمة أكثر في السفر.

كان على البغال حمل (الهودجين) اللذين تم وصفهما سابقاً، واللذين كانا جاهزين لحمل نزلائهما المستقبلين، الأول كان مخصصاً للسيدتين، والآخر كان للفتاة الصغيرة ومربيتها العربيتين اللتين كانتا حتى ذاك الوقت منهمكتين في توديع أقاربهما وصديقاتهما.

في الوقت المتخلل كان الهجانة والبغّالة والزنوج والبدو الذين يخدمون الكونت (.de B) منهمكين في إنهاء تحميل بقية الحيوانات بالمعدّات، يركضون ذهاباً وإياباً وينافسون بعضهم البعض في إحداث أكبر فوضى ممكنة بالصراخ وحلف الأيمان وسباب الجميع بالطريقة الشرقية المعروفة.

أخيراً كان كل شيء مصندقاً ومربوطاً، وفقط ينتظر وصول قافلة خيول السّنيور (P) التي تمّ تجهيزها في الخان الواسع أو النزل الواقع داخل جدار المدينة.

لقد ظهر للتّو مصطفى حارس السّنيور (P)، الحارس نفسه الذي رافقنا إلى بابل ـ من بوابة المدينة وكان يخبّ نحو الكونت ليخبره بأن السّنيور (P) يرغب بأن تبدأ قافلة الجمال مسيرها، ذلك أنَّ الخيول كانت قويّة جدّاً وصعبة المراس ولا يمكن لها أن

تختلط مع الجمال، ولكنه سيدركه في اليوم التالي ومن ثمَّ يسافرون معاً.

على هذا تجهّزت القافلة للمسير، اتخذت السيدتان والطفلة والمربيتان مواقعهنَّ على الهودج، وامتطى الكونت وحارسه علي ومترجماه ومرافقيه البدو خيولهم، والجمّالة جمالهم، والبغّالة على البغال الإضافية، وكان كلّ منهم مدججاً بالسلاح، ثم تحرّكت القافلة على الفور.

كان علي - حارس الكونت الفرنسي المخلص - في المقدمة مع نصف المرافقين البدو، يليهم الجمال، ثم البغال الاحتياطية، ثم تلك التي تحمل الهوادج، وأخيراً وليس آخراً الكونت مع مترجميه والنصف الآخر من الحرّاس البدو، ليصل بذلك عددهم إلى أربعين شخصاً تقريباً.

لم تكد تمضي ساعة على رحيلهم حين انطلقت قافلتنا ـ هكذا سأسمي قافلة السّنيور (P) من الآن فصاعداً، ذلك أنني سافرت معها طوال الطريق من بغداد إلى إزمير Smyrna في آسيا الصغرى ـ من بوابة المعظّم Madem.

كان مصطفى في المقدمة مدججاً بالسلاح، يمتطي جواداً جامحاً للغاية ويرتدي كوفية جديدة ذات لونٍ أحمر وأصفر مشرق.

جاء خلفه أربعة فرسان بدو، بثيابٍ رثة، لكنهم يركبون خيولاً جيدة ومسلحون بسيوفٍ ومسدسات ورماحٍ طويلةٍ جداً، بعدهم كان هناك اثنا عشر بغلاً وأحصنة حمل، وكانوا محمّلين بثقل بجميع مستلزمات الرحلة الطويلة، وخاصة بكميات كبيرة من عدّة الخيول، كاللُّجُم والأرسان وحاميات الركب، ودلاء الماء، ونعال الخيول والأصفاد... وغير ذلك، يقودهم البغّالة، وهم أيضاً مسلحون ويركبون على ظهر الحمير.

على مسافة خمسمئة ياردة إلى الخلف تقريباً كانت الخيول الفحول الرائعة التي اشتراها السّنيور (P) للإمبراطور، اثني عشر فحلاً من أميز وأكمل الحيوانات التي أنجبتها بلاد الرافدين مهد وجنة هذه السلالة الفريدة.

لقـد كان منظراً فتّاناً؛ هذه المجموعة الجميلة من الخيول الشـهيرة كل منها مكسـوّ بإشـراقٍ بـرداءٍ مزركش، ومحمي بأغطيـة وحاميات للركـب، ويقـوده اثنان من العرب الضليعيـن الأقوياء، الذين لولا طول الحبال التي يكبحـون بها الحيوانات لكانوا غالباً مرفوعين كلّياً عن الأرض.

لم يـسبق لـي طوال عمـري أن رأيت خيـولاً مفعمة بالقـوة والنشـاط والمرونة في حركاتها كتلك.

لم تقف فقط تلك الخيول منتصبة تماماً على قوائمها الخلفية، إنّما في الواقع مشت بتلك الوضْعية الغريبة لمسـافةٍ تقارب عشـرين ياردة، وبعضها كادت تطرح أرضاً على رأسـها بسـبب الارتداد العالي جـدّاً لقوائمها الخلفيـة، لم أرَ قط مثل ألعـاب الجمباز الخارقـة تلك، إلاَّ أنها لم تكن ضـراوةً على الإطلاق، بل كانت مجرّد زيادة في العافية والسعادة الناجمتين عن المعاملة الممتازة.

لـم تحـاول الخيول أن تعض أو ترفس سائسـها أبداً، وبينما كانـت تتقدّم بخطواتٍ مرنـة وأعناق متقوّسـة ومناخر مفتوحةٍ باتسـاع، وعيونٍ متوهجة، كانت تثب وتشـخر وتصهل على نحو مفعم بالحيوية لتظهر للعيان صورة واضحة عن السعادة الفريدة.

كـم من رجلٍ بدوي عجـوز بين حشـد المتفرّجين، قطّب وراح يقتلع شـعر لحيته، وحتـى كاد أن يبكـي عند رؤيته لتلـك الحيوانات العزيزة تغـادر موطنها الأصلي وإلى الأبد[1].

---

(1) نعم، يا للأسف وأي أسف.. خلال القرن التاسع عشر تمادى الغربيّون باقتناص أجمل فحول الجياد العربيّة، وبذلوا فيها أثماناً كبيرة وأخذوها إلى بلادهم لاستيلاد أجيال وأجيال من الخيل العتاق العربيّة الكريمة. وإلى اليوم ما زالت في أنحاء أوروبا الغربيّة والشرقيّة وروسيا وأميركا عشرات المرابط التي تعنى بالخيل العربيّة الأصيلة. وأشهر الرحّالين الغربيين الذين قصدوا بلادنا في القرن المذكور بحثاً عن الخيل كانوا: كارلو غوارماني، الليدي آن بلَنت، البارون إدوارد نولدِه، الميجور روجر أپتون، الميجور جنرال ولِيَم تويدي، هومر داڤنبورت. ولهؤلاء جميعهم كتب ثمينة حول الموضوع، سنعمل إن شاء الله تعالى على نشرها ضمن هذه السلسلة.

التزم حدّادٌ خبيرٌ بمرافقتنا طوال الطريق حتى شـواطئ المتوسـط، وقد أوكلت إليه مهمة العناية بحوافر الخيول، وقد تلقّى أوامر بتفحّصها جيداً بعد مسيرة كلّ يوم خلف الخيول مباشـرةً، كان السّـنيور (P) فرحاً للغاية، وفخوراً بنجاحه يمتطي جواداً باهراً، ومسلحاً باثنين من مسدسات (الكولت)، وإلى جانبه كان الأب (M) الكاهن والمبشّر البلجيكي الشـاب، الذي كان رفيق رحلتنا أولاً على متن الباخرة Penang (پينانغ) من بومباي إلى البّصرة، ثم في المركب النهري (دجلة) إلى بغداد، حيث أقام مع المبشّرين الفرنسـين في المدينة، وقد قرّر أن يبقى رفيق رحلتنا طوال الطريق حتى أوروپا.

منـذ يوم مغادرتـه للهند قام بالتخلص من كل ما يخصّ مهنته الكهنوتية ولبس ثياب مسـافرٍ عادي، ولكونـه غير قادر على «فتن العالم بفروسـيته النـبيلة» فقد جلب لنفسـه إكديشاً من نوع الرّهوان "Rachwan" وهو حيوان مخصي له طريقة غريبة في تبديل طريقة مشيته، وأكثر ما يستخدم من قبل الفرس. ولحماية نفسه من قطّاع الطرق، اقتنى الأب (M) مسدساً كان الهدف منه تنفيذ انتحار مروّع عند الضرورة[1].

أمـا بالنسـبة لكاتب هذه الصفحات الذي كان يشـكل العضو الثالـث بين مجموعة المسـافرين هذه، فقد كان يركب فحلاً جميلاً كستنائي اللون، فتياً جداً ونشيطاً جداً من أجل رحلةٍ طويلةٍ متواصلة عبر بلاد الرافدين، وكوني مولعٌ بالصيـد، لم أستطع الامتناع عن أخذ - إلى جانب مسدسـي - بندقية جفت[2] ممتازة، وسـكّين صيدٍ طويلة، متوقعاً القيام ببعض الصّيد الممتع على الطريق.

(1) لا بأس.. يتميّز رحّالتنا لوكر بخفّة دم واضحة، وقد أتحفنا بنصّ رشـيق حافل بالحركة والحياة والأوصاف والأحداث المثيرة. ويمكننا فعلاً أن نعقد مقارنة بينه وبين رحّالـين التقيـا بهما على أديم أرض المشرق في سلسـلتنا هذه: الأديب الأميركي السّاخر مارك توابن في رحلته الشائقة عام 1867، والرّحالة البريطاني خفيف الظلّ هنري سوايـون كاوبر في رحلته الممتعة عام 1893.

(2) ذكرنا أعلاه أن الجفت عبارة تركيّة Çift دخلت العاميّة العربيّة في بلاد الشام عموماً، وتعني بندقيّة الصيد ذات السّبطانتين بجفّ أمس وتستخدم طلقات نثار الرّصاص (الخُردُق lead shot). ولعدم وجود مفردة مقنعة في العربيّة الفصحى آثرت استعمال هذا التعبير الشائع جداً.

رافقنـا العديد مـن أصـدقائنـا الأوروبيـين ومعارفنا العرب لمسـافةٍ لا بـأس بها بعد أبواب بغداد.

خلفنا مباشـرةً كان هناك أربعة فرسانٍ من حراسنا البدو مدجّجين بالسلاح أكثر من سابقيهم، وكانوا يشكلون مؤخرة قافلتنا.

فـي منتصف الطريق بين بغداد وخان (الجديدة) غادرَنا جميع أصدقائنا من المدينة باستثناء شابين من أبناء بلدي، حيث قرّرا مرافقتنا حتى نصل إلى الخان المذكور للتو، الواقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة، ويبعد حوالي عشرين ميلاً شمال بغداد.

قبل أن نقطع مسافة خمسة أميالٍ، اختفت الشمس خلف الأفق الغربي، ومهّد شفقٌ قصير الأجل لليلةٍ صافيةٍ جميلةٍ ومقمرة.

ورغم أنه كان حماساً غير مستحبٍ بسبب شدّة الحرّ وخيول الحمل المثقلة بالمتاع، فإنّ القافلة تابعت تقدّمها ولكن ببطء.

لذلك ومن أجل ألاّ يغلبنا النعاس، أخبرنا السّنيور (P) أنا وصديقـيَّ الاثنين بأننا سنسبق القافلة ونرى إن كان هناك غرفٌ لكلتا القافلتين في خان (الجديدة).

انطلقنا بسـرعةٍ قصـوى، ومررنـا بقافلة الكونـت (de B.) بعد نصف ساعةٍ من مغادرتنا لقافلتنا، ثم وصلنا إلى الخان حوالي الساعة العاشرة لنجده مهجوراً ومهملاً كلّياً، أرض فنائه مكسوّة بحطام الجدران، بعد أن أجهدنا رئتينا دون جدوى لمدة ربع ساعةٍ تقريباً، محاولين لفت انتباه الخانجي الكسول ـ الرجل المسؤول عن الخان ـ سمعنا صوتاً يشبه القباع، منبعثاً من أحد أقبية أو زرائب ذاك البناء المتداعي، وبعد التنقيب، وجدنا الرجل متمدداً بطوله الكامل على الأرض العارية، ويشخر على نحوٍ بهيمي.

كانت هزّةً واحدةً جيدة وقوية، كافية لإعادته إلى الوعي، عندئذٍ أخبرناه بأننا نريد الطعام والماء لنا ولخيولنا، وأنّ هناك قافلة كاملة ستصل بعد قليل. بدا الرجل غير مبالٍ على الإطلاق بتلك الأخبار، وعلّق بفتورٍ تام أنه هو نفسه ليس لديه ما يأكل، أما بالنسبة

للماء فهناك فائضٌ منه هناك في النهر المجاور.

عندما قمنا بالاستكشاف وجدنا النهر في هذه المنطقة يجري بين ضفتين شديدتي الانحدار، تتجاوزان خمسة عشر قدماً في الارتفاع، ويتعذّر بلوغهما بالفعل على الجمال والخيول، ولم يكن هناك أي دلوٍ أو إناءٍ من أي نوعٍ في ذاك الخان المهجور لحمل الماء.

تم إخبارنا بأنه ليس هناك أي مصدر آخر للتزوّد بالماء في الجوار، ولم يوجد حتى حفنة من التبن المسحوق ولا حتى الشعير ـ طعام الخيول المعروف في جميع أنحاء شبه الجزيرة وبلاد الرافدين ـ ولا أي طعام بشري يمكن إيجاده في المنطقة.

كان مظهرنا بالنسبة لمسافرين جائعين وعطشانين مبهجاً ومرحاً، وذلك أننا نعلم جيداً طبيعة السكان المحليين هناك، ولن نسمح لهم بالسخرية منّا بهذه الطريقة، لذا أعطينا للخانجي مبلغ ثلاثة كرانات Keran ـ وهي قطع نقدية فارسية فضية متداولة في بغداد وتساوي خمسة مجيديات تركية أو خمسةً وعشرين سنتاً أميركياً تقريباً ـ وحذّرناه من أن يرينا وجهه ثانيةً قبل أن يأتينا بالطعام لنا ولخيولنا أيضاً، وذلك تحت التهديد بعقوبة الجلد المبرّح.

خرج الرجل وأيقظ رجلاً عربياً آخر كان نائماً ـ كما هي العادة في بلاد الرافدين الأدنى ـ على السطح المستوي لأحد الأكواخ الصغيرة القليلة المجاورة، المبنية من الطين المجفف بالشمس ومسقوفة بأوراق أشجار النخيل، وكانت تقع في الجوار، ثم طلب منه أن يدلّنا على طريق المستنقع. خضع الرجل ببطءٍ وتردّد، وطلب منا أن نلحق به بخيولنا إلى الماء، فقادنا إلى أجمة مكتنزة بالقصب والأغصان المقطوعة، وغدت أكثر ظلمة ووحشة بظلال مجموعات أشجار النخيل المحيطة بها، وفي وسطها كان هناك بركة أو مستنقع - إذا صح القول - صغير ولكنه عميق جداً لم تكن مياهه من أحسن المياه على الإطلاق لدرجة أن الخيول رفضت أن تشرب منها، وسرعان ما راحت تثور بقوّة حتى كادت أن ترمينا من فوق سروجنا إلى وسط المستنقع.

كان السبب الرئيسي لهذا الاهتياج هو البعوض الذي هاجمنا على نحوٍ مسعور من كل الجوانب مجبراً إيّانا على التراجع السريع.

ولكن الشيء الأكثر غموضاً أنَّ خيولنا واصلت الرفس والثوران طوال الطريق إلى الخان، وبعد أن كنّا على وشك أن ننزع عنها سراجها اكتشفنا أن أطرافها وأجزاءها السفلية كانت مغطاةً كلياً بالعلق.

في الوقت المتخلل كان الخانجي قد عاد ومعه ثلاث حصص من الطعام للخيول، وبطيختان وسلة صغيرة من البلح وكمية كبيرة من الخبز القاسي الذي يشبه الفطائر المحلاّة، وطبق من الحليب الحامض أو (اللبن) كما يسميه السكان، كانت كمية كبيرة جداً من الطعام أكثر مما كنا نتوقعه في ذلك المكان البائس.

بعد أن أطعمنا خيولنا، ذهبنا إلى سطح البناء المستوي وقمنا على الفور بالإغارة على الإمدادات المذكورة بشجاعة، وبعد تناول الطعام استمتعنا بالتدخين الهادئ على الطريقة العربية.

ثمّ تمدّدنا لننام وجعلنا من سروجنا وسائد لنا دون الاكتراث بسحب البعوض التي ترقص رقصة المزمار فوق وجوهنا.

بالكاد مضت ساعتان على نومنا عندما أيقظتنا جلجلة عدّة أجراس، لتنبهنا إلى وصول قافلة الكونت، إلاّ أنّها لم تدخل إلى الخان الذي نحن فيه؛ بل واصلت تقدّمها إلى الخان التالي الذي يسمى (خان القبرصلي)[1] Kibrisli، ويبعد حوالي خمسة عشر ميلاً.

عند مرورهم تبادلنا معهم عدة كلماتٍ فقط ثم عدنا للنوم من جديد.

وبالكاد انقضت نصف ساعةٍ أخرى حتى أيقظتنا مرة أخرى أجراس أحصنة الحمولة للقافلة الأخرى، والتي عند سماعها بأن الأولى قد ذهبت إلى خان القبرصلي

(1) الصيغة باللغة التركية وصوابها هكذا: Kıbrıslı حيث أنّ أداة النسبة في التركية وخصوصاً إلى أسماء البلدان: لي. والمعنى واضح: القبرصي.

Kibrisli، وعند معرفتها بتعذّر بلوغ النهر وشح الطعام واصلت التقدّم أيضاً، ووعدت السّنيور (P) بأن ألحق به في الصباح.

أمضينا الجزء المتبقى من الليل بهدوء، ثم نهضنا قبل شروق الشمس، وبعد أن ودّعنا بعضنا واستأذنا الانصراف بعضنا من بعض للمرة الأخيرة، انطلق كل منا أنا وصديقاي باتجاه مختلف. اتجه صديقاي عائدان إلى بغداد، ورافقني الشخص الذي قادنا إلى المستنقع الليلة الماضية، والذي سيكون معي الآن بمثابة مرشدٍ.

تقدمت باتجاه الشمال لأدرك القافلة الموجودة في الخان التالي، وبعد قرية الجديدة أصبح الطريق ضيقاً جداً ووعراً؛ ذلك أنه لم يكن سوى رصيف ضيّق أصلاً، يلتوي مساره عبر المجموعات الكثيفة لأشجار النخيل والشجيرات، وأحياناً مستنقع أو قناة ما، على الرغم من أنه الطريق نفسه الذي يسافر فوقه مرة أو مرتين شهرياً الرسول التركي ومرافقوه الفرسان الذين لا بدّ منهم، ولم أستطع التوقف عن التساؤل ما إذا تمكنت القافلتان من السفر ليلاً فوق هذا الطريق دون حدوث أية حوادث.

مع التقدّم للأمام أصبحت الحياة النباتية معدومة تماماً، ووجدت نفسي وسط سهل قاحلٍ مكشوف حيث استطعت من مسافةٍ كبيرةٍ، رؤية ثمانية فرسانٍ متجهين نحوي بالطريقة المعتادة من الخبب الرشيق للرسول التركي، معروفة بين العرب والفرس باسم (الرَّهوان) "Rachwan" ـ وهي مشية خاصة ذات خطىً قصيرة.

إنها مشية غريبة جداً، ويجب أن تكون الخيول المخصصة للرَّهوان "Rachwan" مكسورة بشكل خاص فقط من أجل هذه الغاية، وذلك بتعليمها على الخبب بأطرافها الأمامية بينما تهرول بأطرافها الخلفية، فتقوم تلك الحركة المزدوجة بإيقاف الرجّة التي يتعرّض لها الراكب في الحالتين كلتيهما: الخبب أو الهرولة، وبذلك يصبح بإمكان أقلّ الخيّالة براعة الجلوس بثباتٍ فوق حصان الرَّهوان "Rachwan" وكأنه مثبت بالسّرج بواسطة البراغي.

تباع خيول الرَّهوان المكسورة حسب الأصول بأسعارٍ خيالية، وعادةً يشتريها

الأثرياء البدينون وثقيلو الوزن من الأتراك والفرس والعرب، راغبين بذلك تجنب اهتزاز أجسامهم التي تعوزها الرشاقة.

إنه تقريباً من المستحيلات أن تجعل الرَّهوان يسير بطريقةٍ غير هذه الطريقة الخاصة التي تبدو أنها المفضّلة لديه.

تمتلك هذه الخيول عموماً قدرة كبيرة على التحمّل، حتى إنها تهزم أي حصانٍ تقريباً في رحلة تزيد عن الأسبوع، حيث إنها تستطيع مواصلة التقدّم بمشيتها الرشيقة قصيرة الخطى طوال النهار دون أن تنزعج.

لاشك أن مشية الرَّهوان قد دخلت إلى بلاد الرافدين وشبه الجزيرة وسوريا عن طريق الفرس، الذين نادراً ما يركبون أية خيولٍ أخرى، أما البدو فيزدرونها إلى حدٍّ كبيرٍ، معبّرين عن تلك المشية بأنها مشية حمار، وأنها إهانة كبيرة لسلالة خيولهم المميزة أن يكسروا فرساً من أجل مشية.

تكون تلك الخيول أقل استخداماً في بلاد الرافدين وشبه جزيرة العرب وسوريا من بلاد فارس، وإنّه من غير الممكن أبداً كسر حصان جيد ومربّى جيداً من أجل الرَّهوان في هذه البلدان السابقة الذكر.

يعتبر البويريون أو المزارعون الأفارقة من أصل هندي مغرمين حقاً بهذا النوع من المشي، وعلى الأقل، رأيت الرَّهوان "Rachwan" يستخدم لديهم بشكل عام بسبب الخصال الممتازة لهذا النوع من الخيول في الرحلات الطويلة، فهي تستخدم عموماً من قبل السعاة الأتراك أو رجال البريد، وأغلبهم من السكان المحليين التتار أو الأكراد، ومن قبل مرافقيهم أيضاً، وفي الواقع كان هذا هو السبب الذي جعلني أميّز أن الفرسان الذين يتقدمون نحوي عبر السهل من مسافة بعيدة جداً هم الرجال المكلفون ببريد الحكومة التركية، وعندما أصبحوا على مسافةٍ أقرب استطعت أن أميّز رماح الحرّاس، وبعد ذلك بقليل مررت بهم فأوقفني حينها أحد الحرّاس والتمس مني أن أعطيه بعض التبغ، ففعلت، ومن ثمَّ أخبرني بأنهم مرّوا بخان قبرصلي (Kibrisli)

باكراً قبل شـروق الشـمس، وأن قافلة الجمال كانت تخيم خارج الخان وقافلة الخيول كانت داخل البناء، وأنهم يتوقعون وصولي عمّا قريب.

هنـا يتوجّب عليَّ التعليـق بأن الأخبار في هذا الجزء من العالم تنتقل بسـرعة رائعة إلى حدٍّ ما، بغض النظر عن الحالة غير المتحضّرة لبلاد.

يعـزى ذلك إلى حقيقة أنَّ المسـافرين في هذه البـلاد، قلّما يمرّون ببعضهم دون أن يوقفـوا خيولهم لبضع دقائق، من أجل سـؤال بعضهم عـن الوجهات ونقطة الانطلاق وكذلك عن أخبار اليوم.

* * *

بما أنَّ مرشـدي كان يسـافر سيراً على الأقدام لم أسـتطع الجري بسرعة، لذا كانت السـاعة تشـير إلى التاسـعة صباحاً، والجوّ حارٌّ جـداً، وعندما وصلـت إلـى قرية عربية صغيـرة يرثـى لها، تسـمى مُسـابة Musâba حيـث ترجَّلت لأشـعل غليونـي من أحد الأكواخ.

احتشـد السـكان حولـي وحـول مرشـدي يسـألونه مئـات الأسـئلة عـن الفرنجي (الأوروبي) الذي يرافقه، يحسبون أنني لم أفهم أية كلمة من العربية.

فيمـا يتعلق بذلـك تذكّرت طرفةً مضحكةً رواها لي سـيدٌ شـابٌ لا يـزال مقيماً في بغداد: «بعد وصوله من أوروبا إلى هناك بيومين أو ثلاثة أيام، رافق صديقاً آخراً لي في بغداد إلى السـوق، وبينما كانا يمشيان عبر الشـوارع المكتظة بالحشود في تلك المنطقة، خاض رفيقه في محادثةٍ مع تاجرٍ من أبناء البلد، وكونه لـم يفهم أية كلمة من الحديث، راح صديقي يسـلّي نفسـه بالتحديق إلى النشـاط الصاخب المحيط به، في هذه الأثناء بـادره رجل عربيٌّ مهندم ذو لحيةٍ رماديـة طويلة بالكلام بطريقة مهذبة، وحين لـم يفهم أي مقطـع لفظـي واحد اسـتدار إلـى رفيقه ـ كان يقيـم منذ فترة طويلـة ـ وطلب منه أن يترجم، فأخبر الآخر الرجل العربي أنَّ صديقه لا يسـتطيع تحدّث العربية، والذي عليه صاح العجوز بدهشةٍ مطلقة وبجهل لا يغتفر: «يا إلهي!.. لماذا؟ إنَّ أصغر الأطفال هنا

في بغداد يفهمون العربية!»...

أصرَّ الناس الطيبون في القرية على بيعي دجاجاً وبيضاً وبطيخاً ويقطيناً ولبناً... وغير ذلك من الأشياء التي رفضت بالتأكيد شراءها، وذلك أنني كنت على ظهر حصاني، حينئذٍ بدؤوا بمضايقتي ـ كما هي العادة عند كافة النّاس في آسيا وأفريقيا تقريباً ـ بطلب البقشيش والتبغ... وغيرها، فتابعت رحلتي على الفور مدركاً تماماً أنني إذا استجبت لأحد مطالبهم تلك لن أتخلص منهم أبداً.

قرب القرية كان هناك عدّة خانات كبيرة محاطة بجدران طينية تصل إلى عشرة أقدام في الارتفاع تقريباً، تظللها أشجار نخيل ضخمة، وكانت هناك قافلة فارسية كبيرة قدَ خيّمت هناك أثناء الليل، وتستعدّ الآن بنشاط لشدّ الرحال ومباشرة الرحلة من جديد.

وقفت في الزرائب أعدادٌ هائلةٌ من الخيول والجمال والبغال والحمير المجهّزة سابقاً وبدا واضحاً وجود عدّة إناث مع القافلة، حيث كان بالإمكان رؤية العديد من الهوادج، على الرغم من أنني لم أرَ سوى ثلاث أو أربع نساء يغطين وجوههنّ جيداً، ويتسكعن حول الخانات، ولكن عند اكتشافهنّ أنهنّ كنّ محط أنظاري لدقيقةٍ واحدةٍ فقط سمعتهنّ بوضوح ينبسن بكلمة: Giaour! ـ وهي كلمة تركية تعني غير مسلم، كافر أو مسيحي ـ وكلمة: Kelp! ـ كلمة عربية تعني كلب ـ وهي تعابير مستخدمة بحرّية من قبل كافة المسلمين تجاهنا نحن المسيحيين، وقد لفظتها النساء الغاضبات بوضوح بلغتي البلاد كلتيهما لتضمن بذلك أني فهمتها. تابعتُ مسيرتي بهدوء، ثم على مسافة ثلاثة أميال أمامي رأيت الخان الكبير ـ حيث كانت تخيم القافلتان ـ فوق تلٍ بسيطٍ في السهل القاحل الذي بدا فيه خان مُسابة Musâba كالواحة الخضراء في وسط الصحراء.

كانت الشمس ملتهبة بشكل مخيفٍ، ولم يكن هناك أيّة نسمة تداعب المسافر المنهك، وأصبحت سَبَطانتا البندقية المعلقة على كتفي ساخنتين جداً لدرجة أني لم أجرؤ على لمسهما بيدي العاريتين.

لحسن الظن، نصف ساعة أخرى فقط من المسير حملتني إلى الخان.

عند وصولي إلى المرتفع البسيط الذي كان يقع فوقه البناء، لاحظت عند سفح الجانب الآخر من التلة وقرب جدولٍ صغير الخيام البيضاء كالثلج لقافلة الكونت (de B.) والجمال والبغال التي ترعى من العشب الضئيل الموجود على طول حواف الجدول بالقرب من الماء.

بدا أنَّ جميع الأشخاص الموجودين ضمن القافلة منهكو القوى تماماً، بتأثير الحرّ الشديد، وكانوا نائمين في خيامهم الخاصة باستثناء اثنين من العقيل Aghles أو المرافقين البدو كانا يراقبان المخيم والحيوانات، وقد رحّبا بوصولي بسرور.

عند دخولي إلى الخان، قابلت مصطفى الذي لمحني عندما كنت لا أزال بعيداً جداً في السهل، فتولّى أمر جوادي، وأخبرني بأن البناء كان مشغولاً فقط بقافلتنا الخاصة، وأنَّ كلَّ شيءٍ هناك كان نائماً بعمق.

وجدت الاثني عشر جواداً موتدين بأمان على طول الجدران الظليلة المقنطرة، في حين وقفت بهائم الحمولة محتشدة مع بعضها برؤوسٍ ناعسةٍ ومتدلية في الزوايا الظليلة من الخان.

إلى جوار الأمتعة، في الزاوية القريبة من الخيول اختبأت ممتدة بكامل طولها، ومجرّدة من كل غرزة من الثياب، القامات الداكنة لساسة الخيول والهجّانة والبغّالة، وسائقي خيول الحمل، والحرّاس البدو العقيل Aghels غير مكترثين على الإطلاق للبراغيث والبعوض وذباب الرمل، هذه الحشرات الجميلة التي كانت تزخر بها كل الخانات.

عند دخولي إلى غرفة مظلمة ولكن عالية السقف، واقعة مباشرةً مقابل الممرّ حيث كانت الخيول مربوطة، وجدتهم يتمدّدون فوق بطانيات على الأرض وبدا جلياً أنهم ينامون بعمق، إنهم السّنيور (P)، والأب (M) وبَحري (Bahri) ـ فتاة زنجية حبشية ـ تبلغ من العمر حوالي خمس عشرة سنة، والتي نسيتُ عند مغادرتنا بغداد أن أذكرها على

أنها تشكّل جزءاً من قافلتنا. قامت هذه الفتاة بمرافقتنا في الرحلة الطويلة من بغداد إلى شواطئ المتوسط، على ظهر حمارٍ أبيض، ورغم أنها كانت بصحةٍ ضعيفةٍ آنذاك، فإنها أكملت برداءٍ ذكوري نصف أوروبي ونصف آسيوي الرحلة الطويلة الصعبة والمرهقة على الحمار نفسه، وقد شاطرتنا طوعاً وبسرور كافة المتاعب والمعاناة والحرمان والمخاطر التي تعرضت لها الحملة، وذلك بنشاطٍ وجلدٍ رائعين حقاً.

إن قصتها عاطفيةٌ إلى حدٍّ ما، وقد لا تكون مملّةً بالنسبة لبعض قرّائي. فعندما كانت فتاة فقط في العاشرة أو الحادية عشرة من العمر كانت تعيش مع والديها في الحبشة، كانت القبيلة تعيش بسعادة مطلقة، حيث كان لديها أعداد كبيرة من الماشية وتربة خصبة تدرّ الخضراوات بسخاء.

ذات يوم خرجت عند اقتراب المساء مع أمها المسنّة ـ التي يبدو أنه كان لديها عدّة أولاد غير بَحري (Bahri) التي كان اسمها الحقيقي مَهورا (Mahura) على ما أظن ـ بحثاً عن معزاةٍ شاردةٍ، فأبعدتهما ملاحقتها حوالي ميلين عن القرية، وبينما كانتا تهيمان بهدوء بين العشب أجفلتا بالظهور المفاجئ لرجلٍ ضخمٍ وقوي، يتمدّد مختبئاً بين العشب أو الشجيرات القصيرة، اندفع هذا الشخص بسرعة نحو المخلوقتين الضعيفتين وحاول أن يمسك بالفتاة، لكن الأم عندما خامرها شعورٌ بنواياه السيئة، ورأت بعض الأشخاص من القبيلة يعملون في حقولٍ بعيدةٍ بعض الشيء، أطلقت إنذارها، متشبثةً بالفتاة بقوة، حينها قام صياد العبيد المكفهرّ ـ إذ إنه هكذا كان ـ بسحب خنجرٍ وطعن الأم العاجزة في قلبها، ثم كمّم الفتاة الباكية، ورمى بطانية فوق رأسها، وحملها إلى دغلٍ مجاور حيث كان يخبئ حصانه، وقبل أن يتمكن الناس في الحقل من التدخل كان قد اختفى كلياً.

بعد أن استبدّ بها الرعب وكادت أن تختنق بالكمام الموجود في فمها والبطانية الموضوعة فوق رأسها، غابت الفتاة المسكينة عن الوعي، ولبعض الوقت كانت شبه ميتة وغافلة تماماً عن حقيقة شقائها.

عندما استعادت وعيها، وجدت نفسها لا تزال في أيدي آسرها، الذي كان حصانه

ينطلق بأقصى سرعته، مع اقتراب الصباح وصلا إلى محطةٍ ترجّل فيها الخيّال وحمل أسيرته إلى كوخٍ كبيرٍ محاطٍ بأجمةٍ مرتفعة وحصينة تقريباً، وعندما أزيلت البطانية عن وجهها، وجدت نفسها أمام أكثر من عشرين فتاةٍ وامرأةٍ شابة من كل الأعمار ما بين الستة إلى ستة عشر عاماً، كن جميعهن موثّقات جيداً بواسطة أصفادٍ حديدية رقيقة حول كواحلهن، ومحروساتٍ بشكل جيدٍ من قبل اثنين أو ثلاثة من الرجال المتوحشين المسلحين جيداً، يجثمون على حصيرة من القش عند مدخل الكوخ.

كان العديد من الأسيرات المسكينات عارياتٍ تماماً، وقد بدين جميعهن بائسات إلى أبعد الحدود. لم يتم النطق بأية كلمة من قبل أي أحد باستثناء المتوحشين أنفسهم الذين كانوا يجلدون السجينات بوحشيةٍ عند أبسط محاولة للتحدّث، أو البكاء، أو الهرب. بالتأكيد كانت مَهورا (Mahura) تعامَل كشقيقاتها في محنتها، التي اكتشفت أنهنّ لم يكنّ جميعاً من قبيلتها، إنما تمّ اختطافهنّ من منطق أخرى.

عندما وصل عددهن إلى الستين تقريباً، انتزعت الأصفاد وتم تقييدهنّ من معاصمهن، كل اثنتين معاً، بشكلٍ جيدٍ لا تستطيعان فيه الابتعاد عن بعضهما أكثر من أربعة أقدام، وكانت كل فتاة أكبر من عشر سنوات تجبر على حمل حقيبة الذرة ـ الدُّخن المصري وهو نوع من الذرة المدوّرة منتشرٌ في الشمال شرق أفريقيا وغرب آسيا ـ التي كانت تزن ما بين عشرٍ إلى ثلاثين رطلا، وذلك يعتمد على قوة حاملها، وتحتوي على طعام الأسيرات خلال الرحلة إلى شاطئ البحر.

بدأت الجمال التي تحمل صائدي العبيد والمقدار اللازم من الماء، مسيرها إلى شواطئ البحر الأحمر، وكانت المسروقات البشرية تُقاد أمامهم. بعد رحلةٍ امتدت شهرين أو ثلاثة أشهر، كانت خلالها المخلوقات المسكينة تعاني بشكلٍ رهيبٍ، تضاءلت الأعداد على نحوٍ محزنٍ.

كان الجزء الأكبر من الرحلة يمرّ عبر مناطق قاحلة وبالكاد يوجد فيها سكان، كل يوم تقريباً كانت تسقط واحدة أو أكثر من التعيسات وقليلات الحظ، ولا تنهض أبداً بعد ذلك، حيث كانت تُترك كالدابة لتموت في المكان الذي سقطت فيه. من أصل

ستٍ وخمسين أسيرة وصلت فقط ثماني عشرة إلى خليج تِجورّا (Tejurrah) - وهو مرفأ بحري صغير يشتهر بتجارة العبيد - ويبعد حوالي مئة وخمسين ميلاً عن جنوب مضيق باب المندب على الساحل الأفريقي.

هناك تم إطعامهنّ وتسمينهنّ لمدة شهرين تقريباً وذلك ليظهرن بحالةٍ جيدة، وبعد ذلك تمَّ بيعهن لتاجر رقيقٍ عربي، ثم أُرسلن على متن قارب، ونُقلن إلى الساحل العربي، وأخيراً نزلن في مسقط.

بسبب العديد من الطرّادات البريطانية التي تجوب هذه المياه باستمرار، وخاصةً في الخليج العربي حيث تم القبض على عدّة تجار رقيق، يبقى دائماً النخاسون الذين يبحرون على طول ساحل جزيرة العرب بالقرب من الشاطئ، من أجل منح فرصة للهرب لأنفسهم إذا لم يكن لحمولتهم الحيّة، وذلك في حال قامت إحدى الطرّادات البريطانية بمطاردتهم.

يبحر النخّاسون عادةً في الليل، ويبقون مختبِئين بحذر أثناء النهار في الخلجان الصغيرة والممرات العديدة الموجودة على طول الساحل، حيث تكون المياه عموماً ضحلة جداً، وبتلك الحالة لا تستطيع الطرادات الاقتراب منهم.

تم بيع بعض الإماء في مسقط، وأرسلت البقية بقافلة سارت على طول شاطئ ولايتي عُمان والحَسَا (الأحساء) أو كما تسمّى: هَجر Hadjer القاحلتين إلى البَصرة، وكان على المخلوقات البائسات إنجاز هذه الرحلة الفظيعة سيراً على الأقدام. في البَصرة تمَّ عرضهنَّ جميعاً بأسعارٍ تتراوح ما بين ألف إلى ألفي مجيدي تركي - من أربعين دولاراً إلى أربعمئة وخمسين قطعة نقدية أميركية - وذلك يعتمد على أعمارهن وحالتهن.

بيعت مَهورا (Mahura) مقابل ألفي مجيدي (تسعين دولاراً أميركياً ذهبياً) لتاجرٍ تركيٍّ عجوزٍ، أبقاها عنده لوقتٍ قصيرٍ فقط بسبب صحتها السيئة، التي بدا أنها أُتلفت إلى الأبد إثر معاناتها الرهيبة خلال الرحلة الطويلة التي استمرت أكثر من عام. لهذا

السبب أرسلها كهديةٍ إلى أخيه؛ وهو تاجر خيولٍ ثري في بغداد وربّ أسرةٍ كبيرة، حيث تعلّمت هناك مع مرور الزمن التحدّث باللغتين التركية والعربية، ولكنها نسيت لغتها الأم كلياً.

خلال زيارة السّنيور (P) إلى بغداد، كان دائماً لديه دواعٍ للذهاب إلى بيت سيدها الذي يقيم معه معاملات تجارية متعلقة بالخيول، وهناك رأى الفتاة المسكينة أكثر من مرّة، وأدهشه تفوّق قدراتها العقلية مقارنةً مع باقي النساء من بنات عرقها، فعزم على شرائها إذا كان ذلك ممكناً.

بعد عودة السّنيور (P) من البادية بوقتٍ قصيرٍ أبدى سيّد بَحري (Bahri) ـ وهذا كان الاسم العربي الذي سميت به الفتاة بدلاً من اسمها الأصلي مَهورا (Mahura) ـ إعجاباً كبيراً بأحد خيول الآخر، وقد كان من أجمل الحيوانات. وبعد وقتٍ قصيرٍ كشفت العين الخبيرة للجراح البيطري الإيطالي، أن ذاك المخلوق الجميل لم يكن سليماً، لذا وافق على التخلّي عنه مقابل مبلغٍ مناسب.

اشترى السّنيور (P) الحصان من البدو بستة آلاف مجيدي، وطلب ثمنه تسعة آلاف، ولكنه وافق أخيراً على أن يقبض ستة آلاف نقداً بالإضافة إلى الفتاة (Bahri) ثمناً لحصانه، استجاب المسلم الماكر لذلك بسرور، واثقاً أنه قبل انقضاء أسبوع ستهرب الأمة التي كان يشجّعها سرّاً بوعوده لها بالهدايا السخية إذا هربت من السّنيور (P) الكافر (giaour) ولجأت إلى بيت سيدها، حيث كان من السهل جداً بالنسبة له أن يخبئها في مكانٍ مخفي ما، إلى أن يرحل الإيطالي نهائياً عن بغداد.

إلاّ أنَّ المسلم الصالح كان مخطئاً تماماً في هذه المضاربة المدروسة جيداً، ذلك أنَّ بَحري (Bahri) التي حصلت على حرّيتها من السّنيور (P) في اليوم الذي انطلقت فيه القافلة من بغداد، وبالتالي كانت حرّة في الذهاب إلى المكان الذي تحب، سرعان ما وجدت أن الأوروبي لم يعاملها كأمَة على الإطلاق؛ وإنما تماماً كابنته، لذا لم تكتفِ فقط بعدم العودة إلى التاجر اللئيم، وإنما سجدت أمام السّنيور (P) ووضعت قدمه فوق رقبتها كدليل على أقصى درجات الطاعة الذليلة والاحترام، وتوسّلت إليه بنحيب

نابع من القلب، ودموع غزيرة، بألاّ يرميها ويتخلى عنها كالكلب الأبرص في شوارع بغداد، ولكن أن يعطف عليها وهي تفضّل أن يقتلها على الفور على أن يرفض السّماح لها بأن تكون خادمته وكذلك أن تتبع خطاه أينما اتجه.

ثم أضافت بانفعال أنه من الآن فصاعداً إذا أراد أن يحسبها أهلاً لهذا الإحسان العظيم فعليه السماح لها بأن تصبح مسيحية وأن تعمَّد، وأن تكرَّم باسم (ماريّا)، اسم أحبته بشدة، حيث قالت إنها كانت دائماً تُعرض لها على السطح المستوي للبيت التركي، صورة امرأة مسيحية جميلة وطيبة القلب ولها الاسم نفسه ـ لا بدَّ أنها كانت صورة العذراء ـ من قبل فتاة أميركية في الطريق بنفس عمرها تقريباً.

إنَّ هذا كان بالأمر السهل جداً، وذلك بسبب الضيق الشديد للشوارع الشرقية، ولكنَّ بَحري (Bahri) كانت تعاقب بصرامة من قبل التركي إذا ضُبِطت تتحدث مع كافرة أثناء وجودها في منزله.

عبثاً كانت كل اعتراضات السّنيور (P) ذلك أنَّ المسافة تبلغ على الأقل ألفاً وخمسمئة ميل بين بغداد وإزمير Smyrna في آسيا الصغرى، حيث تعيش عائلته، وأنها بحالتها الجسدية الواهنة تلك لن تستطيع تحمّل مشقات وعناء الرحلة الطويلة، إنما ستموت حتماً قبل أن يصل إلى ديار بكر ـ عاصمة كردستان.

مع ذلك أجابت بأنها عندما كانت فتاة ضعيفة ذات عشر سنوات تم تجريدها كلياً من كل ما هو عزيزٌ على قلبها، وكان عليها اجتياز الرحلة الفظيعة من قلب الحبشة إلى بغداد، معظمها كانت سيراً على الأقدام، وتحت ظلِ معاملة شنيعةٍ، وأن الله لم يدعها تمُت، على الرغم من أنها لطالما اشتاقت للموت وهي في أيدي النخاسين، أما الآن فتشعر بالثقة بقدرتها كامرأة شابة على القيام بالرحلة السهلة نسبياً إلى بلاد (النصراني) ـ التعبير العربي الذي يطلق على المسيحي ومشتق من اسم مدينة النّاصرة Nazareth ـ ولكن حتى في حال قدّر لها الموت في الطريق، فإنها تتمنى أن تموت بقرب سيّدها ومسيحية إذا كان ذلك ممكناً.

من المؤكد أنه ليس هناك قلب بشري يستطيع البقاء صامداً أمام توسلات واستعطافاتٍ كتلك، لذا وافق السّنيور (P) على أخذها معه متردداً، لأنه كان متأكداً من أن الرحلة ستتسبب بقتلها، لكنه عبّر عن رغبته بأن يؤجل تعميدها إلى أن يصلوا إلى إزمير Smyrna وبذلك قد تشارك ابنتيه البالغتين نفس عمرها تقريباً في الشعائر المقدَّسة.

أما الأب (M) الكاهن والمبشِّر الشاب من طائفة الروم الكاثوليك، والذي كان عضواً في قافلتنا، فقد تعهّد بأنه سيقوم بتعميدها في آخر لحظاتها إذا قدّر لها أن تموت في الطريق، فشكرته على هذا العرض والدموع تملأ عينيها.

عند دخولي إلى الغرفة المظلمة في خان قبرصلي Kibrisli، وجدتهم جميعاً يغطون في نومٍ عميقٍ ووجوههم مغطاة بالمناديل، ليحموها من عشرات الآلاف من الذباب، وذبابِ الرمل، الذي كان يغزو الخان، والذي كانت أعداده مخيفةً حقاً، ولكن هذا الغطاء على الرغم من كونه خفيفاً كان يصعب تحمّله، فحرارة النهار حتى في تلك الغرفة المسردبة كانت خانقة إلى حدٍّ ما.

عند سماعهم صوتي قام جميعهم بنزع أقنعتهم المرتجلة، ونهض السّنيور (P) والأب (M) من فورهم ورحّبوا بي بحرارة ولكن بَحري (Bahri) - سأستمر بمناداتها هكذا - كانت أضعف من أن تقف، فقد أثّر عليها بشدة عناء الرحلة التي استمرت طوال الليلة الماضية، إلى جانب ذلك، بدأت نوبة من الحمّى بإظهار نفسها فوق جسد بَحري (Bahri) الضعيف على الرغم من أنها كنت تشكو فقط من كونها متعبة جداً، إلاّ أن عين السّنيور (P) كشفت الأمور على حقيقتها، فبدأ على الفور بإعطائها العقاقير المناسبة من صندوق الدواء الصغير الذي كان يحمله معه، ولكن مع ذلك أصبحت حالة الفتاة المسكينة أسوأ مع اقتراب المساء، لذا كان علينا التخلّي عن فكرة متابعة الرحلة في تلك الليلة. إلاَّ أنَّ قافلة الكونت (de B.) أنزلت خيامها حالما خفّت وطأة حرّ النهار، وبدأت المسير إلى دلّي عبّاس Delhi Abbas التي تبعد ثمانية وعشرين ميلاً باتجاه الأمام. وكما شاءت الظروف لم نتمكن من رؤية هذه القافلة مرّة أخرى حتى وصلنا

إلـى الموصـل Mosul، ذلك أنَّ بَحري (Bahri) أصحبت أسـوأ وأسـوأ خلال الليل، وفي اليوم التالي كانت عليلة جداً وقد ظن الـسّـنيور (P) أنه لا أمل منها على الإطلاق، ورأى أنه من غير الصواب احتجاز القافلة لوقتٍ أطول، وكان مع اقتراب المسـاء على الوشك القيام بالتجهيزات إمّا لإعادتها إلى بغداد، أو لدفنها، عندما حدث تغييرٌ مفاجئٌ في حالة المريضة.

لقد اختفت الحمّى تماماً، وخمد عطشها، وعادت إليها الشهية، وعند الساعة الرابعة كانت قوية بشكلٍ كافٍ لتمشي حول الخان.

اختفت الشـمس الغاربة بعظمةٍ متوهجةٍ خلف الأفق الغربي، ولحسـن الحظ، هبَّ نسيمٌ رطبٌ مبهجٌ ومنعشٌ بعد الغروب.

أكَّـدت بَحري (Bahri) أنها في حالة جيـدة جداً لمتابعة الرحلة، بعد حلول الظلام بساعة واحدة، كانت قافلتنا بأسرها على الطريق إلى دلّي عباس، وبَحري على حمارها الأبيض يرافقها رجلٌ على قدميه من كلّ جانب، ليحميها من السـقوط في حال خارت قواها مرّة أخرى.

لـم يكن ذلـك ضرورياً جداً، فقد اسـتعادت الفتاة قوتها الكاملة في اللحظة نفسـها التي زالت فيها الحمى.

كانت كل يوم تغدو أقوى فأقوى، واسـتطاعت أن تتـم الرحلة الطويلة والمملة إلى المتوسـط، تماماً كأي منا، وقـد لاقت استحسـانـاً كبيـراً حتى من الرجـال العرب في قافلتنا، على الرغم من أنَّ العرب بشكل عام يزدرون الزنوج إلى حدٍ كبيرٍ.

كانـت المناطـق التي نسـافر عبرها مسـطحة تمامـاً، والأرض ملسـاء وقاحلة جداً لدرجـة أن المعزاة سـتكون في ضيـاعٍ مطلق باحثةً عن مكانٍ تجد فيـه لقمة واحدة من النبـات الأخضر، أو شـربة مـاءٍ فوق هذا السـهل اللامتناهي الذي لم يكن سـوى جزء شـمالي غربي من صحراء اللور الواسـعة المذكورة سابقاً، أثناء الليل لم يكن هناك أي صوت مسموع في تلك المنطقة التي ينبذها الله على ما يبدو باستثناء جلجلة الأجراس

المعلقة بخيول الحمـل الخاصة بقافلتنا، ودندنة لحنٍ عربيٍّ رتيب بين الحين والآخر، وكأن المغني كان يحاول إبقاء نفســه مســتيقظاً، وســمعنا مرةً أو مرتين الصرخة الحادّة (كـي هـو ـ كـي هو) الناجمـة عن طير متوسـط الحجـم، كان نوعاً من طيـور القطقاط الصحراوية، والذي كانت وسـائل معيشـته وبقائه حياً لغزاً كبيراً بالنسبة لي، إلاَّ إذا كان يعيـش علـى الأمل، وشـعاع القمر، الذي بدا أنه الشـيء الوحيد الذي يمكن له إشـباع رغباته عن طريقه في هذا السـهل الخاوي.

بعـد منتصـف الليل، بدأت سـرعة خيول الحمل خاصتنا ـ التـي كانت محمّلة بثقل تتباطـأ قليـلاً، وفي نفـس الوقـت تقريباً، توارى القمر الذي كان حتـى ذاك الوقت يلقي ضوءه على الأرض التي نسـافر فوقها، واختفى خلف شيءٍ كالسديم في السـماء.

شـيئاً فشـيئاً أصبـح السّـنيور (P) والحـرّاس ـ نصف الحـرّاس البـدو ـ والخيول، يتقدّمونني بحوالي خمســمئة ياردة.

أمـا أنا فقد كنت أحمي خيول الحمل برفقة الأب (M) وبَحري (Bahri) والنصف الآخر من الحراس البدو، لذا كنّا نعدو عدواً وئيداً.

بعـد قليل شـغلتني فكرة أنني لم أعد أسـمع أية أصوات مـن المجموعة التي تتقدّم أمامنا، لذا دفعت بكامل طاقتي سائقي البغال النعسـانين لهمز خيول الحمل على السـير بأسـرع ما يمكن.

لقد مشـينا فوق الأرض بسـرعة كبيرة آنئذٍ، ويجب أن نكون قد أدركنا الآخرين في وقت قصيرٍ جداً، ولكن الغريب أننا لم نفعل، عندها بدا الأمر واضحاً كفاية لنكتشـف أننا ضللنا طريقنا، واستنتجنا بذلك أن السّنيور (P) لـم يعد أمامنا بعد الآن.

وفـي هـذا التعقيد الشـديد، فكرت أنّه مـن الأفضـل إيقاف التشـتت الـذي أصابني وجعل كل شخص منا يصغي جيداً، لعلّه يستطيع سماع أي صوت صادر عن أصحابنا المفقوديـن، ولكـن أي صوتٍ من أي نوعٍ لم يكن مســموعاً علـى الإطلاق، ولا حتى الصرخـة العجيبـة للقطقاط الصحـراوي الوحيد لذلك فكرت أنه مـن الحكمة إطلاق

عيار ناريٍّ في الهواء، وانتظار الرد.

أطلقت الرّصاصة ورحنا ننظر جميعاً بتلهّف إلى الظلمة الواسعة، نتحرّى الإجابة بحماس، عندما صدر صوت دويٍّ عالٍ بعد وميض من نار، ورصاصة أزّت فوق رؤوسنا جعلتنا ندرك أين نحن.

اكتشفنا أننا كنا نبعد مسافة نصف ميل تقريباً عن الآخرين الذين انحرفوا إلى اليمين وكانوا خلفنا بمسافةٍ كبيرةٍ.

عندئذٍ انطلقنا بسرعة وعدنا باتجاههم، وبعد قليل سمعنا وقع أقدام خيولهم، وعندما التقينا تعلّلت المسألة على الفور.

كانت الطريق متفرعة إلى فرعين، سلكوا هم الطريق الأيمن، ونحن سلكنا الطريق الأيسر، ولم يكن أي منا مخطئاً؛ حيث كان في النهاية المساران كلاهما يؤدّيان إلى المكان نفسه، والفرق الوحيد أنَّ مسارنا كان سيقودنا لمسافة ميلين فوق أرضٍ أكثر وعورة.

فكرنا بعد ذلك أن الحكمة تقتضي بقاءنا من الآن فصاعداً قريبين من بعضنا، لأنه من غير المفرح نهائياً أن يضلّ المرء طريقه في منطقة مجرّدة من الطعام والشراب كتلك.

وفي سبيل أن يفهم قرّائي بوضوح سبب التقدّم البطيء الذي كانت تنجزه قافلتنا، يتوجب عليَّ الإشارة أنه قبل انطلاقنا من بغداد، اتفق السّنيور (P) مع الرجال الموكلة إليهم الخيول التي اشتراها الأول، على أن يؤدّوا الرحلة بكاملها من بغداد إلى المتوسط سيراً على الأقدام.

وأن يقود كل رجل الخيل الموكل إليه طوال الطريق بواسطة حبلٍ مربوطٍ إلى عذار الحيوان، وأنه مسموحٌ لهم بركوب الخيول فقط عندما يريدون عبور النهر. تمّ اتخاذ هذا الإجراء التحفظي من قبل السّنيور (P) لتجنب احتمال تقرّح ظهور الخيول أثناء الرحلة الطويلة، إلى جانب ذلك، إذا كان الجميع يمتطون خيولاً فلن تستطيع خيول

الحمل والبغال المحمّلة بثقل أن تحافظ على مسيرها مع المجموعة الرئيسية في القافلة، الشيء الذي كان من الضروري جداً الحفاظ عليه. ونتيجة ذلك كان المعدّل الوسطي للرحلة من بغداد إلى المتوسط نادراً ما يتجاوز الثلاثة أميال في الساعة، وهو المعدّل الطبيعي لشخص يسافر سيراً على الأقدام، وكما هو متوقع طبعاً، إنّ هذا التقدّم كان مرهقاً أكثر لهؤلاء المسافرين على ظهر الخيول من أولئك الذين يسيرون على أقدامهم، كونه يسبّب خمولاً شديداً، والأكثر من ذلك أننا منذ مغادرتنا لبغداد لم ننم كما ينبغي، فالنوم الهادئ المجدّد للنشاط كان خارج نطاق الطلب، وهذا يُعزى إلى الحرّ الفظيع وعشرات الآلاف من الحشرات المزعجة وخاصة ذباب الرمل الذي يغزو الخانات والنزل، ويبدأ على الفور بتعذيب المسافر المسكين، لا سيّما إذا كان أوروبياً وليس معتاداً على معاملةٍ قاسيةٍ كتلك.

مع اقتراب الصباح، وعند انبلاج الفجر تقريباً عبرنا قناةً تجري باتجاه من الشرق إلى الغرب، وتؤدّي بجزء من مياه ديالى إلى نهر دجلة، وبسبب الحالة السيئة والمهملة لتلك القناة القديمة التي بلغت حوالي خمسين قدماً في العرض وكانت ضحلة إلى حدٍّ ما تعرّضنا إلى صعوبات كبيرة في قطعها، حيث غرقت خيولنا حتى رُكبها بالوحل الطري.

أيقظت الضجة الناجمة عن قافلتنا عند خوضها في الماء كلاب القرية الصغيرة التي لم تكن حينئذٍ مرئية بعد على الضفة المقابلة وعلى مسافة قصيرة من يمين مقطع النهر.

آنذاك بدا كلُّ شيءٍ في القرية غارقاً في سُباتٍ عميقٍ جداً باستثناء الكلاب التي اعترضتنا على نحوٍ مسعور، وزوج من الديكة التي كانت توّاقة إلى زيادة الضجة فراحت تطلق نداءاتها الصباحية الصيّاحة المعروفة على نطاق الكون.

غادرنا القرية دون أن نتعرّض للإزعاج، وتبعنا الطريق الذي كان يسير على طول القناة - بعد عبورها - إلى مسافةٍ طويلةٍ، ثم سرعان ما لاحظنا الجدران الرمادية لخان دلّي عباس الواقع بالقرب من النقطة التي تستقبل فيها القناة مياهها من نهر ديالى،

ضمن مسافة مئتي ياردة من جسر حجريٍ عالٍ مبني بشكل وعر يمر عبر النهر الذي يبلغ عرضه في هذا المكان حوالي خمسين ياردة وهو عميق جداً في الوسط.

لم تكد الشمس الصاعدة تطرد سحابات الظلام من السماء حتى شاهدنا على مسافة أربعة أميالٍ تقريباً باتجاه الشمال الغربي الخيام المنخفضة ذوات اللون البني الداكن والأسود لأكبر مخيّم بدوي رأيته في حياتي، والذي كان سيبدو موحشاً للغاية لولا آلاف الأجسام البشرية الداكنة التي تتحرك ذهاباً وإياباً في كل الاتجاهات، في حين كان السهل الفسيح شمال وشرق وغرب المخيّم مغطىً بكل معنى الكلمة بأعداد لا تصدّق من الجمال والخيول والأغنام والماعز تجاوزت إلى أبعد الحدود أعداد أي قطيع مواشٍ آخر كنت قد رأيتُه قبلاً.

لم يكن هناك أقلّ من خمسين ألفاً من الإبل، أما الخيول فيجب أن يكون عددها على الأقل عشرة آلاف، والحمير والماشية أيضاً كانت بالآلاف، بينما كانت الأغنام والماعز لا تعدّ ولا تحصى بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

لقد كان منظراً عظيماً طُبع في ذاكرتي بشكلٍ يستحيل محوه، ليترك لي صورة مستعمرة هائلة من النمل، وقد شبّهت سكان كثيب النمل الضخم بارتفاع منزلٍ مكونٍ من طابقين، حدث لي أن رأيته بينما كنت أصطاد على ضفة نهر (أورانج) في جنوب أفريقيا، فقد بدا لي أنه يتضاءل ويقصر حتى يصبح في النهاية مجرّد لا شيء. عندما اقتربنا من الخان مررنا بكتلة من الأكواخ الطينية، كان سكانها رجالاً وأولاداً عراةً تقريباً، وارتدت النساء قمصاناً صوفية طويلة ذات لون أحمر قاتم وعند مرورنا قاموا جميعهم بتفحّصنا بفضولٍ حاد ويشيدون بخيولنا الجميلة بصوتٍ عالٍ، ومع ابتسامةٍ على وجوههم يشككون بالجنس المزعوم لإنسانٍ نحيلٍ ورقيق لكنه داكن البشرة ـ الفتاة بَحري (Bahri) ـ يرتدي ثوب ذكرٍ أوروبي، ويعتمر طربوشاً أو قبعة تجذيف تركية صوفية حمراء لها شرّابة سوداء، وكان يركب بشهامة حماراً جميلاً أبيض كالثلج، وقد مشى إلى جانبنا برباطة جأشٍ وهدوء.

عندما استفسرنا من هؤلاء الناس علمنا أن الفوضى فوق السهل كان سببها التخييم

المؤقت لعشيرة قوية من بدو شمَّر تحت ظل الشيخ (فرحان)، وهو رئيسٌ عجوزٌ ولكنه عزيز الجانب، وزعيمٌ حسن السمعة لعشرين ألف بدويّ.

وصلنا إلى الخان تماماً مع شروق الشمس، ودخلنا إليه حالما أحدث مصطفى مرافقنا بعض النظام في المبنى، الذي كان يضم حوالي عشرين فارسياً متجهين إلى بغداد، وقد حاولوا الاحتجاج على مخاطبتهم بفظاظة، وإبعادهم مع أمتعتهم وخيولهم عن الجانب المظلل من الفناء من قبل مصطفى، ولكن مرافقنا أسكتهم برفعةٍ وتكبّرٍ، وأراهم تذكرة مرورٍ تركية موقعة من نامق باشا شخصياً، والتي كان لها أثر رائع في إسكاتهم في اللحظة نفسها.

عندما دخلنا إلى الخان أطلقت خيولنا صهيلاً صاخباً لرؤيتها عشرين فرساً من الرَّهوان "Rachwan" الفارسي القبيح وغليظ الرقبة وكبير الرأس، تقف بكسل في إحدى زوايا البناء، وراحت تثور وترفس وكأنها خرجت للتوّ من الإصطبل، لا قامت برحلةٍ مسافتها ثلاثين ميلاً. قمنا بإنزال الحمل عن البغال وأحصنة الحمل، وربطنا الفحول، وأطعمنا كل حيواناتنا، وكل ذلك في وقتٍ لم يتجاوز عشرين دقيقة، فقد كان رجالنا أنفسهم يتضورون جوعاً، لذا قاموا بعملهم بسرعة استثنائية؛ ألصق مصطفى نفسه عند البوابة حيث كان يبعد غمرةً من الرجال والنساء والأولاد رثيّ الهيئة، الذين كانوا يحاولون الدخول، قليلاً من أجل الفضول وقليلاً بغية بيع الوافدين الجدد إمدادات ومؤناً كالأغنام والجداء والدجاج والسّمن والحليب والبيض... الخ.

لم يمض وقت طويل قبل أن يبدؤوا بالقيام بتجارةٍ نشيطة مع يوسف، طباخنا الأرمني ومساعده الحجيّ أحمد الذي كان يشغل وظيفتين؛ مساعد طبّاخ وصرّاف رواتب الرجال، وذلك إلى أن وصلنا إلى الموصل، حيث أحاله السّنيور (P) من المنصب الآخر، بعد أن كشفه هو شخصياً يأخذ لنفسه ما يخص الآخرين.

سرعان ما جعل الفطور المترف والحصة الوافرة من الكلاريت (الخمر الفرنسي) والعرق الأنا الموجود في داخلنا بأحسن حال؛ فذهبنا إلى النوم ولكنّ الذباب والبراغيث وذباب الرمل والغبار المتصاعد بسبب العديد من الخيول التي تحاول عبثاً

تحرير أنفسها من معذّبيها، كل ذلك كان لا يحتمل وجعل من النوم استحالةً.

لم نكن نعلم ما نفعل بأنفسنا حتى غياب الشمس، لذا لجأنا أنا والسّنيور (P) إلى عزائنا المعتاد؛ التبغ، وتوجهنا إلى مدخل الخان عبر الباب المفتوح الذي كانت تهبّ منه نسمةً رقيقة لتجعل منه أرطب بقعة في البناء بأسره.

من الجليّ أن القسّ (M) المسكين كان يتفادى نسخة ثانية من التعذيب الذي تعرّضنا له في اليوم الماضي من قبل الحشرات المزعجة المذكورة سابقاً، وقد قرَّر ألاّ يعاني هذه المرّة، لذا ناصر معاقرة الخمر بقوة حتى خرَّ نائماً على الفور وراح يشخر بصوت عالٍ، غافلاً تماماً عن النتائج، حتى اقتراب المساء عندما صحا من نومه ووجهه ويداه موسومة بشكلٍ مرعبٍ بعلامات هجمات ذباب الرمل، فبدا كأنه يعاني من الحصبة.

في غضون ذلك الوقت، كنا أنا والسّنيور (P) ومصطفى نشاهد الكتل الضخمة من الإبل والخيول والأغنام والماعز... وغيرها تتموّج ببطء في طريقها إلى النهر لتشرب، يرافقها مئات البدو من الجنسين كليهما، وبينما كانت تتقدّم استطعنا رؤية معظم الرجال الذي كانوا يحملون دلاءً جلديةً صغيرة، ليحملوا فيها المياه من النهر؛ ذلك أن الضفاف كانت منحدرة جداً وصخرية لا نسمح للحيوانات - باستثناء الأغنام والماعز - بالوصول إلى حافة الماء، ولكن السكان قاموا ببناء سلسلة من الأحواض الكبيرة المصنوعة من اللبن أو الطين المجفف بالشمس ويبعد الواحد عن الآخر حوالي ثلاثمئة ياردة.

استدار بعض البدو حالما وصلوا إلى هذه الأحواض، بهدف ملئها بالماء، ووقفوا بخطّ منتظم تحت حافة النهر، وراحوا يمرّرون الدلاء من واحدٍ إلى آخر كما يفعل رجال الإطفاء في بلادنا، بينما كان آخرون يجاهدون بواسطة القضبان الطويلة والسياط في الحؤول دون ازدحام الأحواض أو حشر صغار الإبل والعجول والمهور حتى الموت، حيث كانت هناك أعداد هائلة منها في كل مراحل طفولتها، وكانت عُرضة لأن تحلّ بها الكوارث في ذاك الهجوم الجماعي على الماء.

تـمَّ اقتياد الخيول والأبقار التي يجـب أن تبقى بحذر بعيدة عن بعضها إلى أحواض خاصة بها وحدها فقط، ذلك أنها كانت مستقلة جداً في طعامها وشرابها أكثر من الإبل، وإلى جانب ذلك، تمتلك الجمال رائحة عرق قويّة وخاصة، وأكثر ما تظهر عندما تتجمع بأعداد كبيرة، وتلك الرائحة ليست مستساغة أبداً من قبل الخيول والأبقار ذوات الرائحة العطرة الفواحة، فتحجم هذه الحيوانات عن أن تشرب من إناءٍ كان يستخدم من قبل الإبل.

بما أنني ـ كالسّنيور (P) ـ منذ لحظة وصولي إلى شبه جزيرة العرب جعلت صفات الخيول العربية محور دراستي، وكوني مولعاً منذ الصغر بالخيول، فقد قدَّم تجمّع تلك الأعداد الهائلة من الحيوانات بحالتها شبه المتوحشة مجالاً جيداً للدراسة والبحث لي وللسّنيور (P) الذي كان يتوق إلى شراء عددٍ أكبر من الفحول، لذا ذهبنا إلى المكان الذي تشرب فيه الخيول ومررنا بها متفحّصين.

كما توقعنا تماماً، كانت جميعها أفراساً ترافقها صغارها، من المهرة المكافحة التي تبلغ أسبوعاً واحداً من العمر، إلى الفلو المشاغب اللعوب الذي يبلغ ثمانية عشر شهراً، قام شباب البدو باقتياد الفحول النامية جيداً إلى الماء في الأسفل بعد أن تراجع الآخرون...

كان هناك تنوع رائع بألوان تلك الخيول، تمثلت حسب أعدادها بالترتيب التالي: الرمادي الحديدي، الإردوازي أو الرّمادي الفاتح، الكستنائي، البني الداكن، المرقّط (الأبيض المنقّط بنقط سوداء أو بنية صغيرة)، الكُميت، الأبيض، الأسود والأصفر الشاحب (لون القشدة).

إن اللون الرّمادي الحديدي هو أكثر الألوان التي يمكن رؤيتها لدى الخيول العربية، بينما تكون الخيول السوداء قليلة جداً في جميع أنحاء البلاد، والجواد اللامع خاصة نادر الوجود - هذا إن وجد - وبما أن الخيول لا توضع أبداً داخل إصطبلات فهي نادراً ما تساس حسب الأصول، وتبقى طوال أيام السنة عرضة لأشعة الشمس التي تفقدها لمعان غطائها الطبيعي، الذي يمكن فقط أن يبقى لامعاً برّاقاً بالسياسة الجيدة والوضع داخل الإصطبلات.

ولا يزال الشيء الأكثر ندرة، وقد أسمّيه الأعجوبة، هو رؤية جواد عربي أصيل ذي لونٍ قشدي أو كما يسميه الفرنسيون (لون إيزابيل).

إنّ تلك الخيول ليست نادرة فحسب، وإنما غالباً ما تكون هذه التي يمكن أن نراها ذات دم مختلط أو من نسلٍ سيّءٍ يدعوها العرب باستهزاء (كديش)، حصان حملٍ عديم القيمة ومخصي، ويؤكّدون أنه من المستحيل تقريباً إيجاد حصان بهذا اللون من دمٍ عربيٍ أصيل.

خلال الأربعين سنة التي أقامها السّنيور (P) وسافر فيها عبر أنحاء شبه الجزيرة وبلاد الرافدين وسوريا ومصر وشمال أفريقيا، التقى فقط بجوادٍ واحدٍ من هذا النوع، وقام بشرائه لجلالة ملك إيطاليا ڤيكتور عمانوئيل، الذي يمتلك بالمناسبة أجود أنواع الخيول العربية في أوروبا بأسرها، وهو شغوفٌ جداً بالخيول؛ حيث يقال إنه يقضي وقتاً في إصطبلاته أكثر من الوقت الذي يقضيه في مجلسه الملكي.

إن معظم المسلمين والأتراك منهم على وجه الخصوص يؤمنون بالخرافات إلى حدٍ بعيدٍ فيما يخصّ اللون، والعلامات المميزة في الخيول، فإذا كان حصاناً ذا لونٍ داكنٍ ونجمةٍ بيضاء أو خط أبيض ضيق على جبهته، وله قدمٌ واحدة أو ثلاثة أقدام بيضاء[1]، يشترونه على الفور بثمنٍ أكبر من القيمة الحقيقية للخيل بكثير، وإنهم سيرفضون بعنادٍ كبيرٍ شراءه أو سيبقون على مسافة بعيدة من الخيل الداكن المجرّد من الشعر الأبيض على جبهته وأقدامه، أو الموسوم بالكثير من البياض على جبهته، مع أنف أبيض، وقدمين أو أربعة أقدام بيضاء أو بقعة بيضاء كبيرة أو أية بقعة غريبة أخرى في جزءٍ آخر من جسده؛ إذ إنهم يعتبرون تلك العلامات نُذر نحسٍ، ومن المؤكد أنها ستجرّ الهلاك إلى صاحب الخيل بطريقةٍ أو بأخرى.

بسبب هذا التحيّز كان ضابط شرطة الفرسان التركي في الحلّة بغاية السعادة والفرح، لبيعه إيّاي أجملَ جوادٍ فتيٍّ رأيته في حياتي - وقد امتطيته عند مغادرتنا بغداد

(1) العبارة المستخدمة لدى البدو لوصف القائمة التي تنتهي ببياض هي: محجّل، فيقال مثلاً في وصف الحصان: محجّل اليمين، مُطلق الثلاث.

- بمجرّد ثمنٍ زهيدٍ جداً، وذلك فقط لأنَّ الجواد كان يعاني من سوء الحظ، أو حسن الحظ بالنسبة لي، لولادته مع بقعةٍ من الشعر الأبيض بحجم يد سيده تقريباً على فخذه الأيسر، ولكن بسبب هذه البقعة لم يكن الحيوان يُشترى منه مقابل أيّ ثمنٍ كان.

لم يسبق لجوادٍ مشى على أربعة أطراف أن كان حصان صيدٍ أحسن أو أكثر براعة أو أكثر شجاعة من هذا الجواد.

بعد ذلك أصبح تعلّقي بهذا الحيوان المميز أشدّ، وإنه من بين جميع ذكريات إقامتي في بلاد الرافدين ستبقى تلك التي تخص فيليكس (Felix) الوفي - كما سمّيته - آخر ما يمحى من ذاكرتي.

من بعد شروق الشمس بقليل، حتى قبيل الغروب كانت الحيوانات كلها قطيعاً كبيراً واحداً من الخيول والإبل والأغنام والماعز، تتنقل واحداً تلو الآخر ذهاباً وإياباً قرب النهر دون توقّف، ولكن على الرغم من أنه خلال هذا الوقت مرَّ من أمامنا أكثر من ألفي حصان، فإنَّ السّنيور (P) لم يشترِ أي واحدٍ بعد، ذلك أنَّ الجزء الأعظم منها كانت حتى الآن أفراساً ومهوراً وفلاءً، وقد كانت لديه تعليمات صارمة بألاَّ يشتري سوى الفحول ذوات اللونين الأسود والكستنائي، وتلك التي كانت عند هؤلاء البدو لم تكن توازي الفحول التي اشتراها سابقاً.

مع أنَّ بدو شمّر مربيّ خيول على مستوً واسع، فإنهم ليسوا مشهورين بحيواناتهم كبدو العَنِزة أو المُنتفِق، ولكن في كافة أنحاء بلاد الرافدين تعتبر إبلهم هي الأفضل.

إن أغنامهم جميعها من السلالة العربية الأصيلة، وتسمى في بعض أنحاء العالم (الخروف ممتلئ الذيل أو عريض الذيل) وذلك بسبب التكوّن الغريب لأعضائه الذيلية، المؤلفة من مجرّد فقارة الظهر، محاطة بكتلة كبيرة استثنائية من الدّهن الاسفنجي الخالص، والتي يبلغ وزنها عند الخروف المعافى مكتمل النمو ما بين عشرة إلى عشرين رطلاً، يعطي هذا الذيل الثقيل للحيوان مظهراً محشوّاً طريفاً وأخرق خاصةً عند المشي أو الركض؛ حيث يتأرجح الذيل الثقيل المتدلّي بثقل إلى اليمين

واليسار، مثل كيس رملٍ معلّق من طرفه.

حتى عند الولادة تظهر عند الحملان الصغيرة كتلة كبيرة من الدهن في تلك المنطقة من جسمها، تكبر وتتزايد طرداً مع حجمها وعمرها، ولكن بشرط أن يكون الحيوان في صحةٍ جيدة.

يبدو أنَّ لهذه البنية الغريبة أثراً في جعل كامل دهن الجسم يتجمع في الأطراف الخلفية لحيوان، حيث تكون دائماً الرأس والرقبة والصدر عند هذا النوع من الخراف مجرّدة تقريباً من المادة الدهنية، ويبدو لحمها هبراً على نحوٍ غريبٍ مقارنة مع باقي أطراف الجسم.

لا يعطي دهن الذيل طعماً شحمياً أبداً عندما يُسلأ، بل يبدو طعمه إلى حدٍ ما كالزبدة الطازجة ويشكل بديلاً رئيسياً عنها. بسبب هذا التوزيع غير المتساوي للدهن في جسم الخروف فإنَّ لحمه دون لحم الضأن في بلادنا، ولكنه لذيذٌ جداً.

إنَّ الخراف الموجودة في شبه الجزيرة وبلاد الرافدين وسوريا ومصر وشمال فارس وكردستان من هذه السلالة، ويمكن أن توجد في الصين والهند وجنوب وشمال أفريقيا، وفي هذه البلدان الأخيرة يربط الرّعاة إلى الجهة الخلفية من جسم الخراف التي تمتلك ذيلاً ثقيلاً جداً عربة صغيرة أو لوحاً خشبياً، ويضعون فوقه العضو الذيلي بهدف الحؤول دون جرّه على الأرض.

يكون الخروف ذو الذيل السمين أصغر وأضعف بنيةً من خرافنا، وله أذنان أطول وأعرض، وعادةً يكون صوفه أقصر وأنعم من صوف خرافنا عندما تكون في مرحلة النمو نفسها.

بينما تكون المعزاة العربية أطول وأهزل بنيةً من معزاتنا، ولها أيضاً أذنان أطول وأعرض، وتمتلك شعراً يبلغ طوله ما بين أربعة إلى أربعة عشر إنشاً، يتم تصدير جزء من الشعر، والجزء الآخر يستخدم من قبل النساء المحليات في صناعة الخيام والثياب وعذر الدواب والسجاد والحبال... الخ.

تعطي الماعز والخراف العربية حليباً أقل من تلك الأوروبية، وهي ذات نوعيةٍ أدنى.

مع اقتراب المغيب عادت الأرض المقابلة للخان الكبير والتي كانت قبل وقتٍ قصيرٍ فقط تعجّ بالناس والحيوانات، عادت إلى هدوئها السابق، ومظهرها الصافي الذي استمالنا إلى التمتع برفاهية الاستحمام بالمياه المنعشة الشفافة لنهر ديالى.

بعد ساعتين من الغروب كانت قافلتنا من جديد بقوةٍ ونشاطٍ في طريقها إلى قرا تِبه[1] Karatepi، وهي قرية تبعد حوالي اثنين وثلاثين ميلاً باتجاه الشمال عن (دِلّي عباس).

علا القمر فوق الأفق ببهاء صامت، ليلقي بضوئه على رمال السّهل الناعمة بشكلٍ فعالٍ جداً، حتى إننا استطعنا بسهولة من مسافة اثني عشر ميلاً تقريباً أن نميّز معالم جبل نارين، وهو جزء من جبل حمرين الأكثر ارتفاعاً، وهي سلسلة جبلية طويلة ومنخفضة، تقطع السهل الواسع الممتد بين دجلة وديالى، من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي.

بسبب الحالة المفرطة في القحط للمنطقة التي كنا نسافِر عبرها، كانت غير مسكونة على الإطلاق، إلاّ بالغزلان التي رأينا منها أعداداً في تلك المنطقة أكثر من أية منطقة أخرى منذ أن غادرنا بغداد، ورغم أنَّ الأرض الناعمة والمستوية بشكلٍ جميلٍ كانت تجتذبنا لقيام بمطاردة آنذاك، فإننا لم نحسب قيامنا بفعلٍ كهذا صائباً، حيث إن خيولنا كانت بحاجة لكامل قوّتها لمتابعة الرحلة الطويلة.

كانت المنطقة الواقعة بين دلّي عباس وكفري ـ بلدة صغيرة تقع شمال قرا تِبه (Karatepi) ـ سيئة السمعة بسبب قلة الأمان فيها، وأن سكانها دون استثناء تقريباً كانوا لصوصاً محترفين، وقطاع طرق، وسلاّبين يعيشون على عائدات أعمالهم غير الشرعية.

---

(1) التسمية باللغة التركيّة وصوابها هكذا: Kara Tepe ومعناها: التلّ الأسود.

قبل بضع سنوات، كان هذا القسم من البلاد غير آمنٍ على الإطلاق بالنسبة للمسافرين، حتى إنَّه لم يكن أحدٌ يتجرأ على أن يسلك هذه الطريق باستثناء (بوسطة الحكومة التركية البرّية) محميةً بحرّاسٍ أقوياء جداً من جنود الفرسان، وحتى الآن إذا لم يكن ساعي البريد مزوّداً بحماية كافية فإنه سيتعرّض بين الحين والآخر للهجوم والنهب، وغالباً ما يُقتل المسافرون المنفردون أو الشاردون عن قوافلهم.

لكي يضع حدّاً لتلك الجرائم ويشجع المسافرين على ارتياد البوسطة الإمبراطورية، أصدر السلطان فرماناً ينصّ على أن يكون محافظ المنطقة المعنيّة مسؤولاً عن كل خسارة بالأرواح والممتلكات يعاني منها المسافرون الذين تعرّضوا للهجوم والسرقة داخل نطاق الإمبراطورية[1] العثمانية بينما كانوا تحت حماية الحرّاس الحكوميين، في المقابل جعل المحافظ سكان البلدة أو القرية الأقرب إلى مكان ارتكاب السرقة مسؤولين عن تسليم المجرمين فوراً إلى السلطات ليتقدموا للعقاب، وإلاَّ فإنهم سيدفعون التعويض الكامل للمتضرّرين من السرقة، بما في ذلك نفقات الحكومة التي تُدفع بشكل أموال أو محاصيل ومصنوعات أو اشياء إضافية لإمداد الجيش.

وكما هو متوقع؛ فبالرغم من أنَّ هذا القانون ذو طابع استبداديٌّ بحدِّ ذاته، إلاَّ أنَّه سرعان ما أثبت أنه فعّالٌ إلى حدٍّ رائعٍ، وجديرٌ بأن ينسب إلى الرجل الذي ابتكر دماغه قانوناً كهذا بغضّ النظر عمّن يكون.

أصبح السّفر رائجاً جداً إمّا بواسطة البوسطة الإمبراطورية - إذا كان بأعدادٍ قليلة - أو ضمن قوافل كبيرة، وبعد أن كانت السرقات وجرائم القتل متكرّرة الحدوث حتى وقتٍ قريب، أصبحت فجأة وبشكلٍ خارق للعادة نادرة الحدوث في العديد من مناطق الإمبراطورية العثمانية، ولكن مع أنَّ القانون حدَّ من قطع الطرق على نحوٍ عظيم في مناطق شمال بغداد، فإنَّه لم ينجح في جعل السفر في تلك المناطق آمناً مئةً بالمئة، وسبب ذلك هو محاذاة هذه المناطق للحدود الفارسية؛ ثلاثون ميلاً من قرا تِپه Karatepi وخمسة وعشرون ميلاً من (كفري) حيث تنتهي صلاحية السلطة العثمانية بالطبع.

(1) كذا بالأصل، والصحيح: السلطنة العثمانيّة.

يقطن جانبي الخط الحدودي سكان متوحشون ومتعصّبون وسلاّبون، من أصلٍ نصفه تركماني والنصف الآخر فارسي.

يمتطي الرجال عادةً - وهم عبارة عن مجموعة من النَّوَر القذرين المتثاقلين والمتوحشين - خيولاً جيدة، وعلى ما يبدو كانوا منظمين جيداً ومدرّبين بشدّة على حرفتهم القذرة، يقلبون وجهتهم باستمرار ليطاردوا الرّعية العثمانيين داخل الأراضي الفارسية والفرس داخل نطاق الدولة العثمانية، فيرتكبون سرقاتهم وأحياناً جرائم القتل ايضاً. بعد اقترافهم لهذا النوع من الجرائم مباشرةً ينسحبون عبر الحدود بسرعة شديدة إلى بلدهم الأصلي، وبهذه الطريقة يصبح من شبه المستحيل الإمساك بهم وتقديمهم إلى العدالة.

كانت كل جرائم قطع الطرق المرتكبة في ذاك القسم من الإمبراطورية العثمانية تقريباً، وبعد تطبيق القانون المذكور سابقاً، ترتكب من قبل (متوحّشي الحدود الفرس) هؤلاء. بما أننا كنا مدركين جيداً لقلّة الأمان في هذا الطريق؛ قرّرنا إبقاء مراقبة شديدة طوال الليل، وبقينا نسير على شكل مجموعة ملتصقة ببعضها، ولا نسمح لأحد بالتباطؤ والتسكّع خلفنا.

عند منتصف الليل وصلنا إلى سفح جبل نارين - وهو سلسلة قاحلة من التلال - حملَنَا مسارُنا إلى العبور فوقها.

نظراً لضوء القمر الصافي والجميل في تلك الليلة، اجتزنا هذا المسار بسهولة نسبية، ولكن على الرغم من أنَّ الجانب الشمالي من الهضبة كان وعراً جداً ومنحدراً، فإنَّه لم يكن كافياً للتغلّب على النعاس الذي كان يعذّبنا ليلةً تلو الأخرى، وخاصةً في الوقت ما بين الواحدة إلى الثالثة صباحاً، حيث كنا دائماً نعاني بشدّة من الوسن والعيون الملتهبة.

بغض النظر عن تقلقل الطريق، وخطر سقوطنا عن صهوة خيولنا، فإن أعنف جهودنا لإبقاء أعيننا مفتوحة أثبتت خيبتها أخيراً: التحدث، الغناء، التدخين، استنشاق السعوط،

شـرب العرق ـ نوع قوي من البـراندي يسـتقطر من البلح، يشـبه بطعمه الإفسـتين إلى حدٍّ ما، وكذلك يكتسـب لوناً كالحليب عندما يتم تخفيفه بالماء ـ مضغ البارود، غسل الجبهة والصّدغ بالعرق، العض على شفاهنا، وقرص آذاننا حتى نخرج الدم، كل ذلك كان عديم الفائدة، فقد كانت الطبيعة مصرّة على الحصول على حقّها، وكانت عيوننا تنغلق بالرغم من مقاومتنا اليائسة.

في النهاية فقد الأب (M) توازنه وسقط من فوق حصانه، متسبباً برضّ ذراعه وكتفه الأيمن على نحوٍ خطيرٍ، وبعد نصف ساعةٍ أخرى، فقدت بَحري (Bahri) المسكينة توازنها عندما غفت على ظهر حمارها وتدحرجت إلى أسفل سدٍّ صغيرٍ، ولحسن الحظ لم تتسبب بالأذى الكبير لنفسها.

إن الإثارة الناجمة عن هذين الحادثين استنهضتنا من أنفسنا بعض الشيء، وأعطتنا قوة للبقاء مستيقظين بقية تلك الليلة، ولكنني لن أنسى أبداً العذاب الذي مررنا به في محاولاتنا لإبقاء أعيننا الملتهبة والمحمّرة بالدّم مفتوحة.

مع أنَّ القمر كان يشعّ بتألّق، فإنَّ نظرنا المرهق جعلنا نشعر أننا نسافر عبر الظلمة المصرية، التي لم تكن لتسمح لنا برؤية ملامح بعضنا بوضوح حتى على مقربة ثلاث ياردات، وغالباً ما تسببت لنا بجرّ رؤوس خيولنا إلى دنوّ خطير من مؤخرات الخيول التي تتقدمنا.

لحسن الحظ، لم تبدُ المعاناة على حيواناتنا مثلما بدت على أسيادها الذين تنازلوا بحكمة عن لجاماتهم ليتركوا خيولهم تختار مسارها بأنفسها، وكان هذا ما فعلته الخيول بحصافةٍ رائعة، فلم تنحرف أبداً عن المسار الصحيح، وراحت تتبع بهدوء على طريقة الطابور الهندي الفحول التي يقودها العرب الذين كانوا ينامون في كل محطة كونهم معتادين على الذباب والبراغيث، ولم يشعروا بأيٍّ من العذاب الذي مررنا به.

بالإضافة إلى ضجةٍ رنّانةٍ صامّةٍ في أذني وكأنها ناجمة عن آلاف الأجراس الصغيرة، كانت تراودني باستمرار رؤىً مرعبة، كقصرٍ ضخمٍ مثلاً، ذي بناء عظيم ومضاء بآلاف

الأضـواء يظهـر فجأةً أمامـي، ولزيادة دهشـتي، قبل أن أتمكن من شـدّ اللجام يمشـي حصاني مباشـرةً عبر جدرانه الضخمة، دون أدنى صعوبة، فقط ليحملني بعد ذلك إلى مقابـل حائطٍ حجري هائل كنا نطلق نحوه بسـرعة كبيرة، حتى إني كنت متأكداً من أن حصاني سـيصطدم به في الدقيقة المقبلة، ولكي أنقذ حياتي، كنت على وشـك أن أقفز من فوق السـرج، لأترك جوادي العنيد يذهب وحده، ولكن ياللعجب!

انزلقنا عبر قطع الغرانيت الضخمة دون أن نلامس أي شـيءٍ، رحنا نعدو إلى الأمام عندما فجأةً أصبحت الأرض طرية أكثر فأكثر.

في ذلك الحين، كان جوادي المسكين غارقاً حتى صدره بالطين، ولا زال مسرعاً في مسيره خشيةً من آلاف ضفادع الطين التي تسبب البثور، والعظاءات المروّعة والأفاعي المرعبة، والخفافيش التي كانت تهرب بسرعة إلى اليمين واليسار بينما كنّا نتقدّم.

لقـد غـرق جـوادي حتـى رقبتـه، ولا زال يدفع بشـهامة عبـر الوحل، يثـره في كل الاتجاهات، ويقوم بمحاولات جبارة لتخليص نفسه، ولكن سرعان ما اختفى الحيوان المسـكين كلّياً عن السـطح، ثم أصبح كتفاي مغمورين، ثم فمي... . صرخة يأس... . وأخيـراً... . رحلت! لنقل ذلك، مشـيت تحـت الأرض لبعض الوقـت، وتعرّق الألـم والمعانـاة يتدفّـق من وجهي، إلى أن شـعرت فجأة بـأنَّ عفريتاً ما قد أمسـك بي وقطع ذراعي من الخلف، وتماماً لمّا كنت على وشك أن أرديه بمسدسي أعادتني إلى الواقع الصيحـة المألوفـة «*qu'est-ce qu'il y a?*» (مـا الأمر؟)، إنها صيحة السّـنور (P) الـذي اجتذبتـه صرختي، لأشـعر بعدهـا بالراحة التامـة. ولكن لم تكـد ينقضي نصـف سـاعةٍ أخـرى حتى كنت أسـافر مرّة أخرى وحيداً فـي منطقة غريبةٍ مـا، حيـث وجدت نفسـي فجـأةً داخل حرشٍ مغلق صعـب الاختراق من الصَّـبار الضخـم ونباتات أخرى مزيّنة بالشـوك الذي يبلغ طوله قدمين، زحفت من فجواتها عناكب مرعبة تزن خمسـين رطـلاً علـى الأقل، ويرقات مغطاة بالشـعر يزيد طولها على عشـرة أقـدام، وغيرها من الحشـرات الصغيرة السـاحرة الأخرى ذات الأحجام المتسـاوية، تحدّق نحوي بعيونٍ خضراء شريرة، لكنها لا تجرؤ على الاقتراب مني.

مشى حصاني ببطء عبر تلك النباتات الشائكة وكأنه يمشي عبر حقل برسيم، وتابعنا رحلتنا دون أن نصاب بأذىً حتى وصلنا إلى مرجٍ أخضر حيث كنّا محاطين بآلاف الأقزام الحُدب ذوي وجوهٍ بشعة وعيونٍ خبيثة صاحوا فرحين باقترابي، يكشّرون ويقفزون في الهواء ويقومون بسلسلة من الشقلبات البهلوانية، ويصفّرون ويحدثون أصواتاً كالمجانين.

لم يكتفوا بذلك فقط؛ بل أمسكوا أيضاً بذيل حصاني المسكين وحاولوا إيقافه حتى فقدت صوابي، استجابةً لحثّي ونخسي اندفع مسرعاً بالرغم من مظهره المحزن نصف الميت من الجوع، وأطرافه المتورّمة، وكانت النتيجة هائلة، فقد ارتفع عشرون قزماً من هؤلاء الأنذال الحُدب، يطيرون في الهواء كأنّهم كانوا يجلسون على كرة متفجّرة من البارود.

أما الأقزام الآخرون فقد فقدوا صوابهم أيضاً، وراحوا يصرخون: «أوقفوه، أوقفوه»... وهاجموني من كل الجهات بالعصيّ والحجارة، إلاّ أنني مثل دون كيخوته Don Quixote زدت من همزي لروثيناتِه Rocinante، فاندفع عبر الحشد وكان يفرّ من العفاريت الأشرار الذين يطاردونه بعنف، وعندها يا لرحمة السماء! فجأة وجدت نفسي على شفير هاوية عميقةٍ جداً وشديدة الانحدار تبلغ عدة مئات من الأقدام في العمق، مع سيلٍ هادرٍ في القاع. سحبتُ لجامي بقوةٍ عظيمة لمحاولة إيقاف حصاني، لكنَّ الأوان قد فات.

نزولاً ونزولاً إلى الأسفل، صُوِّر لي أنّي وحصاني قد سقطنا في الهاوية، وبمعاناةٍ مروّعة أغلقت عينيَّ متوقعاً في كلّ لحظة أن أتحطّم وأتحوّل إلى ذرّات صغيرة.

بعد قليل كنت متفاجئاً جداً لبقائي على قيد الحياة، فتجرّأت وفتحت عيني، فقط لأرى السيل الهائج مرّة أخرى لا يزال تحتي بمئات الأقدام في قاع الجرف، وبدلاً من أن يكون حصاني ممدوداً في الأسفل فوق الصخور أو في الدوامة المزبدة، كان يمشي في الهواء بفتور ويحملني بأمان إلى الجهة المقابلة من الهاوية، الشيء الذي أبهجني كثيراً، وكانت همزاتي لا إرادياً تلتصق بأطراف جوادي الحقيقي، مما أدّى به إلى القيام

باندفاعة متهوّرة نحو جواد السّنيور (P) حتى كاد يرميه من فوق سرجه.

إنَّ هـؤلاء الذين راودهم ولو لمرّة واحدة كابوس مزعج وهم نائمون في أسـرّتهم، ويعرفون الشعور المروّع الذي يسببه هذا النوع من الكوابيس، يستطيعون تخيّل كم هو مريعٌ أكثر عندما يتعرّض له المرء وهو مسافرٌ عبر الصّحراء على صهوة جواده، وعيونه مفتوحة طبعاً إلاَّ أنها ملتهبة وحمراء كالدم متألّمة بشدة وشبه عمياء وذلك فقط بسبب الحاجة إلى النوم.

برأيـي الشـخصي إنهـا المعانـاة الأعظم التـي يمكن لرجـلٍ بكامل قواه الجســدية والعقليـة أن يتعرَّض لها.

كان هذا الأسـلوب من التعذيـب معتمداً عليه كواحد من آخر الوسـائل التي يتّبعها المعذّبون الأقوياء في مكتب محكمة التفتيش الإسبانيـة لدفع السـجين إلى الاعتراف.

يُحـرم المنكـوب العنيد مـن النوم من قبـل مُعذبين محترفين تقتضـي مهمتهم بمنع هذا الشخص البائـس الموضوع تحت رعايتهم من أن يفقد حس المعاناة وذلك بكافة الوسـائل الممكنة، يقومون بمســاعدة بعضهم واحداً تلو الآخر بانتظام، حتى يصبح أخيراً النعاس شديداً جداً، فيكونون مضطرين للّجوء إلى أفظع الوسـائل، كوخز أسفل القدم، الثقب بالإبرة، اقتلاع أظافر الضحية، والحرق بالحديد السـاخن، حتى يقوم المسكين البائـس بكامـل اليأس والقنوط بـالإدلاء بالاعتراف المطلـوب، أو أن يتم الإفراج عنه بالمـوت، أو يصـاب باختلالٍ عقلي لا يمكـن معالجته إلى الأبد. رغـم أني لـم أتمكن أبداً من النوم منذ مدّة أربعة أيامٍ بلياليها، ولنقل مئة ساعة تقريباً، إلاَّ أنني بالنتيجة كنت أعاني من الآلام المذكورة للتوّ، ولا أعتقد أن هناك مخلوقاً بشرياً يستطيع العيش بعقلٍ وجسـدٍ سـليمين وقويين خلال اسـتجوابٍ بالتعذيب بالبقاء لمدة مئتي ساعة متواصلة دون نومٍ على الإطلاق.

لـم نكـن أنـا والأب (M) وبَحـري (Bahri) الوحيديـن في القافلـة الذين خضعوا لذلك التعذيب المذكور؛ فالسّـنيور (P) نفســه الرحالة العجوز وصاحب الخبرة، كان

يعانـي بشـدّة من المسـألة ذاتها، وأكثر من مـرّة أثناء الرحلة في تلـك الليلة كان يصرخ فجأةً آمراً القافلة بالتوقف، خوفاً علينا من السـقوط في أنهار ومسـتنقعات ومنحدرات عالية وهمية.

مع اقتراب انبلاج الفجر تلاشـى ذلك النعاس الرهيب، غير أننا لم نشعر بالانشراح إلاّ عندما أبصرنا غابةً صغيرةً مغدودنة بالنباتات الخضراء الداكنة وخلفها مباشـرةً تقع بلدة قرا تِپه Karatepi الصغيرة مسـتكنة بشكلٍ محجوب عن الأنظار، وقد وصلنا إلى هناك مباشرةً بعد شروق الشمس.

أحدث ظهور قافلتنا حماسـاً كبيراً بين السـكان الذين هجموا إلى الخارج لملاقاتنا وهـم محمّلون بالحليـب والبيض والدجاج وكل ما اسـتطاعوا حمـل عينات منه، من مواردهـم الضئيلة من الطعام النباتـي والحيواني، آملين بذلك إقناعنا بالشـراء، إلاّ أننا كنـا مرهقين جـداً أكثر من أن نلاحظهـم، وبلهفةٍ للحصول على الراحـة والنوم مضينا إلى الأمام عبر حشد السكان القذرين ورمدي الأعين، مباشرةً إلى الخان الذي وجدناه لحسن حظنا غير مشغولاً.

كان هـذا الخان ـ على الرغم من أن البنـاء بدائيٌ جداً ـ مريحاً أكثر من أي خانٍ آخر نزلنـا بـه منذ رحيلنـا من بغداد. وهو عبارةٌ عـن بناءٍ مربعٍ كبيرٍ مبنـي بالطوب المجفف بالشمس، لكنّ جدرانه كانت عالية جداً أكثر من المعتاد، لتلقي بظلها فوق باحة المبنى بالكامل، وبذلك تعطي أكثر ظلاً مسـتحباً ومنعشـاً على الإطلاق، وهناك بعد أن ربطنا خيولنا وتناولنا فطوراً اقتصادياً، استمتعنا بنومٍ هنيءٍ حتى وقتٍ متأخرٍ من المساء.

أصبحنـا الآن للمـرّة الأولى ندرك أننا نترك العرب وراءنا شـيئاً فشـيئاً، وندخل إلى إقليمٍ جديدٍ يسـكنه التركمان والأكراد والفرس.

تعدّ قرا تِپه Karatepi نموذجاً حقيقياً عن مدينة متاخمة لحدود العرب؛ فقد اختفى العنصـر العربي تقريباً، وأصبح السـكان خليطـاً طريفاً من العـرب والأتراك والفرس، واللغة العربية لا تـستخدم إلا قليلاً، وتستخدم التركية بشكل عام في المحادثات، نتيجة

السهولة الأكبر التي يتعلمها بها الفرس.

تكاد لا توجد طريقة تقليدية مشتركة في أسلوب حياة السكان، ولكنهم في الواقع ليسوا إلاَّ أشخاصاً سيئين وخارجين عن القانون من بلدان متاخمة لبعضها.

إنَّ المنطقة قاحلة جداً ومقفرة، حتى إنَّ الزراعة أو تربية المواشي لم تكن تمارَس إلا ضمن نطاق محدود جداً، لم يسمح مصطفى الذي بقي يحرس بوابة الخان لأيٍّ من السكان بدخول المبنى، ذلك أنه كان على معرفةٍ جيدة بسمعتهم السيئة.

في وقت الأصيل، توجّهت أنا والسّيور (P) إلى مدخل الفناء وكنا نستمتع بغلايينا وقهوتنا المعتادة، عندما لفت انتباهنا فجأة فارسٌ قادمٌ نحونا بسرعة متهورة، عند اقترابه أكثر أثبت أنه شخصٌ جديرٌ بملاحظتنا؛ إذ إنه لم يسبق لي أن رأيت مثالاً أحسن عن الفارس الآسيوي، ولا حصاناً متناغماً أكثر مع راكبه الشاب الطويل والوسيم، ذي جلسةٍ بارزة جعلته يبدو شبه منفصل عن الحيوان الأصيل الذي يركبه.

بذلك الزي التركماني التصويري الزاهي المطرّز بكثافة والذي يخفق حوله بشكلٍ جميلٍ، بدا لي إلى حدٍّ بعيد بطلاً من قصةٍ رومانتيكية، يذكرني بريناالدو رينالديني Rinaldo Rinaldini أو سارة Sara أكثر من أي شخصٍ آخر رأيته في حياتي.

حينما مرَّ قدّم لنا ثلاث سلامات بأعظم طريقة أرستقراطية وشرقية مستحسنة، أمّا مصطفى الذي تفحّصه جيداً عن قرب، فقد شرح لنا أنَّ هذا الشخص هو أحد أبرز وأكثر القادة جسارة لجماعات قطاع الطرق الذين يغزون هذا الجزء من البلاد، وبسبب موقعها المناسب قرب الحدود الفارسية فقد اتخذوا من قرا تِپه Karatepi مركز قيادتهم الرئيسي.

مرّة أخرى سمعنا وقع أقدام الدابة، وعاد صديقنا المثير للصورة الذهنية نحونا بالانطلاقة السريعة نفسها التي مرّ بها قبل قليل، وقد أبقى عليها حتى كاد يدهسنا، عندها أوقف جواده فجأةً، وترجّل برشاقة وسلّم علينا ثانيةً، ثم وقف أمامنا كأفضل نموذجٍ عن قاطع طريق تصويري يمكن رؤيته على الإطلاق.

استهلّ محادثة قوية مع مصطفى باللغة التركية، وبطريقة غير محرجة أو مرتبكة نهائياً، وقال إنه عندما سمع برغبتنا في شراء فحلٍ عربي أسود أصيل جاء ليعرض علينا خدماته، ويظن أنه يستطيع أن يرينا ما نريد تماماً إن رافقناه إلى قرية تبعد بضعة أميالٍ فقط.

آنذاك بدت لنا أنها حالة مثيرة للريبة إلى حدٍّ ما؛ إذ إننا ومنذ أن غادرنا دِلّي عباس لم نأتِ على ذكر نوايانا ورغباتنا أبداً، لذا لا بدّ أن يكون قد تلقّى الأخبار من هناك بطريقة خاصةٍ ما، ودون شك قد سمع في الوقت نفسه رواية مبالغاً فيها عن ثرائنا واعتمادنا المالي من الذهب التركي.

وبناءً على ذلك، لو كنّا أمِنّا على أنفسنا مع صديقنا هذا لنرى الحصان المطلوب، لكان هناك احتمالٌ ضئيلٌ فقط في عودتنا سالمين، وبكياسة مسلم حقيقي طلب إليه السّنيور (P) أن يجلس وقدّم له غليوناً، ثم أخبره بالعربية التي يتحدّثها زائرنا بسهولة تامة أنه كان يأسف لعدم استطاعته أن يترك القافلة على الرغم من أنه متشوّقاً إلى شراء فحلٍ أسودَ ممتاز، ومع ذلك باعتبار أنَّ القرية كانت على مسافة قصيرة فقط، فباستطاعته إعطاء أوامر لأحدٍ ما في الذهاب وإحضار الحيوان، ويمكنه - أي الغريب - التأكد من أنّه سيحصل على ثمنٍ جيّدٍ إذا ثبت أنه الجواد الذي نرغب في شرائه.

على الرغم من أنَّ السيد قد بذل جهداً خاصاً في إخفاء خيبته، فقد بدا جلياً أن ذلك قد سبّب له الإحباط، وبعد أن سأل عدّة أسئلة عن مسارنا المقصود وغير ذلك استأذن بالانصراف واعداً أنه سيحضر الجواد قبل الغروب.

عند الغروب اقترب من الخان رجلان على حصانيهما المتعبين، بدا واضحاً أنهما عربيان يحملان معدّات السفر، ومن الواضح أيضاً أنهما قضيا عدة أيّام في رحلتهما، وطلبا الدخول الذي لم نستطع منعهما منه كونه نزلاً عاماً.

لقد كانا مسلّحين جيداً، ولهما هيئة (الظابطيّة) - وهم رجال يمتطون الخيول مهمتهم حماية قوافل الخيول والمسافرين، تماماً كما هي مهمة العُقيل Aghels في

حماية قوافل الجمال. قالا إنهما من بغداد ومتجهان نحو كركوك، وعند سماعهما من جماعتنا أننا عازمون على التحرّك في تلك الليلة وفي اتجاههما نفسه استأذنا السفر بصحبتنا، وعندما لم نبدِ اعتراضاً على ذلك ربطا حصانهما واختلطا بحرّية مع جماعتنا.

لقد أعجبا بشدّة بالمسدسين اللذين أخرجناهما أنا والسّنيور (P) من أحزمتنا ووضعناهما أمامنا من أجل أن نرتاح، وسألوا إذا كان بإمكانهما إلقاء نظرة عليهما، فتفحصاهما بدقةٍ شديدة وعبّرا عن دهشتهما بأسلوب شرقي، وعن مدى التفوّق الكبير للأسلحة النارية الأوروبية على أسلحتهم. في النهاية رغبا بشرائهما، وأبرزا مجموعة قيمة جداً من الخواتم والحلي الأخرى، وعرضا جزءاً منها مقابل المسدسين.

إن الجواهر بحدّ ذاتها كانت من أثمن الأنواع، لكننا لم نشعر بأننا منجذبون إلى ترك وسيلتنا الأساسية في الدفاع عن أنفسنا في ذاك الجزء المنعزل من البلاد.

وكما اكتشفنا بعد ذلك، كان لحسن الحظ أننا لم نفعل، أمّا في هذا الوقت فلم تراودنا أية شكوكٍ حول أي شيءٍ مريبٍ؛ إذ لطالما كنا نرى في أسواق بغداد التهافت الذي يتجمّع به البدو وسكان غرب آسيا الآخرين حول الأسلحة الأوروبية وكيفية إبداء إعجابهم بها.

تلك الاثناء كانت الشمس قد غربت، وأصبح الطقس معتدلاً كفايةً للسفر. كنا نجهّز لمتابعة رحلتنا عندما ظهر رجلٌ عربيٌّ رثّ على حصانٍ أسودَ وثابٍ قال إنه قد أحضره حسب التعليمات.

عند المعاينة ثبت أنَّ الجواد كان أدنى بكثير من طلب السّنيور (P) وأنَّ حصاناً كهذا لم يكن مناسباً لغايته.

لقد عانى جوادي الفتي بشدّة اثناء الرحلة، لذا سأكون بغاية السعادة إذا اشتريت فحلاً عربياً لركوبي الخاص، لكنه طلب به ثمناً باهظاً جداً، فكنت بعد نصف ساعة

تقريباً من المساومة مسروراً بجعله ينصرف، وأرضيت نفسي بجوادي الخاص.

أخرّتنا تلك المحادثة المطوَّلة، حتى إننا لم نتحرّك إلى كفري[1] Kaffri إلاّ قبل ساعةٍ واحدةٍ من منتصف الليل.

* * *

كان الجزء الأول من الليل مظلماً جداً، وتوجّب علينا المسير بحذر للبقاء على المسار الأيمن، علاوةً على ذلك كان الطريق وعراً وغير مستوٍ ويقطعه العديد من الترع الجافة، ولكنَّ نومنا الطويل جعلنا أقوياء ونشيطين وكنّا جميعاً في همم عالية. بعد منتصف الليل بقليل، سطع القمر ليمنحنا الفائدة من ضوئه، والطريق أيضاً أصبح ممهّداً ومتموجاً قليلاً مع صعود تدريجي.

حتى ذلك الحين كان العربيان الغريبان يسيران بهدوءٍ وسلامٍ كفيلين بإخماد أيّة شكوك إذا كان أي منها قد تحرّك أصلاً.

ومع اقتراب الفجر، وبينما كنت أتقدّم القافلة بمسافة خمسين ياردةً تقريباً، أدركتُ بواسطة الضوء الباهت نصفه ضوء النهار ونصفه ضوء القمر عدة أجسام داكنة تتنقّل بين نبات الخلنج الموجود بقلّة على مسافة قريبة من جهتنا اليمنى.

في بداية الأمر حسبت أنهم غزلان، ولكن عند اقترابي أكثر رأيت أنهم كانوا أكبر بكثير، وعند الاقتراب أكثر وأكثر اكتشفت أنهم كانوا قطيعاً من الخنازير البرية المنتشرة بكثرة في هذه المنطقة. أبلغت السّنيور (P) باكتشافي على الفور، وعرضت عليه أن نذهب في مطاردتهم، ونحصل على طعام شهيٍّ لفطورنا. عمل السّنيور (P) على إثنائي عن هذه المغامرة مذكّراً إياي بالحالة غير المستقرّة لهذه المنطقة، إلاّ أنني بدلاً من أن آخذ نصيحته الحكيمة بعين الاعتبار بقيتُ على عنادي، إنها نقطة ضعفٍ لطالما أودت بي إلى المصائب من قبل.

---

(1) بلدة تتبع لمدينة كركوك، تقع في الجنوب الشرقي من طوز خورماتو، على بعد حوالي 50 كيلومتراً منها.

شجعني على ذلك أيضاً الأب (M) الذي كان يتوق إلى شريحةٍ من لحم الخنزير المشوي، شريطة أن يحصل عليها دون أي جهدٍ مبذولٍ من قبله، وتبسّم العريان الغريبان بشكل ذكيٍّ متعمّد، وكأنهما يقصدان التلميح إلى أنني غير قادر على اصطياد خنزير بري، فنخزتني تلك الإهانة الكاذبة بشدة، لذا انتزعت بندقيتي، وهمزت حصاني ورحت أطارد الخنازير التي حالما اكتشفت نيّتي اندفعت هاربة إلى أكثر الأماكن وعورة وخطورة في المنطقة، مع ذلك حملني جوادي الفتي والقوي على الفور إلى مقربة خمسين ياردة منهم، عندها أطلقت نحو أكبرهم من السَّبَطانة اليمنى التي كانت ملقّمة برصاصة[1]، ولكن نتيجة الأرض الوعرة، والسرعة الهائلة التي كان يحملني بها جوادي، أخطأت هدفي، إلاّ أنني كنت أكثر حظاً في السَّبطانة الأخرى المحشوّة بطلقةٍ كبيرة سدّدتها إلى خنزير راح يتدحرج ويتدحرج، لكنه سرعان ما استعاد مسيره وهرب، مع ذلك لم يتمكن من مجاراة بقية القطيع، وقد أصررت على الإمساك به.

لسوء الحظ لم يعد لديَّ المزيد من الذخيرة، وبطريقة أو بأخرى لم أتمكن من سحب مسدّسي من القراب، إلاّ أنني كنت عازماً على عدم السماح لزبوني الأهلب بالإفلات مني، ففكرت بسكّين الصيد الطويلة التي أحملها في جزمتي اليمنى، والتي يمكنني بواسطتها قتل ذاك الخنزير البري بسهولة، إذا استطعت أولاً أن أدوّخه بضربةٍ من عقب بندقيتي.

هممت بتحويل الأفكار إلى أفعال ناسياً تماماً بسبب حماسة المطاردة أنَّ بندقيتي قد تتحطم إلى شظايا فوق الجمجمة القوية الضخمة للخنزير العجوز، ولوّحت بها بعتوٍّ فوق رأسي، حاملاً وزن جسدي بالكامل تقريباً فوق ركابي الأيمن، وكنت تماماً على وشك أن أسقط بندقيتي بقوةٍ هائلة فوق جمجمة الخنزير، عندما سمعت صوت انقطاع حزام السرج وشعرت بنفسي أنزلق.. توهمتُ أنني سمعت دويّ سلاحٍ ناري،

(1) كان من الشائع في بعض بنادق الصّيد مزدوجة السّبطانة (الجفت) أن تكون إحداها محلزنة معدّة لإطلاق الرّصاص، والأخرى ملساء لإطلاق نثار الخردق. كما أنّ هناك بالنسبة للسّبطانات الملساء طلقات ذات رصاصة واحدة ثخينة معدّة لصيد الحيوانات الكبيرة كالخنازير، وأول من ابتدعها شركة Brenneke الألمانيّة الشهيرة.

ثم غبت عن الوعي.

عندما استعدت وعيي وجدت نفسي أنزف بغزارة من فمي وأنفي، كان رأسي مصاباً بدوارٍ رهيب، وهناك صوت رنينٍ صاخب في أذنيَّ، وألمٌ شديدٌ في رقبتي وكتفيَّ. قفزت على قدميّ ونظرت حولي، فلم أكن أرى الخنازير في أي مكان، وكان حصاني بالسرج تحت بطنه ينطلق بقوةٍ إلى الأمام، ثم اختفى تماماً خلف تلةٍ صغيرة باتجاه كفري Kiffri.

ناديتُه، ولكنه كان أبعد من أن يسمعني، إلى جانب ذلك كان ركاب السّرج لا يزال معلقاً بالسّرج ليضرب بذلك هذا الحصان المسكين عند كلّ خطوة، ويجرح أطرافه على نحوٍ فظيع بينما يندفع بسرعته الجنونية. أما بالنسبة للقافلة، فلم تكن مرئية في أي اتجاهٍ كان، وهناك وقفت نازفاً بشدّة، والكدمات والخدوش تملأ وجهي وكامل جسدي بشكلٍ مرعب، وعليل القلب بشدّة بسبب هذه النتيجة التي قادني اليها عنادي المتهوّر؛ ماشياً على قدميّ، منهكاً أعاني من أفظع الآلام الجديدة ومن العطش الشديد، في صحراءٍ تشتهر بانتشار قطّاع الطرق فيها، غير قادرٍ على الإدراك بقافلتي، وعلى الأقل أبعد عشرة أميال عن أقرب موردٍ للماء[1].

* * *

(1) أنا أعلم تماماً، وكنت قد أغرمت بالصيد في شبابي، أن صيد الخنزير البرّي من أعسر وأخطر صنوف الصيد. أولاً لوعورة المناطق التي يعيش فيها وامتلائها بالشوك، وثانياً لخطورة نابيه الحادين القاتلين وجسارته العجيبة في الهجوم. لكنني أعترف بأنني لم أكن أندفع وراءه أبداً بجفت صيد، بل كنت أرميه مرتاحاً على بُعد 250 متراً ببارودة قناصة Steyr SSG عيار 7.62 فأرديه بطلقة واحدة من نوع Winchester Silver-Tip الخبيئة في إبطه الأيسر. هذا ما تعلّمته من عمّي المرحوم حسين بك الإيش، قاهر أسود أفريقيا وشيخ صيادي الشرق بلا منازع.

الفصل السّابع عشر

أطوار جديدة في السفر

إجراء جرد لأطراف البدن ـ مجروحاً ودامياً بشدة ـ فيليكس ينتظر ـ الإمساك به ـ حصاني مسروقاً ـ «قف وصوّب» ـ صرير الأسنان ـ شيءٌ مخيفٌ وشيك الحدوث ـ مشاهدة الموقع ـ فرار ـ تقفي أثر اللص ـ محاطاً ـ «استسلم» ـ استعادة فيليكس ـ خان "Tholia" ـ «خطأ صغير» ـ استراحة قصيرة.

التقطتُ بندقيتي التي كانت ذخيرتها قد انفجرت هنا وهناك، ثم تحسّست مسدسي الذي كان لا يزال في القراب المربوط حول خاصرتي إلاَّ أنَّ إحدى الطلقات قد أطلقت عندما سقطتُ بتهوّر عن حصاني[1].

كانت الرّصاصة قد انطلقت من أسفل القراب ومرت بجانب ساقي مباشرةً، ولكن - لحسن الحظ - دون أن تجرحني، ولاشك أنها كانت الطلقة التي اعتقدت أنني سمعت صوتها تماماً قبل أن أغيب عن الوعي.

تفاجأت كثيراً عندما لم أجد أياً من أسناني مفقوداً، على الرغم من أن الجلد الذي

(1) هذه علّة كبرى في مسدسات البكر الأميركيّة القديمة (ولعله كان يستعمل مسدس الكولت Colt Navy 1851) وذلك أنه ما من حاجز بين المطرقة وإبرة النار، فإذا وقع المسدس على قفاه، أو تلقى صدمة على المطرقة (الدّيك) أدّى ذلك إلى إطلاق رصاصة يمكن أن تؤدّي إلى حادث مأساوي. ولكن تمّ فيما بعد تلافي هذه العلّة بإقحام لسان معدني يحجز ما بين المطرقة والإبرة عند إنزال المطرقة إلى حالة الارتخاء.

يغطي جبهتي وأنفي وشفتي العليا ومرفقيَّ وركبتيَّ كان قد اختفى كلياً.

لـم يكـن هناك وقتٌ أكبر لمزيد من التفحُّص، إذا كنت أرغب في إدراك قافلتي، لذا قمت بسـرعة بحمل بندقيتي على كتفي وانطلقت بأقوى سـرعة ممكنة خلف حصاني المسكين، ولكن بسبب الأرض الوعرة التي كان عليَّ السير فوقها كنت أتقدّم ببطء.

توجهت مباشـرةً نحو التلة قليلة الارتفاع حيث كانـت آخر مكانٍ رأيت فيه جوادي الكستنائي اللون، ويا لسـعادتي العارمة؛ عندما وصلت إلى هناك لمحت القافلة تحط الرحال أمامي على مسـافةٍ لا تبعد أكثر من ميلٍ واحدٍ، استطعت أن أرى بوضوح وفي ضـوء النهـار المتصاعد القامة الشـامخة للسّـنيور (P) التـي يعلوها طربوشـه الأحمر الناري المصري الضـخم ـ القلنـسـوة التركية ـ فربطت بنهاية بندقيتي منديلي الذي كان أبيض في الأصل، إلاّ أنه الآن ملطخ بالدماء، ورحت ألوّح به يمنةً ويسـرةً لأدلّ رجال القافلة على مكاني.

بعد أن فشـلت بهذه الحركة سحبت مسدسي وأطلقت عيارين في الهواء، وسرعان ما شـعرت بالثقة بـأن كلَّ واحدٍ من رجالنا كان قادراً على رؤيتـي وقد رآني، وأكثر من ذلك أن معظم العرب كانوا ثاقبي النظر بشكلٍ رائعٍ.

فـي منتصـف الطريق تقريبـاً بيني وبين القافلـة يقع الحوض الجـاف للنهر الدّوري العريـض، الذي كانـت الجنبات والشـجيرات تنمو بكثافة على ضفافـه. وبالقرب من الجانب اليسـاري لطريق، وعلى مسـافة لا تزيد على خمسـمئة يـاردةٍ أمامي كان يمتد حقـل خشـخاشٍ صغير يبلغ حوالـي فدّانين في الاتسـاع، وقـد كان العلامـة الوحيدة للزراعة في المنطقة ما بين قرا تِبه Karatepi وكفري Kifri.

هنـاك عند حدّ حقل نبات الخشـخاش ذاك كان يقف حصاني الصغير، والسـرج لا يزال متدلياً تحت بطنه بواسـطة إحدى أحزمته، وكان يمضغ بهدوء الأعشـاب الضئيلة النامية على جوانب الحقل.

لاحظـت في وسـط حقل الخشـخاش وجود فارسـين يرتديـان عباءتيـن بيضاوين

ويبدوان تماماً كالرجلين العربيين اللذين انضمّا إلى قافلتنا في قرا تپه Karatepi في المساء المنصرم. كان كلٌّ منهما مسلحاً بالرماح والمسدسات والسيوف الحدباء ـ وهي سيوف معقوفة بشدة ـ وقد ترجّلا عن جواديهما اللذين كان أحدهما رمادياً والآخر كستنائيَ اللون، تماماً كحصاني المسافرين العربيين، لقد وقف كلا الرجلين في حقل الخشخاش دون حراكٍ، يدخّنان بسكينةٍ وتمهّل غلايين التبيل Sibils الخاصة بهم ـ غلايين قصيرة خزفية الأسطوانة ـ بينما يرعى حصاناهما من العشب القليل المحيط بهما.

وفي الوقت نفسه تقريباً شاهدت شخصاً ثالثاً قصيراً سمين الهيئة وله شعر محلوقٌ تماماً، ولا يرتدي الثياب فوق جسده الداكن باستثناء الرّداء البني الصوفي الخشن والطويل المعتاد الذي يرتديه بدو بلاد الرافدين. خرج الرجل بهدوء من حقل الخشخاش، وبيدٍ ممدودةٍ استطاع الوصول إلى حصاني الذي لم يقم بأدنى محاولة للهرب.

كنت مقتنعاً تماماً بأنَّ هؤلاء الرجال الثلاثة يشكلون جزءاً من قافلتنا؛ إذ لم يكن هناك أي إنسان آخر أو خيمة أو كوخ وأي مخلوق حيّ آخر يمكن رؤيته على مدّ العين والنظر، ولم يكن لديّ أدنى شك بأن للسّنيور (P) رغبةً في الاطمئنان على سلامتي، أمر هؤلاء الرجال الثلاثة بانتظاري ثمّ إيصالي إلى القافلة. علاوةً على ذلك، كان الحقل الذي وقف فيه الرجال والخيول في غورٍ صغير، أدنى بكثير من الأرض التي تحطّ القافلة رحالها فوقها، كما كانت المسافة بين الحقل والقافلة أقل من نصف ميل، فكنت متأكداً من أن كلّ فردٍ في القافلة كان مدركاً لوجود الرجال والخيول في حقل الخشخاش.

بعد شعوري بالإرهاق الشديد بسبب صعودي إلى التلة، وبعد أن رأيت أنَّ حصاني قريب مني وعلى وشك الإمساك به وإعادته إليَّ جلست ورحت أراقب بهدوء.

أمسك الرجل بحصاني، وربّت عليه، وأعاد السّرج إلى ظهر الحصان، ثم حرّك يده اليمنى باتجاهي ـ إذ إنَّ هؤلاء الأشخاص الثلاثة كانوا قد رأوني ـ وكأنه يقصد أنني

يجب أن أبقى حيث أنا وسيقوم هو بجلب الحصان على الفور.

عندها رأيتُه يقفز بخفةٍ فوق السرج دون أن يستخدم الركابين، وحينها لاحظت للمرة الأولى أنَّ الركابين كانا قد فقدا في الجري الجنوني، ولكنَّ الرجل بدل أن يجلب الحصان إليّ أقحم كعب رجليه في خاصرتي الحصان وانطلق بسرعة كبيرة باتجاه القافلة، ثم سرعان ما غاب عن ناظري في الجنبات التي تنمو على ضفتي النهر، إنَّ تصرّف هذا الرجل بلا مبالاة وابتهاجٍ هكذا أغاظني كثيراً إلى حدّ أنني لو كنت أملك وقتها بندقية محشوة جيداً لما تردّدتُ ولو للحظة في الإطلاق على ذاك البائس، حتى وإن كان هناك خطر من أن أقتل حصاني.

بما أنني لم أكن حينها أملك سوى بندقية رمي فارغة ومهشّمة، ومسدس قصير المدى، فلم يتبقّ لديّ سوى أن أخضع وألجأ إلى تقفّي أثر ذاك الوغد.

انتظر النّوريان الآخران في حقل الخشخاش بهدوء حتى كدت أصل إليهما عندها قاما بالاستعداد لامتطاء خيولهما مجدداً.

مررت بهما مشمئزاً دون حتى أن أنظر في الاتجاه الذي يقفان به، وحينها كانت لديهما وقاحة كافية ليركبا ويسيران بشكل قريب جداً مني ليتركاني أمشي بينهما كالسجين، إلاّ أنّهما كانا حريصين جيداً على إبقاء مسافة عريضة جداً لي، ذلك أنهما اكتشفا من تعابير وجهي الذي كان لا يزال دامياً ومشوّهاً أنني لم أكن في أفضل مزاجٍ على الإطلاق.

خففت من سرعتي قليلاً لأجعلهما يتقدّمان علي، ولكنهما بديا راغبين عن فعل ذلك.

لم يساعد تصرّفهما هذا سوى في تعزيز اعتقادي بأنهما يتميان إلى القافلة، لذلك سألت أحدهما بشكلٍ مفاجئ باللغة العربية: «وينو الحصان مالي؟» أي (أين حصاني؟)، عندها أجابني إجابةً فاترةً ومقتضبة: «ما أعرف».

أضجرتني تلك الكذبة الوقحة، فأشحت وجهي عن هذين النذلين دون أن أنطق

بكلمةٍ أخرى، وقررت فقط أن أحافظ على هدوئي معهما على الفور. في الوقت الحاضر آنذاك تجرأ أحدهما على مخاطبتي قائلاً: «يا خواجة! يا خواجة! أسرع لكي تلحق بالقافلة!»... أثارت هذه السخرية اللاذعة غضبي كالصاعقة، وبعبارة «روح خنزير» المفاجئة جعلته يقلع عن مهمته هذه. لقد كان لذلك النّعت الصّارخ أثره المرجو؛ إذ إنّه لم يكد يعبر شفتيّ حتى جعل الرّجل حصانه يدور حولي وكان على وشك أن يصوّب نحوي طعنة برمحه الطويل البشع.

بما أنني كنت أتوقع ذلك فقد اتخذت احتياطاتي له؛ فقبل أن يستدير تماماً بحصانه، تراجعت بسرعة حوالي عشر ياردات إلى الخلف ورفعت سَبَطانتي بندقيتي كلتيهما وصوّبت نحو صدره، وجعلته يفهم أنه قد يكون من مصلحته ومصلحة صديقه إلى أبعد حد إذا ما انطلقا من أمامي على الفور. فهم الشخص الموجود إلى يساري هذه الإشارة ودون حتى أن يودّعنا أو يسلم علينا، ضرب الحصان بكعب قدميه بطريقةٍ عنيفة وانطلق بأقصى سرعة ليتركني أنا وصاحبه لنحسم خلافاتنا على انفراد.

عندما وجد خصمي نفسه مهزوماً راح يصرّ بأسنانه غاضباً ويتمتم بشيءٍ لم أستطع فهمه، ثم أطلق ساقيه للريح أيضاً، ولكن بينما كان ينطلق بسرعة استدار نصف دورةٍ في سرجه وسحب أحد مسدسيه وقدّم لي تحية الرحيل. على الرغم من أنها كانت مصوبة جيداً إلاّ أن الرصاصة أزّت فوق رأسي دون أن تتسبب بالأذى واتجهت خلفي نحو حقل الخشخاش.

وكما كنت دائماً على استعداد لردّ الثناء، فقد قدّمت له النفع والفائدة برصاصتين أطلقتهما من مسدسي سداسي الطلقات، وبدا أنّ الرصاصة الثانية قد جرحت مشاعره إلى حدٍّ بعيدٍ، كان تصويب البندقية المرفوعة نحو جيفة ذاك الوغد مجرّد خدعة حرب؛ إذ إنّ البندقية كانت غير ملقّمة ولكنني كنت أعرف جيداً الاعتبار الذي يكنّه البدو للبندقية المزدوجة السَّبَطانة إذا كانت في يد شخص أوروبي، الشيء الذي يتجاوز إلى حدٍّ بعيدٍ اعتبارهم واحترامهم للمسدس، وذلك لأنهم يعتقدون أنّ الآخر غير مؤذٍ إلى حدٍّ ما بسبب حجمه الصغير.

بعد أن نجحت في تخليص نفسي من تلك الصحبة غير المستحبّة، وضعت بندقيتي على كتفي مجدداً وتقدّمت مسافة متني باردة تقريباً عندما لاحظت خطاً واضحاً من بقع الدم فوق المسار الحصوي، ما أشار إلى كون الشخص نفسه أو حصانه قد أصيب، وإن كان كذلك فلا بد أنه بسبب إحدى رصاصاتي العشوائية، وحين وصلت إلى الجانب المقابل لحوض النهر الجاف فقدت أية آثار أبعد للدماء. من ذلك المكان يظهر الطريق إلى كفري Kiffri بخطٍ متعرّجٍ لا متناهٍ تقريباً سلسلة من الهضاب العالية وشديدة الانحدار، تقع خلفها مستترة بلدة كفري الصغيرة الكدرة وسيئة السمعة.

سرعان ما وصلت إلى نقطة استطعت منها أن أرى جزءاً كبيراً من امتداد الطريق الجبلي المتعرّج.

هناك أمامي على بعد ميلين تقريباً لمحت القامتين البيضاوين للعربيين المثيرين للمشاكل يمشيان ببطء فوق التلة على حصانيهما الهزيلين، في حين رأيت القافلة على بعد نصف ميلٍ فقط بعدهما، ولكن بسبب الغبار المتصاعد جراء حوافر الكثير من الخيول والبغال لم أستطع أن أميّز أي شخصٍ أو حيوانٍ من تلك المسافة البعيدة، لذلك كان من المستحيل أن أعرف ما إذا كان حصاني وسائق البغال ذاك مع القافلة أو لا، إلا أنني لم أشك أبداً بكونهما هناك، ذلك أنهما انطلقا قبل العربيين الآخرين بكثير، وهذان العربيان كانا على مسافة بالكاد تبلغ نصف ميل خلف القافلة.

نتيجة للانعطاف المفاجئ في الطريق حول صخرةٍ مرتفعة وبارزة غاب جميعهم عن ناظري تماماً وبسرعة، عندها توقفت هناك وكنت منهكاً إلى أبعد الحدود بتأثير النزيف والعطش، جلست لأستريح فوق جزءٍ من صخرة ورحت أستكشف المدينة الممتدة كالخريطة الضخمة عند قَدَميّ.

هناك تقع البقعة المشؤومة حيث وقعت عن صهوة حصاني، وهناك في مكانٍ آخر التلة الصغيرة حيث رأيت حصاني مجدّداً للمرة الأولى، وهناك يقع حقل الخشخاش الأخضر، وهناك حوض النهر الجاف والجنبة التي كانت آخر مكانٍ رأيت حصاني فيها، ولكن بقدر ما استطاع نظري الثاقب أن يصل لم يكن بالإمكان رؤية أية خيمة

أو منزل أو أي كائن حيّ يتحرك فوق السهل المقفر الواسع باستثناء عددٍ من نسور الجيف التي تدور عالياً فوق السحاب، وقد بدا أنها كانت تستمتع بالصباح المتّقد أكثر مني بكثيرٍ؛ إذ إنَّ الشمس في ذلك الوقت كانت قد صعدت عالياً فوق الأفق وبدأ الجو يصبح خانقاً بشكل مضايق.

بدأ سربٌ من الذباب الذي جذبه الدم المتخثر فوق وجهي وثيابي بمضايقتي على نحوٍ مزعجٍ جداً، ولكن الشيء الأسوأ من الحرّ والذباب كان الظمأ المؤلم الذي بدأ بتعذيبي والذي نجحت بصعوبة بتخفيفه بشكلٍ مؤقتٍ؛ وذلك بتقليب حصاة صغيرة مدوّرة داخل فمي ـ علاج العطش المعتاد الذي يستخدمه البدو والمسافرون والصيادون... إلخ.

بما أنني كنت مدركاً تماماً بأني بمجرد الجلوس فوق الصخرة لن أصل إلى كفري Kiffri نهائياً، فقد دفعت نفسي بقوةٍ فوق التلة بقدر ما أستطيع وكنت متألماً جداً في داخلي من حظي السيّء، ومن جحود السّنيور (P) حين تركني لألاقي مصيري هذا.

أما بالنسبة للشخص الذي يفترض به أن يكون سائق ماشية - الذي استمتع بكل هدوء بالركوب مسافة عشرة أميالٍ فوق حصاني وعلى حساب راحتي - فقد كنت قد عزمت على أن أجهز عليه تماماً بواسطة الرّصاصة الأخيرة المتبقية في مسدسي؛ إذ إنَّ شخصاً حماراً كذاك لا يستحق أن يبقى على قيد الحياة من وجهة نظري.

لقد منحتني هذه الرغبة في الانتقام طاقةً وقوةً رائعتين، وامتصّت كامل الشعور بآلامي الجسدية، وفي النهاية جعلتني قادراً على بلوغ قمة الجبل الأجرد دون أن أقوم بالوقوف في محطةٍ أخرى.

عند وصولي إلى قمة الجبل رأيت بلدة كفري Kiffri على مسافة أربعة أميالٍ تقريباً تمتدّ تحتي وسط وادٍ صغيرٍ مقفرٍ مع جدول فضي جميل يتعرّج مساره في داخل البلدة الصغيرة مريبة المنظر، المحاطة من الجانب الجنوبي بعدة كروم فاكهةٍ كبيرة ووارفة مطوّقة بجدران طينية عالية. بينما يوجد على الجانب الغربي للمدينة عدة خانات

فسيحة ولكنها بدت مهجورة، وقد ظهرت كأنها سجون تركية موحشة.

وقد كانت خلفية هذا المنظر شاعرية إلى حدٍّ ما مزوّدة بسلسلة مزدوجة من الجبال العالية الجاسئة، وقد بدا جلياً أنها مجرّدة كلياً من الاخضرار وهي "Yebl Ali" أي جبل علي وقرا داغ Kara Dagh أي الجبل الأسود، الأوّل مسمّى بالعربية والآخر له اسمٌ تركي، والأول يبعد حوالي عشرة أميال أما الآخر فيبعد حوالي عشرين ميلاً عن شمال كفري Kiffri.

إن مشاهدة مكان منشود من قبل الرحّالة المرهق كفيلة جداً بإبهاجه وجعله نشيطاً، وهكذا كان أثر منظر بلدة كفري من أعلى الجبل عليَّ في حالتي تلك على الرغم من أنها كانت في النهاية مجرد مكان كئيب وماحل المظهر، لذلك ودون أن أسمح لنفسي بالاستراحة لمدة لحظة واحدة، سرت للأسفل نحو الوادي بإرادة قويةٍ وحاضرة غير آبهٍ لأشعة الشمس المحرقة التي كانت في ذاك الوقت قد جعلت سَبَطانات بندقيتي ساخنة جداً حتى أحرقت جلد يدي بكل معنى الكلمة.

كان فعلاً يوماً حاراً بشكل استثنائي، وقد بدا أنه أبقى حتى الغجر من سكان كفري Kiffri داخل منازلهم، باستثناء ثلاثة صبيةٍ عراة يقودون عدداً من الإبل نحو الجدول لتشرب، وباستثناء ذلك لم يكن هناك أي كائنٍ حي يمكن رؤيته لا في داخل ولا حتى حول بلدة كفري.

أصبحت الساعة العاشرة تقريباً عندما وصلت أخيراً إلى ضواحي البلدة الصغيرة، جائعاً وعطشاناً ومستنفد القوى كلياً.

اتجهت مباشرةً كالبطة نحو الماء، وبالرغم من ركبتيَّ المتألمتين رميت نفسي إلى الأسفل نحو حافة الماء وشربت بكثرة من المياه الباردة كالثلج. بينما كنت منهمكاً في غسل الدماء من على وجهي وملابسي شاهدت أربعة رجالٍ يحملون البطيخ إلى نزلٍ كبيرٍ قرب مدخل البلدة، ما جعلني أعتقد أن قافلتنا كانت تقيم هناك.

ثبت أن افتراضي كان صحيحاً؛ فعند دخولي إلى الخان تمّ الترحيب بي على الفور

مـن قبـل رجالنا العرب، في حين رأيت السّنيور (P) ومصطفى منغمسـين في محادثةٍ جديةٍ مع خمسـة أو ستة فرسانٍ مسلحين برماحٍ ومسدساتٍ وسيوفٍ وخناجر. مشيت مباشـرةً نحو السّنيور (P) وأخبرته بفظاظة إلى حدّ ما أنني شـعرت بأني ممتنٌّ كثيراً له لإرسـاله لي صديقاً حميماً يتركني بكل رباطة جأشٍ في ترنّحي لأجد سـبيلي بالطريقة التي أحب إلى كفري.

بدا السّـنيور (P) مدهوشـاً جداً لدى ظهوري وتوبيخي الفظ لـه، ولكنه دُهش أكثر عندمـا نطقت بسـؤالي المفاجئ والمتزامن تماماً مع سـؤاله، وبالكلمات نفسـها «أين فيليكس؟» - حصاني.

باختصار: بعد تحقيق شـاملٍ ومطوّل في القضية اكتشـفت أنهـم بالرغم من كونهم وقفـوا بين الحين والآخر في عدة محطـاتٍ على الطريق، فإنَّ أحداً من القافلة لم يرَ أو يسـمع أي شـيء عني أو عن حصاني منـذ غادرتهم لملاحقة الطرائـد، وبالتالي لم يتم إرسال أحد ليسـاعدني في إمسـاك حصاني الهارب أو ليرشـدني إلى القافلة، ولم يشاهد أحد من القافلة أولئك الأنذال الثلاثة في حقل الخشخاش. بعض سـائقي الماشية الذين يشكلون مؤخرة القافلة كانوا قد شاهدوا الخيالَين اللذين انضمّا إلى القافلة عند قراتِپه Karatepi يتراجعـان إلـى الخلف ويترجّلان عن فرسـيهما من أجـل الغاية المزعومة في إصـلاح النعل الذي رماه أحد حصانيهما كما بدا، ولكن بما أن تلك الحادثة كانت تظهـر يومياً فلم تجذب أي انتباه على نحو خاص، وخاصةً أن هذين الغريبين سـرعان ما عادا لينضمّا إلى القافلة من جديد وقد دخلا إلى كفري برفقة القافلة.

إنَّ الجـزء التالـي مـن تلـك الإفـادة كان كافيـاً لإثـارة شـكوكنا أنـا والسّـنيور (P) ومصطفى، وقد وصلنا على الفور إلى نتيجةٍ بأن فيليكس المسكين تمّت سرقته ببراعة من قبل أولئك الأوغاد المجهولين. إثر ذلك قررنا ودون أيّ تأخير أن نحترز من هذين الخياليـن اللذيـن كانا بالمناسـبة ذكيين جداً فـي اختفائهما عند وصولهمـا إلى كفري Kiffri؛ إذ إنهمـا لـم يدخلا إلى خاننا أبداً، إنما قيل إنهما نزلا عن حصانيهما عند أحد استراحات القهوة الفارسـية في البلدة. أمّا مصطفى ورجال الظابطية السـتة - حراس

سرّيون - الذين تم إعطاؤهم للسّنيور (P) من قبل (القائم مقام) - القيّم على بلدة أو قرية تركية - والذي يشغل المناصب التالية مجتمعة: المحافظ، القاضي، مراقب الشرطة، جابي الحكومة وغيرها وغيرها... وذلك بغية الذهاب للبحث عني وإيصالي بأمان إلى المخيم، هؤلاء قد توجهوا على الفور إلى استراحات القهوة الخاصة للقبض على هذين الرجلين، لولا أنَّ العصفورين الحذرين قد طارا بعيداً، وكانت كل جهود مصطفى في البحث عنهما عقيمة غير ذات جدوى، وعلى الأرجح أن اللصين كانا في أثناء ذلك الوقت مختبأين بأمان من قبل شركائهما. مع ذلك لم يكن هناك وقتٌ ليهدر إذا كنت أرغب في رؤية حصاني المسكين ثانيةً.

لذلك تقدّمنا إلى القائم مقام بطلب ستة خيالةٍ آخرين لملاحقة السارق الحقيقي، دون أن ننتظر عودة مصطفى ورجاله من بحثهم عن اللصين.

تم تزويدنا بالرجال على الفور، وبعد أن تلقَّوا وصفاً مختصراً لكن دقيقاً للحصان وراكبه، ووعداً بمكافأةٍ قدرها ليرتان تركيتان ـ حوالي تسعة دولارات أميركية ذهبية ـ مقابل استرجاع الحصان وضعفا المبلغ مقابل استرجاع الحصان والإمساك باللص، اندفعوا كالبرق نحو قرا تِبِه Karatepi بسرعة جنونيةٍ، وسرعان ما اختفوا خلف الجبل. أما أنا والسّنيور (P) فقد كان أملنا في استرجاع الحصان ضئيلاً جداً؛ ذلك أنه أكثر من خمس ساعات كانت قد انقضت منذ أن رأيت الحصان للمرة الأخيرة، ولم يكن مرجحاً أن السارق بعد أن استحوذ على الحصان سيبقى قريباً من مكان جريمته وقتاً أطول من اللازم.

مع ذلك كان مصطفى واثقاً من أنه إذا لم يكن اللص قد نجح في الفرار بغنيمته إلى الأراضي الفارسية فإنه لن يكون قادراً على فعل ذلك بعد الآن، وسيتم بالتأكيد الإمساك به مع حلول الظلام.

بعد أن عاد الخيالة الستة المذكورون أولاً من عمليات بحثهم الفاشلة عن الوغدين الآخرين ضمن المدينة، انطلقوا مباشرةً بكامل سرعتهم نحو الحدود الفارسية بهدف منع الرجل من الهروب إلى فارس، أو لملاحقته في ذاك الاتجاه، مع احتمالٍ كبيرٍ في

الإمساك به، فقد كانت خيولهم نشيطة جداً بينما كان حصاني آنذاك منهكاً إلى أبعد الحدود، وعلاوة على ذلك فإنه يتوجب على ذاك الخسيس حتى يصل إلى المناطق الفارسية إما أن يسلك الطريق المؤدية إلى كفري Kiffri أو أن يقوم بانعطافة لا تقل عن ثلاثين ميلاً حول سلسلة الجبال شديدة الانحدار التي بإمكان الخيول عبورها فقط عن طريق الدرب المؤدية إلى كفري.

لاشك أنّي أدين باستعادة حصاني لمزايا المدينة الجغرافية، حيث كان السارق مدركاً أن الحيوان مشرذم القوائم بشدة بفعل حديد الركاب، وذلك أثناء انطلاقته الجنونية والسّرج تحت بطنه، هذا إلى جانب كونه جائعاً وعطشاناً ومنهكاً، لذلك لم يكن السارق قادراً على جعله يواصل بالإكراه رحلة ذات أربعين أو خمسين ميلاً إضافياً فوق أرضٍ مقفرةٍ وخلال أكثر أوقات النهار حرارة، دون طعامٍ أو شرابٍ أو راحة. ففكّر أنه من المستحسن أن يسير لمسافة عدة أميالٍ على طول ضفاف مجرى النهر المغطاة بالجنبات، ليختبئ مع الحصان في أجمة كثيفة أو في وهدةٍ ما حتى يحلّ الظلام ومن ثم ينسل في الظلام الى ضواحي (كفري) ومن هناك يمتطي حصاناً نشيطاً من عند أحد شركائه ويفرّ مع الحيوانين كليهما عبر الحدود الفارسية.

على الرغم من أن خطته كانت استراتيجية نوعاً ما، فإنها لم تكلّل بالنجاح كما ستظهر التتمة؛ كان النذل مختبئاً جيداً بشكل محجوب عن الأنظار في أجمةٍ كثيفة مع حصاني المسكين الذي كان يقف بجانبه، وكان - إمّا تحسّباً للعمل الشاق الذي ينتظره طوال الليل أو على الأرجح أنه استبدّت به أشعة الشمس المحرقة - قد غرق في نومٍ عميقٍ جاهلاً على نحوٍ مسببٍ للسعادة الاقتراب الهادئ لستة خيّالة ذوي عيونٍ ثاقبة، والذين اكتشفوا بموهبةٍ كتلك الموجودة عند كلاب الدّموم علامات حوافر حصاني بالكاد مرئية فوق ضفاف صخرية لحوض النهر الجاف، وكانوا على بعد مئة ياردة من طريدتهم عندما تدغدغ أحد الأحصنة من أنفه بسبب الغبار وعطس.

تم الردّ مباشرةً على هذا الصوت من بين الجنبات من قبل حصاني فيليكس المسكين الذي راح يصهل على نحوٍ شهواني ليزيد من هلع خاطفه، مما جعل ذلك الآخر يثب

على قدميه بسرعة نمرٍ، ثم يقفز فوق ظهر الحيوان ويندفع عبر الدّغل الكثيف.

على الأرجح كانت حركة هروبه في النهاية ستكون حركة جيدة لولا أنّ رجلين من مجموعة الخيّالة الثانية التي تم إرسالها، كانا قد انفصلا عن باقي المجموعة وذهبا جنوباً عبر النهاية العلوية للوادي.

تخيّل فقط مدى الإحباط الذي أصاب ذاك الذي كان سيصبح هارباً عندما وجد نفسه محبوساً فجأة.

لقد ألفى نفسه محصوراً من اليمين واليسار بجبالٍ شديدة الانحدار وفارسين قويي البنية مسلحين بمسدساتٍ مصليّةٍ ورماحٍ طويلة لامعة تسدّ النهاية العلوية للأخدود الضيق، بينما كان هناك ستةٌ آخرون يقتربون من خلفه. كونه مسلحاً فقط بالخنجر المعقوف المألوف، فقد رأى أن مقاومته ستكون دون جدوى، وبما أنه لم يكن يتمتع بحماسة واندفاع ليونيداس Leonidas نفسها في ثيرموپيلاي Thermopylae فقد قام بالاستسلام.

قام أحد الذين أمسكوا به برميه على الأرض بعنف وقُيّدت يداه بإحكام خلف ظهره بواسطة سيرٍ جلديٍ متين.

بعد أن تمّ إنجاز ذلك، أعيد الخاطف فوق ظهر حصاني وتمت قيادته إلى كفري Kiffri مع فرحة النصر.

في غضون ذلك كانت قافلتنا منشغلة في التحضيرات لمتابعة رحلتنا، وذلك أنَّ الشمس كانت قد غابت تقريباً وخفّت الحرارة بعض الشيء.

كنا أنا والسّنيور (P) قد فقدنا أدنى بصيص من الأمل في رؤية الحصان مجدداً، ولكننا تركنا أمراً للقائم مقام بإرسال الحصان إذا تم الإمساك به خلال ثلاثة أيام إلى عميل لدى شقيقي في الموصل، أما إذا عُثر عليه بعد ذلك فطلبت أن يعيدوه إلى أقاربي في بغداد، وقد وعد موظفٌ فاضلٌ نبيلٌ بتنفيذ تلك التعليمات بالتأكيد بكل إخلاص مقابل بقشيشٍ مقداره ليرة تركية واحدة.

إلاّ أن القائم مقام وكذلك مصطفى كانا يريان أنه إذا لم يصل الحصان إلى الأراضي الفارسية بعد، فإنه عاجلاً أم آجلاً ستتم ملاحقته في كل أرجاء بلاد الرافدين وذلك من حقيقة أن الحصان يحمل علامة بيضاء خاصة على فخذه الأيسر، وأن السارق لم يكن حتى ليلمس الحصان لو أنه لاحظ تلك البقعة المهلكة الجالبة للنّحس.

بينما كنا على وشك الشروع بمتابعة رحلتنا مرة أخرى، لفت انتباهنا ضجيجٌ وحركة خارج الخان، حين اندفع يوسف اليزيدي - وبالإنكليزية: «جوزيف اليزيدي» أي من طائفة اليزيديين، وهي قبيلة أو بالأحرى طائفة يقال إنهم يعبدون الشيطان ويسكنون جبال كردستان، وقد كان عبداً لمدة عشرين عاماً ثم أصبح حرّاً واهتدى إلى الإسلام - عبر البوابة يومئ ويصرخ: «خواجة! خواجة! تعال شوف الحصان مالك!»... يعني بذلك: «أيها السيد! أيها السيّد تعال وانظر إلى حصانك!...»...

عندما ركضنا بسرعة إلى البوابة، فعلاً رأينا فيليكس المسكين مجللاً بالعرق والغبار، وخاطفه فوق ظهره، يتصدّر مجموعة من الفرسان المسلحين الذين يقتربون ببطء من الخان ويصهل بصخب لرؤيته الأشخاص الذين يعرفهم.

كاد الجيَشان والاهتياج في عاطفة الحيوان وإخلاصه أن يبكيني، وعندما سحبت مسدسي كنت سأقدّم للوغد الموجود فوق السرج عقابه الملائم، لولا أن قام السّنيور (P) بمنتهى الحكمة، بإمساك يدي بقوة.

نتيجة الحركة اللاإرادية التي قام بها الأسير المكبّل عند رؤيته لسلاحي السداسي الطلقات فقد توازنه وسقط على رأسه من فوق الحصان، فتمدّد نازفاً وفاقداً للوعي فوق الأرض الصخرية.

هدّأ منظر الوغد المنبطح الذي ينزف عاجزاً عند أقدامي من سخطي، وعند إعطائي أوامر للرجال بإزالة القيود عنه وإعادته إلى الوعي كنت على وشك أن أطلق سراحه عندها اعترض السّنيور (P) وأصرّ على أنه يجب أن يرسل إلى القائم مقام، السلطة المناسبة لتنفيذ العقاب عليه.

وهكـذا تم تنفيذ ذلك وعاد آسـروه بعد نصف سـاعة من الزمـن ليقبضوا مكافأتهم البالغة أربع ليرات، والتي دفعتها بكل سـرور وقدّمت لهم هديةً إضافيةً عبارة عن عبوة من بارود هول (Hall) كانت قيمتها بالنسبة لهم أكثر من الذهب نفسه ـ وهو عبارة عن بـارود مـن النوع الجيد جداً ينـدر وجوده في هذا الجزء من العالـم ـ لا أعرف ما الذي حلّ بالأسير بعد ذلك؛ إذ إننا غادرنا بعد ساعةٍ تقريباً من وصوله، ولكنني لا أشك أبداً في أنَّ القائم مقام بعد أن تلقى رشوةً من أصحاب ومعاوني السجين – وعلى الأرجح قد يكون من ذلك الوغد المحتال نفسـه – قام بإطلاق سراحه مباشرةً بعد رحيلنا، ذلك أنَّ هؤلاء المأمورين ليسـوا فقط قابلين للرشوة، وإنما هناك العديد منهم يقيمون تحالفاً مع اللصوص والمهرّبين والكثير غيرهم من الخارجين عن القانون.

* * *

يالفيليكـس المسـكين! علـى الرغم من أنَّ سـعادته لوجوده معنا مـرةً أخرى كانت واضحـة، إلاَّ أنـه كان فـي حالةٍ من الرعب، وظـلّ غير قادر على القيـام بمهمّته لبعض الوقت.

كانـت قوائمه منتفخة بسـبب الجروح العديدة الناجمة عن حديـد الركاب، وجلده الأمامي الرقيق واللامع كان مغطىً بالخدوش، وظهره كان مكشـوطاً، وينقصه نعلان، وبالتأكيد كان يمشي أعرج، إنها النتيجة العامة ليومٍ من العمل الشـاق.

سـرعان ما تم استبدال نعاله من قبـل الطبيب البيطري الموجود مـع قافلتنا، ولكن فيليكـس بعـد ذلـك كان يجب أن يوضـع علـى قائمة المرضى، واسـتأجرت مكانه من كفري Kiffri بغلاً قوياً وضخماً لينقلني إلى كركوك، بينما كان على صاحبه أن يمشـي ليقود مريضنا بواسطة العذار.

بسـبب الانهيـار التـام لفيليكس المسـكين، تأخـرت مغادرتنا إلى ما قبـل الغروب مباشرةً.

كانت الطريق إلى طوز خورمالي[1] Tooz Choormaly المحطة القادمة تمر مباشرةً من وسط بلدة كفري Kiffri على طول الجدول أو النهير الصغير المذكور سابقاً.

كان جميع سكان وكر اللصوصية هذا من الذكور والإناث قد تجمعوا على السطوح المستوية لمنازلهم الطينية استعداداً للخلود إلى النوم، حين جذب مرور قافلتنا انتباههم بشكلٍ طبيعي وراحوا يحدّقون للأسفل نحونا بمئات الأعداد بينما كنا نمر بين تلك الممرات الكدرة والوعرة.

لقد فاجأني العديد من الرجال كونهم أشخاصاً رياضيين أقوياء البنية على نحوٍ خاص، وكانت بعض فتيات القسم الأصغر سناً من النساء حسناوات المظهر من دون جدال، وحتى كنَّ فاتناتٍ أيضاً على الرغم من كونهنّ كدرات ومهملات لأجسامهن بشكلٍ فظيعٍ، مع ذلك فللجنسين كليهما سيماء همجية وخبيثة ووقحة على نحوٍ غريب...

وكانت الألقاب والصفات المسموعة بين الحين والآخر مثل كلب وملحد وكافر تُمطر فوقنا وبخاصة من صاحبات الجنس الطيف، اللواتي كنَّ كأخواتهن الأكثر تميّزاً في البلاد المتحضرة، قد منَّ الله عليهنَّ ببراعة لفظية استثنائية مدهشة.

على الرغم من ذلك، استقبلنا لعناتهنَّ بأناةٍ وحلمٍ رزينين وأخلاقٍ حسنة، وبهذه الطريقة كنا فقط نزيد من ثرثرتهنّ حتى بدأنا نفكر بأننا سنتلقى تغطيسةً بالماء الساخن أو شربةً ما ـ وعاء الماء الفخاري ـ فوق رؤوسنا، ولكن لحسن الحظ سرعان ما أصبحنا بعيداً عن أنظار تلك الثائرات، لقد شعرنا بالانشراح الكبير عندما وجدنا أنفسنا مرّةً أخرى نسير فوق الصحراء الواسعة، على الرغم من أن التجربة علمتنا أن أقصى درجات الحذر وأشد مراحل اليقظة أصبحت من الآن فصاعداً ضرورية حتماً، وذلك

---

(1) بلدة معروفة تتبع ناحية كركوك إلى الجنوب منها، والاسم كما يورده لوكر بالتركية: Tuz Hurmalı يعني: ذات التمر المالح. لكنها تعرف في عصرنا باسم: طوز خُرماتو. وسكانها من التركمان.

طالما نحن نسافر في الليل، وفوق أراضٍ خطيرةٍ كهذه.

قادنا طريقٌ وعرٌ باتجاه شمالي غربي لعدة أميال على طول الانحدار الجنوبي لسلسلة الجبال المحيطة ببلدة كفري Kiffri، كان هذا الطريق عبارة عن سلسلة غير منقطعة من الصواعد والنوازل شديدة الانحدار، جعلت من الصعب جداً السفر في الظلام بسبب الحصى الصلبة وقطع منفصلة ومتفرقة من الصخور، إلى أن وصلنا إلى رافدٍ لنهر كيسه صو[1] "Kisseh Su" أو أدهم "Adhem" وهو نهرٌ كبيرٌ ينبع من قرا داغ Kara Dagh (الجبل الأسود) وتجتمع مياهه بمياه دجلة تماماً جنوب «خان Tholia» وهو نزلٌ ضخمٌ يقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة، على بعد ثلاثين ميلاً من (دِلّي عباس).

أصبحت الطريق أكثر استواءً وانبساطاً عندما وصلنا إلى ذلك الرافد الذي بدا أنه توجد على ضفافه بعض الزراعة وبدت أيضاً ضفافه مأهولة، حيث سمعنا عدة أصوات لنباح الكلاب. فوق هذا النهر كان هناك جسر عالٍ ومنحدر، إنها رفاهية تستخدم في هذا الجزء من العالم فقط عندما تكون الأنهار حتماً غير قابلة للعبور من دون تلك الجسور.

قمنا ما بين الساعة الواحدة والثانية صباحاً بعبور الجسر، وبعد مسيرنا بضع ياردات إلى الأمام وجدنا أنفسنا مهاجمين من قبل كلاب طوز خورمالي Tooz choornaly المسعورة، التي أيقظ ضجيجها العديد من سكان المنطقة النائمين على سطوح منازلهم.

تقدّمنا إلى أحدهم وطلبنا منه أن يرشدنا إلى الخان، ولم تكن مسألة صعبة جداً؛ ذلك أننا كنا نقف مباشرةً أمامه. في تلك الليلة سافرنا فقط مسافة عشرين ميلاً تقريباً، وبما أنّ طاووق[2] Tauk المحطة المقبلة لم تكن تبعد أكثر من خمسة عشر ميلاً، فقد

(1) مفردة kese بالتركية تحمل معاني كثيرة، لكن معناها هنا Kese Su يعني: النهر المقطوع. ويقال: Kese Yol أي طريق مختصر.

(2) محلّة إلى الشمال من طوز خورمالي على طريق كركوك، ومعناها في التركية Tavuk: دجاج،

قررنا أن نبقى حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، واثقين بأننا سنصل إلى طاووق Tauk بسهولة عند وقت الغروب.

لذلك كان لديَّ وقت فراغ كبيرٍ لأتفحّص هذه القرية الكبيرة في وضح النهار. لقد شكلت في داخلي انطباعاً أفضل بكثير مما شكلته كل المناطق التي مررنا بها منذ أن غادرنا بغداد. فعلى الرغم من أنَّ المنازل كانت لا تزال مصنوعة من موادٍ أوّلية خشنة، وكانت بدائية جداً في أسلوب البناء، فهي كانت نظيفة ومبهجة المنظر، وتقريباً لم تكن الشوارع مهملة وقذرة كشوارع المحطة السابقة، وقد بدا السكان أنفسهم مرتبين ونشيطين وسعداء، ولم تكن نهائياً لديهم تلك النظرة الخسيسة البائسة التي تميّز سكان كفري Kiffri وقراتِپه Karatepi.

يملك سكان هذه القرية قطعاناً كبيرة من الحمير والأغنام والماعز، وأعداداً هائلة من الطيور، ويمارسون الزراعة بقدر ما تسمح به الأرض الحصوية الكلسية، فبالكاد تنمو الذرة الهندية والخيار والبطيخ... وغير ذلك.

يحيط الماء بالقرية من ثلاث جهات كونها واقعة على الزاوية القصوى من اليابسة المتشكلة من التقاء رافدي نهر أدهم "Adhem"، يقطع كلاً منهما جسرٌ حجريٌّ عالٍ رديء البناء، مبنيٌّ على زاوية تبلغ حوالي مئة وعشرين درجة، مرصوفٌ بحجر الجلمود المدوّر الضخم. مما يوفّر موطئ قدمٍ زلقٍ على نحوٍ خاص بالنسبة للخيول المنتعلة.

يفيض النهران كلاهما بالأسماك الممتازة التي اصطدنا ثلاثاً منها في الصباح، وكان السكان مندهشين للغاية عند رؤيتهم لنا نصطاد ونطهو ونأكل الأسماك. إنها حقيقة غريبة كون المسلمين عموماً لا يهتمون كثيراً بأكل السمك، وخاصة أسماك المياه الحلوة، وفي العديد من المناطق لا يتناولون تلك الأخرى نهائياً.

في فترة مابعد الظهر خرجت قليلاً لمدة ساعة أو اثنتين ومعي بندقيتي، واصطدت

حيث أن سكان المناطق هذه بأسرها من التركمان، وخاصة كركوك العاصمة الإقليمية لتُركمان شمال العراق.

أرنباً برياً واحداً وعدة أزواج من الحجل الصحراوي وحمامة برية.

وعند عودتي إلى المخيم على طول ضفاف النهر وجدت الضفة الممتدة جنوب القرية مغطاة بكل معنى الكلمة بالسكان المحليين من الرجال والنساء والأطفال يرشون ويبللون أنفسهم بالماء بمنتهى المرح والابتهاج، حتى شعرت بأنني راغبٌ في الغطس، ولكنني كنت أخشى من احتمال اختفاء ثيابي وسلاحي بينما استمتع بالاستحمام.

بعد ساعة من عودتي إلى الخان واصلنا رحلتنا مجدداً. كانت الشمس لا تزال مرتفعة فوق الأفق عندما عبرت القافلة الجسر الثاني عند النهاية الأبعد أو الجانب الشمالي الغربي من القرية، ولكن بسبب النسيم العليل المنعش الذي هبَّ في فترة مابعد الظهر سافرنا براحةٍ تامة.

عاد الطريق ليصبح وعراً إلى حدٍ ما وتقطعه العديد من الروافد الثانوية لنهر كيسه صو "Kesseh Su" أو أدهم "Adhem".

كان رجالنا في قمة حيويتهم ونشاطهم، وكان سبب هذا السرور على الأرجح ناجماً عن توقعات يومٍ سهلٍ من المسير.

* * *

في منتصف الطريق تقريباً بين المحطتين أصبح الطريق هضبة شديدة الانحدار، وكنت كالمعتاد أسير أمام القافلة على مسافة ثلاثين ياردة تقريباً، عندما لمحت عدداً من طيور الحجل الجيدة فوق الهضبة على مسافة أمامي تقدّر بحوالي مئتي ياردة.

رغبةً مني في اصطياد زوج أو اثنين من تلك الطيور قبل أن تصل القافلة وتجعلها تطير خائفة قمت بوكز حيواني بالمهماز، ناسياً تماماً أنني لم أكن أمتطي فيليكس حينها، وإنما كان بغلاً كسولاً جداً وعنيداً وقد احتجّ بعنفٍ على إخافته بهذا النشاط وإخراجه من أحلام يقظته بواسطة زوج من المهاميز الحادة، فأقحم فجأةً رأسه القبيح بين أطرافه الأمامية ودفع في الوقت نفسه أطرافه الخلفية إلى ارتفاع هائل لينجح في

تغير مكاني المعتاد، وذلك برميي على الأرض على رأسي مباشرةً في وسط الطريق فوق صخرةٍ حادة، مما سبب آثاراً مؤلمة بجمجمتي، وجعل «اللون القرمزي» يتدفق بغزارة.

إن هذا التمنع المفاجئ الذي صدر عن هذا البهيمة الكسول سبب ارتفاعاً عظيماً استثنائياً في حدّة انفعالي، ومما زاد في ذلك هو كوني أتمتّع بشيءٍ من الغرور بفروسيتي، فقد كنت خجلاً من أن يتم إيقاعي من قبل بغلٍ بائسٍ، وكان ذلك أيضاً عند المرور فوق هضبةٍ شديدة الانحدار، وهو الشيء الذي كان سيربك أكثر الخيول شدّة وضراوة.

قررت بعد ذلك ألاّ أدع البغل يتولى السيطرة؛ فرفضت عرض السّنيور (P) لحصانه الرائع، وقررت أن أحقق التعادل مع البهيمة، وأركبه بقسوةٍ بقدر ما يستطيع هو السفر إلى طاووق Tauk محطتنا التالية، وحتى لو كلفني ذلك حياتي.

من أجل ذلك الغرض، استعرت من أحد الرجال عصاً يصل طولها إلى قدمين تقريباً، بريت تلك العصا بشكلٍ حادٍ من النهايتين كلتيهما وربطتها تحت رقبة البغل، وبتلك الطريقة كلما حاول أن يخفض رأسه سيلكزه الطرف العلوي ما بين فكيه، بينما سيضغط الطرف الآخر في صدره. وفي سبيل أن أوجهه بشكلٍ أفضل في حال محاولته الهرب والنفور، قمت بشدّ سلسلة كابحة اللجام بكل ما يمكنني من قوة، ثم وثبت فوق السرج. عندما شعر (لونغير الكبير) بوخزاتي ثانيةً لجأ بشكلٍ طبيعي إلى حيلته القديمة، ولكنه سرعان ما وجد أنها لن تجدي نفعاً بعد الآن، ولمضايقته أكثر كان قد تلقى وخزةً قويةً من العصا الحادة النهاية وكذلك من مهمازي، ما جعله يهز رأسه بغريزة حيوانية ويشخر كجاموس البحر..

إن ضربةً واحدةً أخرى فقط جعلته ينطلق، ولكن بما أنَّ الطريق مرتفعة جداً وشاهقة فوق التلة فإنه سرعان ما شعر بالتعب من ذلك.

مع ذلك كنت أحثّه على المسير بواسطة ناخسات المهماز، وقد جعلته يصل بسرعةٍ إلى القمة، لكنه كان ميتاً أكثر من كونه على قيد الحياة.

بمـا أنـني لم أكن ميالاً إلى منح البهيمة أية فائدة مـن دقيقة راحةٍ واحدة، فقد جعلته يخبّ بهدوء إلى أسـفل التلة، وفي إحدى المرّات فوق السـهل، دفعته ليـس للاستمرار فحسـب، وإنما للمسير بسـرعةٍ فوّارة، إلى أن أصبح مروّضاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وأوصلني إلى بوابة خان طاووق Tauk قبل ساعتين كاملتين من وصول القافلة، وإنـي لأشـك فيما إذا كان ذلك البغل قد أنجز رحلةً أسـرع من هـذه الرحلة على وجه الإطلاق.

لقد تطوّر أداؤه بشكلٍ رائع، ولم يعد يظهر أية دلائل أخرى عن كرهه للمنخس بعد ذلـك، وقد قام بحملي بمنتهى اللطـف إلى كركوك، تماماً كما كان حصاني (فيليكـس) نفسه سيفعل.

وصلـت القافلـة مباشـرةً بعد الغـروب، ومنحنا رجالنـا وحيواناتنا فتـرةً من الراحة امتدت حتى منتصف الليل.

كان الخـان يبـدو كبقية الخانات الأخـرى في الوصف المعتاد، وكان غير مشـغول على الإطلاق مما مكنّا من ربط خيولنا بشكلٍ مريح جداً. ولكن لم يكن أحد يقطن في الجوار لنستطيع أن نشـتري منه الطعام للرجال أو الخيول، لذا كان علينا صنع أفضل ما يمكننا من مؤونتنا القليلة التي نحملها، ومواصلة رحلتنا، بعد منتصف الليل.

* * *

الفصل الثامن عشر

معالم شرقية

قلعة كركوك ـ الفرسان الأتراك ـ زوّارٌ عسكريون ـ الشمّام والفاكهة ـ صناعة النبيذ ـ فصول المطر ـ في المخيم.

انطلقنا حوالي الساعة الواحدة تقريباً، وكنا نسير على شكل طابورٍ قريبٍ من بعضه فوق طريقٍ جميلةٍ ونظيفة، وقد مررنا على مسافة قريبة جداً من قريتين أو ثلاث قرىً صغيرة وبائسة، وعند انبثاق الفجر لمحنا في البعيد المعالم الباهتة لقلعة كركوك القديمة، وقد بنيت فوقه رابيةٍ ضخمة أو تلةٍ شاهقة من الطين الأحمر المصفرّ، وتبلغ متتي قدم أو أكثر في الارتفاع، ويتراوح محيطها في القاعدة من ميل إلى ميلين تقريباً.

إنَّ هذا الارتفاع يعلو بشكلٍ شاهقٍ وعمودي تقريباً من وسط وادٍ عريض، وهو محاطٌ من الأسفل بالأبنية التي تشكّل مدينة كركوك وكلما كنا نقترب أكثر، كان المشهد أمامنا يصبح فاتناً جداً ونابضاً بالحياة.

كانت الشمس المتألقة قد أشرقت للتو ببهائها من خلف القمم الجاثمة والمظلمة لجبل علي، وكان جبل قرا داغ Kara Dagh الأكثر هيبةً وجلالاً ينير المشهد بشكلٍ رائع ويعطي القلعة الشامخة رونقاً وبهاءً نحاسياً مشرقاً، وكانت المآذن العالية والرفيعة والقِباب الضخمة المصقولة لجوامع المدينة العديدة تحيط بالحصن، وقد كانت تلك الجوامع محاطة بإكليل من الحدائق الغناء والمظللة بأوراق النبات المكتنزة ذات اللون الأخضر الداكن، يرويها جدولٌ صغيرٌ عذب فتّان، يتموج بمياهه الفضية اللامعة

من حديقة إلى أخرى.

يقع مقابل المدينة باتجاه الشمال سهل رملي واسع كان فوقه عدد لا بأس به من الفرسان الأتراك الذين يتمّ اختبار حركاتهم، وسيوفهم الساطعة تتوهج في ضوء الشمس الصباحي الباكر.

عندما دخلنا إلى المدينة كانت الساعة حوالي الثامنة صباحاً، وكان طريقنا يلتف عبر الشوارع المظلمة الضيقة والملتوية، وفي النهاية دخلنا إلى نزلٍ صغيرٍ متاخمٍ لأحد شوارع البازار. كان النزل يعج بالرجال والجمال والخيول والبغال والحمير، وبعد دخولنا مباشرةً أصبح مسرحاً لفوضى فظيعة جداً.

تم إيقاف خيولنا قريبةً جداً وملتصقةً ببعضها البعض، وذلك بسبب استهتار رجالنا، وكانت النتيجة الفورية لهذا التصرف رفسات عشوائية، وعض وقفز وشبّ الخيول وصهيل وصراخ بين كل أنواع الخيول الموجودة في الخان، وما جعل الأمر أسوأ من ذلك هو التحرّر المدمّر لحصاني فيليكس وثلاثة أو أربعة أخَر من فحولنا بالرغم من الجهود الخارقة للطبيعة التي قام بها رجالنا المسؤولون.

بمجرد أن رأت خيولنا الفحول أنفسها حرّةً طليقة راحت تندفع بقوة نحو بعضها بضراوةٍ لا توصف، وراحت تصهل وتصرخ وتعض، وتضرب بقوائمها الخلفية وتقف في بعض الأحيان على أطرافها الخلفية كالكلاب، وتهاجم بعضها في تلك الوضعية بأسنانها وقوائمها الخلفية.

لم يسبق لي قط أن شاهدت مشهداً من الفوضى والاضطراب كهذا.

كان هناك في وسط الخان أربعة فحولٍ غاضبة تتصارع مع بعضها كأنها أسودٌ كثيرة العدد في ساحة المجتلد الروماني تضرب وتدوس على الرجال والخيول والبغال والحمير.

أمّا الجمال الثقيلة التي ذعرت من الضجة الصاخبة والفوضى العارمة، فقد راحت بشكلٍ مرتجفٍ تحشر وتقحم بعضها في جدران المبنى، وأخرى انطلقت خائفة

ومسرعة خارج الخان نزولاً إلى البازار المكتظ بكثافة.

إنَّ الأسى الفظيع الذي مررنا به عند مشاهدتنا للخيول الجميلة والثمينة وهي تحاول أن تدمّر بعضها، وكذلك مشاهدتنا لرجلين مسكينين ممددين على الأرض دون حولٍ أو قوة مع وجود احتمالٍ كبيرٍ في أن يتم الدّوس عليهما حتى الموت، كل ذلك أعطانا أنا والسّنيور (P) وبعض رجالنا نوعاً من الشجاعة المستميتة، فاندفعنا نحو الخيول الهائجة مع وجود خطر كبير جداً على أرواحنا.

أخيراً... وبواسطة عمودين طويلين كانا لحسن الحظ في إحدى زوايا البناء نجحنا في الفصل بين المحاربين وإبعاد الخطر عنهم، بينما رفع بعض رجالنا من على الأرض الرجلين التعيسين.

لقد تعرّضا للرفس الشديد والكدمات القوية في ذاك الصراع المميت، ولكن لحسن حظهما لم يكونا مصابين بجروحٍ خطيرة. وتمَّ إحضار رجل ثالث من البازار حيث كان على وشك أن ينعصر بالحائط حتى الموت من قبل أحد الجمال الهاربة.

بعد المعاينة والفحوصات تفاجأنا كثيراً عندما وجدنا أنَّ أحداً من الخيول لم يكن مخدوشاً، وأنَّ الدمار الذي لحق بالأرواح والممتلكات بسبب الفرار الجماعي للجمال المذعورة في البازار كان ضئيلاً جداً.

طب الأسنان على أديم السهول

على الرغم من أنَّ هذا الفاصل لم يكن مستحباً على الإطلاق، فإنَّه خلَّف أثراً واحداً ذا فائدة؛ فقد كان سبباً في إخلاء الخان بسرعةٍ مدهشة من معظم الرجال والجمال والخيول والبغال الكريهين الذين كانوا يشغلون المكان قبل وصولنا.

كانت أخبار اقتراب وصول قافلة خيول سلطان (الفرنجة) قد وصلت كركوك قبل وصولنا بكثير، عن طريق قافلة الكونت (.de B) ومسافرين آخرين مرّوا بالمدينة قبل مدة يومين.

انتشر الخبر في المدينة كانتشار النار في الهشيم، وسرعان ما أصبح الخان محاصراً بالزائرين المتلهفين لرؤية تلك الحيوانات المشهورة، ومن ضمن زوارنا كان الحاكم المدني والعسكري للمدينة واثنان من الأتراك المهيبين يرافقهم حشدٌ من الضباط الذين كانوا جميعاً يبالغون في الإطراء على الخيول.

وقد ظهر أيضاً أحد أبناء البلد المسيحيين الأثرياء، وهو عميلٌ تجاريٌّ لأخي، وكان قد تلقى أوامر من بغداد بتزويدنا بالمال والمؤونة إذا تطلّب الأمر، وبلباقةٍ وكياسة شرقية حقيقية جعل على الفور نفسه ومنزله بالكامل تحت تصرّفنا، مع ذلك كنا مجبرين على عدم قبول دعوته الكريمة، وسبب ذلك أننا لم نكن نستطيع ترك الخيول في الليل برعاية مجموعة من العرب المهملين. إلاَّ أنَّه أصرّ من ناحيةٍ أخرى على إرسال مقدارٍ كبيرٍ جداً من جميع أنواع المؤن إلينا دون استثناء التبغ، وبسرعةٍ فائقةٍ أعاد ملء زجاجات النبيذ الأربع والعشرين الخاصة بنا بنبيذ ديار بكر الأحمر اللذيذ الذي لم نستطع طبعاً الاعتراض عليه إذ كان علينا أن نقوّي حالتنا الجسدية.

في فترة مابعد الظهر، جاء عميلنا ليأخذنا في جولةٍ على الأقدام عبر المدينة.

بدت لنا معظم المنازل مبنية من الحجر بشكلٍ متينٍ جداً، على الطريقة الشرقية كانت معظم الأبنية ذات أحجامٍ لا بأس بها، وبدا جليّاً أنَّ بعضها ذات عمرٍ كبيرٍ جداً، وخاصةً بعض المساجد والمآذن التي يوجد منها عددٌ كبيرٌ في كركوك.

تتسم الشوارع أيضاً بالسمات الشرقية، وتلك الرئيسية منها كانت مرصوفة بالكامل

بشكلٍ بائس غير مستوٍ وذلك بسبب الحجر الغشيم المستخدم.

كان البازار واسعاً وممتلئاً ببضائع آسيوية وأوروبية الصنع والإنتاج، كانت المؤن رخيصةً جداً، وخاصةً الفاكهة وأجود أنواع البطيخ والرّمان والخوخ، وكانت ألذ أنواع العنب ـ على رأسه العنب المستورد من بلاد فارس تباع مقابل مجرّد أشياء تافهة وأثمان زهيدة. كان السوق يعج بها ولكن السكان يخافون بعض الشيء من الانغماس بحرية في استخدامها، حيث كانت هناك إشاعات بانتشار الكوليرا في كل أرجاء المدينة.

لو عرف سكان بلاد الرافدين كيف يصنعون النبيذ من أطنان وأطنان العنب التي يسمح سنوياً بفسادها واستهلاكها في تلك البلاد لكانوا الآن ينتجون كمياتٍ كبيرة من أطيب وألذ سلعة على الإطلاق. إنَّ معظم سكان آسيا الغربية هم من المسلمين وبالتالي محرّمٌ عليهم أن يتذوقوا النبيذ، والسكان المحليون المسيحيون واليهود يفضّلون العَرَق (مشروب كحولي مسكر ـ يستقطر من النخيل وأحياناً من الخوخ) على النبيذ، لذا فإن الطلب عليه قليلٌ جداً.

وعليه فإنَّ صناعة النبيذ في هذه البلاد لا تزال بالتأكيد في مراحلها الأولى، وفي الواقع إنها مازالت تتم بالطريقة نفسها التي ابتكرها أبونا نوح قبل حوالي خمسة آلاف وأربعمئة سنة ليصنع كأساً منها لاستخدامه الشخصي، والتي وفقاً لسفر التكوين - الفصل التاسع - الآية الواحدة والعشرين حاز على استحسان الرجل العجوز.

حتى هذه اللحظة يقوم بعض صنّاع النبيذ في بلاد الرافدين وكردستان وبلاد فارس باستخدام الطريقة الأصلية في عصر العنب واحداً تلو الآخر بأيديهم، فوق وعاءٍ فخاريٍّ أو زجاجي ليجعلوا العصير يتقطّر في داخل الوعاء، ولا يزال هناك آخرون أقل شهية يسحقون عنبهم داخل أحواض خشبية أو فخارية بواسطة أقدامهم، وإن تلك العملية تحسّن «عبير!» النبيذ إلى حدٍ ما!

إذا كان النبيذ جيداً بعد عملية التخمّر، فإنه النبيذ الأفضل على الاطلاق، أما إذا تحوّل إلى خلٍّ فإنه قلما يهم ذلك؛ حيث إن الخل يستخدم بكثرة في كل منزلٍ تقريباً

في الشرق ولذلك يباع بسرعة أكثر من النبيذ.

يتراوح عدد سكان كركوك ما بين خمسة عشر إلى عشرين ألف نسمة، ثلاثة أرباعهم من المسلمين، وأغلبهم من الأتراك والتركمان والفرس والعرب. أما باقي السكان فهم من الأرمن والمسيحين واليهود.

ويوجد في المنطقة حامية عسكرية دائمة مؤلفة من ألف إلى ألفي جندي تركي. تحتل كتيبة جند المشاة ثكنةً في القلعة على قمة الهضبة، أما الفرسان وجنود المدفعية فيحتلون مناطق في ضواحي المدينة بسبب تعذّر وصول الأحصنة إلى القلعة.

إن كركوك مدينة ذات أهمية عالية، ويعزى ذلك إلى وجود تواصل تجاري شامل وواسع مع بلاد فارس، وبشكلٍ خاص من التبغ وصوف الأغنام وشعر الماعز والسجاد.

عند عودتنا إلى الخان في المساء وجدنا ثلاثة كهنة أميركيين يجلسون مع الأب (M) مبشرنا البلجيكي وصديق رحلتنا الذي بقي في الخان طوال اليوم؛ لأنه كان يشعر بأنه متعب وغير قادر على المشي.

لقد كانوا جميعهم في معضلةٍ حتى أتينا؛ إذ لم يكن الأميركيون يعرفون أية كلمة من أية لغة أوروبية، ولا الأب (M) يعرف أياً من اللغات غرب الآسيوية، لذا كانوا مضطرين إلى استخدام التمثيل الإيمائي إلى أن ظهرنا أمامهم، عندها عرض السّنيور (P) خدماته كمترجمٍ للعربية والفرنسية.

صرح الأميركيون أنهم كانوا قد أتوا ليقدّموا احترامهم لأخيهم الكهنوتي الذي علموا باقتراب وصوله قبل عدة أيام من قبل أصدقاء لهم في بغداد، وقد سألوه بتواضع إن كان من الممكن أن يقدّموا له النفع في أيّ أمرٍ من الأمور.

أجاب الأب (M) الذي أصبح مغرماً جداً بمشروب عَرَق كركوك مبتسماً وقال: إن عدّة قوارير من «المادّة الأصلية الخالصة» سيكون لا بأس بها بالنسبة له ولرفاقه كدواء في الرحلة في حالة التعرّض لحادث، بعد ذلك بقليل قدّم الأميركيون سلاماتهم

وغادروا واعدين بتزويدنا بالسائل المطلوب الذي وصلنا في حينه بالفعل عند الغروب، وقد تم ردّ الجميل بكمية من أجود أنواع السعوط الهولندي، فقد كان لدى الأب (M) مؤونة من وسيلة الرفاهية هذه، أهداها له باشا بغداد عندما ذهب الكاهن ليستأذن تلك الشخصية الفذة بالانصراف، مضى الليل بهدوءٍ تام، ونام الأب (M) بعمقٍ كالطفل حتى الصباح حين ذهب وردّ زيارة أصحابه الكهنوتيين.

حتى ذاك الوقت كانت قافلتنا قد استراحت لمدة يومين تقريباً وبدأت للتو في مواصلة مسيرها بحالة جيدة جداً.

كنا نسير باتجاه شمالي نحو آلطن كوبري[1] Altyn Kopru ـ قرية صغيرة كدرة على الضفة اليسرى للزاب الأسفل ـ حوالي ستة عشر ميلاً من كركوك. كانت طريقنا تؤدي عبر أرضٍ مستوية ومرتفعة حتى وصلنا إلى ضفاف النهر الصخرية المنحدرة. هنا، في الضوء الخافت للصباح الباكر، لمح السّنيور (P) زوجاً من الغزلان يحدقان في وادٍ صغيرٍ، فأخذ بندقيتي وأطلق، وأسقط واحداً، ولكن قبل أن يتمكن أي أحدٍ من النزول إلى الوادي لإحضار الطريدة، استعاد الغزال قوته ووقف على قوائمه وهرب.

عندما سمعنا أنّ المسافة بين آلطن كوبرى Altynkopru وأربيل تبلغ أربعين ميلاً تقريباً، وهي مسافة طويلة من الصعب جداً على رجالنا وخيول الحمل والبغال المحمّلة بأوزان ثقيلة أن يجتازوها في يومٍ واحدٍ، قرّرنا أن نخيّم على مسافة بضعة أميالٍ من آلطن كوبرى Altyn Kopru بغيةَ إنقاص مسافة رحلة اليوم التالي، إلاّ أن سكان القرية حاولوا ثنينا عن فعل ذلك مؤكدين أننا لن نجد أيّة منازل أو مصادر للماء على الطريق إلى أن نصل إلى أربيل.

كنا نعتقد أنّ القرويين يرغبون في بقائنا فقط للحصول على المال منا، فأسرعنا في المسير عبر النهر الذي كان عميقاً إلى حدٍ ما، وبللنا أمتعتنا.

---

(1) هذه تسمية تركيّة: Altın Köprü وتعني: الجسر الذّهبي. وسبب شيوع التسميات التركيّة في هذه المنطقة أنّ سكانها من التّركمان.

أما الأب (M) المسكين الذي كان يركب بأناقة حصاناً قزماً كهلاً، والفتاة الزنجية بَحري (Bahri) التي كانت لا تزال على حمارها الأبيض، فقد نزلت بهما الكارثة تقريباً عند عبورهما النهر الخاطف، ذلك أنَّ حيوانيهما صغيري الحجم لم يستطيعا الوصول إلى القاع في منتصف النهار، فلجأا بشكلٍ طبيعي إلى السباحة.

فقد كلاهما (الكاهن والفتاة الزنجية) رباطة جأشهما وتوازنهما في آنٍ معاً، ولولا مساعدة بعض رجالنا الفورية لهما لكانا غرقا بالتأكيد.

لقد ضاع الطربوش الأحمر الزاهي الجديد الذي كان الكاهن الشاب قد اشتراه من كركوك ليرتديه ليلاً، فطفا فوق التيار متجهاً نحو الخليج العربي ليزيد من خيبة صاحبه حاسر الرأس الذي التقط لبادته القديمة على مضض من خرج السفر المبلل الخاص به.

كان مسارنا لا يزال يتجه بنا شمالاً، وكنا نسير فوق سهلٍ مقفرٍ ومستوٍ تماماً حتى الساعة العاشرة تقريباً عندما رأينا قريةً صغيرة على مسافة أربعة أميالٍ من يسارنا تدعى قوش تِپه[1] Kushtepe، بنيت على المنحدر الشرقي لسلسلة طويلة من الهضاب المنخفضة التي تحدّ السهل من جهة الغرب.

لكن هذه القرية كانت بعيدة عن الطريق وقد بدت بائسة جداً، لذلك تابعنا المسير بسرعة حتى الظهر دون أن نعثر على الماء أو المساكن البشرية. في تلك الأثناء أصبحت الشمس متقدة بشدّة، الأمر الذي جعل رجالنا ومواشي الحمل الخاصة بنا منهكين تماماً، فرأينا أنه الوقت المناسب لنحط الرحال.

كنا قد اتخذنا احتياطنا في إعادة ملء قرب الماء الجلدية (tooloochs) الخاصة بنا ـ أكياس كتومة للماء مصنوعة من جلد الماعز وتستخدم لحفظ الزبدة والزيت والماء وغير ذلك ـ من النهر الذي عبرناه في الصباح، وفي الوقت نفسه أشبع الرجال والحيوانات عطشهم هناك.

(1) تسمية تركية أخرى: Kuş Tepe تعني: تل العصافير.

كنـا نعـرف أننا باقتصادنا في مؤونتنا من الماء بعض الشـيء سـيكون لدينا الماء الكافي لكل الرجال، وأنَّ الحيوانات لن تصاب بالعطش حتى حلول الصباح المقبل، الوقت الذي كنـا متأكدين أنه بحلوله سـنكون قـد عثرنا على الماء. وكنا على وشـك أن نبدأ البحث عن مكانٍ مسـتوٍ مناسـبٍ للتخييم عندما أفاد أحد الرجال ـ سائق بغلٍ كبيرٍ في السن ـ بأننا لا بد أن نجـد بعض المياه إذا تقدّمنا إلى الأمام قليـلاً وذلك كونه رأى العديد من طيور القطقاط التي تعلو في الهواء على مسـافة بضع مئات من الياردات أمامنا. تقدمنا إلى الأمام وسرعان ما وصلنا إلى ساقيةٍ صغيرةٍ حيث أنزلنا الرحال لنقضي الليل هناك.

بعـد أن ربطنـا خيولنا نصبنا خيامنا للمرة الأولى منـذ أن غادرنا بغداد؛ إذ إنها كانت المـرة الأولـى التي نضطر فيها إلى حط الرحال في الهواء الطلق منذ رحيلنا عن (مدينة الخلفـاء)؛ لأننـا كنـا حتى ذلك الحين نتمكن مـن الوصول إلى خـان أو قرية مع انتهاء رحلة كل يوم، مما جعل حتى ذلك الحين الخيمة غير ضرورية.

بسـبب الانعدام الكامل لوجود أية أشـجار أو شـجيرات فوق السـهل الأجرد بكل معنى الكلمة، كنا مجبرين على نصب الخيام بهدف حمايتنا من الشـمس التي أحرقت رؤوسنا المتفانية بقوةٍ عديمة الرحمة. كانت نيتنا الاستراحة حتى منتصف الليل تقريباً، ثـم مواصلـة الرحلـة والوصول إلـى أربيل عند السادسـة أو السـابعة من صبـاح اليوم المقبل.

بعـد أن غربت الشـمس مباشـرةً أنزلنـا خيامنا ثـم طويناها وأعدناها إلـى الحقائب واسـتعدينا للانطلاق. وانتهى النهار بواحدٍ من مشـاهد الغروب العظيمة التي لا يمكن رؤيتهـا إلاّ فـي هذه المناطـق الصحراوية، ولكن الزفير المنعش الـذي ينفخ عادةً على المسـافر المرهق مباشـرةً بعد الغـروب أخفق في الهبوب دون مبـرر، وجاء الليل دون أن يأتـي بالتغييـر المرجو في الجو الخانق. سـاعد ذلك فقط على زيـادة هذا النوع من النعاس الذي أصـاب الرجال والحيوانات بسـبب الحرّ القاتل في أثناء النهار.

بعـد أن أمرنا بعض الرجـال بالتمركز في نقاط مختلفة حول مرابط خيولنا مع أوامر بالمراقبة الجيدة مددنا فراشـنا وغرقنا في النوم بسرعة، أما بقية الرجال فقد زحفوا بين

الأمتعة ليضعوا أنفسهم بأفضل طريقةٍ ممكنةٍ بين الصناديق والحقائق الجلدية وخرجة السفر وبساطات الخيول والسرج وأدوات المطبخ...

قبل حوالي ساعة من منتصف الليل استيقظت ولمحت للمرة الأولى حينها ومضات ضوئية قوية في الأفق الغربي، أصابتني الدهشة عند مشاهدتي لتلك الظاهرة نادرة الحدوث في هذه المناطق، فارتفعت قليلاً عن فراشي وانتظرت الوميضين التاليين من ذلك الضوء القوي المفاجئ الذي استطعت من خلاله أن ألقي فقط لمحة على مخيمنا. وعندما رأيت أن أياً من خيولنا الأصيلة لم يكن مفقوداً، وكل شيء بدا هادئاً، استلقيت مجدداً معتقداً أنه لن يكون هناك أية أمطار، وأنَّ الجو الخانق سيصبح نقياً بفعل البرق.

على الرغم من أننا كنا في ذلك الحين في منتصف شهر سبتمبر تقريباً إلاَّ أنّ أول أمطار الفصل لا تزال تحتاج إلى شهر من الزمن. وعلاوةً على ذلك، لم يكن من المعقول أنني من بين كل أفراد المخيم كنت الوحيد الذي شاهد البرق، ذلك أنه من المؤكد أن بعض رجال المراقبة يجب أن يكونوا مستيقظين. كنت مقتنعاً تماماً بأن جزعي حول المطر كان منافياً للطبيعة، لذلك حاولت أن أخلد إلى النوم ولكنني لسبب أو لآخر لم أستطع فعل ذلك.

نهضت من فراشي وأشعلت غليوني وألقيت نظرة على السّنيور (P) والأب (M) اللذين كانا يغطان في نوم عميق، ثم تركتهما ومشيت نحو الخيول وحاولت أن أعدّها، لكنني لم أنجح، لأن ذاكَ الضوء الكهربائي لم يدم أكثر من لحظة ليترك بعده كل شيءٍ غارقاً في الظلمة المصرية مرّة أخرى.

بعد أن أخفقت في ذلك، كنت على وشك أن أجري تفقداً لرجال المراقبة الذين بدا أن النعاس كان قد تغلب عليهم، حين هطل فجأةً وابلٌ هائلٌ من الأمطار لم أشهد له مثيلاً في حياتي. لم يكن مطراً مألوفاً على الإطلاق، فقد كان ينزل كالحبال، بل بملء الدلاء، لا بل بالأطنان، وباختصار أكثر كان مطراً طوفانياً. وأودّ بشدة أن أذكر أنه كان للأمطار أثر مدهش على النائمين الذين وثبوا على أقدامهم كأنما لسعتهم الدبابير، راغبين في حماية الفراش التي كانت أصلاً قد نُقعت بالماء قبل أن يدركوا ما الذي حدث.

لقد كانت صورة أكثر إثارةً للشفقة والسخرية من مخيمنا، برزت أثناء هطول تلك الأمطار المغرقة والمبرّدة وإنه من الصعب جداً تخيّلها. كان بعضنا يقف مرتجفاً من البرد، بأسنان مصطكة وثياب تقطر ماءً، يتلمسون طريقهم نحو أحذيتهم أو أي قطعة ثيابٍ أخرى، بينما كانت الخيول والبغال تنتظر مستكينة انقطاع المطر برؤوسٍ منخفضة وعيون مغلقة.

انتهى ذلك خلال ربع ساعةٍ من الزمن تقريباً بشكلٍ مفاجئٍ تماماً كما بدأ، وفي غضون بضع دقائق إذا بالأرض، المتلظية والمتشقّقة بسبب ثمانية أشهر من الجفاف، تبتلع كل المياه ليبدو سطحها ثانيةً جافاً بالكامل. لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لثيابنا وفراشنا، وغيرها من الأشياء التي ضاعفت الأمطار وزنها كثيراً، لتزعج كلاً من الرجال والدواب. من ناحيةٍ أخرى شتّت وابل الاستحمام هذا نعاسنا، وبما أن الوقت كان قريباً من منتصف الليل فقد أنزلنا المخيم وواصلنا رحلتنا بالرغم من الظلام الحالك الذي لا يمكن اختراقه حيث كان وميض البرق في تلك الأثناء قد اختفى كلياً...

لم يكن هناك أيّ نجمٍ يمكن رؤيته، وقد عمَّ المكان صمتٌ كئيب. وهبت رياحٌ باردةٌ ضاريةٌ مصحوبةٌ بوابلٍ من المطر تسببت بالتصاق ملابسنا المبللة بأجسامنا المرتعشة وجعلت رحلة تلك الليلة أكثر عمل مزعجٍ صادفه قدري من أي وقتٍ مضى..

وأخيراً طلع النهار وتوقف المطر وخمدت الرياح الباردة، وشتتت الشمس المشرقة في النهاية تلك الغيوم الثقيلة. لم يسبق لي أن رحّبت بأشعة الشمس بشدّةٍ واتقاد كما فعلت بعد تلك الليلة المغمّة وقد أبدى أفراد القافلة مشاركتهم الوجدانية المطلقة لي.

واصل السّنيور (P) جذله المألوف وراح يدندن أغنيته الصباحية المعتادة وتكون عادة من أغنية «مارتا» Martha أو «نورما» Norma أو «تروفاتوره» Trovatore، أما الأب (M) فقد أخذ مع زفرةٍ عميقةٍ جرعةً من قارورة الحقل، وبَحري (Bahri) ابتهجت وابتسمت، ورجالنا العرب الذين حافظوا على صمتهم الجنائزي منذ منتصف الليل تابعوا حديثهم المعتاد، حتى الخيول بدأت تمشي مسرعةً بخفّةٍ أكثر.

عندما وصلنا إلى قمة التل المنخفض لمحنا على مسافة تكاد لا تصل إلى ميلين خلفنا مدينة أربيل الصغيرة، يظللها شيءٌ كالحصن يقع على هضبةٍ عاليةٍ منحدرة ذات تربة شبيهة بتلك التي في كركوك ولكنها أكبر بكثير، كان هناك عدد كبير من الأحصنة والبغال والحمير والأغنام والماعز التي خرجت من البوابة الجنوبية للمدينة، ومجموعة ضخمة من الجمال المحمّلة بالبضائع بثقل، تمشي ببطءٍ نحونا، وذلك دلّ بوضوح على أنَّ سكان المكان كانوا قد شرعوا في أشغالهم اليومية، وخاصةً الجنس اللطيف اللواتي وجدنا الكثيرات منهنّ مجتمعاتٍ ليسحبن الماء من الآبار العميقة أو الأحواض الموجودة خارج حدود المدينة، ويحملن الشيء نفسه في قرباتٍ فخاريةٍ كبيرة أو جرارٍ مثل (ربقة) أو (راحيل) في الكتاب المقدس، كن يحملن تلك الجرار على أكتافهنَّ أو يوازنهنَّ برشاقةٍ فوق رؤوسهن.

عند اقترابنا من المدينة طلب العربي الشاب الذي استأجره السِّنيور (P) في بغداد كبيطارٍ للخيول خاص بقافلتنا أن يغادر ليسبقنا ويخبر والده - الذي يعمل بيطار خيول أيضاً - بقدومنا. بعد أن تمت الموافقة على طلبه انطلق وسرعان ما عاود الظهور ثانيةً بصحبة أبيه وهو رجلٌ مسنٌّ رمادي اللحية، أرشدنا بدوره إلى أفضل خانٍ في المدينة.

بمجرّد أن تمّ ربط الخيول بأمان، كان بالطبع كل واحد منا متلهفاً إلى التخلص من ثيابه المبللة، ولكن بضعة رجالٍ فقط من رجالنا كانوا قادرين على فعل ذلك، فالعديد منهم كانوا لا يملكون سوى ما يحملون على أجسامهم فقط.

مع ذلك لم يبدُ على هؤلاء الرجال الأكفّاء أنهم منزعجون أدنى انزعاج من هذه الحالة، وبكل بساطة اختاروا أكثر بقعةٍ مشمسة استطاعوا إيجادها في الخان، فتمددوا منبطحين ورؤوسهم متجهة إلى الأسفل وظلّوا هكذا حتى جفَّ جزؤهم الخلفي كلياً، عندها انقلبوا على ظهورهم وجففوا الجزء الأمامي منهم بالطريقة نفسها، أثبت اليوم أنه سيكون دافئاً ومبهجاً مما أغرانا للقيام بنزهة قصيرة حول المكان.

* * *

الفصل التاسع عشر

بالقرب من أربيل التاريخية

المظهر الحالي ـ ذكريات قصيرة ـ قهوة ـ إنزال المخيم ـ نهر الزاب الأعلى ـ حوض النهر ـ جبال كردستان ـ الموصل على مرمى النظر ـ وادٍ جميل ـ في الموصل ـ الباشا المخادع ـ تاجر الموصل ـ آثار نينوى.

كانت المدينة - إذا صحَّ أن ندعو عشّاً بائساً كهذا هكذا - أصغر بكثير من كركوك وبالكاد يصل عدد سكانها إلى خمسة آلاف نسمة معظمهم من المسلمين، ذلك أن المسيحيين واليهود يجدون أربيل مكاناً متعصباً جداً للعيش فيه بسلام.

إنَّ المنازل التي تشكّل المدينة ليست تقريباً لائقة المظهر كتلك في كركوك، وهناك العديد منها خالية من السكان وهي مجرّد أنقاض.

كانت شوارعها ضيقة ومظلمة وملتوية ومجردة من البلاط، لذلك تكون مغطاة في الصيف بنصف قدم من التراب، وفي الشتاء تغطى بطبقةٍ أكثر عمقاً من الطين، ويحتوي المكان على بازارٍ صغير مغطىً بحصائر من القش مهترئة ومتعفنة.

كانت طرقاته الضيقة مرصوفةً في الأصل بأحجارٍ مدوّرةٍ ضخمةٍ، إلاَّ أنَّ الزمن والإهمال جعل بقايا تلك الأرصفة خطيرة إلى حدٍ ما بالنسبة لكلٍ من الإنسان والحيوان على حدٍّ سواء، فقد كانت الممرات الضيقة مليئة بالحفر العميقة والأحجار الناتئة التي تكاد لا تُرى في البازار المظلم سيّء التهوية والمكتظ بكثافة، وهذا يعني أنه

إذا كانت هناك سلسلة من الأكشاك الصغيرة المظلمة، الوضيعة والبائسة المكونة من الطين والأحجار المنحوتة بخشونة والخشب الذي أكلته الديدان، وتكاد تكون مزودة بمتطلبات الحياة اليومية الأكثر عموماً، فمن الممكن أن تدعو ذلك بازاراً.

على الرغم من أنها الآن مكان بائس جداً، فإنَّ أربيل ذات سمعة تاريخية ذائعة، إنها المكان الذي حارب فيه الإسكندر الفاتح وانتصر في معركة «أربيلا» المشهودة - أربيلا - الاسم القديم لأربيل - في الثاني من أكتوبر قبل ثلاثمئة وإحدى وثلاثين سنة قبل الميلاد، ضد جيش هائل من جنود «داريوس كودوماموس» ملك الفرس الذي هُزم تماماً وتم تقطيعه إلى أجزاء.

إنَّ داريوس الذي هرب بعد أن أُسر من قبل الإسكندر، فرَّ إلى الجبال ولكنه سرعان ما تمَّ القبض عليه وقُتل من قبل Bessus (بيسوس) الذي تصرّف حسب أوامر الإسكندر دون شك، إلاَّ أن ذلك الآخر تظاهر بالأسف على النهاية المأساوية لألدّ أعدائه فسجن (بيسوس) وأجهز عليه بنفسه.

تُعرف المعركة المذكورة في الأعلى أيضاً باسم «معركة غاوغاميلا» Gaugamela وسميت كذلك نسبة للنهر الواقع على مسافة ستة عشر ميلاً شمال غرب أربيل، ولكنه معروفٌ أكثر باسم «الزاب الأعلى» وهو المكان الذي حاولت فيه قوات (داريوس) منع الإسكندر من عبور النهر ولكن دون جدوى.

* * *

قضينا أنا والسّنيور (P) فترة مابعد الظهر في مقاهي المنطقة المتعددة المظلمة والقذرة والمفعمة بالدخان، وذلك بهدف شراء المزيد من الخيول الأصيلة.

تنتشر دور شرب القهوة وتدخين التبغ هذه بشكلٍ جيدٍ في أرجاء الشرق، ويجوز تسميتها بحق بورصة المدن الشرقية؛ إذ إنَّ الجزء الأعظم من أعمال القسم الذكوري من السكان يتم بالفعل في داخلها.

إنهم يستمتعون في استقبال الزبائن الفقراء تماماً كالزبائن الأغنياء، هناك يمكنك أن

ترى المليونير والشحاذ، اليهودي والمسيحي، المسلم والوثني والكاهن والنخّاس، اللواء والجندي العادي، السيد والعبد، البحار العربي، الصياد، الحلاق، التاجر، رجل الدين، المخصي، سائس الخيول، وسارق الخيول، مقرض المال والحمّال، بائع المجوهرات، الظابطية zâptieh (الشرطة)، القوّاص Cavass – خدمٌ مسلحون – وعامل التنظيفات، كلٌ من هؤلاء يرشف القهوة الساخنة ويدخن التبغ ويفكّر ويتحدث عن أموره الخاصة أو عن أمور جاره، في حين كان البازار الأصلي مختصاً أكثر بعرض البضائع المخصصة للبيع أو المقايضة، وكذلك بورشات العمل المختلفة الخاصة بالتجار.

تكتظ المقاهي الشرقية منذ طلوع الفجر حتى وقت متأخر من الليل بالمتسكعين الحقيقيين والظاهرين للعيان الذين يشغلون بوضعياتهم المختلفة كل المقاعد الصلبة والكراسي والدواوين؛ بعضهم ينفثون الدخان بهدوء من نرجيلاتهم وغلايين الشّطب "Shattabs" والسّبيل "Sebils" الخاصة بهم، وآخرون يرشفون القهوة الساخنة حتى الغليان، وغيرهم أيضاً يومئون بعنف ويتحدثون بصياح مع بعضهم.

هناك العديد منهم يجلسون لساعاتٍ، لا بل لأيام منشغلين في ذلك، لا شك أنهم يعتقدون أنّ من واجب كل هؤلاء الذين يريدون العمل معهم أن يأتوا إليهم ويطلبوا ذلك منهم.

في ذاك المساء تمّ عرض أعدادٍ كبيرةٍ من الخيول لنا، ولكن باستثناء مهرٍ حوليٍّ جميلٍ لونه أسود قاتم كانت جميعها تحت المستوى المطلوب. كانت السّنيور (P) سيشتري وهو بمنتهى السعادة ذلك المهر حتى مقابل الثمن الباهظ الذي طلبوه والمقدّر بعشرة آلاف مجيدي تركي – أربعمئة وخمسين دولاراً – ولكنه خشي أنّ ذاك المخلوق الصغير المتحمّس لن يتحمل رحلتنا البطيئة والمضجرة، ولكنه بعد ذلك ندم بحق على عدم شرائه له.

في الصباح التالي قبل شروق الشمس بوقتٍ طويلٍ غادرنا أربيل دون أن يرافقنا الحداد الشاب الخاص بقافلتنا، الذي فضّل أن يبقى مع والده.

عندما انبثق الفجر شاهدنا الكثير من الغزلان ترعى في العشب الضئيل الموجود على السهول التي كنا نسير فوقها، ولكننا لم نحاول أن نطلق النار على أيٍّ منها كونها بقيت بعيدة جداً عن مسارنا، وإنَّ مطاردتنا لها ستكون عديمة الفائدة ذلك أنه ليس هناك حصان قادر على إدراكها فوق هذه الأرض الصلبة المتيبسة.

مع اقتراب فترة الظهر، وصلنا إلى ضفاف الزاب الأعلى الفاتنة للغاية وهو نهرٌ جارفٌ عميقٌ يصل عرضه إلى خمسين ياردة وتتدفق بمياهه الكريستالية تحت مستوى السهل بمئتي قدمٍ على الأقل عبر وادٍ صخريٍّ ضيق، أو بالأحرى ممر جبلي ذي جانبين منحدرين بشدة وشبه عموديين مغطيين بالعشب الضئيل[1].

قبل أن نهبط الضفتين المنحدرتين، لاحظنا على مسافةٍ قريبةٍ من يميننا، قريةً مهجورةً تحوي حوالي عشرين كوخاً طينياً، وقد سقطت جميع أسطحها في داخلها. رغم أنَّ ذلك المكان كان مهجوراً إلاّ أنه يعجّ بالحمام البري، اجتمعت هناك الآلاف والآلاف منها فوق بقعة الأرض الفارغة المكشوفة الصغيرة في وسط تلك الآثار، حيث من الواضح كما يبدو أن بعض سكان القرية السابقين كانوا مؤخراً يدرسون الحنطة أو الشعير، وكان بالإمكان رؤية حماماتٍ إضافيةٍ تطير بأسرابٍ نحو المكان تطاردها بعنف بين الحين والآخر الصقور وطيور الباز، تسفّ بسرعةٍ على طول الصخور المرتفعة أو تدور عالياً بصمتٍ فوق هوّة الممر الجبلي الجميل.

كنت راغباً في اصطياد بعض الحمام من أجل الفطور، لذا مشيت مسافة مئتي ياردة داخل القرية حيث تركت حصاني ليرعى إلى حين عودتي، ونجحت في التخفي في كوخٍ دون أن تراني الحمامات على مسافة خمسين ياردة منها. كان عددها كبيراً جداً حتى إنها غطت الساحة الصغيرة كسجادةٍ زرقاء مائلة إلى الرمادي.

بام! بام! أطلقت سَبَطانتيّ بندقيتي فسقطت ثمان وعشرون حمامةً على الأرض. لقد كنت متفاجئاً إلى حدٍ ما عندما رأيت ثلاثة أشخاصٍ ذوي شكلٍ ضارٍ ومدججين

(1) كتب لوكر: حصنٌ طبيعيٌّ كان تحت حماية جيش داريوس سنة 331 ق. م، وكان منيعاً ضد أيّ كان باستثناء الإسكندر ونابوليون الأول.

بالسلاح خرجوا من أحد الأكواخ المتداعية عندما تقدّمت لألتقط طيوري.

أخرجت سلاحي السداسي الطلقات على الفور وعزمت على الإطلاق على أول واحدٍ سيتدخل بي، ولكنني سرعان ما رأيت إنهم أبدوا مفاجأةً كبيرة بلقائنا معاً كما شعرت. شاهد الرجال الحمامات المناضلة على الأرض، فهزؤوا أنفسهم وقام أحدهم - الأكبر سناً - بمخاطبتي قائلاً: «صبّحك الله بالخير»... "*Sabah allah bucher*" أي صباح الخير... التحية الصباحية المألوفة في بلاد الرافدين وسوريا، والتي أجبت عليها بكل تأكيد. حينئذٍ لاحظت أنهم كانوا مسيحيين محليين كما كان واضحاً من لباسهم وشعرهم الطويل. سألوني عما إذا كنت وحيداً، فقلت: لا، وفي الوقت المناسب سمعت صهيل حصاني من خلفي، وعندما ألقيت نظرة سريعة إلى الوراء رأيت مصطفى قادماً فوق التلة، يمتطي فرسه الحديدي اللون، ويقود حصاني من اللجام.

سلّم مصطفى على الرجالِ الثلاثة بفتورٍ، وعرض عليهم مبلغ خمسة مجيدات تركية - خمسة وعشرون ستاً ذهبياً - مقابل قيادتهم للقافلة عبر النهر، فقبلوا ذلك في الحال، والتقطوا حماماتي وانضموا معنا إلى القافلة. في ذلك الحين أخبرنا الرجال أنهم ينتمون إلى القرية التي رأيناها، وأخرى واقعة على مسافة قريبة من الضفة المقابلة، وأنهم كانوا طوال الصباح ينتظرون قافلةً من الحمير أوكل بها بعض القرويين الذين يتوقعون قدومهم من أربيل حيث باعوا محصول الشعير الخاص بهم.

قال الرجال إنهم أووا إلى الكوخ ليحصلوا على قسطٍ قصيرٍ من النوم، فأفزعتهم عياراتي النارية وخرجوا ليروا ما كانت القضية.

كانوا يقودون قافلتنا بذكاءٍ مطلق، بخطٍ متعرّجٍ نزولاً من الضفاف المنحدرة إلى النهر، وقاموا بإرشادنا عبر جرفٍ أكثر ارتفاعاً بضع مئات من الياردات وهو المكان الوحيد الذي كان فيه التيار العميق الخاطف والهادر قابلاً للعبور ولكن ليس دون ابتلال الأمتعة المحمولة على ظهر البغلين الأصغر اللذين انجرفا إلى القاع بفعل التيار القوي، وتم إنقاذهما من الغرق بشق الأنفس.

أصيب الأب (M) المسكين بهرعٍ كبيرٍ جداً عند عبور «الرّوبيكون»، ونزل للمرة الثانية في المياه العميقة، إلاً أنه هذه المرة تعلق جيداً بحصانه القزم، وذلك بواسطة يديه كلتيهما اللتين أمسك بهما بمتهى الحنان رقبة حصانه ونجا دون أية أضرار أكثر من حمّامٍ بارد رائع.

عندما وصلت القافلة إلى اليابسة بأمان نزع اثنان من مرشدينا ثيابهما وعتادهما وحملوها على شكل صرّة فوق رأسيهما ثم عبرا النهر مرة أخرى، بينما قادنا الثالث إلى قريته حيث قررنا أن نبقى حتى المغيب.

لم تكن الضفة اليمنى للنهر منحدرة تقريباً كتلك التي تركناها، ولكنها كانت مغطاة بالعشب الطويل والشجيرات، وتعج بالطيور المائية الرائعة وقد لاحظت بينها على وجه الخصوص نوعاً أسود وأصفر وأبيض من البط البري (الشرشير).

وقد أطلقت النار على بطةٍ كبيرةٍ، أو بالأحرى إوزة؛ ذلك أنَّ ساقيها كانتا أطول من ساقي أي بطة ولكنها كانت أصغر حجماً من الإوزة البلدية، وكان لها منقار أصفر قصير وريش بني فاتح بالإضافة إلى ريشات ذات أطراف بيضاء في الجناح.

كان هذا الطائر المذكور يتواجد بأعداد كبيرة جداً في الأجزاء غير المأهولة على ضفاف دجلة والفرات، ولكن لم يسبق لي من قبل أن رأيت أياً منها فوق ضفاف روافدهما. وعلى الرّغم من كون لحمها داكن اللون فإنه طري ورائع الطعم.

بما أنني لم أكن أشعر بالتعب على الإطلاق، رحت أتجوّل خارجاً بمجرد أن انتهى فطوري وبندقيتي على كتفي، وبينما كنت أتسكّع على طول الضفة لمحت في حفرة مائية ليست عميقة محاطة بالعشب الطويل والأزهار الجميلة سرباً من البطات التي طارت بمجرد رؤيتها لي، إلاّ أنني استطعت أن أسقط اثنتين منها. عندما مشيت نحو البركة لألتقطهما، رأيت حيواناً زاحفاً يزحف بسرعةٍ كالبرق في الطريق الذي أسير عبره، ثم سمعت بعد ذلك مباشرةً صوت رذاذ ماءٍ في البركة، اعتقدت أن هذا الشيء كان أفعى كبيرة - وهي نوع من المخلوقات الحيوانية التي أجعلها هدفاً للإبادة كلّما

ظهـرت أمامـي - فركضــت إلى البركـة وأطلقت عليها النـار قبل أن تصـل إلى الضفة المقابلـة عندئذٍ غاصت هناك وتمكنت أن أصل إليها وأمســكها بيدي، لكنني شـعرت من جسـدها الأملس الزلق المتلوي بأنها لا تزال على قيد الحياة، سحبت يدي مباشرة عندما شعرت إلى حدٍ كبير بأنها أفعى، وانتظرتها لبعض الوقت حتى تموت.

بعد قليل تلمّســتها ثانية، ولكنني لم أنجح إلا في الحصول على أصابعي بيأس وقد عضتها الأفعى بأسنانها.

قذفت يدي في الماء مرّة أخرى بشـكلٍ غريزي، وبالدهشـتي حين سـحبت حيواناً يتلوّى من فصيلة السّحالي، ذا عيـنين مخضرّتين تتوهجان بشكلٍ شرير.

كان طـول هـذا الزاحف الغريب يصل إلى سـتة أقـدام تقريباً، وظهـره مغطىً بجلدٍ خشـن له صفات جلد التمسـاح نفسـها، وبطنه أملس ذو لونٍ أبيض مخضرّ، أما مقدمة أطرافه الأربعة فكانت مسـلحة بمخالب حادة جداً كمخالب النسـر. اسـتطعت تحرير أصابعي بصعوبة لأن الأسنان كانت طويلة وحادة كأسنان القط البرّي.

رغـم أننـي لم أستسـغ كثيراً فكـرة أن يتصرّف حيـوان زاحف غير معـروف الأصل بأصابعي بحرية مطلقة، فإنني كنت سعيداً بأنه لم يكن أفعى؛ ذلك أني عندما تفحصت أسنان الحيوان، وجدت أنَّ عضتها حتى لو كانت بليغة فهي لم تكن سامّة أو مميتة. مع ذلك قمت باتخاذ احتياطي بمصّ الجرح ثم غسله بعد ذلك جيداً بالماء.

بعد أن انتهيت من هذا، كنت تواقاً لمعرفة نوع هذا المخلوق الذي يبدو كالتمسـاح الصغير أو العظاءة الضخمة، لذا التقطت البطتين اللتين اصطدتهما، وأمسكت بضحيتي الأخيرة من ذيلها وسحبتها خلفي فوق العشب الطويل وتمشيت عائداً إلى القافلة.

لـم يكن الشّـنور (P) على علم بالاسـم الحقيقي للمخلـوق وكان العرب يطلقون عليها اسماً غاب الآن عن ذاكرتي[1].

أثناء رحلاتي في جنوب أفريقيا ومدغشـقر والهند... وغيرها، رأيت وقتلت أنواعاً

---

(1) اسمه بالعربيّة الضبّ أو الورل.

عدة من فصيلة العظاءات أو السحالي، تتراوح في الحجم ما بين حجم التمساح الضخم الذي يبلغ طوله ستة عشر قدماً، نزولاً إلى أصغر السحالي التي بالكاد تصل إلى إنش واحد في الطول، ومن بين كل تلك الأنواع المختلفة من العظاءات كانت (الإغوانا) هي الوحيدة التي تشبه حيواني هذا إلى حدٍ قريبٍ جداً. والإغوانا هي نوع من العظاءات تتراوح ما بين القدمين إلى خمسة أقدامٍ في الطول وتتواجد في جنوب آسيا وفي أفريقيا جنوب الصحارى، وفي أميركا جنوب تكساس، وتعيش في الأجمات الصغيرة أو في الرقع الغنية بالعشب والشجيرات، ولكنها مغرمة بشكل خاص بالظلال المظلمة والصّمت الهادئ للغابات العذراء حيث يمكن رؤيتها هناك خصوصاً على الأشجار العملاقة أو تتسلق من غصنٍ إلى غصنٍ آخر بخفةٍ ملحوظة بحثاً عن الفرائس. تتغذى الإغوانا على الطيور الصغيرة وبيض الطيور والسناجب والحشرات والمواد النباتية. ويصطاد العديد من سكان البلدان السابقة للتو هذا الحيوان من أجل الطعام، ويعتبرونه طعاماً شهياً للغاية.

في أحد المرات بينما كنت أصطاد في منطقة Amazooloo Kaffirs في جنوب أفريقيا سنة 1863 تذوقت طعم لحم الإغوانا فقط من أجل الفضول. قام الكفيريون بقطع ذيل الإغوانا الضخمة التي اصطدتها ثم شووها وأكلوها. وعندما تذوقت طعمها وجدته شبيهاً جداً بطعم السمك، ولكنه مشوبٌ بنكهة غريبة تشبه نكهة المسك، باستثناء ذلك وجدت طعمها لذيذاً بلا جدال.

بالتأكيد لم يكن النموذج الذي اصطدته على ضفاف الزاب الأعلى (إغوانا)؛ إذ إنه يختلف جداً عن هذا الآخر من حيث اللون والحجم وشكل الجسم، إلى جانب ذلك إن الإغوانا - بما أنني أعلم هذا جيداً - لا تلجأ نهائياً إلى الماء حتى وإن كانت مطاردة، وأشك فيما إذا كانت تتواجد في مسافةٍ أبعد من خمس وثلاثين درجة عرضٍ إلى الشمال.

لا يمكن أن يكون ذاك المخلوق تمساحاً صغيراً حتى؛ لأنه كان سريعاً جداً في حركته،

وعلاوة على ذلك فإنَّ التماسيح ليست معروفة على الإطلاق في بلاد الرافدين[1].

* * *

واصلنا رحلتنا عند منتصف الليل تقريباً، ولكن كان علينا أن نتقدم بحذرٍ شديد بسبب وعورة الأرض التي يتوجب علينا المسير فوقها.

بعد رحيلنا عن ذاك المسيل الجبلي مباشرةً، بدأت السماء تمطر كثيراً حتى أثارت ضجر واشمئزاز البشر والدواب على حدٍ سواء، هذا لأنها جعلت الأرض تصبح طينية وزلقة وبالنتيجة أكثر صعوبة في المسير.

مع اقتراب الساعة الثالثة صباحاً توقف رذاذ المطر وعاد القمر والنجوم للظهور مجدداً، وبالتالي لتسهيل تقدّمنا فوق الأرض المتموّجة إلى حدٍ كبير. عندما بدأ النهار بالانبلاج، وجدنا أنفسنا عند سفح سلسلتين من جبالٍ شاهقةٍ جداً وصخرية جرداء، يفصلهما عن بعضهما نهرٌ صغيرٌ يطلق عليه السكان اسم غزير، وكانت طريقنا تمر مباشرةً من بين السلتين بخطٍ متعرّج.

من الغريب القول إنه لم تسقط ولا حتى قطرة مطر واحدة في تلك الجبال، وكانت الطريق مغطاة بالتراب بثقل، بينما كانت على بعد بضعة أميالٍ فقط إلى الشرق قد أمطرت بغزارة لمدة ثلاث ساعات تقريباً.

بعد أن قام أحد رجالنا بإخبارنا أننا سنحظى بمشهدٍ رائع الجمال لمدينة الموصل من على قمة الجبل، تقدّمنا أنا والأب (M) على القافلة، راغبين في رؤية عاصمة الرافدين الأعلى بأسرع ما يمكن. ومع وصولنا إلى قمة السلسلة الجبلية الأولى خاب أملنا عندما اكتشفنا أنه يتوجب علينا عبور سلسلة أخرى عالية قبل أن نتمكن من الوصول إلى المنظر المنشود.

كان المشهد الذي نعمنا به فوق قمة السلسلة الأولى ساراً جداً وممتعاً بالنسبة

---

(1) كتب لوكر: منذ ذاك الحين تيقنت أن الحيوان المشار إليه يعود إلى عائلة (الورل) وأنه كان نوعاً كبير الحجم جداً من فصيلة ورل Nitoticus.

لنـا، حيث وجدنـا البلاد من الجانب الأيمن تنتصـب بالقمم العديدة لجبال كردسـتان، بعضهـا ذات ارتفـاعٍ عظيـم، وذُراهـا الشـامخة كانت في ذلـك الحين مضـاءة بجمال بواسـطة البريـق القرمزي الذي يضفيـه الضوء المؤذن بمجيء شـمـس الصبـاح، بينما كانت أخواتها الأصـغر لا تزال مسـترة بالضباب الباهت للصباح الباكر، تشطرها بأعدادٍ لا تحصى وديان تشـبه الشـقوق مكنونةً بعمقٍ بين الجبال، حتى إنَّ ضوء النهار لم يكن قادراً على التسـلل إليها بعد. كنا نرغب بشـدة في مشاهدة شروق الشمس المتألقة من علـى قمة السلسـلة الجبلية أمامنا، لذا لم ننتظـر وصول القافلة التـي كانت تعدو ببطءٍ على طول الممرّ الجبلي شديد الانحدار، بل هبطنا دون تأخير إلى النهير الصغير الذي ذكرت سـابقاً أنـه يفصل بين السلسـلتين الجبليتين، فعبرناه ووصلنا إلى قمة السلسـلة الثانية تماماً عندما أشـرقت الشـمس بكامل عظمتها وجلالها فوق المنطقة الجبلية في لورستان الغربي.

يالـه من مشـهدٍ مهيبٍ يمتد أمامنا! مباشـرةً... أمامنا، وعلى مسـافة ألف قدم تحتنا تقريبـاً، يمتدّ وادي دجلة الضخم والنهر العظيم الذي أضاءت صفحته الفضية اللامعة والواسـعة نفسـها بالتواءاتٍ لا متناهية في ضباب الأفق البعيـد. على الضفة المنحدرة للطـرف الآخر مـن النهر أبصرنا مدينة الموصل بجدران مسـاجدها الواضحة الناصعة البيـاض، ومآذنهـا التي تنتهي بالهـلال الذهبي الذي لا يتغير، وقـد كانت آنذاك مضاءة بتلك المسـحة الوردية الخاصة التي منحتهـا لها الخيوط الأولى لكرة النار المتوهجة. وكلما ارتفعت الشمس للأعلى في الأفق المشرق بدا كل شيء أكثر وضوحاً، ولبعض الوقـت أصبح المشـهد بكامله حولنا كأنه مضـاءٌ (بنارٍ بنغالية)، وأثنـاء تلك اللحظات حتى السـهول الواسـعة والمضجرة فـي El jezireh ـ أي الجزيرة، وهو الاسـم الذي يطلقـه السـكان علـى المنطقـة الواقعة بين نهـري دجلة والفـرات ـ بدت فاتنـة. إلا أنَّ المنظر الاسـتثنائي الرائع الذي تلذذنا به من موقعنا المرتفع أصبح أكثر متعة مع حقيقة أننا كنا نقف مباشـرةً فوق آثار نينوى[1] ذائعة الصيت، التي تناثرت فوق السـهل بأكمله

(1) سيكون لنا لقاء قريب بآثار نينوى في كتاب: «مكتشفات أطلال بابل ونينوى» للآثاري البريطاني

لتحول بين السلسلة الجبلية والضفة اليسرى لنهر دجلة على مسافةٍ تصل إلى حوالي ثلاثين ميلاً في الطول وعشرة أميالٍ في العرض.

ولكن، واأسفاه! فكل ما استطعنا رؤيته من رفات المدينة الضخمة سابقاً كان عبارة عن سلسلة من أكوام أو تلال كبيرة غير منتظمة ذات أحجام وأشكال مختلفة، وبدا جلياً أنها مكونة من الطين الأحمر المصفرّ، ومجرّدة كلياً من النبات، وتشبه من البعيد حصناً مهجوراً مؤلفاً من تحصينات عملاقة ومتاريس ألقيت من قبل جيشٍ بهدف محاصرة الموصل أو إعاقة طريق النهر.

من المؤكد أنه ليس هناك أحد ممن يجهلون السمات التاريخية لهذا الموقع سيلاحظ بين أكوام التراب الضخمة الممتدّة والمنتشرة فوق السهل هنا وهناك آثار أضخم مدينة تم بناؤها على وجه الأرض في أيّ وقتٍ مضى.

كنا منشغلين كلياً في التأمل بذلك المنظر الرائع من حولنا، فلم نلحظ وصول قافلتنا، إلى أن سمعنا الصهيل المبهج للعديد من الخيول الذي أصبح بعد ذلك شبه صامٍّ للآذان مع اقتراب قافلةٍ بغالٍ وخيولٍ طويلة تمضي في طريقها ببطءٍ فوق الجبل من جهة الموصل. لاشكَّ أنّ رؤية الفرس كانت السبب في المظاهرة الصوتية العاصفة التي قامت بها فحولنا الذين نادراً ماكانوا يلتقون بأية أفراس على الطريق، وذلك لأننا أثناء رحلتنا من بغداد إلى الموصل كان مسيرنا في فترة الليل فقط، وعندما كانوا يرونها كانوا يحيّونها بصخبٍ وسرور، بينما يظهر العديد منهم نفورهم واشمئزازهم من الجمال الطويلة والهزيلة التي كانت تمرّ بنا بين الحين والآخر، وذلك بهزّ رؤوسهم وإرجاع آذانهم إلى الخلف...

على الرغم من أن الموصل بدت من قمة الجبل لا تبعد أكثر من أربعة أو خمسة أميال، فإنها كانت في الواقع تبعد اثني عشر ميلاً، لذا لم يكن لدينا المزيد من الوقت لنضيّعه - إذا كنا نرغب في دخول المدينة قبل أن تصبح حرارة النهار شديدة ولا تطاق

أوستن هنري لايارد، ضمن سلسلتنا «روّاد المشرق العربي».

- فتقدمنا بسرعة لنهبط الجبل دون تأخير، بعد ذلك على الفور التقينا بالقافلة التي كان يصل تعداد أفرادها إلى مئتين وخمسين من الرجال والنساء والأطفال، وكان عدد الخيول والبغال يساوي ذلك العدد تقريباً.

لدى سؤالنا أخبرونا بأنهم غادروا الموصل قبل ساعتين من شروق الشمس تقريباً وأنهم كانوا في طريقهم إلى كركوك.

كان معظمهم من أهالي كردستان والموصل، يرافقهم العديد من الضباط والجنود الشبان الأتراك الذين كانوا مقبلين على الانضمام إلى الحامية العسكرية في كركوك. كان كل رجل مدججاً بالسلاح، ورغم أنهم قد يكونون جميعهم مسافرين مسالمين، فإنَّ العديد منهم بدوا قطّاع طريق أو داغرين بثيابهم المزركشة ولحاهم الشعثاء الخشنة وعتادهم الحربي، وبينما كانت النسوة والفتيات يسرن وراءنا على ظهور بغالهنَّ و(الكديش) الخاص بكل منهن - وهن حيوان نغلٌ أو أدنى مرتبة من الخيل - ويركبن منفرجات الساقين، وهي عادة مألوفة عند النساء في جميع أنحاء الشرق، كن يرمقن (الفرنجيات) بفضول حاد، ويتسمن بفطنةٍ وذكاءٍ على تنكر بَحري (Bahri) التي اكتشفوا جنسها فوراً بعيونهنّ الثاقبة.

إذا استثنينا أربع أو خمس نساء فارسيات، كانت بقية النساء لا يرتدين خماراً؛ إذ كان واضحاً أنهنَّ ينتمين إلى أفقر الطبقات في بلاد الرافدين العليا، والتي كانت أقل دقّة بالنسبة لستر وجوههن من نساء العِراق العربي (Irak Arabi) أو إقليم الرّافدين الأدنى.

مشينا ببطءٍ نزولاً عبر الطريق الجبلي المنحدر، وعندما كنا نفعل ذلك لاحظنا عدّة قبور على يمين ويسار الطريق. وعلى أحد تلك القبور صليب خشبي صغير، من الواضح أن الغرض منه هو الدلالة على أن شخصاً مسيحياً مدفون في هذا القبر.

عندما سألنا اثنين من هجّانتنا ينتميان إلى الموصل: كيف جاء ساكنو هذه القبور ليلاقوا حتفهم في الطريق القريب جداً من الموصل؟ أجاب أحدهما: إنهم كانوا

جميعاً ضحايا لقطع الطريق، وقد قتلوا في أوقاتٍ مختلفة.

خالف الآخر إفادة صديقه بأن أكّد أنهم جميعاً ماتوا بسبب الكوليرا، بينما كانوا يهاجرون من الموصل حيث كان هذا الوباء قد أحدث دماراً مأساوياً قبل حوالي عشر سنوات. وعندما وصلنا إلى السّهل مررنا بقافلةٍ أخرى مؤلفة من خمسين جملاً تقريباً، وجميعها محملية ببضائع لكركوك وبغداد.

والآن وجدنا أنفسنا في وسط الآثار الشهيرة لمدينة نينوى التي غطت الطريق من الجانبين كليهما على شكل أكوام ضخمة من الطين الأحمر المصفرّ، والتي عند رؤيتها من أسفلها ظهرت - كتلال مدينة بابل الموصوفة سابقاً - بمظهر تلال شاهقة ومقفرة أكثر ممّا بدا عليها أنها آثار مدينة.

أوصلتنا ساعتان من التقدّم السريع إلى ضفاف نهر دجلة، حيث حطت القافلة رحالها إلى أن عاد السّنيور (P) الذي دخل إلى المدينة ليخبر السيد (W) ـ أحد عملاء صهري التجاريين ـ بوصولنا، بعد انقضاء نصف ساعة من الزمن تقريباً، عاد لينضمّ إلينا برفقة السيد (W) الذي كان قد جهّز مسبقاً خاناً أو نزلاً من أجل إقامتنا، وكونه صديقاً لي وابن بلدي وقد شاركني حياتي في المخيم في «سلمان باك»، فقد استقبلنا بأعظم مودّة وترحيبٍ على الإطلاق. تقدمت القافلة دون أي تأخيرٍ لعبور الجسر العالي، المبني بطريقةٍ أوليةٍ، نصفه من الخشب ونصفه من الحجارة، وهو السبيل الوحيد لعبور دجلة ما بين بغداد والموصل، وأيضاً هو الذي يصل الموصل بآثار نينوى.

عندما عبرنا الجسر كان مكتظاً بالناس والخيول والجمال، ذهاباً وإياباً، وكانت بنيته المتداعية قد انحنت بشكلٍ واضحٍ حسب الوزن الثقيل للحشد، وعلى الرغم من ذلك عبرناه بأمان ودخلنا مدينة الموصل من البوابة المتاخمة للجسر، وكنا شبه عاجزين عن المرور إلى الأمام عبر الحشد الغفير من المتفرّجين المندفعين الراغبين في إلقاء ولو نظرة واحدة على خيولنا الجميلة التي كان العديد منهم على علمٍ بوصولها المتوقع.

بعد أن تبعنا السيد (W) عبر شبكةٍ من الشوارع الضيقة المتعرّجة - أو بالأحرى -

أزقّة يوجد على جنبيها الأيمن والأيسر جدرانٌ عاريةٌ عالية لمنازل السكان التي كان أهالي الموصل رجالاً ونساءً صغاراً وكباراً يحدقون من على قممها إلى الأسفل نحو قافلتنا، وأخيراً وصلنا إلى المكان الذي سنحط فيه أمام بوابة ضخمةٍ لخانٍ واقعٍ في وسط المدينة تقريباً. فُتحت أبواب الخان بقوة من قبل المالك، ودخلنا إلى باحةٍ رحبةٍ حيث بدأ رجالنا على الفور بربط الخيول الفحول وإنزال الحمولة عن البغال وأحصنة الحمل التي أنجزت هذه المهمة بسرعة فائقة نتيجة الممارسة المستمرة لهذا العمل خلال رحلتنا من بغداد.

فيما بعد، أخبر السّنيور (P) رجالنا أنه سيمنح القافلة ثلاثة أيام من الرّاحة، ثم أرسل على جناح السرعة بعضاً منهم إلى البازار لإحضار الطعام والحاّجات الضرورية لكلٍّ من الإنسان والحيوان.

كان الأب (M) مشتاقاً إلى سريرٍ مريحٍ وبضع ليالٍ من الراحة المتواصلة، فأفاد نفسه من رسالة تقديم أعطاها له المبشرون الفرنسيون في بغداد إلى هؤلاء في الموصل الذين قضى معهم طوال فترة إقامتنا في عاصمة إقليم الرافدين الأعلى. أما أنا والسّنيور (P) فقد دُعينا لمشاركة السيد (W) بمكان إقامته ولكن السّنيور (P) رفض الدعوة بلطفٍ وكياسةٍ متذرعاً بأنه لا يستطيع أن يترك الخيول القيّمة تحت مسؤولية رجاله دون أن يكون في ذلك مخاطرة بها.

بما أنني لم أكن مسؤولاً عن شيءٍ سوى نفسي، فقد قبلت دعوة السيد (W) لمشاركته لعدة أيام بمنزل العزوبية الهادئ الخاص به، وخاصةً أنَّ مضيفي كان مثلي صياداً متمكناً، مما يجعل إقامتي عنده دون شك مستحبة للغاية.

تم وضع بَحري (Bahri) الفتاة الزنجية مؤقتاً تحت رعاية أخوات الجمعية الخيرية الفرنسيات اللاتي يعملن كمبشراتٍ في تلك المدينة، وكذلك يقُمن بالكثير من الأعمال الخيرية بين السكان شبه المتحضرين.

كان عليهم تعليم الفتاة المسكينة مبادئ الدين المسيحي، وهو الشيء الذي رغبت

به بَحري (Bahri) بشدة، وأيضاً كان عليهن إعانتها من أجل مظهرها الخارجي وذلك بإلباسها ثياباً محتشمة ومحترمة تتناسب مع جنسها ـ وفقاً للزي الأوروبي ـ ذلك أنه لن يتم استقبالها على متن الباخرة البريدية بزيٍّ ذكوري عندما نصل إلى شواطئ المتوسط.

في يوم وصولنا، قمت أنا والسّنيور (P) برفقة السيد (W) بزيارة الكونت (de B.) الذي كانت قافلته - سيتذكر قرّائي ذلك - قد بدأت رحلتها من بغداد في وقتٍ واحدٍ مع قافلتنا، ولكن بسبب الخطوات الأطول وصلت إلى الموصل قبلنا بثلاثة أيام تقريباً. كان الكونت ينزل في خانٍ ليس ببعيد عن الذي تنزل فيه قافلتنا، وقد كانت معنوياته عاليةً جداً.

بدت السيدات أقوى بكثيرٍ مما كنَّ عليه عندما غادرن بغداد بالرغم من الاهتزاز المتواصل للهودج وكل المتاعب المختلفة للرحلة. لقد أصابتهنّ الدهشة بمغامرتي بين قرا تِپه Karatepi وكفري Kiffri، وهنّأنني على استعادة حصاني من حوزة قطاع الطرق.

أعرب الكونت (de B.) عن نيته في تقصير الرحلة إلى بيروت، وذلك بالمسير من الموصل باتجاه غربي عبر منطقة الجزيرة نحو الفرات، ثم عبور ذلك النهر في الرقة - مدينة عربية صغيرة تبعد حوالي مئة وعشرين ميلاً عن بيرِه جيك Berachick من الجنوب - ثم يمشي من ذلك المكان مباشرةً نحو حماة - وهي مدينة ذات حجم لا بأس به تبعد خمساً وسبعين ميلاً عن جنوب حلب - وبذلك يكون قد اختصر من رحلته مسافة أربعمئة ميلٍ على الأقل.

استهجن السّنيور (P) هذه الخطة التي صرّح بأنها جزافية وخطرة جداً، وقد ذكّر صديقه بالطبيعة المتمرّدة والخارجة عن القانون للبدو الذين يطوفون في تلك المناطق، وفي النهاية نصحه من أجل سلامة السيدات بأن يتخذ الطريق الأطول والأكثر التواء ولكن الأقل خطورة، وذلك عبر ديار بكر وحلب. إلاّ أنَّ الكونت (de B.) بقي على عناده، مشيراً إلينا بالجبن، ثم غيّر موضوع النقاش إلى مواضيع أخرى. ذاك المساء

كان السّنيور (P) تعيس الحظ عندما تدخل دون أن يشعر بالكونت الذي كان يشتري فحلاً رائعاً، وقد كان الكونت يتفاوض بشأنه قبل وصولنا. تسبّبت هذه الإهانة الوهمية بتأزيم الأمور، وفي اليوم التالي قبل شروق الشمس غادر الكونت الغاضب الموصل على رأس قافلته دون حتى أن يودّعنا.

كان مضيفي الأعزب السيد (W) مرتاحاً جداً بإقامته في قصره الصغير المستكين، فمن أجل أن يعادل فوائد أو سيئات (طوبى العزوبية) أحاط نفسه بكافة معدات ومستلزمات (نمرود) أقصد طباخاً مسنّاً يئن ويتأفف بسبب ضغوطات مناصبه المجتمعة، فهو مسؤول الطعام، ومسؤول عن الغرف وسائس خيول وطبيب بيطري ومدرّب للكلاب، ومربٍّ للبُزاة ومسؤول عن الغسيل وساع، إنَّ هذا الشخص الواحد في الحقيقة مسؤولٌ عن كل شيء، والموظف الذي يؤدّي كافة المهام في البيت. كانت الأحصنة - فرسا صيدٍ رائعان ومهرٌ صغير - مربوطة أمام غرفة الطعام مباشرةً ومحمية من أشعة الشمس بواسطة مظلة عالية من حصائر القش، وكانت منظّفة بدقة تماماً كخيول السباق، بينما سُرُجها ولجاماتها وحاميات ركبها... الخ بدت وكأن مظهرها وسلامتها كانا مسألة ذات أهمية كبيرة. وكان هناك نصف دستة من كلاب الصيد السلوقية ذات الشعر الخشن، تتمدّد متناثرة حول الأركان المظلة في الفناء وقد أبقاها هزيلة متعمداً، عن طريق التجويع إلى حدّ الموت تقريباً وبذلك تستطيع السير على الأرض برشاقة أكبر.

بينما كانت تجلس قطتان أو ثلاث قطط سمينة على الديوان في غرفة الطعام، وتئزّ كما تئز البكرات في مشغل القطن، وبدا جلياً أنها مستغرقة في التفكير العميق. وهناك قرد بشع صغيرٌ ولعوب يجرّب جميع أنواع الحركات الجمبازية المستحيلة على حبل الغسيل في باحة المنزل، وزوج من طيور الباز ذوا ريش أملس يحطان على عمودٍ قرب مدخل غرفة الطعام - وكانا ككلاب الصيد شبه ميتين من الجوع لمنعهما من الإصابة بالكسل والخمول - يصدران صرخةً ثاقبةً كلما ظهر الطاهي أمامهما، من الواضح أنهما يتخيلانه باستمرار يحمل الطعام في جسده السمين.

إن الجدران الداخلية لغرفة الطعام - غرفة مطلية بالكلس أبعادها تصل إلى 10x20 قدماً - عوضاً عن أن تكون مزينة كحجرات الرّمي الأوروبية بلوحات لاندسير[1] Landseer وروزا بونور[2] Rosa Bonheur وغيرهما، لم تعرض أبداً تهاويل وتزيينات كتلك - وهي أشياء مكلفة جداً في بلاد الرافدين - إنما كانت الرؤوس والجلود المحنطة لغزلان وخنازير برية وثعالب ونمور والعديد غيرها تزينها بين هنا وهناك بندقية ومسدس وسكّين صيد وزجاجة بارود ومخازن رصاص ورسن وسوط... الخ معلقة بأسافين في الحائط لتشكل زينة الغرفة. باختصار: كان كل شيء في هذا المسكن الصغير للسيد (W) يدل على أن رجلاً أعزب ومغرماً بالصيد يسكن هنا، وبما أني أميل بشدة إلى هذه الآراء والمعتقدات نفسها فلم يسبق لي أن زرت مسكناً أكثر تجانساً، وشعرت مباشرةً أنني في بيتي الخاص.

إن البيوت في الموصل شبيهة جداً بشكلها، ووسائل الراحة بداخلها بتلك التي في بغداد، عدا عن أنَّ المواد المستخدمة في الأولى تتألف في جميع المنازل من الحجر، بينما هي في الأخرى تتألف دون استثناء من اللبن أو بالأحرى الطين المجفف بالشمس. من النادر وجود «السرداب» أو الدّيماس المدفون تحت الأرض في بيوت الموصل؛ إذ ليست هناك ضرورة لوجوده بسبب مناخ الموصل الأقل حرارة من مناخ مدينة الخلفاء.

والطرقات في الموصل - كما هي حالها في كل المدن الإسلامية في الشرق - ضيّقة على نحوٍ مزعجٍ وكدرة، وهي في الواقع ليست عبارة عن أي شيء أفضل من سلسلة من الممرات المتعرّجة تتموّج كالأفعى بين جدران عالية وجرداء يخترقها بين هنا وهناك بابٌ وزوجٌ من فتحات النوافذ الصغيرة المربعة التي ترتفع عن الأرض عشرة أقدام على الأقل، تسدّها بقوة قضبان حديدية أو تعريشة من الخشب.

---

(1) سير إدوين هنري لاندسير Sir Edwin Henry Landseer (1802-1873) رسّام إنكليزي اشتهر برسم لوحات الحيوانات، وخاصة الأحصنة والكلاب.

(2) روزا بونور، واسمها الأصلي ماري روزالي بونور Marie-Rosalie Bonheur (1822-1899) رسّامة ونحّاتة فرنسيّة شغفت خصوصاً برسم الحيوانات.

بالإضافة إلى كون هذه الطرقات ضيقة كانت صعبة جداً في المسير وخاصة على صهوة الخيل عندها تكون خطيرة بكل معنى الكلمة، فربَّما تنزلق الخيول فوق الأحجار الصّلدة المدورة وشديدة النعومة التي رُصفت بها معظم شوارع الموصل، وهذا الوضع يزيد بطبيعة الحال من خطورة الشوارع.

خلال جولاتي العديدة ضمن المدينة، أتيحت لي الفرصة لزيارة البازار الذي على الرغم من كونه أدنى بكثير من البازار الرئيسي في بغداد بحجمه وخيراته، فهو ممتعٌ جداً ويتصف بالصفات المألوفة في كل البازارات الشرقية.

عندما تجوّلت للمرة الأولى في بازار الموصل أُثيرت لديَّ حاسة الشم بقوّة بسبب رائحة مهلكة منبعثة من جيفة كلبٍ ميتٍ مغطىً بالذباب، ممدّد وسط أحد أكثر الشوارع المكتظة بالسكان. كان كل عابر سبيل يبقى على مسافة بعيدة من ذلك الكلب الكريه، وقد أعطى حصاني دليلاً على نيته بفعل الشيء نفسه وذلك بصهيله العالي والمتكرّر. وعلى مسافة أربع ياردات من المكان الذي يتمدّد فيه الكلب تقع دكانة جزارٍ مسلم، وتتدلى من الكلاّبات المعلقة بجدران مؤسسته التجارية أعضاء مختلفة لحيوانٍ ما على الأرجح أنه كان خروفاً ميتاً شديد النحول، ولكن بالنسبة لي بدا مريباً وكأنه رفيق لعبٍ للجيفة المتمدّدة في الطريق.

بعد أن رأى الجزار السمين أن المارّة بدلاً من أن يقفوا عند دكانته ليشتروا اللحم كانوا يسرعون لبعض الوقت، وصل ربما إلى استنتاج مفاده أنَّ الشمس الحارقة لم تحسّن الجو المحيط بدكانه، لذا قرّر أن يضحي بنفسه (من أجل المصلحة العامة) ويسعى لإزالة بقايا الكلب الكريه على نفقته الخاصة.

ولتنفيذ الأفكار في ميدان العمل نادى على الفور لمتشرّدٍ شاب شبه ميت من الجوع، وقذر إلى أبعد الحدود، وهو أحد سكان كردستان، وعقد معه صفقة من أجل إزالة الجيفة.

بعد أن قبض المتشرد ربما قمرياً Kameri واحداً - ربع قرش تركي أي ما يعادل

ستاً وثُمن السنت الأميركي تقريباً - ألقى بعروة حبلٍ حول رقبة الجيفة، وسحبها - حسب المبلغ المدفوع - عشرة أو عشرين أو ثلاثين ياردة إلى أسفل الطريق، ثم نزع عروة الحبل ومشى بعيداً دون اكتراثٍ ودون الكلب الذي سيواصل تعطير تلك المنطقة حتى يصبح الشخص الذي يقطن المنزل أو الدكان الأقرب إليه غير قادرٍ على التحمل أكثر من ذلك، وبهذه الحالة يكون عليه أن يضحي بقمري Kameri آخر في سبيل إبعاده من عشرة إلى ثلاثين ياردة أخرى، وهكذا تمشي الجيفة على مراحل حتى تصل في النهاية إلى الضواحي أو إلى النهر.

لن يقوم أيّ من السكان بدفع مبلغ كفيل بإزالتها نهائياً، إنما سيدفع مبلغاً كافياً لإبعادها عنه ووضعها عند باب جار عدوّ أو غير مستحب بالنسبة إليه. إنَّ هذه العادة ليست سائدة فقط في الموصل، بل إنها منتشرة في جميع أنحاء الشرق، ولاشك أنها السبب في انتشار الأوبئة والآفات المريعة التي تغزو الشرق.

يحيط بهذه المدينة - مثل بغداد - حائطٌ مرتفع، إلاَّ أنه شبه متحوّل إلى آثار، وقلّما تجد له فائدة الآن باستثناء أنه يجبر الناس على الدخول والخروج من المدينة عبر البوابات المختلفة المحروسة كلها من قبل موظفي وضباط الجمارك.

إنَّ الموصل هي - كما ذكرت سابقاً - عاصمة إقليم الرافدين الأعلى ويصل تعداد سكانها إلى حوالي أربعين ألفاً من الأتراك والأكراد والتّركمان[1] والفرس والعرب الذين يدين ستة عشر ألفاً منهم بالدين الإسلامي، وأربعة عشر ألفاً باليهودية والبقية الباقية يعتنقون الدين المسيحي.

يصل تعداد المقيمين الأوروبيين في الموصل إلى خمسة عشر تقريباً مؤلفين من

(1) بعد عبارة «الأكراد» وضع الكاتب عبارة «التّركمان» بين قوسين، وكأنه يقصد أن يفسّر أن التّركمان هم ذاتهم الأكراد، وهذا غلط فادح، فالقوميتان لا علاقة بينهما أبداً لا في الأصول الجغرافيّة ولا العرقيّة ولا اللغويّة. لكن في القرون الوسطى مع مدّ الدّولة السّلجوقيّة اجتاح التّركمان شمال العراق وكيليكيا فقطنوهما وامتدوا إلى سوريا، غير أن موطنهم التاريخي الأصلي هي سهول آسيا الوسطى، ولهم إلى اليوم موطن يسمى: تركمانستان.

المبشرين الفرنسيين والأخوات في دار الجمعية الخيرية، ونائب القنصل الفرنسي، وعميل صهري.

بالنسبة لوسائل الراحة الخاصة بهم فهي أسوأ بكثير من التي يتمتع بها الأوروبيون المقيمون في بغداد، وفي الواقع إنهم يعيشون بكل معنى الكلمة كالناسكين المحبوسين، يسكنون كما هي حالهم في مدينة مملةٍ بغيضةٍ، تحيط بهم من كل الجهات الصحراء المجرّدة كلياً من الحياة النباتية. تساعد غابات أشجار النخيل المحيطة ببغداد في تزيين المدينة وجعلها مريحة نسبياً، في حين تقع الموصل بعد خط العرض الذي يكثر فيه النخيل.

يعدّ أكبر الأبنية وأحسنها في المظهر في مدينة الموصل «السّراي» أو مسكن الباشا[1] - الوالي - وهو بناءٌ ضخمٌ جداً مربع ومستوٍ يقع خارج المدينة قرب النهر، ولكن مع أنه بناءٌ مترف وضخم فإنه يبدو كالمصنع أو كمخزن أسلحة أكثر من كونه مسكناً للحاكم.

تضمّ الحامية العسكرية في الموصل من ثلاثة إلى أربعة آلاف جندي، معظمهم من المشاة، يسكنون في الثكنات الكبيرة المختلفة الموجودة بمحاذاة ضفاف النهر، وبالتالي فهي ليست تحت إمرة باشا الموصل، إنما تحت إمرة قائد اللواء الذي يتلقى أوامره من حاكم العراق العربي. سمع الباشا بأن السّنيور (P) كان راغباً في شراء بضعة خيولٍ أصيلةٍ أخرى وعلى الأرجح أنّ أحداً أخبره بأنّ (الإفرنجي) إذا رأى الجواد المناسب سيشتريه بالتأكيد مقابل أي ثمن كان، وكان يعرف أن أحد العُقداء في الحامية يملك أروع فحلٍ على الإطلاق، لذلك قام بشراء الجواد من العقيد الذي من أجل أن يبقى على علاقات جيدة مع الباشا اضطر بالتأكيد إلى الاستغناء عن حصانه مقابل أي شيء يدفعه الباشا أو يعد بأنه سيدفعه!..

لم يكد الحصان الفحل يصبح ملكاً للباشا حتى عرض أن يبيعه للسّنيور (P) الذي

(1) كتب لوكر: منذ أن أبعده السلطان عن الحكم.

ذهب في المساء نفسه بصحبتي أنا والسيد (W) إلى السَّراي من أجل معاينة الحصان. انتظرنا هناك بفارغ الصبر لمدة ساعتين من الزمن نتحرى ظهور الحصان الذي وُضع في إصطبل لوحده ولم يكن يُسمح لأحد بدخول الإصطبل، وأخيراً فتحت بوابة الفناء وظهر أمام السَّراي سائس عربي يمتطي خيلاً كميتاً مذهلاً.

كان الحصان ـ وهو نظيرٌ لبوقيفالوس Bucephalus الشهير حصان الإسكندر المقدوني ـ بالفعل قمةً في الجمال بين الخيول، وليجعل ظهوره مؤثراً أكثر وأكثر قام الباشا بمنتهى الحكمة بكسوته بأبهى وأروع طريقةٍ على الإطلاق، بسرجٍ ولجامٍ ولببٍ (سير السرج) تغطيها زخارف من الذهب والفضة الخالصين، أما الحصان الذي بدا كأنه مدركٌ للانطباع الذي يجب أن يتركه لدى (الفرنجة) كان تقريباً صعب المراس، فقد راح يُزبد ويشبّ ويندفع بطريقة أصعب ما تكون بالنسبة لأيّ فارسٍ كان باستثناء أمهر وأعظم راكبي الخيول، مع ذلك حافظَ العربي - وهو ابن الصحراء بحق - على جلسته برباطة جأشٍ هادئة ومهارة رائعة.

إن التناسق الفريد في جسد الجواد الباهر، وحجمه الرائع بالنسبة لحصانٍ عربيٍّ أصيل، والثمن القليل نسبياً مقابل هذا الحيوان، عشرة آلاف قرش تركي ما يعادل (450) دولاراً ذهبياً، بالتأكيد كل ذلك دفع السّنيور (P) بعد معايناتٍ مطولة إلى المضي فوراً إلى الباشا من أجل إنهاء هذه المقايضة أو الصفقة، ولكن عندما كان يعدّ النقود أخبره الباشا بفتور بأنّه رأى أن الحصان يساوي على الأقل مبلغ أحد عشر ألف قرش، ولذلك سيتمتك بالجواد مقابل هذا الثمن.

انزعج السّنيور (P) قليلاً من التحوّل الذي طرأ على المسألة، فانسحب مع نيّةٍ في التفكير في الأمر، وفي اليوم التالي قام بزيارة السَّراي مرة أخرى، ووافق على دفع الأحد عشر ألف قرش، عندئذٍ أخبره الباشا بمنتهى الهدوء راغباً في الحصول على بضع آلاف أخرى من هذا (المسيحي) أنه إذا كان بالنسبة له - للسّنيور (P) - يساوي الأحد عشر ألف فإنه يساوي اثني عشر ألفاً بالنسبة للباشا، انسحب السّنيور (P) مشمئزاً وضجراً دون أن يظهر أية علامات خارجية تنمّ عن السخط، ولكنه عزم على أن يتعادل

مع الپاشا بفعلته، فطلب السماح له برؤية الحصان مرّةً أخرى في اليوم المقبل، ووافق الپاشا مع ابتسامة ظناً منه أن (الفرنجي) الغبي سيوافق في النهاية على أن يدفع الاثني عشر ألف قرشٍ.

بعد ذلك أرسل السّنيور (P) رجاله على جناح السرعة إلى البازار موعزاً إليهم أن ينشروا بحذرٍ إشاعة بأن الپاشا سيعرض في نهار اليوم التالي أفضل وأروع جوادٍ فحلٍ وطأت حوافره تربة بلاد الرافدين، وفي الوقت نفسه سيتم فحص الحيوان بدقة من قبل المسيحي المشهور، الطبيب البيطري لسلطان (بلاد الفرنجة) الذي لم يكن له ندٌّ حول العالم كخبيرٍ في فحص الخيول وتقديرها. كان لتلك الإشاعة الأثر المرجو؛ فقد اجتمع في الوقت المحدّد أمام السّراي حشدٌ كبير مؤلف بشكل رئيسي من ساسة الخيول وعشّاقها. تمّ جلب الحصان، وأثار دمدماتٍ بالاستحسان من قبل حشد المتفرّجين لم تلبث حتى تلاشت في صمتٍ عميق عندما أقبل السّنيور (P) بقامته الطويلة البارزة لكي يفحص المخلوق الرائع، وكانت كل عينٍ مشدودة لتقرأ الحكم من تعابير وجه هذا الخبير الشهير ذي الشعر الرمادي.

بعد إجراء بعض المعاينات للفم وفتحتي الأنف والعيون والأذنين والحلق والصدر والحوافر و... الخ... الخ تحدّث السّنيور (P) أخيراً وبجدّية تامة مصرّحاً أن الجواد نموذج للتناسق الفريد ولكنه لسوء الحظ عرضة للإصابة بمرض الرّعام، ثم استدار بهدوءٍ نحو الضابط والسائس المسؤولين عن الخيل، وطلب منهما بكل تهذيبٍ وبنبرةٍ عاليةٍ بشكلٍ كافٍ ليسمعها الجمهور بوضوح أن يبلّغا الپاشا احترامه ويخبراه في الوقت نفسه بأن «الفرنجي» يرفض شراء الحيوان مقابل أيِّ ثمنٍ كان.

بعد ذلك عاد بهدوءٍ معنا إلى النزل راضياً تماماً ومقتنعاً بأنه عاقب الپاشا بشكلٍ مناسب. قبيل رحيلنا عن الموصل أرسل الپاشا رسالةً مع أحد ضباطه ليخبرنا أنه مستعدٌّ للتنازل عن الحصان مقابل المبلغ الأصلي المقدر بعشرة آلاف قرش، ولكن السّنيور (P) رفض كلياً أية وسيلة للتعامل معه.

إنَّ كون الغالبية العظمى من سكان الموصل ذوي أصلٍ تركيٍ أو تركماني أو

فارسي، فإن اللغة المستخدمة بشكل رئيسي هي التركية، ويزيد استخدامها أكثر من العربية كلما اتجهنا شمالاً، لهذا السبب وجدنا في ديار بكر عاصمة كردستان أنَّ اللغة الأخرى نادرة الاستخدام، كما هي حال الفرنسية في أميركا، أو أقل من ذلك حتى. يلبس كلا الجنسين في الموصل بطريقة شبيهةٍ جداً بزي أهالي بغداد، ولكنها تختلف فقط بكونها أكثر وأسمك إلى حدٍ ما وهذا دون شك سببه الاختلاف في المناخ.

ويعدّ سكان إقليم الرافدين الأعلى، ذكوراً وإناثاً، أقوى وذوي بنية أمتن بكثير من هؤلاء في الرافدين الأدنى، وملامحهم أيضاً مختلفة كثيراً، فأولئك سابقو الذكر ذوو بشرة وردية وأكثر صحة وهم أسمن وأكثر امتلاءً، وبالتالي لهم مظهر أكثر خشونة عن الآخرين؛ السّمرة، والسّمرة المحمرّة، والشعر المجعد، والعيون الزرق، والخدود الوردية، كلها صفاتٌ يندر وجودها بشكل أو بآخر في إقليم الرافدين الأعلى، ولكنها كثيرةٌ جداً في الرافدين الأدنى.

يتألف غالبية سكان الموصل الذكور من تجار وحمّالين وحرفيين، يقوم رجال المهنة الأولى بمعاملات تجارية واسعة مع كردستان وفارس وبلاد الرافدين الأدنى والقبائل البدوية في بلاد الرافدين الأعلى، يتبادلون البضائع الأوروبية المجلوبة من قبل قوافل الجمال القادمة من البحر المتوسط والمنتجات المصنوعة منزلياً كالسجاد السميك والقماش والملابس الجلدية، والأسلحة النارية... وغيرها مقابل الجوز والخشب والتبغ وشعر الماعز المستورد غالباً من كردستان وبلاد فارس، وأيضاً مقابل صوف الأغنام الذي تنتجه قطعان الأغنام الكبيرة التي تملكها القبائل البدوية في الجزيرة.

يحصل الحمّالون في الموصل على رزقهم عن طريق حمل البضائع من وإلى المناطق المجاورة بواسطة الجمال والخيول والبغال والحمير أو بواسطة (الكلِك) نزولاً عبر النهر إلى بغداد. ويعدّ الموصليون صانعي معادن وأحذية وسروج جيدة، ولكن بشكلٍ خاص نسّاجين ممتازين؛ فقد كانوا في أيام سابقة مشهورين بصناعة قماشٍ قطني رقيق يدعى في أيامنا هذه «موسلين» وبالفرنسية «Musseline» مشتقة من كلمة (موصل). ويتم استيراد الجزء الأكبر من الخضراوات التي يأكلها السكان

وذلك كون الزراعة تمارس على نطاقٍ محدودٍ جداً. وهنالك إشـارات كثيرة تدل على أنَّ وادي دجلـة بكامله يحوي العديد من آبار النفـط الغنيـة التي تحتاج فقط إلى التطور لتثبت قيمتها الحقيقية.

منذ عدة سـنواتٍ مضت، قام يهودي ألماني مقدام - هو السـيد .S. P - الذي كان تحت حماية عمر باشا الشهير، عندما كان هذا الأخر حاكم بلاد الرافدين، بجمع ثروة هائلـة في بغداد بواسـطة مضاربـات مالية حاذقة، وبعـد ذلك قام بتبذيرها بسـرعة، ثم حاول اسـتمالة آلهة الحظ المتقلبـة نحوه باستكشـاف آبار النفط العديدة جنوب بغداد، وتشـغيل البدو في استخراج مادة النفط الخام من الآبار، ثمَّ جلبها إلى بغداد في أكياسٍ جلديةٍ حيث يسـتخلص البترول، وبسـبب عدم وجود أية أوانٍ أو طرق مناسـبة أخرى لتعبئتـه يقـوم بتعبئته فـي قوارير لا أعلم كيـف كان يصرّفها أو مـا إذا كان قد تمكن من جمع المال عن طريقها، إلاّ أنني أستطيع القول إنَّ آبار النفط الآن موجودة بأعداد كبيرة في الرافدين الأدنى.

لا أحـد يعـرف العمر الحقيقي لمدينـة الموصل، ولكن يفترض أنهـا بنيت من قبل التركمان أيام الحملة الصليبية تقريباً. كان رحيلنا عن الموصل محدداً من قبل السّنيور (P) في اليوم الثالث بعد وصولنا، ولكن تحتّم علينا تأجيله لمدة يومين آخرين قضيتهما في زيارة آثار Aineoch برفقة السيد (W) وأحد معارفه.

فـي اليـوم الأول ذهبنا إلى (نمـرود) الـرّكام الأعلى والأضخم بيـن جميع الأكوام الضخمة التي تشكل الآن كل ما بقي من آثار المدينة القديمة العظيمة. تقع نمرود على مسـافة تقـدّر بأربعة أميال فوق نقطة التقاء الزّاب الأعلى بنهـر دجلة وعلى بُعد حوالي سـتة وعشـرين ميلاً جنوب الموصل. غادرنا المدينة قبل شروق الشمس بمدة سـاعتين تقريبـاً، وبعـد عبور الجسـر الوعر فوق نهر دجلـة لحقنا بحارس السـيد (W) البدوي بسـرعة خببٍ كبيرة فوق الأرض المسـتوية بمحاذاة ضفة النهر اليـسرى مباشـرةً. كانت النجوم تسـطع متلألئة بشـكلٍ جميلٍ، وقد مكّنتنا من رؤية طريقنـا بوضوح أمامنا على مسـافةٍ لا بأس بها، بين الحين والآخر كنا نمر ضـمن مسـافة تبعد بضع مئاتٍ من الياردات

عن تلالٍ منفردة تظهر بشكلٍ كئيبٍ وموحشٍ إلى أبعد الحدود بسبب الانعدام الكلّي لأية آثار للحياة النباتية فوقها واللون الأحمر المصفرّ الشاحب للتربة التي تتكون منها جميع تلك التلال.

كان بإمكاننا رؤية الخفافيش التي لا تعدّ ولا تحصى تتحرّك بصمتٍ في جميع الاتجاهات في ذاك الجو شديد الحرارة الذي أصبح تقريباً لا يُحتمل مع صمت الأموات الذي يسود السهل الخاوي المغمّ. فقط مرّة أو مرّتين أثناء تلك الرحلة الصباحية استطعنا سماع العواء نصف المبتهج ونصف الحزين لبنات آوى الطوافة يتردّد صداه فوق السهل الموحش، وأحياناً الصرخة الثاقبة لطائر (الكي وي) أو قطقاط الصحراء. خلال خط مسيرنا كان علينا أن نقطع العديد من الروافد الصغيرة لنهر دجلة، وبفعل ذلك كنا نجفل الكثير من الطيور المائية التي كانت دائماً تلجأ إلى الطيران مصدرةً صيحاتٍ صاخبة، وتختفي بسرعة كبيرة خارج مرمى سمعنا وأبصارنا.

أظهرت لنا أول خيوط ضوء النهار (نمرود) على شكل تلّةً أو كومةً رمادية مربعة وضخمة ذات جوانب شبه عمودية وقمة مستوية تماماً، وقد برزت كالجدار العملاق أمامنا على مسافةٍ لا تزيد على ستة أميال. بعد نصف ساعةٍ تقريباً وصلنا إلى أسفل التلة فوجدناها متعذّرة البلوغ بالنسبة للخيول، ولكن عندما رأينا على مسافة نصف ميلٍ تقريباً من حيث وقفنا خياماً بدوية سوداء ومنخفضة، أرسلنا الحارس البدوي إلى هناك مع خيولنا التي كان عليه أن يربطها هناك ويطعمها، بينما صعدنا نحن سيراً على الأقدام لنتفحّص الآثار، وجدنا هذه الآثار مكسوّة برفاتٍ من اللبن، والتلة الضخمة التي لم تكن أبعادها أقل من مئة قدم في الارتفاع ومساحتها ثمانمئة قدم مربع، كانت غير منتظمة على الإطلاق، يتخللها العديد من الفجوات والقنوات الكبيرة المختلفة التي تجعلها شبيهة بمقالع الحجارة أو الحفر المهجورة، وبدا جلياً أنها من صنع الإنسان، وغالباً إنها الفجوات نفسها التي نقّب فيها (بوتا) و(لايارد)[1] وغيرهما من الرحالة وعلماء الآثار ونبشوا العديد من التحف التي تزيّن الآن المتحف البريطاني،

(1) سوف نلتقي بلايارد قريباً جداً على صفحات كتابه الثمين: «مكتشفات أطلال نينوى وبابل».

والتـي أعطتنا معلوماتٍ عن التاريخ ودرجة التحضّر وغير ذلك عند الآشـوريين وأهل نينوى أكثر مما قدمته لنا كل تقارير وأحاديث مؤرخينا القدماء مجتمعة.

كنـا نتوق إلى زيارة كل التلال الهامة الرئيسـية المتناثرة فوق موقع المدينة القديمة، لذلـك بقينا فقط لبضع سـاعات فـي (نمرود)، وبعـد أن اطلعنا على الأطـلال توجهنا دون تأخيـرٍ إلـى خيـام البدو حيث كانت خيولنا مربوطة. اسـتقبلنا سـكان تلك الخيام بالاحتفـاء المألوف لهؤلاء المتنقلين؛ إذ كان زعيـم هذا المجتمع الصغير قد حضّر لنا فطوراً سخياً جداً مؤلفاً من لحم الماعز المسـلوق، والضـأن المشـوي، ونوع من سلطات البصل والزبدة والجبن والحليب والخبز.

تذكر مضيفنا جيداً الرّجل «الفرنجي» "Feringhee" المسـتر أوستن هنري لايارد الـذي زار عـام 1849 أطلال نينوى واكتشـف وحمـل معه إلى بـلاد الفرنجة (أوروبا) تحت كلفةٍ طائلة الأسـد العملاق الذي له وجه إنسـان كما يسـمي السـكان هذا الكائن الخرافـي الحجري الضخـم والآن يُعرض فـي المتحف البريطاني في لنـدن. كان حرّ النهار أقل وطأةً مما كنا نتوقع، لذا قرّرنا العودة إلى الموصل قبل حلول الليل وغادرنا المخيـم البـدوي الصغير قرابة الظهر بعد أن اشـترينا بعض التحـف الصغيرة من البدو المضيافين، وقد رفضوا بإصرارٍ قبول أية مكافآتٍ مقابل حسن وفادتهم.

في طريق عودتنا قمنا بالتفافةٍ كبيرةٍ جداً بسـبب زيارتنا لتلّة (السـلمية) الواقعة على بعـد ثلاثة أميـالٍ ونصف تقريباً شـمالي نمـرود، ومن هنـاك إلى تلـة Kharâmles أو Charâmles التي تقع على مسـافة خمسة عشر ميلاً شمال شرق نمرود. كانت التلتان كلتاهما أقل مرتبةً من (نمرود) في الحجم، وكذلك بالنسبة للشكل العام، وقلّما يظهر عليهمـا أيـة آثار تدل على أنهما قد اسـتكشـفتا أو فُحصتا من قبل علمـاء الآثار أو حتى السـكان. لذلك لم نتوقف لمدةٍ طويلةٍ عند أيٍّ منهما، إنما انطلقنا بسـرعة عبر السـهل المقفر باتجاه الموصل الذي دخلنا بواباتها قبل ساعة من الغروب بعد رحلة شاقة ليومٍ واحدٍ تصل على الأقل إلى ستين ميلاً.

في اليوم التالي عبرنا الجسر مرّة أخرى واتجهنا إلى قويونجوك[1] Kouyunjik، وهي تلة واقعة على بعد بضعة أميالٍ فقط من الموصل في الجهة المقابلة لدجلة، وتوازي ضفته اليسرى. يصل طول التلة إلى تسعمئة ياردة تقريباً، وعرضها أكثر من خمسمئة ياردة وحوالي ثمانين قدماً ارتفاعها، وعلى الرغم من أنَّ جوانبها منحدرة فمن الممكن تسلقها مع وجود بعض الصعوبة، ومن قمتها يستطيع الزائر الاستمتاع بمنظر رائع فوق منطقة الآثار كلها وكذلك فوق دجلة والقسم الشرقي من مدينة الموصل. بالقرب من هذه التلة توجد تلة ضخمة أخرى يدعوها السكان: «النبي يونس» أي (قبر يوناه) وذلك لاعتقادهم أن «النبي يونس» (المشهور برحلته تحت البحر) «سفر يوناه، الجزء 1، الفصل 3-5». مدفون في هذه التلة، وتكريماً له قام سكان الموصل المسيحيون ببناء كنيسةٍ صغيرة على قمة التلّة، إنه بناءٌ حسن الشكل جداً وقد بني على الطريقة الأوروبية، له نوافذ زجاجية عالية وضيقة، وجدران مطلية بالكلس.

تمرّ الطريق من أربيل إلى الموصل ضمن مسافة مئة ياردة شمالي هذه الكنيسة التي تسرّ رؤيتها عين المسافر الأوروبي بسبب أسلوب بنائها المألوف بالنسبة له، وقد تكون هي البناء الوحيد من هذا النوع في كامل بلاد الرافدين، وهو الشيء الذي يدفعني للظن بأنَّ المهندس الذي صمّمها كان أحد المبشرين الأوروبيين. على مسافة اثني عشر ميلاً تقريباً شمالي شرق الموصل تقع خُرساباد[2] Chorsabad، واحدة أخرى من هذه التلال، ولكنها أصغر بكثير من أيٍّ من تلك المذكورة سابقاً، ومزيّتها الخاصة الوحيدة هي قمتها المستوية.

(1) تسمية تركية Koyuncuk تعني: الحَمَل الصغير، أو بالأحرى صيغة التصغير للتحبّب من اسم الحَمَل، وبحسب التناغم الصّوتي لحروف العلّة في التركية لا يمكن لفظها: قويونجيك. ومثل هذا التصغير شائع في التركيّة كثيراً، فأنا مثلاً أنادي زوجتي: Lençik وابني: Mehmetçik (كقولنا في العربية: حميّد).

(2) خُرساباد موقع أثري مهمّ جداً شرقي الموصل، اكتُشف فيه لاحقاً قصر الملك الآشوري سَرغون الثاني. راجع كتاب الآثاريّة البريطانيّة ماري تشَب Mary Chubb: «مدينة في الرّمال» في هذه السلسلة، حول اكتشاف مدينة إشنونّا السّومريّة في العراق.

إنَّ أوّل استكشـافات قام بها الأوروبيون لمدينة نينوى غالباً هي استكشافات السيد (كلاوديـوس ج. ريتـش)[1] خلال العـام 1820، وفـي تلك الفترة كان يشـغل منصب العميل السـياسي للشركة الشرقية الهندية في بغداد. قام هذا السيد برسم خريطةٍ للمكان وحصـل علـى مجموعة رائعة من التحف التي وجدها فـي تلك الآثار، وهي عبارة عن جـرار وألواح مـن المرمر والقرميـد... الخ، بعضها تحمل نقوشـاً بالخط المسـماري أو حـروف رأس السـهم، وحتى الآن لـم يتمكّن إلاّ عددٌ محدودٌ جـداً من علماء اللغة الإنكليز والألمان من فك تلك الرموز ومعانيها.

فـي عـام 1843 اجتهـد السـيد (پـول إميـل بوتّـا)[2] Paul Émile Botta القنصل الفرنسـي في الموصل في استكشـاف هذا الجزء من أطلال نينوى الواقع تحديداً مقابل مدينة الموصل، وليس فقط استخرج الكثير الكثير من التحف، إنما في الحقيقة اكتشف فـي أطراف قويونجوك Konyunjik آثاراً لقصرٍ عظيـم مزخرف بنقوشٍ جميلةٍ ضئيلة البروز، تمثل كائنات بشرية وحيوانات، وبعضها أيضـاً تحمل رسوماً بالخط المسماري، وجميعها تحمل آثاراً تدل على أنها تعرّضت للنار، ويفترض أنَّ هذا العامل هو السبب في دمار القصر وبالتأكيد المدينة بكاملها أيضـاً.

بعد اكتشـافات (بوتـا) بمدة سـنتين زار الرحالة الإنكليزي (أوسـتن هنري لايارد)[3] Austen Henry Layard آثـار نينـوى وبـدأ التنقيب في (نمـرود) و(النبي يونـس)

---

(1) كلاوديوس جايمس ريتش Claudius J. Rich (1787-1821) رحّالة بريطاني وعميل تجاري وباحث في الآثار، أقام في بغداد عام 1808 وشرع في استكشاف أطلال بابل ونشر عنها دراسات قيّمة في ڤيينا، ثم في لندن عام 1839 تحت عنوان:

Narrative of a Journey to the Site of Babylon in 1811.

(2) پول إميل بوتّا 1802-1870: عالم آثار فرنسي شهير أدار بعثة لاستكشاف الآثار الآشوريّة بالقرب من خُرساباد.

(3) أوستن هنري لايارد 1817-1894: عالم آثار وديبلوماسي إنكليزي شهير، بدأ بالتنقيب قرب موقع نينوى الأثري في عام 1845، فعثر على أطلال أربعة قصور وألواحاً حجريّة مهمة تتضمّن نقوشاً باللغة الآشوريّة المسمارية. له مؤلفان مهمان عن آثار نينوى وبابل، الأول بعنوان: «نينوى وبقاياها» *Nineveh and its Remains* (نشر 1848-1849) والثاني: «مكتشفات أطلال نينوى

وقويونجوك Konyungik، ولكنه سرعان ما أدرك التكلفة الباهظة لمشروعه فعاد إلى إنكلترا ثم ظهر مجدداً في الموصل عام 1847 أو 1848، وتابع تنقيبه بجهودٍ كبيرةٍ وكان مزوّداً بالموارد المالية من أجل هذه الغاية من قبل المتحف البريطاني، ولفترةٍ طويلةٍ من الزمن قام بتوظيف عدّة آلافٍ من أبناء البلد وأرسل إلى إنكلترا كميات مذهلة من التحف والآثار، بعضها كانت كبيرة جداً في الحجم.

لكن أكثر ما وفّق به كان اكتشافاته في (نمرود) حيث كشف عن آثار قصرٍ هائلٍ يفترض أنه كان يبلغ أربعمئة قدمٍ في الامتداد تقريباً وثلاثمئة في العرض، وينسب إلى (آشور بانيال) المعروف أكثر باسم ساردانابال Sardanapal، لئلا يتم الخلط بينه وبين حاكم نينوى المخنث الفاجر، إنما هو المحارب الشهير الذي يفترض أنه استولى على مملكة الآشوريين حوالي سنة 950 ق. م. اكتشفت بقايا هذا القصر في الجانب الشمالي الغربي من التلة، وفي عمليات التنقيب التي كان يجريها في وسط التلة عثر على الآثار الضئيلة لقصرٍ آخر يفترض أنه بني من قبل شلمانُبار Shalmanubar ابن آشور بانيال، الذي نجح في الوصول إلى عرش أبيه، ثم أعيد بناؤه من قبل إڤالوش Ivalush الثالث (الملك "l'ul" في الكتاب المقدس، سفر الملوك الثاني، xv، 19، 20) خليفة شَلمانُبار Shalmanubar الذي حكم الآشوريين عام 770 ق. م.

كذلك كان (لايارد) ناجحاً جداً في أبحاثه في قويونجوك Konyunjik حيث اكتشف هناك آثار قصر سنحريب الذي حكم الآشوريين، والذي ذكر على نصبه التذكاري اسم حزقياه Hezekiah ملك يهوذا، وكذلك غزو أراضيه من قبل الآشوريين، كانت جميع آثار القصور المكتشفة من قبل الرجل المذكور أعلاه مدفونة في أطراف وقمم التلال وفي أماكن مختلفة من السهل بأعماقٍ تتراوح ما بين ثلاثة إلى ثلاثين قدماً. إنّ امتداد الآثار وموقعها وحجمها وشكل الأكوام المختلفة وصفات التحف العديدة المستخرجة من هناك، والأماكن التي استخرجت منها هذه الآثار... الخ، مجتمعة مع

وبابل»، سننشره قريباً:

Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, London 1853.

تعاليم الكتاب المقدس وأخبار المؤرخين، كل هذا مكّن الجيل الحالي من التخمين مع وجود نسبة كبيرة من التأكيد حول الامتداد والشكل وعدد السكان والمنشآت والعمر والتاريخ وكل شيء في المدينة العظيمة، وكذلك أبنيتها الأساسية.

اختلف بعض المؤرخين عن الكتاب المقدس في خصوص أصل مدينة نينوى كما هو الحال بالنسبة لمدينة بابل؛ إذ بينما ينسب الكتاب المقدس (سفر التكوين، الجزء العاشر، الفصل الحادي عشر) تأسيس مدينة نينوى إلى آشور، يعتقد بعض المؤرخين أنَّ منشئها هو (نينوس) زوج (سميراميس) الشهيرة التي يفترض أنها حكمت المملكة الآشورية والبابلية وميديا وأرمينيا في سنة 1900 ق. م.

ويؤكد الكتّاب أنفسهم أيضاً أنَّ المدينة اشتقت اسمها من هذا الحكم المذكور أخيراً، في حين أن هناك آخرين وتحديداً من بينهم السير هنري رولينسون Henry C. Rawlinson - عميل سياسي سابق في بغداد وقد يكون أحسن الخبراء المختصين في فك أو قراءة الحروف المسمارية أو حروف رأس السهم - يعتقدون أن نينوس وسميراميس شخصيتان أسطوريتان ابتدعمها الإغريق، وذلك لكونهما غير معروفين بالنسبة للكتّاب البابليين.

كيفما كان الأمر فإن هناك احتمالات كبيرة بأن تأسيس نينوى يعود بالزمن إلى نفس وقت تأسيس بابل، على الرغم من أنَّ أقدم القصور التي تم اكتشافها حتى الآن في نينوى - القصر الشمالي الغربي في نمرود - لا يعود في تاريخه إلى القرن العاشر قبل الميلاد. هناك اعتقادٌ بأن ثلاثين إلى أربعين ملكاً سيطروا على آشور أثناء وجود مدينة نينوى، ولكن ليس هناك أي شيء مؤكد معروف عنهم.

الملك الأول - الذي لدينا دليلٌ على أنه حكم مملكة آشور - هو Bellush والأخير كان Sardanapalus مخنّثٌ فاسقٌ، لا يأبه كثيراً لمصلحة شعبه، إنما كان يمضي وقته بالملذات الجسدية الفاسقة، ونتيجة ذلك تآمر ضده Arbaces حاكم إقليم ميديا و Pelesys حاكم بابل، وأيّدهما حاكم Bactria فحاصروه أخيراً في نينوى، وقاموا بمحاصرة العاصمة لمدة سنتين كاملتين دون أن ينجحوا، ولكن في

الســنة الثالثة فاضت ضفاف دجلة فتدمّر اثنا عشـر ألف قدم من جدران المدينة فدخل الثائرون من هذه الثغرة، كان Sardanapalus يعرف أنه هالكٌ لا محالة، لذا قام بجمع أعضاء مجلسه بالكامل وكنوزه الهائلة في أطراف قصره الضخم الرائع، ولعلمه بالغزو الذي وقع على مدينة نينوى، أضرم النار في القصر، واختفى مع أنصاره في ألسنة النار قبل أن يتمكن الثوار من الوصول إليه. تدمّرت مدينة نينوى عاصمة المملكة الآشورية القديمة أو بالأحرى الأولى، ولكن سرعان ما نهضت نينوى ثانية من بين ركام الأولى، وكعاصمة للمملكة الآشـورية الحديثة بلغت أبعاداً أكبـر حتى من أبعادها القديمة قبل سقوطها.

مع أن الاعتقادات بشـكل عام تقول بأن آخر سـقوط ودمار لمدينة نينوى وقع قرابة العـام 603 ق. م، فـإن هناك مؤرخين وعلماء آثار بارزيـن يخالفون هذا الرأي نوعاً ما. ومثالاً على ذلك المؤرخ الشـهير (هيرودوتوس) الذي عاش تقريباً من سـنة 484 إلى 408 ق. م والذي يستبعد كون نينوى تدمّرت قبل عصره بمئتي عام فقط، وعالم الآثار البريطاني البارز (السـير هنري روليـسون) يرجع سـقوط نينوى النهائي إلى العام 625 ق. م. أياً كان التاريخ الدقيق لانهيار مدينة نينوى، فإنه من المؤكد أنَّ دمارها كان شاملاً وكليـاً، ذلك أنَّ قائـد الجيش والمؤرخ زينوفون Xenophon الـذي قاد في العام 401 ق. م. عشـرة آلاف محارب يوناني إلى موقع العاصمة الآشورية، لم ير أيّة علامات أو آثار للمدينة الزائلة، وغالباً هذا هو السـبب أنَّ أحداً من مؤرخي الإسكندر لم يأتِ أبداً على ذكر نينوى أو أطلالها، مع أنَّ جيش الفاتح الشهير بأكمله سار عبر موقعها قبل يوم أو اثنين من معركة آربيلا Arbela أو غانغاميلا Gangamela المشهورة في الثاني من أكتوبر عام 331 ق. م.

أما بالنسـبة لامتداد مدينة نينوى، فإن معظم الكتاب الخبراء الموثوق بهم يتوافقون الـرأي مع بعضهـم. يصف النبي يونس الـذي - كما ذُكر سـابقاً - زار نينوى العاصمة الآشـورية سـنة 862 ق. م. تقريباً بأنها «مدينـة بالغة العظمة يقدّر طولهـا برحلة مدتها ثلاثة أيام (ستون ميلاً)»... (سفر يونان، الجزء الثالث، الفصل الثالث والرابع)، وبالنسبة

لسكانها ووسائل العيش فيها فإننا نقرأ في (يوناه، الجزء الرابع، الفصل الحادي عشر) أن الله قال له: «ألم يكن يجدر بي أن أرحم نينوى، المدينة العظيمة، التي فيها أكثر من (مئة وعشرين ألفاً) من الناس الذين لا يستطيعون التمييز بين يدهم اليمنى ويدهم اليسرى، وأيضاً الكثير من الأنعام؟»، ولا شك أنَّ المقصود بالمئة وعشرين ألف شخص غير القادرين على تمييز يدهم اليمنى من اليسرى أن نينوى في أيّام يونس كانت تحوي (مئة وعشرين ألف طفل)، أعني الأشخاص البريئين، من أجلهم كان الربّ سيبقي على المدينة الآثمة. والآن إذا حسبنا بمتوسط عشرة أشخاص فقط فوق الثلاثة أعوام - برأيي هو العمر الذي يتوقع فيه من الإنسان الطبيعي السليم الحواس أن يميّز بين يديه كلتيهما - مقابل كل رضيعٍ أو طفل أصغر من هذا العمر، فإن تعداد سكان نينوى في ذاك الزمان لا يمكن أن يكون أقل من مليون ومئتي ألف، إلاَّ أنه ليس هناك شك بأن تعداد السكان كان أكثر من ذلك بكثير؛ إذ إنَّ البشر في هذه البلاد حتى هذا الحين يسعون إلى تنمية أعدادهم في عمرٍ مبكرٍ جداً وهم أيضاً من المعمرّين.

وصف المؤرخون القدماء نينوى بكونها مدينة مربعة الشكل، واقعة على الضفة اليسرى لنهر دجلة، وقد فرضوا للمدينة مساحة مقدرة بستين ميلاً، ولكن على الأرجح لا بل بالتأكيد هذا غير صحيح؛ إذ يجب ألا ننسى أنَّ كل هؤلاء الكتّاب المذكورين عاشوا في فترة قرونٍ بعد دمار نينوى، وبالتالي فإنَّ كافة تقاريرهم مصدرها «أقوال»، بينما يونس الذي وصف المدينة في (يوناه الجزء الثالث) بكونها تحتاج لمسير ثلاثة أيام (ستين ميلاً) في الطول فقط، أقام في نينوى عندما كانت لا تزال في مجدها. علاوةً على ذلك، ذكر في (يوناه الجزء الخامس، الفصل الحادي عشر) أن نينوى (فيها الكثير من الأنعام)، اتفق جميع المؤرخين وعلماء الآثار تقريباً على أن نينوى كانت أكبر بكثير من بابل، وكانت محصنة بقوة بواسطة حائط يرتفع مئة قدم، وهو عريضٌ في القمة بشكل كافٍ لمرور ثلاث مركبات تمشي جنباً إلى جنب، ويعلو هذا الحائط ألف وخمسمئة برج يبلغ ارتفاع كلٍ منها مئتي قدم. كان هذا الحصن العظيم متصلاً بقناةٍ عرضها مئتا قدم يتم غمرها بالماء بواسطة قنوات الجرّ والترع لتصبح المدينة بذلك

حصينـة إلـى أبعد الحدود كما هـي بابل، وكما هي بابـل أيضاً يقال إنَّ نينوى اتّسـعت داخـل جدرانها لمســاحات كبيرة فارغة مـن الأرض، وكافية لإنتـاج كميات من الذرة تفي باحتياجات السكان وطعاماً للماشية ليتمكن السكان من الصمود أمام حصارٍ مدته عدة سنوات دون الكثير من العناء والانزعاج بالنسبة للإنسان والحيوان. والآن ينبغي الاعتـراف بأنه يتطلب مسـاحة كبيرة مـن الأرض الكثيرة الخصوبة لإنتـاج طعام كافٍ لإبقـاء مليـون إلى مليوني شـخص، وربما مئة ألـف رأسٍ من الماشـية مرتاحين تماماً حتى لمدّة سنة واحدة.

ولكـن حتـى دون الرجوع إلى الكلام فـي الأعلى، فإنّي ميالٌ للاعتقاد بأن مسـاحة نينوى على الرغم من أنها قد تكون ليسـت شاسعة جداً كما ستخيل عندما نقرأ وصف يونـس للمدينـة، فإنهـا تتجاوز السـتين ميلاً بكثيـر؛ إذ مـن المؤكّد أنَّ الجهـة الأمامية للمدينـة أو جهة النهر تمتد على الأقل من تلة قويونجوك Konyunjik إلى تلة سـلميّة Selamiyah ذلـك إن لـم تكن إلـى (نمرود) وهي مســافة تقدّر بحوالـي ثلاثين ميلاً، وإذا كانت تلة خُرسـاباد Khorsabad - اثني عشـر ميلاً شـمال شرق الموصل - وتلة Kharamles - خمســة عشر ميلاً شمال شرق نمرود - تشـكلان الزاويتين الخلفيتين للمدينـة المربعـة، واللتان لدينا كل الأسـباب الكافية لجعلنا نعتقد أنهمـا كذلك، فإنّنا نتوصـل إلـى نتيجـةٍ مفادها أنَّ محيـط مدينة نينـوى يقدّر بخمسـةٍ وسـبعين ميلاً على الأقل.

يقـول المؤرخون الإغريق: إنَّ المحيط الأصلي لمدينة نينوى الأسـاسـية هو تسـعة أميـالٍ فقط، ويُعتقد عموماً أن هذا المحيط يحتـل مركز المدينة العظيمة التي تلت بعد ذلـك. وفي خصوص الأبنية في مدينة نينـوى، يُفترض أنها مبنية من القرميد المحروق داخل أفران، وذلك على الأقل في تلك القصور التي اكتشفها (بوتا ولايارد) حيث يبدو أن فيها جدران من القرميد تصل سماكتها إلى خمسـة عشـر قدماً بنيـت فوق منصات من التراب المسحوق أو المدقوق، وقد ارتفعت حوالي أربعين قدماً فوق مستوى السهل. قناطر مدهشـة شكّلت المدخل إلى تلك القصـور، كائنات خرافية ضخمة (وهي عبارة

عن أشكال حجرية أو معدنية لحيوانات وحشية - أسود أو ثيران - لها رأس إنسان) تشغل جانبي المدخل كليهما إلى القناطر.

كانت القصور تحوي غرفاً قليلة لكنها كبيرة وعالية، وكانت جوانب تلك الغرف مؤطرة بألواح الجبس والمرمر، تصل من ثمانية إلى عشرة أقدام في الارتفاع ومن ثلاثة إلى أربعة في العرض ومن قدمٍ واحدٍ إلى قدمين ونصف في السماكة، وجميعها مغطاة بنقوش بارزة تمثّل مشاهد ووقائع الحرب والسلم، وخاصة الحرب، مع شرحٍ أسفل كل نقش مكتوب بحروف اللغة المتداولة في تلك الفترة. حتى الأرض في كافة أرجاء البناء كانت مغطاة ببلاط المرمر المزخرف بطريقة مشابهة. فضلاً عن ذلك كانت الغرف في الطابق الأرضي مزينة بزخارف من خشب الأرز والميناء والعاج والبرونز... وغير ذلك، وبدا أنّها كانت جميعها خالية من النوافذ، الشيء الذي يدل على أنهم كانوا يحصلون على الضوء الضروري من خلال فتحاتٍ في السقف، أي من خلال مناور. أو إذا كان البناء أكثر من طابقٍ واحدٍ فإنهم يحصلون على الضوء من خلال فتحات في أرضية الطابق الثاني. لا بدَّ أنَّ سقوف الغرف في الطوابق العلوية - ذلك إن كان الآشوريون قد بنوا صروحاً من طابقين أو أكثر - كانت مدعّمة بواسطة أعمدة، وكانت تستخدم كشرفات أو كبيت صيفي، وفي هذه الحالة يمكن إبعاد أشعة الشمس أو نظرات الغرباء في الخارج باستخدام الستائر أو المظلات.

إنَّ وصف هذه القصور العظيمة مع تاريخ المملكة الآشورية كما هو محكيٌّ بواسطة النقوش البارزة التي استخرجها المستكشفون، وقام رجالٌ أصحاب قدرة وثقة غير مشكوك بهما باكتشاف معانيها، كل ذلك تقريباً أدلة كافية على أن الآشوريين كانوا لمدة تقارب الستمئة وخمسين سنة ليس فقط أحد أقوى وأعظم الأمم في ذاك الزمان، إنما حتى بالنسبة للحضارة كانوا أنداداً حقيقيين لأية أمةٍ من الأمم في وقتهم آنذاك.

* * *

الفصل العشرون

المسير باتجاه الغرب

المظهر الحالي للقافلة - النّوم في الخان - النجاة بأعجوبة - خداع المتطفلين - مشهد في الوادي الجبلي - زاخو - الجزيرة - مغامرة - «الفارس الرحّالة».

جاء اليوم المقرر لرحيل قافلتنا عن الموصل، كان علينا أن نبدأ المسير في الساعة العاشرة صباحاً، وحتى ذاك الحين لم يكن لديَّ حصانٌ يحملني في رحلتي، ذلك أنَّ فيليكس المسكين فحلي الكستنائي الصغير من بغداد لم يكن قد تعافى بعد من آثار مغامرة صيد الخنازير المشؤومة على السهول الواقعة بين قرا تِپه Karatepi وكفري Kiffri. منذ ذاك الصباح بدأت حالة الحصان المسكين بالتراجع بسرعة كبيرة، ويوماً بعد يوم كان يصبح أضعف وأكثر نحولاً، حتى سرعان ما تبيّن أنني يجب أن أتركه في الموصل برعاية مضيفي السيد (W) الذي وعد بعطفٍ أن يهتم به ويعيده إلى أصدقائي في بغداد إذا تعافى، أو أن يجعل له «قبر فرس صيد»، إذا مات.

خلال سنواتي السبع التي قضيتها في رحلاتي إلى مصر والهند ومدغشقر وجنوب أفريقيا وبلاد الفرس، وجزيرة العرب وبلاد الرافدين وسوريا وآسيا الصغرى وغيرها وغيرها، امتطيت وامتلكت عدداً لا بأس به من الخيول الممتازة وبعض الخيول السيئة، ولكن لم يسبق لي أن شعرت بأني متعلقٌ بأيٍّ منها كما هو حالي مع فيليكس المسكين. شعرت وكأن قلبي سينفطر حين لعق هذا الحيوان الأصيل جبهني مع نظرةٍ حزينة عندما ربّتُّ على كتفيه للمرة الأخيرة. انقضت عدة أسابيع قبل أن يصبح فيليكس قوياً بشكلٍ

كافٍ لإرساله إلى بغداد، ولفترة قصيرة من الزمن كانوا كلَّ يوم يتوقعون رحيله إلى «أراضي الصيد السعيدة» ولكن القدر شاء أن يتعافى ويعود إلى أرض الخلفاء حيث - كما سمعت - بعد وقت قصير كان بصحةٍ جيدة جداً وكان الحصان المفضل لدى مالكه الجديد - مهندس مناجم ألماني موظف من قبل الحكومة التركية للتنقيب عن الفحم واستكشاف مناجم أخرى في إقليم العراق العربي.

أثبت حصانٌ كُميت قوي جداً يعود لسائس خيول في الموصل وقد ركبتُه أثناء جولاتي في نينوى أنه رحّالة لا يعرف التعب، ورغم أنّه شريرٌ إلى حدٍ ما بأسنانه وقوائمه الخلفية، وليس جميلاً على الإطلاق فقد أصبح ملكي ذاك الصباح، وبالتالي حظي بشرفٍ لا يوصف عندما كان عليه حملي من الموصل إلى شواطئ المتوسط المبهجة، وهي مسافة تقدر بحوالي أربعمئة وخمسين ميلاً، وقد أنجز هذا العمل مستحوذاً على استحساني التام. وبعد ساعةٍ من شرائي له ركبت بصحبة مضيفي والسائس إلى الخان الذي يحتله السّنيور (P) وقافلته. مع أن الساعة كانت بالكاد تصل إلى الثامنة حينها إلاَّ أنَّ حشداً متنوعاً وملوناً كان قد اجتمع في الباحة الواسعة للخان.

كانت إحدى الزوايا مشغولة بالعديد من خيول الحمل الخاصة بقافلتنا وهي على وشك أن تُحمّل من قبل رجالنا الذين كانوا يتعوقون كثيراً في تأدية واجباتهم بسبب الكثير من المتفرّجين المحتشدين حولهم رغبةً في رؤية رحيل (الفرنجة)، أما الجزء الباقي من باحة الخان فكان يعج بتجّار الخيول ومالكي خيولٍ من جنسيات عربية وتركية وفارسية راح ساستهم يخببون الكثير من الخيول في كافة الاتجاهات ضمن الباحة الفسيحة، مشكلين خطراً على حياتهم وأعضائهم هم وبقية المتفرجين.

وفي غمرة صهيل صاخب ناجم عن مجموعة خيولنا الأصيلة في الإصطبلات القريبة وجدنا السّنيور (P) بمزاجه الجيد المألوف يقف في مدخل الإصطبلات منهمكاً بجدّ في إلقاء الأوامر المختلفة على الرجال العرب المرافقين لقافلتنا، وفي الوقت نفسه يراقب بعينين متيقظتين الخيول التي تخبّ في الباحة. كان واضحاً أنه لم يعجب كثيراً بأيٍّ من تلك الحيوانات؛ فحين لاحظ وصولنا أومأ برأسه لبائعي الخيول

ليفهموا أنه لم يكن يريد أياً من ماشيتهم وبناءً عليه ألقوا سلاماً متحضراً وانصرفوا. بعد ذلك أخبرَنا السّنيور (P) أن الپاشا (الوالي) لا يزال محنقاً جداً لأن السّنيور (P) أصرَّ على رفض شراء حصانه من أجل الأسباب المذكورة سابقاً، وأنّه (الپاشا) تعمّد أن يتصرف بلؤم مع السّنيور (P) بألاّ يزوّده في الوقت المناسب بالحراسة الضرورية كما هو مأمورٌ بالفرمان الذي يحمله السّنيور (P).

ضجر السّنيور (P) من انتظار أن يزوّدنا الپاشا بالحراسة، وقرّر ألاّ يتعب نفسه مع التركي المستبدّ، فعزم على الانطلاق دون الحرّاس متأكداً أننا نستطيع المضي دونهم، وخاصة أنه كان قد وصل إلى قرارٍ بأن نسافر فقط أثناء النهار، وفي ذلك الحين كنا أصلاً قد وصلنا إلى خط العرض حيث تستطيع القوافل أن تسافر دون الكثير من العناء والتعب الناجم عن حرارة الشمس، حتى خلال الفترة الأكثر حرّاً من النهار، وبشكلٍ خاص منذ بداية أكتوبر حتى نهاية مارس.

لم تكد أوامر التحرّك تعطى حتى كانت قافلتنا المستعدّة كلياً منطلقة خارج بوابات الخان على طريقة الرتل الهندي. أولاً خيول الحمل المحمّلة بثقل بأمتعتنا ومنقولنا محدثة ضجة تصيب بالصّمم ناجمة عن جلجلة العديد من الأجراس المتدلية من عنق كل حصانٍ أو بغلٍ.

لا يستطيع البغّال الإسباني ومثله الهجّان الفارسي التفكير حتى في السفر دون هذه الموسيقى الوتيرية كالبحّار الذي لا يستطيع السفر دون البوصلة، ويبرّرون ذلك بأن لا خيول الحمل ولا حتى البغال تستطيع المسير بشكلٍ جيد دون الأجراس.

أثناء فترة الأيام الخمسة من الراحة في الموصل، استعادت مجموعة خيولنا كامل نشاطها وطبيعتها اللعوبة وراحت تتصرّف بطريقة صعبة المراس كما كانت عندما غادرنا بغداد، ولكن رجالنا الذين أصبحوا عارفين تماماً بالحيل carambols الخاصة بها سرعان ما أجبروها على الخضوع.

اجتمعت حشود أهالي الموصل عندما كنا نعبر جسر دجلة، ثم انحرفنا إلى اليسار

متخذين الطريق المارّة بين نهر دجلة والحدود الشمالية الغربية لآثار نينوى باتجاه زاخو Sacho - مدينة صغيرة تبعد ستين ميلاً شمالي الشمال الغربي للموصل. رافقنا مضيفي السيد (W) لمسافةٍ لا بأس بها ولكن أخيراً بعد أن استأذننا بالمغادرة انطلق عبر الأرض المتموجة المقفرة على يميننا نحو قريةٍ عربيةٍ صغيرة. كان يمتطي فحلاً كستنائياً مذهلاً وعظيم القوة، والذي حتى لحظة رحيلنا عن الموصل كان يشكل أحد أعضاء مجموعة الخيول المختارة الخاصة بنا، وقد اشتراه السّنيور (P) من الحِلّة Hillah قرب أطلال بابل لاستخدامه الخاص، لكنه بادله مع السيد (W) مقابل حصانٍ كميت. وسرعان ما اختفى السيد (W) عن أنظارنا ووجدنا أنفسنا وحيدين نتجه نحو البحر المتوسط البعيد.

خلال إقامتنا في الموصل قام الأب (M) - الكاهن الكاثوليكي الشاب - بتجديد قواه عن طريق اقتصار غذائه على الكثير من قطع الضأن وغالونات الخمر الفرنسي المستورد، ومن تلك المادة الأخرى أخذ معه مؤونةً كافيةً عندما غادر إخوانه الكهنة الصالحين المضيافين في الموصل. فيما يتعلق بالفتاة الزنجية بَحري (Bahri) فسواءٌ كانت متأثرة بالمبادئ المسيحية التي علمتها لها الأخوات في الجمعية الخيرية، أم أنَّ الحمار الذي كانت تركبه أصبح أكثر نشاطاً بعد استراحته في الموصل، فذلك مالا أستطيع أن أعرفه، لكن الشيء المؤكّد أنها بقيت على رأس قافلتنا إلى أن وصلنا إلى زاخو.

بعدأن افترقنا عن السيد (W) بقليل فاجأنا اثنان من الظابطية - فرسان سريّون - مسلحان على نحوٍ سيء وأسوأ من ذلك ماكانا يركبانه، أكّدا أنهما الحراسة المبعوثة من قبل الپاشا الذي - على الأرجح خوفاً من أن يفضح السّنيور (P) سلوكه في الباب العالي - أرسلهم للحاق بنا مع أوامر بإيصالنا إلى زاخو، أو نصيبين أو حتى إلى ماردين، وكما ستُظهر التتمة، أفلحنا في تدبّر أمورنا جيداً من دونهما، ولولا الإهانة عديمة الجدوى لكان السّنيور (P) سيعيدهما مباشرة إلى الموصل. بعد السفر لمدّة ثلاث ساعات تقريباً فوق سهلٍ مقفرٍ وبدا جلياً أنه غير مأهول، وصلنا إلى قريةٍ صغيرةٍ

بائسة مؤلفة من حوالي دستة من الأكواخ المربعة القصيرة ذات الأسقف المستوية، مبنية من الطين أو الصلصال المجفف بأشعة الشمس، وتقع على الجانب الجنوبي لواحدة من عدة هضاب قليلة الارتفاع متناثرة فوق السهل.

تدعى هذه القرية التعيسة قرية تلّ كيف Tell Keif وتقع على مسافة اثني عشر ميلاً عن الموصل.

في هذا المكان أعطى السّنيور (P) أوامر بحط الرحال لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات، والقصد من ذلك هو مواصلة رحلتنا في المساء عندما يكون الجو ألطف، لأنَّ النهار في هذا الفصل من السنة يصبح أكثر حرارة ورطوبة. تم ربط خيولنا وتزويدها بالطعام والماء على الفور، ثمَّ خلد جميع أفراد القافلة إلى الراحة باستثناء اثنين أو ثلاثة من سائسي الخيول الذين أُمروا بمراقبة الخيول. جزءٌ من الرجال لجأ إلى بقعةٍ ظليلة في الفلاء، وآخرون لجؤوا إلى أقرب الأكواخ، أما أنا والسّنيور (P) والأب (M) وبَحري (Bahri) وطباخنا الأرمني فقد استولينا على الكوخ الأقرب إلى خيولنا، الذي كان حتى وقت وصولنا تشغله فقط سيدة مسنّة وطفلٌ يصرخ، كان يتأرجح جيئةً وذهاباً داخل حصيرة صغيرة من القش متدلية بواسطة حبلين من سطح الكوخ. كانت السيدة المسنّة تعرف جيداً أنها ستقبض «البقشيش» - إكرامية أو عطيّة - فعرضت علينا أن تذهب وتقضي فترة ما بعد الظهر في أحد الأكواخ الأخرى في القرية مع طفلها، ولكن بما أنَّ المخلوق الصغير توقف عن الصراخ ولم يكن لدينا مانعٌ في بقائها، فقد قمنا بمدّ البطانيات على الأرض وأغلقنا الباب لنتجنب الرياح الساخنة وسرعان ما كنّا نائمين في الغرفة الحالكة الظلام.

طوال فترة رحلتنا من بغداد إلى البحر المتوسط، كنت أحمل نقودي داخل حقيبةٍ جلديةٍ صغيرة تتدلى من كتفي بواسطة حبل، وكنت دائماً أهتم كثيراً بإخفائها مع أسلحتي النارية وسكّين الصيد خاصّتي تحت وسادتي قبل أن أذهب للنوم.

كانت حسرتي وانزعاجي كبيرين عندما اختفت سكين الصيد خاصتي بشكلٍ غامضٍ في أول ليلةٍ لنا في كركوك، وكنت أخشى أن تختفي بندقيتي ومسدسي ونقودي

بالطريقة نفسها، لذا اتخذت كل الاحتياطات والتدابير الوقائية لحمايتها بشكل وثيق.

تشكّل الأسلحة النارية والنقود الجزء الأكثر جوهرية من معدات المسافر في بلادٍ شبه متحضرة، وإذا ما فُقدت مرّة فإنه ليس من السهل أبداً استرجاعها أو الاستعاضة عنها وخاصة في بلاد الرافدين. عندما استيقظت من النوم وكنت قد نمت بعمقٍ لمدة ثلاث ساعاتٍ تقريباً نظرت بشكلٍ لا إرادي إلى الأشياء التي خبأتها تحت رأسي؛ لقد فقدت حقيبة النقود، ففكرت على الرغم من ذلك أنه من المستحسن ألاّ أبدي أيَّ احتجاج حول الموضوع ولكن فقط أخبرت السّنيور (P) بخسارتي، لقد ذُهل مما قلت وأخبرني بأنه لم يدخل أحد إلى الغرفة إذ كان هو نفسه قد أقفل الباب من الداخل ومنذ ذاك الحين لم ينم أكثر من ربع ساعة.

وقال أيضاً إنه يؤكد نزاهة جميع من شغلوا الكوخ معنا باستثناء المرأة المسنّة. نتيجة محادثاتنا اتهمتُ المرأة المسنّة بالسرقة، ولكي أخيفها أخبرتها بكل برودة أعصاب بأني سأضرم النار في الكوخ إن لم أستعد نقودي على الفور، فراحت تصرخ وتنوح وتبكي وتؤكد براءتها، ولكنني كنت أعرف جيداً أطباع أبناء البلد هؤلاء أكثر من أن أثق بإدعاءاتها واحتجاجاتها.

في غضون ذلك، وصلت أخبار خسارتي إلى الناس خارج الكوخ، فراح كل فرد من أفراد قافلتنا يؤكد براءته وكذلك بالتأكيد فعل جميع سكان القرية. علّق الأب (M) بفتور قائلاً إنني كنت أتهم كل الناس بالسرقة ظلماً وعدواناً وقد أكون فقدت الحقيبة على الطريق، ثم دخل في مشاجرةٍ حادةٍ معي حتى إنه هدّدني بأن يرميني بالرصاص ولتطبيق القول على الفعل سحب مسدسه. أثار هذا السلوك العنيف الصادر عن رجل يعلّم الدين والصبر سخطي الشديد، فأخرجتُ مسدسي بسرعة كبيرة بيدي اليسرى، وأتبعت ذلك بأن طرحته أرضاً باليمنى.

عندما استدرتُ إلى الخلف رأيت رجلين من القرية يفلتان من قبضة السّنيور (P) ويهربان من القرية. كنت شديد التأكد بأن السّنيور (P) كشف السارقين، لذا انطلقت في مطاردة الهاربين ولحق بي اثنان أو ثلاثة من رجالنا. لا أعرف ما إن كان شعوري

بالرغبـة فـي الثأر أو بالإثارة هو الشـيء الذي منحني سـرعة خارقـة للطبيعة، ولكن ما كنت متأكداً منه هو أنني كنت أثب فوق الأرض بخفة غزالٍ تاركاً جماعتي على مسافة بعيـدة ورائي. سـرعان ما لاحظت أنَّ قوة أحد الهاربين قـد خارت، فكنت أدنو منه في كل خطوة وبعد دقيقة واحدة تمكنت من تثبيته فوق الأرض. صرخ خائفاً حتى الموت مـن أن أكون عازماً على قتله. كنت منهمكاً كلياً بالإمسـاك بهـذا الحقير نصف العاري والمثنـي علـى الأرض، فلم ألحـظ أنَّ صديقه عاد لينقذه وكان قد رفع سـكينه الطويلة اللامعة ليقحمها بين كتفيَّ عندما حصل انهيار مفاجئ!

لقد خرَّ منبطحاً بجانبي. والمفاجأة أنَّ محمّد عبد الله السـائس الأكثر صرامة وقوة بيـن سائسـينا الـذي كان قد خرج معـي في ملاحقـة الهاربين، وصل تمامـاً في الوقت المناسب ليمنع الرجل من طعني عن طريق ضربةٍ بالحجر أسقطته مغميّ عليه.

تحول الموضوع ليظهر أن خصمينا كانا بريئين تماماً من السـرقة، وقد انطلقا هاربين فقط خوفاً من أن يضربهما السّـنيور (P) حيث كان قد ذهب إليهما أثناء مشـاجرتي مع الكاهـن. عنـد عودتنا إلى القرية وجدنا السّـنيور (P) محاطاً بحشـدٍ غفيـرٍ من الرجال والنسـاء والأطفال. كان يمسـك بقوة بأحد رجالنا بينما يقوم اثنان آخران بتفتيش جيوب الرجل المشبوه الذي كان شاحباً كالموتى ويرتجف كورقة الشجر.

عندمـا رآني هـذا الرجل البائس قادماً طلب مسـتعطفاً أن يتحدث معي على انفراد، فأخذتُه إلى وراء الكوخ، وحينها اعترف بذنبه، وقال إنه اختبأ في زاوية مظلمة من الكوخ قبـل أن ندخل إليه، وانتظـر بهدوء حتى كنّا جميعاً نائميـن، فزحف نحوي بهدوء على أطرافه الأربعة، وقلّد ذبابةً تمشـي على وجهي عن طريق مدغدغتي بقطعة قش لينجح بذلـك فـي مضايقتي جيـداً حتى أتقلّب، ثم تمكّن من سـحب الحقيبـة الصغيرة رويداً رويـداً من تحـت البطانية. عندما عاد مـع غنيمته إلى مكان اختبائه حـاول فتح الحقيبة لكنها كانت مقفلة ومفتاحها معي، لذلك قام ببسـاطة بشقّ درزات الحقيـة بسـكينه وقام بإفراغها من محتوياتها التي دفنها مع الحقيـة في زاوية مظلمة من زوايا الكوخ.

وفي الواقع وقعت عليه الشـبهة بالسّـرقة عن طريق الصدفة وبواسطة الفتاة الزنجية

بَحري (Bahri)، التي بعد أن غادرنا جميعاً الكوخ كان عليها أن تعود إليه من أجل أن تحصل على بعض الماء للشرب، وبينما كانت تتحسس جرّة الماء الفخارية الكبيرة التي توجد عادة في إحدى زوايا تلك الأكواخ المظلمة، أذهلها اكتشافها للقامة الجاثمة لهذا الشاب في أكثر زوايا الكوخ ظلمة يتظاهر بأنه نائم. ومن أجل أن تجعله يعتقد أنها لم نلاحظ وجوده أكملت تلمّسها في أنحاء الغرفة المظلمة وفي النهاية تملّصت خارج الكوخ مقفلةً الباب وراءها. قامت على الفور بإخبار السّنيور (P) برؤيتها وشكوكها والذي بدوره جرَّ ذلك الوغد بمنتهى القسوة إلى خارج الكوخ.

وعد السارق بأن يعيد كل ما سرقه مني إذا تمكنت من حمايته من السّنيور (P) ورجال قافلتنا، فوعدته أن أفعل ذلك وعندها أخذني إلى الكوخ، وإلى الزاوية التي استلقى فيها مستتراً، ثمَّ ربض وحفر بيديه في الأرض الرملية وأخرج الحقيبة الفارغة مهتوكة من الأسفل، وعلى مسافة بضعة أقدام من هذه الحفرة، حفر واحدة أخرى واستخرج محتويات الحقيبة. لدى انتهائي من عدّ النقود وجدت المبلغ ناقصاً، لكنه أقسم أنه دفنه تماماً كما أخذه من الحقيبة. جنّ جنون السّنيور (P) من هذه الكذبة الوقحة فلم يستطع أن يحجم نفسه عن لكم أذنيّ الرجل، وبهذه اللكمة أوقع طربوش المتّهم، الذي بسقوطه على الأرض أظهر للعيان النقود المفقودة.

كان حنق رجالنا ومثله سكان القرية الذين رست على العديد منهم شكوكنا الخطيرة في السرقة ليس له حدود، وبالرغم من محاولاتي وجهودي لحمايته، احتشدوا حول ذاك الخسيس العاجز آنذاك وراحوا يضربونه بشكلٍ رهيب وربّما كانوا سيجهزون عليه كلياً لولا أننا نجحنا أنا والسّنيور (P) والأب (M) في النهاية في اختراق التجمّع والتهديد بأن نطلق الرصاص على أول شخص سيضرب الرجل التعيس مرة أخرى بعد الآن.

بعد هذه الحادثة بالتأكيد لم يسمح السّنيور (P) للمجرم بمرافقة القافلة، وخاصة بعد أن أثبت بأنه لصٌّ محترفٌ باعترافه بسرقة سكين الصيد الخاصة بي.

كان السّنيور (P) راغباً في التخلص من الظابطية وكذلك من السارق، وبدهاءٍ

مطلق فكّر بأنها فرصة رائعة «ليضرب عصفورين بحجر واحد»، لذلك أمر الظابطية بالعودة إلى الموصل مع الأسير وتسليمه إلى الپاشا الذي عليه أن يعاقبه وفقاً لجريمته. امتطيا حصانيهما بعد ذلك على الفور، وعادا إلى الموصل والأسير يمشي بينهما مع حبلٍ مربوطٍ حول خاصرته، ونهايته الأخرى مربوطة بحزام السّرج الخاص بأحد الحصانين. كان بإمكاننا من مسافة بعيدة أن نرى السجين لا يزال يمشي بانتظام بين حرّاسه ولكن أخيراً غاب الثلاثة عن أنظارنا. ليس لديَّ أدنى شك بأنهم وصلوا إلى الموصل سالمين، ولكنني لدي سببٌ وجيهٌ للشك بأنَّ السجين قد مثل متّهماً أمام الپاشا، بل على الأرجح أصبح متحاباً جداً مع الرجلين فور مغادرتهم لنا. إنَّ قيادة الأسير بينهما كانت مجرّد خدعة لوهمنا، وبالتأكيد تخلّصوا منها بسرعة بعد أن غابوا عن أنظارنا مباشرة، ذلك أنّ السرقة لا تعدّ جريمة من قبل هؤلاء الناس إذا لم يتم اكتشافها، وخاصة إذا كان الضحية ملحداً أو مسيحياً.

كان هذا الرجل شاباً ووسيماً وذكياً، وقد غادر بغداد مع قافلتنا مدّعياً بأنه متجهٌ إلى ديار بكر. لم يكن الرجل في خدمتنا إنما كان مجرّد مسافر تحت حماية قافلتنا، إذ إنه من الشائع في هذا الجزء من العالم أن المسافرين الوحيدين عندما يكون عليهم السّفر عبر منطقة تشتهر بانتشار السرقات وقطع الطريق فيها، فإنهم عادةً ينتظرون مغادرة قافلة تسير إلى وجهتهم نفسها، فينضمّون إليها ويسافرون تحت حمايتها. إنَّ العديد من هؤلاء «المسافرين» ليسوا سوى لصوص محترفين، ينضمون إلى القافلة ويسافرون معها فقط من أجل السرقة، وليضمنوا النجاح في خططهم الدنيئة يجعلون عادةً من أنفسهم أشخاصاً مفيدين جداً، ودائماً مستعدين للمساعدة في تحميل وإفراغ حمولة الجمال وخيول الحمل والبغال، وذلك من أجل هدفٍ وحيد، وهو معرفة قيمة وأماكن المتاع والبضائع والنقود وأشياء أخرى ذات قيمة، وأيضاً معرفة أفضل الوسائل لإخراجها.

والعديد من هؤلاء الأشخاص على علاقات مباشرة مع عصابات قطّاع الطرق وغيرهم ويعملون كجواسيس لهم. هناك حيلة معروفة جيداً من حيلهم وهي تقديم

خدماتهـم للقوافل على أنهم حرّاس من البدو أو الظابطية ومهمتهم حماية القوافل في مسـيرها ومراقبة المخيمات في الليل. وبما أنَّ الحرَّاس عموماً يتولّون مؤخرة القافلة، فإنهـم يفيدون أنفسـهم جيداً من هذه الفرصـة وخاصة عندما تسـافر القافلة في الليل، وحتى أثناء النهار عندما تمر القافلة ضمن خانقٍ جبلي أو بين الشـجيرات النامية تحت الأشـجار أو بين الكثبان الرملية. وبطريقتهم المناسـبة يقطعون كليّاً أو يمزّقون تمزيقاً الحبـل الذي تربط بواسـطته الأمتعـة أو البضائع برحال الجمـال أو الخيول أو البغال. تسـقط الحقيـة أو الصندوق أو الحزمـة أو البقجة على الأرض فوراً، أو يتدبرون الأمر بطريقة أخرى وذلك حسـب الخرق في الحبل، وعندها تخبّأ سريعاً في الأجمة أو تدفن فـي الرمـال العميقة إما مـن قبلهم أو من قبل شـركائهم في الجريمـة الذين لا يكونون عموماً على مسـافاتٍ بعيدةٍ جداً، عند اكتشـاف السـرقة يكون الأنذال إمَّا فرّوا أو أنهم أيضاً مختبؤون جيداً وقد يكونون على مسـافة أميال من القافلة.

وهنـاك خدعـة مفضلـة تُنفّـذ ببراعة جواسـيس قطّـاع الطـرق أو النّهابيـن؛ إذ بينما يتفحّصـون بفضولٍ مدّع الأسـلحة النارية الموجودة مع الآخرين مـن أفراد القافلة، أو عندمـا يكون الآخـرون نائمين، يملـؤون الوصلات أو فوهات الإطلاق في الأسـلحة بسدادات خشبية أو رصاصية لتصبح بعد ذلك عديمة النفع.

باختصار، إن الحيل والخدع التي يسـتخدمها هؤلاء المتشـرّدون عديدة جداً، وإنه مـن الحكمـة والاحتراز أنَّ تكون القافلة حـذرة جداً ممّن تقبلهم تحـت حمايتها. بعد مغادرة الظابطية والأسير بقليل واصلنا رحلتنا، ولكن ليـس قبل أن ندفع بسـخاء تعويضاً للمرأة المسـنّة التي شغلنا لها كوخها واتهمناها ظلماً.

* * *

كنا نسـير بسـرعةٍ كبيرة حتى حوالي نصف ساعة بعد المغيب، حين وصلنا إلى قرية صغيـرة لا أسـتطيع أن أتذكر اسـمها، كان سـكانها قد لجؤوا إلى الأسـطح المسـتوية لأكواخهـم حيـث كانـت الإناث بالطبع منهمـكاتٍ في مدّ السـجادات وحصائر القش التي يسـتخدمها السـكان عوضاً عن الفراش. بالطبع سبّب وصولنا غير المتوقع فوضى

كبيرة واضطراباً بين هؤلاء الناس، وبشكل خاص بين كلاب القرية التي أحدثت ضجة تصمّ الآذان بنباحها المسعور إلى أن تمّ إسكاتها بقوة بواسطة بعض القذائف الموجهة جيداً التي رماها القرويون. بعد بحثٍ عقيم في القرية عن قطعة أرضٍ فارغة وكبيرة بشكلٍ كافٍ لتتسع لقافلتنا، تراجعنا وربطنا خيولنا خارج المكان. وفي وقتٍ قصيرٍ مدهشٍ نُصبت الخيام، وفي الوقت نفسه تقريباً أضاءت نيران مخيمنا المختلفة أطراف القرية التي كانت قبل ذلك ملتفةً بأجنحة الظلام.

بعد ساعة من الزمن أصبحت الأصوات الحيّة المسموعة عبارة فقط عن صهيلٍ عرضي لأحد الخيول، أو احتجاجات رجال المراقبة الخاصين بقافلتنا، والعواء البعيد لأحد بنات آوى الطوافة يجيبه النباح الغاضب لأحد كلاب القرية. بدا الجميع مستمتعاً بنومٍ هنيءٍ حتى اقتراب انبلاج الفجر عندما أذنت بقدوم النهار أصوات صياح صاخب لأعدادٍ لا حصر لها من الديكة، والنهيق الموسيقي لحوالي دستة من الحمير محدثة حركةً نشيطةً في المخيم والقرية.

مع الخيوط الأولى لأشعة الشمس العظيمة، كنا نسير عبر سهلٍ شديد الخصوبة ولكن مظهره بدا قاحلاً، ولمحنا عدداً من الغزلان الجميلة المنتشرة فوقه، والعديد منها كانت على مسافة بضع مئات من الياردات فقط عن مسارنا، تأكل الحشيش والجنبات بهدوء دون أن تجفل على الإطلاق، إذ بالكاد رفعت رأسها لتنظر إلينا عند مرورنا.

إنَّ لامبالاتها بوجودنا أهان غروري إلى حدٍ كبيرٍ فقررت أن أستفيد من استهتارها، ومن أجل هذه الغاية تقدّمتُ على قافلتنا بمسافة ميلٍ تقريباً عازماً على الحفاظ على هذه المسافة بيني وبينها، إلى أن تمكنت جيداً من التصويب نحو طريدتي. لم أكن قد تقدّمت كثيراً عندما شاهدت على مسافة نصف ميل أمامي خمسة غزلانٍ تتمشى ببطءٍ إلى اليمين قليلاً عن مسارنا على طريقة الرتل الهندي باتجاه زاخو Sacho.

أبقيتُ نظري متجهاً نحوها بثبات، ثم فجأة اختفت عن الأنظار واحداً بعد الآخر، وكأنها كانت تغرق في الأرض واحداً تلو الآخر. أكدت لي هذه الواقعة أنها كانت تنزل إلى مجرى مائي لم أتمكن من رؤيته بعد، وربما من أجل العبور إلى الجهة المقابلة، إذ

إن الغزلان ليس من عادتها أن تشرب بعد شروق الشمس. لم يكن هناك وقت لأضيّعه، وقد عرفت جيداً أن الذهاب إلى حافة المجرى لن يكون نافعاً، ذلك أنَّ هذه المخلوقات اليقظة ستكون قد سمعت وشعرت باهتزاز الأرض الناجم عن حوافر حصاني فهربت. لأتجنب ذلك، ترجّلت عن حصاني، ورميت العنان على الأرض - الطريقة المعتادة لدى البويريين وصيادي جنوب إفريقيا عندما يريدون خيولهم أن ترعى وبالتالي تبقى هادئة حتى عودتهم وجلوسهم ثانيةً فوق السرج - وركضت بأقصى سرعة منحتني إياها ساقاي إلى البقعة التي اختفت فيها الغزلان، ومن ثمَّ تقدّمت نحوها بحذر على أربعة أطرافي.

عندما اختلست النظر وجدتها تعبر جديلاً في أسفل المجرى. صوّبت نحوها بثبات وأطلقت من الشَّـبَطانتين كلتيهما فقذفت أحد كبارها مقاوماً إلى الماء. كانت رؤية أثر المفاجأة على الغزلان رائعة جداً، فلدى انفجار الطلقتين قفزت الغزلان غير المتضرّرة على قوائمها الأربعة وطارت في الهواء ثم هبطت ثانيةً في الماء، فانزلقت حوافر اثنين منهما وراحا يتدحرجان في الماء، إلاَّ أنهما استعادا موطئ حوافرهما خلال لحظةٍ واحدة واندفعا بقوة فوق الضفة المقابلة الأقل انحداراً. أسرعت نحو المجرى المائي خشية أن ينهض غزالي الذي كان لا يزال يكافح وينثر قطرات الماء، وعندما وصلت إليه كان قد توقف عن المقاومة ولم أجد أية صعوبة في حمله على كتفي عبر المياه الضحلة، ومن ثمّ إلى أعلى المجرى.

عند وصول القافلة أمر السِّنيور (P) بالتوقف لفترة قصيرة من أجل أن يقوم يوسف الطباخ بسلخ الطريدة وتقطيعها، وبعد ذلك تابعنا رحلتنا بسرور حتى وصولنا إلى سفح سلسلة جبلية عالية ومغطاة بكثافة بالغابات، تمتد حتى نهر دجلة باتجاه شرقي حتى حدود فارس. كانت الطريق إلى زاخو Zachu أو Sacho تمر مباشرةً عبر السلسلة الجبلية، وتقطعها الخوانق الجبلية العميقة ذات الجوانب شبه العمودية، وفي قعرها تتدفق تيارات مائية صغيرة، ولكنها سريعة. كانت الطريق نفسها تبدو إلى حدٍ ما كحوضٍ جافٍ لنهرٍ جبليٍ، وذلك لكونها مكسوّة بالصخور والجلاميد وبعضها

ذات حجـم ووزنٍ كبيرين. فـي الواقع كانت الطريق تمرّ عبر الصـخر الأجرد، وهو نوع مـن الغرانيـت الرمادي الفاتـح صلبٌ كالصوّان، وفـي الكثير من المناطـق ناعمٌ وزلقٌ كالجليد.

حسـب تقديري الخاص، إن هذه الطريق هي الأسوأ بين كافة الطرقات في الحدود الغربية باسـتثناء التـي تؤدي إلى أورفه Orfa أو Edessa القديمـة، المدينة الواقعة بين بيره جيك Bireh-jik وسـويريك Suverik (الفرات الأعلى).

فـي العديد من الأماكن كانت هناك طبعات واضحة يصـل عمقها إلى عدة إنشـات، طبعتها حوافر الخيول في الغرانيت الصلب، وهو دليلٌ راسخٌ على أنَّ الممرّ كان صعباً جـداً فـي العبور، إذ إنَّه منـذ قرونٍ مضت كان كل حصانٍ يضطر إلـى أن يطأ تماماً على موطئ أسـلافه من أجل المرور من الأماكن الصعبة.

إلى جانب هذا المشـهد في هذا الخانق الجبلي الشرقي، كان المنظر شاعرياً بشكلٍ فتّانٍ، وكانت الجوانب الشـاهقة للممر مغطاة بأجمات تحت الأشجار الكبيرة وتقريباً لا يمكن العبور من خلالها، وهناك شـاهدت الكثير من أشـجار التفاح والتوت البري، ونوع من الخوخ البري وأشـجار الجوز وشجيرات البندق وشجيرات الجوز والكروم والنباتات المعرشة، والتين الشوكي والصبّار وعدة شجيرات توت وبراعم فوّاحة.

بعـد ميـلٍ أو اثنيـن تقريباً أصبحـت الطريق أكثر اسـتواءً وازدادت الأشـجار الأكبر حجماً، وعندما وصلنا قرب سـفح الجبل وجدنا مدينة زاخو Zachu الصغيرة مكنونة بشكل جميل في فتحة الخانق الجبلي، جزء منها محاط بنهر صغير جميل كانت ضفافه الخصبـة والرائعة حافلة بالإناث اللواتي يرتدين زياً شـرقيّاً مبهرجاً منهمكات بجد في حمـل الماء الكريسـتالية الصافية إلى المدينـة بينما كنَّ يضحكن ويثرثـرن بمرح، كان المشـهد بأكمله أحد مشاهد السـعادة المطلقة. كالمعتاد، أحدثت قافلتنا اهتياجاً كبيراً بين السـكان الذين احتشـدوا حولنا ولحقوا بنا من شارع إلى آخر عندما كنا نبحث عن خانٍ مناسـب لاسـتقبالنا، ولكن سـرعان ما وجدنا أنه لم يكن في زاخو بناء كبيرٌ كفاية ليتسع لقافلتنا، وبما أنَّ الأرض المستوية كانت أيضاً نادرة الوجود هناك ضمن ضواحي

المدينة الصغيرة، قمنا بعبور التيار المائي وخيّمنا على قطعة أرضٍ منبسطة على الضفة المقابلة لا تبعد أكثر من ثلاثمئة ياردة عن المدينة.

حالما رُبطت الخيول وأُنزل الحمل عن الماشية ونصبت خيامنا، قام القسم الأكبر من رجالنا بعبور النهر ثانيةً من أجل شراء الطعام والفاكهة على وجه الخصوص، وقد اشتروا منها كمية كبيرة جداً مقابل ثمنٍ زهيدٍ جداً. إن جميع الشرقيين بشكل أو بآخر يبغضون الطعام الحيواني، وبالتالي يعيشون بشكل رئيسي على الطعام النباتي كالأرز والبصل والخيار والخبز وجميع أنواع الفاكهة. ومن الفاكهة خصوصاً، يستطيعون استهلاك كميات هائلة دون أية تأثيرات مضرّة كما هو واضح، على الرغم من أنهم يأكلون بشكل دائم تقريباً فاكهتهم وخضارهم وهي غير ناضجة. لقد رأيت رجالنا لا يأكلون شيئاً لعدة أيام سوى البطيخ، وأحياناً يستهلك رجل واحدٌ (من عشرة إلى خمسة عشر باونداً) فيٍ وجبةٍ واحدة، وهو عملٌ قد يسبب الموت لأي شخصٍ غير معتادٍ على هذا الغذاء.

إنَّ اللحم الوحيد الذي يمكن إيجاده في البازارات في معظم المدن الشرقية هو لحم الضأن ولحم الماعز والطرائد ولحم الدجاج وأحياناً الأسماك ولحم الجمل، ومعظمها تُستهلك من قبل الطبقات الأكثر ثراءً.

على الرغم من أنَّ شراء الطعام الحيواني بعيد المنال عن الفقراء على أية حال، فإنهم كما ذكرت سابقاً يفضّلون العيش بشكلٍ رئيسي على الفواكه اللذيذة من الأعناب والتين والخوخ والبرتقال و(الماء والسكر) أوالبطيخ والخيار... الخ.

وهي متوفرة بكثرة وبثمنٍ زهيدٍ في بعض المناطق في إقليم الرافدين الأعلى وخاصة في زاخو Zacho. مع الغزال السمين الجيد الذي اصطدته على الطريق ومؤونة جيدة من اللحم والدجاج البلدي المجلوب من زاخو Zachu، وكمية وافرة من البقالة التي نحملها معنا، تمكّن طاهينا من تحضير عشاءٍ رائعٍ لنا، وبعد العشاء عدنا أنا والسّنيور (P) إلى المدينة. وعبرنا النهر على ظهر اثنين من رجالنا من أجل أن نجدد مؤونتنا من النبيذ والعرق - وهو براندي مقطّر من البلح يشبه بطعمه الأفستين نوعاً ما.

وجدنا أنَّ المدينة كانت في السابق محصنةً جيداً، ولكنَّ الجزء الأكبر من التحصينات أصبح الآن مستوياً تماماً مع الأرض، وبقي فقط برجان كبيران مدوّران وقبيحان، الأول يستخدم كمجلس القائم مقام والآخر يستخدم سجناً.

يوجد في زاخو بازارٌ صغير يشغله بشكل رئيسي المسيحيون واليهود الذين يشكّلون القسم الأكبر من السكان، ويصلون إلى أربعة آلاف شخصٍ، أما المسلمون فيصل عددهم إلى ألف نسمةٍ تقريباً.

وجدنا السكان أذكياء على نحوٍ ملحوظٍ وأنيقي الملبس والمظهر، وخاصة النساء اللاتي يلبسن بشكل مغناج إلى حدٍ ما، وهنّ مشهوراتٌ جداً في أنحاء الرافدين الأعلى بطلعتهن البهية، وهي سمعة يستأهلنها بجدارة؛ فقد أُنعم عليهنَّ بملامح شرقية مصقولة على نحو ممتازٍ وصحة مميزة، ولون وردي ومزاج أكثر مرحاً بكثير مما هو معتاد عند النسوة الشرقيات.

في الصباح التالي قرابة انبلاج الفجر واصلنا رحلتنا متجهين باتجاه شمالي غربي عبر سهلٍ خصبٍ جميل يعجّ بالغزلان. حاولت أنا والسّنيور (P) عدّة مرّات الحصول على تسديدة صائبة، لكن الغزلان كانت حذرة جداً وكانت تفرّ قبل أن نصبح على مسافة ثلاثمئة ياردة منها، مع ذلك أطلقنا على عدد كبيرٍ من طيور القطاة ذات الذيل الدبّوسي التي كانت تحلّق في الجو بأسرابٍ كبيرة كأنها سحابة هائلة تغطي السهول. إن أيَّ شخص لم يكن شاهِد عيانٍ قبل ذلك لا يستطيع أن يتخيّل أية فكرة كافية عن أعداد هذه الطيور في سهول الرافدين. إنها تتواجد هناك بملايين ملايين الأعداد، ولطالما رأيتُها تحلّق على ارتفاع من مئة إلى خمسمئة قدم فوق رؤوسنا بأعدادٍ هائلة. هكذا وكأنها تريد أن تبدو كغيمة ضخمة يدفعها الإعصار، وفي الحقيقة كانت تحجب الشمس عندما تحلّق فوقنا. نستطيع سماع قدومها من مسافة ميلٍ أو أكثر وذلك بسبب الضجة الغريبة التي تحدثها السرعة التي تندفع بها عبر الهواء وبسبب التصفيق السريع بأجنحتها، مما يسبب ضجيجاً يشبه كثيراً صوت الرياح القوية التي تعصف في الغابة.

تسافر هذه الطيور دائماً على شكل أسراب مع بعضها، فترتفع وتحط على الأرض

سـوياً، وعموماً تواصل الطيران أثناء الفترة الأكثر حراً من النهار محلّقةً فوق السـهول القاحلة شـبه اللامتناهية. لا يمكن رؤية هذه الطيور تتحرّك قبل شروق الشمس أو بعد مغيبهـا إلاّ إذا تمـت مضـايقتهـا، ولكنها تتجمع قريبـة جداً من بعضها فـي قطعة أرض رملية أو حصوية ما، عندما تكون سـاكنة هكذا من الصعب جداً الاقتراب منها إذا كانت الشـمس لا تزال مرئية، ولكن قبل الشـروق وبعد الغروب يـستطيع المرء بـسـهولة مع القليل من الاحتراز الاقتراب إلى مسافة مئة ياردة منها قبل أن تطير.

* * *

لم يكن الصباح مشـرقاً جداً في يوم رحيلنا عن زاخو Zachu؛ فقد اختفت الشـمس خلف بعض الغيوم الكثيفة وسـرعان ما بدأت السـماء تمطر بغزارة حتى إنَّ كل فرد من أفـراد القافلة كان مبللاً حتى العظام. قبل أن نصل إلى القرية التالية هبت رياحٌ شـماليةٌ باردة فجعلتنا جميعاً نرتجف من البرد بثيابنا المبللة. قبل ساعة من الظهر تقريباً وصلنا إلـى قريةٍ صغيرةٍ تدعى Râbâhi ولحسـن الحظ تحوي خاناً كبيراً بشـكل كافٍ ليمنح المأوى لقافلة بأسـرها حيث قررنا أن ننتظر تغييراً في الطقس. بعد سـاعةٍ أو اثنتين من وصولنـا إلى القرية توقـف المطر وانجلت السـماء وعادت الشـمس لتظهر من جديد وتمكننا من تجفيف ثيابنا.

بعد ذلك أصبحت الطريق أيضاً أو بالأحرى المسار طينياً زلقاً وصعب العبور بسبب المطر، فقررنا في النهاية ألاّ نتقدَّم إلى أيِّ مكانٍ في ذلك اليوم.

أطـلَّ صباح اليـوم التالي حاملاً معـه كل علامات اليوم الماطر، ومـع ذلك واصلنا رحلتنا وذلك بسـبب قلّة الطعام للبشـر والدواب كليهما، كانت طريقنا تمرّ فوق أرض متموّجةٍ جداً وبدت جلياً أنها خصبة لكنها شـبه غير مأهولة. كنا قد تقدّمنا بضعة أميالٍ فقـط عندما بدأ الرذاذ بالهطـول وظلّ هكذا حتى قرابة الظهر. بينما كنا نعدو ببطءٍ فوق أحد التلال المنخفضـة التي تمرّ طريقنا عبرها، دهشـنا بالظهور المفاجئ لحوالي دستة مـن الغـزلان تنطلق في مسـارنا على مسـافة مئتي يـاردة أمامنا فقـط، تطاردها بضراوة ثمانية كلاب صيد سـلوقية شرسـة المظهر، بعد دقيقةٍ واحدة ظهر أربعة خيالة من أبناء

البلـد، كثـيّ اللحى، عراة الأقدام وتكسـوهم ثيابٌ رثّـة، يندفعون كهزيـم الرّعد أمامنا على مسـار الغزلان والكلاب بمحاذاة حافة التلة المنخفضة، ولكنَّ الغزلان والكلاب والخيّالة كانوا يندفعون بسرعةٍ هائلةٍ وسرعان ما اختفوا عن أنظارنا في السهل السفلي ولـم يتسـنَّ لنا أبداً أن نعرف نتيجة المطاردة.

بعد أن التقينا بصائدي الغزلان مباشرة وصلنا إلى قلعة أو حصنٍ تركي قديم مهجورٍ مبنـيٍّ فـوق صخرةٍ بـارزةٍ قليلاً في نهـر دجلة ويحيط بـه حديقة أو بسـتان، وفيه كانت شـجيرات الورود والياسـمين والدّفلى والرّمـان والبرتقال في تفتحهـا الكامل، ولكن تكسـوها بغزارة النباتات المعترشة وغيرها من النباتات المتطفلة التي تشكّل مع جدران البناء المتداعية المكسـوة بكثافـة بنبات اللبلاب دليلاً قوياً علـى أنَّ القلعة غير مأهولة منذ زمنٍ طويلٍ.

فـي هـذا الموقع كانت طريقنـا تقودنا بالقرب مـن حافة النهر إلـى أن وصلنا مقابل الجزيرة؛ محطتنا التالية. يا لمفاجأتنا السارة عندما عبرت القافلة كاملةً الجسر الخشبي المتداعـي بأمـان تام. عندما رأى السّـنيور (P) أنه من المستحسـن عدم دخول المدينة مع القافلة - بسـبب سمعة السـكان الرديئة - اختار بقعةً مناسبة لمخيّمنا على الجانب الجنوبـي من جدران المدينة، حيـث وصلنا تماماً عند الظهيرة. مـع حلول هذا الوقت كان الـرذاذ الـذي هطل طـوال فترة الصباح قد توقف وأشـرقت الشـمس فوق مخيمنا بإرادة قوية من تلك السـماء الغائمة، فأصبح الجو الذي كان قبل بضع سـاعات قارسـاً أصبح خانقاً جداً.

عندما كنا لا نزال على الضفة المقابلة للنهر، أدرك وجودنا الرجال المسلمون الذين يقفون حراسـاً على البوابات المختلفة للمدينة، لهذا السـبب كان خبر وصولنا معروفاً مـن قبل العمـوم قبل حتى أن ننصـب خيامنا، وسـرعان ما كان مخيمنا محاطاً بحشـدٍ من المتفرّجين الفضوليين من الرجال، بينما كانت النسـاء الأكثر خجلاً يختلسن النظر نحونـا من فـوق قمم جـدران المدينة القريبة منا وكذلك من فوق الأسـطح المسـتوية لمنازلهن.

بعد أن تركنا أوامر لرجالنا بالمحافظة على المراقبة الشديدة وعدم السماح لأي أحدٍ كان بالاقتراب من مخيّمنا، ذهبت أنا والسّنيور (P) بصحبة سائسنا الصارم عبد الله والطباخ يوسف إلى المدينة لشراء المؤن، ذهبنا بطريقٍ مباشرةٍ نحو البازار الذي وجدناه مكتظاً بالناس؛ رجالٌ مهندمون يرتدون الزي التركماني مع مجموعة كاملة من الخناجر والمسدسات في أحزمتهم ووشاحاتهم، وسيوف حدباء ثقيلة متدلية من خواصرهم لتعطي حامليها مظهر قاطعي طريق وقتلة مستأجرين أكثر من مظهر أناس مسالمين، وبدو حفاة الأقدام يرتدون ثياباً صوفية بنيةً خشنة، وهم ذوو شعر أشعث وملامح جامحة، تلازمهم رماحهم الطويلة ذات الأسنّة الحادة، ونساء حاسرات الرأس وحافيات الأقدام لا يرتدين غير ثوب صوفي طويل وعريض لونه أحمر داكن أو أزرق داكن، وزنوجٌ نصف عراة، وصعاليك وشحاذون، وجمال وخيول وحمير، وعددٌ لا يحصى من الكلاب نصف ميتة من الجوع، جميعهم يتجمهرون بفوضى مطلقة ضمن ممرات البازار الضيقة الملتوية والمرصوفة بشكل رديء جداً.

بمقدار ما كان البازر مكتظاً بكثرة، كانت بقية الطرقات في المدينة خالية ومهجورة، حيث كان بعض الفتيات يحملن جراراً فخارية كبيرة على أكتافهنّ، واثنان من الأولاد الصغار العراة يلعبون في الممرات الرملية، وسربٌ من الدجاج الهزيل أو كلب كسيح أو حمار هرم، كانت تلك هي كل العلامات التي تدلّ على وجود حياة وسكنى هناك. وجدنا البيوت والشوارع هناك شبيهة جداً بالبيوت والشوارع في جميع أنحاء بلاد الرافدين. تعتبر (جزيرة ابن عمر) مدينة محصّنة وتضم في الوقت الحالي من عشرة إلى اثني عشر ألف نسمة، مع أنه يظهر أن تعداد سكانها في الأيام الماضية كان أكثر بكثير، ويمكنك معرفة ذلك من حقيقة وجود أعداد كبيرة من البيوت غير المأهولة، وأجزاء من تلك البيوت أصبحت حطاماً.

كانت التحصينات أيضاً ذات مظهر بائسٍ جداً، وتوجد أعداد لا تحصى من أعشاش اللقلق المكونة بكثافة، تشغل قمم العديد من أبراج المراقبة والمنارات في المكان. ومن المؤكد والبيّن جداً أن عاصفة البارود وضجة الحرب لم تُسمع هنا منذ عدة سنوات.

عند عودتنا إلى المخيّم وجدنا كلَّ شيءٍ في أحسن ترتيب، وكان رجالنا في مزاج ممتاز، ذلك أنهم نجحوا في تجفيف كل الملابس المبتلّة بمطر الصباح. مع اقتراب المساء خرجتُ للتمشّي على طول ضفاف النهر من أجل الاستمتاع بحمام منعش، وبينما كنت أمشي حول إحدى الهضاب الرملية التي تحدّ النهر جنوب المدينة قابلتُ بشكلٍ غير متوقع حوالي عشرين أنثى من جميع الأعمار، بعضهن يقفن في غفلةٍ مطلقة على حافة النهر بينما أخريات يبللن أنفسهن بمياه نهر دجلة الجميل. ليست كل النساء اللواتي يعشن على ضفاف دجلة رفيقاتٍ من هذه الناحية كحسناوات الجزيرة. إنه من المعتاد بين نساء وفتيات البدو الذين يخيمون خلال فصل الجفاف على طول ضفاف النهر بين الموصل وبغداد أن يراقبن الأطواف (الكَلَك) التي تعوم في النهر نزولاً، وحالما يلمحن أحد تلك الأطواف تندفع أعدادٌ منهنّ نحو حافة النهر مع إناءٍ خشبي يحوي «اللبن» - الرّوب أو الحليب الحامض - أو الحليب الطازج "dood" أو سلّةَ بيضٍ في إحدى اليدين وقربة Toolooch متفخة أو حقيبة من جلد الماعز في اليد الأخرى، وينتظرن حتى يأتي الطوف إلى مقابلهن تقريباً، عندها يندفعن جميعاً بتهوّر إلى النهر، وكلٌّ واحدة منهنّ تمسك حقيبتها المتفخة بقوة تحت ذراعها اليسرى كالطافية، والحليب أو البيض في يدها اليسرى، في حين تستخدم اليمنى في التجديف - كما أنها تستخدم أقدامها أيضاً - وتذهب مباشرةً إلى وسط التيار. بعد أن يحطن بالطوف من كل الجهات يقدّمن الحليب أو البيض إلى راكبي الطوف ليبعنها مقابل بضع قطع نقدية نحاسية أو مقابل ثمنٍ زهيدٍ جداً، أو أنهنّ سيصعدن إلى متن الطوف إذا تم السماح لهنّ بفعل ذلك.

وبالمناسبة: يعتبر السّماح لهن سياسة سيئة... فإلى جانب كونهنّ وقحات، يعانين جميعاً تقريباً من الهوس بالنشل، وغالباً ما يجد المسافرون المستهترون أنفسهم قد سُلبوا جميع أنواع الأغراض بعد أن تغادر حوريات الماء تلك الأطواف.

في ربيع عام 1865 وبينما كنت أسافر بصحبة السيد (J) - شاب من أبناء وطني - على أحد تلك الأطواف من ديار بكر إلى بغداد، لطالما كان مركبنا يحاط بهذه

النساء البرمائيات اللواتي كنا نشتري منهنّ مؤونتنا الكاملة من اللبن الحامض والبيض والدجاج... الخ، ولكننا كنا نحترز جيداً بعدم السماح لهنّ بالصعود إلى سطح الطوف نهائياً، مع ذلك استطعن أن يسرقن منّا دجاجتين حيّتين كانتا تتجولان بهدوء على متن الطوف، وعدداً من الأشياء الأخرى التي استطعن الوصول إليها.

أثناء ليلة تخييمنا في الجزيرة، هبّت عاصفة رعدية ومطرية مروّعة قرابة منتصف الليل، مهددة بتدمير مسكننا الجديد. دويّ رعدٍ تلو الآخر كان يقصف فوق مخيمنا، ويتكرّر صداه بقوة مخيفة على طول ضفاف النهر، وكانت الأمطار تهطل سيولاً، وبين كل بضع ثوانٍ كانت السماء المظلمة تضاء لحظةً بواسطة وميض البرق الذي يخطف الأبصار ويندفع كالسّهم من قلب الغيوم السوداء المكهربة نحو الأرض متبوعاً دائماً وعلى الفور بالانفجارات الرّعدية المسبّبة للصمم.

لم أستطع أن أكفّ عن الشعور بالشفقة حيال رجالنا المساكين الذين كانوا يلتفون من رأسهم حتى أقدامهم بعباءاتهم - أثواب صوفية رقيقة - ويرتجفون من البرد والخوف، وكانوا عرضة لهذه العوامل الجوية خارج الخيمة، ذلك أنَّ الجزء الأكبر من أمتعتنا كان يجب حمايته تحت الخيمة فاحتلّت الأمتعة كل الفراغ الموجود تحت تلك الملاءات المتضعضعة. كانت الخيول كذلك كالرجال غير معتادةٍ على جوٍ عنيفٍ كهذا، ولكنها وقفت في العاصفة بشجاعة وبقيت هادئة كالحملان.

لحسن الحظ، سرعان ما خمدت العاصفة ونهض رجالنا واستطاعوا أن يوقدوا ناراً جيدة رائعة وأبقوها حتى انبلاج الفجر. خلقت الشمس المشرقة حياة جديدة وأحدثت نشاطاً وقوة عند الرجال والدواب، وفي الساعة السابعة صباحاً كنّا على سراجنا مجدداً متجهين نحو Amooz أو Emooz، وهي قرية صغيرة تقع في منتصف الطريق تقريباً بين الجزيرة ونصيبين، على مسافة خمسة وعشرين ميلاً غربي الجزيرة. كنت متلهفاً لاصطياد بعض الطرائد من أجل مخزن اللحوم الفارغ الخاص بنا، فسرت متقدماً على القافلة ولم أكد أمشي بضعة أميالٍ عندما رأيت أمامي على مسافةِ ميل تقريباً فارساً وحيداً يمشي على مسارنا نفسه.

في البداية أغاظني ذلك قليلاً، لأنه لم تكن لدي أية فرصة في المرور بأيّة طريدة طالما أن هذا الشخص يسير أمامي، لذا دفعت حصاني إلى خببٍ خفيف وعندما قصّرت المسافة بيني وبين الغريب لاحظت أنه مزوّد على نحو سيء؛ فالحيوان الذي كان يركبه حصان قزم صغير وهزيل بشكل مرعب يتمايل بألم فوق الأرض الوعرة.

في الحقيقة، عندما اقتربت أكثر جلب كلٌّ من الحصان والراكب ابتسامة على وجهي عندما فكّرت بصورة «دون كيخوتِه» Don Quixote الفارس الرحّالة على حصانه الأعجف Rocinante «روثينانتِه»، لدى وصولي إلى الغريب - الذي كان بالمناسبة رجلاً قصيراً وغليظ البنية يبلغ من العمر حوالي خمساً وأربعين سنة، وكان وجهه مثلث الشكل تكسوه لحية سوداء داكنة مهملة بكل معنى الكلمة، بينما جسده كان مكسوّاً بلباسٍ تركي أو بالأحرى نصف تركي ونصف أوروبي ومسلحاً بسيفٍ أحدب ثقيلٍ - شعرت بالطمأنينة لأنه كان «عصملّي» أي تركي، ولكن بما أنني لم أكن قادراً على مخاطبته بلغته الأم حيّيته بالعربية، لم تكن دهشتي صغيرة عندما أجابني بلغة إنجليزية جيدة. حين عبّرت عن مفاجأتي الشديدة بذلك قام بفك أزرار المعطف العسكري التركي القديم الرّث الذي يلبسه وكشف عن وسامين أحدهما تركي نحاسي والآخر كان الوسام البريطاني الفضي المشهور، وسام حرب القِرم Crimea.

تقدّم الفارس معي على مهل، وروى لي عدة حوادث في المعارك العديدة التي شارك بها في حرب القِرم، وأراني ندبتين قبيحتين جداً قال إنه أصيب بهما في معركة واحتلال برج مالاكاف Malakaff، وأشاد بفخر بمآثر الفرنسيين والبريطانيين في بالاكلاوا Balaklava وإنكرمان Inkerman في آلام Alam وغيرها وغيرها. يبدو أنَّ أسلوب الإنكليز الرزين والهادئ كان أكثر ملاءمة بالنسبة للمسلم المتزمّت من المزاج المتقلّب للفرنسيين، وقد اعترف بصراحة أنه كان دائماً يفضّل المجتمع الأول الذي أصبح مشغوفاً جداً به وتعلّم تحدّث الإنكليزية، وهو الإنجاز الذي كان فخوراً به بشكلٍ لا يوصف.

ولدى استفساراتي وأسئلتي أخبرني أنه كان تحت إمرة قائد الحامية العسكرية في

كركوك برتبة قوّاص Cavass، أي خادم مسلح، لمدةٍ قدرها عشرة أعوام، ولكنه سئم من هذا المنصب فتنحّى عنه وكان الآن عائداً إلى بيته في موطنه الأصلي «إسطنبول». وعندما سألتُه عن طريق الدّعابة ما إذا كان خجلاً بأوسمته ليضعها داخل معطفه، رمقني بنظرةٍ طويلة! ولكن لمعرفته أنني قلتها مازحاً ردَّ أنه فعل ذلك لتجنّب أطماع اللصوص وقاطعي الطرق.

إن جرأته في السفر وحيداً بحصانٍ ومعداتٍ سيئة في بلادٍ تشتهة بخروجها عن سلطة القانون، وكذلك صراحته ومزاجه الجيد والشفقة على البرذون المهزول الذي يمتطيه والذي قال إنه دفع ثمنه ليرتين تركيتين - أي تسعة دولارات عداً ونقداً - كل ذلك شجعني على أن أعرض عليه السفر تحت حماية قافلتنا التي أخبرته بأنها ستسير على مساره نفسه حتى نصل إلى القرب من إسطنبول.

وافق الغريب على قبول هذه الفرصة، وتخلّيتُ عن فكرة البحث عن الطرائد، واقترحتُ عليه أن نخفّف من سرعة خيولنا لنسمح للقافلة بإدراكنا حيث كنت أرغب أن أقدّمه إلى رفاق سفرنا. سُرّ السّنيور (P) بمعرفة صديقنا الجديد ونصّبه قوّاصاً Cavass (خادم مسلح) لقافلتنا، مما مكّن محمّد - اسمه - وكذلك حصانه من مشاركتهما لرجالنا ودوابنا في إعاشتهم التي كانت توزّع بسخاء. في غضون عدة أيام بدا على رجالنا ودوابنا أنهم مرتاحون أكثر بكثير من بداية معرفتي بهم، وأثبت محمّد أنه مفيدٌ جداً لقافلتنا ولذلك عند وصولنا إلى إسكندرون، ولم يكتفِ السّنيور (P) فقط في دفع تكاليف ذهابه إلى إسطنبول، لا بل قدّم له هدية قيّمة من النقود الذهبية التركية.

كلّما كنّا نقترب من محطتنا التالية Ernooz كان مسارنا يصبح أضيق وأكثر وعورة، لدرجة أنه قبل أن نصل إلى القرية كانت الأرض على مدّ العين مجرّد كتلة من الصخور الجاسئة الوعرة المتناثرة هنا وهناك في أرجاء المكان لتعطي منظراً كالمحيط المغطى بأمواج متحجرة، ولمسافة أميالٍ وأميال كان طريقنا المتعرّج لا يمكن اجتيازه إلاّ بشق الأنفس وسط بحر الصخور ذاك، وكان ضيقاً جداً حتى غدا من شبه المستحيل

لحيوان ذي أربع قوائم بحجم الخيل أو البقرة أن يضع حافره على تربةٍ حقيقية، وهو واقع يجعل هذا الجزء من الأرض هو الأكثر صعوبة وخطورة في السفر عبره لكلّ من الإنسان والحيوان. نعم إنه الطريق النظامي الذي يسافر فوقه كل الناس المتجهين من الموصل إلى ديار بكر - حتى حامل البريد التركي لا مناص أمامه من ذلك - فكان الأمر أشبه بمعجزة عندما نجحت قافلتنا بأسرها في النهاية في الوصول إلى القرية الصغيرة المذكورة سابقاً دون أية حوادث، ولكن حصان محمّد المسكين أبقاني في حالة من الإثارة عندما كان يترنّح أمامي كالرجل السكران مهدداً في كل خطوة بالسقوط وعدم النهوض مجدداً أبداً.

كانت Ernooz مؤلفة من حوالي دستة من الأكواخ البائسة المنخفضة ذات الأسطح المستوية، كانت جدرانها مبنية من الأحجار وقطع الصخور المصفوفة فوق بعضها البعض، وقد ملئت الفراغات بينها بالطين المخلوط مع نوع من الطحالب والأعشاب الجافة. بالطبع كان علينا أن نربط خيولنا في الهواء الطلق، ذلك أنه لم يكن هناك أي بناء في المكان يتسع حتى لنصف دستة من الخيول.

وكما شاء حظّنا، لم تكن هناك أية أرض مكشوفةٍ فارغة في القرية خالية من الأحجار وكبيرة بشكلٍ كافٍ لتستوعب القافلة، ولم أنجح في تبيّن الطريقة التي يستطيع بها سكان القرية العيش طوال أيام السنة، فباستثناء بعض البطيخ الصغير وقليل من الخيار وحوالي عشرين رطلاً من الشعير، لم تكن هناك أية مؤن على الإطلاق مرئية أو ملموسة داخل أو حول تلك الضيعة البائسة. لحسن الحظ كنا قد تزوّدنا من الجزيرة بمؤونة جيدة من الشعير لخيولنا بعد أن تمَّ تحذيرنا من كون هذه المادة نادرة جداً بين الجزيرة ونصيبين، دعتنا هذه الحالة إلى توزيع بعض الشعير بين الرجال الذين صنعوا منه خبزاً.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

حول نصيبين

العرب والضفادع ـ إلى الأمام ـ في نصيبين ـ اشتباك الكونت مع البدو ـ عامودِه ـ استقبال الشيخ لنا ـ لؤلؤة ـ جبل ماردين في البعيد.

تساءل رجالنا وكذلك أهل القرية الذين شاهدونا نرمي بأنفسنا في الوحل والماء عمّا كنّا نفعله هناك بحق السماء، ثمَّ ذهبوا بشكل لا إرادي إلى الجدول ليروا ما كنّا نفعله؛ وبالدهشتهم واشمئزازهم غير المصطنعين! لقد رأوا الفرنجة غريبي الأطوار يصطادون الضفادع! هناك وقفوا بأفواهٍ وأعينٍ مشدوهة جميعهم يحدّقون نحونا ولكن لم يتحمّس أحد لمساعدتنا إلى أن صرخ السّنيور (P) ودون أن يرفع ناظريه عن عمله «سأدفع قمرياً «Kameri» ـ ربع قرش تركي يساوي خمسة أثمان السنت الأميركي ـ مقابل كل ضفدع».

أحدث هذا العرض غير المتوقع أثراً كالسّحر على المتفرجين، وخلال لحظة واحدة فقط أصبح الجدول يعجّ بصيّادي الضفادع كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، وقد يكون معظمهم لم يسبق لهم في حياتهم أن لمسوا أي ضفدعٍ عمداً، ولم يحدث أيّ هجوم ضارٍ كهذا على الضفادع المسكينة من لحظة خلق هذا التّيار الرقيق. في أقلّ من خمس عشرة دقيقة كان هناك اثنان وثمانون ضفدعاً حياً وبارداً كالثلج محبوسة تناضل وتتلوّى في أسفل كيسٍ مثقّب كبير الحجم، ثم حُملت بعد ذلك على ظهر أحد رجالنا إلى المركز الرئيسي.

وهناك بدأ السِّنيور (P) ـ الذي كان بالمناسبة كمعظم رجال بلده ذوّاقاً ماهراً ـ بتنفيذ مذبحةٍ بشعةٍ بها، وذلك بقطع رؤوسها ونزع أحشائها وسلخها واحداً تلو الآخر، ثم أنهى عمله برميها داخل المقلاة التي حولتها على الفور إلى طبقٍ شهيٍّ أطيب بكثير من أي طبقٍ آخر تذوقناه في رحلتنا عبر بلاد الرافدين، وحتى العرب النيّقين جازفوا في تذوقها، ومع ابتسامةٍ عريضةٍ ارتسمت على وجوههم أبدوا رأيهم وقالوا: «كتير طيّب» أي لذيذ جداً. وعلى الرّغم من وجود الكثير من الضفادع في الجدول فإننا كنا سنواجه صعوبة في إقناع خيولنا بأكلها إذا استنفدت مؤونتنا من الشعير.

لذلك قوّضنا خيامنا في الصباح التالي حالما كان هناك ضوءٌ كافٍ ليمكننا من متابعة مسيرنا فوق تلك الأرض الصخرية المرعبة والمتعبة التي كان علينا أن نمشي فوقها ببطءٍ شديدٍ، حتى أننا لم نصل إلى نصيبين ـ فقط اثنان وعشرون ميلاً جنوب غرب (Ernooz) ـ قبل الساعة الثانية بعد الظهر، والشيء المثير للدهشة وصلنا دون أية حوادث تعرض لها الرجال أو الدواب.

ولكي أمنح قرّائي فكرة وافية عن الأرض التي كنّا نسير فوقها، أودّ فقط أن أذكر أن كل واحدٍ من خيولنا وصل إلى نصيبين ينقصه حدوة أو اثنين أو ثلاث وأحياناً عند بعضهم أربع حدوات، وقد أجبرنا هذا الوضع على البقاء في نصيبين مدّة أطول مما كنا ننوي بيومٍ واحدٍ ليستطيع بذلك الحاج محمّد، البيطار الصغير الذي أحضره معنا السِّنيور (P) من الموصل أن يضع حدوات جديدة بدل التي فقدناها. لحسن الحظ، كان الخان الذي نزلنا به مريحاً نسبياً، والمدينة الصغيرة ممتعة والطقس جميل، لذا أمضينا وقتنا على نحوٍ مستحسنٍ جداً.

إنَّ نصيبين مدينة صغيرة تضمّ حوالي ألف نسمة أغلبهم من المسلمين والمسيحيين واليهود – وبالكاد يصل عدد المسيحيين إلى مئتي نسمة. والشخص المسؤول الرئيسي في المدينة هو القائم مقام وهو موظفٌ يتمتع – كما ذكرت سابقاً – بمناصب مختلفة في أنحاء الإمبراطورية التركية كالمحافظ والقاضي وقائد الشرطة وأحياناً أيضاً يكون مدير مكتب البريد في المكان. كانت الأبنية في هذه المدينة تحمل سمات الأبنية في

باقي أنحاء بلاد الرافدين، وهي دون استثناء مساكن بائسة. وكأية مدينة أخرى في آسيا الغربية كان لنصيبين بازارها الذي كان مقارنةً مع بازار بغداد والموصل بائس المظهر، إلاّ أنّه مليءٌ بالبضائع والسلع. يقوم أهالي نصيبين بتجارة جيدة مع عدة قبائل بدوية متنقلة تقطن السهول المقفرة والمهجورة في القسم الأعلى من الجزيرة، أو بالأحرى المنطقة المجدبة جنوبي وجنوب غرب نصيبين، ويتبادلون معهم البضائع والسلع الآسيوية والأوروبية الصنع والإنتاج مقابل صوف الأغنام وشعر الماعز والجلود والخيول والماشية... الخ.

تقع نصيبين عند ملتقى فرعين لنهرٍ كبير يدعوه السكان هرماس Hirmas أو جَغجَغة[1] Jachjacha الذي يلتقي على مسافة أربعين ميلاً جنوبي نصيبين من ضفته اليسرى بنهر الحساوي Hassawee أو Hesawi متعدّد الشعاب، وكذلك بنهرين صغيرين آخرين ينبعان من بحيرتين صغيرتين، أو بالأحرى مستنقعين عند سفح المنحدر الشمالي الغربي لجبل سنجار.

تقع هذه السلسلة الجبلية تماماً في وسط الجزيرة، تلك المنطقة الواسعة الخاوية التي تحول بين نهري دجلة والفرات. أما من المنحدر الجنوبي الشرقي لجبل سنجار فينحدر أيضاً نهران آخران باتجاه حوض الفرات ويجتمعان في النهاية مع بعضهما بالإضافة إلى جَغجَغة Jachjacha والحساوي Hesawi تحت اسم الخابور في نقطة قرب قرية بو سرايا. يطلق بعض الجغرافيين على نهرٍ آخر ينبع من جبل قراجا داغ Karadsha Dagh - وهو سلسلة جبلية واقعة بين مدينتي ماردين وسويريك - اسم جَغجَغة Jachjacha ويفترض أنه أيضاً أحد روافد نهر الخابور[2]. وعلى الرغم من أنَّ عدداً قليلاً من الخرائط فقط يشير إلى هذا النهر، فإنه ليس هناك أدنى شك بوجوده وبأنه أكبر بكثير من جَغجَغة ومن الحساوي، وإنّي ميّالٌ إلى الاعتقاد بأنَّ هذا النهر ليس

(1) تسميّة مشتقة من التركية çağ-çağ وتعني: مصرف الماء. ومن التعابير التركيّة التي تحاكي صوت انسياب جدول الماء وتلاطمه بين الصّخور: çağıl çağıl وهذا أسلوب شائع في التركيّة بمحاكاة الأصوات بتعابير صوتية شبيهة.

(2) هذا صحيح، فهو رافد للخابور، وعليه تقع مدينة القامشلي.

إلاّ المنبع الحقيقي لنهر الخابور نفسه.

إن المنطقة الداخلية في الجزيرة، وكذلك المنطقة الشاسعة جنوب الفرات، لا زالت حتى الآن غير معروفة تماماً بالنسبة للجغرافيين والرحّالين، ولم يسبق لها أن استكشفت بشكلٍ مناسبٍ من قبل أيٍّ منهم وطبعاً، ذلك يعزى إلى حالتها الموحشة إلى أبعد الحدود والتصرّفات شديدة العدوانية لقبائل البدو الهمجية التي تسكن تلك المنطقة. إنَّ عدائيتهم شديدة جداً نحو كل الدخلاء وخاصة هؤلاء غير المسلمين.

والآن لنعد إلى نصيبين، فعلى الجانب الشرقي للمدينة الصغيرة حيث يمكن للتربة أن تُغمر بالماء عندما يشاؤون بواسطة سدود ذات بوابات، توجد حدائق غنّاء مظلّلة بأشجار الشارع وأشجار الفاكهة الجميلة، وهي النباتات الوحيدة المرئية حول نصيبين حتى أبعد نقطة يمكن للنظر أن يصل إليها. وعند الحدّ الجنوبي للمدينة يوجد جسرٌ حجريٌّ يعبر أحد فروع النهر، وعند هذه البقعة متّعت نفسي لعدة ساعاتٍ بصيد الأسماك فنجحت في سحب عدة أسماكٍ جيدة ـ نوع من السلمون المرقّط ـ خارج المياه الصافية للتيار العميق والسريع.

على الرّغم من أنها الآن مدينة صغيرة جداً ذات بيوت بالكاد يصل عددها إلى المتين، يحيط بها سورٌ حجريٌّ قديمٌ ومتداعٍ بالكاد يصل ارتفاعه إلى عشرين قدماً وتخترقه أربع بوابات، إلاّ أنّه يبدو جلياً أنّ نصيبين كانت في أحد الأيام مكاناً أكبر من ذلك بكثير؛ إذ إنَّ ضواحيها تقدّم دليلاً قوياً على كونها سابقاً مغطاة بكثافة بالأبنية - مع أنها في الوقت الحاضر خالية وموحشة بكل معنى الكلمة - ويبدو أن هذا الوضع يعلل فرضيات بعض الكتّاب بأنَّ نصيبين تحتل النقطة نفسها التي كانت فوقها نيسيبيس Nisibis العاصمة الشهيرة لمقدونية، وأيضاً معروفة باسم أنطيوخيا مقدونية Antiochea Mygdonia، هكذا غالباً يشير إليها المؤرخون في تقاريرهم عن الحروب بين الرّوم والفرس.

* * *

في مساء اليوم الثاني من إقامتنا هناك، وبينما كنا أنا والسّنيور (P) جالسين ندخّن ونتحدث في أحد مقاهي البازار الصغير، أخبرَنا بعض رجالنا الذين كانوا يتسكعون بين الشوارع أن تاجراً عربياً وصل إلى المدينة للتوّ من منطقة الجزيرة الداخلية، يحمل معه أخباراً بأنَّ قافلة يقودها إفرنجي وترافقه سيدتان فرنجيتان هوجمت قبل ثلاثة أيام من وصوله من قبل جماعة من الفرسان البدو في منطقة تبعد سفر يومين غربي جبل سنجار، ولكن بعد قتال عنيف استطاعوا أن يفلتوا منهم بعد أن قتل ثلاثة رجال منهم - أحدهم هو الفرنجي نفسه - وجرح العديد وسُرقت جميع سروج الخيول.

لم يكن هناك شكٌّ حول هوية القافلة، لقد كانت جماعة الكونت (de B.) التي تركتنا في الموصل بجفاء. لم نكن متفاجئين كثيراً لكننا شعرنا بأسىً صادق على النهاية المأساوية للكونت (de B.) والحالة غير الآمنة التي آلت إليها السيدتان. ورغبةً منا في معرفة المزيد من التفاصيل، أرسلنا على جناح السرعة أحد رجالنا مع رسالةٍ وديّة إلى التاجر العربي نطلب منه مقابلتنا في المقهى، وسرعان ما ظهر دون تأخير.

كان رجلاً طويلاً رياضي البنية، ذا ملامح حادّة وبشرة جوزيّة داكنة، يرتدي الزي البدوي الكامل، لازال مغطىً بغبار رحلته. وبعد التبادل المعتاد للسلامات والمجاملات، وتقديم فنجان القهوة المألوف والنرجيلة - غليون تبغ مع وعاء مائي - أجاب على أسئلتنا بهدوء وصدق واضح، ولكن بالتحفظ الخاص بالعرب. لقد شعرنا براحة بال كبيرة عندما سأله السّنيور (P) ما إذا كان هو نفسه قد رأى قافلة الفرنجي قبل أو بعد الاعتداء، فأجابه بالنفي قائلاً إنه تلقّى معلوماته من بدويٍّ كان يرغب في بيعه حصاناً. إنَّ الوصف الذي أعطاه للحيوان يطابق تماماً أحد أحصنة قافلة الكونت، ولكنه قد يكون مسروقاً بالطريقة نفسها التي سرق بها حصاني فيليكس على السهول الواقعة جنوب كفري Kiffri، علاوةً على ذلك، إنه ليس من المعقول أن تسمح القوة الكبيرة للفرسان البدو المسلحين جداً وبعد قتل قائد القافلة لبقية القافلة بالفرار مع جمالهم الجيدة وأشيائهم القيّمة.

لذلك عندما رأينا أن مخبرنا يروي ما سمعه فقط، رفضنا تصديق بعض الأخبار،

وبالطبع دون أن ندع العربي يشعر بهذا، ذلك أنه كان يزعم أنه فقط يعيد رواية ما كان قد سمعه فعلاً. بعد ذلك انصرف مباشرةً وتحدّثنا بالمسألة فيما بيننا. كنا على علم بحبِّ السكان للمبالغة، إلاّ أنه لم يراودنا شكٌّ بأن حادثاً ما كان مصدراً للأقاويل، لكننا لم نشك في قضية موت الكونت وكنا نأمل أن نعرف الحقيقة عندما نصل إلى حلب.

* * *

في الصباح التالي تابعنا رحلتنا بعد أن زوّدنا قوّتنا بأربعة من الظابطية الذين نصحنا قائم مقام نصيبين بأن نبقيهم معنا حتى عامودِه Hamudieh أو Amudieh، وهي قرية كبيرة تقع على بعد ستة عشر ميلاً تقريباً شمال غرب نصيبين، حيث لم تكن الطريق آمنة على الإطلاق في التنقل وخاصة بفوةٍ صغيرة، وذلك يعزى إلى وجود قبيلة بدو من التلابين تخيّم في الصحراء شمال عامودِه Hamudieh، ولا شك أن القبيلة لم تكن على علمٍ بوصولنا فحسب؛ إنما بعدد وقيمة خيولنا ورجالنا وأسلحتهم ومؤونتهم الحربية، وفرصتهم هم أنفسهم في النجاح في حال هجموا علينا؛ حيث يكون لديهم جواسيس موثوقون في كلٍ من نصيبين وعامودِه Hamudieh. نتيجةً لهذه المعلومات كنا نسير كالجسد الواحد، وأبقينا مراقبة حذرة عندما كنا نسير فوق الأرض الجافة المستوية التي لم تعد حجرية بعد الآن، والتي تحدّها من الشمال الصّحراء الصخرية في إقليم طور عَبدين Tur Abdin الممتد بين منطقة جبل ماردين والضفة اليمنى لنهر دجلة، بينما في الجنوب والغرب يشكل جزءاً من سهول الجزيرة المستوية واللامتناهية.

خلال تقدّمنا الصباحي شاهدنا في البعيد بشكلٍ متكررٍ خيّالة مريبي المظهر، يحملون رماحاً طويلة ومقسمين إلى جماعات يصل عددها من ثلاث إلى ست، بدا جلياً أنهم يسافرون فوق هذه الأرض. وعلى الرّغم من وجود أعدادٍ كبيرة من الغزلان الرائعة والخنازير البرية وسحابات من الحمام البري يمكن رؤيتها فوق السهل، فإنني فكرت بأنه من الحكمة في هذا الوقت أن أوفر ذخيرتي وأبقى مع قافلتي.

لـم نصـل إلى عامـودِه[1] حتى الظهر، على الرّغـم من أننا رأينا هـذه القرية الرمادية الكبيرة تظهر من بعيد فوق السـهل المنبسـط والمقفر، كما كان واضحاً عندما كنّا على مسـافة اثني عشـر ميلاً عنهـا، وبقيت كذلك أمامنا إلـى أن وصلنا إليها أخيـراً. من بين الأبنيـة كبيرة الحجم في القرى العربية يكون دائماً مسـكن الشـيخ هـو الأكثر وضوحاً والذي على الرغم من كونه مبنياً كسائر بيوت القرية - فقط من اللبن المجفف بالشمس - كان في هذه الحالة مليّسـاً فوقه طبقة من الطين أصبحت أكثر لزوجة عندما امتزجت مع القش المقطّع وروث الجمال أو البقر.

عندما كان هذا المكان الكبير الوحيد في عامودِه الذي يتسع لقافلتنا بأسـرها داخل فنائه الفسـيح والمكان الآمن من خطر اللصوص والمتطفلين، جعلنا من أنفسـنا - كما هـي العادة في بلاد الرافدين - ضيوف الشـيخ، وهو رجـلٌ عربيٌّ طويلٌ وقوي يبلغ من العمر حوالي أربعين سـنة ويرتدي زياً عربياً أنيقاً وكان واضحاً أنه يلبسـه خصيصاً من أجل هذه المناسبة، ذلك أنه كان يملك متسعاً من الوقت ليبدّل ثيابه فقد كان باستطاعته رؤية القافلة تسـير إلى الأمام من مسـافة عدّة أميال. كان يرتدي ثوباً صوفياً كبيراً فاخراً لونه أرجواني وفوقه يلبس عباءةً صوفية بلون زرقة السـماء، يغطي ساقيه سروالٌ قطني مخطـط أبيض وأحمـر مزمومٌ عند الكاحل على الطريقة الإسـلامية، بينما كانت قدماه مغطاتين بحذاءٍ جلدي قرمزي اللون دون كعبين وله مقدمات معقوفة.

وفي الوشاح الموسلين الأبيض الذي يضعه حول خاصرته وضع الخنجر المعقوف ذا القبضـة المطلية بالفضة الـذي يضعه جميع العـرب تقريباً، وعلى رأسـه المحلوق بالكامـل وضع طربوشـاً ضخماً أبيـض كالثلج وهو العلامة المميـزة والامتياز الوحيد الخاص (بالحجيّ) - الحاج إلى مكة - وكان محاطاً بأصدقائه الذكور - الذين يلبسـون بطريقة أقل استعراضاً بكثير من زعيمهم - أمام منزله مستغرقاً في تأمل مزايا مجموعة خيولنـا بعمق، يمـرّر طوال الوقت أصـابعه بحركة ميكانيكية فوق سُـبحته - وهي حبل مؤلف من حبّات كبيرة من الكهرمان أو الزجاج أو أية مادة أخرى، وتشـبه السبحة التي

---

(1) تدعى هذه البلدة اليوم في شمال شرق سوريا: عامودا، لكن أهلها الأكراد يلفظونها: عامودِه.

يستخدمها الروم الكاثوليك في عبادتهم - التي يملك مثلها كافة المسلمين تقريباً، وتستخدم فقط كاللعبة أو للتسلية.

استقبلنا الشيخ بالطريقة الهادئة الموقّرة الخاصة بالعرب وبالاحتفاء الذي يضرب به الأمثال الخاص بأبناء أمّته، ووضع منزله بالكامل تحت تصرفنا، بعد أن أرسل أولاً أسرته للسكن مع أحد أصدقائه أو أقاربه في القرية إلى أن نرحل عنها.

كانت الغرفة التي قُدّمت لنا هي غرفة الشيخ الرسمية، وهي عبارة عن قاعة مربعة الشكل تقدّر أبعادها بحوالي عشرين قدماً في اثني عشر، مواجهة للشارع. يوجد في جدران الغرفة أربعة منافذ صغيرة، من خلالها ومن خلال الباب المفتوح باستمرار يُسمح لضوء النهار بدخول الغرفة. كانت جوانب هذه الغرفة الرسمية مجرد أربعة جدران مستوية من الطين مجرّدة تماماً من الزخارف والأعمال الخشبية أو أية زخارف أخرى، وتغطي الأرض حصائر من القش خشنة ولكن نظيفة، وفي إحدى زوايا الغرفة تكدّست الفراش والوسائد الخاصة بعائلة الشيخ وقد تُركت هناك من أجلنا، إلاّ أننا كنا دائماً نرفض استخدام أي فراش غير فراشنا في رحلةٍ كهذه، ذلك أنَّ التجربة علمتنا أنَّ فرش الشرق دون استثناء تكون دائماً ملاذاً لجميع أنواع الحشرات الطفيلية، لذا تركنا تلك الفرش في الزوايا دون أن نلمسها، وبالفعل شعرنا بامتنانٍ شديدٍ عندما أمر مضيفنا بأخذها إلى أفراد أسرته في مواقع منامتهم المؤقتة بعد أن رأى بأن لدينا فرشنا الخاصّة. أرسل لنا الشيخ حليباً وزبدةً وجبناً وبيضاً والكثير من الدجاج وست أو ثمان بطيخات، ولكن من أين أتى بهذه الفاكهة؟ ذلك ما لم نستطع أن نعرفه؛ إذ لم يكن بالإمكان رؤية علامة من علامات الزراعة على نطاق عشرة أميالٍ حول القرية.

انتهى النهار بأحد مشاهد الغروب الرائعة التي يمكن رؤيتها فقط في الصحراء، ألقت كرة النار الملتهبة ببريقها القرمزي فوق المشهد الصحراوي بأكمله، والذي كان بكل معنى الكلمة يعجّ بقوافل الجمال الصغيرة والفرسان الأقوياء وقطعان الماشية التي تندفع بأعداد كبيرة وخطوات مسرعة من كافة اتجاهات البوصلة، محاولة الوصول إلى ملجئها في القرية قبل حلول الظلام. جهّزنا فرشنا في وسط الباحة التي كانت مضاءة

بشكل مذهل بالسماء المزدانة بالنجوم، وهناك تمدّدنا أثناء الليل محاطين برجالنا وخيولنا على أمل أن نستمتع بنومٍ هانئٍ وعميق ولو لبضع ساعاتٍ فقط، ولكن إيَّاك أن تأمن القدر! فرُبَّ زلَّةٍ بين الشفة والفنجان.

على الرغم من أننا كنا منهكين تماماً بسبب حرارة الجو القاتلة، فإنَّ الرّقاد جافى عيوننا، فقد كانت هناك أشياء صغيرة معذّبة تسمى ذبابة الرمل - ذبابة بالغة الصغر وبالكاد مرئية مزعجة إلى أقصى الحدود وتوجد في المناطق الرملية في بلاد الرافدين وجزيرة العرب - أبقتنا منشغلين طوال الليل بحكّ أجسامنا وفركها. وقرابة منتصف الليل كنا نستمع إلى لحن سيرينادٍ ليلي مطوّل لبنات آوى الطوّافة وكلاب مطروبة. عند الساعة الثانية صباحاً تعب مطربو الكلاب من النباح وغرقوا في صمتٍ عميقٍ، ولكنهم لم يلبثوا أن انسحبوا من على المنصة عندما وصل فجأة على نحو موحش عبر هواء الليل الخانق صدى صرخة: «لولولولو لولولولو»، من الواضح أنها ناجمة عن أصوات مئة امرأة مصحوبة بتصفيق مصدره أزواج من الأيادي بنفس عدد الأصوات.

إزعاج منتصف الليل

إنها العادة عند النساء المسلمات في الشرق وعلى وجه الخصوص في بلاد الرافدين وشبه الجزيرة أن يجتمعن مباشرة بعد ولادة طفل في منزل والديه لتهنئة الأم السعيدة بهذا الحدث، ولكن إذا كان المولود الجديد تعيس الحظ بكونه أنثى، مع أنهم لا يغرقونها أو يعدمونها بطريقة أخرى، فإنّ مظاهر السرور لا تبدو عليهنّ عظيمة فرحاً بمجيئها، أمّا إذا ثبت أنّ المولود ذكر فإن فرح جميع المعنيين بهذا الحدث لا يعرف حدوداً، ويصبح المنزل بأسره رأساً على عقب يعجّ بصديقات الأم التي لا توصف فرحتها، وترى حمولات من الحلويات وغيرها من الأطايب التي تجلبها وتأكلها النساء الضيفات الكثيرات اللاتي حضرن ليهنئنّ ويبالغن كثيراً في مباركتهن وتمجيدهن للأم المميزة، وأخيراً يجمّعن أنفسهن في مجموعة واحدة في الفناء أو على سطح المنزل المستوي، يقرفصن على الأرض بشكل دائرة ثم يبدأن الصّرخة أو الأغنية المذكورة سابقاً، جميعهنّ في آنٍ معاً، يردّدنها نفسها لمدة ساعات، مرّة كل خمس دقائق، وينوّعن الحفلة الساهرة بتصفيق اليدين القوي دون التلازم الصوتي معه، وبالثرثرة أو الضحك. ما الذي يقصدن التعبير عنه بواسطة ترنيمتهم الرتيبة الحادة؟ ذلك ما لا أستطيع أن أقوله إلاّ إذا كانت تعبّر عن رأيهم بأنّ لؤلؤة جديدة أخرى ظهرت في هذا العالم ذلك أنّ الكلمة العربية «لولو» تعني لؤلؤة.

مع هذا فإنه من الصعب أن تفسّر هكذا لأنهم لا يطلقون هذا الاسم على «أسياد الخلق» بل على العكس تماماً، يطلقونه على الجنس الآخر كون «لولو» اسماً منتشراً جداً بين إناث العرب. استمرت الحفلة الغنائية النسوية حتى الساعة الثالثة صباحاً تقريباً، عندما أعقبها نهيق جميع الحمير في القرية. يقدّر عددهم بعدة مئات، تؤازره الصيحات المهلّلة لعددٍ مثله من الديكة، تلك المخلوقات التي اعتادت منذ زمنٍ سحيقٍ أن تؤذن بولادة اليوم الجديد، كانت تصر ذاك الصّباح بعندٍ على حقها في فعل ذلك، وبجهودها المشتركة مع ذباب الرمل وبنات آوى والكلاب والحمير والنساء، استطاعوا جميعاً بفعّالية مطلقة إبقاءنا مستيقظين طوال الليل.

بعد أن شعرنا بالانزعاج الشديد - من مهاجعنا الليلية في عامودِه، نهضنا قبل

شروق الشمس ووجدنا الشيخ واقفاً خارج الفناء محاطاً بعشرة فرسانٍ مسلّحين برماحٍ وخناجر، كان قد أمرهم بحراستنا ومرافقتنا حتى سفح جبل ماردين فقد كانت الطريقُ غير آمنة أبداً.

شكره السّنيور (P) على حُسن ضيافته ومشينا خارج عامودِه Hamudieh في أحسن حالٍ على الإطلاق، بغضّ النظر عن ليلتنا التي لم ننم فيها، متجهين إلى الشمال الغربي عبر سهلٍ مقفر نحو سلسلة جبالٍ وعرة ومرتفعة يطلق عليها العرب اسم «جبل ماردين» وتبعد حوالي ستين ميلاً عن عامودِه.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

على جبل ماردين

الأغنام المفقودة ـ جبل ماردين أخيراً ـ مشهد لسهول الجزيرة ـ تجربة شراء المؤن ـ مقابلة مـع القائم مقام ـ القلعـة ـ الجراد المحمّـص ـ المُقطِّر الأرمنـي ـ المؤذّنون ـ هبوط الجبل ـ طلقة في المؤخرة.

قبـل أن تتقدم مـسـافة عـدة أميال كان يرافقنا أربعة عشـر فارسـاً آخرين، مسـلحين كحرّاسـنا برمـاحٍ طويلة، فـي البداية نظرنا إليهم نظرة شـكٍ وريبة، ولكن أحد فرسـان الشيخ والذي كان أيضاً ابن أخيه قال إنه علينا ألاّ نقلق فهو يعرفهم جميعاً.

فـي هـذه الأثناء كان عـدد أفراد قافلتنـا يفوق خمسـين رجلاً، وكان خطـر تعرّضنا لهجـومٍ صغيراً جداً، ومع ذلك بقي حرّاسـنا محترزين جيـداً يراقبون من كل الجوانب باسـتمرار. كان الرجال الذين انضموا إلينا فـي الطريق ينتمون إلى قرية صغيرة تقع في منتصـف الطريق بيـن عامودِه Hamudieh وماردين، وقد أخبرونـا بأنهم عادوا للتوّهم مـن البحث عـن قطيع من الأغنام أخذته عصابة من البدو السـلاّبين قبـل يومين اثنين، وإنهم لم يعثروا على آثار الراعيين - وهما رجلان من قريتهم - وذلك سـبب يجعلهم يعتقدون أنهما قُتلا ودُفنا في مكانٍ ما. أما بالنسبة للأغنام، فقد تقفوا آثارها بطريقٍ غير مباشرة إلى مخيم بدوي صغير قرب ضفاف جَغجَغة Jachjacha، وكانوا الآن في طريق عودتهـم إلـى قريتهم ليجمعوا أكبر عدد ممكن من رجـال القرية وبعض الأصدقاء من

قوج حِصار[1] Kotchhissar ـ قرية تقع عند السفح الشمالي لجبل ماردين ـ عازمين على الإغارة على السارقين بهدف استعادة أملاكهم المسروقة وفي الوقت نفسه من أجل الأخذ بثأرهم، وبكلماتٍ أخرى؛ لاستعادة أغنامهم وسرقة أغنام السارقين.

بعد حوالي ساعتين من الزمن، تركَنا هؤلاء الرجال على نحوٍ مفاجئ وساروا ببطءٍ عبر الريف باتجاه قريتهم التي كانت مرئية على مسافة ثلاثة أميال من يسار الطريق، ولم يتسنَّ لي قط سماع نتيجة حملتهم هذه.

تابعنا المسير حتى حوالي الساعة العاشرة والنصف من صدر النهار، عندما وجدنا أنفسنا عند سفح جبل ماردين الشاهق الوعر، وهناك غادرنا حرّاسنا. في هذا المكان أصبحت الطريق - التي كانت مقبولة وجيدة جداً - منحدرة كثيراً وحجرية، وكانت تزداد صعوبة فوق صعوبة في المسير عندما كنا نتقدّم إلى الخانق الجبلي الضخم الرائع الذي كانت الطريق إلى ماردين تمرّ من خلاله حين كنا لا نزال على مسافة عدة أميالٍ. بعيداً فوق السهل استطعنا بكل وضوح أن نتقصص معالم ذلك الحصن الجبلي الملفت للأنظار تتألق في أشعة شمس الصباح الباكر، ولكن بعد أن دخلنا إلى الطريق الجبلي الضيق لم تكن دهشتنا صغيرة أبداً لرؤيتنا المآذن البيضاء كالثلج والمساجد وأبنية أخرى تلتصق - كما كان حالها - كأعشاش السنونو بالصخور العارية والشاهقة وشبه متعذرة البلوغ التي تشكل المنحدر الجنوبي الشرقي لجبل ماردين.

في الحقيقة لا يمكن أن أتخيل موقعاً شاعرياً محركاً للعواطف لمدينة أكثر من هذا الموقع. تناطح السحاب - كما كانت في المواقع - على ارتفاع مئتين واثنين وعشرين قدماً على الأقل فوق سهول الجزيرة الشاسعة، وأبنيتها كانت معلقة أكثر من كونها منتصبة على طرف الجبل الأجرد، عندما ترى من الأسفل تبدو مستحيلة حتماً بالنسبة للإنسان أن يصعد إليها بغض النظر عن الخيول والجمال وغيرها من الماشية المحمّلة، مع ذلك ترى عدة قوافل يومياً تتسلق وتهبط هذا الممر الجبلي مع حمولاتٍ ثقيلة، والغريب جداً في الموضوع أنه نادراً ما تحصل أيّة حوادث.

(1) التسمية تركيّة: Koç Hisar وتعني: حصن الكبش.

بعد الكدّ بألم في المسير إلى الأمام فوق أحجار الرصف غير المستوية على الإطلاق وهي أحجار الجلمود الضخم المستدير شديد النعومة والذي كان مدخل الطريق الجبلي مغطىً بها، عبرنا جدولاً صغيراً يجري ضمن هذا الخانق المهيب، ومشينا بجهالة في المسار الخاطئ بالالتواء نحو يمينا عوضاً عن الالتواء نحو يسارنا، وسرعان ما وجدنا أنفسنا نسير فوق أرضٍ صعبة جداً وخطرة، مع ذلك كان علينا أن نبقى مندفعين بسرعة إلى المنطقة التي يلتقي فيها المساران مع بعضهما؛ إذ لم يكن هناك حيّزٌ يكفي لاستدارة خيولنا إلى الاتجاه المعاكس في ذاك الممر الجبلي الضيق على نحوٍ مفرط - بالكاد يصل عرضه إلى ثلاثة أقدام - مع جرفٍ مفتوحٍ غائر من جهة وصخرة جرداء عمودية من الجهة الأخرى.

لم تكن هناك أية نسمة عليلة تحرك الهواء، وكانت الشمس تسطع بقوةٍ لا ترحم على ظهورنا عندما كنا نتسلّق ببطءٍ وحذر من حَيد إلى حَيد ونقود حيواناتنا من لجاماتها. راح الوقت يمضي ويمضي حتى بدأنا نفكر أننا لن نصل إلى ماردين أبداً؛ فكلما تقدّمنا أكثر أصبح التسلق أصعب وأصعب، وقد استغرقنا ثلاث ساعات كاملة منذ أن دخلنا الخانق الجبلي حتى وصلنا إلى محط رحالنا الأخير، وهو بقعة فارغة ضيقة من الأرض شبه المستوية تبعد حوالي أربعمئة ياردة عن يسار المدينة تماماً عند النقطة التي كانت فيها السلسلة الجبلية التي تطل على مؤخرة المدينة يشطرها صدعٌ أو فجوةٌ، حتى إننا من موقعنا استطعنا رؤية ليس المنحدر الشرقي فحسب؛ وإنما المنحدر الشمالي للجبل مع وادي نهر دجلة في البعيد والذي لم نتمكن من رؤيته منذ أن غادرنا (جزيرة ابن عمر). أرغب بشدة في القول بأنَّ المنظر الذي شاهدناه من تلك النقطة المرتفعة كان ممتعاً جداً. وبالنظر نحو الجنوب، شاهدنا سهول الجزيرة المقفرة اللامتناهية تمتد تحتنا.

إنها الوطن الأم لإبراهيم (Abram)، ومدينة أور (Ur) عند الكلدانيين، تشبه كثيراً خريطة ضخمة رمادية مصفرّة منقطة هنا وهناك بقرية بائسة ومخيم بدوي أو رقعة من الشجيرات القصيرة والجنبات. حتى أبعد نقطة يمكن للعين رؤيتها فوق السهل لم

نستطع إيجاد عشرين شجرة مما جعل هذه المنطقة بمظهرها هذا مملة وقاحلة بشكل موحش.

في الجانب الشمالي للسلسلة الجبلية كان هناك مشهدٌ مختلفٌ كلياً يعرض نفسه، إنَّ هذا الجانب من المدينة يبرز للعيان طابعاً جبلياً استثنائياً إلى حدٍ ما، فيبدو خصباً، مشجراً ومروياً جيداً ومسكوناً بشكلٍ أكثف، تناثرت فوقه بين هنا وهناك تلالٌ وجبالٌ ووديانٌ عميقة وضيقة، وبعض هذه الوديان كانت تظهر علامات واضحة على وجود الزراعة.

كانت أطراف ماردين أيضاً - على الرّغم من أنها تبدو من سفح الجبل ذات مظهر قاحل جداً - تظهر بمظهر أقل وحشة وقحولة بكثير مما كان يبدو عليها عندما رأيناها عن قرب، ذلك أنه حيثما وجدت أصغر قرارة من التراب فوق صخور الغرانيت كانت تنمو فوقها الأعشاب والشجيرات والكروم وحتى أشجار الفاكهة وأشجار الزينة ذات حجم لا بأس به، والتي تعطي المدينة منظراً مبهجاً كان سيغدو كئيباً ومغماً من دونها.

تمّ ربط خيولنا بسرعة ونصب خيامنا في وقتٍ قصيرٍ، ثم أرسل السّنيور (P) على جناح السرعة بعض رجالنا إلى المدينة لشراء الحاجات والمؤن، في حين أمر اثنين آخرين بإرشاد الاب (M) إلى دير الآباء الجاكوبيتيين (اليعاقبة) فقد كان رئيس الدير إيطالياً، وقد قُدِّم إليه الأب (M) بواسطة رسالةٍ من صديقه في الكهنوت من الموصل. سرعان ما عاد رجالنا ومعهم وفرة من الطعام والفواكه اللذيذة كالتين والأعناب. بعد الفطور رافقت السّنيور (P) إلى المدينة لرؤية القائم مقام من أجل تزويدنا بحراس جدد، كان هذا الشخص البارز رجلاً مسناً وتركياً بالتأكيد، يجلس متصالب الأرجل محاطاً بكتّابه وإلى جانبه يوجد شخصٌ آخر قوي المظهر يلبس طربوشاً أبيض وقد ظهر في النهاية أنه القاضي. كلاهما كانا يجلسان على سجادة في زاوية الغرفة يحلاّن النزاعات ويطلقان الأحكام يميناً ويساراً، ويحدّق نحوهم بأفواهٍ فاغرة وارتجاف مجموعة من الصعاليك القذرين نصف العراة، جميعهم لديهم شكواهم ودفاعهم عن نفسهم.

كانت هناك مجموعة من الجنود الأتراك النعسين، تعيسي المظهر، بدا جلياً أنهم ولدوا وترعرعوا في بلادٍ مجردة تماماً من الماء والصابون، وكانوا يحرسون مدخل الغرفة ويدفعون السكان البائسين الذين احتشدوا في الداخل والخارج. بعد الانتظار لفترة طويلة في قاعة المقابلات الرسمية الخانقة دون أن يدعونا القائم مقام للجلوس - العادة المألوفة عند هؤلاء الضباط في استقبال الأوروبيين - مللنا من الانتظار وقررنا أن ننصرف، حاول الجنود عند الباب منعنا من ذلك، إلاّ أننا دفعناهم جانباً ورحلنا، ولكن لم نلبث ان وصلنا إلى الشارع حتى جاء أحد الجنود راكضاً من خلفنا وأخبرنا أن القائم مقام أصبح الآن في خدمتنا، مع ذلك أخبرناه بأننا لم نعد بحاجة إلى خدماته القيمة بعد الآن.

كان هذا الجواب المفاجئ غير متوقع أبداً كما بدا على القائم مقام، وقد سبّب بعض الإهمال عند القاضي التركي رابط الجأش، والذي اعتقد وهو على حق، أننا نملك «فرماناً» أو أمراً من سيده الإمبراطور - السلطان - حول تأمين مسيرنا، وإنّ تجاهل أمر كهذا سيتسبب بعواقب كارثية للضابط العاصي، لذلك لم يكن الأمر مفاجئاً بالنسبة لنا عندما قام التركي العجوز السمين بزيارتنا بعد عودتنا إلى المخيم مباشرةً، ترافقه بطانته من الخدم والمرافقين، وبعد أن تحدّيناه وجابهناه بحرف هيروغليفي[1] يُعرف جيداً باسم توقيع السلطان عبد العزيز، قبّل بوقار تلك التعويذة السحرية وانفجر بوابل من الاعتذارات عمّا بدا استخفافاً بنا، وراح يتوسّل بشدّة السماح له بتقديم المساعدة لنا بأية طريقة كانت، وأصرّ على قبولنا لصينية ضخمة مليئة بالحلويات وسلة من الفواكه اللذيذة كان قد أرسلها لنا، وقبلنا جزءاً منها كعلامة على الولاء، ولكن بعد أن أبقينا زائرنا في حالة قلق فظيعة لفترةٍ طويلة من الوقت. بينما كنا لا نزال غارقين مع القائم مقام في الحديث والتدخين وشرب القهوة، استقبلنا زيارةً أخرى، كان الزائرون رجلين شابين يلبسان زياً أوروبياً ولكنهما يرتديان الطربوش الذي لا سبيل إلى تغيره، وهما من موظفي الحكومة.

---

(1) المقصود بهذا التعبير التهكّمي الطغراء، أي توقيع السلطان وخاتمه.

عندما قدّمهما إلينا القائم مقام، ظهر أنهما من عمّال التلغراف المقيمين في ماردين، إحدى محطات خط التلغراف بين إسطنبول والبَصرة. كان أحد الشابين إنكليزياً والآخر يونانياً، وكلاهما يرتديان الطربوش فقط لأنه إلزاميٌّ بالنسبة لموظفي الحكومة العثمانية.

حالما انصرف القائم مقام بعد تعهّده بكل تواضع بأن يقدم خمسين من الظابطية مستعدّين لحراستنا حتى ديار بكر - إذا كان ذلك ضرورياً - في الوقت الذي نريد، أصبح الشابان ثرثارين جداً، الأول بلغة إنكليزية جيدة جداً والآخر بالإيطالية الفصيحة. أعجب الشابان بخيولنا وتذمّرا من الحياة المملة في هذا المعقل الجبلي المغمّ، وبعد ذلك عرضوا علينا أن نتمشّى في أنحاء المدينة، وهو عرضٌ قبلناه بكل سرور؛ إذ كان علينا أن نبتاع الكثير من المشتريات من البازار.

بالتأكيد وجدنا كل الشوارع أو بالأحرى الممرات الملتوية في هذا المكان المكتظ ضيقة جداً ووعرة، أما الشوارع الرئيسية فقد كانت تتباهى بأحجار الرّصف المؤلفة من الحصى الكبيرة والجلمود الضخم، ومعظمها متآكلة إلى أبعد الحدود وملساء وزلقة وهي خطيرة جداً على أرجل ورقاب كل من البشر والدواب. كانت كل الأبنية في المدينة مبنية على الطراز الشرقي المألوف، ورغم أنها صغيرة بعض الشيء فإنها مصنوعة بالكامل من الحجارة، وبدا جلياً أنها جيدة البناء وإلاّ كانت جميعها منذ زمن طويل تدحرجت إلى الهوّة الغائرة الموجودة تحتها. تتمتع ماردين بقلعة جميلة وقوية تقع قرب مركز المدينة، ويحتلها حوالي مئة وعشرين جندياً تركياً، مكسوّين ويأكلون ويشربون على نحوٍ تعِس جداً. كان مدخل وبوابة القلعة مزخرفاً بشكل رائع بالأرابيسك القديم، ويقال إنه الأفضل في العالم وإنه يفوق أياً من تحف البناء المغربية الرائعة في إسبانيا، وحتى قصر الحمراء الشهير لا يستثنى من ذلك.

إلى جانب القلعة يوجد العديد من المساجد ذات المآذن المرتفعة وعدة حمّامات عمومية، وبازاران صغيران لكنهما مزودين جيداً بالبضائع، ومكتبة جيدة، ودير الجاكوبيتيين (اليعاقبة) يشغله عدد كبير من الكهنة الفرنسيين والإيطاليين، والكثير

غيرها من الأبنية. يصل عدد السكان إلى حوالي خمسة عشر ألفاً نصفهم يعتنقون الإسلام والنصف الآخر ينتمون إلى الديانة المسيحية، ويتألف هذا المجتمع الآخر من الطوائف الكلدانية والمارونية واليعقوبية. اللغة العربية هناك كانت قليلاً ما تحكى، وعادات السكان وطباعهم وثيابهم وملامحهم لم تعد عربية الطابع؛ بل أصبحت بوضوح تركية أو كردية، لأنهم في الحقيقة ليسوا عرباً، إنما تركمان أو أكراد.

كانت هذه المميزات بشكل أو بآخر ملحوظة جداً عند غالبية السكان في المدن والقرى الواقعة على طول مسارنا من كِفري Kifri صعوداً إلى الأعلى ولكن بما أنَّ سكان كركوك وكفري وأربيل وزاخو Zachu وجزيرة ابن عمر ونصيبين... الخ يختلط دمهم إلى حدٍّ كبير بدم العرب فإنَّ صفاتهم مضللة، ليست تركمانية أو كردية صافية، وهم يتحدثون بشكل رئيس باللغة العربية وهي ليست الممثل الحقيقي للسكان الأصليين في هذا الجزء من العالم.

بينما كنا نجوب الشوارع أو حريٌّ أن نقول ممرات ماردين، ذُهلنا بالمظهر الصحيّ والمليء بالحيوية على نحوٍ ملفتٍ لسكانها الأصليين، كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً. إنَّ بشرتهم الصافية المتورّدة وقاماتهم الرياضية المتناسقة أثبتت بوضوح طبيعة المناخ الصحي الذي ذاع صيته عن استحقاق في تلك المنطقة الجبلية.

هناك مزيّة أخرى مبهجة في هذا المكان؛ فقد كانت نتيجة التأثير النافع للمناخ الصحي والمنعش والمنشط هي اجتهاد سكانه في أعمالهم وخاصة في القسم المسيحي منه، إذ هناك الكثيرون منهم يصنعون المنتجات الحريرية والصوفية والقطنية والملابس الجلدية والأسلحة النارية والسكاكين والمجوهرات... الخ، وجميعها تلقى رواجاً هائلاً في بازارات ماردين حيث تقوم القبائل البدوية في سهول الجزيرة بزيارة ماردين بشكل دوري من أجل هدف مزدوج: القيام بتسوّقهم السنوي، وتصريف منتجاتهم الخاصة كصوف الأغنام وشعر الماعز والجلود والسّمن والجبن والدجاج والبقر والخيول والجمال والحمير... الخ.

بينما كنا نتجول في قسمٍ من البازار مخصّص لبيع اللحوم والفواكه والحبوب

وغيرها من المؤن، شاهدتُ عدة سلال مليئة بالجراد المحمّص، وهو نوع من السلع التي تستهلك بشكل كبير من قبل الطبقات الفقيرة في بلاد الرّافدين وشبه الجزيرة وبلاد فارس، وعلى وجه الخصوص من قبل سكان شرقي شبه الجزيرة وسواحل الخليج العربي حيث تعرض للبيع في كلّ بازار، وكما هو متوقّع، تعرض للبيع بأسعار زهيدة جداً. يُحمّص الجراد إمّا على لوحٍ حجري رقيق أو صينية حديدية توضع فوق نارٍ قوية حتى يصبح بنياً ومقرمشاً عندها يعدّ مناسباً للأكل. كنت قد تذوقته ووجدته شبيهاً جداً بذيل أو زعانف السمكة عندما تقلى جيداً. على الرغم من أنه مناسبٌ جداً للأكل عندما يخرج طازجاً من النار فهو ليس لذيذاً عندما يؤكل بعد التحميص بعدة أيام وخاصةً إذا لم يكن مقرمشاً جيداً، عندها يأخذ نكهة كنكهة الروبيان البائت. لم أعجب بهذا الطعام كثيراً وعلى الأرجح سبب ذلك هو تحيّزي ضد بلع أي نوع من أنواع الحشرات، إلاّ أنني لطالما كنت أرى أناساً عرباً وأفغاناً يأكلونه بالأرطال ويبدو التلذذ الشديد عليهم واضحاً.

خلال تجوالنا المطوّل في بازارات ماردين قادنا نجم الحظ الذي يرافقنا إلى دكان رجلٍ أرمني عجوز ذي لحيةٍ فضيةٍ وقامةٍ عملاقة، كان يقوم بتجارةٍ مزدهرة في مجال التقطير، حيث يصنع نوعاً من (العَرَق) له طعمٌ ممتاز. عندما يكون مركّزاً له خاصية بكونه صافياً وشفافاً كأنقى مياه على الإطلاق، ولكن سرعان ما يكتسب لوناً زهرياً جميلاً عندما يختلط مع الماء، وإلى جانب العَرَق كان يقطّر روح الخمر أو الكحول وماء الورد وزيت الورد والشربات وغيرها. اشترينا مؤونةً كافية من هذا العَرَق لأن عرق ماردين يحظى بسمعة كبيرة في أنحاء بلاد الرافدين.

كنا متلهّفين لشراء النّبيذ بشكلٍ خاص، ليس لأن شربه مستحسن أكثر في المناخ الحار من الشراب المسكر فحسب؛ إنما لأنه قادرٌ على إطفاء الظمأ الشديد أكثر بكثير من الآخر. يفضّل المسافر في بلدان المشرق النّبيذ على الماء بشكل عام وذلك ليس فقط لطعمه الجيد، ولكن من وجهة نظر صحية لأنه منشطٌ أكثر، بالإضافة إلى أنّ الكميات الكبيرة المستهلكة من الماء في المناخ الحار قد تسبب الإعياء والحمى.

لـم يكن صاحبنـا المقطّر هذا يتعامل بالنبيـذ إلاّ أنّه حوّلنا إلى أخيه الذي اسـتُدعي في الحـال. قادنا هذا الشـخص عبـر متاهةٍ مـن الممرات والأزقّـة الضيّقة إلـى كهف بين الصخور الموجودة خلف مسكنه، كان الدخول إلى هذا الكهف عن طريق باب خشبي متيـن مؤمّن بمغلاقٍ بدائيٍّ جداً فُتح على الفور بواسـطة مفتاحٍ غريب الشـكل كان بيد «دليلنـا». كان الكهف منخفضاً ومسـاحته حوالي ثلاثين قدماً مربعاً، تسـكنه عائلة من الخفافيـش التـي راحت تحوم بصمـتٍ حولنا. على الأرض بمحـاذاة الجدران وقفت سـتة جرار فخّارية ممكن أن تتسـع كل منها لخمسـين غالوناً على الأقل. بعضها كانت فارغـة ولكـن البقية كانت مليئـة بالنبيذ الممتـاز ذي اللون الأحمر الداكـن، إنه عصير العنـب الخالص الـذي علمنا أنه يزرع بكميات كبيرة على الجانب الشـمالي الشـرقي لجبل ماردين.

كان النبيـذ بـارداً جداً كالثلج كما هو حال الجو داخـل الكهف، مما جعلنا نرتجف حتـى العظـام من البرد. اشـترينا سـتة غالونات تقريبـاً مقابل ثمن زهيد جداً وهو سـتة قروش أي دولار واحد تقريباً، تدفع في مخيمنا في الجهة الثانية من المدينة بعد تسـليم النبيـذ هناك. بعد ذلـك، رجعنا إلى مخيمنـا برفقة تاجر النبيذ الذي نشـكر ثبات خطاه الرائعة؛ فقد اسـتطاع حمـل جرّة الفخّار الثقيلـة فوق الحصى الكبيـرة الزلقة والغادرة فـي الطريـق القطيـع دون أن يحطّمها. حين وصلنا إلـى المخيـم نُقل النبيـذ على الفور إلى قوارير زجاجية فارغة كانت تعبّأ وتفرّغ باسـتمرار منذ أن غادرنا بغداد، وكنا نبقيها مخبّأة بحذر بين أمتعتنا بغية المحافظة عليها طوال رحلتنا؛ ذلك أنَّ القوارير الزجاجية كانت نادرة الوجود في هذه المنطقة، وليـس من السـهل شـراؤها في جميع أنحاء بلاد الرافدين، حتى الفلّين كانت له قيمة كبيرة جداً في هذه البلاد.

* * *

بعد وصولنا إلى المخيم بقليل، بدأت الشـمس المتألقة تختفي خلف التلال الرّملية المنخفضـة المتموّجـة فـي البعيـد عند الأفـق الغربي. يالـه من منظر غـروب خلاّب، كانـت الصـورة بأكملها مصبوغة بمسـحة ذهبٍ ورديّة بدت مذهلـة ولافتة للنظر فوق

الجدران البيضاء للمساجد الشامخة بقبابها المصقولة البراقة وأهلّتها المطلية بالذهب التي لمعت كالعديد من النجوم المتلألئة. ولكن مع مرور الوقت كانت الغيوم الرقيقة البعيدة المرئية فوق الأفق البعيد وقمم الجبال والمآذن والجوامع التي كانت قبل دقائق فقط مصبوغة بأغنى الألوان على الإطلاق قد استعادت لونها الحقيقي، وغدت الظلال أطول فأطول واصطبغت السماء بلونٍ أزرقٍ داكن، وكان الصّدى الكئيب وغير المتناغم لأصوات جوقة المؤذنين الذين يمشون ببطءٍ ورزانةٍ مقدسة حول الدرابزين المرتفع للمآذن المختلفة يدعون بصوتٍ عالٍ مؤمني المدينة الجبلية إلى الصلاة، كان قد تلاشى تدريجياً، وحلّق في السماء صقرٌ أو عقابٌ متأخر مطلقاً صرخةً جارحة واحدة وأخيرة عندما كان يختفي عن أنظارنا..

بين هنا وهناك كانت ترفرف خفافيش بأجنحتها دون أن تصدر صوتاً، ولكن بخطوطٍ متفاوتةٍ رائعة في الجوّ المنعش لتؤذن باقتراب الليل. تلاشى شعاع الشمس الأخير من الأفق، وبعد شفقٍ دام فقط بضع دقائق بدأت النجوم تظهر واحدة تلو الأخرى، وراح القمر الفضي يرتفع رويداً رويداً من خلف المعالم المظلمة للسلسلة الجبلية البعيدة، وينشر ضوءه الرقيق فوق هذا المنظر الطبيعي الصامت. مشهد الغروب المهيب والليلة المقمرة الجميلة والمزدانة بالنجوم، ونسيم الليل المنعش العليل الذي ينفح من خلال الفتحة الجبلية، كلّ ذلك شكّل تناقضاً ممتعاً مع الأيام والليالي الخانقة شديدة الحرارة التي مررنا بها حتى اليوم أثناء تقدّمنا البطيء المرهق فوق سهول الجزيرة الرملية الحارقة.

كانت ملاحظتنا لهذا التناقض الملفت للنظر كبيرة، لأنها الليلة الأولى التي نقضيها في الجو المنعش للمنطقة الجبلية المرتفعة في كردستان، اكتسحنا شعورٌ فائق الوصف عندما فكرنا بأن القسم الأكثر إرهاقاً وضجراً من رحلتنا قد انتهى، وبدا لنا أن إتمام ما تبقى من الرحلة مجرّد لعبة طفولية مقارنة بما مضى، ورغم أننا حتى ذاك الحين بالكاد قد قطعنا نصف المسافة فإننا شعرنا كأنَّ الرحلة شارفت على الانتهاء. حتى السّنيور (P) قائد قافلتنا كان يطير فرحاً لأنه استطاع أن يتقدّم مع خيوله إلى هذا الحد، على

الأقل دون حوادث. كان يعلم مدى خطورة تلك الممرات الجبلية الوعرة بالنسبة لحوافر وأعناق مجموعة خيوله العربية الصغيرة والنشيطة التي لا تقدّر قيمتها بثمن، وكان الآن يشعر بأن الحراسة المتواصلة والتوجيه الحذر فقط سيمكّناه من النجاح في إيصال الخيول إلى مالكها الإمبراطور في باريس بالحالة المثلى.

أما سائسونا العرب الذين كان قليلٌ منهم فقط قد وصلوا إلى هذه المناطق في الشمال قبل ذلك أو إلى منطقةٍ رطبةٍ جداً وجبلية كهذه فقد أبدوا تغيراً ملحوظاً في سلوكهم، حيث أفسحت طباعهم الجدّية الهادئة الخاصة بالعرب مجالاً لمزاجٍ مبتهجٍ كثير الكلام نادراً ما يُرى بينهم. لقد مرَّ كل شخصٍ من أفراد قافلتنا بهذا التغير الملحوظ إلى الأفضل طبعاً. إنه ليس من الغريب أننا احتفلنا كما يجب بدخولنا إلى أراضي كردستان في تلك الليلة، وذلك بمأدبة مرتجلة أكرمنا بها بكامل طاقاتنا صديقينا الجديدين عامِلَي خط التلغراف المذكورين سابقاً، جلسنا إلى مائدة عشاءٍ سخيةٍ في الهواء الطلق تحت السماء اللامعة بالنجوم، وكانت المائدة مكرّمة كما ينبغي بعددٍ كبيرٍ من زجاجات نبيذ ماردين الرائع الطعم.

لم نكد ننهي طعامنا حتى عاد إلى المخيم صديق رحلتنا الأب (M) الذي غادرنا في الصباح لزيارة إخوانه في اللاهوت في دير اليعاقبة يرافقه ثلاثة رهبان وخادم يحمل اثنتي عشرة زجاجة نبيذٍ في سلة، وهي عبارة عن هدية من الدير. بقي زوّارنا معنا حتى قرابة منتصف الليل وبدا جلياً أن هدفهم تمتيع أنفسهم. بعد ذلك استأذنوا بالانصراف بطريقةٍ تشوبها العاطفة وعادوا إلى المدينة مع بعضهم.

أمضى رجالنا العرب مساءهم على طريقة عربية بحتة حيث جلسوا على الأرض بشكلٍ دائريٍ وراحوا يرشفون القهوة القوية المحرقة ويدخنون التبغ الخفيف ويستمعون إلى راوي قصص ويضحكون بين الفينة والأخرى، يصفقون بأيديهم أحياناً ليظهروا استحسانهم بين الحين والآخر ويصرخون قائلين: «ماشاء الله» أي (المجد لله) وعندما تقال بهذه الطريقة تعني: جيد جداً، ممتاز، أحسنت، بعد رحيل زوارنا ببضع دقائق، كان مخيمنا يغرق في الصمت؛ فالكلّ - باستثناء ثلاثة حرّاسٍ متمركزين

حول المخيم - كان نائماً ولولا صهيل حصانٍ عرضي أو صوت حوافر حصان آخر، لما أدرك بعض المارة وجود كائناتٍ على قيد الحياة في هذا المكان.

لا شكّ أنه بسبب المناخ المعتدل والغياب الكلّي لذباب الرمل والبعوض وغيرها من المعذّبات الليلية استمتع تلك الليلة كلٌّ من الإنسان والحيوان بنومٍ عميقٍ لم نحظَ به إلاّ قليلاً في بلاد الرافدين. من المؤكد أننا كنا مرتاحين جداً في نومنا؛ إذ لم يشعر أحدٌ من النائمين الكثر الذين تمدّدوا على الأرض في الخارج بالندى الثقيل الذي هطل.

كانت شمس الصباح الباكر قد ألقت بأشعتها المشرقة فوق المخيم الصامت عندما أيقظتنا من سباتنا الضجة المتزايدة لحصانٍ قادمٍ حيّاه فحولنا بصهيلٍ قوي، فأدركنا أنه الوقت المناسب للتحرّك. ثبت بعد ذلك أنَّ جماعة الفرسان القادمة هم عشرة من الظابطية - وذكرنا أنهم فرسان سريون يستخدمون لحماية القوافل - أرسلهم قائم مقام ماردين لحراستنا حتى ديار بكر عاصمة كردستان وتبعد حوالي ستين ميلاً عن ماردين باتجاهٍ شمالي غربي. كان جميع الفرسان من الأكراد أو السكان الأصليين لكردستان ولكنهم ليسوا مزوّدين بالرماح الطويلة والخناجر المعقوفة المألوفة عند العرب، غالباً قد يكون السبب أنَّ السلاح الأول مربكٌ إلى حدٍّ ما في منطقة جبلية، كان كلٌّ من هؤلاء الرجال مسلحاً ببندقية مُسكيت قصيرة ذات فتيل لها سَبَطانة واحدة وزوج من مسدسات الزند المصوّن الطويلة ووحيدة السَّبَطانة، وسيف فرسان طويل ومعقوف بشدة، يتدلى من رباطين جلديين معلقين بحزامٍ جلديٍّ عريض يستخدم باستيعابه الثلاثي كحزام للسيف، حقيبة للذخيرة، وحامل لمسدسات. لم تكن سروج أولئك الفرسان رثّي المظهر كتلك السروج العربية الصغيرة الصلبة ذات الإطار الخشبي الضيق والقربوس المرتفع؛ بل كانت كبيرة وطرية وواسعة مصنوعة من جلدٍ ناعم جداً وطري لونه أحمر فاتح أو أصفر أو أخضر محشو بغزارة بشعر الخيل أو صوف الأغنام.

لم نكن نرى ضرورةً لهذا العدد من الحرّاس، لذا احتفظنا بخمسة من الظابطية الأفضل عتاداً وخيولاً، وأرسلنا البقية في طريق العودة إلى القائم مقام مع تشكراتنا الجزيلة.

بعـد ذلك تناولنا فطوراً مقتصـداً وقوّضـنا خيامنا بسـرعة، ورُبطت كافة أمتعتنا بأمان على ظهور دواب الحمل الخاصة بنا، والتفّت خيولنا القيمة جيداً بالبطانيات وحاميات الركب والقوائم.

عند الثامنة صباحاً كانت قافلتنا بأسرها تهبط ببطءٍ وحذر الجانب الشمالي الشرقي الصخري وشـديد الانحـدار لجبل ماردين. إذا كان صعود هذه السلسلة الجبلية من الجانب الجنوبي مهمّة صعبة جـداً، فإن هبوطها مـن الجانب المقابل مهمة أصعب بكثير؛ إذ لـم يكن الجانب الشـمالي فقط خطراً ومنحدراً بشـكلٍ متناسـق، إنما كانت الطريق أو بالأحرى ممرّ المشاة ضيقاً أيضاً في الكثير من الأماكن لدرجة أن ليس فقط حيواناتنـا بل أيضـاً نحن الذين علينـا أن نجرّها من لجاماتها وجدنـا صعوبة في إيجاد بقعة نضع فوقها أقدامنا.

إنَّ أفضـل طريقـة لإعطاء فكـرة صغيرة عن طبيعـة المكان هي إخبـار قرّائي أنه في الكثير من الأماكن كانت هناك فجوات دائرية يتراوح عمقها ما بين إنش وثلاثة إنشات ومحيطها من ستة إلى ثمانية إنشـات، متحاتّة بعمق ضمن الصخور الصوّانية الصلبة، وتظهر من وضعها الحالي وبعدها عن بعضها أنها آثار حوافر كل حصان وجمل وبغل وحمار صعد أو هبط هذا الجبل على مدى قرون، ذلك أنها مجبرة بسبب طبيعة الأرض وضيق الممر أن يضع كلٌّ منها حوافره في البقعة نفسها، ونتيجة هذا الشيء ظهرت تلك الفجوات أو الآثار تدريجياً على صخور الغرانيت. لا بدَّ أنَّ عملية تحات آثار الحوافر هـذه بهكـذا عمق فـي الصخور الصلبـة كانت بطيئـة جداً، والـذي عليه لن أسـتغرب إذا كانـت هذه العلامات نفسـها قـد رآها الفرسـان الهمجيون لتيمورلنـك البغيض أو تامرلين، القائد المغولي الشهير الذي أغار على ماردين فاستولى عليها ودمّرها حوالي عـام 1392، والـذي كحال المسـافرين اليوم، لم يكن لديه أية طريقـة في الوصول إلى ماردين أو الخروج منها سـوى أن يسـلك الطريق نفسـها التي سـرنا فوقها، وذلك كون الدخول أو الخروج من هذه المنطقة الجبلية مستحيلاً من أية دروبٍ أخرى. كانت هذه العلامات المذكورة مرئية أيضاً على المسار الذي صعدنا عبره إلى المدينة.

كنا بين وقتٍ وآخر نصل إلى جزءٍ من الطريق الجبلي ليس منحدراً جداً مما يسمح لنا بأن نمنح خيولنا بعض الراحة. خلال هذه الاستراحات القصيرة استمتعنا بمشهدٍ مطوّلٍ جداً من موقعنا المرتفع. على يمينا كانت القمم الجبلية الوعرة والتلال القاحلة لمنطقة طور عَبدين Tur Abdin الممتدة شمالاً وشرقاً إلى ضفاف دجلة، وتقطعها بين هنا وهناك شعابٌ ضيقة كان قعرها وجانباها كلاهما محفوفاً بكثافةٍ بأشجارٍ قصيرة وشجيرات مغطاة بالأوراق الخضراء الداكنة، تتناقض بشكلٍ ملفتٍ للنظر مع المنطقة الصخرية المحيطة الجرداء والخاوية.

على يسارنا شاهدنا الهضاب والنجود الأقل انحداراً والأكثر خصوبة التي تشكل الطرف الشرقي لسلسلة جبلية تشبه الهلال تدعى قراجا داغ Karadsha Dagh وتمتدّ باتجاه شمالي غربي من جبل ماردين حتى ضفاف نهر الفرات. تحتنا وأمامنا مباشرةً امتدّ وادٍ صغير جميل وخصب توجد في بعض أنحائه أحراجٌ كثيفةٌ وفي البعض الآخر توجد أرضٌ معشوشبة رائعة تقدّم براهين جلية على وجود الزراعة بحقول الذرة الخضراء وكروم الأعناب التي انتشرت فوقها، وخاصةً في الطرف الأعلى للوادي عند سفح الجبل الذي نقف فوقه.

كما كان هناك نهرٌ صغيرٌ يتدفق بسرعة، تلألأت مياهه الصافية بأشعة الشمس بلمعانٍ باهرٍ فبدت عندما كانت تجري في مسارها المتعرّج نحو الشمال كالفضة السائلة، ثم اختفت عن أنظارنا في البعيد بسبب منعطفٍ مفاجئٍ في الوادي. بعيداً في الأفق الضبابي كنا نرى صفحة المياه الفضية المتموجة التي نعرفها جيداً باسم نهر دجلة، إنه صديقنا القديم الذي كان الجدول في الوادي الصغير يشكّل أحد روافده، ولكن الشيء لذي لفت انتباهنا أكثر من المشهد المحيط بنا هو وجود أعداد كبيرة من الخيول والبقر تنتشر على طول ضفتي الجدول الصغير ووجود عدة أشخاص غريبي الملبس بينها. وعلى الرغم من أننا - باستثناء مسجدٍ وحيد متداعٍ يقع على مسافة لا بأس بها من ضفة النهر اليمنى - لم نستطع رؤية أية خيام أو أكواخ أو أية مساكن من صنع الإنسان حتى أبعد نقطة استطاعت أعيننا رؤيتها في الوادي، فلقد اكتشفنا العديد

من أعمدة الدّخان تتصاعد ببطءٍ من بين تجمّعات الأشـجار والشجيرات الكثيفة، مما دلّ علـى أننـا كنا نقترب من مخيّم كبير. بعد قليل سـتظهر نتيجة اكتشـافنا. كان هـبوطنا إلى الوادي في الأسفل بطيئاً جداً ومتعباً بطبيعة الحال.

نظـراً لحالة الممرّ الجبلي الخطرة، كان على كلّ منا أن يسـير على قدميه ويسـحب حصانـه مـن لجامه بحذر طوال المسـافة مـا بين ماردين وسـفح الجبـل، حتى بَحري (Bahri) الفتـاة الزنجيـة توجّـب عليهـا فعل ذلك مـع حمارها الأبيـض كالثلج، وهو حيوانٌ يملك حقاً قدرة فائقة على التحمّل.

عند السـاعة الحادية عشـرة قبل الظهر كنا قد اقتربنا من الوصول إلى سـفح الجبل وأصبحـت الطريق سـهلة العبـور أكثر من ذي قبـل وبذلك أصبح بإمكاننـا العودة إلى مواقعنا فوق سروجنا.

كان مسـارنا في ذلك الحين يمر على مسـافةٍ لا بأس بها إلى اليمين من وسط منطقةٍ واسـعة مليئة بكروم العنب، وكلّ داليةٍ فيها وصلت بكل معنى الكلمة إلى الأرض من ثقل الأعناب التي تحملها، وأية أعنابٍ كانت! يزن كلّ عنقودٍ فيها بمعدّل وسطي رطلاً واحداً، مع ثمرةٍ يصل حجمها إلى حجم حبة الجوز، ولها قشـرة شـبه شـفافة من شدة رقتها، مليئة بالعصارة الشـهية والحلوة كالعسـل، وعندما تُفرك بين الأصابع تصبح دبقة جـداً كالصمـغ، لم يسـبق لي قط أن رأيـت ولن أرى في أية كـرومٍ غلّةً وافـرةً جداً من الأعناب ذات النوعية الممتازة لا مثيل لها كتلك التي رأيناها هنا.

بـدا لنـا أنّ كل الكـروم كانـت مراقبة جيداً؛ حيث شـاهدنا عدّة أشـخاصٍ في أماكن المراقبـة، بعضهـم انجذب إلى وقع أقـدام قافلتنا فنزلوا إلى الطريـق يعرضون كميات كبيـرة من الأعنـاب للبيع مقابل مبلغٍ تافه. رأينا آخرين يجلسـون على شيءٍ كالمنصّة الخشـبية كانت منصوبة في بقعةٍ مرتفعةٍ ومسـقوفة بالأغصان المقطوعة أو الأعشـاب كحماية من أشـعة الشـمس الحارقـة، بدت أبـراج المراقبة تلك كخلايـا نحلٍ ضخمة أقيمـت فوق أربعـة أعمدةٍ أو عصـيٍّ طويلة مغـروزة في الأرض شـبيهة بأكواخ بعض القبائل البربرية في أفريقيا وآسـيا، حيث يحمون بهذه الطريقة أنفسـهم من رطوبة التربة

وكذلك من مهاجمة الحيوانات المفترسة والزواحف الخطيرة. بما أنَّ الأعناب كانت متوفرة مقابل ثمنٍ زهيد جداً، أمر السّنيور (P) بتوقفٍ قصير واشترى كميةً كبيرةً منها ووزّعها بالتساوي بين الرجال، ومنعهم بصرامة من سرقة حبّة عنب واحدة مهما كانت الكروم قريبة من جانب الطريق.

أطيعت الأوامر بإخلاص لفترةٍ من الزمن، ولكن لم نلبث أن تقدمنا مسافة ميلٍ واحدة حتى أجفلنا، دوي قذيفةٍ من بندقية مُسكيت في مؤخرة القافلة. نظرنا إلى الخلف ونحن في حيرةٍ لا ندري ما نظنّ ذلك، ولكن ارتابنا شكٌّ تقريباً بأننا هوجمنا وكنا على وشك أن نستعد للدفاع عن أنفسنا عندما رأينا أحد رجالنا خلفنا على مسافة مئة ياردة يندفع من قرب الحائط المنخفض الذي يفصل الكروم عن الطريق، وينزل إلى وسط الطريق الضيق ويركض بأقصى سرعة ممكنة نحو قافلتنا. أصبح الآن سبب تلك الرصاصة معلوماً؛ كان هذا الرجل يعرف جيداً أن السّنيور (P) لن يسمح له بأخذ العنب، فتمكّن من التلكؤ خلف القافلة دون أن يشك به أحد، وبعد أن تسلل إلى كروم العنب منع نفسه عن تلك الفاكهة المغرية، ولكن لا بدّ أن أحد المراقبين المستترين داخل الكروم لاحظ حركاته المثيرة للشكوك.

ويكفينا القول إن الرّصاصة أطلقت على سارق العنب، وعند سماعه أزيزها بأذنيه اصطدم بالحائط الموجود خلفه ولم يستطع أن يزيد من حجم الفكاهة، إنما اندفع كالسهم نحو القافلة من أجل الحماية.

ووبّخ السّنيور (P) هذا الرجل الذي كان أحد سائقي البغال توبيخاً عنيفاً، ولكن لم يكن ذلك ضرورياً جداً، فقد كان شبه فاقد للحواس من الذعر بسبب صعوبة هروبه.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

وادي الجزيرة

في قلب الوادي ـ الالتقاء بقافلةٍ جركسية ـ قرية متشابكة ـ خصوصيات ـ الهروب الجماعي للخيول ـ جنودٌ أتراك يحرسون مخيمنا ـ استخدامات عربة النقل الجركسية ـ الزي الأنثوي ـ الحياة المنزلية ـ إلى الأمام ثانيةً ـ الحصن القديم ـ سباق النعام ـ إطلاق النار على فيل عن طريق الخطأ.

كنا نسير ببطءٍ ضمن الوادي الضيّق عندما جعلنا منعطفٌ مباغت وجهاً لوجهٍ فجأةً مع خمسة فرسان مقاتلين مزوّدين بعتادٍ غريب، والأغرب من ذلك لباسهم وبدوا أنهم في طريقهم إلى ماردين. نظر رجالنا العرب والأكراد بأفواهٍ فاغرة واندهاشٍ غير مصطنع نحو الغرباء الغامضين بثيابهم ومعداتهم غير المألوفة، وإلى كونهم يمتطون خيولاً من سلالةٍ غريبة، كل ذلك جعل مظهرهم مختلفاً عن الفرنجة أو الأتراك أو الفرس أو العرب أو أية أمّةٍ أخرى عرفها رجالنا حتى الآن. ولكننا - نحن أفراد القافلة الأوروبيين - لم نستغرق وقتاً طويلاً في تحديد جنسية أصدقائنا غير المتوقّعين؛ فقد كانت في الحقيقة أوّل نظرةٍ نحوهم كافية جداً بالنسبة لنا لنقرّ بالإجماع بأنهم جراكسة، وقد تذكرنا على الفور تقريباً بأننا قرأنا قبل رحيلنا عن بغداد مباشرة في **Journal de Constantinople** (صحيفة إسطنبول) وهي صحيفة تصل إلى مدينة الخلفاء عن طريق سُعاة البريد الأتراك، أنه بعد الاتفاقية المتبادلة بين حكومتي سان بطرسبورغ وإسطنبول سيتبادل جلالة الإمبراطور الروسي عدداً مساوياً من المواطنين مع جلالة

الإمبراطور العثماني، ذلك أن عدة مئات من المسيحين الأتراك - أي المسيحيين الشرقيين - في آسيا قدّموا عريضةً إلى السلطان يلتمسون بها السماح لهم بالهجرة، مقدّمين سبباً لذلك عدم قدرتهم أكثر من ذلك على تحمّل اضطهادهم ومضايقتهم من قبل المسلمين الذين يعيشون بينهم.

عندما سمع القيصر الرّوسي بتلك العريضة، وكان يعرف جيداً أنَّ قسماً من مواطنيه الچركس كانوا مسلمين متعصبين جداً وعنيدين، تقدّم إلى السلطان بطلب التبادل المذكور سابقاً.

تم قبول عرضه على الفور، وبعد فترةٍ قصيرةٍ هاجر حوالي عشرة آلاف مسيحي شرقي من الإمبراطورية العثمانية واستقروا على شواطئ البحر الأسود، في حين شدّ الرحال عدد مساوٍ لهم من المسلمين حيث أخذوا أموالهم وأمتعتهم ورحلوا عن بلاد الچركس Circassia مسقط رأسهم ودخلوا إلى الأراضي العثمانية في آسيا، وبعد التنقل لبعض الوقت في أرجاء الإمبراطورية العثمانية بحثاً عن مكان ملائم للإقامة، استقرّوا أخيراً في المنطقة الجبلية في كردستان واختاروا الأودية البائرة وشبه غير المسكونة في ولاية طور عَبدين Tur Abdin ليجعلوا منها موطنهم المستقبلي، حيث كانت الأرض هناك أكثر ما تشبه تلك التي هجروها إلى الأبد.

كان واضحاً أن الفرسان الچراكسة الخمسة الذين قابلناهم بشكل فجائي قد أوفدوا إلى ماردين من قبل زعيمهم إما للتشاور مع السلطات التركية هناك أو لهدفٍ مهمٍ آخرٍ؛ إذ إنّهم مرّوا بنا بسرعة خارقة وخيولهم الصغيرة ذات الشعر الخشن والمفاصلِ القوية والمظهر الوحشي كانت حقاً تقطر عرقاً. لقد مرّوا بنا بصمتٍ كالح، ورمقونا عن قربٍ عندما وصلوا إلى محاذاتنا.

والشيء الذي صعقنا بقوّة هو أنهم بالكاد ألقوا بنظرهم على مجموعة جيادنا الفاخرة التي كانت مقارنة مع خيولهم القوزاقية القزمة خشنة الشعر كالغزلان الرشيقة مقارنة مع التيس، والآن مثلما قاموا بتجاهلنا بعنجهية وتكبّر سأعاملهم بالمثل وأجتازهم دون أيّة ملاحظة أخرى عنهم بعد الآن في روايتي، إلى أن أصل إلى الوصف الوافي للقبيلة

بأسرها، حيث أفترض أنَّ هؤلاء الخمسة البارزين لم يكونوا سوى أعضاء نكرة فيها.

بعد مرورنا بهؤلاء الغرباء لمدة أكثر من ساعة، كنا نسير فوق طريق منعزلة ليست تظهر فيها أية علامات على وجود أرواح بشرية، حتى وصلنا أخيراً إلى مرتفع استطعنا من فوقه أن نستكشف للمرة الثانية الوادي الذي هبطنا إليه، وفي أسفله رأينا المسجد الصغير الذي رأيناه من قبل وقد انتصب عند حافة مرج أخضرٍ جميلٍ محاط بأشجار مورقة كثيفة وزوج من المساكن المنخفضة البائسة ذات السطح المستوي مبنية بالأحجار الخشنة غير المصقولة واللبن المجفف بأشعة الشمس. كان المكان بأكمله والمنطقة المحيطة به يعجّان بالبشر وعربات النقل والخيول والبقر... الخ، وكان بالإمكان مشاهدة العديد من نيران المخيمات تشتعل وتطلق الدخان مع كافة الأنحاء.

بعد مسيرٍ قصير وصلنا إلى قرية أو بالأحرى ضيعة تدعى من قبل البعض شيحان Scheiehan ومن قبل آخرين مسجد الحسين، وفي الوقت نفسه وجدنا أنفسنا عند مشارف مخيم چركس واسع.

في البداية شعرنا بعدم الراحة إلى حدٍ ما وسط الكثير من الأشخاص أقوياء البنية توحي أشكالهم بأنهم رجال حرب على نحوٍ مفرطٍ، والذين بقوّتهم العددية فقط يستطيعون «أكلنا دون ملحٍ أو فلفل» إذا ما قرّروا ذلك.

لذلك اخترنا بشكل طبيعي بقعة هادئة لنحطّ عليها رحالنا على مسافةٍ تبعد حوالي خمسمئة ياردة عن القرية، كان هناك تيار مائي جبلي ضيق لكنه سريعٌ جداًومياهه صافية مثل الكريستال، يفصل الأرض التي تخيم فوقها عن القرية وعن مخيم الچركس، مما جعلنا نأمل أنه سيشكّل حاجزاً بيننا وبين المتفرّجين الفضوليين وغيرهم من الدخلاء غير المرحّب بهم على الضفة المقابلة للنهر، إلاَّ أنَّ توقعاتنا حكم عليها بالإحباط؛ إذ لم نلبث أن عبرنا التيار حتى كانت حشودٌ من الچركس خلفنا، بعضهم على صهوة الجياد والبعض الآخر سيراً على الأقدام، وجميعهم يعبرون النهر فقط لإرضاء فضولهم والنظر مطوّلاً إلى (الملحدين غير المسلمين).

في الواقع قبل أن نتمكن حتى من ربط خيولنا كنا محاطين بجدارٍ بشريٍ كاملٍ مكون من هؤلاء الفضوليين المزعجين أشباه الهمجيين، الذين من توقهم إلى مشاهدة كل شيءٍ نفعله راحوا يصغّرون الدائرة تدريجياً أقرب فأقرب حولنا حتى تعارضوا في النهاية مع تحركاتنا. انزعج السّنيور (P) كثيراً من تطفلهم فامتضى حصانه ثانيةً خاطبهم بالعربية والفرنسية والإيطالية ولكنهم لم يفهموا أياً منها، بل كانوا يفهمون الچركسية والرّوسية والفارسية والتركية. في حالة الطوارئ هذه قفز الجندي التركي، الفارس والمحارب القديم في حرب القِرم Crimea الذي - كما ذكرت سابقاً - أقلّيناه معنا من الطريق ما بين جزيرة ابن عمر و Ernooz، قفز فوق سرجه لكي يطلب من الحشد الفضولي باللغة التركية المؤدبة أن يتعدوا إلى الخلف، لكنه لم يكد يبدأ بالتحدث حتى جمحت عدّة خيولٍ فجأةٍ بسبب اقتراب الچركس الشديد منها، وغدت حرونة جداً لبعض الوقت، وقامت بفرارٍ جماعيٍ مفاجئٍ جُرح بسببه العديد من الزائرين غير المرحّب بهم.

كان أثر هذا الهياج الخيلي أن أبعد حشد المتفرجين الفضوليين إلى مسافة لا بأس بها. إلى جانب ذلك كان ضباط كتيبة الجنود الأتراك المتمركزين قرب القرية من أجل حفظ النظام بين المهاجرين الچركس قد شهدوا التشتت الجماعي المفاجئ لخيولنا، فظنّوا أنَّ هؤلاء الچركس هاجموا مخيم الفرنجة، فقام الضابط المسؤول بعبور النهر مع قوّة كبيرة من الخفر ليقدّموا لنا العون والحماية.

لدى معرفته للحالة الحقيقية التي كانت عليها الأمور ابتسم، ولكن بعد أن أظهرنا له الحرف الهيروغليفي إيّاه الموجود أسفل رسالة تأمين الحماية الموجودة معنا المشهور جداً بين الجنود الأتراك. شاهد الضابط الخط والتوقيع الشخصي لجلالة السلطان عبدالعزيز فقبّل ذاك الطلسم المسحور بكامل الوقار والاحترام وأقرّ أنّه راغبٌ في خدمتنا بكافة الطرق الممكنة، وأصرّ على وضع مفرزة قوية من الجنود حول مخيمنا، وهو الشيء الذي لم يرفضه السّنيور (P) - قائدنا - على الإطلاق، ليس من أجل ضرورة ذلك بقدر ما هو احترام لزائرنا العسكري الذي ثبت أنه جنرال وجيه في

الجيش التركي، وكان يحمل على صدره العديد من الأوسمة والشارات العسكرية، بقي في خيمتنا طوال النهار تقريباً، يستمتع بحسن ضيافتنا ويعجب بخيولنا ويخوض معنا في محادثات جذلة.

وعن طريق مترجمنا محمّد أخبرنا بأن الجركس كانوا قد وصلوا إلى الوادي قبل وصولنا ببضعة أيام فقط، وأنهم جميعاً عازمون على الإقامة إلى الأبد في هذه الولاية، وكانوا فقط ينتظّرون مبعوثي الحكومة التركية المتوقّع وصولهم من ماردين بين الحين والآخر مع قافلة كبيرة من الجمال المحمّلة بالحبوب والملح وغيرها من ضروريات الحياة لتوزّع بين المهاجرين، في حين كان هو مفوّضاً من قبل الحكومة من أجل حمايتهم وحفظ النظام بينهم. وعلى الرغم من أنه هو نفسه لم يكن على معرفة طويلة بهؤلاء المهاجرين فإنّه اعتبرهم طبقة من الناس النشيطين شديدي البأس، ولكن في الوقت نفسه كانوا مغرورين ومتغطرسين جداً، مع أنه بدا عليهم أنهم أوفياء جداً ومسالمون فيما بينهم، إلاّ أنهم كانوا في الواقع ذوي تصرفات عدائية ومتمرّدة متمثلة في ميولهم إلى التشرّد والاختلاس، وأنه ذات مرّة كان مجبراً على إطلاق النار على اثنين منهم أدينا بجريمة قطع الطريق والقتل. كان مؤمناً بشدّة بأن الحكومة الرّوسية استفادت جداً من هذا التبادل، وأنها من دون شك سعيدة جداً في التخلص من هؤلاء المعاندين صعبي المراس.

«مع ذلك» أضاف الضابط بخشوع وأمانة المسلم الحقيقي «إنَّ قرار الحاكم المؤمن» بالتأكيد يقصد السلطان «لا يمكن إلاّ أن يكون صائباً وحكيماً، ولذلك لا بدّ أن يوجد سببٌ قويٌّ لاتخاذه هذا القرار». بما أنَّ مخيمنا أصبح محروساً بعشرين حارساً تركياً يحملون بنادق مُسكيت (أم فتيل) ملقّمة أرسلهم إلينا ضابطٌ ذو مقام رفيع في الجيش التركي مخوّلين بإطلاق النار على أيٍّ من الجركس الذين يعصونَ أوامره، فقد كان باستطاعتنا أن نختفي عن الأنظار لبضع ساعاتٍ من الزمن، لذا قبلنا نحن الأوروبيين الثلاثة دعوة مجيرنا العسكري بالانضمام إلينا في زيارة الغرباء الموكلين إليه، وهي زيارة كان يقوم بها يومياً للاطلاّع على أحوال هؤلاء الناس وسماع شكاويهم وتحقيق

طلباتهم وتوزيع المؤن والأدوية وخلاف ذلك...

بما أنها كانت فرصة ممتازة للتعرف على سجايا وعادات أمةٍ وُصفت حتى الآن بطريقة شاعرية إلى أبعد الحدود، فقد امتطينا خيولنا بحماس وانطلقنا نحو مخيّم الچركس مع الضابط وحراسة من الجنود. اتجهنا إلى الأمام مباشرةً نحو حشدٍ كبيرٍ من الرجال يجتمعون فوق بقعة أرض مستوية بجوار مسجد.

عند وصولنا إليهم بدا جلياً أنهم يعقدون اجتماعاً عاماً؛ فقد رأينا في وسط الحشد المجتمع على شكل دائرة عدداً من الرجال المسنين يجلسون على الطريقة التركية فوق سجادةٍ كبيرة من اللبّاد، وفي وسط هذه السجادة وقف رجلٌ ضخمٌ عريض المنكبين منتصباً فوق منصةٍ بدائية، له وجهٌ برونزيٌّ مسفوع بالشمس وكثير التجاعيد وكان يخطب بالحشد الموجود أمامه.

كان شعره الطويل وشعر لحيته وحاجبيه الخشنين أبيض كالثلج تقريباً ويتناقض بشكلٍ غريبٍ مع بشرته البنية الداكنة وملامحه الدّالة على الذكاء بالرغم من التجاعيد العميقة التي جعلها مفعمة بالحياة ذلك البريق المنبعث من عينيه الخضراوين المائلتين إلى الزرقة والكبيرتين بشكل فريد. لسوء حظنا كان يتحدث بكلام غريب خارج من البلعوم، وكان مبهماً تماماً بالنسبة لنا جميعاً، حتى الجنرال التركي لم يُستثنَ من ذلك. بينما كان الخطيب الموقّر - الذي ثبت أنه زعيم جماعة المهاجرين الچركس - يتحدث عمَّ تلك الدائرة صمتٌ رهيب، وعندما أنهى كلامه تشتت الحشد ببطءٍ وهدوء، معظمهم أووا إلى مهاجعهم، ولكن العديد منهم ظلّوا يتفحّصون تحركات الضابط التركي ومرافقيه الأوروبيين، وراحوا يعلّقون علينا بلغتهم الغريبة لكنها ليست غير متناغمة كلياً. من بين أولئك الباقين كان الزعيم الچركسي ومرافقوه، فمشينا نحوه، وبعد السلامات المعتادة، قدَّمَنا الضابط التركي بالطريقة الرّسمية للزعيم عن طريق مترجم. لدى معرفته برغبتنا في تفحّص المخيم الچركسي تطوّع الزعيم بإرشادنا في أنحائه وأمر بأن يحضر جواده ومرافقيه على الفور.

كانت الغالبية العظمى من الچركسيين تخيّم بين الأشجار المصطفة على ضفة

النهـر، وإلى هنـاك انطلقنا، وجدنا عـدداً هائلاً من خيام الغجـر الصغيرة نُصبت تحت الأشـجار وخياماً معلقة بين شجرتين أو ثلاث أو بالأغصان المتدلّية إلى الأسفل.

صنعت معظم تلك الخيام من نوع من القماش الخشن المنسوج من صوف الأغنام أو شعر الماعز أو الخيول، والبعض كان مصنوعاً من صنفٍ من اللباد الأبيض الخشن والقـذر، وخيـام أخرى أيضـاً كانـت مصنـوعـة من الجلـد المدبوغ الرقيـق والطري أو الجلود غير المدبوغة مع الشعر الذي لا يزال فوقها.

لاحظـت فقـط بضع خيـامٍ من قماش القنّـب، ولا بـدَّ أنَّ هذه الخيـام القليلة كانت مسـتخدمة من قبل الجنود الرّوس قبل ذلك؛ فقد كانت العديد من الرسـائل الروسـية وصورة النسـر الروسـي مرئيةً بوضـوح فوقهـا. إذا حكمنا من خـلال محتوياتها، كان الجـزء الأعظـم من هذه الخيام يسـتخدم أثناء النهار فقط، أو كانت تسـتخدم للتخزين أكثـر من العيش في داخلهـا؛ فقد كانت جميع الفُـرُش وأدوات المطبخ وغيرها مخبأة في عربات العجلتين من الطراز القديم، ورديئة الصنع، ولها محاور عربة خشـبية متينة وعجلات خشبية ثقيلة وضخمة.

كانت كل عجلة مكونة من قطعة خشـبية صلبة واحدة، تبلغ سـماكتها سـتة إنشـات على الأقل، مقطوعة من جذع شـجرة وكان محيطها ما بين ثلاثة إلى خمسـة أقدام مع فتحـة دائرية في الوسـط لإدخال المحور، وفي نهايتي هذا الأخير دُقَّت رَزات خشـبية ضخمـة لتمنع العجلة من الانـزلاق. لم تكن هناك إطـارات حديدية حول العجلات، وبالطبع كانت العربة بأكملها بريئة كلياً من الحديد أو أية حزم ودعامات معدنيـة أخرى مـن أي نـوع كانت. إنني مقتنـعٌ كل القناعة بأنَّ أيَّ رجل من الغابـات الخلفية مع فأسٍ ومنشارٍ في يده فقط يستطيع بناء عربة أفضل وأخف حركة بكثير من هذه العربات.

علمت بأنَّ كل واحدة من هذه العربات السـابقة لعهد الطوّفان قد جُرَّت طوال الطريق من القوقاز بواسـطة الثيران، وهو الشـيء الذي صدقته بسهولة مطلقة؛ فمن المؤكد أنَّ أي حصـان كان سيموت من الخجل إذا ما رُبط بواحدة مـن هذه الآلات الغريبة رديئة الصنع.

ولكـن لا بـدَّ أنَّ هذه العربـات كانت مفيدة جداً بالنسـبة للمهاجريـن أثناء رحلتهم المرهقـة فوق الجبال وضمـن الوديان، عبـر الخوانق الجبلية والأنهـار، فوق أكثر من ألـف ميلٍ من الأرض الوعرة وغير المسـتوية، وطرقات وجسـور خالية بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

لقـد نقلوا داخل هذه الأشـياء البالية متاعهـم ومنقولهم، وأيضاً بعـض أفراد القبيلة غير القادرين على السـفر فوق صهوات الخيول، إمّا لأنهم صغار جداً أو لأنهم مسنّون جـداً أو ضعفـاء جـداً. والآن بعـد أن خيّموا هنا كانوا يسـتخدمون تلـك العربات التي استهلكت على نحوٍ محزن لكنها لازالت قوية، كمساكن مؤقتة للجنسين كليهما كباراً وصغاراً. كانت جميعها مركونة في صفٍ واحدٍ تحت الأشجار، مقابل الخيام مباشرة، وقد عُلقت بشـكل أفقي فوق كل عربة بطانية كبيرة وسـميكة من اللباد أو غطاء صوفي أو من قماش القنب، ومثله أيضاً من الأمام.

كان الظهور غير المتوقَّع لزعيمهم الموقَّر والجنرال التركي وبضعة غرباء أوروبيين والعديـد من الحرّاس على صهوات الخيول يسـبّب اضطراباً كبيراً بين سـاكني الخيام والعربـات، وكانـت أعداد كبيرة مـن الكلاب المتوحشـة والعديد مـن الأطفال الذين يلعبون في الأرجاء يعلنون مجيئنا بصخبٍ حين نمر. بعض تلك الكلاب كانت بالفعل وحوشاً خطيرة إلى أبعد الحدود وقد جعلتني حقاً أشعر بالسرور كوني أمتطي حصاناً. كان العديـد مـن الصغار مجرّدين كلياً من أي قطعة من الثيـاب ومعظمهم يرتدي ثياباً ممزقة فقط، وعبّرت وجوههم القذرة وشـعرهم الأشعث عن الإهمال المطلق والعوز إلـى النظافة، لكـنَّ ليونة خطواتهـم وفراهتهم ووجوههـم المبتهجة دلّـت على صحة مفعمة بالحيوية.

في العديد من الأماكن كنا نرى أطفالاً رضّع بالكاد يسـتطيعون المشـي أو الزحف، وقـد تُركـوا ليتدبروا أمورهم بأنفسـهم، لكنهم مربوطون إلى وتد الخيمـة أو إلى عربة أو شـجرة بواسـطة إحدى نهايتـي حبلٍ أو حزامٍ جلدي. أما النهايـة الأخرى فقد كانت ملفوفة حول خواصرهم. كان الصبية فوق الاثنتي عشرة سنة يرتدون كالرجال البالغين،

والفتيات الأكبر من ثماني سنوات يرتدين اللباس الرسمي المألوف للمرأة الچركسية. أما بالنسبة للرجال والشبان فقد كانوا يلبسون بطريقة تشبه نوعاً من الزي العسكري؛ سترةً عريضةً تصل إلى الركبتين مصنوعة من النسيج الصوفي الخشن والمتين، يكون لونها عادة رمادياً داكناً أو أخضر داكناً أو بنياً داكناً. تكون هذه السترة مجردة تماماً من الأزرار ومغلقة من كل الجوانب، وبذلك عندما تُلبس يقوم المرتدي بزلقها من فوق رأسه، ولها جيوب صغيرة يتراوح عددها ما بين ثمانية إلى اثني عشر جيباً على كل جانب. يبلغ عرض كل من هذه الجيوب حوالي إنشاً واحداً، وما بين ثلاثة إلى أربعة إنشات في العمق وتتسع فقط لأنبوب نحاسي بحجم إصبع الرجل، وتحتوي هذه الأنابيب على البارود ومواد الحشو والرصاصات الفارغة الخاصة بمرتدي السترة، وكلّ منها مزود بجزء سفلي متحرك وغطاء لإغلاق الأنبوب وبذلك يصبح مقاوماً للماء والهواء فيحفظ البارود جافاً.

وبذلك نرى أنَّ الچركسي لا يحمل فقط ذخيرته معه بشكلٍ دائم، إنما يحمل أيضاً صفاً مخفياً من أنابيب النحاس المصفوفة بالقرب من بعضها البعض، وقد تكون أيضاً نافعة كنوع من الوقاية أو درع من زرد يحميه نوعاً ما من طعنات الخنجر أو جروح سيف المبارزة أو الرصاص أو الرماح أو سهام العدو.

كان الجزء الأسفل من الجسد مغطىً ببنطال مصنوع من قماش السترة نفسها، ضيّق ويصل من الخاصرة إلى الكاحل. إن تلك البنطلونات التي رأيتها مبطّنة بالجلد الرقيق حول الكاحل ومن الجهة الداخلية ابتداءً من الركبة ونزولاً إلى الأسفل. أما الأحذية التي يرتديها الچركس فهي مصنوعة من قطعة واحدة من اللبّاد أو الجلد الطري بلونٍ رماديٍّ فاتح، وتصل إلى ما فوق الكاحل تماماً. وأما النعل فهو عبارةٌ عن قطعة من الجلد المتين الصلب المُحاك مع الحذاء، والمجرّد من الكعوب. كما أنهم يعتمرون قبعةً مخروطيةً مرتفعة من الفرو، أو قلنسوة مصنوعة من جلد الأغنام الذي لا يزال صوفه موجوداً عليه.

كان الجزء الداخلي من هذه القبعات التي ترتفع اثني عشر إنشاً على الأقل مبطّناً

بقماش رقيق، والجزء العلوي من القبعة مصنوع من قماش بلون قرمزي فاتح، وفي بعض الحالات كان بنياً أو أخضر أو أسود.

كان لون القبعة بشكل عام رمادياً مختلطاً مع الأبيض، ولكن أحياناً تكون سوداء أو بنية، توضع هذه القطعة الرأسية بدون استثناء إلى الخلف كثيراً حتى تصل فوق الرقبة. عندما يكون الطقس عاصفاً فإنهم يرتدون شيئاً كالعباءة الفرو مصنوعةً من المواد نفسها، ومن لون القبعة نفسها وطريقة صناعتها أيضاً، وتصل من الأكتاف حتى الكاحل تقريباً.

كان كلّ شاب ورجل تقريباً في هذا المخيّم الجركسي يحمل سيفاً قصيراً له قبضة قصيرة مصنوعة من القرون أو العاج أو الأسلاك الفضية، يتدلى من حزام جلديٍّ ضيق، ويستخدمه كلٌّ من الجركس والأفغان والعجم، وقد تم وصفه سابقاً فيّ جزء آخر من هذا الكتاب. بالإضافة إلى السيف الذي تحدثنا عنه للتو يحمل هؤلاء الجركس - عندما يكونون مسلّحين بشكل كامل - زوجاً من مسدسات الفرسان الطويلة وحيدة السّبَطانة توضع داخل حامل مسدسات جلدي أو من اللباد، معلقاً تحت الذراع اليسرى، وأيضاً بارودة (مُسكيت) طويلة ووحيدة السّبَطانة، مزوّدة إمّا بفتيل أو بزند مصوّن.

على الرغم من أنّ أسلحتهم مزوّدة بعدّة من نمط قديم إلى حدٍّ ما، فإنّ الأسلحة نفسها ممتازة الصنع، وفي المسافات القريبة تصيب الأهداف بدقة عالية.

وفيما يتعلّق بالنساء الجركسيات، فإنهن يرتدين زياً شبيهاً بذلك الذي لطالما رأيته أثناء رحلاتي، الذي ترتديه نساء العجم، وهو عبارة عن ثوب طويل من المرينوس أو الموسلين الملوّن، ضيق جداً عند الجزء الأعلى من الجسم، وله خصرٌ منخفضٌ جداً وأكمام ضيقة من الكتف حتى المرفق، يزداد عرضها تدريجياً إلى المعصم حيث تصبح عريضة جداً. وينفتح الصدار ليظهر من تحته ثوب تحتيّ من قماش شفّ الموسلين الأبيض، مطرّز بالخيوط الحريرية أو الذهبية، تماماً كالثوب الذي ترتديه نساء العجم ومسيحيات بغداد. وجميع النساء والفتيات الجركسيات يرتدين «اليجامة» خاصة المسلمين عند الجنسين كليهما في جميع أنحاء الشرق، وهي نوع من التراويل

العريضة من الموسلين المخطط أو الحرير مزمومة حول الخصر وحول الكاحلين، أما أقدامهنَّ فقد كانت مغطاة بخفّين مطرّزين من القماش أو الجلد أو اللباد.

إنَّ النقطة الوحيدة الجوهرية والجديرة بالملاحظة بالنسبة لي من حيث اختلاف زيّهن عن زي النساء الشرقيات المعتاد، هي بالرغم من كونهنّ مسلمات فإنَّ كل الجركسيات اللواتي رأيتهن لم يرتدين الحجاب. وكان هناك اختلاف آخر في لباس الرأس الغريب الذي كان يبدو كقبعة صغيرة مستديرة أو كقبعة المجداف، توضع بشكل أنيق على طرف الرأس وبدا أنها مصنوعة من القشّ الجيّد أو الأماليد، وفيما يتعلق بالشكل والحجم واللون فكانت كالجزء العلوي من قبعة الأطفال القشية البيضاء. قد أكون وفقاً لظروفي المتاحة غير ذي خبرة في وصف أي نوعٍ من الثياب أو الزي الأنثوي، ولكن في هذه الحالة بالذات أثق بأنكم ستعذرونني، وذلك بسبب الصعوبات التي واجهتها في الحصول على المعلومات اللازمة.

على الرغم من أنَّ نساء المخيم الجركسي كن فضوليات جداً وتوّاقات لاختلاس نظرة مطوّلة نحو الأوروبيين، إلاّ أنهنَّ كن بشخصيةٍ إسلاميةٍ حقيقية غير راغبات في عرض أنفسهنَّ على الغرباء، وعند مرورنا بهنّ انطلقن مسرعاتٍ للاختباء خلف العربات أو الخيام أو الأشجار أو الشجيرات أو الماشية، ولذلك لو لم أكن سريعاً جداً وصاحب نظرةٍ ثاقبة لكنت فقط رأيت القليل من الجمال الأنثوي الجركسي المفتخر به.

يعدّ أصحاب العرق الجركسي بناءً على حكمي المستمد من هؤلاء الذين رأيتهم حتى الآن، من ذوي المظهر الحسن والبنية القوية. كانت تعابير وجوههم مبهجة وتنم عن ذكاء وفطنة كبيرين، وقد أضفت ملامحهم المتناسقة وعيونهم الكبيرة الزرقاء، أو الرمادية أو البنيّة الفاتحة، إلى محيّاهم نظرة صراحة وأمانة وبراءة، والتي أظنها خادعة وغرّارة إذا ما كانت القصص المرويّة عن أعمالهم الوحشية المرتكبة بحق الجنود الرّوس والمسافرين صحيحة.

كانت أكثر صفاتهم الجسدية البارزة هي المشية الجميلة المنتصبة حتى عندما يكون

المرء منهم مسناً وأشيب، والأيدي والأرجل الصغيرة، والوجه البيضوي والصدر الفسيح والذقن والفم المخلوقين بجمالٍ تام والأسنان البيضاء الصغيرة والأنف الإغريقي والعيون الموصوفة في الأعلى. لهم حواجب عريضةً ومقوسة وجبهات جميلة وشعر كثيف أشقر أو بني فاتح أو كستنائي أو حتى أحمر، أما الأسود فقد فهو نادر جداً بينهم.

من المؤكّد أنّه لولا الزي الغريب الذي يرتدونه لظن الكثيرون أن عدداً كبيراً منهم من سكان شمال أوروبا الأصليين، على سبيل المثال من الدّنمارك أو السّويد. كانت بشرتهم أيضاً وبخاصة عند النساء الصغيرات نقية جداً، وتتصف بكونها وردية ومخملية كتلك الموجودة بكثرة عند سكان شمال أوروبا والأميركيين، وننظر إليها عادة على أنها علامة من علامات الصحة الجيدة.

ومن هذه الناحية يتناقض الجركس بشكلٍ ملفتٍ مع سكان غرب آسيا ذوي البشرة الشاحبة الذين يكون جلدهم كالرّق وقد تمّ وصفهم سابقاً.

على الرغم من أنهم أشخاص يتمتعون بحسن المظهر، فإنني لم أرَ أياً من الحسناوات المشهورات على مدى الكون، بطلات الحكايات والقصص الخيالية والقصائد، اللاتي خلّدهنّ كلٌّ من كتّاب المسلمين والمسيحيين في كلٍّ من الشعر والنثر، وكنّ مطلوبات جداً في سوق الرقيق ويتم شراؤهنّ بأسعارٍ خيالية من قبل المسلمين الأثرياء. قد تكون الكثيرات من نساء المخيم الجركسي الصغيرات ذوات طلعة حسنة إلاّ أنّه من المؤكد أنَّ قليلات جداً منهن - ذلك إن وجد - رُزِقن بجمال فتّانٍ نادر الوجود.

كانت العشيرة أو القبيلة التي يتمون إليها قبيلة قوية وجريئة ومحبّة للحرب من السكان الأصليين للمنطقة الجبلية في بلاد الجركس Circassia الأصلية، يسكنون السواحل الشرقية للبحر الأسود، في حين أنَّ أولئك المشهورات بجمالهن واللواتي يملأن أسواق الرقيق و«الحرم» في الشرق وحسناوات الحكايات الخيالية الفاتنات فهم سكان مقاطعة جورجيا الواقعة جنوب شرق الچيچان (الشيشان) وشمال شرق بلاد فارس، وتشكّل جبال القوقاز حدودها الشمالية حيث تسمى هذه المنطقة بـ

(مـا وراء القوقـاز). ترزح جورجيا[1] تحت حكم القيصر التركي، ومعظم سـكانها من المسيحيين الشرقيين وبالتالي أحاديّي الأزواج، بينما الجركس هناك متعدّدو الزوجات كالمسـلمين. يتحـدث أولئك السـابقو الذكر لغـة مختلفة عن لغة الجركـس وهم أقلّ عدّائية بكثير.

تمثّـل هاتـان الأمّتان تشـابهاً كبيراً فـي المظهر العـام لكليهما وخاصـة فيما يخص الجنـس اللطيف، ويمكن وصف الاختلاف بينهما بأنه مثـل مقارنة ورقتين مصرفيتين مع بعضهما، أصلية ومزيّفة، للوهلة الأولى تبدوان شـبيهتين جداً ببعضهما ولكن عند التفحّص بشكلٍ أقرب يظهر اختلافٌ كبير حتى يصبح من المستحيل الخلط بين الواحدة والأخرى. لطالما بيعت حسناء جركسية ودُفع ثمنها على أنها جورجيّة، ولكن لم ولن يحـدث أن بيعت الجورجية على أنها جركسـية. كما هـي الحال مع جميع الأمم كانت مـع هاتين الأمتيـن؛ فبالرغم من أن كلاً منهما تحوي ضمن أفرادها بعض الأشـخاص الفاتنين لكن هناك أكثرية بينهم من القبيحين، وكثير من الجركس والجورجيين يعزون السبب في ملامحهم الشخصية الأقل جمالاً إلى وباء الجدري المريع.

إن معظـم النسـاء الجورجيـات والشركسـيّات اللاتـي يباعن في الأسـواق هنَّ في الأصل أسيرات حرب، أو قد تم اختطافهنّ بطريقةٍ أو بأخرى، مع أنَّ بعضهنّ في الواقع قد باعهنّ آباؤهنّ الذين يدركون جيداً أن بناتهنّ إذا كنَّ جذّابات المظهر فإن مصيرهن سيكون كمصير أية سيدة جميلة في الشـرق، أقصد أنها ستحظى بنعيم مترف وعبودية ممتعـة، وإن لم يكنَّ مرزوقات بملامح فتانة فإن الآباء سـيعتبرون أنه لَيس هو الأسـوأ إذا مـا بيعـت بناتهن إلى المزايد الأكبر، من أن تكون زوجـة لرجل من الطبقات الأكثر فقـراً في بلدهـا الأم، ذلك أنه في الحالتين كلتيهما سـيكون عليها القيـام بأعمال منزل سـيدها أو زوجها، وإن الرفاهية والتكاسـل وغيرها من امتيازات «الحَرَم» هي احتمالٌ متاحٌ فقط لأولئك اللواتي ينتمين إلى المسـلمين الأثريـاء، لأنهم الوحيدون القادرون

(1) كانت جورجيا تُدعى في أيّام الحكم العثماني: گرجستان Gürcistan، وشعبها: الكرج. أمّا باللغة الرّوسيّة فتسمى: غروزيا Грузия.

علـى تحمّـل دفع أثمانٍ كبيرة وإبقاء النســاء الجميلات ولكن عديمـات النفع في حالةٍ من الكسل التام.

مـن المؤكـد أن كلاً مـن الفتيـات الجميـلات والقبيحات فـي الحقيقة سـيصبحن جاريات إلاَّ إذا أعطين إلى أزواجهنّ مباشرة من قبل الوالدين، أما إذا بيعت الفتيات إلى غريب فلن يكنّ شيئاً سـوى جوارٍ إلى أن يُرفع مقامهن فيصبحن زوجات (مواليهن أو أسيادهن)، ولكن كما سبق وذكرت فإن قَدَر الجارية المسلمة بعيد كل البعد عن كونه قدراً مأسـاوياً، والعبودية بالنسـبة لها ليـست سـوى تجريد مؤقت من الحرية، وجميع جاريات الإسلام ينلن حرّيتهن عاجلاً أم آجلاً.

أحياناً تُرفع الجواري إلى منزلات زوجات أسيادهن أو يتم تزويجهنّ إلى أفراد من أسرة السـيد نفسـها وفي بعض الأحيان إلى (الغرباء). يسمح للذكور من الرقيق بعد فترة من الزمان بأن يتزوجوا الجواري وأحياناً حتى بنات الأسياد أو إحدى قريباتهم، وذلك بعد الحصول على حريتهم. وعند زواجهم من جارية ما، والذي يجب أن يكون تحت إشراف السيد، فإنَّ كلاً من الذكر والأنثى يُمنح حريته.

إن معظم الناس غير المطّلعين على الوضع الحقيقي للمســألة سوف يدينون بشكل طبيعي الســلوك الشــائن للآباء الجورجيــن والچركـس في بيع بناتهـن بمجرّد بلوغهنّ سـن الأنوثة أي في السـنة العاشرة والحادية عشـرة والثانية عشرة من أعمارهن، ولكن هـؤلاء النقّـاد المعادين يجب أن يأخـذوا بعين الاعتبار أنَّ هـؤلاء الناس بالكاد نصف متحضريـن، وهـم غيـر متعلّميـن على الإطـلاق، وأنهـم كغيرهم مـن الشـرقيين لهم مفاهيمهم الخاصة في الأخلاق، وأنهم سـيظلّون يتبعون عاداتهم التقليدية القديمة في الاستغناء عن بناتهم مقابل المكسب الأكبر.

* * *

بعد أن كنا مستمتعين جداً في اطّلاعنا على المخيم الچركــي، أجبرنا الليل المقترب على الاستئذان من مرشدينا الاثنين، وقد عبّر الاثنان عن أسفهما الشديد لذلك، وخاصةً

الزعيم الجركسي الكبير الذي عرض علينا أن يستضيفنا في خيمته الخاصة، ولضمان قبولنا لعرضه أخبرنا العجوز الماكر بأنَّ الألماظ (Almas) الجميلات - راقصات من الإناث - سيؤدينَ رقصة جميلة في الماء.

على الرغم من أن الطعم قد رمي جيداً فإنه لم يُصِب، فمع أننا شعرنا بالأسف لتخييب ظن الرجل العجوز - الذي كان أحد أقارب شامل[1] Schamyl الشهير، إنه «عبد القادر» بالنسبة للچركس، مصدر الرُّعب لدى الجيش الروسي - إلاَّ أننا لم نستطع قبول ذلك؛ حيث كان الوقت قريباً من الغروب وكنا قد تغيّبنا عن مخيمنا لوقتٍ طويلٍ، وأيضاً كنا على معرفة بالألماظ (Almas) العربية والكردية، والتي ليست سوى سلسلة متالية من الرقصات البطيئة تُنفَّذ مع موسيقى مملة ونعيسة من قبل واحدة أو اثنين من الفتيات اللاتي يلبسن ثياباً غريبة، وبينما هنّ يرقصن تباهي إحداهما الأخرى بتأدية أكثر الإيماءات والوقفات شهوانيةً على الإطلاق.

إنّه عرضٌ أساسيّ لإفساد الأخلاق والآداب، ويفترض أنَّ الرقصة الچركسية ستكون من نفس الطراز، لذلك رفضنا هذه الدعوة باحترام وقطعنا النهر ثانية ووصلنا إلى مخيمنا تماماً قبل الغروب، وكنا متعبين إلى أبعد الحدود وجائعين وعطشانين، وهي مشاكل سرعان ما تداركناها على طاولة مخيمنا التي كانت بكل معنى الكلمة تتأوّه من وزن الأطباق المغرية.

بعد حلول الظلام مباشرةً غرق مخيّمنا في صمتٍ مطبق يتخلله بين الحين والآخر صرخات الحرّاس الأتراك الذين تلقّوا أوامر من الضابط المسؤول عنهم بالبقاء معنا طوال الليل.

بدا الجانب الآخر من النهر أكثر نبضاً بالحياة؛ إذ حتى منتصف الليل بقي يتردّد من اتجاهات مختلفة صدى الصوت البعيد للّحن الشرقي المضجر وغير الموسيقي، وكان

---

(1) الإمام الشيخ شامل الدّاغستاني (1797-1871) قائد سياسي وديني في شمال القوقاز، قاد المقاومة ضدّ الرّوس خلال حروب القوقاز، وتحكى عنه قصص بطولات باهرة، فلُقِّب بأسد القفقاس وصقر الجبال.

بإمكاننا رؤية الأضواء والمشاعل تتحرك بشكلٍ غريبٍ في أنحاء المخيم الچركسي، وتوهّجت عدة نيران مخيمات في كل الاتجاهات. كان هواء الليل رطباً وشديد البرودة جعل استخدام البطانيات الصوفية ضرورياً، وكان الجوّ مغطىً بضباب كثيف حتى لم نعد نرَى قمراً أو نجوماً. ومع اقتراب انبلاج الفجر اختفى الضباب وأذنت مسحة زرقاء داكنة في السماء بقدوم يوم حارٍ جداً.

* * *

بعد شروق الشمس بساعة واحدة كنا على طريق رحلتنا ثانيةً، نتموّج في مسيرنا نزولاً إلى الوادي العميق الضيّق على طول أطراف مخيم الچركس الذي كان لا يزال غارقاً في هدوء مستتبّ، لكنه محروسٌ بحذر من قبل كلاب الرعاة المتوحشة خشنة الوبر. عندما كنّا ننتشر على شكل مجموعاتٍ على طول الوادي شاهدنا عدداً من الخيول، أو الأحصنة القزمة إذا صحّ القول - فقد كانوا أصغر بكثير من خيولنا - والثيران والبقر والأغنام والماعز، جميعها ذوات شعر خشن وشكلٍ بائسٍ مهزول، وبدا جلياً أن سبب ذلك هو التغير الجديد في المناخ والمرعى، وكذلك مسيرها الطويل، وكان من المحزن رؤية تحديقهم الكئيب نحونا عندما مررنا بهم.

بعد تتبّع مسار النهر الصغير لمدة ساعتين تقريباً، انعطف بشكلٍ مفاجئٍ نحو الشمال الشرقي، فيما امتدّ مسارنا باتجاه شماليٍّ غربي صعوداً ونزولاً على التلال فوق أرضٍ حجرية قاحلة ووعرة جداً، ومن الواضح أنها غير مأهولة إلاّ من قبل أعداد هائلة من طيور القطاة التي لطالما جئنا على ذكرها. صوّبنا أنا والشنيور (P) - حيث كنا كعادتنا نسير متقدّمين على قافلتنا - نحوها بحرية تامة، وسرعان ما تم التقاط طيورنا من قبل تابعينا المشاة. أجفل الدويّ المرتفع لفرقعة رصاصاتنا سرباً من النسور الكبيرة التي لا بدّ أنها كانت تحوم حول جيفةٍ ما لم تكن مرئية حتى الآن بالنسبة لنا، ولكنها تقع على أو بالقرب من مسارنا. على مسافةٍ قريبةٍ منا ارتفعت النسور عن الأرض على شكل دائرة لولبية واسعة وراحت تحلّق أعلى فأعلى فوق رؤوسنا؛ حتى إننا سمعنا بوضوح الضجة الناجمة التي سببتها الرفرفة البطيئة واللامبالية لأجنحتها القوية، قبل أن نتمكّن من رؤيتها.

كنا نتقدّم ببطءٍ إلى الأمام، ولكن كلّما اقتربنا أكثر من النقطة التي ارتفعت منها ازدادت الرائحة المغثية التي نفذت في الجو، وقد شوهد أثرها الكريه في الصهيل والعطاس الناجم عن خيولنا. بعد تقدّم يقدّر بحوالي مئة ياردة وصلنا إلى مصدر الرائحة الوبائية، هناك، على جانب الطريق مباشرةً، في مجرىً مائيٍّ أو جدولٍ صغيرٍ تمّددت الجيف المتفسّخة لأربعين ثوراً وبقرةً وحصاناً وخروفاً على الأقل، من المؤكد أنها من الحيوانات الجركس التي لم تعد قادرة على التقدّم أكثر جرّاء التعب الشديد، أو أنها ماتت من العطش أو من وباءٍ ما، فتم اقتيادها أو الاحتمال الأرجح أنها رميت في الجدول لكي تموت هناك.

فوق كل صخرة أو شجرة ضخمة في الجدول حطت مئات النسور الضخمة المتخمة تماماً بالجيف حتى غدت غير قادرة على الطيران بكل معنى الكلمة، وعاجزة لدرجة أنَّ اثنين من رجالنا ضربوا العديد منها بالحجارة وبعصيِّهم. أسرعنا في المسير مشمئزين من هذه الصورة البشعة، ولكننا لطالما مررنا بمناظر مشابهة أثناء مسيرنا في الساعتين التاليتين، وفي أحد المشاهد رأينا اثنين من الضباع ومجموعة من بنات آوى تولم على الجيف في وضح النهار، ولم تلحظ مرورنا حتى أطلقنا رصاصةً نحوها، عندها لجأت إلى أرجلها وبهممٍ عاليةٍ سرعان ما اختفت وراء الهضبة.

في حوالي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر تقريباً شاهدنا قريةً محصّنة تقع على قمة تلّةٍ مخروطيةٍ شاهقة مجرّدة تماماً من كل ما هو أخضر. ومع أنها بدت غير بعيدةٍ عنّا فقد استغرقنا ساعتين تقريباً في الوصول إليها. عندما وصلنا في النهاية إلى سفح التلة، رأينا أنه من الصائب إعطاء خيولنا ورجالنا بضع ساعاتٍ من الراحة، لأنَّ كلاً منهم بدا عليه أنه يعاني من وطأة الحر الشديد. لدى التفحّص والدراسة ظهر أنَّ أطراف التلة التي تقع فوقها القرية شديدة الانحدار، وفكرنا أنه من شبه المستحيل بالنسبة لمواشي الحمل المثقلة بالمتاع والمنهكة كما كانت حالتها بسبب حرارة الشمس الحارقة، أن تتسلق التلة إلى القرية، إلى جانب ذلك كان هناك أيكة ظليلة رائعة على ضفاف الجديّل الذي يروي الحدائق الموجودة عند أسفل التلة، لذلك فضّلنا البقاء عند السفح.

لم يمض وقت طويل حتى اكتشفنا أننا تصرفنا بحكمة في هذا الشأن؛ إذ بعد وصولنا بقليل فقط شاهدنا طابوراً طويلاً من النساء من مختلف الأعمار يخرجن من إحدى البوابات الموحشة للحصن القديم المرتفع - فهكذا حقيقةً كان يبدو مظهر ذلك العش الكئيب - ويهبطن بتأنٍ الممرّ الضيق المنحدر ويذهبن إلى النهر ليملأن جرارهنَّ الفخّارية، وقد علمنا منهنّ أنَّ كلَّ نقطة ماءٍ تستهلك في تلك القرية التي يدعونها خانيّة Khanieh، يجب أن تؤخذ إلى الأعلى من النهر، بسبب نفاد مياه الأمطار من أحواض الحصن القديمة والمتداعية، وذلك يعزى إلى التسرّب والقحط الطويل. ياله من مكان بهيجٍ للعيش فيه! ذلك العش الجبلي الكردي دون قطرة ماء واحدة داخل جدرانه المترنحة المبنية من اللبن والتي تبدو وكأنها تنتظر حجّةً مناسبة ما لتنهار وتسقط نحو الأسفل إلى الوادي، وتحطّم الضيعة الصغيرة البائسة المؤلفة من بيوت مبنية من الطين المجفف بالشمس والتي كنّا نخيّم بجوارها.

أثناء فترة المساء تمشّيت نحو الضيعة برفقة السّنيور (P) لشراء بعض الفاكهة - إذا كان ذلك ممكناً - لمائدتنا، فنجحنا في إحضار القاوون (الشمّام) والبطيخ الأحمر اللذيذين. عرض علينا الرجل الذي باعنا الفاكهة أن يبيعنا عدداً من حمار الوحش والنعام كان يحتفظ بها في زريبة واسعة مسوّرة بجدارٍ منخفضٍ من اللبن المجفف بالشمس. أخبرنا أن هذه الحيوانات لأخيه التاجر الذي كان حينها غائباً في رحلة تجارية بين بدو قبيلة العَنِزة عند حدود الفرات، وكان قد أحضرها من البدو وأرسلها إلى هنا عن طريق قافلة متجهة إلى ديار بكر، كانت الحمير وكذلك النّعامات جميعها صغيرة ولكنها شبه مكتملة النمو وكانت على نحوٍ ملحوظ تنتمي إلى سلالات جيدة جداً.

إن الحظّ الجيد لا يحالف جميع الناس في مصادفة «حمار وحش الصّحراء» لذلك أعتقد أن هذه الحمير التي رأيتها جديرة بالوصف. كانت الحمير بلون ولد الظبي الفاتح، وتقريباً بيضاء عند القوائم وفي الجزء الأسفل من الجسد. لها عُرفٌ صوفي قصير ذو لونٍ أسود فاحم وخط من الشعر الكث على طول العمود الفقري بكامله

من الرأس حتى الذيل، وشريط من الشعر الأسود على شكل هلال فوق الكاهل. فيما يخص شكل الجسم كانت تشبه الحمير البلدية الأليفة عدا عن كون أعضائها أكثر تناسقاً. كانت قوائمها أطول بكثير، أما الجسد والرأس والعنق وخاصة الأذنين فلم تكن لحميّة وثقيلة كتلك الموجودة عند السلالة الداجنة، وبذلك تعطي هذه الصفات مجتمعة للحيوان مظهراً أجمل، بالإضافة إلى نشاطها وحيويتها الكبيرين اللذين ليس لهما نهاية ومشيتها البارزة تجعل الفرق بين حيوان السلالتين ملفتاً جداً للنظر كالفرق بين جواد سباقٍ مفعم بالنشاط والحيوية وحصان جر العربات المعروف.

يعتبر الموطن الأصلي لحمار الوحش السهول الفسيحة والمجدبة، والمناطق الجبلية في آسيا وخاصة في بلاد التّتار Tartary وفارس وبلاد الرافدين، حيث تتجول حمير الوحش على شكل قطعان. يصل عدد الحيوانات في القطيع من عشرة إلى مئة حيوان، ويقود الأقوى والأكثر نشاطاً بينها بقية القطيع. إنه حيوان يقظٌ وسريعٌ جداً، وشديد التحمل، وبالتالي من الصعب جداً الإمساك به أو مطاردته حتى من قبل أمهر خيول الصيد.

يُعدّ لحمه طعاماً شهياً من قبل سكان المناطق التي يكثر فيها هذا الحيوان، ويتلذذون جداً في اصطياده. لقد وصفه زينوفون الأثيني Xenophon القائد والمؤرّخ اليوناني الشهير، حوالي سنة 400 ق. م. في كتابه (Anabasis) «الرّحلة إلى أعلى الأرض» بأنه أسرع من الحصان وأنَّ لحمه يشبه لحم الغزال الأحمر ولكنه أكثر طراوة. كانت بضعة الحمير التي عُرضت علينا في هذه القرية قد أُمسك بها وهي صغيرة جداً، فقد بدا علينا أنها أليفة جداً ومروّضة. ومع ذلك عندما حاولنا لمسها فقط بدأت بالرفس والعض نحونا بغضب، فما كان منّا إلاّ أن تراجعنا وانسحبنا سريعاً.

يعدّ الحمار الوحشي غير ملائم أبداً للترويض حتى مهما كانت المدّة؛ وذلك بسبب طبعه الضاري والمتوحش، إلى جانب ذلك فهو إمّا لا يستطيع أو لن يعيش طويلاً بعد الإمساك به بغضّ النظر عن العناية الفائقة التي ستُمنح له، ولهذا السبب كان من النادر - إن لم يكن من المستحيل - رؤية حمار وحش حيٍّ في أوروبا أو أميركا.

أما بالنسبة للنعامات التي عُرضت علينا فكان من الواضح أيضاً أنها التُقطت عندما كانت صغيرة جداً؛ إذ إنها كانت أليفة إلى حدٍ كبيرٍ وراحت تأكل من أيدينا، وحتى سمحت لنا أن نلمسها لكي نتفحّص ريشها. على الرغم من أن طول كل هذه النعامات وهي واقفة وصل إلى حوالي ستة أقدام من الأرض حتى أعلى الرأس، فهي كانت أقصر بكثير من تلك التي رأيتها واصطدتها عندما كنت مسافراً عبر المنطقة الداخلية في جنوب أفريقيا بين 1863 و1865، بالمناسبة ذات مرّة نجوت بأعجوبة في محاولةٍ لاصطياد واحدة كنت قد لمحتها في منطقة مهجورة وغير مأهولة خلف نهر أورانج، عندما أثارت شكوكي اللامبالاة الواضحة التي أبدتها ضحيتي المنشودة عند اقترابي منها، ثم أظهرت لي التحريات عن قرب حقيقة مروّعة، لقد كانت النعامة أسيرة، حيث كانت مكبّلة حول رسغيها بحلقتين عاجيتين قويتين مربوطتين بحبلٍ أو سيرٍ سميكٍ مضفور، مصنوع من الجلد غير المدبوغ ولا يكاد يصل طوله إلى قدمين. في تلك اللحظة تفاجأت برؤية ثمانية من (الهوتنتوت) العراة المشحَّمين مسلحين بعصيٍّ حديدية الرأس وأقواس وسهام مسمومة يحفرون في الأرض على مسافة عشرين ياردة من النعامة.

بما أنَّ أحداً من أتباعي لم يكن قريباً مني ليعمل كمترجم، انسحبت دون أن أضطر إلى تبرير تطفّلي هذا فأبدو غبيّاً بعض الشيء. ومع ذلك كنت قد أخرجت نفسي من المأزق بطريقةٍ أفضل مما فعل ملازم شاب من الجيش البريطاني ينتمي إلى فوجٍ عسكريٍ مرابط في مكانٍ ما من الهند الجنوبية. كصيّاد متمرس، كان يخرج للصيد كلّما استطاع الفرار من مأموريته، وذات يوم وبينما كان يتمشى بحذرٍ في الأدغال أجفله صوت تحطّم قوي للأغصان داخل أجمة قرب المكان الذي يتجول فيه، تسلّل خلسةً إلى المكان فتفاجأ بمواجهة الجسم الضخم لفيلٍ منهمكٍ في أكل أوراق الشجر.

كان الملازم متلهفاً لإضافة صيد عملاق الغابات إلى قائمة انتصاراته، فأطلق النار نحوه، وحصل الانهيار! سقط الفيل! ويالّلسعادة العارمة التي غمرت نمرود الصغير! ولكن في صراعه مع الموت راح الحيوان المسكين يرفس بعنفٍ، وبفعله ذلك خشخش

وجلجل بقوة سلسلة حديدية ثقيلة مربوطة حول إحدى قوائمه، ويمكنكم تخيّل الهلع الفظيع الذي أصاب بطلنا، فتقريباً في الوقت نفسه ظهر إلى المشهد اثنان من سائقي الفيلة الهنود، يصرخان ويومئان ويمزّقان لفاعيهما مِزقاً في نوبة من الحزن والألم. وسأوافيكم بالبقية بسرعة؛ عاد بطلنا إلى مخيّمه بنظراتٍ كئيبة وخطوات واسعة، ولكنه كان طوال الطريق محرَجاً عليه من قبل حشدٍ عنيفٍ ثائرٍ من السكان الذين راحوا يومئون وينوحون. لقد حُكِمَ عليه بدفع قيمة الأضرار لصاحب الفيل الذي قدَّر المبلغ بأربعة آلاف روبيّة (ألفي دولار ذهبي) ولكن بما أنَّ الحيوان المنحور كان يساوي في الحقيقة نصف المبلغ المذكور فقط، فقد أصدر القاضي حكم التظلّم وقرر المبلغ بألفي روبية فقط لا غير.

والآن أرجو من قرّائي أن يعذروني على هذا «الفاصل المسرحي»، وأواصل مسيرتي النثرية.

بما أنَّ النعامة مخلوق أكثر شهرة بكثير من حمار الوحش فهي ليست بحاجة للوصف، وكما هو متوقّع دائماً، رفضنا بالتأكيد شراء أيّ منهما على الرغم من أنهما عُرضا علينا مقابل مبلغ زهيد جداً، فقد كان لدينا ما يكفينا من المتاعب في إيصال قافلتنا بأمان إلى شواطئ المتوسط دون الإضافة غير الضرورية لمعرض وحوشٍ مرتجل.

كنا محظوظين جداً أنَّ أحداً من جماعة (سِرْ إلى الأمام) فون مالتيتس Von Maltitz وغيرهم من المستوطنين المغامرين (الأفارقة الهولنديين) لم يكن يرافق قافلتنا، لأنهم كانوا سيصّرون على أخذ النعامات معنا على الأقل، ذلك أنها ليست فقط معرفة عامة، وإنما هي حقيقة مؤكدة أن البوي - مستوطنون هولنديون أفارقة مولودون في جنوب إفريقيا - أكّدوا أن تربية النعام في جنوب إفريقيا أكثر ربحاً بكثير من تربية الأغنام؛ وذلك بسبب الطلب المتزايد والمستمرّ على ريش النعام، وبما أنَّ النعام طائر شديد القدرة على الاحتمال بطبيعته - إذ يترعرع في مناطق يموت فيها من الجوع أيّ كائن حي آخر تقريباً، ولا يتطلب الكثير من العناية وله فوائد أكثر بكثير من

الأغنـام - فقد حـوّل العديد من مزارعي الأغنام اهتمامهم نحو تربية النعام، وهم أيضـاً يقايضون أغنامهم مع (الهوتنتوت) بصغار النعام، وكذلك مع غيرها من قبائل المنطقة الداخلية في جنوب إفريقيا الذين يمسكون بالنعام في السّهول، أو يحصلون على بيض النعام ويحضنونه إما بواسطة النعام المدجّن أو بطرق صناعية.

إن مبتدعي فكرة تربية النعام هم السادة فون مالتيتس Von Maltitz إخوان من هوبتاون Hopetown في مستوطنة الكايب Cape، الذين كانوا يملكون ويحضنون أعداداً كبيرة من هذه الطيور التي وضعوها داخل زريبة واسعة جداً تمتدّ مئات الفدّانات ومسوّرة بسياجٍ أو سورٍ مرتفع. يعطي الذكر من هذه الطيور الريش الأكثر قيمة على الإطلاق، ولكنّ الطيور الإناث تعوّض نقصها في الريش بإنتاج البيض الذي يباع بأكمله بسهولة تامة أو يُحضن على الفور.

عندما عدنا إلى المخيّم بعد أن اطّلعنا على الحيوانات الموصوفة في الأعلى كان الوقت متأخراً جداً لمواصلة رحلتنا، لذلك قضينا الليلة عند أسفل الحصن الشاعري القديم، وتابعنا مسيرنا في الصباح التالي مع شروق الشمس.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

حول ديار بكر

قريـة الحَمَـام ـ "Laird" المسـكين ـ قلعة حصن كيفا ـ عظمة ديار بكر ـ القنصل الفرنسي ـ دخول القلعة ـ الخان ـ إغلاق البوابات في الليل ـ مقرّ القنصلية ـ التسلية في المساء ـ ديار بكر مع ضوء القمر ـ إعلان اقتراب النهار ـ السوق الشرقي ـ المجنون.

كانت طريقنا تسير على طول حافة سلسلةٍ طويلة من التلال الحصوية قليلة الارتفاع، إلى أن رأينا فجأة قرية صغيرة مؤلفة من حوالي عشرين بيتاً مبنياً على ضفة نهرٍ صغيرٍ بالقرب من النبع الذي خيّمنا عنده الليلة المنصرمة. يروي هذا النهر السفح الغربي لسلسلة التلال التي كنا نسافر فوقها، ومن ذلك المكان ينعطف يساره باتجاه شمال شرقي ليلتقي بنهر دجلة.

استطعنا من موقعنا المرتفع هذا رؤية سطوح البيوت تحتنا مباشرةً، وقد بدت لنا كبيرةً على غير العادة مقارنةً مع الأبنية البائسة التي كنا نراها في كل مكان خارج المدن الرئيسية. لم نستغرق وقتاً طويلاً حتى وصلنا إلى القرية التي أثارت فضولنا بشكلٍ كبير، حيث وجدناها مؤلفة من بيوتٍ كبيرة مشيّدة بشكلٍ جيد، ومبنية كلياً بالحجارة، معظمها ذات طابقين وأحياناً ثلاثة طوابق، وكل ما كان ظاهراً يدلّ على أنها مبنية على الطراز العجمي.

بغضّ النظر عن كون هذه البيوت لا تزال ملاذاً ممتازاً، فإن القرية بأسرها بدت مهجورة من الإنسان والحيوان على حدٍّ سواء؛ إذ لم نتمكن من رؤية كائنٍ بشريٍّ

واحدٍ أثناء مسيرنا عبر هذا المكان الغريب، مع أنَّ قافلتنا كانت تدلّ على وجودها كما يجب في كل مكان بواسطة الجلجلة المرتفعة الناجمة عن الأجراس العديدة المعلقة بعُنُق كلّ بغلٍ و«كديش» وحصان حملٍ في قافلتنا، وكذلك بواسطة الصهيل المستمرّ الصادر عن خيولنا، والثرثرة الصاخبة لرجالنا.

حتى ذلك الحين، كنا كلّما مررنا من ضيعة أو قريةٍ أو بلدة، نجذب حشوداً من المتفرّجين الفضوليين، ولكن في هذا المكان المنعزل لم يكن الأمر كذلك؛ إذ لم يتحرك أيّ كائن حي هناك باستثناء آلاف الآلاف من الحمام الداجن بمختلف أنواع وألوان الريش ابتداءً من الأبيض الثلجي حتى الأسود اللامع، وقد اجتمعت على شكل مجموعات على كلّ سقف وركن وزاوية خارج وداخل هذه الأبنية. أحدث صوت الهديل المرتفع الناجم عن الأعداد الهائلة من تلك الحناجر الصغيرة ضجّة غريبة ملعلعة، دوّت بشكل عجيب ورتيب في أرجاء الأروقة الفسيحة داخل تلك الأبنية المهجورة، وبالطبع دوّت في المحيط العام بأكمله فبدت كأنها معلقة فوق ذلك المكان الغامض.

أبدى رجالنا العرب الذين يؤمنون بالخرافات كغيرهم من الناس غير المثقفين قلقاً واضحاً على وجوههم أثناء مرورنا ضمن هذه القرية المهجورة؛ حيث توقفت محادثاتهم الصاخبة بشكلٍ مفاجئ، ولم يتخلل صمتهم المؤقت سوى بعض التمتمات المتقطّعة أو الهمسات المنخفضة، كلاّ ليس ذلك فحسب؛ إنما عجّلوا في الواقع من تقدّمهم ونادراً ماكانوا يجرؤون على النظر حواليهم.

كنت لا شعورياً - وقد أقول بحماقة - جعلتهم يشعرون بجزع فظيع كان سيسفر عن التراجع والقيام بفرار جماعي من جهة هؤلاء الماكين، فمن أجل أنّ أتحقق جيداً ما إذا كان أي كائنٍ بشريٍّ قد تحرّك في هذا المكان الموحش حيث كنا قد وصلنا إلى وسط القرية تقريباً قرّرت أن أطلق عياراً نارياً.

جهّزت بندقيتي دون أن يراني أحد، وأطلقت في الهواء بشكلٍ مستهتر، ولو أنَّ صاعقةً ضربت المنطقة حينها لم تكن لتحدث اهتياجاً أكبر من ذلك؛ فقبل أن يتردّد

صدى الدوي العالي لرصاصة بندقيتي من بين الصخور المصطفة على الجانب المقابل للنهر الذي يجري خلف القرية طارت فوق رؤوسنا في الهواء سحابة كبيرة من الحمامات، في حين راحت أرتالٌ منها مصحوبة بالخفافيش الصغيرة والكبيرة تتدفّق بشكلٍ هائجٍ من كلّ فتحةٍ موجودة في الأبنية المهجورة، فبدت كأعمدة الدخان المتصاعد من بناءٍ يحترق.. ولكن إن كانت رصاصتي قد أحدثت اهتياجاً بين الحمامات الهادلة، والخفافيش النعسانة فإنها أحدثت اهتياجاً أكبر بكثير في قافلتنا؛ حيث طُرح راكبو الخيول الخلفية أرضاً، واستدارت البغال المحمّلة بثقل مباشرة إلى الخلف مذعورة وكذلك الرجال وانطلقوا هاربين، ويا للهلع الشديد الذي أصاب مجموعتنا، وخاصةً أنا؛ فعلى الرغم من أني لم أكن أنوي الأذى نهائياً، فقد كدت أنجح في التسبب بحوادث خطيرة برصاصتي التي خرجت في غير أوانها، والتي كان لدوّيها المتردّد ثلاث مرات عبر تلك القرية الموحشة التي تحدّها الصخور أثرٌ رائع في إجفال الجميع بمن فيهم أنا.

أدان السّنيور (P) عملي الطائش بشدة، ولكن لدى علمه بأنني لم أكن أنوي الأذى، انفجر ضاحكاً وأفصح أنه هو نفسه أيضاً أصيب بالهلع الشديد، ثم عبّر عن دهشته أنَّ مظاهرة صاخبة كهذه لم تتسبب في ظهور أيِّ كائن حي ولا حتى كلب باستثناء الحمام والخفافيش. ومذ ذاك الحين أصرَّ رجالنا العرب على أنَّ القرية مسكونة بالجنّ.

لم نكن قد قطعنا بضعة أميالٍ فقط بعد «مدينة الحَمَام» "Pigeonopolis" حينما استوقف قافلتنا حادث خطير وقع لاثنين من رجالنا. في ذاك الحين كانت الغالبية العظمى منهم يعدّون أنفسهم بعيدين عن أيدي الأرواح الشريرة التي تسكن القرية، لذا بدؤوا بمواصلة أحاديثهم، وكانوا يناقشون بحماس السبب المحتمل الذي جعل السكان يهجرون مكاناً جيد البناء كهذا، وفي تلك الأثناء لم ينتبه أحد الساسة (سعيد) الذي كان كالمعتاد يقود الحصان من اللجام، فترك لحصانه لا شعورياً المجال بأن يجعل أنفه على مقربة شديدة من الجزء الخلفي من جسد الحصان الذي يتقدمه مباشرةً. كانت النتيجة الطبيعية لذلك أن أطلق الآخر صيحة حادّة ثم رفس بضراوةٍ

بقوائمه الخلفية، ليصيب سعيداً المسكين في معدته مما بطحه أرضاً على الفور.

أما إسماعيل، وهو سائس آخر وصديق حميم للرجل الجريح، فقد انحنى ليرفع صديقه غافلاً عن سلامته الشخصية نطُرِح أرضاً هو الآخر برفسةٍ وحشيةٍ على كتفه. لو كان الحصان متعلاً على الطريقة الأوروبية أو الأميركية لتسبب بالتأكيد في إصابة الرجلين بجراحٍ خطيرة إن لم تكن مميتة، ولكن بما أنه منتعلٌ بالحدوات العربية الرقيقة والخفيفة لم تكُن الأضرار خطيرة جداً، مع أن سعيداً استغرق بعض الوقت لاستعادة أنفاسه، وسبّب كتف الرجل الآخر لصاحبه معاناةً فائقة جعلته غير قادرٍ على المشي بعد ذلك، وكان عليه أن يبقى فوق السّرج.

كان سعيد أيضاً يعاني من ألم شديدٍ جعله عاجزاً، لذا وُضع هو الآخر على ظهر الحصان. أمر السّنيور (P) بإنسانيةٍ مطلقة أن تسير القافلة ببطءٍ شديد لتجنب أية معاناة غير ضرورية قد يتعرض لها الجريحان، وقرّر أن نخيم أثناء النهار في أقرب مكان نستطيع فيه الحصول على الماء.

سرعان ما وصلنا إلى رافدٍ آخر من روافد نهر دجلة حيث توقفنا هناك وخيّمنا بالقرب من بضعة مساكنٍ بنيت قرب النقطة التي قطعنا فيها الجدول. في ذلك المكان تمت معالجة مريضينا كما ينبغي بالطريقة العربية الأصولية، وذلك بسكب الكثير من الماء البارد فوق الكدمات، وقبل حلول الظلام استعادا عافيتيهما لدرجةٍ مكنتهما من المشاركة في ثرثرة الرجال العرب الأزلية عندما كانوا يجتمعون حول نيران المخيم.

وبالطبع كما هو متوقّع؛ كان الموضوع الرئيسي لحديثهم تلك الليلة يدور حول أحداث اليوم، وبعد أن علموا من سكان البيوت التي خيمنا بقربها أنّ القرية المهجورة كانت مسكونة بالجنّ بالفعل، رأى جميعهم بالتأكيد أن سبب الحادث هو تأثير الأرواح الشريرة التي كانوا مقتنعين بأنها غضبت وانزعجت من رصاصتي الطائشة التي لا مبرّر لها.

حسبما أشارت إليه خريطتنا، كنا نبعد رحلة يومٍ قصيرٍ فقط عن ديار بكر، وكوننا

راغبين في الوصول إلى هناك باكراً ليكون لدينا متّسع من الوقت لإيجاد المأوى الجيد حيث كنا ننوي أن نبقي قافلتنا لبضعة أيام في تلك المدينة رتّبنا للانطلاق باكراً في الصباح التالي. مع انبلاج الفجر، كان كلّ فردٍ في المخيم مستيقظاً يستعد من أجل السفر. كان نسيم الصباح الباكر بارداً جداً بسبب الضباب الكثيف، مما جعل سائسي الخيول العرب الهزيليين الذين لم يعتادوا على جوٍّ منعشٍ كهذا، يرتجفون برداً حتى مخّ عظامهم.

لم نكن قد ابتعدنا كثيراً عندما تلاشى الضباب الندي ليصبح رذاذاً استمرّ حتى الشروق، عندها أصبح الجوّ رقيقاً مرّةً أخرى، وكشف لأنظارنا الوادي الأخضر الجميل لنهر دجلة الأعلى. من القمم الجبلية المغطاة بالثلوج حيث يكمن منبع هذا النهر العظيم، حتى الصخور قائمة الانحدار التي تنتصب فوق قمتها الشبه متعذرة البلوغ قلعة حصن كيفا «Hussein Keif» الفاتنة أو (Hesn Keifa) أي (سرور الحسين) [1]، سيئة السمعة بسبب سكانها اللصوص، تبرز من النهر الصخرة العملاقة التي تقف فوقها القلعة، بشكلٍ مفاجئٍ وعظمةٍ مخيفة، وبارتفاع من النهر يقارب ثمانمئة قدم، وتبدو كأنها تهدّد المسافرين عبر النهر بالسقوط فوقهم ومَحْقِهم كلّياً.

وعلى مسافة عشرة أميال تقريباً، محتجبةً جزئياً عن أنظارنا بهضبةٍ بارزة مغطاة بالأشجار والشجيرات الوارفة، ارتفعت الجدران البازلتية الرمادية الداكنة المهيبة ولكن كئيبة المظهر لمدينة وحصن ديار بكر المنتصب بشرفاته المفرَّجة - أبراج مراقبة مزودة بفتحات للرّمي - والمآذن الشامخة والرفيعة للجوامع بأسطحها المتألقة واللامعة. وبدلاً من أن نتبع مسار الضفة اليمنى الوعرة لنهر دجلة، قطعنا النهر من نقطةٍ كانت فيها المياه ضحلةً جداً، وتقدمنا نحو ديار بكر على طول الضفة اليسرى حيث

(1) هذا اشتقاق مضحك حاول لوكر القيام به، فاسم المكان: حصن كيفا، لا علاقة له لا بالحُسين (رضي الله عنه) ولا بالكيف من قريب ولا من بعيد. بل الاسم يعود إلى أيام الفتح العربي لها عام 640 م من أيدي الرّوم البيزنطيين وبنوا جسرها على دجلة، فسمّوها كذلك نسبة إلى اسمها اليوناني القديم كيفاس. وهي اليوم تقع في محافظة باتمان جنوب شرقي تركية على نهر دجلة، وتعرف بالتركية باسم: Hasankeyf.

أصبحت الطريق أكثر سلاسة.

عندما أدركت أنَّ ضفاف النهر الحصوية كانت تعجّ بالبط البرّي والإوز وغيرها من الطيور المائية، قرّرت أن أبقى قريباً جداً من النهر في حين سارت القافلة على المسار النظامي. لدى وصولي إلى جسر القرانيت المرتفع الذي يقطع نهر دجلة على مسافة ميلٍ واحدٍ تقريباً جنوب المدينة كنت قد اصطدت ست عشرة بطة وإوزة من أجود الأنواع، وكان بإمكاني اصطياد الكثير أيضاً لو كنت أرغب في ذلك، فقد فاجأتني هذه الطيور حين بدت جاهلة تماماً بآثار البارود والرصاص، والذي عليه توصلت إلى نتيجة تقول بأنّه لا بدَّ لسكان ديار بكر إمّا أن يكونوا كسولين جداً، وأكسل من أن يخرجوا للصيد، أو أنهم لا يحبّون الأذى على الإطلاق.

على الرّغم من أنني كنت أجهل مكان القافلة، فسرعان ما اختفت عن أنظاري بعد أن عبرت النهر، إلاّ أنني وصلت إلى الجسر تماماً في وقت وصولها إليه. كانت طريقاً منحدرة نوعاً ما، تحدّها من الجانب الأيسر الفيلات التي يسكنها المسيو (M) القنصل الفرنسي في ديار بكر، وغيره من علية القوم الذين يعيشون في هذه المكان، ومن الجانب الأيمن، يحدها ما يشبه الحديقة العامة أو البستان، وقد امتدّت هذه الطريق من الجسر حتى المدينة التي ظهرت أمام بوابتها الجنوبية، عند لحظة وصولنا، مقدّمة قافلة طويلة جداً كانت مؤلفة من جمال كرديّة عملاقة ومحمّلة بثقل، وكانت تخرج من البوابة بشكلٍ أضجرنا كثيراً، فقد عرفنا من الحركة البطيئة اللامبالية لتلك الحيوانات الثقيلة أنَّ مرور مئتي حيوانٍ فقط عبر البوابة سيستغرق ساعةً كاملة، حيث كانت البوابة ضيقة جداً ولم نفكر في المغامرة بالدخول إلى الداخل بينما كانت هذه «الوحوش» تسير إلى الخارج، وذلك خشية أن تسحق خيولنا القيّمة ومعها نحن أنفسنا. عبثاً تمنّينا أن تكون القافلة أقل عدداً مما بدت عليه، لذا انتظرنا مدّة نصف ساعة ورحنا بين الحين والآخر نلقي نظرة جانبية على فرقةٍ من الجنود الأتراك بلباسهم الرسمي البالي؛ ينفذون تمريناتهم العسكرية بإشراف بعض الضباط المسنّين ضعيفي البصر ومقوّسي الساقين.

تماماً عندما مللنا كثيراً من الانتظار وكنّا على وشك التقدّم إلى البوابة الشرقية

للحصن، جلب لنا نجم الحظ خاصتنا سيداً أوروبياً مهندماً يعتمر قبعة بنما الجميلة ويمتطي جواداً رائعاً مكسوّاً بدثارٍ مُترفٍ. وعلى يمين ويسار هذا الفارس كان يمشي أو يهرول إذا صح القول حارسان بالزّي الرسمي، وكانا مدجّجين بالسلاح. ثبت أنَّ هذا السيد هو القنصل الفرنسي الذي كان في طريقه إلى مكتبه في المدينة، وبما أنه علم عن طريق بريدٍ أرسله القنصل الفرنسي في بغداد بأن هناك قافلة في طريقها إلى ديار بكر تنقل خيولاً عربية أصيلة رائعة لجلالة إمبراطور فرنسا، فقد قدَّم نفسه لنا على الفور بصفته الرسمية، واستلم رسائل التقديم الخاصة بنا، ثم بعد ذلك سار نحو الضباط الأتراك - وقد قدّم الجنود أسلحتهم لدى اقترابه - وطلب بأدب من الضابط المسؤول أن يُخلي البوابة، إلاَّ أنّه لم يكن على الجنود أن يتدبروا ذلك وحدهم، فسرعان ما شرع حرّاس البوابة في العمل بخفةٍ ونشاطٍ لإيقاف خروج الجمال عند رؤيتهم لاقتراب القنصل، مع ذلك لم تكن هذه بالمهمة السهلة حيث إنَّ الجمال كالأغنام تصرّ على اللحاق بقوّادها أينما ذهبوا.

على الرغم من كل الصرخات والإيماءات الصادرة عن البوّابين والجنود، لم يستطع أحد أن يكبح تلك البهائم العنيدة التي هدّدت بسحق خصومها تحت أخفافها الثقيلة وتحويلهم إلى كتل عديمة الشكل، حتى في النهاية اضطروا كمرجع أخير إلى إغلاق البوابة الحديدية، وسيقت الجمال الأمامية إلى جانب الطريق حيث تبعتها الجمال المتبقية، ثمّ فتحت البوابة وقدّم الجنود أسلحتهم ثانيةً للقنصل عندما دخل على رأس قافلتنا، وحيّاه حراس البوابة بسلامٍ عميق.

وهنا وجدنا أنفسنا في ديار بكر نسير كالرتل الهندي في شارع كدرٍ ضيق، فوق أحجار الرصف الزلقة التي تخللتها هنا وهناك حفر عميقة وبِرك طينية صغيرة. بالتدافع والسير المتشابك للجمال مع بعضها والتي كونها تحمل أوزاناً ثقيلة كانت مجبرة إما على الاحتكاك بنا أو بجوانب المنازل، أصبح من الضروري أن يبقى المرء متيقظاً ويُبقي أعينه مفتوحة جيداً لئلاً يصبح مسحوقاً على الأرض. بسبب العوائق الكثيرة التي واجهتنا، من المؤكد أننا استغرقنا أكثر من ساعة لكي نصل إلى بوابة القنصلية

الفرنسية التي كانت عبارة عن مبنى حجري ضخم.

في هذا المكان اجتمع حشدٌ متنوّع من المتفرّجين الذين أخذوا يتفحصوننا بفضولٍ واضح، كان لديهم متسعٌ من الوقت لفعل ذلك؛ إذ كان علينا انتظار وصول التاجر الأرمني العميل التجاري لصهري في بغداد، والذي كنا مضطرين إلى إرسال رجلٍ للبحث عنه في البازار. عند وصوله أبرزنا له أوراق اعتمادنا، وعليه أرسل لإحضار حصانه ثمّ قادنا في أنحاء المدينة بأسرها ومن هناك إلى البوابة الشمالية لخان سيبي Sibby (أو چيبي Chibby)، وهو نزلٌ كبيرٌ حسن البناء يقع على مسافة ميلين تقريباً بعد المدينة، وكان قد استأجره من أجل إقامتنا الخاصة وبتدبُّرٍ جديرٍ بالثناء جعلهم ينظفونه ويجعلونه قابلاً للسكن من قبل الناس المتحضرين. وسرعان ما أوينا إلى مهاجعنا الخاصّة المؤقتة التي جُعلت مريحةً بالقدر الذي سمحت به الظروف. مع أنها كانت أكثر أماكن المنامة راحةً حظينا بها منذ أن غادرنا الموصل، فإنَّ مضيفنا الكريم فكّر أنها لم تكن جيدة كفاية بالنسبة للسّنيور (P) وكاتب هذا الكتاب - كان الأب (M) هو العضو الأوروبي الآخر والوحيد في هذه القافلة، وقد قبل ضيافة كاهن كاثوليكي كان في القنصلية حين وصولنا لذا أصرَّ على أن نقيم في منزله، العرض الذي رفضه السّنيور (P) مع الشكر الجزيل متذرّعاً بواجبه نحو القافلة كمبّررٍ لرفضه، لكنه اقترح أنه من اللباقة أن أقبل أنا الدعوة، ذلك أنَّ وجودي في الخان كان أقل أهمية من وجوده هو.

امتثالاً لرغبة صديقي الموقّر، وثبتُ فوق السّرج وعدت مع الأرمني إلى البلدة لقضاء الليلة في بيته. كان علينا أن نجعل خيولنا تخبّ بسرعةٍ كبيرة لكي نصل إلى المدينة قبل الغروب، حيث يغلقون البوابات في ذاك الوقت من أجل الليل.

لم يكن لدينا دقيقة واحدة نضيّعها؛ فرحنا نعدو بخيولنا بسرعة باتجاه البوابة حتى وصلنا تماماً في وقت إيصادها. مع وقت إغلاق البّوابات تقريباً تردّد بقداسة في الهواء صدى اللازمة الكئيبة لجميع المؤذنين في ديار بكر. وبدأ النشاط الصاخب في الشوارع بالتناقص تدريجياً، وخاصةً في البازارات المختلفة حيث كان أصحاب

الدكاكين منهمكين في إحكام إقفال النوافذ والأبواب بقضبانٍ حديدية ومغاليق ضخمة من الطراز القديم جداً. بين هنا وهناك كنت ترى (سقّا) وحيداً - حمّال الماء - أو عتّالاً مفتول الساعد حافي القدمين بالكاد يرتدي ثياباً وهو متعبٌ حتى الموت نتيجة العمل الشاق والحرمان، يترنّح بإرهاق نحو كوخه ويعدُّ في الضوء المتلاشي بسرعة قِطعه النقدية القليلة بشوقٍ وحماسٍ، إنها المال المجني بشقاء من حرفته الخطرة، ثم شغله التفكير بامرأتين مسلمتين وجدهما متحجبتين ومتسترتين جيداً يسبقهما خصيّ زنجي يحمل فانوساً، كانتا ملفوفتين بحذر من الرأس حتى القدمين بالثيات الكبيرة المتفخة لأغطيتهن الحريرية الداكنة الألوان، ترتديان في أقدامهما جزماتٍ جلدية صفراء عريضة لها مقدمات معقوفة وجزءاً علوياً مزوّداً بشرّابات مبهرجة ويصل إلى الركبة تقريباً. من الممكن مقارنة مشية هاتين المرأتين بمشية البطّات المتهادية المتجهة إلى الماء.

لقد كانت هذه المشاهد مألوفة جداً بالنسبة لنا أكثر من أن تجذب انتباهنا إلى أيّ درجة كانت، لذا بقيت أتبع مضيفي عبر متاهةٍ من الشوارع الوعرة الضيّقة والمعذّبة إلى أن وصلنا في النهاية إلى مسكنه.

كان المسكن عبارة عن عمارةٍ كبيرةٍ ضخمة من البازلت الداكن وهو نوع من الحجر الصلب خشن الحُبيبات يستخدم كثيراً في تشييد الأبنية الرئيسية في تلك المنطقة، ويعطي بلونه المعتم لمدينة ديار بكر مظهراً كئيباً جداً ومنفّراً. كان مسكن مضيفي كالقنصلية الفرنسية مبنياً بشكلٍ متشدّد على طريقة الأمم الشرقية؛ أي نادراً ما يوجد فيه نافذة مفتوحة على الطريق ويبدا ككومة كبيرة من البناء هدفها أن تبقى إلى الأبد.

على الرغم من أنَّ مساكن بلاد الرافدين هذه تغطي مساحة واسعة فوق الأرض، فإنَّ أماكن إقامة البشر في داخلها محدودة جداً، وسبب ذلك أنَّ الجزء الأكبر من المساحة مشغولٌ بالفناء، أمّا المساكن الفعلية في المنزل فهي عبارة عن شرفتين أو ردهتين تُجاه الفناء إحداهما فوق الأخرى، وحجرة أو اثنتين في نهاية كلّ من الشرفتين، وسطح مستوٍ - يستخدم كمتنَزَّه ومكان للمنامة - و«سرداب» "serdap" أو قبو عميق مقنطر

يستخدم كمكان يلجأ إليه سكان المنزل في الساعات الأكثر حرّاً من النهار. ولا توجد هذه الغرفة المذكورة آخراً بكثرة في مساكن ديار بكر.

بعد الطرقة الغريبة التي طرقها مضيفي على الباب الثقيل، سُحِبَ القفل الكبير وظهر الوجه الداكن المجعّد لخادم مسنٌّ ولكنه لا يزال قوي البنية، حين رأى سيده فتح الباب على مصراعيه ودخلنا إلى الفناء الواسع المضاء بشكلٍ خافت بفانوس الإصطبل الموضوع على الأرض بالقرب من عددٍ من الخيول التي وقفت بخطٍ مستقيم على طول الجدار عند طرفه الأبعد، بعد ذلك ترجّلنا عن حصانينا واهتم الخادم بالحصانين. لحقت بسيد المنزل صعوداً عبر سلّمين فوجدت نفسي وسط شرفة مكشوفة مقابل الفناء، ودعاني المالك للجلوس على الديوان أو المجلس الممتد حول الجدران، ثم اختفى داخل إحدى الحجرات الجانبية.

في هذه الأثناء دخلت الرُّدهة فتاة زنجية شابة وأشعلت عدداً من القناديل، بعضها تدلّت من السقف بواسطة حبال والبعض الآخر كانت معلقة بالجدران، وقد ازداد ضوؤها بفعل عاكساتٍ معدنية كبيرة فأضاءت الشرفة وكذلك الفناء بأكمله كما تفعل الشمس تقريباً. بعد حينٍ من الزمن أحضر الخدم طاولةً مغطّاةً بمفرشٍ مزخرفٍ بالتطريز العجمي الفاخر ووضعوها وسط الشرفة، حتى أثرى أثرياء الشرق نادراً ما يستخدمون الطاولات، وذلك كونهم اعتادوا على تناول طعامهم جالسين على الأرض، أو متكئين على المساند أو المخدّات ووجوههم إلى الأسفل حول «الصينيّة» أو الإناء الذي يحتوي على طعامهم، والذي يوضع عادةً فوق قطعة من حصيرة عوضاً عن الطاولة.

بعد غيابٍ دام فقط بضع دقائق عاد مضيفي مرتدياً بأناقة زيّاً شرقياً، وطلب منّي بمنتهى اللّطف أن أعذره لأنه تركني وحيداً، وأضاف أن والدته وأخته وزوجته سيحضرن بعد قليلٍ للترحيب بي.

في غضون ذلك جُلِبت القوارير المليئة بالنبيذ والرّاكي "raki" (العَرَق) وقُدِّمت هذه المشروبات بكؤوس كبيرة. لم أكن حينها ميّالاً إلى تذوّقها، ذلك أنّني لم أتذوق الطعام منذ طلوع الشمس وكنت أخشى أن يُسكرني بنبيذ ديار بكر القوي، والعَرَق

الكحولي الأقوى الذي سيدخل إلى معدتي الجائعة، ولكن بما أنّ الشرقيين يعتبرونها إهانةً لهم أن ترفض شراباً أو هديةً من أي نوع كانا، قبلت أن أشرب وأفرغت قدحاً كاملاً من النبيذ.

بعد هنيهةً من الزمن دخلت سيدات المنزل وألقين السلام الأكثر تبجيلاً على الإطلاق، حتى إن إحداهن - زوجة مضيفي - جمعت قدراً كافياً من الشجاعة بداخلها لتقترب منّي وتصافحني. كنّ يرتدين زياً نسائياً أرمنيًّاً بحتاً، فستاناً ضيّقاً له أكمام يزداد عرضها من المرفق نزولاً إلى الأسفل، يصل هذا الفستان من الرقبة إلى أسفل الركبة بحوالي ستة إنشات، وهو مفتوح فتحة عريضة من الحنجرة حتى إلى الخصر ويغطي هذه الفتحة قميصاً من الشفّ المطرّز بغزارة بالحرير الزاهي اللون أو بالخيوط الذهبية، وأحياناً يكون مزّيناً بالكشاكش.

في الزيّ الرسمي يحيط بخصر هذه الفساتين وشاحٌ حريري، ويكمّل هذا اللباس سروال وجوارب وخفّان جلديّان ليس لهما كعب. عادةً يكون شعر الأرمنيات الغزير الأسود اللامع أو البني الداكن مصففاً على شكل جدائل أو ثنيات عريضة تتدلى بين الكتفين، وعند بعض النساء تصل حتى إلى أقدامهن. أما غطاء الرأس فهو عبارة عن قبعة حريرية صغيرة مدوّرة لها قمّة منخفضة جداً تتدلى من وسطها شرّابة حريرية كبيرة. وهناك أيضاً غطاء آخر للرأس عبارة عن وشاح حريريٍّ رقيق، زاهي اللون يُلفّ على طريقة التُربان حول الرأس. يُستخدم غطاء الرأس الأول بشكل شبه حصري من قبل الفتيات الصغيرات، بينما يُلبس الآخر بشكلٍ أكبر من قبل العقيلات والسيدات المسنّات.

يبدو أنّ النساء الأرمنيّات أقلّ اهتماماً من نساء المسلمين بالحليّ والمجوهرات، وذلك كونهنّ عموماً يُقنعن بارتداء كميةٍ قليلةٍ فقط، في حين تجد الأخريات - إن استطعن شراءها - يضعن المجوهرات ليس فقط على جبهاتهنّ وآذانهنّ ورقابهنّ ومعاصمهنّ وأصابعهن، بل أحياناً في أصابع أقدامهن وحتى في أنوفهنّ! تضع الكثيرات منهن وخاصةً نساء مصر والهند، حليّاً من الذهب لها شكل روزيت (وردة

نجميـة) صغيرة أو نجمة - وأحياناً تكون مرصّعـة باللؤلؤ أو الأحجار الكريمة - على الغضروف الخارجي لفتحة المنخر الأيسر، وتثبّت ببرغي يوضع في الاتجاه المعاكس للحلـي. تكـون حلّي الأنـوف هذه في بلاد الرافديـن صغيرةً بعض الشـيء وقلّما يزيد حجمهـا عـن الـدولار الذهبي، أما فـي مصر والهنـد فيكون حجمها وشـكلها كحجم وشكل أقراط الأذنين الكبيرة أو كالقفل الصغير، وتغطي تماماً كامل النصف الأيسر من فم المرأة التي تلبسـها. على الرغم من أنّ الأنف بلا منازع منطقة بارزة جداً ملفتة للنظر لوضع الحلي، فإنّ ارتداء المجوهرات في فتحات الأنوف لا يستهويني نهائياً ولا حتى أيّ شخصٍ متحضّرٍ آخر، ومع ذلك لو خطر ببال مصممة الأزياء السابقة، الإمبراطورة أوجيني Eugenie أن تضع حليّاً كهذه، فإني لأشـّك ما إن كانت معاصراتها سيترددن فـي تقليدها والحذو حذوها تماماً، كما فعلن في الشـنيون المضحك وتنورة القرينول الغريبة.

مـن الواضح أنّ قريبات مضيفي - علـى الأقلّ زوجته - قضين بعض الوقت ضمن مجتمـعٍ متحضّـرٍ أو كان لديهـنّ تهذيب وثقافة أكثـر بقليل من المعتاد عند نسـاء بلاد الرافدينِ الأخريات، حيـث لاحظت فيهن القليل فقط من ذلك الحياء الأخرق والتحفّظ المضجر الخاص جداً بنساء الشرق السـاذجات المكبوتات، بل على العكس تماماً كنّ يُجبن على أسـئلتي بسـرعةٍ وسهولة، وأصبحت سيدة المنزل بشكل خاص ثرثارة جداً وانهالـت عليّ بالأسـئلة عن أحوال صهري السـيد (W) في بغـداد وزوجته - أختي - التـي أقامت فـي هذا المنزل لبضعـة أيام وذلك قبل ثلاث سـنوات أثنـاء رحلتهما من سويسـرا إلى بغداد.

كانـت محدّثتـي المفوّهـة امـرأة غاية فـي الجمـال، وبدا واضحـاً أنها بالـكاد تبلغ العشرين من العمر، موهوبة بذكاءٍ أكبر من المعدّل الموجود عند السيدات الشرقيات، وكما هو حال كل النسـاء اللاتي يعيشـن في بحبوحة في هذه البلاد كانت تميل نوعاً ما إلى البدانة، وكانت أخت زوجها فتاةً حسناء في الخامسـة عشرة من العمر تقريباً ضعيفة الصحة بعض الشيء، أما حماتها فكانت عجوزاً حنونةً سعيدة لها شعر أبيض كالثلج.

فيما يخصّ مضيفي، كان رجلاً في الخامسة والعشرين من عمره ولكنه كحال جميع الشرقيين يبدو أكبر من ذلك بكثير. كان صغير البنية إلى حدٍّ ما ونشيطاً ومتقد الذهن على نحوٍ ملفتٍ للنظر، وكان تاجراً ألمعيّاً. تمّ تقديم عشاء فاخر على الفور، ليكون بذلك مسعفي العظيم؛ ففي هذه الأثناء كنت قد بدأت أشعر بالدوار بتأثير النبيذ الناري الذي ابتلعته، وكنت مدركاً تماماً بأن الترياق الوحيد لذلك هو البدء بالشوكة والسكّين، وبالتالي لم أُبدِ مقاومةً كبيرةً لدعوة صاحب المأدبة في «الجلوس واعتبار نفسي من أهل البيت»، ولكن عندما نظرت من حولي بحثاً عن سيدات المنزل لأسألهنَّ الجلوس أولاً لم أجدهنّ، فلم يكن من المعتاد عند النساء الشرقيات أن يتناولن طعامهنَّ مع الرجال، ولا حتى مع أقرب أقاربهنَّ، إلى جانب ذلك، كانت هناك ملاعق وشوكات وسكاكين على طاولة الطعام، وهي أدوات يستطيع التعامل معها عددٌ قليلٌ جداً من سكان الشرق، لذا لم يتجرّأن على استخدامها في حضور الأوروبيين.

حتى مضيفي كان يرفض الجلوس معي من أجل السبب نفسه - كما أقرَّ في وقتٍ لاحقٍ - ولكن عندما رأى أنني مصمّمٌ على ترك المائدة لتلقى مصيرها، وأنها كانت حالة لا تقبل الجدال وشيءٌ لا مفرَّ منه، عدّل أفكاره وجلس إلى الطاولة وبدأ طعامه بشهية كبيرة. قلما سمحت لي شهيتي النهمة باختلاس النظر إلى حركات فن الطعام التي يؤديها نظيري المقابل، والذي بالمناسبة كان يستخدم ببراعة الأدوات المشار إليها، وبسهولة أكبر مما كنت أتوقّع، مع أنّه على الأرجح لم يلمسها منذ زيارة صهري المذكورة قبل قليل، فبالرغم من أنها الآن موجودة في منازل أثرياء الشرق، فإنهم لا يستخدمونها إلا بحضور الأوروبيين، بعد العشاء قُدِّم لنا فنجان القهوة الذي لا غنى عنه و«الشّطب» (غليون طويل الساق له فمٌ كهرماني مدّورٌ كبير) والنرجيلة، وبعد انقضاء نصف ساعة لاحظ مضيفي كم كنت مرهقاً فسألني إن كنت أفضّل النوم على السطح أو في غرفة أو في قاعة الطعام. اخترت المكان الأخير فقاموا بمدّ فراشٍ لي على الفور، وياله من فراش!

كانت اللحافات والوسائد مغطاة بالحرير الأزرق السماوي وذات طراوةٍ مبهجة.

لم أستطع التوقف عن الابتسام عندما فكّرت بجسدي المغطى بالغبار والملطّخ بالطين، يستقرّ فوق مضجع مناسبٍ لاحتضان جسد سلطان؛ ولكن تمكنت من الهيمنة على كل الاعتراضات وانقضضت على السرير تماماً كما كنت أقف باستثناء قبعتي وجزمتي العسكرية الثقيلة ومهمازَي، وفي أقلّ من خمس دقائق كنت أغطّ في نومٍ عميق.

وعندما فتحت عينيَّ في الصباح رنَّ الصوت المبهج للسّنيور (P) في ذاتي كالمنّبه «Bonjour» صباح الخير، لقد وفى السّنيور (P) بوعده بإخلاص وحضر باكراً علّنا نستطيع القيام بجولةٍ في أرجاء المدينة. كان لدى الأرمنيّ عمل ملح يتطلب حضوره، لذا لم يستطع مرافقتنا ولكنه قال إنه يستطيع ملاقاتنا في البازار حيث كان يملك - كمعظم تجّار المدينة - محلاّت أو مخازن مليئة بالسلع الجافة وبضائع أخرى.

امتطينا خيولنا وبدأنا رحلتنا في الدراسة والاستكشاف. كانت وجهتنا الأولى سوق المؤن حيث أمر السّنيور (P) بعض سائقي البغال بانتظاره مع بهائمهم المخصصة للحمل لكي ينقلوا المؤن التي ينوي شراءها للقافلة. بعد المرور ضمن مكانٍ في المدينة انتشرت فيه المساكن البازلتية الرئيسية الجيدة البناء، وبدا جلياً أنّه أكثر مكان لائق في ديار بكر، اتخذ المشهد من حولنا فجأة صبغةً مختلفة كلياً، فراحت المنازل المحترمة تقلّ شيئاً فشيئاً لنرى عوضاً عنها أبنية خشنة من طابقٍ واحدٍ فقط، مبنيةٍ بشكلٍ سيء من حجر غير مصقول ألصق ببعضه بواسطة خليط من الوبر أو القش القصير، ومظهرها لا يجتذب النظر نهائياً لا من الداخل ولا من الخارج.

في هذا المكان مررنا بزريبة واسعة مفصولة عن الطريق بجدارٍ عالٍ لكنه مترنّح، لها مدخل كبير، وعلى الرغم من أنَّ الأبواب كانت مغلقة دلَّ الانتشار الواسع للرائحة القوية التي انبعثت منها أنّها كانت إصطبلاً مخصصاً للجمال. بمحاذاة هذه الزريبة تقريباً تقع المؤسسة المزدهرة «للقهوجي» (مقدِّم القهوة) وقد اشتقّت من الكلمة العربية (قهوة) - الكلمة الإنكليزية (Coffee) - حيث كان هناك حشدٌ مختلفُ الصفات من الجنود الأتراك والهجانة والبغّالة والزنوج ورجال الظابطية الألبان والتركمان، والحمّالين

الأكراد والفرسان وبائعي الخيول والتجار اليونان والأتراك والفرس والعرب والأرمن واليهود... الخ جميعهم يضيعون وقتهم هناك بأشكالٍ ووضعيات مختلفة، بعضهم ظلّوا صامتين ومسمّرين في أماكنهم كالتماثيل، والبعض الآخر يتحدّثون بصوتٍ عالٍ ويومئون، ولكن بدا جلياً أنّ جميعهم ودون استثناء كانوا يستمتعون بقهوتهم ويدخّنون غلايينهم على الرّغم من الوجود القريب جداً للإصطبلات ذات الرائحة البشعة.

إلى جوار المقهى رأينا صفاً طويلاً من المظلاّت الخشبية الرديئة وقد تشقق فيها المنجور الخشبي وأصبح هشاً بتأثير الأمطار والشمس والقِدَم، وفي الكثير من الأماكن كان منخوراً بفعل دودة الخشب المدمّرة والنمل الأبيض. مع ذلك كانت هذه الأكواخ البشعة تعجّ منذ الصباح الباكر حتى الغروب بأكثر مجتمع كادحٍ وبارعٍ على الإطلاق، حيث كانت المواد الخام من القطن وصوف الأغنام وشعر ماعزِ أنقرةَ والحرير تخضع لجميع العمليات المختلفة اللازمة لتحويلها إلى بضائع ذائعة الصيت في جميع أنحاء المشرق.

هنا رأينا مئات الرجال والنساء والأطفال جميعهم منهمكون في حلج القطن وزأبرة الصوف والشعر، والغزل وتبييض القماش والصباغة وختم القماش والنسيج وهلمّ جراً، وجميع أنواع المعالجة تُنفَّذ بأدواتٍ وآلاتٍ بسيطة جداً من الطراز القديم حتى تكاد لا تترك مجالاً للشك بأن معظمها تعمل على الطريقة نفسها التي استخدمها قدماء الآشوريين والمصريين. ومن المؤكد أنّ الكثير من المعدّات التي يستخدمها صنّاع ديار بكر حتى هذا اليوم وكذلك جميع سكان بلاد الرافدين كانت مرسومة بصدق ويمكن رؤيتها بسهولة على النقوش والأعمدة المكتشفة في حاضرة الفرس وبابل ونينوى والأقصُر ومدينة الشمس (بعلبك) والتيبت.

مقابل هذه المصانع نرى ورشات العمل الصغيرة الخاصة بفرسان الإبرة والمقص، وأتباع القديس كريسبين St. Crispin معظمهم منهمك في رتق وإصلاح الأشياء الخاصة بحرفتهم، والتي كانت في معظم حالاتها بالكاد تصلح لأن تكون داخل سلّة جامع الخِرَق، ومع ذلك كان لهؤلاء الحرفيين عدد من الزبائن المجتمعين حولهم

ينتظرون بصبرٍ أغراضهم المرتقة. في حين كان أصحاب محلاّت الحلاقة المشحمة في الجوار يمسكون بهدوءٍ مذهل رؤوس ضحاياهم الذين كان معظمهم من المسلمين، يضعون الرغوة ويحلقون، أو إذا صحَّ القول يكشطون بنفس الفرشاة وموسى الحلاقة الهلب الخشن الذي ينمو بسرعة على جلدة رأس المسلم المليونير والعبد الزنجي.

بالتقدّم إلى الأمام مررنا بمظلاّت مكشوفة تستخدم كمطاعم، حيث كان المالكون ومساعدوهم يقدّمون طعاماً متنوعاً مؤلفاً من حساء شرائح الضأن، ولحم الماعز والأرز المطبوخ والخضار ونوع من السلطة أو الكيس، وكلّ ذلك مقابل بضع پارات (الپارة قطعة نقدية تساوي 1/ 9 من السنت الأميركي). يُقدَّم هذا الطعام من داخل قدورٍ ملوثة بالسخام وأوانٍ مشحّمة، بقصعاتٍ خشبيةٍ وأطباقٍ من الصفيح، وعادةً يكون زبائنهم من الطبقة الأكثر فقراً وتواضعاً من السكان.

وكما هو متوقعٌ طبعاً، لم يكونوا نيّقين على الإطلاق؛ بل على العكس كانوا يلتهمون طعامهم بشهية كبيرة ومزاج جيد يُحسدون عليهما، غير آبهين أبداً للدخان الخانق والبخار الحارّ المنبعث من تلك المطابخ البشعة.

بعد ذلك، مررنا بالتسلسل بورشات التمكريين وصنّاع السكاكين والنحّاسين وصانعي الأقفال... وهلمّ جراً، وجميعهم يتحدّون بعضهم مَن يستطيع إحداث أكبر ضجيج ممكن، مما يجعل الحديث بالقرب منهم شيئاً مستحيلاً ويجعل من الشارع الموجودين فيه أيّ شيء ما عدا أن يكون مكاناً ممتعاً بالنسبة لعصبيّ المزاج. تقدّمنا إلى الأمام ووصلنا إلى مدخل قنطرة طويلة أو سرداب، إنه ممر من البناء الثقيل، مضاء من الأعلى بواسطة عددٍ من الفتحات السماوية الكبيرة التي يجد الهواء المنعش طريقاً للدخول من خلالها، ومطليٌّ بالكلس بهدف تحسين الإضاءة. كان الهواء في الداخل رطباً على نحوٍ رائعٍ ليجعل من المكان ملاذاً ممتعاً في الأيام شديدة الحرّ.

كان عرض الممرّ ثلاثين قدماً وارتفاعه خمساً وعشرين قدماً، وقد اصطفّت على كلّ من جانبيه مقصورات مستأجرة من قبل صنّاع الحبال وصناع السروج، وخرّاطي الأخشاب والقرون والعاج والمعادن، والنقّاشين وبائعي الخضار والعطّارين والأطبّاء

والكتّاب، والصرّافين والمقطّرين وفي الحقيقة باتعين يعملون في جميع أنواع البضائع والسلع. في الشرق يتم القيام بجميع الأعمال والمبادلات داخل البازار أو السوق، حتى الحرفيين لا يقومون بمواصلة أعمالهم في منازلهم. لكلّ حرفيٍّ وتاجرٍ وبائعٍ في البازار دكّانه أو مشغله الخاص، حيث يتواجد دائماً أثناء النهار، ولا يعود إلى عائلته إلاّ عند الغروب، عندها يتوقف العمل حتى شروق شمس اليوم التالي.

هناك مزيّة أخرى من مزايا مدن الشرق، ألاَ وهي أنَّ جميع التجار والحرفيين الذين يعملون في المجال نفسه أو في مجالاتٍ متشابهة، يشغلون دكاكين وأكشاكاً قريبةً جداً من بعضها، في حين أنَّ الجميع يعرف أنّه في البلدان المتحضرة يكون الوضع عكس ذلك تماماً، فعلى سبيل المثال، إذا أصيب في تلك البلدان أحد الحذّائين بالنكبة الوهمية لوجود خصم مزعوم فتح دكّاناً بجواره مباشرةً، سيعتقد أنّه بهذه الطريقة سيتضرّر عمله، لذلك إما أنه سيقوم ببيع دكّانه أو بإبعاد - إن أمكن ذلك - أو إزعاج ومضايقة الآخر إلى أن يرسله إلى مكانٍ بالتأكيد أكثر ملائمة، ويبدو أنَّ الناس الوحيدين الذين يعملون في المجال نفسه بمحاذاة بعضهم البعض - وينجحون - هم بني إسرائيل الذين ورثوا أسلوب العمل هذا من أسلافهم الشرقيين من دون شك.

أعتقد أنَّ الزّبانة الشرقية مفضّلة على خاصّتنا، فإذا أردت شراء شيء من البازار، يوجد مكان واحد فقط للبحث فيه عن طلبك، وعندما تصل إليه، تجد أنَّ لديك مزيّة إمكانية مقارنة السعر والجودة بين كافة أصناف النوع الذي تبحث عنه، وعندما تعلم أنه ليس هناك أيّ مكانٍ آخر في المدينة يُباع فيه الغرض الذي تريده فإنك توفّر على نفسك عناء ومشاكل الذهاب من أوّل المدينة إلى أقصاها.

ذكرت قبل قليل أنَّ بعض الدكاكين كانت مشغولة من قبل الكتّاب، وهم رجال كالموثّقين العموميين أو كتّاب العدل، يتولّون جميع أنواع الكتابة، ككتابة فواتير المبيع، والسندات والعقود والأرباح والواردات والمذكّرات... الخ، إضافة إلى كتابة أو نسخ أو ترجمة الرسائل، أو طبعاً الطباعة من أي نوع كانت على الآلة الكاتبة. يعمل هؤلاء الكتّاب بمقتضى قَسَم أقسموه على عدم إفشاء أي سرّ أو أي شيء يعرفونه عن

طريق هذه المهنة، وفي الواقع إنهم يدينون بنجاحهم في عملهم إلى جهل زبائنهم أكثر مما يفعل المحامون وكتّاب العدل في بلادنا، لأنَّ الغالبية العظمى من سكان الشرق لا يستطيعون قراءة أو كتابة لغتهم الأم، ولا شيء نهائياً فيما يخص اللغات الأجنبية، لذا فهم يعتمدون بشكل حصري على هذه الطبقة النافعة من الرجال، وبالطبع يعمل هؤلاء الرجال مقابل أجرهم، إلا أنَّ هذا الأجر قليلٌ جداً لدرجة أنّه باستطاعة أفقر السكان تحمّل تكاليف خدماتهم.

يوجد أيضاً في إسبانيا وإيطاليا وفرنسا نسبة كبيرة من السكّان الأميّين، لذا فإنَّ الكتّاب هناك يجنون مبالغ طائلة فقط من إيصال الرسائل إلى العشّاق بغضّ النظر عمّا يجنونه من الكتابات الأخرى.

لدى خروجنا من البازار المقنطر وجدنا أنفسنا تحت سقوف صفٍ غير منقطع من المظلّلات الواسعة المفتوحة التي كان خشبها أسود اللون تقريباً بسبب التعرّض للشمس والأمطار.

كان هذا سوق المؤن - الذي ظهر مع سوق الخيول والبغال والحمير والأبقار والأغنام والماعز والدجاج المجاور له - كأنه (بابل) في الامتداد و(بيت لحم) في الاضطراب والفوضى.

وكأنما لزيادة مستوى الاضطراب العام، يقع جزء من هذا البازار في مكانٍ من المدينة حيث تجتمع أضيق الشوارع وأكثرها التواءً، لتصبح بذلك مهمة مستحيلة بالنسبة لأي شخصٍ غير مولود ومترعرع في هذا السوق أن يجد لنفسه مخرجاً، تماماً كما يستحيل ذلك في المتاهة الكريتية.

في هذا المكان وجدنا كميات كبيرة من حبّ المسك والبطيخ واليقطين والباذنجان والخيار وتشكيلة من الخضار الأخرى مكوّمة هنا وهناك في جميع الاتجاهات وتكاد تسد تلك الطرقات الضيقة. هنا تجد أكواماً من الأعناب والتين والرّمّان والبرتقال والليمون اللذيذ... الخ، وإلى الأمام قليلاً تجد جملاً محمّلاً بالبلح والفستق

واللوز والزبيب والزنجبيل وعسل النحل البري والحليب والزبدة السائلة[1] والجبن والبيض... الخ.

إلى الأمام قليلاً وجدنا بائعي الطحين والحبوب والعلف، وأخيراً وليس آخراً كان تجّار الحيوانات الداجنة من جميع الأنواع ما عدا الخنزير الحيوان غير المعروف بحالته الداجنة في أرض الإسلام، والمنبوذ كلياً تحت أية ظروف كانت من قبل كلٍّ من المسلمين واليهود، ولا يجرؤ مسيحيو هذه البلاد على تربيته خوفاً من أن يتمّ إعدامهم دون محاكمة من قبل المتعصّبين. لقد بيَّن كلٌّ من موسى ومحمّد[2] بأنَّ الخنزير قذر ونجس، ومنذ ذلك الحين كانت ولا تزال كل أنواع الخنازير منبوذة وملعونة من قبل معتنقي هاتين العقيدتين.

الآن وقد قدّمت وصفاً دقيقاً للبازار، أرجو من القارئ أن يصوّر لنفسه المكان ذاته مشبعاً بجميع أنواع وأصناف الروائح على اختلافها منذ طلوع الشمس وحتى غروبها، ويعجّ بحشودٍ مختلفة من البشر صغاراً وكباراً، فقراء وأثرياء، رجالاً ونساءً، تكسوهم مختلف أشكال الزيّ الشرقي التي يمكن تخيُّلها، وقد تخالطوا نوعاً ما مع الأنواع المختلفة في العالم الحيواني الذي ذكرته قبل قليل، عندها سيرى صورة حقيقيةً فريدةً من نوعها.

أثناء مسيرنا في البازار حيّانا العديد من الرجال الذين ينتمون لقافلتنا، وكانوا جميعاً قد قبضوا أجورهم ذاك الصباح، لذا راحوا يمتّعون أنفسهم بطرقهم الخاصة ويزوّدون أنفسهم بالتبغ وغيره من الأشياء التافهة التي قد يحتاجونها. يا لهم من سعداء! هؤلاء الرجال بقسمات وجوههم التي أشرقت لمجرّد التفكير بوجود بضعة قروش في جيوبهم ويكادون لا يعرفون ما يفعلون بها؛ إذ إن اهتمامات وحاجيات أبناء الطبيعة هؤلاء قليلة جداً وبسيطة، بالإضافة إلى أن «كيفهم» (سرورهم أو ترويحهم عن أنفسهم) يكون

(1) كتب لوكر: يتم إحضار تلك المواد الثلاثة الأخيرة إلى السوق بواسطة أكياس كاتمة للهواء مصنوعة من جلد الماعز.

(2) عليهما الصّلاة والسّلام، وعلى أنبياء الله أجمعين.

عادةً بريئاً جداً وغير مكلف - إنَّ طبيعتهم وعادتهم بشكل عام مرحة ومتنوعة - حتى إنَّه من الممكن جداً تصنيفهم ضمن أكثر البشر المحسودين في العالم.

قادنا هؤلاء الرجال إلى المكان الذي كان فيه سائقو البغال ينتظروننا مع بغالهم وخيول الحمل خاصتهم، ثمَّ بدأنا بشراء الطعام لأفراد قافلتنا، واشترينا شعيراً يكفي خيولنا وبغالنا إلى أن نصل إلى سويريك Suerek أو Severek، وهي مدينة هامة تقع على مسافة خمسة وأربعين ميلاً جنوب غرب ديار بكر.

بعد أن أنجزنا هذه المهمة انطلق سائقو البغال مع حمولتهم إلى البيت، أقصد إلى الخان. حصل سائسو الخيول على إذن بالغياب حتى الظهر، وتابعنا (أنا والسّنيور P) جولتنا في أرجاء المدينة. بينما كنا نشقّ طريقنا خروجاً من البازار، شاهدنا نموذجاً مثيراً للاشمئزاز على نحوٍ غريبٍ من تلك الكائنات الباعثة على الأسى المعروفة في جميع أنحاء بلاد الرافدين باسم (مجنون) أي أبله أو أحمق (وقد اشتُقّت من الكلمة العربية مجنون كلمة أخرق، مختبّل، معتوه). يُفترض أنَّ هذا الإنسان كما يدل اسمه - وإني لأُفضّل من أجل الإنسانية أن أدعوهم «أصحاب العقول التالفة من بين البشر» لو كنت أستطيع ذلك، ولكنني آسف في القول بأن هناك عدداً كبيراً من الحمقى الدجّالين بينهم - شخصٌ مختلٌ عقلياً، وبالتالي فهو غير مسؤولٍ عن تصرّفاته؛ يمشي في الطّرقات بحالةٍ من التعرّي الكامل متمرّغاً بالقذارة والوحل والحشرات الطفيلية، وهو ككلاب الطرقات في الشرق؛ ليس لديه مأوى أو منزل، فيعتبر نفسه في منازله في أي مكانٍ يلقي فيه بنفسه، يطوف في الشوارع والمدن ليلاً نهاراً من دون هدفٍ أو غايةٍ، يستجيب لحاجة الطبيعة في أي مكانٍ وزمانٍ يشعر فيهما بضرورة ذلك، وهو إما غير قادر على الكلام أو يتظاهر بالبكم، وإمّا يكون أو يدّعي بأنه جاهل تماماً بالحشمة والأدب، باختصار، إنه مجرّد حيوان مخلوق على هيئة البشر.

يشعر المسلمون الذين يؤمنون بالخرافات بالخشية التي تتخللها شفقة نحو هذه الأجسام البائسة حقّاً، والفزع من التعرّض لمخلوقٍ أوتي بالمعرفة والقدرة المطلقة، وإلاّ سيتعرّض الشخص الذي يفعل ذلك إلى العقاب الإلهي، ومن الغريب والجدير

بالملاحظة أنني لم أرَ قط امرأة «مجنونة» في هذه البلاد. وعلى الرغم من أن المسيحيين واليهود يشفقون على هذا المخلوق التعيس، فإنهم بطبيعة الحال يجفلون من مظهره المقزّز الذي تعافه النفس، ويبتعدون عنه قدر المستطاع، ولكنهم يخافون من معاملته بقسوة حتى عندما يتعرضون للاستفزاز الشديد، ذلك أنَّ تعدادهم أدنى بكثير من تعداد المسلمين المتزمّتين الذين يتمتع المجنون بحمايتهم له إلى أبعد الحدود.

بما أنَّ «المجنون» سواء أكان صادقاً أم كاذباً يدرك تماماً مدى فعالية هذه الحصانة فإنه لا يعرف أية قيود. إذا كان جائعاً سيدخل إلى أيّ منزلٍ كان بابه مفتوحاً، ويمنح لنفسه أي شيء من أنواع الطعام تقع يده عليه، أو إذا أراد سيأخذ أيَّ طعامٍ معروضٍ للبيع قد يعجبه، وفقط سيتم إبعاده بلطف إذا حاول أن يأخذ أكثر مما هوَ ضروري لإشباع نهمه. لكي يتفادى أصحاب الدكاكين أن يمسك ذلك المتشرّد القذر سلعهم بيديه يسبقونه عموماً في إعطائه شريحة أو حفنة أو بضعاً... إلخ، وذلك حسب الشيء الذي يشتهيه، قبل أن يكون لديه وقت ليعطيه هو لنفسه، وكونه يظهر دائماً بثوب الطبيعة فقط لا غير وبالطبع لا يحمل أبداً أية سلّة أو وعاء ليضع طعامه داخله لأن ذلك سينمّ عن بعض السلامة في العقل، فإنه دائماً يسير في الشوارع راضياً بفمٍ مملوء. إنه لإزعاجٌ يعجز عنه الوصف التماح لهذا المخلوق بأن يرضي غرائزه ودوافعه دونما أيّة ضوابط.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

قرا آمِد

آميدا Amida القديمة - جلد وحرير - رقصة دينية - مواصلة رحلتنا - الجبال - البريد التركي - تسلّق الجبال - التخييم بين الأكراد المتنقّلين - الزعيم الكردي - توزيع الهدايا - الوداع يا قرا آمِد Kara Amid .

قضينا أنا والسّنيور (P) الجزء الأكبر من النهار في استكشاف عاصمة كردستان قرا آمِد Kara Amid أو (آمد السوداء) بالنسبة للأتراك، وقد سمّيت كذلك غالباً بسبب المظهر الداكن والكئيب للقسم الرئيسي من المدينة، وخاصةً الأسوار الحجرية المتينة الشامخة المتوَّجة من كل مكانٍ فيها بالشرفات المفرّجة، وقد بنيت بالبازلت الأسود الذي أعطى لديار بكر ذاك المظهر المعتم. إنّ للمدينة أو الحصن شكلاً شبه رباعيّ، أما زوايا هذا المربّع فهي مدوّرة، ويخترق كل ضلع من أضلاع المربع مدخلٌ مقنطر مزخرف بشكلٍ جميل بالأرابيسك والنقوش الإسلامية.

أمّا الأبواب الخشبية الثقيلة لهذه المداخل فهي مغطاةٌ من الداخل والخارج بألواح سميكة من الحديد المصفَّح، مثبتة مع بعضها بإحكام بواسطة مسامير لولبية حديدية قوية.

يقال إن عدد سكان ديار بكر كان في السابق حوالي مئتي ألف نسمة، ولكن اليوم قد لا يتجاوز تعداد سكانها أربعين ألفاً، ثلاثة أرباعهم من المسلمين ومعظمهم من الأتراك،

والربع المتبقي من اليهود والأرمن وبعض المسيحيين الشرقيين والكاثوليك.

يوجد فيها عددٌ من المساجد الكبيرة الجميلة، والخانات الواسعة، وخمس أو ست كنائس وأديرة مسيحية، وكنيس يهودي أو اثنان، وكان بازارها الذي لا يزال حتى الآن واسعاً جداً يصنّف في السابق من ضمن أغنى بازارات الشرق.

إنَّ السبب الرئيسي في انحسار بازارها وكنتيجة طبيعية انحسار عدد سكانها أيضاً هو تصرّفات بعض القبائل الكردية السلّابة الخارجة عن القانون، التي أصبحت في القرن الأخير مدمنة على مهاجمة ونهب القوافل العديدة التي لا تزال حتى هذا اليوم الوسيلة الرئيسية للتبادل التجاري بين المركزين التجاريين الهامين حلب وبغداد.

منذ قرنٍ مضى وعندما كانت ديار بكر في ذروة عظمتها، كانت أحد أهم أسواق الحرير في الشرق؛ حيث تحصل على الجزء الأكبر من مادّته الخام من بلاد الفرس وتحوّلها إلى أثمن أنواع القماش، وفي الوقت نفسه ازدهرت فيها صناعة المنتجات القطنية والملابس الجلدية والسكاكين والأسلحة النارية... الخ، وكانت هذه البضائع مشهورة جداً بنوعيتها الممتازة. وفي الوقت الراهن تعتبر صناعة الحرير والجلود العمل الرئيسي بالنسبة للسكان، وهناك نسبة لا بأس بها من السكان الذين يشتغلون بمهنة (النقل) إمّا بواسطة دواب الحمل أو بواسطة (الكَلَك) الأطواف الخشبية الرديئة الصنع المعززة بواسطة Tooloochs (أكياس منفوخة من جلد الماعز) التي تطرّقت إلى وصفها في فصلٍ سابقٍ من فصول هذا العمل، بأنها تُصنع في ديار بكر بهدف نقل المسافرين والبضائع ومواد البناء والحطب نزولاً عبر النهر من ديار بكر إلى الموصل وبغداد ومناطق متوسطة على طول النهر.

إنَّ ديار بكر ليست فقط عاصمة كردستان، وإنما كانت فيما مضى مقر ولاية ديار بكر، ويقيم الباشا الذي يحكمها في بناءٍ حجريٍّ ضخمٍ يقع قرب مركز المدينة. في زمنٍ سابق كان مقرّ الباشا هو القلعة التي تقع في الجزء الشمالي الشرقي من المدينة، ولكنها الآن ليست سوى آثار وبقايا كما هو حال أبنية كثيرة في هذا المكان.

تعتبر قرا آمِد Kara Amid موقعاً عسكرياً قوياً بالنسبة للحكومة التركية، ويرابط في هذا الموقع على مدار السنة ما بين ثلاثمئة إلى ألف ومئتي جندي من الجيش العامل. كانت آميدا Amida أي ديار بكر القديمة مكاناً كبير الأهمية حتى في أيّام الرومان الذين انتزعوها من حوزة الفرس وسيطروا عليها لزمنٍ طويلٍ.

في سنة 502 قبل الميلاد سقط هذا الحصن ثانيةً في أيدي الفرس الذين قتلوا عند استعادتها ما لا يقل عن ثمانين ألفاً من سكانها، وكونها عَظْمَة النزاع المستمر، فقد مرّت عبر الكثير الكثير من التناوبات والتقلّبات إلى أن فتحها الأتراك تحت حكم السلطان سليم سنة 1515 للميلاد، ولا يزالون يحتفظون بها حتى الآن. تحيط بديار بكر أراضٍ خصبة، لكن المناخ لا يعدّ صحياً جداً بسبب تفشّي الحمّى والملاريا خلال فصولٍ معينة من السنة. هناك القليل فقط من الأوروبيين يقيمون هناك، وعلى الرغم من أنّ منصب القنصل الفرنسي أو البريطاني في هذا المكان نادراً ما يتضمّن القيام بأعمال ومهام رسمية فإنّه غير مرغوبٍ به على الإطلاق، فمن المعروف أن ديار بكر تعدّ مكاناً جافاً ومملاً بشكلٍ رهيبٍ بالنسبة للأوروبيين عموماً.

* * *

في مساء اليوم الثالث من إقامتنا في ديار بكر، حدث أن كنت أنا والسّنيور (P) في منزل الأرمنّي الذي أكرم وفادتي ليلة وصولنا إلى المدينة، فتفرّجنا من على سطح منزل الأرمنيّ على القسم الأخير من مشهدٍ ممتعٍ للغاية، لقد كان رقصةً دينية[1] يقدمها خمسة أو ستة «دراويش» فوق سجّادةٍ كبيرةٍ ممدودة في وسط باحة البناء المجاور الذي كان أحد دور العبادة الخاصة بهم، لسوء حظنا كانت الشعائر قد شارفت على الانتهاء قبل حتى أن نعرف بشأنها، إلى جانب ذلك كنّا على علم بالطبيعة المتعصّبة لهؤلاء الإخوة المتديّنين، وخشينا من أن نجرّ صاحب المنزل إلى المشاكل معهم إذا ما أدركوا أنّهم

(1) المقصود بذلك طقوس الذّكر التي يقوم بها متصوّفو الطريقة المولوية، نسبة إلى القطب الصوفي الكبير جلال الدّين الرّومي الذي عاش في قونية في القرن الثالث عشر للميلاد بين 1226-1273.

مراقبين من قبل «كَفَرَة»، ولهذا السبب لم نجرؤ على النظر إلى الأسفل نحوهم جهراً، وكان علينا أن نرضي فضولنا باختلاس النظر من خلال فتحةٍ في الحائط، فاستطعنا ونحن مكبوتون بهذه الطريقة التفرّج على جزءٍ واحدٍ فقط من المشهد.

كان كل ما استطعنا رؤيته حوالي ستة من هؤلاء الذين نذروا أنفسهم للدين، يلبسون أثواباً طويلةً بيضاء كالثلج مصنوعة من الكتّان أو الموسلين، كانت فضفاضة جداً ومنشّاة إلى حد التصلّب لتبدو بذلك كالأجراس أو كالمظلّة المفتوحة، في الحقيقة بدا لي أنهم حتماً يلبسون تحتها إما تنّورة مطوّقة أو تنورة القرينول المثبّتة. كان الجزء العلوي من هذه الثياب ضيقاً جداً من الرقبة حتى الخصر، وله فتحة عريضة عند الحلق مبطنة بقطعة من الحرير الأخضر، وتبدو من بعيد كصدر قميصٍ أخضر. فوق هذا الثوب ارتدى الدّراويش سترةً بيضاء قصيرة وضيقة منشاة حتى التصلّب ومفتوحة من الأمام. ووضعوا فوق رؤوسهم قبعات من اللّبد لونها رمادي مائل إلى الإصفرار وتشبه قالب السكر ولها نهاية ضيّقة جداً ومرتفعة. كان جميع هؤلاء الفاضلين يلبسون جوارب من دون أحذية، وبأيدٍ مفتوحة وأذرعٍ ممدودة رقصوا مع ترنيمةٍ رتيبة تتناقص وتتزايد بانتظام في الصوت والوزن والموسيقى، وكلّ شخصٍ يرقص بمفرده ولكنه في الوقت ذاته يلتزم مع رقصة الآخرين بنفس الحركات.

قبل البدء بالرقصة شكل هؤلاء الدّراويش دائرةً كبيرةً وألقوا على بعضهم بضعة سلاماتٍ تبجيلية، ثم راحوا يتمايلون ذهاباً وإياباً، وبأيدٍ موجّهة للأعلى تقدّموا بضع خطوات للأمام نحو وسط السجادة ثم رجعوا إلى الخلف ثانيةً، بعد ذلك راحوا يَدورون ويَدورون في نقطةٍ واحدةٍ، وفي ذروة سرعتهم كانوا يدورون كالدّبور العالق داخل مشكاة، وظلّوا هكذا الوقتٍ طويلٍ، حتى أصبح من العجب أنّ الدَّوْخة لم تجبرهم على التوقف أو ترميهم أرضاً أو تجعلهم يتصادمون بقوةٍ مع بعضهم البعض، بل راحوا مرّة بعد مرّة يؤدون هذه الحركات ولا يستسلمون أبداً إلى أن يصبح الدماغ والعضلات غير قادرين على الاحتمال أكثر من ذلك، فيبدؤون راقصاً تلو الآخر بالسقوط منهكين حتى يبقى الراقص الأخير وحيداً، فيترنّح إلى إحدى الزوايا ويغمى عليه، عندئذٍ تكون

رقصة الدراويش قد وصلت إلى نهايتها.

بالإضافة إلى هذه المغالاة في الرقص التي يقوم بها بعض أنصار الإسلام المتحمّسين تمجيداً لدينهم، تقتضي واجباتهم الدينية أيضاً بالصلاة كلّ ساعةٍ تقريباً وأحياناً الإماتة الكاملة للجسد والشهوات. لاشك أنَّ هذه الأخيرة هي أكثر ممارسات الإسلام تزمّتاً وقسوة، ذلك أنها تتطلب بنيةً قويةً لتحمّل المعاناة الناجمة عن التعذيب، حيث تنحصر هذه المعاناة في الصيام الطويل واقتلاع لحاهم وتمزيق ثيابهم وسط عويلٍ مرتفعٍ، وحرق وجرح جلدهم، وضرب صدورهم بقبضات أيديهم وحتى بالحجارة، ونطح رؤوسهم بالجدران الحجرية إلى جانب الكثير من أشكال تعذيب النفس، وقد جعلتهم أصوات المعاناة الرهيبة التي يطلقونها يستحقون بجدارة لقب «الدّرواويش النوّاحين».

إن كلمة درويش فارسية الأصل، وهي مرادف للكلمة العربية «فقير»، وكلمة فقير هي الاسم الذي تشتهر به طبقة مشابهة من المسلمين المتديّنين في الهند.

تقسم منظمة الدّراويش إلى عدّة جمعيات، بعضها موجود منذ وقت طويل لكونها تأسست منذ عدة قرون مضت، يكون أعضاء معظم هذه الجمعيات فقراء على نحوٍ مدقع، وذلك امتثالاً لأحكام القرآن التي توصي المؤمن بالفقر والعيش بشكل أساسي على الصدقات التي يُقدمها لهم في كل مكان عن طيب خاطر (المؤمنون الحقيقيون) بعقيدة محمّد الرسول، والذين يدفعون لدراويشهم تبجيلاً لهم. وهناك جمعيات أخرى لهؤلاء الدراويش تُموّل بسخاء من قبل أمراء المسلمين وشخصيات بارزة من المؤمنين بجميع طبقاتهم.

وكم من درويشٍ قيل إنه في أوقاتٍ سابقة كان من أبرز الناس بحصافته وذكائه، وهناك مجموعة منوّعة من الطرائف الممتعة المنتشرة حول هؤلاء الدّراويش ليس فقط بين المسلمين وإنما بين المسيحيين واليهود أيضاً.

* * *

بعد استراحةٍ في ديار بكر دامت ثلاثة أيام، وزيارات متعدّدة من القنصل والمبشرين الفرنسيين، والرّد على زياراتهم من قبلنا، حان الوقت لمواصلة رحلتنا باتجاه الغرب، لذلك قرّرنا أن نبدأ المسير عند ظهر اليوم الرابع، وبناءً عليه أرسلنا أمراً بهذا الخصوص إلى رفيق دربنا الأب (M) الكاهن الكاثوليكي الشاب الذي اتخذ من مسكن المبشرين مأوىً له. في يوم مغادرتنا طلع النهار بشكلٍ باهرٍ جداً وظهر الأب (M) مستعداً للرحلة بشكلٍ كاملٍ قبل ساعتين من الموعد المحدد، وبعد العديد من المماطلات خرجت قافلتنا أخيراً من الخان. حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً انطلقنا نحو الطريق المؤدية عبر سلسلة قرا داغ Kara Dagh الجبلية إلى مدينة سويريك Suverek الآنفة الذكر.

في البداية كانت مجموعة خيولنا جامحة بعض الشيء، كما هي حالها دائماً عندما تكون معلوفة ومرتاحة جيداً، حيث يتسبب هذان الأمران في زيادة نشاطها، مما جعل السائسين يواجهون الكثير من الصعوبات والمشاكل لإبقائها تحت السيطرة، فالعديد منها حاولت أن تمشي على قوائمها الخلفية مثل كلاب السيرك المدرّبة، وكان أحد هذه الخيول - وهو حيوانٌ نادر الجمال لكنه ذو طبيعةٍ ضارية جداً بالنسبة لحصانٍ عربي - يحاول انتهاز كلّ فرصة تسنح له للتسبب بالأذى بأسنانه وحوافره، ولكن بضعةَ أميالٍ من العدو السريع تحت أشعة الشمس اللاهبة والحرارة والرمال الخانقة كانت كفيلة بإجباره على الرّضوخ.

التقينا على السهل بجموع غفيرةٍ من الناس من الجنسين كليهما ومن جميع الأعمار، بعضهم يمشي على الأقدام والبعض الآخر على الجمال والخيول والبغال والحمير وحتى على ظهور العجول، بعضهم مسلح بشكل جيدٍ والبعض الآخر مزود بعصيٍّ فحسب، بعضهم ليس لديه أية حمولة وآخرون يحملون الرزم والحقائب والخضراوات والحبوب والدواجن، وغيرهم يسيّرون الأبقار والأغنام... الخ أمامهم، ومن الجليّ أنهم كانوا متجهين نحو المدينة. عند سفح الجبل مررنا بالبريد التركي، كان موكباً صغيراً غليظ المظهر، يعرفه جيداً جميع الرحالين والمسافرين في هذه

المنطقة، وكان قائد هذا الموكب جديراً بالوصف.

كان شخصاً قصيراً، عريض المنكبين، ذا وجه مسفوعٍ وشعرٍ طويلٍ أشعث وكذلك لحيته، يرتدي ثوباً صوفياً خشناً وسميكاً يكشف بشكلٍ كامل عن صدره الأشعر القوي، وخرقةٍ مربوطة على طريقة التُّربان (العمامة) حول القلنسوة الضيّقة المزيّنة التي يضعها على رأسه، وقد علّقَ «شُبُقاً» قصيراً (غليون تبغ تركي) وكيساً من التبغ بواسطة حبلٍ مربوطٍ حول رقبته، ورباطاً ثقيلاً أو حبلاً من جلد الأبقار معلقاً يتدلى من حلقة في ساعده الأيمن، وسكيناً ذات غمدٍ ومسدسين نحاسيين وضعهما داخل حزامه، ويلبس في قدميه جزمة تركمانية كبيرة وثقيلة استقرّت على حلقات الركاب العثمانية الضخمة التي تستعمل كمناخس لكونها مسننة في نهاياتها قد. كان يمتطي كديشاً (حيواناً مخصياً من سلالة دنيا)، ويقود آخر - مثقلاً بحمل الحقائب الجلدية المقفلة التي تحتوي على البريد - من اللجام.

مشى الحيوانان كلاهما للأمام بتلك الطريقة المتبدّلة الغريبة المعروفة في بلاد الفرس والرافدين بالرَّهوان "Rachwan" وهي خاصة بخيول البريد التركي وجياد الطريق العجمية، وجياد الصيد لدى البوير أو الهولنديين في جنوب إفريقيا. كان هذا الشخص الموصوف كمعظم سعاة البريد في تركية الآسيوية وبلاد فارس تتاري الأصل؛ حيث إن التتار والتركمان وحدهم القادرون على التحمّل والمستعدّون للقيام بعمل السفر الشاق والمخيف ليلاً نهاراً مقابل أجرٍ زهيدٍ صيفاً شتاءً ودون أية استراحاتٍ أو فواصل تقريباً عبر الأراضي الواسعة الخاوية وغير الآمنة التابعة للعثمانيين والفرس.

إنهم دائماً على متن السّرج، ليلاً نهاراً، وقد اعتادوا على الطعام والنوم فوقه، وإنه ليس من النادر أبداً أن ترى أحد هؤلاء الأكفاء يتقدّم نحوك على طول الطريق بمشيته المعتادة، مع أنه في هذه الأثناء يغطّ في نومٍ عميق. على مسافة تقدّر ما بين عشرين إلى خمسين ياردة يتبعه حرّاسه المؤلفون من اثنين إلى ستة من الظابطية ذوي الصفات المذكورة سابقاً. وتعدّ مهمّة الظابطية تافهة مقارنة مع مهمّة حامل البريد؛ إذ نادراً ما يتوجب عليهم حماية هذا الأخير لأكثر من المسافة الكائنة بين محطتين، وتقدّر بحوالي

ثلاثين إلى أربعين ميلاً، حيث يتوقف وقتاً كافياً فقط لتبديل الخيول، ثم يواصل رحلته مع حرّاسٍ آخرين حتى الإبدال الآخر، في حين يتوجب على حرّاسه السابقين الانتظار في المحطّة إلى أن يصل حامل البريد القادم من الاتجاه المعاكس.

أثناء زيارتي كان التبادل البريدي بين إسطنبول وبغداد نصف شهري، لذا لم يكن يتوجب على الظابطية الموجودين على الطريق المسير لمسافة ثلاثين ميلاً أو أكثر سوى مرّة كل أسبوعين، بينما كان على حامل البريد المسكين - كما بلغني - أن يقطع ليلاً نهاراً وعلى مدار السنة كامل المسافة بين المدينتين، وهي رحلة تتجاوز بمسافتها ألفاً ومئتي ميل تقريباً، مرّ الموكب بهدوء من أمامنا وبالكاد تنازلوا أن ينظروا نحونا، ثمَّ سرعان ما اختفوا وسط سحابة الغبار عند مؤخرة قافلتنا.

بعد ذلك بدأنا بالصعود المجهد والشاق للجبل الصخري الشاهق، إنها مهمةٌ سهلةٌ نسبياً بالنسبة للخيول التي لم تكن تحمل ركّاباً أو أمتعة، أما بالنسبة للخيول المحمّلة فكانت مهمةً صعبةً جداً. بعد حوالي ساعتين من التسلق وصلنا إلى مكان كالنّجد أو السهل الواسع، وقد تناثرت فوقه أشجار مظلّلة ضخمة وباقات من الياسمين البرّي وغيره من الشجيرات الفوّاحة التي كانت ترعى منها بضعة جمال ضخمة ومنهكة وبعض الخراف... وغيرها من الحيوانات الموكلة إلى ثلاثة غلمانٍ رثّي الثياب تمدّدوا بكامل طولهم تحت أشجار الظل.

على هذه الأرض المنبسطة قمنا باستراحةٍ قصيرة دامت وقتاً كافياً فقط للسماح لحيواناتنا المرهقة بالتقاط أنفاسها، وفي غضون ذلك، استمتعنا نحن بالمشهد الشامل الممتل أمامنا..

هناك في البعيد نحو الشمال والشرق انتصبت في الأفق القمم الجبلية المظلمة والكئيبة لكلٍّ من كردستان وأرمينية، وكانت أعلاها متوجةً بالثلوج والجليد.

في الجنوب والغرب امتدّت الوديان الترابية وجبال طُور عَبدين Tur Abdin الصفراء والجرداء، والقسم الأعلى من سهول الجزيرة الهيفانة اللامتناهية، في حين

كان المربع العملاق المعتم المحيط بديار بكر يلوح على مسافة اثني عشر ميلاً بالتمام مع خطٍ طويل من الأجسام المظلمة تتحرك ببطءٍ نحوه. بالطبع كان هؤلاء هم الأشخاص والحيوانات الذين مررنا بهم على الطريق، وكانوا من بعيد يشبهون خطاً طويلاً من النمل يدبّ نحو الكثيب.

مرّة أخرى كانت قافلتنا تمضي قُدُماً، وبعد أن تفحّصنا ذلك النجد الضيّق بدأنا بهبوط الجزء العلوي من المنحدر الجبلي الوعر والشاهق على نحوٍ مرعبٍ، والذي تناثرت فوقه أحجار الجلمود الضخمة إلى أن وصلنا إلى القمّة الأدنى حيث وجدنا قبيلةً من الأكراد المتنقّلين يقيمون داخل خيام فسيحةٍ ومريحة مصنوعة من الصوف الأسود والبني وقد نُصِبت على مسافة بضعة أميالٍ فقط شمال قرية صغيرة بائسة تدعى قرا بَهچِه[1] Kara Bagtshe.

كان السّنيور (P) عازماً على القيام بمسيرة شاقة في اليوم التالي بهدف الوصول إلى سويريك Suverek قبل حلول الظلام، لذلك توصّل إلى قرارٍ يقتضي بعدم مواصلة المسير في هذا اليوم شرط أن نقضي الليلة في وسط مخيم الأكراد، بالرغم من التحذير الشديد الذي حذّره إياه عدة أشخاص في ديار بكر من التمرّد المعروف والخروج عن القانون لجماعات الأكراد المتنقّلين، مع ذلك فكر أنّه من الأفضل أن يسترضي هؤلاء القوم بأن ينصب خيمته وسط مخيمهم تماماً ويلتمس ضيافتهم، القداسة التي لن ينتهكها أحد، لا الأكراد ولا غيرهم. ولتنفيذ هذا القرار انحرفنا فوراً عن الطريق وتوجهنا مباشرةً نحو الخيمة الكبيرة التي نُصبت وسط المخيّم والتي كنا نعلم جيداً أنها خيمة شيخ القبيلة.

أثار دخولنا الفظّ غير الرسمي اضطراباً كبيراً بين ساكني الجبال المتوحشي المظهر، والذين تفاجأنا بالطريقة التي يتسلّى بها القسم الذكوري منهم؛ حيث كانوا يجثمون بجميع الاتجاهات في الساحة المكشوفة الواسعة مقابل خيمة الشيخ، بعضهم يتحدث أو يدخّن والبعض الآخر نائم أو يلعب الورق أو النّرد، بينما آخرون كانوا يطاردون جراء كلابهم الهجينة وصغارهم حول المخيم. أمّا بالنسبة للنساء فكان القسم الأكبر منهنّ داخل

---

(1) التسمية بالتركية Kara Bahçe تعني: الحديقة السّوداء.

الخيام ينجزن أعمالهن المنزلية، بعضهنَّ كنَّ يجلســن على الأرض منهمكاتٍ بطحن الذرة وأخريات يعتنين لأسيادهنّ وأزواجهن الكــولين بخيولهم المربوطة مقابل الخيام.

استطاع السِّـنيور (P) على الفور تميز رجل مســنٍّ قصير القامة وأشيب اللحية وله وجـه مجعّـد يجلس على وســادةٍ أو مسند ويحيط به بضعـة رجال من الأكـراد الذين يلبسـون بشـكلٍ أفضل من غيرهـم، فمشى بحصانه نحوه ثم سـلّم وأفصح عن رغباته. بعد لحظة من ذلك نهض الشـيخ وأصـدر بعض الأوامر، فأصبحت خلال وقتٍ قصير الأرض المقابلة لخيمته خالية تماماً.

تقـدّم سـائقو البغـال التابعـون لقافلتنا مع الـدواب المخصصة للحمـل التي كانت تحمل أدوات مخيّمنا، ثم دُقّت الأوتاد وشُدَّت الحبال وربطت الخيول... الخ.

لم تلبث أن انقضت نصف سـاعة حتى وجدنا أنفسـنا نخيّم على نحوٍ مريح وسـط قبيلة مؤلفة من أربعمئة كرديٍّ على الأقل. خلال الوقت الذي كنّا فيه مشغولين بنصب مخيّمنا كان الشيخ قد أمر نساء بيته بإبعاد كافة العراقيل الموجودة في خيمته إلى جانبٍ واحدٍ منها، ثم فصلها إلى قـسمين مستقلّين بواسطة قطعةٍ كبيرةٍ من قماش الخيام.

وبعد أن تم ذلك شـغل الشـيخ مع عائلته أحد قسـميّ الخيمة وقدّم لنا القسـم الآخر لإقامتنـا، وقد قبلنا ذلك مع الشـكر والامتنان، بعد قليلٍ أرسـل لنـا مضيفنا وجبة طعامٍ سـخية مؤلفة من الضأن المشـوي ولحم الماعز المسـلوق والأرز و«اللبن» (خثارة أو جبنة بيضاء حديثة الصنع)، وكؤوس من الحليب الحامض، وكتل من الخبز القاسـي. قبـل أن نجلـس إلى هذه المائدة ظهر الشـيخ وكأنمـا كان الهدف من تصرّفـه مفهوماً، مشـى نحو الأطباق وتذوق من كلٍّ منها ثم انصرف بصمت. إن أيَّ شخصٍ غير عارفٍ بالعادات الشـرقية كان سيـسـمّي ذلك تصرّفاً صفيقاً إلى حدٍ ما - هذا أبسـط احتمال - ولكـن كما ذكرت فـي وقـت مضى؛ إنها عادةٌ عند عدّة شـعوبٍ شـرقية، وتُمارس هذه العادة لتُظهر للضيف أنَّ الطعام ليس مسموماً أو متلاعباً به.

سُـررنا جـداً بالكـرم الطيّب من جهـة الزعيم الكردي، لـذا كان علينا أن نُسـرّ أيضاً

بتقديم كأسٍ مترعة من النبيذ أو العَرَق له، هذا إن كنّا نجرؤ أصلاً على تقديم هذا الاقتراح، ولكن بما أنَّ قبيلته حالها كحال سائر القبائل الكردية كانت مسلمةً، وبالتالي محرّمٌ عليها تذوق الخمر أو أي شراب مُسكر من أي نوعٍ، لذا فإن ذلك لم يكن لينفع، مع أنني أشكُّ ما إذا كان سيشعر بالإهانة حيال ذلك حيث لم يبدُ أنه والحشد المحيط به من المسلمين الملتزمين جداً.

قدّمنا للشيخ ولسيّد رجال القبيلة القهوة والتبغ اللذين لا بُدّ منهما، وكانا اجتماعيّين جداً وكثيرَيّ الكلام. حتى النساء اللاتي كان بعضهن حسناوات جداً - كنَّ على غير العادة السائدة عند بقية الشرقيات - وبدا جليّاً أنهنَّ مرتاحات كثيراً للفرنجة وقد فاجأننا بذرابة لسانهنَّ. مع حلول الظلام قامت زوجات الشيخ بمدّ عدّة فرشات لنا في خيمة الشيخ، شعرنا بالانقباض نوعاً ما حيال استخدامها متوقّعين ليلة بيضاء من الهجوم الذي ستشنّه علينا الحشرات فاصدات الوريد، ولكن لئلاّ نوجه إهانةً لمضيفنا استجمعنا كلَّ ما في داخلنا من شجاعة وإقدام كافيين لتحمّل التعذيب الذي ستتعرّض له بقضاء الليل فوقها، وبالمفاجأتنا الجميلة عندما نمنا بعمقٍ كالرّضيع بين ذراعي أمه.

كان هنالك نجم وحيد لا يزال يتلألأ في السماء الزرقاء الداكنة عندما ذهب بناءً على أوامر السّنيور (P) أربعة حراس مناوبين إلى سائسي الخيول وسائقي البغال النائمين لإيقاظهم من رقادهم. وعلى الجمرات المتبقية من نار المخيم الخامدة حضّر لنا يوسف متعهد طعامنا ومساعده القهوة المعتادة بسرعة، في حين كان جميع الرجال الآخرين منهمكين في الاستعداد للرحيل.

لقد سُررنا وتفاجأنا كثيراً أنَّ شيئاً يخصّ قافلتنا لم يكن مفقوداً أو مستملكاً من قبل سكان الجبال العُتاة عادةً، لذا قمنا بتوزيع بعض الهدايا بين نساء منزل الشيخ اللواتي مع العديد من أفراد القبيلة استيقظوا وجاؤوا ليشاهدوا رحيلنا. حين بدأنا مسيرنا مع الخيوط الأولى للشمس المشرقة كان الضباب الكثيف يغطي السهل الممتدّ تحتنا والهواء منعش جداً، وتلألأت قطرات الندى الثقيلة كالجواهر بضوء النهار الباكر.

* * *

الفصل السّادس والعشرون

عبر الجبال

الاكتشـاف - التحرّي - كروم العنب في سـويريك - النبيذ الشـرقي - في المخيم لقضاء الليل - انهيار المدينة - التركي المتعاظم - في الطريق إلى بيرِه جيك - مرشدنا الجديـد - أورديـك - لوحة جميلة - طلب المنامة - اسـتراحة قصيـرة - أبناء البلد - أهمية موقع المدينة - قارب المعدّية.

في الوقت المتوقّع مررنا بقرية قرا بَهچه[1] Karabag Tshe الصغيرة، وراح سكانها يحدّقون نحونا بحماس. بعد حوالي عشرة أو اثني عشر ميلاً إلى الأمام صادفنا مسيلاً أو مجرى مائياً يستمد مياهه من جدول يشكل أحد روافد نهر (شطّ الشام) وهذا الأخير يشكّل بدوره أحد روافد نهر الفرات العظيم. عند نقطة عبور هذا الجدول وحيث كنت كالعـادة أسـير متقدماً علـى القافلة في الصباح الباكـر بهدف اصطيـاد الطرائد أجفلت برؤيـة رجلٍ ميت ملقياً ووجهه نحو الأرض على مسـافة سـتة إنشـات تقريباً من الماء تحـت المعبر بحوالي ثلاثين ياردة. دفعني هذا الاكتشـاف المزعج إلى البقاء حيث أنا إلـى أن تصـل القافلـة التي لم تكن تبعد أكثر مـن مئتي ياردة ورائي، لـم يكن هناك داعٍ لأقـص عليهم اكتشـافي؛ إذ ما لبثوا أن وصلوا بالقـرب من الماء حتى رأيت العديد من الأصابع تشير إلى مكان الجثة، وسمعت صيحات تعجّبهم.

---

(1) ذكرنا أن التسمية بالتركية Kara Bahçe وتعني: الحديقة السوداء. لكن المؤلف أخطأ في تهجتها أعلاه، نظنها: قراباغ چه.

سار السِّنيور (P) بحصانه صعوداً نحوي بوجهٍ شاحب كالأموات وسأل بسرعة عن القضية، وقد بدا جلياً أنه خشي أن أكون قد أرديت ذلك الشخص المسكين، عندما أعطيته جواباً لسؤاله شعر بالراحة بعض الشيء ولكنه طلب مني أن ألحق به. توجّه السِّنيور (P) مباشرةً نحو الجثة بقدر ما حمله حصانه بهدوء، ولكن هذا الحيوان الرائع توقف فجأة، نصّب أذنيه، شدّ رقبته المقوّسة، ثبّت قائمتيه الأماميتين بقوّة في الأرض وراح يصهل بعنف رافضاً أيّ مزيدٍ من التقدّم.

كان حصاني أكثر شجاعة، إلاّ أنني لم أستطع دفعه ولا حتى بالنخس إلى الاقتراب مسافة أكثر من خمسة ياردات من الجثة، وتلك المسافة كانت قريبةً كفاية بالنسبة لأي شخصٍ يملك أنفاً حساساً، ذلك أنَّ الجثة كانت تطلق أبخرة مغثية لتظهر براءتي بشكلٍ واضح. لم يستطع السِّنيور (P) ذلك العجوز النبيل رقيق الفؤاد أن يغادر هذه البقعة المغتمّة دون أن يدفن الجثة سواءً كان مسيحياً أو يهودياً أو حتى وثنياً، طالما أنه من البشر.

كنا قد قطعنا مسافة نصف يوم من المسير ونحتاج إلى ساعتين أو ثلاث ساعاتٍ من الراحة، والأكثر من ذلك أنه بلغنا عدم وجود الماء خلف هذا الجدول قبل مسافة عشرة أميال؛ لذلك أصدر السِّنيور (P) أمراً بحط الرحال، وبعد أن تم الاعتناء بالحيوانات أوكلت إلى بعض رجال القافلة مهمة دفن الميت. بعد أن استقرّت الجثة داخل القبر الموحش المتواضع منحها الأب (M) بركاته ثمّ قاموا بتغطيتها رويداً رويداً بالتراب، ولتجنب نبش القبر من قبل الحيوانات المفترسة تم وضع ثلاثة أحجار كبيرة مسطّحة فوقه.

يالرجل المسكين! ترى هل سيتسنّى يوماً لزوجته المفجوعة وأولاده أن يعلموا بأمر موته وحيداً وبمكان قبره؟؟

لقد ألقت هذه الحادثة الكآبة في صدور معظم أفراد القافلة. ورغبةً في الابتعاد بسرعة عن هذا المكان البائس واصلنا مسيرنا على الفور، وبعد التقدّم مسافة خمسة أميال تقريباً، في بقعة متوحدة مشابهة ومناسبة أيضاً للجرائم والكمائن شاهدنا بناءً

حجرياً صغيراً بحجم تابوت كبير إلى حدٍّ ما. كان مشكّلاً من ألواح حجر خشنة ويبعد بضعة أقدامٍ عن جانب الطريق.

لم يكن لدينا أدنى شك بأن (علامة الطريق) الصغيرة هذه المشيّدة بطريقة أولية جداً كانت مكان شيءٍ مفزعٍ آخر من تلك العلامات الموجودة على جوانب الطريق.

دفعني فضولي للتحقق من محتوى البناء، ولكي أفعل ذلك كان عليَّ حتماً أن أترجّل وأستلقي على وجهي إذ لم يكن البناء بأكمله يرتفع أكثر من ستة عشر إنشاً، والفجوة الأكبر الموجودة فيه كانت شقاً بالكاد يعلو ستة إنشاتٍ عن الأرض. عندما نظرت للداخل تأكّدت تماماً من أنني أرى هيكلاً عظمياً أبيض كاملاً لإنسانٍ تمدّد مستوياً على ظهره، بالتقدّم إلى الأمام مررنا بالعديد من هذه القبور المشيدة على جانب الطريق، ولكنني تركتها دون استكشاف. كانت أحاديثنا منذ أن تركنا القبر قرب الجدول تدور بلا شعور حول الحادثة المحزنة، ولم تجد تخميناتنا نهايةً فيما يخصّ الطريقة التي لاقى فيها هذا الرجل التعيس حتفه، ولكنّ أكثر ما حيّرنا هو أنَّ جسده الذي بقي طويلاً دون أن يدفن لم يكن ممزقاً إرباً من قبل الحيوانات المفترسة التي كانت تكثر في هذه المنطقة.

أما بالنسبة لكونه تُرك ليتفسّخ دون دفنٍ فذلك لم يكن يدهشنا؛ فقد كنّا نعلم جيداً بعدم اكتراث الشرقيين لقدر أبناء جنسهم. لا أحد سوى قافلة مدجّجة بالسلاح مؤلفة من عددٍ من المسافرين الشجعان والمسلحين جيداً كان يجرؤ على المشي ببطءٍ كما كنا نفعل في ذلك القسم من الطريق المشهور بقلة الأمان، حيث لم يكن هناك أيّ مسكنٍ بشري أو مأوىً ضمن مسافة عشرة أميال من جميع الاتجاهات، وحيث هوجم الساعي التركي وسُرقت حقائب البريد التي يحملها من قبل قطّاع الطرق على الرغم من وجود ما بين أربعة إلى ثمانية حراس من الظابطية المسلحين جيداً.

* * *

بعد مسير بطيء دام مسافة عشرة أميالٍ أخرى، فوق أرضٍ مريحة نسبياً، نصفه

ضمن وادٍ منعزلٍ والنصف الآخر فوق سهلٍ متمورٍ قاحلٍ امتد من سفح جبل قراجا داغ Karadsha Dagh غرباً حتى ضفاف الفرات، ثم قطعنا جدولاً آخر ومنه بدأ مسارنا يرتفع ويتخذ تدريجياً طابعاً صخرياً جداً وضيقاً ومتعذّر البلوغ، أخيراً وصلنا إلى كروم العنب الواسعة في سويريك Suverek والتي تقع في الضواحي الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية للمدينة المذكورة للتوّ. كانت الطريق تمرّ مباشرةً من وسط هذه الكروم، ولكن بما أنَّ كل كرمٍ متاخم للطريق كان محمياً بواسطة حائطٍ حجريٍّ خشنٍ مرتفع، فقد كانت أعنابها بعيدةً جداً عن متناول عابري السبيل.

تنتج كروم العنب غلّةً وافرة من العنب اللذيذ الذي كان سيعطي أحد أشهى أنواع النبيذ في الشرق لو عرف سكان سويريك Suverek كيفية عصره ومعالجة العصير المستخرج منه، إذ إنهم حتى هذا الحين يعصرون العنب بأيديهم وأقدامهم - غير المنظّفة بدقّة - ثم يتركون العصير ليركد داخل جرار فخارية كبيرة أو أوعية معدنية ضخمة إلى أن يحتاجوه، وبذلك يسمحون للخاصية الأكثر ضرورة في النبيذ (النكهة) بالتلاشي. مع ذلك، وعلى الرغم من كل هذا الإهمال يحتفظ معظم أنواع النبيذ الشرقي بصفات كافية لتجعله من أطيب المرطّبات وأكثرها إسكاراً، وهي حقيقة أكّد صحتها أوّل مرتشف خمرٍ في التاريخ، إنه (أبونا نوح).

بينما كنا نمرّ ضمن كروم سويريك شاهدنا مع الكثير من الأسف أنَّ الآفة المعروفة بـ «الشَقّران» كانت تُحدِث دماراً فظيعاً بين الكروم، وإن لم يكن هناك علاج لوباء الفاكهة المدمّر هذا فإنَّ كروم سويريك Suverek سرعان ما ستتحول إلى ذكريات. بالخروج من بين كروم العنب وجدنا أنفسنا عند مدخل سويريك، ووسط مظاهرة المفاجأة والفضول المعتادة التي يقوم بها السكان مشينا في المدينة إلى الخان الوحيد الموجود بداخلها. كان الخان كبيراً بشكلٍ كافٍ ليتّسع لقافلتنا، وسرعان ما أقمنا بأكثر طريقةٍ مريحة ممكن أن تقدّمها المآوي القذرة البائسة. يحتوي الخان على باحةٍ مربعةٍ فسيحة مرصوفة بالحصى الكبيرة المدوّرة. يحتلّ وسط الباحة بئر جرٌّ قديم متزعزع نصف مليء بالمياه الراكدة. وعلى طول أحد الجوانب الداخلية للخان كان هناك

سقف خشبي طويل وعالٍ تحمله بضعة أعمدة أكلتها الديدان، كان السقف نفسه قديماً جدّاً ومثقباً في كلٍّ مكان ومتقلقلاً لدرجة كبيرة؛ حتى إنّه يهدّد في كل لحظة بالسقوط فوق رؤوسنا..

على الرّغم من ذلك، كان هذا هو المكان الوحيد في الخان الذي يستطيع المرء تحته أن يجد ملاذاً من المطر أو أشعة الشمس أو الندى. كان مدخل الخان مغلقاً بإحكام بواسطة زوجٍ من الأبواب الثقيلة، وكلاهما كانا متقلقلين جداً ومهترئين بفعل النخر الجاف لدرجةٍ أنَّ أسمن أعضاء «جمعية الرجال البدينين» يستطيع أن يزحف إلى الداخل دون حتى أن يلمس الأبواب. بغضّ النظر عن هذه العيوب التافهة كان أي خبير عقارات أميركي غالباً سيطلق عليه اسم «ملكية بناء ثمين» ذلك أنه يقع في مركز المدينة تماماً.

كان الجار الواقع على يمين الخان صرّافاً عبرانياً، جلس داخل كشكه الصغير مبتسماً، يمسك بقوة بين ركبتيه صندوق نقوده الخشبي المشحّم، وينتظر أحداً من الشرق الأدنى (ديار بكر) ليصل ويرجوه أن يأخذ الفضة الخالصة «كران» (قطعة نقد فارسية تساوي في الإمبراطورية العثمانية خمسة قروش تركية، لكنها غير متداولة بشكل عام في غرب ديار بكر) مقابل نقود مشحمّة مطلية بالفضة «بشليك»[1] (قطعة نقدية تركية تساوي خمسة قروش) ويتقاضى الصّراف مقابل هذه الخدمة أجراً أو عمولة الصرافة التافهة المقدّرة بخمسة في المئة.

على الجانب الأيسر للخان شاهدنا محلاً يديره رجلٌ تركيٌّ سمين، وعلى الأرجح كان الهدف من هذا المحل أن يمثل دور دكّان جزار، إلاّ أن الجيف المقطوعة الرأس للعديد من الحيوانات غير القابلة للوصف والتي يُدّعى بأنها خراف وماعز، بدت على نحوٍ مريبٍ كأنها كلابٌ هجينة وصغار حميرٍ مسلوخة. قبالة الخان مباشرةً دكّان حدّاد، إنه قدس الأقداس بالنسبة لصاحبه الكردي العجوز النحيل بشكلٍ مرعب، والذي له وجهٌ حالك وعينان محدّقتان وأنف معقوف باعثٌ على اليأس وابتسامة شيطانية،

(١) بالتركية Beşlik: الخُماسيّة أو ذات الخمس، أي خمسة قروش.

إنها صورة إبليس يختبئ ذيله بشكلٍ محجوب عن الأنظار داخل سروالٍ فضفاضٍ كثير التجعدات. يستطيع مستحضر الأرواح الأسود هذا بطريقةٍ أو بأخرى أن يلصق الحدوات القديمة ذات المسامير القديمة بحوافر خيول وبغال وحمير الزبائن الجدد ويتقاضى وزنها بالقروش التركية مقابل هذا العمل، ولكن لم يسبق له أبداً أن وضعها مرتين لنفس الحيوان الذي يملكه الزبون نفسه.

كانت سويريك Suverek مدينة تضم حوالي خمسة آلاف نسمة معظمهم من الأتراك، بالإضافة إلى نثار متفرق من اليهود والأرمن والمسيحيين، بنيت هذه المدينة فوق منحدرٍ يرتفع بلطفٍ لسلسلةٍ من التلال الحصوية العطشى التي تناثرت فوقها هنا وهناك أشجار منفردة أو مجموعة من الشجيرات. ليست المدينة محاطة بأية أسوارٍ أو تحصينات، ولكن هناك الكثير من الدلائل الواضحة التي تشير إلى أنها كانت كذلك في أوقات سابقة. شوارع المدينة ضيقة جداً ووعرة وغير ممهدة وبالتأكيد مغبرّة إلى حد الاختناق بسبب الطقس الجاف وطينية بشكل فظيع بعد عدة أيام ماطرة مثل سائر المدن الشرقية. بنيت سويريك Suverek بشكل غير منتظم نهائياً، فغالبية أبنيتها ذات أسطح مسطّحة، وبالنسبة لبيوت الطبقة الأدنى فهي مبنية بالطين الممزوج مع القش والعشب الجاف، أما بيوت الطبقة الأفضل فهي مبنية بأحجار ذات سطحٍ خشن. هناك الكثير الكثير من الأبنية التي أصبحت حطاماً، ويبدو جلياً أن المدينة كانت في السابق تحوي عدداً من السكان أكبر بكثير من ذلك الموجود في يومنا هذا.

في الحقيقة لا أعرف ما هو السبب وراء ذلك التضاؤل، ولكنني أفترض بأنه يُعزى إلى الحرب والوباء في عصورٍ سابقة.

تحتوي سويريك أيضاً على بازارٍ صغيرٍ ولكن معاملاته التجارية ليست مهمة، ولو لم يكن واقعاً على الطريق العليا بين حلب وديار بكر لكان من النادر جداً زيارة الغرباء له.

إنَّ رئيس السلطة في هذا المكان هو القائم مقام، وهو رجل تركي عجوز متعجرف، مستبدٌ بعض الشيء، ومبتزٌّ إلى درجة الامتياز، ولصّ من الدرجة الأولى، ويقيم في خانٍ

يشبه بمظهره الخارجي سجن المدينة، ويشغل هذا المكان بشخصه البارز مع حريمه الجميلات، بالإضافة إلى حشدٍ من الضباط الثانويين والطفيليين ذوي أشكال من أكثر ما يمكن تخيّله وحشية، معظمهم مدججون بالسّلاح ومتغطرسون ومتعجرفون إلى أقصى درجة يمكن للأنذال الجبناء أن يصلوا إليها.

يعدّ السكان المسلمون في سويريك سيئي السمعة نوعاً ما من قبل المسيحيين واليهود في هذا الجزء من العالم، وذلك بسبب التعصّب الديني والمشاكسات والخروج عن القانون، وهم من أكدر الناس مظهراً وأكثرهم غدراً وعيارة في إقليم الرافدين الأعلى. أعتقد أنني لست بحاجة لأن أضيف أننا كنا متشوّقين للخروج من المكان بأسرع ما يمكن، حتى خيولنا بدت متلهّفة للهروب من هناك.

* * *

حملتنا مسيرةٌ سهلة لمسافة عشرة أميالٍ باتجاهٍ جنوبيٍّ غربي فوق أرضٍ سَلِسَة إلى رافدٍ صغيرٍ من روافد الفرات، فعبرناه وتابعنا مسيرنا بتأنٍّ مسافة خمسة عشر ميلاً إلى نهر (شط الشام). بعد المسير مسافة خمسة وعشرين ميلاً دون أن نلتقي بكائن بشري في طريقنا، توصلنا إلى قرار مفاده ألاّ نقوم بأي تقدّم آخر في هذا اليوم على الرغم من أن الساعة بالكاد كانت تشير إلى الثانية بعد الظهر، وأن نخيّم قرب تلك القرية حتى شروق الشمس في اليوم التالي، وفي الوقت المتخلل نسعى للحصول على رجلٍ كفؤ يرشدنا من طريق أخرى أقلّ صعوبة من الطريق المعتادة، عبر أورفة Urfa إلى بيرهِ جيك Bireh-jik وجهتنا المقبلة.

لم نجد صعوبة في إيجاد مرشدٍ خدوم مقابل أجرٍ جيد، وبالطبع كان هناك الكثير ممّن يتمتعون بالكفاءات المطلوبة يتوقون إلى تولّي هذه المهمة لدرجة أن كلاً منهم عرض أن يقوم بها بسعر أقل من الآخر، وفي النهاية اخترنا شخصاً كان مستعداً ليس فقط لخدمتنا كمرشدٍ وإنما لفعل أي شيء يُطلب منه تقريباً مقابل أجرٍ زهيدٍ جداً.

في وقت باكر من صباح اليوم التالي قادنا هذا الرجل لمسافةٍ قصيرة عبر الطريق

المعتـاد، ولكن لدى وصولنـا إلى طريق فرعية على يمينـا انعطـف فجأةً نحوها وقادنا عبر سـهل شبه مسـتوٍ تماماً نحو قرية صغيرة تدعى أورديك Ordek أنشئت على الدلتا المتشـكّلة من منبَعي رافدٍ صغيرٍ لنهر الفرات. وصلنـا إلى هناك قرابة الظهيرة، فمنحنا رجالنـا وخيولنا سـاعتين من الراحة ثم تابعنا تقدّمنا باتجـاهٍ غربي نحو قريةٍ أخرى تقع علـى الضفـة اليمنى لرافدٍ آخر من الرّوافد التي لا تحصـى لنهر الفرات الأعلى. تدعى هذه القرية من قبل سـكانها «Jellach» ورغم أنها لا تحتوي على بناءٍ كبير كفاية ليتسـع لإقامة عشـرين رجلاً، وهذا دون أن أذكر الخيول، فإنَّ موقعها كان مـستتراً ودافئاً جداً، لذا جعلنا منها مكان منامتنا حتى انبلاج الفجر في اليوم المقبل.

بعد أن أخبرَنا سـكان القرية بأننا لن نجد أي مصدر للماءِ أو أية مسـاكن بشـرية بين ذلك المكان وبيرِه جيك Bireh-jik، وهي مسـافة تقارب الثلاثين ميلاً، زوّدنا أنفسـنا بكميـاتٍ وافرة من الميـاه داخل الأكياس الجلدية، إنـه إجراءٌ تحفظي لم يكن ضرورياً لعدّة أسابيع مضت.

عزمنـا على الوصـول إلى بيرِه جيـك Bireh-jik فـي اليوم التالي غيـر آبهين بكل المخاطر والصعوبات، لذا مع شـروق الشـمس كنا على مـسافة بعيدة من مكان إقامتنا في الليلة الماضيـة، نمشـي بفخامة فوق الســهل المجدب. خلال مسـيرنا مسافة عشرة الأميال الأولى قطعنا حوض نهرٍ موسـمي وهو أيضاً أحد روافد الفرات، ولكنه في ذلك الوقت كان جافاً تماماً كقطعة عظم، ومن الجلي أنه كان كذلك منذ شهورٍ مضـت.

لم نصادف في طريقنا أيّة شـجرة ولا أيّ مكانٍ ظليلٍ من أي نوعٍ كان، وعند السـاعة الحادية عشرة من صدر النهار كنّا مجبرين على التوقف لمدة ساعةٍ ونصف تحت أشعة الشـمس الحارقـة من أجل الراحة وتوزيـع الماء والطعام بين الرجـال والخيول. قرابة السـاعة الثالثة بعد الظهر وجدنا أنفسـنا فجأة نقف فوق المنحدرات المرتفعة التي تـسمو فوق الضفة اليسـرى لنهر الفرات في هذه المنطقة، وكأنما ستارة كبيرة سُحبت فجأةً من أمامنا.

وقفنـا مفتونيـن بالمشـهد العظيم الـذي ننظر إليه، حتـى العرب اللامباليـن تعجّبوا

قائليـن: «يـا اللـه» أي يا إلهي، وقد كان المشـهد يسـتحقّ حقـاً أن يفعلـوا ذلك، فعلى مسـافة ألف قدم تحتنا ينسـاب نهر الفرات العظيم بصفحة مياهـه العريضة ذات اللون الأزرق السـماوي الأكثر نقاءً، تشبـه سطح المرآة بملاسـتها وبريقها، وقد تدفّق بهدوء عبر الوادي العريض الذي تحدّه المنحدرات بعد أن خرج كتيارٍ من الفضة السـائلة من خلف الجبل الشاهق الأجرد - الذي يبرز داخل الوادي بتحدّرٍ شديد على مسـافة عشرة أميـال فوق النهر - وبعد أن يرسـم مجموعة مختلفة ولا متناهيـة من التعاريج الجميلة علـى طول الوادي يحجب نفسـه عن أنظارنا في سـهول الجزيرة (الرافديـن) الرّمادية الصفراء المجدبة، بعيداً جداً في الغشاوة الضبابية الباهتة للأفق الجنوبي.

كان هـذا الوادي نفسـه محدوداً من جهتـه اليمينية بهضابٍ متمّوجـة قاحلة من الواضـح أنها غير مسكونة، ومن الجهة اليسـرى تحدّه صخور شبه قائمة الانحدار ذات ارتفاعٍ هائل، تقطعهـا وتخدّدهـا هنـا وهنـاك أفاجيجُ وخوانـقُ غائرةٌ وقـد تعلقت على جانبيها شـديديّ الانحدار أشـجار متوقفة عن النمو وباقات من الأعشـاب الخشنة متعذّرة العبور بكل معنى الكلمة بالنسـبة للإنسـان والحيـوان، لكنها كانت محطّـاً آمناً للعديد من النسـور والصقور والعُقبـان التي يطارد بعضها بعضاً باسـتمرار مع صرخـاتٍ وصيحاتٍ حادّة على طول قمم المنحدرات الشاهقة، أو تدور بهدوء عالياً في الأثير فوق المرآة المائية.

بعيـداً تحت أقدامنا شـاهدنا وادياً جبليـاً عميقاً وعريضاً، تملؤه بكثافـة صخورٌ عملاقة وأحجـار جلمـود ضخمـة، تناثـرت بينها بقـع غيـر منتظمة من المـرج الأخضـر والكروم الصغيـرة، وكانت هذه الأخرى تفيض بكل معنى الكلمة بالخضراوات والأعناب والكرمة المتسـلقة والأزهار والشـجيرات الفواحة وأشـجار الزينـة والفواكه الوارفـة، نمت في كلّ مـكانٍ وجـدت فيه تربة كافية لتمدّ جذورها بداخلها، ومباشـرةً تحـت الحدائق تظهر مدينة بيـرِه جيـك Bireh-jik القديمة والمثيـرة للعجب كالمدرّج - لكنَّ شـكلها كان كالهرم - الـذي كانـت حافة الميـاه عند قاعدته، ثـم يرتفع تدريجيـاً للأعلى فوق الـوادي، وينتصب بمآذنه الرفيعة والعالية ومسـاجده الواسعة وأبراجه وقلاعه التي توزّعت بين ألفي بناءٍ ثانوي ذي لـون أبيض لامـع. وتلك الأبنية مع قبـاب المآذن والجوامع المفروشـة بالبلاط البرّاق

والتوتياء اللامعة تعمي الأبصار وخاصة عندما تسقط أشعة الشمس فوق هذه الأسطح اللامعة، حينها تصبح صورة المدينة بأسرها مع كامل المشهد العظيم المحيط بها معكوسة بشكلٍ دقيقٍ وواضحٍ في المياه الزرقاء العميقة.

بدأنا بهبوط الشِعب المتعرّج وشديد الانحدار ببطءٍ وحذرٍ شديدين تاركين وراءنا على مضض هذه الصورة الساحرة التي لن تُنسى ما حيينا.

مررنا في طريقنا بسلسلةٍ من الكهوف الطبيعية والمغارات الصناعية، وفي النهاية وصلنا إلى الممرات الضيقة الموجودة عند الطرف العلوي للمدينة والتي تحدّها من الجانبين كليهما أسوار عالية لحدائق مكسوّة بكروم العنب الوافرة النّماء، في حين كانت أشجار التين والبرتقال والليمون والرّمّان وغيرها من أشجار الفواكه المختلفة شبه الاستوائية المثقلة بالفواكه اللذيذة تظلل هذه الحدائق الصغيرة.

بعد تقدّم دام لبضع دقائق نزولاً عبر طريقٍ شديدة الانحدار ومرصوفة بطريقة بدائية جداً وجدنا أنفسنا في قلب المدينة الخيالية مباشرةً، مرموقين بنظراتٍ غرامية وأفواهٍ فاغرة من قبل كل الناس ابتداءً من كلاب الشارع الهجينة المتسلّلة ومتسوّلي الطريق الرثّين وصولاً إلى ساكنات «الحَرَم» صاحبات العيون الغزلانية، اللاتي استطعنا أن نرى بوضوح وجوههنّ البيضوية الجميلة وأيديهن البيضاء الناعمة المرصّعة بالجواهر من خلال الفواصل الموجودة في التعريشة الخشبية التي تحجب نوافذ غرف هؤلاء الحسناوات الأسيرات في جميع أنحاء الشرق.

بعد المسير نزولاً من مركز المدينة حتى حافة الماء تقريباً، تبيّن لنا أنه لم تكن هناك أية بقعة أرضٍ مستوية تتسع لإقامة القافلة.

أصبنا بحالة من الارتباك والحيرة بخصوص إيجاد موقع ملائم في أي مكان فوق هذا المنحدر الجبلي الصخري الشاهق، وكنّا عند نقطة عبور النهر إلى الجهة المقابلة بهدف التخيم هناك حيث كانت الأرض أكثر استواءً، عندما تقدم ضابطٌ تركيٌّ إلى الشنيور (P) - ومن الواضح أنه شكّ في سبب ارتباكنا - تحدث إليه بلباقة وأدب

نـادريّ الوجود عنـد معظم ضبـاط الحكومة التركيـة، وأخبره بلغة إيطالية مكسّـرة أن نتيجة طبيعة الأرض غير المؤاتية في هذه المدينة كان من عادة القوافل الكبيرة أن تتخذ أماكن منامتها داخل أحد تلك الكهوف الكبيرة التي قال لا بدَّ أن نكون قد رأيناها داخل الصخور قائمة الانحدار التي ترتفع فوق المدينة مباشـرةً وتقع على الجهة اليسرى من الطريق الذي هبطنا أحد جوانـب الجبل عبره.

وبعد أن أكّد لنا أننا سـنجد هناك مهاجع مريحة تتسـع لضعف عددنا، حوّلنا وجهتنا - وبالمناسبة لم يكن ذلك بالأمر السهل في طرقات المدينة الدّنيا الضيقة جداً وشديدة الانحـدار والمرصوفة بأحجارٍ زلقة، وصعدنا المنحدر الجبلي ثانيةً إلى أن وصلنا إلى الكهـوف التي ثبت عند المعاينة عن قرب أنهـا المهاجع الأكثر ملائمة التي يمكن لأيّة قافلة أن تنزل بها في جميع أنحاء بلاد الرافدين، وقد تكون في جميع أنحاء المشرق.

كان هنـاك العديد من هـذه المغارات الاصطناعية الكبيـرة أو الخانات المخفية في تلـك المنطقة. كان ذلـك الذي اخترناه منحوتاً بشـكلٍ أفقي في قلـب الكتلة الضخمة لصخرةٍ شديدة التحدّر من الحجر الرملي الرمادي، والتي ترتفع إلى علوٍّ قدره مئة قدمٍ تقريباً، وتبعد حوالي عشرين خطوة عن الجهة اليـسرى للطريق الجبلي.

كان الكهف عبارة عن غرفة بسـيطة مسـتوية تماماً، وعمقها حوالي سـتة عشـر قدماً وعرضها أربعون قدماً وذات ارتفاعٍ موحد يقدّر بثمانية أو تسـعة أقدام. وعلى الرغم من كونهـا منحوتة داخل الصخور الصلبة كان سـقفها مدعّماً بواسـطة صفّين من الأعمدة الاسـطوانية يبلغ محيط كلٍّ منها حوالي ثلاثة أقـدام، وكانت كذلك منحوتة بالصّخور الصلبـة. كانت الأرض والجدران والسـقف ملسـاء على نحوٍ لا بأس بـه وخالية تماماً مـن النداوة، وكان المدخل على مسـتوٍ واحد مع الأرض في الخارج وتقريباً له عرض وارتفاع الكهف نفسـهما، وبذلك يسمح بدخول الكثير من الضوء والهواء المنعش. قد يكـون مـن الصعب أن تحدّد بدقة عمـر هذه الكهوف أو الغرض منهـا، ولكن لا بدَّ أن الكهـف الـذي أقمنا بداخله يرجع إلى عدة قرونٍ مضت، ويبدو أنَّ الغرض منه في ذاك الزمـان هو الغرض نفسـه منه اليوم، أقصـد خاناً أو نزلاً خفيّاً، حيـث كان يحتوي على

عددٍ من المعالف المنحوتة في الصخر الصلب، وأقفالٍ حديدية مزوّدة بحلقات لتأمين ربط الخيول وحمايتها، وكل هذه الأشياء كانت مستهلكة بشكلٍ كبيرٍ ومن الجلي أنها تعود إلى زمن سحيق جداً.

من المؤكد أنَّ كل مسافرٍ في الشرق يخصّ مبتدع هذه الخانات السرية بشكرٍ وتمجيدٍ يستحقهما بجدارة؛ إذ من المستحيل أن تجد في المنطقة بأكملها مهاجع أفضل وأكثر أمناً من هذه الخانات، ذلك أنها ليست عازلة للنار والماء والرّصاص فقط، بل هي أيضاً منيعة جداً من جميع الجوانب ضد اللصوص والمتطفلين الآخرين.

باستثناء الدخول من المدخل الرئيسي الذي يمكن حراسته وحمايته بسهولة مطلقة، إلى جانب ذلك تكون هذه الكهوف رطبةً إلى حدٍّ مبهجٍ في الصيف ودافئة جداً في الشتاء أو خلال الفصل البارد إذا صحَّ التعبير. حين دخلنا إلى هذا الخان وجدناه فارغاً غير مشغول، ولكن من الواضح أنه لم يكن كذلك منذ وقتٍ طويل، حيث وجدت هنا وهناك آثار دخان نيران مخيمٍ ما. كان المكان نظيفاً بشكل مقبول، وسرعان ما استكنّا على نحوٍ مريحٍ جداً.

كان النهار حارّاً ورطباً لدرجة خانقة، ورغم كوننا محميّين داخل الكهف فإننا كنّا نتوق إلى حمام أمطارٍ منعش ليبرّد الجو ويخمد الغبار. عندما انتهينا كلياً من نصب مخيمنا داخل المهاجع السرّية كان الوقت متأخراً جداً للتفكير في الذهاب إلى البازار لشراء المؤن الضرورية لنا خلال رحلتنا إلى حلب، وهي رحلة تزيد مسافتها على خمسين ميلاً، ولهذا السبب كنا نشكّ ما إذا كان بإمكاننا مواصلة المسير قبل ظهر اليوم المقبل.

مع حلول الظلام تمركز اثنان من الحرّاس عند مدخل الكهف وأُشعلت نار المخيم، وانقضى الليل بهدوءٍ تام على الرغم من أننا استيقظنا مرّتين على أصوات الحرّاس العالية.

حالما أشرقت الشمس انطلقنا أنا والسّنيور (P) مع بعض رجالنا وبعض خيول الحمل إلى البازار لنشتري الأغراض المطلوبة، وبعد أن انتهينا من ذلك عاد رجالنا

إلى الكهف مع المشتريات ومع أوامر بتجهيز كل شيء من أجل الرّحيل. في حين قمنا نحن بجولة قصيرة حول المدينة، ثم تقدّمنا نحو النهر من أجل الترتيب مع الضباط المسؤولين عن قارب العبور لنقل قافلتنا عبر نهر الفرات.

عند وصولنا إلى الكهف وجدنا كلاً من صديقنا الأب (M) وبَحري (Bahri) -الفتاة الزنجية - متوعكين جداً وخائري القوى نتيجة هجمة خفيفة للبُرداء والحمى، وقد تكون بسبب الجو شديد البرودة داخل الكهف. لطالما كان قائد قافلتنا مراعياً لمشاعر وأحوال مرافقيه في السفر أكثر من مراعاته لمشاعره وأحواله الخاصة، لذلك قرر بمنتهى الإنسانية أن يؤجل رحيلنا حتى اليوم التالي، منحني هذا التغيير غير المتوقع في مجرى الأحداث وقتاً لأعرف أكثر عن بيرِه جيك Bireh-jik.

كانت «بير» - من الواضح أن هذا المكان سمّي من قبل العرب، فكلمة (بير) تعني بالعربية (بئر)[1] - أو كما هي معروفة عموماً باسمها التركي بيرِه جيك Bireh-jik أو Birtha القديمة، مدينة تحوي عشرة آلاف نسمة، محصنة بشكل صناعي - وإلاّ كانت سهلة المنال من كل الجهات - بواسطة جدران حجرية سميكة لكنها منخفضة إلى حدٍّ ما، متوّجة بشرفات مفرّجة وأبراج فيها فتحات للرمي، ولا شك أن هذه التحصينات في قرونٍ ماضية جعلت من المكان (كل شيء إلا أن يكون محصناً بشكلٍ طبيعي) حرزاً قوياً للغاية.

في عصر التنوير هذا، عصر مدفعية الحصار الضخمة ستكون وسائل الدفاع هذه أسوأ من عديمة النفع؛ ذلك أنَّ بضع رمياتٍ موجهة جيداً من مدفعية حصار من نوع Parot أو Armstrong أو Krupp ذوات العيار الثقيل، منصوبة على الضفة المقابلة للنهر ستكون كفيلة بتدمير المدينة، وفي هذه الحالة لن يكون هناك أدنى أمل بنجاة أيّة قلعة أو حصن، وخاصة أن الحصون مبنية على المرتفعات اليمنى واليسرى للمدينة،

(1) هذا غير صحيح، فالاسم لا هو بعربي ولا تركي، بل يوناني قديم: بيرثا Βίρθα، ثم تمت قولبته بالتركيّة إلى بيرِه جيك. وكنا قدّمنا أن لاحقة (جيك) cik أو (چيك) çik في التركيّة هي أداة تصغير بقصد التحبب. وهي اليوم في تركية تتبع محافظة شانلى أورفة Şanlıurfa.

وتشرف على الوادي والنهر وقد تحوّلت نوعاً ما إلى أنقاض، مع ذلك فقد تُثبت بعض الفعالية لبعض الوقت في حالات الطوارئ ضد القبائل العربية والكردية المتمرّدة.

تتألف الحامية الموجودة في المكان من بضعة مئات من الجنود المدرّبين على نحوٍ سيّء ومجهزين على نحو أسوأ، وكانت المدافع القليلة الموجودة في القلعة قديمة الطراز وغير ذات قيمة، وبدا جلياً أن الهدف منها هو إرهاب السكّان الجاهلين أكثر من الاستفادة منها عملياً. كان رجال الجيش في جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية عموماً وفي الحاميات المتمركزة في مدن بلاد الرافدين خصوصاً يرفضون إلى حدٍ ما السماح للغرباء بتفحّص الحصون المتقلقلة والمدافع العديمة الفائدة، لكنني لا أستطيع أن أحدّد ما إذا كان سبب ذلك هو الخجل أو الريبة من التجسس والجواسيس، إلاّ أنني أميل بشدة إلى الاعتقاد بأن الشعور الثاني مرجحٌ جداً على الأول بالنسبة لهم.

تعدّ بيرِه جيك Bireh-jik مدينة تركية بكلّ معنى الكلمة، وهي كذلك أكثر من ديار بكر أو سويريك Suverek أو الموصل، واللغة العامية المحكيّة فيها هي التركية، والعربية هناك ليست متداولة أكثر مما هي الفرنسية في إنكلترا أو الولايات الشمالية للاتحاد، والسكان القلائل الذين يتحدثون العربية لم يكونوا سوى مقيمين مؤقتين في المدينة. هناك عددٌ قليلٌ من اليهود والأرمن والكاثوليك في بيرِه جيك، ولكن فيما أعهد لم يكن هناك أي مقيم أوروبي باستثناء قليل من الألبان واليونان الذين ولدوا على الأرجح في الإمبراطورية العثمانية، وفي هذه الحالة يمكن أن ندعوهم آسويين.

إنّ الجوامع والمنارات وغيرها من مجموعة الأبنية الخاصة بالطبقة الأغنى في المدينة مبنية بمتانةٍ وصلابةٍ عاليتين من أحجار الكلس القاسية ذات اللون الأبيض المصفرّ، والهدف واضحاً من كونها مبنية جيداً، وهو طبيعة الأرض التي انتصبت فوقها هذه الأبنية، أما مساكن الطبقة الأفقر فكانت عبارة عن أكواخ وضيعة معلقة أكثر من كونها مبنية على المنحدر الجبلي الشاهق.

أمّا الطرقات - كما أشرت إليها سابقاً - فهي ضيقة جداً ومتعرجة وقذرة مثلها مثل سائر الطرقات في أرجاء الإمبراطورية العثمانية، لكن الشيء الأكثر إزعاجاً فيها يكمن

في أحجار الرّصف السيئة التي تقدّم تسهيلات استثنائية في كسر أعناق المارّة.

يوجد في المدينة بازار صغير، لكنه ليس جديراً جداً بالملاحظة مقارنة مع بازارات ديار بكر أو الموصل أو بغداد. ليس هناك الكثير من الأعمال في بيرِه جيك Bireh-jik ويدين المكان بأهميته التجارية بشكل كامل إلى موقعه؛ ذلك أنه يقع مباشرةً على طريق القوافل الرئيسي بين البحر المتوسط وبلاد الرّافدين، وعند الحدود ما بين بلاد الرافدين وسوريا، حيث يشكل نهر الفرات الخط الحدودي بين البلدين.

من ناحية أخرى، تكمن الأهمية العظمى للمدينة في حقيقة أنها بلا منازع تتحكم بالعبور الضروري لنهر الفرات الأعلى، حيث يتوجب على القوافل والمسافرين بشكل أو بآخر من سوريا إلى بلاد الرافدين وبالعكس عبور نهر الفرات من بيرِه جيك Bireh-jik، وإن معظم سكان المدينة يكسبون عيشهم من خدمة النقل هذه. كان قارب العبور أو بالأحرى قوارب العبور - فعلى الرغم من عدم استخدامهم لأكثر من قارب في آنٍ واحد فإن هناك الكثير من القوارب في المتناول في حال حصلت أية حوادث - عبارة عن مراكب صغيرة جداً وغريبة الشكل، تستوعب وزن ستين طنّاً، وتشبه بشكلها وحجمها قوارب العرب الصغيرة التقليدية (البغلات) "Bagalows" أو المراكب الشراعية التي تطوف باستمرار في نهر دجلة بين بغداد والبَصرة.

في الواقع، لولا الصّاري والأشرعة غير الموجودة في قارب العبور في بيرِه جيك Bireh-jik لكان من الصعب جداً تمييزها عن قوارب العرب (البغلات) "Bagalows" المألوفة. والقوارب معدّة بشكل بائس من ناحية الراحة، حيث كانت الأرضية مجرّدة حتى من الألواح الخشبية القاسية التي يقف عليها المسافرون والحيوانات، لتكشف فقط عن الهيكل العاري لجسمها والذي ينبغي لكلّ من الإنسان والحيوان أن يثبّت فوقه أقدامه بأسلم طريقة ممكنة.

على جانبي النهر الذي كان عرضه عند بيرِه جيك Bireh-jik يصل إلى مئتين وخمسين ياردة تقريباً، والحدّ الأقصى لعمقه حوالي خمسة عشر قدماً خلال الفصل الجاف، كان هناك شيء كالمنصة الخشبية تبرز داخل الماء لبضعة أقدام حيث يقف

عندها قارب العبور لكي يفرغ حمولته؛ إذ إنه لا يستطيع الاقتراب أكثر من ذلك إلى اليابسة مع أنَّه لا يفرّغ أكثر من خمسة أقدام من الماء عندما يكون محمّلاً. يتألف طاقم قارب المعدّية عندما يكون في حالة العمل من قبطان (كابتن) وستة أو ثمانية رجال. يبدو أنَّ المهمة الشاقة للأوّل تقتضي منه عدم فعل شيء سوى الجلوس متربعاً على الطريقة التركية عند مؤخر القارب، يدخّن الشُّبُق (غليون طويل الساق) في حين يتوجب على الآخرين القيام بعملٍ مجهدٍ فعلاً، حيث يدفعون المركب الثقيل بقوةٍ عضلية لا حدود لها وبواسطة أعمدة خشبية طويلة من إحدى ضفتيّ النهر إلى الأخرى، بينما يديرُ واحدٌ منهم دفّة المركب الكبيرة والثقيلة.

وأثناء الفصل الماطر وبعده مباشرةً، وعندما يرتفع منسوب المياه إلى ضعفي حجمها المعتاد ويُغرق أراضي الجزيرة المنخفضة على نحوٍ منتظم تماماً كما يفعل النيل بأراضي مصر، لا يستطيع دائماً أفراد الطاقم أن يصلوا إلى القاع بأعمدتهم، عندها يستخدمون المجاديف عوضاً عنها كقوة محركة - كما قيل لي. كنت قد ذكرتُ سابقاً أنَّ تدفق مياه الفرات بطيءٌ جداً وإلا لما كانوا سيتمكنوا من عبور المياه الجارية بقاربهم البدائي الصنع.

إنَّ قارب المعدّية غير قابل لحمل أكثر من ثمانية أو عشر جمالٍ موسقة، أو أكثر من عشرين حصاناً في الوقت نفسه وذلك بسبب شكله وبنيته الداخلية، مما سيعطي القارئ فكرة وافية عن الوقت الذي سيستغرقه لنقل واحدة من تلك القوافل المألوفة عبر النهر، والتي يصل عدد الحيوانات فيها من مئة إلى خمسمئة ناقة، وخاصة عندما يوجد بينها الكثير من الحيوانات التي ترفض الركوب بتاتاً، وهي ظاهرة كثيرة الحدوث بالمناسبة.

مع اقتراب الليل في اليوم الثاني من إقامتنا في بيرِه جيك **Bireh-jik** كان مريضانا قد تعافيا، لذلك تقرّر أن نواصل رحلتنا مع شروق شمس اليوم المقبل - كان قارب العبور لا ينقل أحداً إلا بين شروق الشمس ومغيبها - وفي ذاك المساء كان كلّ شيءٍ جاهزاً من أجل مغادرتنا السريعة في الصباح.

* * *

الفصل السّابع والعشرون

في قلب الوادي

القبطـان - مواقع قتال تاريخية - الجـزّ المبتكر لصوف الأغنام - ليلة من الرّاحة - إلى الأمام ثانيةً - الالتقاء بموكبٍ غريبٍ - تحويل العربي عن مجراه - الوشم - عمل نساء البلد.

بعد ليلة أخرى من الرّاحة المبهجة داخل مختلى المغارة الفسيحة تحرّكت قافلتنا بقوّةٍ وعافية نحو قارب المعدّية قبل شروق الشمس بوقتٍ قصيرٍ، ومع توقعاتٍ واضحة للبقشيش السخي الذي سيقدّمه المسافرون «الفرنجيون» قام قبطان قارب المعدية الأثري (الذي لولا ذلك لبقي هادئاً ولامبالياً) بإيقاظ أفراد طاقمه رثّي الملابس من سباتهم في وقت أكبر بقليل من المعتاد؛ فعلى الرغم من أن الشمس لم تكن قد ألقت بأشعتها بعد نحو وادي الفرات العميق، كان القبطان والطاقم والقارب جميعهم جاهزين لنقلنا على متن القارب لينالوا بذلك استحساننا ورضانا التامّين.

تم إحضار الأحصنة واحداً تلو الآخر بأسرع ما يمكن إلى حافة النهر، ومن ثم استطعنا إنزالها إلى متن القارب، وتحت الرّقابة الحذرة والدقيقة لقائد قافلتنا كانت جميع خيولنا القيّمة باستثناء واحدٍ فقط على متن القارب، وكانت تقريباً تملأ كل الفراغ الموجود على سطح المركب.

أما الحصان الوحيد فقد تُرِك مع بهائم الحمل، ومع أنه كان أروع خيول قافلتنا فإنّ تركه كان متعمّداً، وذلك بسبب طبيعته العدوانية جداً، وبما أنه قد يسبب الكثير من

الأذى بأسنانه وقوائمه بين أصدقائه داخل القارب الضيّق فقد حكم عليه السّنيور (P) بمنتهى الحكمة أن يُنقل مع مؤخرة القافلة، أي مع بهائم الحمل المؤلفة بشكل رئيسي من البغال، حيث كنّا على أملٍ بأن يعتبر هذا الخيل الملاكم أنّ القتال معها سيحطّ من منزلته. بعد أن امتلأ القارب، شقّ طريقه ونحن بداخله إلى ضفة النهر المقابلة، وذلك بسرعةٍ مذهلة لدرجة أننا لم نستغرق أكثر من نصف ساعةٍ فقط للوصول إلى هناك، وفي ذلك الحين كان هناك حشدٌ متنوّعٌ من الفلاحين السوريين بعضهم على الأقدام وآخرون على الحمير والبغال والخيول والجمال، وجميعهم كانوا في طريقهم إلى المدينة مع حمولةٍ من الخضراوات والدواجن والأغنام والماعز والحطب... الخ ينتظرون بفارغ الصبر أن تصل المعدّية لتنقلهم عبر النهر.

جعلني السّنيور (P) مسؤولاً عن الخيول بينما عاد هو مع القارب ليشرف على نقل بقية القافلة التي لم تتعرض في غضون ساعة أو أكثر إلى أية حوادث، باستثناء بعض الضربات الموجهة إلى بهائم الحمل المسكينة المثقلة بالمتاع من حوافر فحلنا الشرّير.

تلقّى قبطان القارب بقشيشه كما ينبغي مع سلامٍ عميقٍ موقّر وبعد ذلك مباشرةً تابع تدخينه اللامبالي ينفث دخان التبغ الفوّاح قرب عمود إدارة المركبة عند مؤخر «سفينة نوح» التي عادت إلى بيره جيك Bireh-jik، في حين انطلقنا بنشاطٍ عبر وادي الفرات باتجاه الهضاب المقفرة الموجودة أمامنا.

بعد مسير سريعٍ دام ساعة من الزمن، وصلنا إلى قمّة سلسلةٍ من الهضاب من حيث سلكنا لبعض الوقت طريقاً تمر عبر نجدٍ أو ما شابه ذلك، تظهر في بعض أنحائه علامات على وجود الزراعة، ولكن حتى أبعد نقطة استطعنا رؤيتها كانت الأرض المحيطة مجرّدة كلياً من الأشجار، وكذلك من أية منازل للإنسان، باستثناء قرية نصيب Nisib الصغيرة البائسة التي شاهدناها على يسارنا بعيدة عن الطريق بعض الشيء، وقد بنيت على المنحدر الشمالي لهضبةٍ منخفضة، وهي مؤلفة من حوالي خمسين بيتاً حجرياً متقلقلاً مبنياً بطريقة أولية، ومكوناً من طابق واحد فقط مع سطحٍ مستوٍ، ومن الواضح

أنّها كلها مبنية على يمين ويسار شارع منعزلٍ وحيدٍ وتحيط بها الأنقاض من كل مكان. على الرّغم من أنّ هذه القرية الصغيرة الوضيعة بدت بالكاد تستحق الملاحظة من قبل عابر السبيل المار من هناك مصادفةً، فإنها مكانٌ ذو أهميةٍ تاريخية لا جدال فيها، ومحطّ خلافٍ كبيرٍ بين المؤرخين؛ ذلك أنها شاركت (نصيبين) في مجدها باحتلال موقع Nisibis.

كيفما اتفق حولها، من المؤكد أن قرية (نصيب) Nisib الصغيرة هذه كانت بقعةً تاريخية خلال أربع وثلاثين سنة الماضية؛ حيث تقع هذه القرية مباشرةً بجوار أرض المعركة - النجد الموصوف للتو - ففي الرابع والعشرين من شهر يونيو عام 1839 تمكن إبراهيم باشا القائد الأعلى لجيش محمّد علي الشهير نائب ملك مصر - وهو ابن بالتبنّي لهذا الأمير المولع بالحرب - بجيشٍ مؤلفٍ من عشرة آلاف مصريٍّ فقط من إلحاق هزيمة نكراء بكل معنى الكلمة حتى الإبادة بجيش السلطان محمود الذي تألف من أربعين ألف رجل قوي على الأقل.

في ذلك الوقت كان السّنيور (P) في مقتبل عمره وضابط فرسان في جيش محمّد علي، ولم يكن فقط شاهد عيان على معركة (نصيب)، بل كان له دورٌ فعالٌ فيها. استمعت بتشويق واهتمام كبيرين إلى التفاصيل الدقيقة لهذا الحدث التاريخي المذهل كما رواها لي السّنيور (P)، ولولا تدخل القوات الأوروبية لكان هذا الحدث سيدفع محمّد علي المنتصر والطموح إلى ضمّ الأراضي التركية في آسيا إلى مصر كما فعل سابقاً بجزيرة (كانديا) سنة 1830 وكامل سوريا سنة 1833.

كانت قسمات صديقي الموقّر تشعّ بالحماس عندما شرح لي وأشار بقوة واندفاع إلى المواقع التي اتخذها كل من الجيشين على النجد الذي كنا نسير فوقه حينها، التحصينات، الهجمات، دويّ المدفعية، المجازر البشعة، الاضطراب، الانسحاب، والفرار الجماعي الأخير للقوات التركية بأسرها وسط ارتباكٍ رهيبٍ نحو بيره جيك Bireh-jik مطاردين بعنفٍ من قبل فرسان المصريين الشريعين حتى ضفاف الفرات، وضمن مدى مدافع القلعة متسببين بدفع الآلاف منهم إلى التيار العريض، حيث هلكوا

كالجرذان عندما حاولوا السباحة إلى الجهة المقابلة.

* * *

بعد حوالي ساعةٍ من الزمن وصلنا إلى قريةٍ صغيرة مؤلفة من حوالي ثلاثين بيتاً حجرياً منخفضاً ذي سطحٍ مستوٍ، وهناك منحنا أنفسنا ساعتين من الراحة... تدعى هذه القرية (تل باشر) Tell Basher وتقع على المنحدر الشمالي الشرقي لنجد نصيب الذي كنا نسير فوقه للتو. بدا أن جميع السكان في هذه القرية عاكفون على جزّ صوف الأغنام، حيث تمَّ جمع أعداد كبيرة من هذه الحيوانات الوديعة داخل وحول القرية من أجل قصّ صوفها، وهي عملية تتم ببراعةٍ مدهشة على الرّغم من الحالة والنوعية السيئتين للمجزّات المستخدمة لهذا الغرض، وخاصةً من قبل النساء اللاتي بدون ماهراتٍ في هذا العمل، ولكن الشيء الذي أذهلنا بشدة هو السهولة غير العادية التي خضع بها القطيع لهذه العملية، ولم يكن هناك سوى عدد قليلٍ جداً من الأغنام التي تطلّبت القوة للإخضاع أو اضطّروا إلى ربط قوائمها.

من المؤكد أن العديد من خراف القطيع المتمرّسة كانت معتادةً جداً على هذه العملية كما يبدو، وطبعاً بالمعاملة اللطيفة استلقت أرضاً بشكل شبه طوعي عند قدمي الجزّاز لتخضع لعملية القصّ. حملت الكثير من النعاج الجيدة والحملان بشكلٍ خاص تعويذة أو تميمة على شكل حقيبة مثلثة ملئت بجذور النباتات والأعشاب وغيرها من المواد المعنية، وتدلّت كالجرس من حبل أو حزام جلدي ملفوف حول عنق الحيوان. تستخدم هذه التعويذات عموماً في جميع أنحاء الشرق وخصوصاً بين سكان سوريا وبلاد الرافدين وشبه جزيرة العرب الذين يؤمنون بالخرافات بشكل كبير، ويعتقدون بقوة أن هذه التعويذات حماية فعّالة ضد السحر والأرواح الشريرة والحوادث والأوبئة، في الحقيقة حماية ضد أي مكروه، لذلك يحملها معظم السكان من الجنسين كليهما وكافة الأعمار وأيضاً يضعونها للجمال والخيول والأبقار والأغنام والماعز، ولا سيّما إناث عائلات البشر والحيوانات.

وبالطبع هناك بعض البدو الذين سيسمحون دائماً لزوجاتهم أو أبنائهم أو حيواناتهم

المفضلة بالبقاء دون التعويذة.

خلال فترة ما بعد الظهر بدأنا مجدداً بمواصلة رحلتنا متجهين جنوباً بمحاذاة أسفل سلسلة طويلة من الهضاب الوعرة إلى ضفاف نهر التـاجور Sandshur أحد روافد نهر الفرات، وقد وصلنا إلى هناك تماماً عند الغروب. بعد عبور النهر مباشرةً، قادتنا طريقنا فوق هضبةٍ منحدرة إلى حدٍّ ما إلى أن استطعنا سماع النباح البعيد للعديد من الكلاب الضخمة الموجودة إلى الأمام من مسارنا، وهي إشارة أكيدة على وجود قرية أو مخيّم ما على مسافةٍ ليست بعيدة على الرّغم من أنها ليست مرئية، كلما تقدّمنا أكثر أصبح النباح أعلى وأكثر ضراوة، ثم سرعان ما سمعنا أصواتاً بشرية، واستطعنا تميز المعالم الباهتة لمساكن بشرية، وفي النهاية وجدنا أنفسنا في چانغولي Tshanguly، وهي قرية فقيرة ذات مظهر متداعٍ تسكنها عشرون عائلة فقط.

وفي هذا المكان قررنا أن نقضي ليلتنا بعد أن أنجزنا رحلةً استمرت طوال النهار، وكنا في تلك الأثناء لم نتذوق أي طعام تقريباً منذ أن غادرنا بيرِه جيك Bireh-jik.

كان بيتاً أحسن بشيء بسيط في مظهره وأكبر بقليل من البقية، لكنه حقاً لم يكن أفضل من أسوأ المساكن البشرية التي التقينا بها حتى الآن خلال رحلتنا، إنه البيت الذي اخترناه ليكون مهجعاً لنا بعد أن وافق سكانه على إخلائه ليلاً مقابل أجرٍ كافٍ قدره عشرة قروش (حوالي خمسون سنتاً أميركياً)، وأظنّ أن القروش العشرة كانت كثيرة بالنسبة لهذا المنزل؛ فقد كانت باحته غير ذات نفع بالنسبة لنا؛ ذلك أنها صغيرة جداً ولا تتسع لقافلتنا، أما بالنسبة للمنزل الصغير بحدّ ذاته فلكي يزداد انزعاجنا سرعان ما وجدنا أنه يعجُّ بالحشرات الطفيلية بمختلف أشكالها وأنواعها، لذلك قضينا ليلتنا أنا والسّنيور (P) والأب (M) في تحرّك مستمر. لن يستطيع أحد ممن لم يعانوا من حالةٍ مشابهة، أن يكوّن في ذهنه فكرة تقريبية عن السعادة التي شعرنا بها عندما رأينا انبثاق ضوء النهار، ولاشك أنه لم يسبق ليوسف المسكين - طبّاخنا - أن تمّ هزّه وإثارته بفظاظةٍ من سُباته الهنيء بهذا الشكل، للقيام بواجباته اليومية، لكنَّ يوسف كان موهوباً بقدرةٍ خارقة على النوم، وراح يشخّر بشدّة طوال الليل، غير آبهٍ بجحافل الحشرات

الطفيلية الطائرة والزاحفة والوثّابة التي تجتاحه.

كان ذلك الصباح مغمّاً بسبب الضباب الكثيف الذي حلَّ فوق المكان البغيض، وجعل دخان محروقاتنا يبقى منتشراً حولنا بكثافة، تُحضّر كتل المحروقات هذه «بإبداع» من قبل نساء البلد، وهي مصنوعة من روث الجمال والخيول، مخلوطاً مع القش المقطّع أو غيره من المواد النباتية، ثم تجفّف بالشمس حتى تتيبّس تمامًا، وإنّ استخدامها بشكلٍ عام لا ينحصر فقط في المناطق المقفرة والجافة والقاحلة من شبه الجزيرة وبلاد الرافدين وسوريا؛ بل ينتشر أيضاً في جميع أرجاء آسيا وأفريقيا، أينما كان الخشب نادر الوجود أو غير موجود نهائياً.

تؤلف صناعة كتل المحروقات هذه فرعاً هاماً من فروع العمل عند الطبقات الفقيرة في تلك البلاد، والسبب الرئيسي في ذلك هو أنَّ الفحم وتربة الخث لم يكونا مكتشفين بعد في هذه المناطق.

جعلتنا لهفتنا لمغادرة مهجعنا البائس بأقصى سرعة ممكنة نتناول فطوراً اقتصادياً جداً في وقتٍ قصير جداً على نحوٍ خطيرٍ - على الأقل كان خطيراً بالنسبة لمعداتنا - ثم متابعة رحلتنا مباشرةً بعد ذلك عبر سهلٍ عريضٍ ومستوٍ تماماً. وقد بدا جلياً أنه خصبٌ على الرغم من أنه مجرّدٌ بكل ما تحمل الكلمة من معنى من الأشجار أو حتى الشجيرات، بالإضافة إلى كونه مأهولاً بعدد ضئيل جداً من السكان. كلّما تقدّمنا أكثر فوق ذلك السهل، تلاشى الضباب الأغبش الذي هبط فوق المكان، وبعد ساعةٍ من شروق الشمس كانت السماء زرقاء والجوّ هفهافاً كما هي حالهما دائماً في سوريا.

شاهدنا عدّة قرى صغيرة تبعثرت فوق السهل الفسيح، وإلى جوارها كانت قطعان الإبل والخيول والحمير والبقر والأغنام والماعز، لكننا لم نشاهد أي إنسان، في طريقنا لمسافة أكثر من خمسة عشر ميلاً، حيث وصلنا قريباً من ضواحي آق جارين Ak Dejarin، وهي قرية تبعد عن مهجعنا في الليلة الماضية المسافة نفسها التي تبعدها عن حلب.

على مسافة ميلين من هذا المكان مررنا بعددٍ من القرويين وتجاوزناهم، كانوا رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، يركبون حميراً بائسةً صغيرةً وبشعة، ومزوّدين بمجرفات ورفوش ومناجل وغيرها من معدّات الزراعة، ومن الجلي أنهم كانوا عائدين من الحقول إلى منازلهم، لكونهم مجبرين على التوقف مؤقتاً عن العمل خلال ساعات الظهر الأكثر حرّاً. لم نستطع أن نكبح أنفسنا عن الضحك بسبب المظهر المضحك جداً لهذا الموكب الغريب حين كان يدبّ إلى الأمام مغطّىً بسحابةٍ من الغبار الذي أثارته الحوافر الصغيرة الخفيفة لحميرهم القزمة، فمعظم هذه الحيوانات كانت صغيرة جداً في الحجم، حتى إنه كان على راكبيها إبقاء ركبهم مثنية باستمرار لتجنب أن تُجر أقدامهم على الأرض.

في الواقع، عندما يريدون الترجّل ما عليهم سوى أن يقوّموا أطرافهم السفلية فتصبح أقدامهم مستقرّة على الأرض، عندها تستطيع الحمير أن تنزلق من تحت راكبيها وتتركهم واقفين على الأرض، لا بدّ أن كلّ من يشاهد مرّةً كفاءة حمير الشرق في تأدية عملها سيعجب بقوتها وشدّة تحمّلها الرائعين حقاً؛ إذ إنه من الأشياء اليومية في مصر وسوريا وشبه الجزيرة وبلاد الرافدين أن ترى هذه الحمير تحمل أثقالاً تفوق بكثير أوزان أجسادها لمسافةٍ تقدّر ما بين عشرين إلى ثلاثين ميلاً يومياً. تنتمي هذه الحمير إلى نوع خاص من أنواع جنسها؛ فهي من السلالة القزمة، رمادية أو سوداء اللون، ولا تزن أكثر من مئتي رطلٍ - وهناك بعضها لا يكاد يصل وزنه إلى مئة رطل - وتشبه الشيتلاند Shetland والبيغو Pegu من سلالة الأحصنة القزمة.

في يوم من الأيام وبينما كنت خارجاً للصيد في الصحراء مع أحد أصدقائي صادفنا رجلاً ضخماً وسميناً يركب على حمار صغير على نحوٍ استثنائي ويضربه بالعصا دونما رحمةٍ ويصرخ كالشيطان ليدفع هذا الحيوان الصغير المترنّح إلى الأمام. لاحظنا وجود حقيبتين كبيرتي الحجم تتدلّيان على جانبي الحيوان الصغير، فتوجهنا نحو العربي وسألناه بنبرةٍ ودّيةٍ عمّا يوجد داخل الحقيبتين، فأجابنا بجلافةٍ «ملح» وهو وزنٌ ثقيلٌ بحدّ ذاته، لذلك قرّرنا أن نعاقب هذا الحقير عديم الشفقة، وأمرناه أن يترجّل على

الفور ويتبادل الأدوار مع حماره، أي أن يحمل هو الحمار وحقيبتي الملح لمسافةِ ميل أو ما قارب ذلك.

من الواضح أنه اعتبر هذا التلميح وقحاً نوعاً ما وأنّ الاكتراث له سيحطّ من منزلته ووقاره، لذا حاول التقدّم دون أن يأبه لشيء، فأحطناه ببندقيتينا وهدّدناه بأننا سنجعله مثقّباً إذا واصل تقدمه، إلاّ إذا أخذ أوامرنا بعين الاعتبار. ترجّل الرجل عن حماره، ومع تمتماتٍ غاضبة مشى إلى جانب حماره، إلاّ أنه كان لا يزال راغباً عن رفع حمولته على كتفيه، ولكن لم يلبث أن سمع صوت سلاحينا حتى بدأ بالارتعاد مدركاً تماماً أن المقاومة لن تجدي نفعاً، ذلك أنه كان مسلحاً بعصاً وسكين فقط، ولذلك ربض على الرمال مع صرخةٍ حادةٍ معبرةٍ عن اشمئزازه، وأقحم رأسه داخل الفُتحة الموجودة بين القوائم الخلفية والأمامية للحمار، وحمله على منكبيه بثبات كما يحمل الراعي الخروف غير القادر على المشي، ودون أن نرى أي جهدٍ مبذولٍ من قبله وقف الرجل على قدميه، ومع حمولته هذه أمرناه أن يتحرّك إلى الأمام، وبالمسير خلفه جعلناه يحمل حماره الصغير وحقيبتي الملح حتى مسافة ميلٍ تقريباً.

بعد ذلك سمحنا له بإنزال حمولته ولكن قبل أن نغادر أخبرناه بأننا سنلحق به ونجعله يتبادل الأدوار ثانيةً مع البهيمة المسكين إذا حاول أن يمتطيه أو يعامله بقسوة مادام على مرمى أبصارنا. لقد رأى الرجل جيداً أننا كنا نعني ما نقول؛ إذ إنه حتى أبعد نقطةٍ استطعنا فيها رؤيته فوق الصحراء المنبسطة كان يسير على قدميه بهدوءٍ خلف حماره، لكنه كان ينظر إلى الخلف بين الحين والآخر ليرى إن كنا لا نزال نراقبه، ولا جرم أنه كان يتضرّع أن يحل سخط الله على رأسي «الكافرين» الشرّيرين اللذين تجرّأا على التدخّل في شؤونه وإغداقه بالإهانات وهو «حجّي» بارّ.

كان معظم أفراد الموكب الريفي الذي مررنا به بالقرب من آق جارين Ak Dejarin من النساء؛ فقد كانت النساء في هذه البلاد وكذلك في أي مكانٍ في الشرق، وطبعاً في أي مكان لم تكن الحضارة فيه قد غرست جذورها، هن حارثات الأرض. جميعهنّ ارتدين الثوب الكتانيّ المعتاد ذا اللون الأزرق الداكن الذي ترتديه النساء الفلاحات

فـي سـوريا وبلاد الرافديـن، وقد بدون جـذلات على نحوٍ ملفتٍ للنظـر وخاليات من الهمـوم بعد عدّة سـاعاتٍ مـن الحراثة، فعلى الرغم مـن أنَّ فترة الظهيـرة عندما مررنا بهـنَّ لـم تكن قد حانت بعـد، فإنهنَّ في ذلك الوقـت كنَّ قد أنجزن ما يـسـمى بعمل يوم كامـلٍ، فمن المعتاد لدى هـؤلاء الفلاحات أن يخرجن أثناء الجو الحار إلى العمل في حقولهنَّ باكراً جداً أي السـاعة الواحدة صباحاً، ويعملن حتى السـاعة العاشرة من صدر النهار تقريباً، حيث تصبح حرارة الشمـس في هذا الوقت من النهار قوية جداً ومضايقة للعمل في الحقل.

مع أن هؤلاء النسـاء كن بحاجةٍ ماسـةٍ إلى اغتسـالٍ جيد بالمنفح، واستخدام جيدٍ للمشط، فإنهنَّ بدون نشيطات ومتمتعات بالصحة، وهناك أيضاً بعض الشابات اللّواتي يمكن اعتبارهنَّ من الجميلات لو لم يفسدن خلقاتهنَّ الطبيعية بعلامات الوشم البشعة والمتعـذّر محوهـا ذات اللون الأزرق النيلـي والقرمزي، على طراز الوشـوم المألوفة عنـد البحّارة والملاحين في بلادنا. يكتفي الرجال عموماً بتشـويه جلدهم على الجهة الداخلية لسـواعدهم، لكن النسـاء المسـلمات لا يكفيهنّ ذلك فقط؛ بل يضعن علاماتٍ علـى جبهاتهنّ بين حواجبهنّ وعلى ذقونهن وحول رقابهنّ ووسـط صدورهنّ، وعلى قفا أيديهنّ وحول معاصمهن وكواحلهن.. الخ الخ.

إنّ علامات الوشـم هذه رؤية شـائعة بين نسـاء الشـرق، كما هو حال لبس الخواتم والأقراط بين نسـاء الأمم المتحضرة، ولكن لا يمكن رؤيتها أبداً على أجسـاد الإناث اليهوديات، لأنَّ طبع أية علامات على جسد الإنسان محرّمٌ في الشريعة الموسويّة.

علـى الرغـم مـن أن الوقت كان قرابـة بعد الظهر عندمـا دخلنا إلـى آق جارين Ak Dejarin قـرّر السّـنيور (P) ألا يواصـل التقـدّم في ذلـك اليوم، فقد كان فخـوراً بحقّ بخيوله العربية الرائعة إلى حدٍّ اسـتثنائي، والتي في الواقع كان يعتني بها ويرعاها كالأمّ المشغوفة بصغارها، إلى جانب ذلك كان للسّنيور (P) عدد من الأصحاب والمعارف فـي حلـب، المدينة التـي لطالما قـام بزيارتها في رحلاتٍ سـابقة له بحثـاً عن الخيول العربية، لذلك كان بطبيعة الحال متلهفاً للدخول إلى المدينة «بأحسـن حال» وإنه تبخترٌ

بريءٌ معذورٌ جداً عند الأشـخاص المتمرّسـين بالسـياسـة، وبناءً علـى ذلك كان ينوي قضاء الوقت المتبقي من النهار في تحضير كل شيءٍ على أكمل وجه.

تلقّى بيطارنا القصير الحاج محمّد ومسـاعده أوامر صارمة بأن يفحصا بعنايةٍ فائقة حوافـر ونعـال كل خيل وبغل وحمـار في القافلة، وألزم السائسـين والهجّانة بسياسـة وغسيل وتمشيط وتنظيف كل حيوانٍ موكلٍ إليهم، وكذلك بتجهيز أنفسهم وتنظيف كلّ سـرجٍ ولجامٍ وغطاءٍ ورَحْلٍ وغيرها من تجهيـزات الخيول، والإصلاحات التي كانت ضرورية إلى أقصى درجة يمكن تخيّلها بعد سفرٍ صعبٍ ومملّ دام لعدة أسابيع.

حتى نحن الأوروبيين وجدنا في مظاهرنا الشخصية أشياء تحتاج إلى تحسين كبير، وفي سـبيل إنجـاز ذلك تمّ إفـراغ حقائبنا وأمتعتنـا - التي قلّما فتحناها منـذ أن غادرنا بغداد - من أجل الحصول على ملابس نظيفة ومقصّات وأمواس للحلاقة وصابون... الخ.

* * *

الفصل الثامن والعشرون

في طريقنا إلى حلب

الصحراء - القافلة الأرمنية - الوادي الخصب الجميل - نهر حلب - حلب في البعيد - مقبرة إسلاميّة - مدخل مدينة حلب - استقبالنا في القنصلية - العشاء المترف - الهجوم على قافلة الكونت - تائه في حلب - تشابه الشوارع - حطام - القناة - المئذنة.

في صباح اليوم التالي عندما كنا نسير بنشاطٍ ومرح باتجاه حلب ومع الهيئات المبدّلة بشكلٍ كبيرٍ لكلِّ رجلٍ ودابةٍ في القافلة، لا بدَّ أن تكون الشمس المشرقة قد لاقت صعوبة في التعرّف على موكب اليوم السابق ذي المظهر المهمل كليّاً المغبّر والملطّخ بسبب الرحلة الطويلة.

حملتنا مسيرة ساعةٍ من الزمن إلى تيّارٍ مائيٍّ متعرّجٍ يدعى نهر حلب[1]، يشقّ طريقه متلوّياً بمحاذاة سلسلة من الهضاب المنخفضة (محدّبة ومكونة من الحجر الكلسي) باتجاهٍ جنوبيٍ شرقي نحو المدينة العظيمة.

عادت المنطقة بكاملها الواقعة جنوبي آق جارين Ak Dejarin فجأةً لتتخذ مظهرها الحجري الجافّ والمقفر الخاص بسهول إقليم الرافدين الأعلى، لكنها تجاوزت هذه الأخرى من تلك الناحية؛ فبدت للناظرين تماماً كالصحراء الحقيقية الموحشة. بعد

(1) يعرف نهر حلب باسم: نهر قوَيق.

عبـور ذلك التيـار أصبحت الطريق وعرة جـداً وأصبح من الصعب المسـير فوقها إلى حدٍّ ما.

لـم يكـن هناك أيّ كائنٍ حيٍّ في أيِّ مكانٍ باسـتثناء سـحاباتٍ كثيفة مـن طيور القطا السابقة الذكر، التي ارتفعت من الأرض الحصوية القاحلة في جميع الاتجاهات.

غاب نهر حلب عن أنظارنا لعدّة أميال، ولكن بعد حوالي ساعتين من مفارقته رأيناه ثانيةً على مسـافة نصف ميلٍ تقريباً من الجهة اليمنى لمسـارنا، يواصل مساره المتعرّج باتجاه جنوبي، ومن ذلك المكان أصبح بالإمكان تمييز مسـاره بوضوح بواسطة شريط ظاهرٍ لا متناهٍ من غابات الأشـجار والشـجيرات الخضراء الداكنة التي اصطفت بكثافة على جانبي التيار وسط الوادي الضيّق الذي تعرّج النهر بداخله، وهي النباتات الوحيدة التي يمكن رؤيتها في المنطقة المحيطة.

عندمـا كنّـا على مسـافة أربعة أميـالٍ من حلـب، قابلنا قافلـةً كبيرةً مؤلفـة من تجارٍ حلبيـين معظمهـم من اليهـود والأرمن، بعضهم كانـوا مع زوجاتهـم وأولادهم، ومن بعـض الضبـاط والجنود الأتـراك الذين كانوا علـى الأرجح في طريقهم إلـى المواقع العسـكرية في ديار بكر أو في الموصل أو بغداد، كان جميع هؤلاء المسـافرين يركبون علـى «الأكاديش» (خيول الطريـق المألوفة)، والبغال وراحوا ينظـرون نحونا بفضولٍ كبيـرٍ، ومن الواضح أنهم لاحظوا من الزيّ الـذي يرتديه العديد من رجالنا أننا أتينا من إقليم الرافدين الأدنى، فذهلوا من دون شك بمظهرنا الأنيق بعد رحلةٍ طويلةٍ كهذه.

بعـد فتـرةٍ قصيرةٍ من مرورنـا بالقافلـة، حملتنا طريقنا نـزولاً إلـى وادٍ صغيرٍ عميق ثـم صعدنـا ثانيةً إلـى الجهة المقابلة، وبعد ذلـك مررنا من بين العديـد من الفيلات أو المساكن الريفية الجميلة، المبنية على الطراز الشرقي الأصـيل، تحيط بها أراضٍ واسعة مسـوّرة بأسـوار حجرية منخفضة، وقد تناثرت فوقها أشـجار الزينة والفاكهة الجميلة، والشجيرات الفوّاحة والبقع المزروعة بالذرة الصفراء وغيرها، وتتناقض بشكلٍ غريبٍ ومثيرٍ للبهجة مع الأراضي المجدبة والمتكلّسـة الممتدة في كل مكان. لا بدَّ أنَّ كل حفنةٍ مـن التربـة الخصبة الموجودة في هـذه الحدائق الغنّاء قد تم إحضارهـا من مكانٍ بعيدٍ

جداً، ويمكن إبقاؤها خصبة وجعلها منتجة فقط بواسطة الريّ الاصطناعي المتواصل، ولكنّ من أين كانوا يحصلون على المياه المطلوبة ذلك ما لم أتمكن من معرفته، ذلك أنَّ أقرب مصدرٍ للمياه استطعت اكتشافه كان نهر حلب الذي يبعد بضع مئات من الياردات وكان مستواه أدنى على الأقل بسبعين قدماً من مستوى تلك الفيلات، مع أنه احتمالٌ أكثر من الجائز أن تكون المياه اللازمة للرّي قد جُلبت من النهر محمولة على ظهور الجمال والخيول والبغال داخل قِرب ماء جلدية كبيرة.

تلاشت الصورة المبهجة المذكورة للتوّ بسرعة من أمام أعيننا، وبعد التقدم لبضع مئاتٍ من الياردات وجدنا أنفسنا مرةً أخرى نسير فوق أرضٍ حجريةٍ عطشى بجانب المنحدر الشمالي لتلّةٍ منخفضة، ولكن قبل مسافةٍ طويلة لاحظنا - الشيء الذي لاقى استحساننا التام - أن الشريط الضيق من الغابات الخضراء الداكنة على طول ضفاف نهر حلب أصبح أعرض فأعرض، ثم بعد ذلك بقليل رأيناه يمتد إلى الوادي الواقع على يسارنا حتى يصبح بحجم حديقةٍ فسيحة، وهو دليلٌ أكيد على اقترابنا من هدفنا، وأنَّ مدينة حلب بكاملها ستصبح أمام أنظارنا عمّا قريب.

ثبت أن افتراضنا كان صحيحاً؛ إذ حالما وصلنا إلى قمة هضبةٍ حصوية منخفضة رأينا على مسافة أقل من ميلٍ واحد كامل الجزء الشمالي من المدينة، يلوح بهدوءٍ وجلال من قعر وادٍ قاحلٍ غير عميقٍ، أو إذا صح القول حوضٌ يحدّه من الشمال الجدول المسمّى نهر حلب Nahrel-Haleb الذي يروي في هذه المنطقة مسافة كبيرة من الحدائق الأكثر نضارةً التي امتلأت بمجموعاتٍ من أشجار الزينة وأشجار الفواكه العملاقة، وكما يبدو كانت هذه هي النبات الوحيدة الموجودة على مسافةٍ تبعد مسير يومٍ كاملٍ عن حلب التي أحاطت بها أكثر الأراضي الخاوية على الإطلاق، لتقدّم للغرباء صورة جليلة - مع أنها ليست جذابة - بآلاف الآلاف من أبنيتها المختلفة ومئات المآذن والمساجد التي تألقت بأشعة الشمس الحارقة، وبالتالي تجعل رؤية المدينة بشكلٍ جيد في الفترة ما بين الشروق والغروب شبه مستحيلة؛ وذلك بسبب الإرهاق البصري، ولكنَّ الشيء الذي أعطى مدينة حلب عظمة خاصة ومظهراً مهيباً

هـو القلعة أو الحصن الضخم الذي يرتفع متي قدم تماماً عن أسـفل المدينة فوق قمة مرتفعٍ منحدرٍ منيعٍ ينهض فجأةً كالشـبح من قلب مدينة حلب.

كانت السـاعة الواحدة بعد الظهر عندما اسـتطعنا رؤية المدينـة للمرّة الأولى، وفي ذلك الوقت أصبحت حرارة الشمس قويةً على نحوٍ مزعجٍ، والأرض الحجرية المغمّة التي كنا نسير فوقها توهجت فعلاً تحت أقدامنا، وكان لونها الأبيض الفريد المكثف بفعل الوهـج المنبعث من الكـرة الملتهبة مؤلماً جداً بالنسـبة لأعين كلّ من الإنسـان والحيوان.

بُعَيد رؤيتنا للمدينة، قادتنا طريقنا ثانيةً بمحاذاة المنحدر الشـمالي لهضبةٍ منخفضةٍ متاخمة للمدينة، كان سطح هذه الهضبة بكامله لمسـافة ميلٍ أو أكثر مقبرة واسعة واحدة، ينتصب فوقها مئتا ألف شـاهد قبرٍ على الأقل، معظمها - إن لم تكن جميعها - إحياءً لذكرى أموات مسلمين، وذلك حسب أشكالها وشعاراتها والنقوش الموجودة عليها. لكي أشعر براحة كبيرة وجدت أنَّ عدداً كبيراً منها يعود إلى زمنٍ سحيق، وأن «المؤمنين» المدفونيـن تحتها كانوا يرافقون محمّداً الرسـول منذ زمـن بعيد جداً في الفردوس ولا شـك أنهم منذ ذاك الوقت حتى الآن تعوّدوا كثيراً على صحبة «حور العيون» الفاتنات (حوريات الجنة سـوداوات العيون يتمتّعن بجمالٍ سـاحر، وكمال الجسد ومخلوقات من المسك الخالص) اللواتي وُعد بهنَّ المؤمنون بأن يكنَّ مرافقاتهم الدائمات من يوم دخولهم إلى الجنة.

مـررت بصمـت من هناك مع القافلة وكنت مسـروراً من كل قلبـي لأنني لم أكن أنا الـذي أتمتّـع بهـذا الامتياز، ثم دخلنـا من المدخل الشـمالي لمدينة حلب. بعد مسـيرٍ متعرّجٍ لمسـافة نصف ميلٍ تقريباً عبر شـوارع أو ممرات ضيقة وكدرة مرصوفة بشـكلٍ سـيءٍ، تحيـط بها من كل جانـب أبنيةٌ من الحجر واللبن كبيرة الحجـم، وكئيبة المظهر علـى الرغـم من أنها أبنيـة متينة، وبعضهـا كان مبنياً فـوق الطريق تماماً لتشـكل بذلك ممرّات مقنطرة أو طرقات مسـردبة.. وصلنا إلى شـارع أكثر عرضـاً ومرصوف بطريقة أفضـل من أي شـارعٍ آخر رأيناه في سـوريا أو في بلاد الرافدين، كان هذا الشـارع يمرّ

عبر القسم الأوروبي من المدينة، حتى لو لم نقابل في هذا الشارع أي شخص يرتدي زياً أوروبياً أو يتصرف بالطريقة الأوروبية، كانت هناك أشياء أخرى كالتالية تؤكد لنا أن هذا هو وكر الأوروبيين، المقاهي، وصالات الخمر والبلياردو، والمشروبات الرّوحية، ومتاجر الأحذية والجزمات، ودكاكين الصيادلة، ومتاجر شتّى تفيض بالبضائع الأوروبية، ومجهزة على الطريقة الأوروبية، والعديد منها كان يحمل لافتات تعرض أسماءً أوروبية وكتاباتٍ بالفرنسية أو الإيطالية أو اليونانية.

بالتقدّم فوق هذا الشارع شبه المستوي إلى نهايته العليا تقريباً، وقفنا فجأةً أمام مبنىً حجريٍّ طويل مؤلف من طابقين، فيه ستائر خضراء ونوافذ مدعّمة بالحديد، وفي الواقع كانت هذه الأخيرة مزوّدة بألواح من زجاج النوافذ وهو شيء نادر الوجود ومكلف جداً في جميع أنحاء الشرق ولكن على وجه الخصوص في المناطق الداخلية من تركية الآسيوية، وهو عادة تبذيرٌ ينغمس به الأثرياء الأوروبيون والأميركيون فقط.

كان مدخل هذا البناء عبارة عن بوابة خارجية مقنطرة ضخمة، مغلقة بواسطة أبواب خشبية ثقيلة مغطاة بصفيحةٍ من الحديد المليَّف، وفي وسط المبنى توجد باحة فسيحة مليئة بصناديق وحزم البضائع الأوروبية والآسيوية، وكانت الأولى (الأوروبية) قد وصلت للتو عن طريق قافلة جاءت من شواطئ المتوسط، أما الثانية فكانت تنتظر أن تُنقل بعيداً بالطريقة نفسها. ظهر أنَّ البناء كان منزل السيد (S. T.) وهو سيد سويسريٌّ محترم، وأحد رؤساء شركة (ST. Z. & Co.)، التي هي مؤسسة تجارية سويسرية أُنشئت في حلب منذ وقت طويل، وهي أيضاً الشركة الرئيسية في المنطقة التي تستخدم المبنى الموصوف للتو كمكتبٍ ومقر للتجارة، ومستودعٍ لها، وأيضاً كمسكنٍ لعائلة رئيس الشركة. وكما هو متوقعٌ طبعاً تمَّ إبلاغ هؤلاء السادة قبل وقت طويل من قبل السادة (J. W. & Co.) في بغداد والموصل عملائهم التجاريين وأصدقائهم في بلاد الرافدين، بخروجنا من بغداد ومن ثم الموصل، لذا كانوا يتوقعون وصولنا منذ عدة أيام.

لم تكد قافلتنا تصل إلى مدخل المدينة حتى علموا بوصولنا، لذلك عندما وقفنا أمام

مكتبهم كان هناك أحد أعضاء الشركة وعدد من الموظفين يقفون باستعدادٍ من أجلنا عند بوابة المبنى ليستقبلونا على نحوٍ ودّي حار. بعد تبادل التحيات المعتادة تم إخبارنا أنَّ خاناً أو نزلاً كبيراً ومناسباً يدعى (خان الكاتب) ويقع في الضواحي الغربية للمدينة ما بين أسوار المدينة والحدائق المذكورة سابقاً قد استؤجر خصيصاً لقافلتنا خلال فترة إقامتها في حلب، أما بالنسبة للأشخاص الأوروبيين في القافلة، فقد تمّت دعوتهم جميعاً بحرارة إلى الإقامة في منزل السيدين (S. T.) و (Z)، رفض السّنيور (P) ذلك شاكراً ومتذرّعاً بالضرورة التي تحتّم بقاءه مع الخيول الثمينة المسؤول عنها.

وكالمعتاد، كان الأب (M) المبشّر الشاب يحمل رسائل تقديميّة لإخوانه الكهنة في هذه المدينة، وقد أقام معهم. أمّا فيما يتعلق بي شخصياً فلم يكن لديَّ خيول ولا أخوية كهنوتية تتحكم بي، لذلك قبلت هذه الدعوة اللطيفة بسرور، بالإضافة إلى أنني حتى ذلك الوقت أصبحت عليل القلب بسبب المهاجع الكدرة في الخانات والتخييم في العراء، وكنت حقاً مشتاقاً للتغيير حتى وإن كان مؤقتاً. بعد أن أُنزلت أمتعتي توجهت القافلة إلى خان الكاتب بقيادة السّنيور (P) ويرشدهم إلى الخان أحد موظفي المؤسسة.

اصطحب أحد الخدم الأب (M) إلى الدّير، في حين أقمت أنا في المنزل المريح للسيد (S. T.) الذي عرض ضيافته بمنتهى الكرم، وخلال زيارتي التي دامت عشرة أيام كان السيد (S. T.) الاجتماعي وزوجته الودودة، والأنيسان دائماً السيد والسيدة (Z) وأربعة شبان موظفون في الشركة، جميعهم يتنافسون على جعل إقامتي بينهم هنيّةً قدر المستطاع، وكانوا يعاملون السّنيور (P) باهتمامٍ ملحوظٍ ودماثة صادقة في أيّ وقتٍ حَضَرَ.

مساء وصولنا إلى هناك قدّم لنا مضيفونا عشاءً سخياً في منزل السيد (Z) وهو بناء ضخمٌ متين مبنيٌّ على طراز فن العمارة السوري الأصيل، ويقع على مسافة مئتي ياردة من منزل السيد (S. T.) الذي يفصله عن الآخر الفرع الجنوبي من البازار، وأثناء فترة المساء سمعت أنا والسّنيور (P) وللمرة الأولى حقيقة الحادث الذي تعرّضت له قافلة

الكونت (.de B) الذي غادر بغداد قبل مغادرتنا لها ببضع ساعاتٍ فقط على رأس قافلة جمالٍ صغيرة متجهة إلى بيروت الميناء البحري الرئيسي في الساحل السوري عن طريق دمشق ترافقه سيدتان هما والدة وزوجة المسيو (P) القنصل الفرنسي في بغداد آنذاك.

على الرغم من أننا حذّرنا الكونت (.de B) من المخاطر التي قد يتعرّض لها في السَفر عبر صحراء الجزيرة، فإنّه لم يسلك الطريق الشمالية غير المباشرة التي سلكناها نحن، إنما تركنا في الموصل بطريقة مفاجئة إلى حدٍّ ما، وانطلق مباشرة عبر سهول الجزيرة المقفرة، باتجاهٍ غربيٍّ نحو جبل سنجار، وبعد يومين من المسير غرب هذه السلسلة الجبلية قيل إنه تعرّض للهجوم وقُتِلَ مع بعض رجاله من قبل عصابةٍ من البدو الغزاة، هذا كما وردنا في (نصيبين) عن طريق تاجر عربي وصل من تلك المنطقة.

ويجب التذكّر أيضاً أنَّ الشكوك راودتنا حول صحة خبر مقتله، إلاَّ أنّنا لم نشك أبداً بأنَّ حادثاً ما قد تعرّضت له القافلة.

كان الكونت (.de B) قد غادر حلب على رأس قافلته قبل وصولنا بأسبوعين فقط، متجهاً إلى بيروت عن طريق حماة Hamah وحمص Homos وهما مدينتان واقعتان في الوسط - وقد حلَّ ضيفاً كما أنا الآن - على السيدين (.S. T) و (Z) وبالتأكيد سمع هذان السيدان قصّة الحادث بحذافيرها من شفاه الكونت والسيدتين اللتين ترافقانه.

كان الخبر صحيحاً أنَّ قافلتهم تعرضت للهجوم من قبل البدو الغزاة في المنطقة الخاوية المذكورة للتو، ولكن لم يقتل أحدٌ منهم؛ غادرت القافلة مدينة الموصل بصحةٍ وعافية وسارت بحذرٍ شديد لعدة أيّام عبر المنطقة المقفرة دون ملاحظة أدنى اقترابٍ للخطر من أي جهة، ودون حتى رؤية أيّة مخيمات بدوية على السهل الواسع. في ذلك الوقت كانوا قد وصلوا إلى بحيرة النطرون الصغيرة Katunya عند السفح الغربي لجبل سنجار، وهي منطقة لا تزال أكثر إقفاراً من تلك التي سافروا فوقها حتى الآن، ومن الواضح أنها غير مسكونة من قبل الإنسان ولكن عوضاً عنه تسكنها أعداد هائلة من الغزلان وغيرها من الطرائد التي يمكن رؤيتها تطوف بشكلٍ هادئٍ فوق الصحراء

التي بدت لا نهاية لها.

كانت هذه هي المنطقة حيث تكون أقصى درجات الحذر والحيطة ضرورية؛ ذلك أنَّ البدو الغزاة يعرفون حق المعرفة شغف معظم المسافرين الأوروبيين بالصيد، وخاصةً حيث تكثر الطرائد وتكون جاهلة على نحوٍ مفرح لمفعول البارود والرّصاص، فيطبقون على ضحاياهم في مناطق كهذه، عندما تكون القافلة - وهو شيء متكرر الحدوث جداً - عاجزة إلى أبعد حدّ بسبب هذه الفئة منها، الفئة الأكثر قدرة على إبداء مقاومةٍ حقيقية، وذلك عندما يتباطؤون بحثاً عن الطرائد أو لملاحقتها. ومع أنهم يسافرون في منطقةٍ تبدو خالية تماماً من البشر، وليس هناك على مدّ النظر ما يثير أية شكوك، فإن المسافرين في الصحراء لطالما كانوا ملاحقين لعدة أيام من قبل عصابات يتراوح عدد أفرادها بين عشرة إلى مئتي غازٍ بدوي، مسلحين جيداً ويمتطون خيولاً موهوبة بسرعةٍ خارقة وثباتٍ كالغزلان.

لقد ولد هؤلاء البدو وترعرعوا في هذه المناطق الموحشة ويعرفون كل إنشٍ منها، وإن أقلّ ارتفاعٍ أو انخفاضٍ في الأرض يساعد مستكشفيهم في نصب الكمائن، لهذا السبب يترك المستكشفون خيولهم عادة مع شركائهم في الغزو، وحالما تسنح الفرصة يوافق المستكشف بإشارة من يده على التنفيذ، فيخرج جميع أفراد العصابة - عادةً لا يكونون في مكان بعيد - من مخابئهم وينقضون بسرعة مذهلة على ضحاياهم الغافلين من جميع الاتجاهات وسط صرخاتٍ وإيماءاتٍ رهيبةٍ والهدف منها هو إرهاب خصومهم وصعقهم من أثر الصدمة.

إنَّ «خدعة الحرب» التي لا تتغير هذه هي محاولة مجهدة لتشتيت ضحاياهم، وإذا لم ينجحوا في هذه الخطة الاستراتيجية فإنهم سيعملون على فصل ذلك الجزء عن القافلة، الجزء الذي يعدهم بأكبر قدرٍ من الغنائم، أي دواب الحمل التي تحمل الأمتعة أو البضائع، وإذا لم ينجحوا أيضاً في جرّ الدواب بعيداً، فإنهم سيكرسِفونها ويجعلونها إلى الأبد عاجزة وعديمة النفع، وبالتأكيد غير قادرة على الهروب، وطبعاً يفعلون ذلك لكي تصبح القافلة مضطرة إلى ترك الأمتعة بسبب حاجتها إلى حيوانات لتحمل هذه

الأمتعة، حتى وإن كان المسافرون هم المنتصرين في المعركة.

لكنَّ هؤلاء الرّجال المحصنين لا يلجؤون إلى الكرسفة الوحشية للدواب إلاّ عندما تخفق كل المحاولات والوسائل الأخرى في حصولهم على الغنائم، فهؤلاء البدو أكثر دهاءً من أن ينسوا أنَّ الجمل أو الحصان أو البغل سليم البنية يساوي دائماً مقداراً ما من المال بالنسبة لمالكه. إذا بدت المجموعة الرئيسية في القافلة قوية جداً وليس من الملائم مهاجمتها فإنهم سيحرصون على عدم التعرّض لها، وعندما يهاجمون مؤخرة القافلة أو المجموعة المتبعثرة من القافلة، يقومون بإحاطتها من كل الجوانب ويضايقونهم أو يجهزون عليهم برماحهم الطويلة (حيث نادراً ما يستخدمون الأسلحة النارية لئلا تنبه الضجة الناجمة عنها المجموعة الرئيسية في القافلة فتبوء نواياهم بالفشل) ثم يفرّون مع غنيمتهم بأقصى سرعةٍ ممكنة.

وعندما لا يتعرّضون للمقاومة العنيدة أو يثارون بمقتل أحد أصدقائهم فإن غزاة الصحراء هؤلاء سيكتفون بعد إخضاع ضحاياهم باستملاك كل الأشياء القيّمة التي يملكها الآخرون، والتي غالباً ما تتضمن الخيول والجمال والبغال... الخ، وحتى ثياب المسافرين (باستثناء ثياب الأوروبيين أو الأميركيين) التي لن تكون ذات فائدة بالنسبة لهم. يقومون بانتزاع كتب الجيب والرسائل بحرصٍ واهتمام، فقد تحوي بداخلها أحجاراً كريمة أو لآلئ أو غير ذلك، ولكن إذا كانت فارغة فإنهم إما سيعيدونها إلى أصحابها أو سيمزقونها باشمئزازٍ وتأفف.

وأحياناً فقط بدافع الوحشية المطلقة وتعمّد الأذى يُعرّى الضحايا تعيسو الحظ تماماً من كلّ قطعة من ثيابهم حتى من قبعاتهم وأحذيتهم، ثم يُسمح لهم بالمضيّ في رحلتهم بحالةٍ من العري الكامل، ليموتوا ميتةً شنيعةً إما بضربة شمسٍ أو بالمعاناة من آلاف الآلام أثناء مسيرهم المروّع على الأقدام حاسري الرأس وحفاة الأقدام ومعرّضين من كل الجهات لأشعة الشمس الملتهبة ورمال الصحراء الحارقة. إنَّ حوادث كهذه ليست على الإطلاق نادرة الوقوع في بعض أنحاء شبه الجزيرة وبلاد الرافدين وسوريا، وهذا كما أفاد العديد من المسافرين الأوروبيين والأميركيين.

أصبح الكونت (.de B) الذي سار لعدة أيام فوق سهول الجزيرة دون أن يلاحظ أي شيء مثير للريبة متهاوناً في الحذر والاحتياطات الضرورية، لذلك عندما وصلت القافلة إلى السهول المقفرة غربي جبل سنجار حيث تكثر الغزلان والخنازير البرية وغيرها من الطرائد، استحوذ عليه حبه للصيد وجعله يسمح للقسم الرئيسي من القافلة بالمسير بسرعتهم المعتادة في حين تخلّف عنهم بضع مئاتٍ من الياردات مع أربعة من أحسن خيوله وثلاثةٍ من أتباعه، أو قد يكون انحرف بهذه المسافة عن الطريق بحثاً عن الطرائد.

كانوا مسلحين جيداً، وكان لدى الكونت خبرةٌ كبيرةٌ في السفر عبر الشرق، ومع ذلك أصيبوا بدهشةٍ كبيرةٍ عندما انتشرت جماعة مؤلفة من عشرين خيّالاً بدوياً بشكل هادئ ومفاجئ على الأرض الواقعة بين القافلة والمجموعة الصغيرة. كان الكونت (.de B) قبل بضعة أسابيع فقط قد أنهى زيارته للقبائل البدوية في الصحراء الشاسعة الممتدة بين دمشق وبغداد بصفته الرسمية كمبعوثٍ من رابطة التجار في ميناء بيروت، بغية فتح طريق قصيرة ومباشرة بين بيروت وبغداد، وبناءً على هذه الأهلية التي مُنحت له قام بإنشاء وتوقيع معاهدات خطّية مع شيوخ قبائل البدو المختلفة التي تتنقّل في المنطقة على طول الطريق المباشرة المقترحة للقوافل، وقد تلقّوا بدورهم منحاً نقديّة كبيرة مقابل ضمانهم لمرور القوافل من مناطقهم بحريّة دون التعرّض لأية إزعاجات.

بالطبع كان الكونت (.de B) مصعوقاً عندما وجد نفسه مطروحاً أرضاً وقد تعرّض للهجوم من قبل بعض سكّان المنطقة نفسها التي وقّع معها معاهدات المرور الحرّ دون معوّقات، وفي ذلك الوقت كان يحمل الوثيقة معه، لم يخطئ الكونت في فهم التحركات والإشارات المريبة لهؤلاء البدو، فمن الجلي أن نيّتهم كانت اعتراض سبيل الكونت (.de B) ومرافقيه، ومنعهم من العودة والانضمام إلى القافلة ثانيةً، فهم الكونت ذلك من لمحةٍ واحدة وعرف أنهم لو نجحوا في أسره مع مرافقيه فإن المهاجمين لن يقوموا فقط بتعريتهم كلياً من ملابسهم وربما بقتلهم إنما سيشجعهم هذا النجاح على مهاجمة القافلة نفسها مباشرةً، ذلك أنها - كما ستكون - مجرّدة

مـن قائدها وأفضل رجالها المسـلحين على أفضل وجه. لحسـن الحـظ كان الكونت (de B.) جندياً مجرَّباً ورحَّالة مستشـرقاً خبيراً، لذا لم يتسـبب الفزع في إفقاده لرباطة جأشه.

بعـد أن شـرح الكونـت لمرافقيه ببضع كلمات مناسـبة حقيقة حالتهـم الباعثة على اليأس أمرهم باللحاق به أينما ذهب، وأن يجهزوا أنفسـهم للقتال ويبذلوا جهدهم في اختـراق الحاجز المكوّن من الغزاة البدو الذين شـكّلوا دائرة حول مجموعة الفرسـان الصغيـرة، وراحـت دائرتهـم تصغر أكثر فأكثر. لسـوء حـظ المجموعة، كانـت القافلة تتقدّم عليهم بمسـافة نصف ميلٍ عندما اكتشفوا وجود الفرسان المريبين، وكانت خارج نطاق الرؤية تماماً بسـبب طبيعة الأرض المتموّجة في تلك المنطقة، ولولا ذلك كانت رصاصـة واحدة تطلق من قبـل المجموعة الصغيرة للإنذار بالخطـر كفيلة بلفت انتباه القافلة، وعلى الأرجح كانت ستجعل القافلة بأسرها ترجع إليهم لمساندتهم.

كما شـاءت الأقدار كان على الكونت (de B.) وأتباعه إما المرور عبر دائرة البدو المتقلصـة، أو وضع أنفسـهم تحت رأفـة هؤلاء الآخرين الواسـعة، وبالطبـع اختاروا الخيـار الأول مدركيـن تمامـاً أن لديهم القليل فقط من السـماحة ليتوقعوها من هؤلاء الأشخاص الشرسين، وبالسـرعة القصوى تزعّموا الموقف.

أمّـا الكونـت (de B.)، وهو رجـل رياضي، ثقيل الوزن، وفـارسٌ عظيـمٌ لا يقهر، يمتطـي جـواداً قوياً، وبندقيـة «الجفت» في يده، فـكان في المقدمـة، والبدو برماحهم الطويلة الموجّهة اندفعوا - وفقاً لما ظهر أمامهم - نحو النقطة التي حاولت المجموعة الصغيرة أن تخترق منها الدائرة لكن الكونـت (de B.) عنـدما أصـبح على مـسافة ثلاثين يـاردة أفـرغ محتويات سَـبَطانتيّ بندقيـة باتجاه الحشـد فطرح منهم اثنيـن، ثم انعطف بجـواده على نحـو مفاجئ إلى الخلف واختـرق الدائرة من الجهـة المقابلة حيث كان هنـاك اثنـان أو ثلاثة من الرجال الشرسـين يقاومون هجومه العنيـف، لكنه وقف بعيـداً جـداً منفـرداً بعد أن تمكن مع اثنيـن من أتباعه، من المرور من بينهم قبل أن يتمكنوا من تقليص الفجوة.

كان المرافق الثالث أقلّ حظاً من الآخرين، ذلك أنه إما بسبب قلة الانتباه أو بسبب عدم قدرته على الانعطاف بحصانه لم يستدر إلى الخلف مع أصحابه، بل اندفع مباشرةً إلى قلب أعدائه، بينما كان يطلق النار من بندقيته، أجفل حصانه من القامتين المتلويّتين للبدويين الذين طرحهما الكونت (.de B) أرضاً، فشبَّ الحصان عالياً، وانطلقت في الهواء رصاصاته المصوّبة جيداً دون أن تتسبب بأي ضرر، وفي الوقت نفسه تقريباً تلقى طعنة رمحٍ في بطنه وسقط من على صهوة حصانه نازفاً.

تولّى بعض الغزاة الاهتمام به وبحصانه في حين انطلق معظم رجال العصابة خلف الثلاثة الهاربين الذين أمطروا جيادهم على نحوٍ مرعب باتجاه القافلة. أما البدو الذين يركبون بشكلٍ مذهل فقد كدّوا كثيراً للحاق بهم.

يبدو أنَّ الحظ كان حليف نواياهم القذرة؛ فقد نجحوا في الإمساك بالجميع باستثناء الكونت الذي كان جواده أكثر من ندٍّ لأيٍّ من خيولهم، وحمل سيّده بأمانٍ بعيداً عن مرمى رماحهم وأسلحتهم النارية الرديئة، وقد استخدموا هذه الثانية بشكلٍ كبيرٍ أثناء المطاردة على أمل شلّ حركة الجواد المخلّص للهارب. لم يلبث الكونت (.de B) أن وصل إلى ارتفاعٍ بسيطٍ في الأرض استطاع فيه رؤية قافلته أمامه على مسافة بضع مئات من الياردات فقط، حتى تخلّى الغزاة بشكلٍ مفاجئٍ عن المطاردة وانطلقوا عائدين بسرعةٍ خاطفة إلى حيث كان شركاؤهم في الغزوة مع الخيول والأسلحة والثياب... الخ التي استولوا عليها من الأسرى الثلاثة. بعد لحظةٍ من ذلك اختفت العصابة بأسرها مع غنيمتها بأقصى سرعةٍ استطاعت خيولهم العدو بها، لذا عندما عاد الكونت (.de B) ليظهر على مسرح الحادثة معزّزاً بقافلته بأسرها، رآهم يغيبون عن الأنظار في الأفق البعيد مخلّفين وراءهم سحابةً من الغبار.

فيما يخص مرافقيه الثلاثة فقد وجدهم في حالةٍ مؤسفة، يتقدّمون ببطءٍ نحو القافلة كما ولدتهم أمهاتهم. ويحمل الأسيران بلطف صديقهم الذي أصيب بطعنةٍ من رمح أحد اللصوص، وفي الواقع تعرّض الجميع لمعاملة قطّاع الطرق القاسية وعديمة الرحمة؛ فعلى الرغم من أن الأسيرين لم يثخنهما آسريهما بجراحٍ خطرة، فإنهما أصيبا برضوضٍ مؤلمة

بسبب سقوطهما عن حصانيهما، الأول سقط مصادفةً والآخر طُرح من على صهوة حصانه أثناء فراره من أحد مطارديه السريعين، أمّا ذلك المسكين الذي طُعن في بطنه فقد كان مغطى بالدماء التي تدفقت من الجرح العميق. وعلى الرغم من آلامه الرهيبة مشى الرجل تعيس الحظ مسافةً كبيرةً بمساعدة صديقيه المتألمين أيضاً، ولكن عند وصول القافلة إليهم كان شبه مغميّ عليه، بسبب خسارته دماً كثيراً، بالطبع تم الاعتناء به على الفور، وتم تضميد جرحه كما يجب، ولكن بما أنه لم يكن من الممكن العثور على قطرة ماءٍ في الجوار، لم تستطع القافلة أن تخيّم في ذلك المكان نفسه، إنما كانت مضطرة للتقدّم ببطءٍ مسافة عشرة أميالٍ إلى الأمام مع الرجل الجريح محمولاً على حمّالة يرفعها بغلان، إلى أن وصلت إلى ضفاف نهر الحساوي Hesawi.

خسر الكونت في هذا الحادث ثلاثة خيول ممتازة أحدها كانت فرساً أصيلة سوداء صغيرة، وهي ملك للسيدة الأصغر من بين هاتين السيدتين اللتين تسافران معه إلى بيروت مع كافة تجهيزاتها، بالإضافة إلى بندقيتيّ (جفت) ومسدس، بينما خسر المرافقون الثلاثة جميع ما كانوا يرتدونه من ثياب. لو لم يكن هؤلاء الأخيرون من المسلمين أو أظهروا من ناحيتهم أية مقاومة عنيدة، لكان آسروهم أجهزوا عليهم، وهو قدرٌ من المؤكد أنه كان سيقع على سيّدهم لو لم يهرب بسرعة وبراعة.

وأفاد المرافقون أنّ رصاصات الكونت التي طرحت أرضاً اثنين من الرجال الشرسين تسببت لكليهما بجروحٍ خطيرة، ذلك أن أحدهما كان غير قادرٍ على العودة إلى صهوة حصانه دون مساعدة وكان مسنوداً من على يمين حصانه ويساره من قبل أصحابه، أما الثاني فلم يستطع الركوب على السرج نهائياً، وقد نقله رجلٌ مفتول الساعد على حصانٍ قوي. كان المرافقون قد سُئلوا تحت الضغط من قبل آسريهم عن طبيعة الأمتعة التي تحملها جمال القافلة، ولكن لدى معرفتهم أنها لم تكن أشياء قيّمة وكانت مؤلفة بشكل رئيسي من ثياب تخص الامرأتين الفرنجيتين، بدا أنهم أصيبوا بإحباطٍ شديد وكأنما ندموا على كونهم تعرّضوا لهذا الكمّ من المشاكل والمخاطر من أجل أمتعة لا قيمة لها.

كان بينهم شخص وحشيٌّ من الواضح أنه اعتبر نفسه أذكى من البقية فسأل ما إذا كانت السيدتان زوجتين لأحد شيوخ «فرنجستان» أي أوروبا، وعند تلقيه رداً بالنفي راح يعضّ أصابعه (وهي علامة على النّدم بين البدو) لضعف احتمال حصولهم على غنيمةٍ مثمرة. ومع أن الكونت (.de B) كان يشكّ في احتمال تعرّضهم لهجوم ثانٍ من قبل العصابة نفسها، فقد رأى من الحكمة البقاء متيقظين أثناء الليل تحسّباً «للحفلات المفاجئة» وبقي هو نفسه يحرس القافلة طوال الليل مع قسمٍ من رجاله.

كانت حالة الجريح الذي بالمناسبة هو رئيس سائسي الخيول لدى الكونت تزداد سوءاً ساعةً بعد ساعة؛ فقد بدأ الالتهاب في جسده ثم تفاقم أكثر فأكثر، ولا شك أن السبب في ذلك هو المسير المحتوم لمسافة عشرة أميال، وهكذا ظلت معاناته تزداد حتى حوالي الساعة الثانية صباحاً، عندما خفّف عنه الموت آلامه الدنيوية.

مع انبلاج الفجر أمر الكونت (.de B) اثنين من رجاله بحفر قبر خلف خيامهم لصديقهم الميت، وفي النهاية استقرّت ضحية جشع الإنسان بصمتٍ في قلب الثرى.

كانت طبقة من الألواح الحجرية السميكة المجلوبة من النهر مغطاة بأحجار ثقيلة لتمنع الضباع وبنات آوى من نبش الرفات، تشكّل ضريح ذاك المسكين، وهناك في الصحراء الموحشة تُرك لينتظر يوم البعث الكبير الذي بشّر ووعد به محمّد الرسول، كأجرٍ لكل مؤمن حقيقي في الإسلام (في طاعة أوامر الله ومشيئته).

كانت السيدتان الفرنسيتان في القافلة ضعيفتي الصحة وعصبيتي المزاج بطبيعة الحال، وأثناء هذا النهار الحزين أصيبتا بصدمةٍ بليغة حتى إنهما كانتا كميتتين أكثر من كونهما على قيد الحياة، وبقيتا كذلك حتى بعد منتصف الليل، حين غرقتا في حالة فقدانٍ للوعي استمرّت حتى الشروق. عندما استيقظتا كان سؤالهما الأوّل عن وضع الرجل الجريح، فأخبرهما الكونت بأنه «بأحسن حال»؛ إذ لم يرد أن يزيد من بؤسهما، ولكن عندما خرجت السيدة الأكبر من خيمتها لتبحث عن المريض أُجبر الكونت على إخبارها بحقيقة موت الرجل ودفنه، وأخبرت هي بدورها أخت زوجها بهذا الحدث المؤلم.

استولت على القافلة لعدة أيام سحابة من الكآبة والوجوم بسبب هذه الحادثة المؤسفة.

* * *

خلال فترة إقامتي في مدينة حلب قضيت معظم أوقاتي في زياراتٍ يومية لرفيق رحلتي الجدير بالاحترام، الذي كان يقيم بشكلٍ مريحٍ مع قافلته في الباحة المظلة الفسيحة لخان «الكاتب»، وقد جعل منه أهالي حلب الظرفاء - دون أن يتعمّد هو ذلك - «أسد» النهار، حيث كان مهجعه يُجتاح يومياً منذ الصباح الباكر حتى الليل من قبل أعداد من أصدقائه والزوّار الفضوليين، جميعهم يتوقون إلى الاطّلاع على نماذج الخيول الفاخرة التي ذاع صيتها في جميع أرجاء المدينة.

بينما كان يقوم قائد قافلتنا باستقبال زائريه الكثُر والإشراف على العمل اليومي للسائسين وسائقي خيول الحمل والبغال، والتجول في السوق الواسع بغية شراء المؤن وغيرها من الضروريات للرجال والدواب، ومتابعة شؤونه المالية في مكتب السادة (S.T.,Z & Co) لم يكن لديه سوى وقت فراغ ضئيل جداً للقيام بزياراته الخاصة أو الاطلاع على الأماكن الهامة في مدينة حلب. إن أول شيء فعله تقريباً بعد إقامته في خان (الكاتب) كان الذهاب إلى دير الراهبات الفرنسي ليلتمس من السيدة المسؤولة عن الدير أن تعتني ببَحري (Bahri) الفتاة الزنجية التي سيتذكر القارئ أنَّ السّنيور (P) أحضرها من نخّاسٍ في بغداد، وكان هدفه الأساسي من ذلك هو تقديمها هدية لابنته التي وضعها في المدرسة الداخلية للسيدات الصغيرات في مدينة إزمير Smyrna في آسيا الصغرى، والتي يفترض أن تصبح (Bahri) وصيفةً لها.

أبدت الفتاة رغبةً حماسيةً صادقة بأن تصبح مسيحية، لذا شعر بأنه غير قادر على معاملتها كالعبيد، وقبل أن يغادروا بغداد أعتقها، وقبل رحيلنا عن بغداد توسّلت الفتاة إلى السّنيور (P) بانفعال لئلا يتركها، بل أن يأخذها معه ويسمح لها بأن تصبح خادمةً لعائلته، وافق السّنيور (P) على ذلك متأثراً باستحلافها الصادق والخصال الحميدة التي تتمتع بها، فتابعت معنا الرحلة كاملةً، ترتدي زيَّ شابٍ أرمني، ما عدا أثناء إقامتنا

في الموصل وديار بكر؛ حيث ارتدت ثياباً أوروبية للإناث. كانت فكرة ارتدائها زيّاً ذكورياً أثناء السفر معنا من اقتراح السّنيور (P) الذي كان محقاً في هذا الرأي، ذلك أنَّ الإنسان بالزي الذكوري يستطيع الركوب فوق السرج براحةٍ وثباتٍ أكثر من أيِّ زيٍّ أنثوي، وخاصةً أن السرج الجانبي لم يكن معروفاً على الإطلاق لدى نساء الشرق.

كان هدف السّنيور (P) من تقديم الطلب إلى الدير لقبول الفتاة الزنجية هو أن تتعلم ديانة الروم الكاثوليك واللغة العربية، حيث إنها خُطفت قبل حوالي سنة واحدة فقط من بلدها الحبشة ولم تتعلم لغة البلاد بعد. وافقت السيدة المسؤولة بسرعة على تولّي أمر الفتاة خلال فترة إقامة السّنيور (P) في حلب، وتم أخذ (Bahri) أو ماريّا (الاسم المسيحي الذي يسعدها أن تسمَّى به) دون تأخير إلى الدير، حيث بقيت حتى ساعة مغادرتنا للمدينة.

لم تكن الأعمال التجارية ناشطة جداً أثناء زيارتنا لحلب، لذا كان مضيفي السيد (S. T.) لطيفاً جداً معي عندما خصّص واحداً من الشبّان الأوروبيين الأربعة الموظفين في الشركة، لمرافقتي في جولاتي عبر المدينة، لأنني في اليوم الثاني من وصولي لم أشأ أن أعطّل أعمال مضيفي، فخرجتُ وتجوّلت وحيداً في الشبكة المعقدة للشوارع والأزقّة المتعرّجة في حلب، لقد تجوّلت في المنطقة لساعات وكنت مستغرقاً جداً في تأمّل كل شيء من حولي لدرجة أنّني نسيت تماماً أن أنتبه إلى مسيرتي الشاردة في جولتي هذه، والنتيجة الطبيعية لذلك كانت عندما اقترب وقت الغداء، قرّرتُ أن أعود إلى مكان إقامتي، فشرعت في ذلك على الفور، وبعد المسير بنشاط لأكثر من ساعتين وجدت نفسي في النقطة نفسها التي بدأت منها أتصبب عرقاً كحصان السباق.

في النهاية نجحت في إيجاد مكان إقامتي ولكن عند وقت العشاء، مسبباً ثورة من الضحك على حكاية محنتي.

إنها ليست بالمسألة السهلة بالنسبة للأجانب - وخاصة هؤلاء الذين لا يفهمون لغة البلد - أن يمشوا دون أن يضلّوا طريقهم إلاّ إذا كان بصحبتهم أحد أبناء البلد أو أحد آخر يستطيع أن يتحدث لغة مدينة الإسلام. الشوارع ليست مسمّاة، والمنازل ليست

مرقّمة، وبالكاد تستطيع تمييز منزلٍ عن الآخر، في الواقع، إن متعة المشي في معظم الشوارع والأزقّة في مدينة إسلامية بالنسبة لشخصٍ عالمٍ بخصائص الحياة اليومية الشرقية هي تقريباً كمتعة المسير عبر خنادق القلعة بالنسبة للجندي أو في مصنع الحبال بالنسبة لصانع الحبال، وإنَّ هذه الرتابة في المحيط العام هي التي تحيّر الغريب غير ذي الخبرة حين يتجوّل في الشوارع الثانوية لأية مدينة إسلامية.

أعرف صديقاً بدأ في المشي من أحد البيوت إلى البيت الآخر، أي مسافة لا تزيد على ثلاثمئة ياردة، فأضاع طريقه واستغرق أكثر من أربع ساعات لإنجاز هذه المهمة. وأعرف قصة رجلٍ آخر وقع في ظروفٍ مشابهة، حيث خرج من بيتٍ إلى آخر يكاد لا يبعد رمية حجرٍ عن الأول، وعندما بدأ في طريق العودة بعد حوالي ساعة من الزمن وجد أنه لن يتمكن من إيجاد سبيله للعودة من دون مساعدة، حتى وإن ظلَّ يمشي إلى يوم القيامة، لم يكن يعرف أية كلمة عربية أو تركية أو فارسية، ولم يكن في حياته سيتذكر بدقة شكل المظهر الخارجي للبيت. لحسن الحظ، التقى بسيدٍ أوروبي بينما كان تائهاً في الطرف الآخر للمدينة، فاصطحبه هذا السيد بمنتهى اللطف إلى وجهته.

بعد تجربتي المريرة في التعرّف إلى حلب طبوغرافياً، بتّ أُسرُّ دائماً إذا رافقني في جولاتي المستمرة أحد أولئك الشبّان الموظفين في الشركة، وخاصة أنهم كانوا لطفاء جداً ومتلهفين لأن يروني كل ما هو ممتع وجدير بالملاحظة.

* * *

حلب أكبر مدينة في سوريا الشمالية وعاصمة ولاية حلب، وفي الوقت الحالي يصل عدد سكانها إلى تسعين ألفاً، ربعهم تقريباً من المسيحيين (وبعضهم أوروبيين)، وحوالي خمسة آلاف يهودي، بينما كانت غالبية السكان من المسلمين.

لكنَّ حلب تملك دليلاً واضحاً على أنَّ تعداد سكانها في السابق كان أكبر بكثير، ويقال إنه كان أكثر من مئتي ألف نسمة حتى عام 1822 عندما حصل زلزالٌ كارثيّ ودمّر ليس الجزء الأكبر من المدينة ذائعة الصيت فحسب؛ بل أيضاً ثلثي تعداد سكانها

بالتمام. كانت أكوام الأنقاض التي يمكن رؤيتها في كل حي من أحياء المدينة وكذلك في ضواحيها شهوداً صامتة ومع ذلك معبرة عن تلك الفاجعة المؤلمة. كانت حلب أحد أهم المراكز التجارية في الشرق قبل الزلزال، وسرعان ماكانت ستعود إلى سابق حجمها وأهميتها ما لم يهلك القسم الأعظم من سكانها بالطاعون، وفي عام 1832 أبادت الكوليرا - جائحة القرن الحالي الرهيبة - قسماً كبيراً آخر من السكان المتبقين، ثم أكمل نكبة هذه المدينة الهالكة الحكم الاستبدادي عديم الرّحمة للطاغية المصري محمّد علي الذي اغتصب سوريا بكاملها من الأتراك مباشرةً بعد اختفاء الوباء القاتل من حلب، وأمسكها بقبضةٍ من حديد حتى عام 1840، وفي عام 1865 أيضاً أزهق وباء الكوليرا المدمّر ثمانين ألف روح بشرية. من المذهل أنها لم تتجرّد بشكل كامل من سكانها بعد المرور بهذه المحن الفظيعة التي لم يُسمع عنها في تاريخ أي مدينة في العالم، وكل ذلك في فترة قصيرة لم تتجاوز أربعة وثلاثين عاماً.

يُفترض أن أصل المدينة يعود إلى بداية عصر الإسلام، على أية حال، كانت المدينة مكاناً ذا أهمية كبرى، ومعقلاً عظيماً للمسلمين أيام الحملة الصليبية.

بُنيت حلب بشكلٍ أفضل نوعاً ما من معظم المدن في هذا الجزء من العالم؛ إذ كانت تحوي عدداً من الأبنية الجيدة أكثر من أي مكان تمّ وصفه حتى الآن. والقسم الأكبر من شوارعها أنظف، وأعرض، ومرصوف بطريقة أحسن من متوسط الشوارع في المدن السورية والفارسية ومدن شبه الجزيرة وبلاد الرافدين، لكن موقعها غير مستوٍ، وبالتالي شوارعها كذلك. وكافة الأبنية تقريباً مبنية على الطراز الإسلامي الأصيل، فقط بضعة أبنية في الحيّ الأوروبي امتزجت مع أسلوب البناء الشرقي وأظهرت للطريق بعض وسائل الرفاهية الأوروبية، كزجاج النوافذ وأغطيتها، والمظلات، والشرفات، واللافتات... وغيرها.

إنَّ القسم الأفضل الأكثر نظافةً وثراءً في المدينة هو القسم الشمالي، الذي بالإضافة إلى الحيّ الأوروبي يضم الحي الذي يقيم فيه المسيحيون، والمكان الذي يقع ضمنه القسم الأغنى من البازار.

ومعظم الأبنية في هذا القسم كبيرة الحجم، مبنية بالقرميد القوي والحجر الرّمادي، ويتراوح علوّها ما بين طابقين إلى ثلاثة طوابق، وتلك التي يسكنها أفراد الطبقة الأكثر ثراءً وترى منظمة على نحوٍ مريح جداً من الداخل، ومزخرفة بترف بالأرابيسك والزخارف الجصّية والموزاييك والأرضيات الرخامية... وهلمّ جراً، إلى جانب ذلك فهي مؤثثة بطريقةٍ شرقية باهرة.

أمّا الأحياء اليهودية والإسلامية في المدينة فهي أقل جاذبيةً؛ فالشوارع ضيقة وكدرة وملتوية، والمظهر الخارجي لمعظم المباني كئيب ورديء، على الرغم من أن العديد منها يسكنه أشخاص أثرياء ينفقون أموالهم عادةً على منازلهم من الداخل أكثر من الخارج، ويعيشون في رفاهيةٍ شرقيةٍ حقيقية داخل أبنية تبدو كالسّجون المنعزلة أكثر مما تبدو منازل للمعيشة.

يقال إنَّ أقدم بناء في مدينة حلب هو قناة جر المياه المؤلفة من صفّين من القناطر العالية، أحدهما مبنيٌّ فوق الآخر، ويحملان مسرباً مائياً أو قناة صغيرة كانت تزوّد المدينة بالمياه في أوقاتٍ سابقة، لكن القسم الأكبر منها أصبح الآن حطاماً، وكل ما تبقى منها بالكاد يصل إلى ستمئة ياردة في الطول مبتورة بشكلٍ منحدر من كلتا النهايتين، وقد يكون ذلك نتيجة للزلزال. تقع القناة في الجزء الشرقي من المدينة، وبسبب مظهرها الأبيض الشاحب وارتفاعها الشاهق يمكن رؤيتها من مسافات بعيدة جداً. وبالقرب من القناة بني عدد من الأبنية الضخمة الثقيلة من الحجر الرمادي فوق حدرٍ مرتفعٍ قليلاً. وهذه الأبنية حديثة الإنشاء، وتستخدم كثكنات للحامية التركية. وعلى مسافةٍ قريبةٍ من المساكن الأوروبية في الوسط بينها وبين البازار ينتصب البناء الوحيد في حلب المبني على الطراز الأوروبي.

إنه محطّ اهتمام كبير بالنسبة لجميع الأوروبيين بمختلف آرائهم، فهو أثرٌ جليلٌ من عصور ماضية. إنَّ هذا البناء، أو بالأحرى كان هذا البناء كنيسةً قيل إنها أنشئت من قبل الصليبيين في بداية القرن الثاني عشر، لكنها الآن تستخدم كمعهدٍ إسلامي، حيث يستخدم صحن الكنيسة الجليلة كحجرة دراسة لأطفال المسلمين، والبرج المربّع

كمئذنـة. من الشـرفة الخارجية قرب قمـة المئذنة المعدّلة يرتّـل الآن المؤذن «الأذان» بصـوت رخيم خمـس مرات كل أربع وعشـرين سـاعة، وبواسـطة هـذا الأذان يُنادى بالمسـلمين الصالحيـن إلى الصلاة، ويعبّر عنـه المؤذنون بالكلمـات التالية في جميع أنحـاء العالم، حيثما يسـيطر الهلال على الحكم: «الله أكبر»، «أشـهد ألاّ إله إلا الله»، «أشهد أنَّ محمّداً رسول الله»، «حيَّ على الصلاة»، «حيَّ على الفلاح». ويُكرّر الأذان عدة مرات على نحوٍ متواصل. تتخلل هذه المرات فواصل قصيرة وذلك لضمان انتباه المسلمين له. تكون المرة الأولى من المرات الخمس، قرابة غروب الشمس «المغرب» حيث يعدّ المسلمون يومهم من الغروب إلى الغروب، أما المرة الثانية، فهي عند حلول الظلام «العشاء»، والثالثة عند الفجر «الصبح»، والرابعة في الظهيرة «الظهر» والخامسة بعد الظهر «العصر»، وهذه الأخيرة تكون عند الساعة الرابعة بعد الظهر.

فـي العديـد من البلدان الإسـلامية حيـث تجبر حـرارة المناخ السـكان على قضاء ليـاليهم فوق الأسـطح المستوية لأبنيتهم - توكل مهمة المؤذن فقط إلى شخصٍ أعمى أو حسـير، ذلك أنَّ هؤلاء الأشـخاص أقل ميلاً إلى الاسـتفادة مـن مواقعهم المرتفعة عندما يمشـون على الشـرفات العالية قـرب قمم المآذن، بالتحديـق نحو خصوصـيات الحياة الزوجية والنسائية.

في حلب وغيرها من الأقاليم الواقعة على خط العرض نفسـه أو حتى إلى الشـمال، نـادراً ما يكون هـذا الإجراء الاحتياطي ضرورياً، ففي هذه المـناطق يكون النوم مفصلاً داخل البيوت أثناء معظم أوقات السـنة وذلك بسبب برودة الليل والندى المتسـاقط.

إنّ البناء المشـار إليه في الأعلى - كأثرٍ من آثار الصليبيين - حقاً نموذج من نماذج فـن العمـارة الأوروبيـة علـى الأرجـح التّكسـونية، وليـس هنـاك أدنى شـك في هذا الخصـوص؛ فقد أثبت ذلـك المظهر الخارجي بكامله للبـرج المربع الضخم (حوالي مئة وعشـرين قدماً في الارتفاع) الخاص بمبنى الكنيسـة المربع الواسع، بالإضافة إلى مكان وحجم وشـكل الأبواب والنوافذ والزخـارف... الخ. وعلى الرغم من أن البرج يسـتخدم اليوم كمئذنة، فإنّه بالكاد شـهد تغييراً باسـتثناء إضافة الشرفة الضرورية قرب

قمّته، التي يتوجب وجودها في كل مئذنة.

فيما يتعلق بالكنيسة فقد كانت لا تزال من الخارج بشكلها الأصلي، ما عدا سقفها الذي أصبح الآن مستوياً وعلى الطراز الإسلامي الحقيقي، وقد أغلقت فتحات الأبواب بمواد البناء، ويُضاء داخل المبنى على الأرجح عن طريق السقف.

* * *

الفصل التاسع والعشرون

في حلب

زيارة القلعة - الحارس - قوّة الحصن - منظر الحدائق - عرض عسكري - ورشات العمل والمستودعات - تجارنا الحلبيون - أزياء أوروبية - نساء حلبيّات - وسيلة استحمامهم - التحضير لمواصلة الرحلة - حادثتنا المضحكة - مرشدنا فائق الجمال.

إن أعلى نقطة وأكثر نقطة تجذب انتباه الناظرين إليها من خارج حدود المدينة هي الهضبة الصخرية الضخمة المخروطية الشكل الواقعة في مركز المدينة، والحصن أو القلعة الموحشة وشبه المنيعة المنتصبة على قمتها. تغطي هذه القلعة حوالي فدّانين من الأرض، لها شكل مثمّن منتظم، ولا تشرف على قسمٍ واحدٍ من أقسام المدينة فحسب، إنما على كامل الوادي السطحي أو الحوض الذي تقع ضمنه مدينة حلب. يحيط بأسفل الهضبة قناة كبيرة لكنها الآن جافة يصل عمقها إلى حوالي خمسين قدماً وعرضها إلى مئة قدمٍ على الأقل.

كان الحدّ الخارجي للقناة عبارة عن حائط عمودي مُصمَت البناء، أما الحدّ الداخلي فقد تشكل من الصخرة العالية وشبه العمودية التي انتصبت القلعة فوقها، وبذلك يصبح الدخول إلى القلعة ممكناً فقط عن طريق جسرٍ متحرك موضوع عند الجانب الجنوبي من الحصن.

عندما لم يكن هناك أية صعوبات في الحصول على إذنٍ للدخول إلى القلعة وتفحّصها، قمت بزيارتها بصحبة مضيفي وعدد من رجال المؤسسة. سمح لنا الجنديان التركيان اللذان يحرسان مدخل الجسر المتحرك بالمرور دون أيّة مضايقات، حتى إنهما قدّما أسلحتهما عندما مررنا بجانبهما.

فوق مدخل القلعة الذي كانت بوابته الحديدية الثقيلة مفتوحة على مصراعيها، ارتفعت قنطرة فخمة من صنع مسلمي القرون الوسطى، مزخرفة بالأرابيسك بكثافة، وهنا وقف حارسان آخران، صاح أحدهما عند اقترابنا وقال شيئاً ما باللغة التركية، عندها خرج رقيبٌ من فجوة في جدران سميكة جداً وألقى علينا التحية، بينما قام الحرّاس بتقديم أسلحتهم عندما مررنا إلى الداخل، ثم أرشدونا دون أن يسألوا أي سؤال إلى قائد الحامية الذي كان مع بعض الضباط الآخرين، وجميعهم كانوا يجلسون بالزيّ الرسمي المنحلّ والعاري إلى حدٍّ ما، يدخنون في ظلّ شجرة مليئة بالعقد نمت مقابل مبنىً حجري صغير أبلته العوامل الجوية، ويستخدم الآن كمقهى.

بعد التحيّة المعتادة، والاستفسار عن رغباتنا بطريقة مهذبة من قبل الأمر، أمر أحد الضباط الصغار الذي كان يتحدث العربية بشكل لا بأس به بأن يطلعنا على القلعة، كان كلّ شيءٍ في حالة مهملة ومتداعية، وخاصة المتاريس أو الشرفات المفرّجة التي كانت مفتتة تقريباً إلى قطع صغيرة وفي بعض المناطق أيضاً كانت مختفية كلياً.

لم يكن هناك أكثر من أربعين مدفعاً يمكن رؤيتها على الأسوار، وجميع المدافع الحديدية كانت من العيار الخفيف؛ إذ لم يكن أي منها أكبر من مدفع قذائف الأربع وعشرين پاونداً، وكانت ذات سَبَطانة ملساء من الطراز العتيق جداً، وترتكز على حاملات مدافع خشبية بدائية ومتزعزعة، ويبدو عليها أنها لم تستخدم منذ عدة سنوات.

كان المنظر الذي استمتعنا به من على القمة الشامخة للقلعة ساحراً حقاً؛ إنه منظر المدينة العظيمة تمتدّ تحت أقدامنا، والحدائق البديعة التي أحاطت بها من الشمال والغرب. كانت كل الأراضي المحيطة بتلك الواحات الرائعة، جافة ومتكلسة، وقد

تناثرت فوقها هنا وهناك قرى صغيرة بائسة وخانات... الخ، وقد أفعمتها بالحياة بعض المجموعات المتفرقة لفرسان انطلقوا كالأشباح بثياب بدوية، وصفوف طويلة من قوافل الجمال المتحركة ببطءٍ، وقطعان متناثرة من الأغنام والماعز تتنقل بحثاً عن طعامها الضئيل، والحشد المتنوع من المتنزهين المتسكعين بين الحدائق الغنّاء والمقابر الواسعة في ضواحي المدينة.

كلّ شيءٍ اندمج مع بعضه ليقدِّم لأعين الناظرين صورة شاملة لجمال ساحر لنموذجٍ شرقيٍّ أصيل. كانت مخازن الذخيرة والثكنات مثلها كمثل أيّ شيءٍ آخر في المعقل، في حالةٍ من الإهمال يرثى لها. كان هناك مبانٍ بدائية، بنيت بطريقة عشوائية، مغطاة بأسطحٍ مستوية، ومهوّاة بطريقة سيئة ومغمّة، وبالكاد تصلح للسكن من قبل البشر (خاصةً من ناحية قذارتها) حتى الكدرين منهم، إلاّ أنها لاقت استحسان الجنود الأتراك بسهولة.

أثناء زيارتنا للمعقل، كان هؤلاء المساكين يتمتّعون «بيوم الاستحمام»، ومن الجلّي أنه ظاهرة نادرة الحدوث، وقد توصلت إلى ذلك من المظهر العام لذلك القسم من الثياب، الذي لم يخضع بعد لعملية الغسيل على الطريقة الشرقية.

إن طريقتهم في الغسيل هي بالدّوس بأقدامهم على قطع الثياب عندما تكون مبللة بالماء، أو بدقّها بواسطة عصا مفلطحة، أو بتمريرها فوق سطح لوحٍ حجريٍ أملس باستمرارٍ دون توقف، إلى أن تصل إلى درجة لونٍ قريبة بعض الشيء من اللون الذي يجب أن تكون عليه. يتم التزوّد بالماء عن طريق بئرين كبيرين مكشوفين مليئين بمياه الأمطار التي نفذت بعمقٍ إلى جوف الأرض.

هناك بئر أرتوازي شديد العمق، يمنح الكثير من المياه الصافية والباردة كالثلج التي تروي عطش جنود الحامية، ويقع هذا البئر في وسط القلعة تماماً. كان هناك أيضاً بعض أشجار الفاكهة والزينة المليئة بالعقد نمت من قلب أكوام النفايات التي كانت قبل الزلزال عام 1882 تشكل الثكنات والمخازن وغيرها في القلعة، وأضفت هذه الأشجار بأوراقها الخضراء النضرة صورة مبهجةً إلى حدٍّ ما على مظهر القلعة

القروسطيّة الكئيب لولا وجود هذه الأشجار.

بالقرب من مهاجع الضباط تم ربط عدد من الخيول الأصيلة الخاصة بضباط الحامية على شكل مجموعة، وقد ساهمت هذه الخيول أيضاً بجعل المشهد داخل القلعة أكثر نبضاً بالحياة. يصل طول جدران القلعة إلى خمسين قدماً بالتمام، واثني عشر قدماً سماكتها، وهي مبنية من الأحجار الثقيلة الخشنة، ولا زالت حتى الآن مصانة بشكلٍ جيد. والمساحة الداخلية في القلعة مقسمة إلى أربعة أو خمسة أقسام منفردة صغيرة الحجم، بواسطة جدران يصل ارتفاعها إلى حوالي خمسة عشر قدماً وسماكتها إلى ثلاثة أقدام، تقطع كلّ منها بوابة مزودة بأبواب خشبية ثقيلة مغطاة بالحديد المليّف. صمدت قلعة حلب ضد العديد من الحصارات وتصدّت لعدة اعتداءات، وفي أوقاتٍ سابقة كانت تعدّ حصناً منيعاً. مقابل الجسر المتحرك تقريباً توجد فسحة كبيرة مكشوفة، قسمٌ منها يستخدم كمكانٍ للتدريب العسكري من قبل الحامية، والقسم الآخر كسوقٍ للخيول والبغال والجمال والبقر.

إنَّ المكان الأكثر متعةً على الإطلاق في داخل المدينة هو بلا منازع السوق أو البازار الذي يمتد فوق مساحة واسعة من الأرض، يبدأ قرب نهاية الشارع الرئيسي في الحي الأوروبي ويصعد رويداً نحو القلعة التي يصل إليها تقريباً. يفيض السوق بالمنتجات والبضائع الأوروبية والآسيوية، ويعدّ بحق البازار الأوسع والأغنى في آسيا الغربية. كان العدد الهائل من الأكشاك يعرض تشكيلة لامتناهية من جميع أنواع البضائع، وورشات عمل الآلاف من الحرفيين الكادحين التي تمتلئ بالضجيج والنشاط الصاخب منذ الشروق حتى الغروب، والطنين الذي يصمّ الآذان الصادر عن حوالي ثلاثين ألف شخصٍ من جميع الأعمار والأجناس والجنسيات والعقائد، يموجون باستمرار ذهاباً وإياباً طوال النهار على الأقدام وظهور الجمال والخيول والحمير، عبر متاهة الأزقّة اللامتناهية والممرات المقنطرة التي تستمد الضوء والهواء من الأعلى عن طريق مناور مفتوحة وضعت على مسافات منتظمة بين بعضها. بعض هذه الممرّات كانت من البناء الثقيل، وبعضها كانت فقط من الخشب، ولكن جميعها كان في حالة من

الظلام الكئيب، يتخللها جوٌّ يعبق بكافة أنواع الروائح الخاصة بالشرق الجيدة منها والسيئة. إن هذه المشاهد لم توصف على الفور، ومع ذلك لم ولن تمحى بسرعة من ذاكرة شاهد عيان.

على الرغم من أنَّ حلباً أصبحت الآن أقل شهرةً وأهمية بكثير من الوقت الذي كانت تعتبر فيه المركز التجاري للشرق، إلا أنها لا تزال ذات أهمية كبيرة بوصفها المحطة التجارية الداخلية الرئيسية لشمال سوريا وكردستان وبلاد الرافدين؛ حيث تقوم بمعاملات تجارية هائلة مع هذه البلدان عن طريق القوافل التجارية الضخمة الكثيرة.

تستورد حلب جميع أنواع السلع الأوروبية، وتصدّر كميات كبيرة من القطن الخام والحرير وصوف الأغنام وشعر الماعز والجلود والتبغ والزيت والخمر والفستق الحلبي والجوز... وهلم جرّاً.

ذاع صيت التجار الحلبيين بكونهم مغامرين وشديدي الدّهاء، وأنهم يتميّزون في هذا المجال على غيرهم في أي مكانٍ تقريباً من تركية الآسيوية، علاوةً على ذلك يشتهر تجار حلب بعض الشيء في جميع أنحاء الشرق بكلامهم المهذّب ونظافتهم الشخصية وتصرّفاتهم اللائقة والمؤدّبة، كما أنهم رجالاً ونساءً يشكلون الطبقات الأعلى من السكان.

بسبب التعامل اليومي مع الأوروبيين المقيمين والزائرين لمدينة حلب، اكتسبت الطبقات الأكثر ثراءً من السكان المسيحيين بشكلٍ تدريجي، العديد من العادات والتصرفات الأوروبية كالمساواة الاجتماعية والاحترام المتبادل والمساواة بين الجنسين في المجتمع، وأيضاً استخدام الملاعق والسكاكين، والأحذية والجزمات والجوارب والسراويل الدّاخلية، والبنطلونات، وأثواب الصدر، والمعاطف والقمصان وربطات العنق، وفي الواقع العديد من ملحقات الثياب الأوروبية والمجوهرات الأوروبية، كالساعات والمدالي... الخ.

بغض النظر عن ارتدائهم لهذه الثياب الأوروبية، لا يزال الرجل المسيحي الحلبي

الأنيق يتمسك بقوة بغطاء رأسه الشرقي الأصيل وهو الطربوش، أما المرأة المسيحية فعلى الرغم من أنها تتبع الموضة فهي بضميرها الحي لا تزال محافظة على «الإشارپ» الغطاء الكبير الموصوف سابقاً بأنه يلبس من قبل كافة النساء الشرقيات. مع ذلك فإن المرأة المسيحية الحلبية تصنع فرقاً بين «الإشارپ» الذي تضعه هي، وذلك الذي تضعه نظيراتها العبرانيات أو المسلمات؛ إذ بينما ترتدي الأخريات الإشاربات الملونة فقط ترتدي الأولى على نحوٍ لا يتغير الغطاء الأبيض مع وجود القليل جداً من الاستثناءات، وهذه العادة تشكل أحد أكثر المميّزات الملفتة للنظر في مدينة حلب.

كونهنّ مولعات إلى حدٍّ مفرط بالتنزّه بمشية بطيئة جداً، وعادةً على شكل مجموعات تتراوح ما بين ثلاث إلى عشرين، يمكن رؤية هؤلاء النساء في أي وقتٍ من النهار تقريباً - ما عدا وقت الظهيرة عندما تكون حرارة الشمس قوية جداً - ملفوفات من قمة الرأس حتى أخمص القدم بأغطيتهن البيضاء النظيفة، إما واقفات أو يمشين ببطءٍ إلى الأمام بين شواهد القبور التي لا تعدّ ولا تحصى في المقابر الواسعة. عندما يُرين من مسافة مئة ياردة على الأقل، فإن هذه الأجسام المغطاة كالأطياف والمتبوعة بظلالها بين القبور أو تحت الأشجار العملاقة العجيبة في الحدائق تبدو للغرباء بمظهر غريبٍ كالأشباح، وتوحي بفكرة أنها انبعثت للتو من قبورها الصامتة. بصرف النظر عن لباسهن القبري الكئيب، فإنَّ بعض شقراوات حلب لسن سيئات على الإطلاق، فكثيراتٌ منهنّ ذكياتٍ جداً، واجتماعيات ومرحات وهو تغييرٌ مبهجٌ جداً بالنسبة للغريب القادم من المناطق الداخلية للأراضي التركية، حيث النساء متبلّدات الحس وجاهلات وخرقاوات، ومتحفظات في حديثهن مع الأجانب.

هناك قسمٌ كبيرٌ من نساء حلب المسيحيات شقراوات بشكل ملفت للنظر، والعديد منهنّ بلا جدال حسناوات الطلعة إن لم يكنّ من الجميلات. إنَّ بشرة النساء الصغيرات ذات شفافية ناصعة البياض مع مسحةٍ ورديةٍ بالكاد يمكن ملاحظتها، والشعر أسود أو بني لامع وغزير، ومائل قليلاً إلى التجعد، أما الوجه فبيضوي ومتناسق يشبه الوجه الإغريقي، والجبهة مخلوقة بشكل جميل، والحواجب مقوسة جداً، العيون كبيرة وحالمة مجمّلة

برموشٍ طويلة، الأنف أيضاً كالأنف الإغريقي والفم صغير ويحوي أسناناً صغيرة بيضاء كاللؤلؤ، والذقن مدوّرة بشكلٍ جميلٍ وتناسبٍ تام مع الوجه. إنهنَّ قصيرات القامة إلى حدٍّ ما، لكنهن يتمتعن بأجسادٍ جيدة، وخاصة أيديهن وأقدامهن الصغيرة.

وقفتهن منتصبة جداً، ومشيتهن دائماً بطيئة لا تتغير، كما هو الحال مع سائر النساء الشرقيات. إن معظمهن تقريباً مائلات للبدانة، ولاشك أنها نتيجة قلّة التمارين البدنية. وفيما يخص الذكور من سكان حلب المسيحيين فهم أيضاً وسيمون ولكنهم مختالون ومتأنثون بعض الشيء.

أولت العائلات الثريّة مؤخراً اهتماماً كبيراً بالتعليم الأفضل لأولادهم ذكوراً وإناثاً؛ فأصبح العديد منهم يتحدثون اليونانية والإيطالية والفرنسية بطلاقة، وبعضهم أيضاً يستطيعون الغناء بشكلٍ جيدٍ والعزف على البيانو.

في الواقع، قطعت النساء المسيحيات حتى الآن أشواطاً بعيدة في ميدان الحضارة، حتى إنهنّ تخلّصن تقريباً من الـ (Pejeh)، ذلك الحجاب التقليدي المتيبّس مربع الشكل والمصنوع من قماش شعر الخيل الأسود وقد شرحت عنه في بعض الصفحات السابقة بأنه تلبسه كافة النساء المحتشمات في مدن سوريا وبلاد الرافدين، والذي كان حتى هذا الحين يعدّ شيئاً لا بدَّ منه أو دليلاً على الاحترام، ومن المؤكد أن التخلّص منه في بلاد يسكنها أناسٌ متعصبون جداً ومعارضون بشدة للحضارة يتطلب مقداراً وافياً من الشجاعة الأخلاقية من جهة مسيحيي حلب، وهي الشيء المشرّف الذي لا يمكن نكران نسبته إليهم.

وتنحصر وسيلة الاستجمام الرئيسية لدى السكان من كلا الجنسين وجميع الأعمار والديانات، ولكن خصوصاً لدى المسيحيين، في التنزه اليومي إما قبل الظهر أو في وقتٍ متأخرٍ من بعد الظهر ضمن ضواحي المدينة، وخاصة بين الأيكات الظليلة دائمة الخضرة في الحدائق العامة الرائعة على ضفتي الجدول المتعرّج «حلب» حيث يمكن في أي وقت ما بين الشروق والغروب رؤية مجموعات مختلفة من أهالي حلب رجالاً ونساءً يجثمون على المرج الأخضر أو على بقعةٍ ظليلة أو مستترين داخل تعريشةٍ منعزلة، يتحدثون

ويضحكون ويغنّون ويدخنون ويأكلون الفواكه والحلويات، يحتسون «العَرَق» والشربات «الليمونادة» وبعد الاسترسال في بضع ساعاتٍ من «الكيف» - الكلمة العربية المرادفة للترويج عن النفس - يعودون إلى المدينة ببطءٍ وهدوء.

* * *

بعد إقامة هنيئة في حلب دامت عشرة أيام، أخبرني السّنيور (P) أن القافلة ستكون مستعدة لمواصلة الرحلة إلى البحر المتوسط خلال يومين أو ثلاثة أيام، وأنه سيكون في غاية السعادة إذا كنت أرغب في مواصلة رحلتي معه. تم إخبار الأب (M) أيضاً بنيّتنا في الرحيل، لكننا شعرنا بالأسف الشديد عندما ردّ بأنه كان سيستأذننا هو بالرحيل، فقد كان عازماً على زيارة القدس، من ثم يذهب إلى يافا، الميناء البحري الأقرب، ومن هناك يذهب بالباخرة إلى فرنسا.

ودّعنا صديق رحلتنا الأنيس بمودة وحب، ثم انطلقنا إلى العمل بجدٍّ من أجل الاستعداد للرحيل. قبل مغادرتنا حلب وقعت حادثة مضحكة كان من الممكن أن تسفر عن نتائج خطيرة، أحدثت الكثير من المرح بين أفراد عائلة مضيفي وأصدقائه وكان الكاتب المتواضع لهذا العمل سبباً في وقوعها دون أن يدري.

فمنذ أن اتخذت من منزل السيد (.S. T) مكاناً لإقامتي كنت ألاحظ أنَّ الطاهي الخاص به - رجل مسنٌّ لكنه لا يزال نشيطاً، وهو من السكان المسيحيين ويطير فرحاً عند مناداته بالاسم الرخيم «يعقوب» - أصبح شيئاً فشيئاً مولعاً ببندقيتي «الجفت» الإنكليزية الخفيفة، لدرجة أنني أكثر من مرة دخلت إلى غرفتي بشكلٍ مفاجئ فإذا بي أجده ممسكاً بها، ولم يكن يبدو عليه مطلقاً أي إحراج بسبب ظهوري غير المتوقّع، حتى استنتجت أخيراً أنه كان يعاني من اختلالٍ جزئي في عقله، لذا لم أوبّخه أبداً على تطفله، إلاّ أنني أخبرت مضيفي عن تصرفات طباخه الغريبة مشيراً في الوقت نفسه إلى أنَّ هذا الشخص المسن قد يفكر في الانتحار أو القتل إذا أمسك بسلاحٍ ناري.

أكّد السيد (.S. T) أنَّ الطاهي لم يفكّر قبل ذلك بفكرةٍ كهذه على الإطلاق، وأنه

أيضاً لم يكن مختلاً عقلياً، بل على نقيض ذلك؛ كان صاحب قراراتٍ صائبةٍ، فقد كان ذلك الرجل العجوز ببساطة صياداً مدمناً، يعمل خلال الفصل الحار من السنة ليكسب المال الكافي ليمكنه من الخروج يومياً أثناء الفصل المعتدل لقنص أنواع مختلفة من الصيد كطيور الجهلول والفرّي والحجل والقطا والحمام والبطّ وغيرها، وكان هذا العجوز أيضاً مشمئزاً من بندقية الصيد الحديدية وحيدة السَّبطانة خاصته، وذكر منذ وقتٍ طويلٍ مضى أنَّ كامل طموحه الدنيوي يكمن في أن يصبح المالك المتواضع لبندقية «جفت» كتلك التي يستخدمها «الفرنجيون»، وكان نمرود[1] العجوز هذا قد ادّخر كل پارة - قطعة نقدية تركية - من مرتبه لكي يجمع المبلغ المطلوب، ولكن كونه دقيقاً جداً في اختياره، ورجلاً خبيراً في الأسلحة النارية، لم يكن ليشتري أياً من تلك المعروضة للبيع في البازار حتى ذلك الوقت.

لم يكن الرجل العجوز قد ذكر ذلك أمامي نهائياً، ولكن عندما علم أنني على وشك الرحيل، وكان راغباً في عدم فقدان فرصةٍ ذهبيةٍ كهذه، استجمع الشجاعة الكافية في أحد الأيام بعد الغداء عندما كنت وحيداً، ليسألني ما إذا كنت أرغب في بيع بندقيتي له، لاحظت توقه الشديد للحصول على جوابٍ بالموافقة، وفكرت بأنها لم تعد ضرورية لحمايتي بعد الآن، بالإضافة إلى أني كنت أملك مسدساً إضافياً، لذا أجبت بأنه يستطيع الحصول على البندقية مقابل ست ليرات تركية (حوالي 27 دولاراً أميركياً ذهبياً) وهو مبلغ يساوي نصف قيمتها الحقيقية، أخرج على الفور منديلاً قديماً من جيبه وحلَّ إحدى زواياه ثم عدَّ المبلغ المطلوب بسرعةٍ كبيرةٍ.

أعطيته البندقية فأمسك بها بيدٍ مرتجفة كالمحروم، ثم أخذ يدي وقبّلها بطريقة شرقية حقيقية كعلامةٍ على امتنانه. كان على وشك أن يغادر الغرفة عندما سألته إذا كان يرغب في الحصول على بعض الذخيرة. قال بأنه يرغب في ذلك طبعاً، فأعطيته محتويات زجاجة البارود خاصتي ورصاصاتٍ بملءِ اليد وطلقات والكثير من الخراطيش الخاصة بمسدس فقدته في الرحلة من بغداد إلى الموصل.

---

(1) تورية باسم نمرود من مرويّات التوراة، وكان مشهوراً بأنه أعظم صيّاد.

في الواقع، أعطيته هذه الأخيرة لأنها لم تكن مناسبة لمسدسي الجديد، وفكرت بأنه يستطيع الاستفادة منها بكسرها وإخراج الرّصاصات الموجودة داخل القشرة النحاسية، ثم يستطيع رميها بعد ذلك في أوقات فراغه، لكن لم يخطر لي أبداً فكرة أنه قد يكون جاهلاً بخصائص الخراطيش المعدنية، حيث بدا أنه ملمٌّ جداً بكل نوع من أنواع الأسلحة النارية والذخيرة، إضافة إلى ذلك، كان الرجال الأوروبيون في المنزل يستخدمون لمسدساتهم عياراتٍ مشابهة، ولا بدَّ أن يكون قد رآها كلها؛ فقد كان المسؤول عن ترتيب غرفهم.

في صباح اليوم التالي وبينما كانت أجلس بهدوءٍ على طاولة الفطور مع أفراد المنزل، أجفلنا فجأةً بسبب انفجارٍ مرعب يشبه نار المُسكيت القوية، مصحوباً بصرخةٍ خارقة للطبيعة وتحطّم زجاج نافذة ما، بالطبع، وثب الجميع فزعاً من على طاولة الفطور، وانطلقنا إلى الخارج لنرى ما الذي حصل. اعتقدنا جميعاً أن المنزل تعرّض للهجوم من قبل عصابة إجرامية وأنَّ أحداً ما قد قُتل، ولكن عندما وصلنا إلى الرواق كانت هناك سحابة من دخان البارود المنبعث من المطبخ، حيث ركضنا إلى هناك فشاهدنا يعقوب العجوز مكوّماً في إحدى الزوايا، وجهه شاحب كالموتى وينزف بشدة من عدة أماكن، وعلى الأرض تناثرت أدوات المطبخ والزجاج والأواني الفخّارية بمختلف أنواعها وأشكالها، أما تتمة القصة فسأخبركم بها بعد قليل.

بعد أن حاول يعقوب العجوز اللطيف والمغفّل جاهداً - ولكن عبثاً - أن يستخرج الرّصاصات من الخراطيش المعدنية، فكّر بذكاء خارق أنَّ الطريقة الأسرع لفصل الرصاص عن النحاس هي بوضع الخراطيش المعدنية داخل المغرفة فوق النار.

لحسن الحظ، كانت الجلبة أكثر من الأضرار، وبالرغم من أنَّ يعقوب العجوز كان مطروحاً في الزاوية بشكلٍ مذلٍ، إلاّ أنّه نجا مع بضعة جروحٍ سطحية فقط، لكنني أعتقد حقاً أنها كانت المرة الأولى والأخيرة التي سيحاول فيها تحميص الخراطيش المعدنية.

* * *

في اليوم السابق لمغادرتنا دخل سائقو البغال في شجارٍ مع سائسينا العرب بشأن مسألةٍ تافهة، ولولا عودة السّنيور (P) في الوقت المناسب لكان الشجار انتهى بإراقة الدماء حيث وصلوا إلى درجة حلِّ المشكلة بواسطة خناجرهم المعقوفة.

قام السّنيور (P) بعزل جميع سائقي البغال، حيث تبيّن أنهم المذنبون، وبذلك استرجع السلام إلى القافلة. قضينا ما تبقى من النهار في توظيف مجموعةٍ من البغّالة الحلبيين عوضاً عن السابقين، وفي إحضار بَحري (Bahri) من الدير، وفي توديع أصدقائنا في حلب، باستثناء هؤلاء الذين أرادوا مرافقتنا في الصباح ليرونا نسير في طريقنا بالشكل المناسب.

مع انبلاج الفجر بدأنا مسيرنا بمزاجٍ رائع، ورافقنا لبضعة أميالٍ بعد ضواحي المدنية ستة من أصدقائنا الحلبيين الذين يركبون خيولهم بشكلٍ جيدٍ إلى أن وصلنا إلى ينبوع وحيد بالقرب وعلى الجانب الأيسر من الطريق، وهو الشيء الوحيد الذي كسر الخواء المروّع للهضبة الجرداء المتكلسة الواقعة إلى الغرب من مدينة حلب. في ذلك المكان قام أصدقاؤنا بتوديعنا وتمنوا لنا رحلةً موفقة ثم راحوا يخبّون بخيولهم ببطءٍ نحو حلب، وبين الحين والآخر كانوا يديرون رؤوسهم ويلوّحون لنا بقبعاتهم.

من على قمة التلة ألقينا بنظرةٍ أخيرة على مدينة حلب، ثم غابت عن أنظارنا عندما هبطنا التلة ببطء. كان شابٌ مسلمٌ فائق الذكاء، تاجر خيولٍ مقيم في حلب اسمه عبد الله، وهو بالفعل «أدونيس» بالقدِّ والوجه، ويتشح بزي تاجر دمشق - مسقط رأسه - الرائع لدرجة السحر، انضم إلى قافلتنا بإذن من السّنيور (P) الذي كان يتاجر بشكلٍ كبيرٍ بالخيول مع والد عبد الله المتوفى، ويعرف الآخر منذ أن كان طفلاً.

كانا قد التقيا في البازار حيث استطاعت عين الشاب الثاقبة أن تتعرف على التاجر الإيطالي المحنّك الذي لم يره منذ عشرين سنة تقريباً. كان لدى عبد الله الشاب عمل لينجزه على الساحل، لذا التمس الإذن بالسفر معنا، وبالطبع تلقى الموافقة على ذلك، وسرعان ما أثبت أنه رفيقٌ أنيس، وبما أنه يتحدث الفرنسية والإيطالية بطلاقة فقد كان مسلياً جداً وقد عرف جيداً كل إنشٍ من الأراضي التي كنا نسير فوقها، كان فارساً مثيراً

للإعجاب، وكانت الحركات الخطيرة جداً التي راح يؤديها على الطريق ليسلينا ولمجرّد كسر الملل في رحلتنا ستدهش أكثر لاعبي السرك خبرةً، وأثبتت الفرس الهزيلة البشعة التي كان يمتطيها أنها دابةٌ ثابتة القدم وذات سرعةٍ وجلدٍ رائعين، وجميعها دلائل على أنها تنتمي إلى سلالة خيولٍ أصيلة.

* * *

الفصل الثلاثون

مشاهد منوّعة وأحداث

التقدّم إلى الأمام بنشاط ـ سباق ـ الغزال الوحيد ـ التاريخ العاطفي للهبوط ـ قافلة تجارية ـ بستان الفاكهة المهجور ـ التخييم في القرية ـ مبلّلين ـ وادي عفرين ـ السّهول ـ البيضا ـ السّباحين ـ ضيعة غريبة ـ أشخاص غريبو الأطوار ـ الحراسة ليلاً.

لمدة ساعتين من الزمن تقريباً بعد أن افترقنا عن أصحابنا كنا نسير فوق الأراضي المتموجة الحصوية والمقفرة التي تحيط بمدينة حلب، في ذلك الحين لفت عبد الله انتباهي نحو هضبة منخفضة ترتفع بلطفٍ على يميننا، وقريبة جداً من الطريق. لم أستطع ملاحظة أيَّ شيءٍ مثيرٍ للاهتمام في هذه الهضبة، لكنَّه أومأ لي للّحاق به.

اعتقدت أنه ينوي التسابق معي، فأقحمت المناخس في أطراف فرسي، وكنت على وشك أن أتجاوزه بسرعةٍ قصوى عندما شدّ بمهارةٍ وسرعةٍ كالبرق لجام حصاني وجعله يقف فجأة وقوفاً تاماً حتى كاد أن يطرحني أرضاً. كنت في حيرة بماذا أفكر، وعلى وشك أن أوبّخه بقسوةٍ على فعلته عندما اكتشفت بحالةٍ لا توصف من الرّعب أنني أقف على مسافة بضع ياردات فقط من هوّةٍ غائرةٍ هائلة، أفقت مباشرةً من صدمة الأعصاب هذه، فتقدّمت مع عبد الله بحذرٍ بضعة أقدامٍ أخرى، ووقفت على شفير هاوية مروّعة.

ورحت أرتعد بكل معنى الكلمة عندما حدّقت إلى الأسفل نحو تحفة الطبيعة الرائعة

هذه. تخيل قطعةً من الأرض مدوّرة تماماً يبلغ قطرها ألف قدم على الأقل، وهي عبارة عن القسم الأعلى بكامله لهضبة ترتفع بلطف، ثم فجأة تغوّر في الأرض إلى عمقٍ يقدّر بخمسمئة قدمٍ أو أكثر، وبذلك تشكل جوانب الهوّة جدراناً عمودية، وقد تعلقت عليها هنا وهناك جنبات قزمة، وفي قعر الهوة نمت شجرةٌ وحيدة وبضعة تجمعات من الشجيرات، تحلّق فوقها طيور السنونو ويحوم الصقر الصارخ المفترس. لم يكن يسمع أيّ صوت آخر خلال عزلة القبور التي تحيط بهذه البقعة الخالية والمقفرة بشكلٍ غريبٍ، أضف إلى ذلك الظلام الذي يحيط بقعر الهوّة باستثناء مرّة في السنة عندما تسطع الشمس عمودياً داخل الفجّة. «قبل عدة سنوات» قال عبد الله: «كان الإمكان رؤية غزالٍ وحيد يرعى في قعر تلك الهاوية ولكن لم يستطع أحد أن يعرف كيف وصل هذا الحيوان المسكين إلى هناك، وكان الاعتقاد السائد يقول إنه سقط داخل الهوّة دون أن يتضرّر. أما بالنسبة لنظريتي فهي أنه قد يكون أُنزل إلى هناك بواسطة حبل بالطول اللازم لذلك.

وهو عملٌ لا يستحق هذا العناء[1].

"Un jeu qui ne vaut pas la chandelle"

إن حقيقة رؤية الغزال الوحيد في أسفل الهوّة لعدة سنوات لا يمكن إنكارها، ذلك أنَّ مئات الناس قد شهدوا على ذلك، ومن بينهم بعض الأوروبيين ذوي مصداقية لاشك فيها، ولكن كيف استطاع أن يصل إلى هناك؟ أو ماذا حلّ به؟ ذلك ما لا أحد يعرف عنه شيئاً».

فيما يخصّ أصل أو طبيعة هذا الهبوط العجيب في سطح الأرض، بدا صديقي عبد الله جاهلاً تماماً كحال بقية أبناء بلده، فرغم أنه يعتبر تشكّل تلك الهوّة الواسعة خارقاً للطبيعة، فقد علّل وجودها حين روى لي قصة حبّ عربية حزينة، انتهت بمقتل

(1) العبارة باللغة الفرنسية على طريقة أدباء أوروبا في العصر الفيكتوري. وكان لا بدّ لكل كاتب أن يوشّح نصّه الإنكليزي ببض العبارات الفرنسية المنتقاة، كدليل على رقيّ ثقافته الرفيعة. وخير مثال على ذلك نصّ رحلتي الليدي البريطانيّة آن بلنت.

الحبيبين بشكلٍ وحشي من قبل نذلٍ حسودٍ، وابتلاع جميع الممثلين في هذه المأساة مع مشهد القتل كاملاً في اللحظة نفسها داخل أحشاء الأرض. من جهتي فأنا مقتنع بأن هذه الهاوية المدوّرة ليست أكثر ولا أقل من فتحة أو فوهة بركانٍ ما سابقٍ لعهد الطوفان أو حتى قبل التاريخ.

مع انتهاء تفحصنا لذلك المكان العجيب، كانت قافلتنا التي واصلت مسيرها بانتظام دون توقف قد اختفت عن أنظارنا للتو خلف تلة منخفضة تقع على مسافة ميلٍ أمامنا تقريباً، فانطلقنا خلفها وسرعان ما أدركناها. وفي صباح اليوم التالي قابلنا قافلة جمالٍ آتية من الإسكندرون، وهو الاسم المعروف بين سكان تلك المنطقة لمدينة ومرفأ إسكندرون الصغيرة **Alexandretta**.

كانت هذه القافلة تتقدم ببطءٍ شديدٍ؛ فكل جملٍ من جمالها كان محملاً بثقل بالبضائع الأوروبية، وخاصةً بالقماش الملفوف داخل الصناديق والحزم والمربوط إلى أقتاب الحمولة القوية الخاصة ببهائم الحمل هذه التي لا يمكن الاستغناء عنها في الشرق. كان هناك جملٌ إضافيٌّ كبيرٌ يمشي ببطءٍ في مؤخرة القافلة يحمل صندوقاً ضخماً رُبط بمتانة على الجانب الأيمن من القتب، وقد دلَّ شكله وحجمه بوضوح على أنه يحوي بيانو مربعاً بالحجم الكامل، وقاموا بموازنة ثقله الهائل بواسطة كومة من الأمتعة الشخصية، كحقائب السيدات وخروج السفر وصناديق القبعات... وغيرها، وبذلك يكون الوزن الإجمالي لظهر الجمل المسكين لا يقل عن نصف طن.

مع اقتراب الظهيرة أصبحت حرارة النهار لا تطاق، والوهج الضارب إلى البياض المنبعث من الأرض العطشى والمقفرة المحيطة بنا من كلّ جانب أصبح مؤلماً للعيون بكل معنى الكلمة.

بعيد الظهر نزلنا عبر الجانب الوعر للتلة المنخفضة إلى وادٍ ليس بعميق، ينساب في وسطه تيارٌ صغيرٌ من المياه الصافية كالكريستال، ليروي الزرع الوحيد الذي رأيناه منذ أن غادرنا حلب باستثناء بعض الجنبات التي يمكن رؤيتها في الهوة.

على يسار الطريق وبالقرب من النقطة التي نقطع منها التيار، يوجد بستان فاكهة صغيرٌ مهجور يمتد على مسافة فدانين تقريباً، ويحيط به حائط حجري متقلقل، ومن خلال الجدران المتفتتة يمكن رؤية أنقاض منازل سابقة، وأحدها لا يزال يحمل آثاراً تدل على أنه كان منزلاً فخماً، وقد عرفت ذلك من بقايا الأرابيسك الجميلة المنحوتة في الجصّ التي يمكن رؤيتها حتى الآن على واجهة المبنى.

إنَّ هذا البستان المهجور القريب جداً من الطريق بمظلته الكثيفة المشكلة من أشجار الزينة والفاكهة الوارفة، وأيكاته الدافئة والمريحة، وبساطه الأخضر العشبي الطري والفواح الذي تناثرت فوقه الجنبات والأزهار، بالإضافة إلى وفرة في المياه العذبة، هبةٌ من الله لكلٍّ من الإنسان والحيوان في هذه البقعة المنعزلة بسبب الأرض المجدبة والمقفرة على نحوٍ مرعبٍ التي تحيط بها. لذلك يكون دائماً محطة استراحةٍ للمسافرين المرهقين الذين يمرّون من تلك الطريق، ولم تستثنَ قافلتنا من ذلك.

توقفنا هناك لمدة ساعتين تقريباً، أنزلنا الحمولة عن الدواب وسمحنا لها بأن ترعى من خضرة البستان الوافرة، في حين تم ربط الفحول وإعطاؤها حصتها المعتادة من الشعير. سرعان ماكانت نيران المخيم تطلق دخانها والقهوة اللذيذة - الشراب الذي ليس له منازع في تلك المناطق - تتناقل بيننا، مع بعض المأكولات التي يمكن تناولها بسرعة، بعد تناول هذه الوجبة الاقتصادية مباشرةً، تجولت ضمن البستان فوجدته مليئاً بأشجار اللوز والتين والبرتقال والليمون وغيرها من أشجار الفواكه، لكن معظمها دلّت على غارات الزائرين عليها، وبينما كنت أتجوّل بين أنقاض الأبنية جفلت قطتان كانتا متوحشتين جداً - مع أنه بدا جلياً أنهما من النوع الأليف - واندفعتا بسرعةٍ مذهلة عند اقترابي. من الجليّ أنهما متروكتان من قبل الناس الأخيرين الذين عاشوا في هذا المكان، ووفقاً لطبيعتهما كانتا متمسكتين بالبقاء ضمن ما كان مأواهما ذات يوم على الرغم من أن البشر قد هجروه منذ سنين مضت.

قرابة الساعة الثالثة بعد الظهر بدأنا بمواصلة رحلتنا، وبعد مسيرٍ مضجرٍ إلى أبعد الحدود أصبح القسم الثاني منه فوق سهلٍ واسعٍ تناثرت فوقه أحجار الجلمود

الضخمة وصخور ذات أطراف حادة ومستدقة برزت في جميع الاتجاهات من تحت التربة القليلة التي تغطي الأرض، لتترك ممراً متعرجاً بالكاد يصل عرضه إلى اثني عشر إنشاً. والسفر فوقه صعب ومتعب وخطيرٌ إلى حدٍّ مرعب.

مع حلول الظلام وصلنا إلى ضيعةٍ بائسةٍ تدعى تِرمانين Termanin تقع على حافة وادٍ عريضٍ يتدفق في أسفله نهر عفرين، الرافد الرئيسي لبحيرةٍ كبيرة ولكن ضحلة تدعى آق دنيز[1] Ak Deniz.

كانت الأكواخ الحجرية الخمسة أو الستة البائسة التي تألفت منها القرية صغيرة جداً لدرجة أننا وجدنا أنفسنا مجبرين[2] "Nolens Volens" على التخييم في فسحة مكشوفة تصل مساحتها إلى حوالي خمسين قدماً مربعاً، وهي قطعة الأرض الوحيدة المستوية التي يمكن رؤيتها هناك.

في سبيل أن نجمع القافلة بأسرها داخل هذه المساحة الصغيرة من الأرض، كنا مجبرين أولاً على إخلائها من سكانها الشرعيين وهم قطيع من الحمير والماعز. قمنا بربط حيواناتنا بأقرب ما يمكن من بعضها وتناولنا عشاءً اقتصادياً، ثم تمدّدنا بطولنا الكامل على الأرض العارية ملفوفين ببطانياتنا لقضاء الليل، حيث كان الندى ثقيلاً والهواء بارداً. مع اقتراب منتصف الليل تغيّرت حالة الندى فأصبح رذاذ مطرٍ باردٍ، مما أجبرنا على نصب خيامنا التي لم نستعملها منذ أسابيع، كان الليل شديد الحلكة، وأطفأت الأمطار التي ازدادت غزارتها بشكلٍ سريع بصيص نار المخيم، فكان علينا أن نتخبّط طويلاً في الظلام بحثاً عن أوتاد خيامنا والمطارق، حتى أصبحنا مبلّلين كلياً قبل أن ننتهي من نصب الخيام.

بقدر ما اتسعت الخيمة لرجال، زحف العديد منا تحت قماش القنب الواقي، وتمدّدنا على الأرض لننام بثيابٍ مبللة، ولكن لم يكن مقدّراً لنا أن نتمتع بهذه الرفاهية المثيرة للجدل لفترة طويلة، ففي أقل من ساعتين - بعد أن أوينا إلى فراشنا للمرة الثانية

---

(1) التسمية باللغة التركية، وتعني: البحر الأبيض.

(2) التعبير باللغة اللاتينية، من باب المباهاة بالثقافة العالية.

- هبّت ريحٌ عاتية، وبما أنَّ التربة التي تغطي كامل الفسحة كانت مجرّد كتلة من روث الماشية والتراب وأصبحت طرية بشكلٍ مزعجٍ بسبب الأمطار المتساقطة بقوة، هبطت الأوتاد، ولزيادة ارتباكنا هبطت الخيمة الباردة التي تقطر ماءً فوق رؤوسنا، وأصبحنا معها كومةً واحدة.

عندما اكتشفنا أن معظم رجالنا قد لجؤوا إلى أحد تلك الأكواخ البائسة التي فتحوا بابها المتزعزع بقوةٍ دون أن يسألوا السكان إذناً بالدخول، انضممنا إليهم وانتظرنا طلوع الفجر، نرتجف من البرد ونصغي بحزنٍ إلى صوت الرياح العازفة وطقطقة حبات المطر، وإلى صياح الديكة في القرية والنهيق الفظيع للحمير الشاردة. حين لاحظ يوسف - قائد سائسينا - أن الذي يقود الكورس هو الحمار نفسه دائماً قرّر أن يضع «مكبحاً» لذلك التافه، فذهب إليه وربط بذيله حجراً يزن خمسة أرطالٍ وبذلك استطاع أن يوقف موسيقاه تماماً طوال ذلك الصباح، ومن الغريب القول إنَّ الفنانين الآخرين ظلّوا أيضاً صامتين بعد أن تجرّدوا من قائدهم. هذا ويستخدم البدو الطريقة نفسها ليمنعوا خيولهم من الصهيل.

كانت الليلة التي قضيناها في تِرمانين Termanin هي الأكثر بؤساً وشقاءً من بين كل الليالي التي قضيناها في رحلتنا بأكملها، ويمكنك بسهولة أن تتخيل السعادة التي استقبلنا بها أول وميضٍ من ضوء النهار. في هذا الوقت كان المطر قد انقطع والعاصفة قد هدأت تماماً، ولكن كلَّ شيءٍ كان مشبعاً بالماء، وكان كلٌّ من الرجال والدواب يرتجفون برداً. تسرّب الضباب الكثيف ببطءٍ في أنحاء الوادي فأعطى المنظر الطبيعي المغمّ مظهراً أكثر كآبةً. استطاع الطاهي بصعوبةٍ كبيرة وصبرٍ جميل أن يشعل نار المخيم بواسطة المحروقات المبللة الموجودة بحوزته ويحضّر لنا طعام الفطور.

أثارت الشمس المشرقة بهجتنا، وبدّدت الضباب وأمرتنا بأن نكون نشيطين ومفعمين بالحياة. كانت خيول الحمل الخاصة بنا المحمّلة دائماً بأوزان ثقيلة شبه عاجزة عن حمل الأمتعة المبللة عندما ربطناها إلى رحالها ذاك الصباح، وكانت مجرّد فكرة الركوب لمدة يومٍ كاملٍ فوق سرجٍ منقوعٍ بالماء وعلى طريقٍ سيئةٍ مرهقة بعيدة

كل البعد عن كونها مبهجة لجعلنا نسارع في تنفيذها، ولكن كان علينا أن نتحمّلها، لذا غادرنا القرية حوالي الساعة الثامنة صباحاً وتقدّمنا باتجاهٍ غربي وشمالي غربي نزولاً بحذر عبر التلّة نحو وادي عفرين، النهر الذي قطعناه بواسطة الجسر، وهو أحد تلك الأشياء نادرة الوجود ضمن الأراضي التركية الواقعة شرقي المتوسط.

بعد أن عبرنا هذا النهر صعدنا تلّةً مخدّدة، فوصلنا إلى نجدٍ أو ما شابه، فاجتزناه وهبطنا بحذرٍ الطريق الوعرة التي أوصلتنا إلى سهل أنطاكية Antioch الواسع. كان هذا الحوض الخصب والكثير مدوّر الشكل تقريباً، ويصل قطره إلى ما بين خمسة عشر إلى عشرين ميلاً وتحيط به من كل الجهات تلالٌ مخدّدة شديدة الانحدار أو جبالٌ صغيرة، تحتل وسط هذا الحوض الواسع بحيرة يطلق عليها السكان اسم "Ak Deniz" وتستمد مياهها من خمسة أو ستة أنهارٍ صغيرة وهي بالتحديد: Karan su (معناه بالتركية النهر الأسود أو المياه السوداء) من الشمال، وعفرين من الشرق، واثنين أو ثلاثة أنهار ثانوية من الجنوب. تجد مياهها الفائضة منفذاً لها من الحد الغربي للبحيرة، وتتدفق باتجاهٍ جنوبي لتلتقي بعد مسارٍ شبه مستقيم يمتد حوالي ستة أميال بنهر العاصي ويعرف أكثر باسمه القديم (أورونتيس)، ويقع على مسافة بضعة أميالٍ شمال مدينة أنطاكية Antioch القديمة والشهيرة التي قبل زمن ليس ببعيد كادت أن تمحى من الوجود بسبب زلزالٍ رهيب لم يدمّر المدينة الجليلة فحسب؛ بل قضى أيضاً على ثلث السكان تقريباً.

إنَّ حواف بحيرة "Ak Deniz" التي من الغريب أنَّ الأتراك يطلقون اسمها على البحر المتوسط[1] أيضاً منخفضة جداً وسبخية، وفي الحقيقة بدت في عدة أماكن مستوية تماماً مع سطح الماء، ويحدّها حزامٌ عريضٌ من القصب الطويل، فردوس عشرات الآلاف من الضفادع وثعابين الماء والأفاعي والسّلاحف وسحابات البعوض الوثّاب.

---

(1) هذا صحيح، فالتسمية باللغة التّركية تعني: البحر الأبيض، وهو الاسم ذاته الذي يُطلق على البحر الأبيض المتوسط.

ومع أنَّ البحيرة ضحلةٌ جداً بالنسبة لحجمها كما يبدو، فيقال إنها مليئة بالأسماك، وبينما كنا نسير بمحاذاة ضفافها، رأينا العديد من أنواع الأسماك الكبيرة تندفع كالسهم إلى الأعلى من قلب المياه الفضية، ثم تسقط ثانيةً وتعود إلى بيئتها الأصلية محدثةً صوت رذاذٍ عالياً.

يمنح السهل المحيط بالبحيرة مرعىً غنياً لا ينضب، ويمكن رؤية آلاف الجمال والخيول والأبقار والأغنام والماعز ترعى طوال أيام السنة من المرج الأخضر على الرغم من أنه عديم الأشجار، وهي الثروة الكاملة لسكان بعض القرى الصغيرة والعديد من مخيمات البدو المتناثرة هنا وهناك، والتي مع الأكواخ مستوية الأسطح التي يسكنها السابقون، والخيام الصوفية الداكنة السوداء والبنية الغامقة التي يسكنها الآخرون، التي تغصّ بالبشر المتّسخين بالزي البدوي، أعطت سهل أنطاكية Antioch مظهراً شرقياً بحتاً، وذكّرت الناظر بحياة آبائنا الموصوفة في كتاب سفر التكوين.

حتى هذا اليوم، بدا أنَّ الناس على ضفاف هذه البحيرة يبدون اهتماماً قليلاً بالسمك أو بإنشاء وسائل للاتصال بعضهم مع بعض عن طريق الماء، تماماً كالاهتمام الذي أبداه إبراهيم أو أيّ من آبائنا الذين أعقبوا نوحاً الذي وحده استطاع أن يقدم على الماء وحبَّذ البقاء تحته، لم يسبق لأحد ممن يسكنون حول آق دنيز "Ak Deniz" أن اصطاد أو أكل سمكة واحدة، ولم يسبق أن شوهد أي قارب أو حتى طوف في أي مكانٍ من البحيرة التي يبلغ عرضها خمسة أميالٍ بالتمام، وبما أنها شبه مربعة الشكل فلا بدَّ أن يساوي محيطها عشرين ميلاً على الأقل، فبدل أن يغامروا ويقدموا على مياهها الساكنة إذا أرادوا الذهاب إلى الطرف المقابل من البحيرة، تراهم يسيرون حولها كل هذه المسافة الكبيرة.

يمكن ملاحظة هذا النفور من الماء وسكان الماء بين جميع العرب، ما عدا هؤلاء الذين يعيشون على الساحل ويكونون بحّارةً وصيادين مخاطرين وبارعين مثلهم كمثل جميع الصيادين في العالم، ويعيشون بشكلٍ رئيسي على الأسماك.

كنا نعدو ببطءٍ بمحاذاة الطرف الشرقي للبحيرة، وسط الحرارة الشديدة المنبعثة من

شمس الظهيرة، فوصلنا إلى مكانٍ حيث يتدفق نبع مياهٍ كبريتية حارّة بغزارة من ثغرةٍ في صخرة عند أسفل سهلٍ مخدّدٍ منخفض لا يبعد أكثر من عشر ياردات عن مسارنا ويقع في منتصف الطريق تقريباً بين القريتين الصغيرتين تِرمانين Termanin و«عين البيضا» وقد يكون اسم القرية الثانية إشارةً إلى هذا النبع؛ فكلمة (عين) تعني بالعربية ينبوع و(بيضة) تعني بيض[1]، وإنَّ أيَّ شخصٍ يتذوق مياه النبع سيتذكر على الفور البيض المسلوق جيداً.

بدت على دواب الحمل المترنحة بسبب وزن الأمتعة التي لا تزال مبتلّة علامات التعب الشديد. عندما لاحظنا وجود جدول من المياه الصافية الكريستالية مباشرةً بجوار النبع الكبريتي، قرّرنا أن نأخذ استراحةً قصيرة في ذلك المكان، حيث كانت البقعة الوحيدة على مرمى النظر التي يمكن أن تمنحنا الظل عبارة عن بناءٍ حجريٍّ مربع ومنخفض، له سطحٌ مستوٍ وتقدر أبعاده بحوالي ثلاثين قدماً في الطول وثمانين قدماً في العرض ويقع تماماً مقابل المكان الذي تتدفق فيه المياه الحارّة من الصخرة وعلى مسافة ستين قدماً تقريباً.

لم نلبث أن ترجّلنا وربطنا خيولنا حتى ذهبت بصحبة عبد الله والسّنيور (P) لنستكشف البناء الذي سمعنا من داخله أصواتاً بشرية. لدى دخولنا من بابٍ ضيّقٍ منخفضٍ وجدنا أنفسنا في غرفةٍ فسيحة مظلمة وشديدة الرطوبة، تغطي كامل مساحة البناء تقريباً. وعلى مسافة بضع خطواتٍ من الباب امتد عند أقدامنا حوض ماءٍ مربع من البناء الثقيل، وتبلغ أبعاده حوالي عشرين قدماً في الطول واثني عشر قدماً في العرض وحوالي ستة أقدام في العمق.

كان هناك حوالي أربعة أقدام من المياه داخل حوض الاستحمام المشترك هذا، وستة من الرّجال والنساء والأطفال، كان الرجال عراةً بشكل كامل والنساء يرتدين تنانير طويلةً وعريضة، ويسبحن بمتعةٍ عارمة في الماء الفاتر. في اللحظة نفسها التي

(1) لم يميّز لوكر الفارق بين البيضة كاسم، والبيضاء كصفة لاسم مؤنث، وتسمية عين البيضا تتكرّر عشرات المرات في سوريا.

شـاهدونا بها توقفت وثبـات المرح الخاصة بهم تماماً، وغمروا أنفســهم حتى أنوفهم بالماء، وراحوا يحدّقون بنا بصمت مسـمّرين كالضفادع في البركة. لطالما لاحظت أثناء رحلاتي في الشرق أن الظهور المفاجئ لشخصٍ أوروبي أو أميركي بين عددٍ من سكان الشـرق هؤلاء يخلـق دائماً أثراً مربـكاً ومحرجاً بينهم. فمهما كانـت تصرفاتهم جريئة ومفعمـة بالحياة يبـدون بحضور المســافرين وكأنهم أصيـوا فجـأةً بالخرق الخجول، والحياء الغبي، والشلل اللســاني شبه الكامل.

كنـا مدركين جيداً لهـذه الخصوصية، ولم نرغب في إطالـة انزعاجهم، لذا تراجعنا سريعاً دون أن نتحدث معهم وتوجهنا مباشـرةً نحو الفجوة الموجودة في الصـخرة والتي انبثـق منها النبع محاطاً بسـحابةٍ من البخار، وبالمفاجئتنـا عندما وجدنا المياه المتدفقة سـاخنة لدرجة الغليان وشـفافة بكل معنى الكلمة، على الرغم مـن وجود لونٍ خفيفٍ جداً مائلٍ إلى الزرقة عندما تفحصـناها داخل الكأس.

كان للمـاء طعـم كبريتـي قوي جداً أقوى مـن طعم مياه أيّ نبع آخر من النوع نفسـه كنـت قد عرفتـه قبل ذلك. وعلى ما يبـدو كانت المياه إما بسـبب حرارتها المرتفعة أو مذاقها أو رائحتها القويّـن قد أيبـت كافة المزروعات المجاورة لها مباشـرةً؛ إذ لم تكن تنمو أيّة شجيرة أو ورقة عشـب على طول مسـارها، وكانت هناك ترسّبات بنيّة مائلة إلى الزرقة تغطي الحجارة والرّمال التي تدفقت المياه فوقها.

كغيـره من اليـنابيـع الكبريتية الحارّة، بـدا أنَّ هذا اليـنبوع ذو فوائـد طبيـة جمّة، فعلى الرغـم من كونـه بالكاد معروفاً خارج الحدود السّـورية، فإنَّ أبناء البلاد وباقي سـكّان هـذه المنطقـة يعرفون قيمته جيـداً. هناك آلاف السّـوريين ممن أصيبـوا بالجُذام، هذا الوبـاء الشـرقي وغيـره من الأوبئـة الجلديـة، يتهافتون سـنوياً على نبع «عيـن البيضا» الشـافي، ويقال إنهم وبشكل عام يعودون إلى منازلهم متماثلين للشفاء.

مـن الجلـيِّ أن النبع وبيت السـباحة البسـيط آنف الذكـر ملك للدّولـة، وقد منحته للشـعب من أجل الاسـتفادة منه مجّاناً، وبذلك يكون بإمكان أكثـر المصابين بالجُذام فقراً التمتع بفوائده بقدر ما يشـاء.

لو لـم يكـن الأمر كذلك لكنت متلهفاً لأستحمّ شـخصياً في بركة «بيت حِسدا»[1] Bathesda الـسّـورية هـذه لكي أجـرّب تأثير المياه الكبريتية على جسـمي، ولكن أن أستحمَّ عند المنبع مباشـرةً، حيث تكـون المياه بالطبع أكثر نقاوةً، سـيكون ذلك بكل بسـاطة انتحاراً بالسُّـلّق، وأن أغوص باستهتارٍ في حوض الاسـتحمام العمومي الأكثر انخفاضـاً، حيث عرفـت أنَّ المجذومين الـسـوريين يطرحون جلدهم هنـاك ويُغرقون حشـراتهم الطفيلية كان أمراً يتخطى حدود بطولتي، لذا قرّرت أن أؤجل هذا الانتعاش الممتع إلى أن أصبح قادراً على إطلاق العنان له على شـواطئ المتوسـط التي لم تكن بعيدة آنذاك. إنَّ وجود هذا النبع على مسـافة خمسـة وعشـرين ميلاً من الهوّة المدوّرة العجيبـة الواقعـة بيـن حلـب وتِرمانيـن Termanin أكـد لي بشـكلٍ كامـل طبيعة هذه الهوة.

* * *

بعـد حوالـي سـاعتين من الراحة، واصلنا مسـيرنا حول القسـم الشـمالي الشـرقي مـن البحيـرة، وكنا بيـن الحين والآخر نلتقـي بقافلةٍ متجهة إلى حلـب أو مجموعة من الفرسـان البدو المسـلحين برماحهم الطويلة التقليدية، وأحيانـاً أيضاً كنا نلتقي ببعض القروييـن مـن الرجال والنسـاء يمتطون حميـراً صغيرةً جـداً ويتبعون بعض ماشـيتهم الشـاردة التـي كانوا يبحثون عنها، وكانـوا يقودون حميرهم برضا تـام إلى منازلهم في القرى التي جاؤوا منها.

في هذه الأثناء كانت الشمس تسطع بشكلٍ مائلٍ على المياه الفضية العريضة المتدفقة على يسـارنا، وكان الوهج السـاطع المنبعث من الأخرى يتسـبب بألم في العيون على نحوٍ مفرطٍ. شاهدنا أعداداً كبيرةً من البط البرّي والإوز وغيرها من الطّيور المائية ترتفع فـوق البحيرة وتجتازها من فوق ذهاباً وإياباً فـي جميع الاتجاهات، فقط لتعود وتحطّ

(1) إشارة تورية إلى قصّة بركة بيت حِسدا العجائبيّة في القدس التي يرد ذكرها في الأناجيل، والتي لها خاصة شفاء الزّمنى أصحاب العاهات عندما تحرّك مياهها. ومعنى التسمية بالآراميّة: موضع الرّحمة.

على مياهها الساكنة أو بين القصب الطويل الذي يشكل حزاماً عريضاً يحدُّ البحيرة، وهو المأوى المفضل للآلاف من طيور مالك الحزين والكركي والواق.

على الضفاف الطينية البارزة من الشاطئ نحو البحيرة وقفت صفوفٌ من طيور النُّحام طويلة السيقان متوازنة على ساق واحدة وسط جوٍّ من التأمل العميق، وطيور اللقلق المنهمكة في التحديق بالماء وكأنها معجبة بأشكالها، إذ كانت صورها منعكسةً بوضوحٍ على المرآة الفضية الممتدة أمامها.

عبر المياه الضحلة مشى طائر أبو منجل اللامع و«المقدس» ببطءٍ وحذر، في حين كان طائر اليَقنة الرشيق والسريع بأصابعه المتباعدة جداً عن بعضها يقف بجمالٍ على الأوراق الخضراء العريضة للزنبق المائي، وعالياً فوق الجميع حلّق النَّسر ذو الرأس الأبيض الواضح بهدوءٍ وعظمة، وكان ينزل كالسهم أحياناً وبسرعة البرق إلى سطح البحيرة ثم يرتفع ثانيةً مع صرخةٍ حادّة معبرة عن فرحه بالفريسة التي حصل عليها، وهي سمكة متلوّية يمسك بها بقوة ببراثنه المرعبة.

تقدّمنا لعدّة ساعاتٍ بسرعةٍ خفيفة فوق السهل المنبسط الممهد المغطى ببساطٍ غنيٍّ من العشب المزيَّن في كل مكان بباقاتٍ من الأزهار والشجيرات الصغيرة المتفتّحة الزّهر. عشرات الآلاف من الفراشات الرائعة رفرفت في جميع الاتجاهات فوق السهل الجميل، بينما الطنين المستمر لنحلات العسل والنحلات الطنّانة والخنافس وصرير الصراصير والجنادب من حولنا، والنقيق البعيد للضفادع الموجودة بين أعشاب البحيرة أعاق تماماً جميع الأحاديث فيما بيننا، ولكن على الرغم من ذلك كنا جميعاً مستمتعين بهذا الجزء من الرحلة، لدرجة أننا عندما انعطفنا حول أسفل تلةٍ ترتفع على مساحة واسعة من السهل ورأينا قرية عين البيضا البائسة، حيث كان علينا أن نخيّم لقضاء الليل، شعرنا حقاً بالأسف لأننا على وشك الوصول إلى نهاية رحلة ذلك اليوم، إنه شعورٌ لم نحسّ به منذ أن غادرنا «مدينة الخلفاء».

بعد عشرين دقيقة من انعطافنا حول التلة، دخلت قافلتنا إلى القرية وسط النباح المسعور للعديد من الكلاب الهجينة، تقع هذه المحطة البائسة عند الطرف الشمالي

الغربي لأسفل تلة مخدّدة منخفضة، وهي عبارة عن ثلاثة أو أربعة أبنية حجرية ضخمة وغريبة الشكل وبدت غير مأهولة، وحوالي ستة أكواخ بالية مسقوفة بالقش. كانت الأبنية الأولى مؤلفة من طابقين، ومربعة الشكل ذات أسطح مستوية، وكان ارتفاعها أكبر من عرضها، ولكلٍّ منها باب صغير لكنه قوي، وبضع نوافذ صغيرة مربعة الشكل، وهي بشكل عام ذات مظهر كئيب وقابض للصدر وكأنها مسكونة بالجن.

أما الأكواخ فكانت حجرية وبائسة وتُقدَّر بعشرين قدماً في الطول وعشرين في العرض، وبالكاد يصل ارتفاع جدرانها إلى ثلاثة أقدام، إلاَّ أنها مغطاة بأسقف مائلة مكونة من إطار خشبي مغطّى جيداً بالقصب الذي يكاد يصل إلى الأرض. كان داخل هذه الأكواخ مظلماً جداً؛ ذلك أنها مضاءة فقط بضوء النهار القليل الذي يدخل عبر ثغرة أو ثغرتين في الجدران الجانبية ولا تزيد الواحدة على أربعة عشر إنشاً مربعاً، والتي مع الباب المنخفض والضيّق الذي يتوجب على الرجل المكتمل النمو أن يزحف على يديه وركبتيه لعبوره، تحقق الغاية المزدوجة فتعمل كمروحة ونوافذ في آنٍ معاً. لم يكن أي من المساكن البشرية التعيسة تلك يتجاوز سبعة أقدام في الارتفاع من الأرض حتى قمة السقف، لذا يستطيع الشخص مكتمل النمو الوقوفَ منتصباً فقط في وسط الكوخ.

على الرغم من كون وسائل الراحة في هذه الأكواخ رديئة إلى أبعد الحدود، إلاَّ أننا في ذلك المساء لم نستطع الحصول حتى على هذه الوسائل البسيطة؛ إذ لدى وصولنا وجدنا هذه الضيعة الصغيرة محتشدة بالناس من السكان والغرباء الذين كانوا يشغلون ويستملكون جميع المهاجع التي يمكن استئجارها لقضاء ليلتهم هناك. إن كون (عين البيضا) محطة ترحيل حيث يبدّل الساعي التركي خيوله هناك فهي واقعة على مسافة عشرين ميلاً فقط، أي مسير يوم واحد من ميناء إسكندرونة أو Alexandraetta على المسافة نفسها تقريباً من تِرمانين Termamin، وكون هذه الأخيرة واقعة على مسافة عشرين ميلاً من حلب، فإن جميع المسافرين تقريباً يجعلون منها محطة لهم بشكلٍ طبيعي.

كان الحشـد الـذي وجدناه يسـتملك مؤقتاً (عين البيضا) مشـكّلاً ومنوعـاً إلى حدٍّ كبيـر، ففيه ضباط وجنود أتـراك لم تبدُ عليهم هيئات الحرب والجيش في طريقهم إلى الحاميات العسكرية في المدن المختلفة، وكان هناك يونان ذوو ملامح واضحة وحادة ومـن الجلي أنهم تجار، وذلك حسـب الـرّزم الكبيرة والصـناديق المكدَّسـة بجوارهـم والتي بدا أنهم يراقبونها بحرص مصحوبٍ بالقلق.

كان هناك دلماسـيون ومونتينغريـون[1] قذرون مفتولو العضـلات وأقوياء المظهر، بشـواربهم الخشنة والضخمة ونظرة الضراوة على وجوههم مما يدلّ على استعدادهم التـام لطعـن أياً كان عند أدنى إثارة لهم. كان هناك أيضاً العديد من النوبيين ذوي بشـرة ليسـت سوداء فقط؛ إنما سوداء فاحمة بكل ما تحمل الكلمة من معنى ومن الجليّ أنهم عبيـد الضباط الأتراك، حيث كانوا يلبسـون زياً تركياً موحّـداً ويطيعون أوامر الضباط. إلـى جانب هؤلاء كان هناك طليان ومالطيّون، ويهود سـوريون، وأرمن وأكراد وعرب وفرس ورجلٌ إنكليزيٌّ أيضاً بشاربيّ خدٍّ مميزين ونظارة أحادية الزجاجة، مجهز بكامل معدات السـفر ويضع فوق جمجمته «التوبيّة Topee الشـمية» الهندية - لبّاداً مصنوعاً على شـكل الخوذة أو قبعة من الفلّين - ترافقه سـيدتان، إحداهما شـابة وجميلة، وقد تكون الأخرى والدتها.

بـدا جلياً أن السـيدتين كانتـا متعبتين إلى أقصى درجـة بعد أوّل يومٍ من مسـيرتهما الوعرة في سوريا، ولا شيء سوى الأخبار الصاعقة التي نقلها لهما حاميهما سيقنعهما للزحف للحظة واحدة من تحت سـقف الكوخ الذي تنزلان به لكي تُرضيا فضولهما. مـن بين الحشـد الملوّن المتجـه إلى حلب كان هناك رجلٌ فرنسـي يلبـس آخر موضة ويضـع قبعـة «بنما» غير منقّطة رُبط حولها وشـاح من الموسـلين الأبيـض على طريقة «التُربـان». ياللمسـكين! كان يعانـي آلاماً شـديدة؛ إذ لم يكن معتاداً على مناخ سـوريا وكان بدينـاً إلـى حدٍّ ما، لذا كان العرق يقطر من كلّ سـمٍّ من مسـام جسـده بينما يروّح

(1) نسبة إلى إقليم مونتينيغرو Montenegro (الجبل الأسود) في بلاد الصّرب. وأصل التسمية باللغة الإيطالية.

لزوجته بعصبيّةٍ بواسطة جريدة، وهي سيدة صغيرة وجميلة، لكنها ضعيفة جداً وشاحبة كالأموات وبدت كأنها ستموت فوق الصندوق الذي جلست عليه. لحسن الحظ كانت السيدة تسافر بالهودج، ذلك النوع من الحمّالة التي شكّلت جزءاً من تجهيزات قافلة الكونت (.de B)، ولولا ذلك كنت لأشك إن كانت هذه المسكينة ستتحمل حتى اليوم الأول من الرحلة.

عندما لم يكن هناك أيّ كوخٍ شاغرٍ لنا، قرّرنا أن نربط خيولنا ودواب الحمل الخاصة بقافلتنا على شكل دائرة فوق قطعة الأرض المستوية الوحيدة في المكان، والتي صادف أن تكون مقابل الكوخ الذي أقام فيه الفرنسي، وبما أننا كنا مرتابين من اللصوص المتسللين الذين قد يكونون ضمن حشدٍ متنوعٍ كهذا، والذي كان على القسم الأكبر منه أن يخيّموا مثلنا في الهواء الطلق، فقد وضعنا أمتعتنا في كومة واحدة ومددنا فراشنا في وسط دائرة الأوتاد.

* * *

الفصل الحادي والثلاثون

الاقتراب من الهدف

رجال المراقبة ـ حجرة التعذيب ـ فقدان الممتلكات ـ قرا صو ـ الإفجيج الرائع ـ المتوسط يلوح في البعيد ـ الممر الضيق ـ المرور تحت الشلالات المتوائبة ـ «بيلان» العذبة ـ الخان الخصوصي ـ جولة في الطريق ـ التسليم.

عندما وصلنا إلى القرية كان الوقت قرابة الغروب، ومع انتهائنا من تجهيز مخيّمنا كان الليل قد أسدل ستوره، وبدأ الندى الثقيل بالهطول، مما جعل من بين المسافرين المنهكين أولئك الذين استطاعوا تأمين ملاجئ لهم تحت سقوف الأكواخ القصبية، يلجؤون إلى مساكنهم المؤقتة، أما الذين كان عليهم أن يخيّموا في العراء حول نيران المخيمات المحترقة ببطء التي أُشعلت هنا وهناك فقد لفّوا أنفسهم من الرأس حتى القدمين بالبطانيات أو العباءات أو السجادات أو مشمّع التربولين أو أي شيء استطاعوا الإمساك به واتخذوا عوضاً عن الوسائد أيَّ شيءٍ وقعت فوقه أيديهم كالحقائب أو الصناديق أو خُروج السفر أو السّروج، ثم غرقوا في النوم بعد ذلك مباشرةً.

بالطبع كانت كلّ مجموعة قد اتّخذت - مثلما فعلنا - الإجراءات الاحتياطية اللازمة بتكديس كل الأمتعة في كومة واحدة، وربط الخيول ودواب الحمل إلى جوار نار المخيم الخاصة بها مباشرةً، وبما أنَّ كل ذكرٍ بالغٍ من المسافرين كان مسلحاً نوعاً ما، فقد كان من المتوقع والمفروض أن يأخذ كلّ منهم دوراً في مراقبة أمتعة المجموعة التي ينتمي إليها، عندما يكون أصحابه نائمين.

بعد ساعةٍ من حلول الظلام أحاط بقرية عين البيضة صمتٌ عميق، والصوت الوحيد المسموع آنذاك كان النقيق الكئيب لضفادع المستنقعات البعيدة أو شخير أحد النائمين النّعسين، أو صوت حافر حصانٍ ما، أو صوت البقبقة الناجم عن (نرجيلة) "hoboboble" أحد الحراس التي يدخنها ليبقي نفسه مستيقظاً، وبين الحين والآخر كان يُسمع صوت سعالٍ أو صهيلٍ لأحد الأحصنة.

بُعيد حلول الظلام هبّت ريحٌ رطبة ولينة باتجاه البحيرة التي تبعد مسافة ميلٍ تقريباً عن شمال غرب القرية، فساقت نحو مخيمنا سحابات من البعوض المتوحش القادم من المستنقعات ليتسبب بالإزعاج الشديد لكلٍ من الإنسان والحيوان، وعلى الرّغم من أنه يملك خيمةً جيدة، أحجم رئيس قافلتنا ذاك المساء عن استخدامها متعمّداً، وذلك لمجرد أنه أراد توفير الوقت والعناء في فكّها ونصبها ثم تقويضها وإعادة حزمها مرة أخرى، لذلك كنّا معرّضين بشكلٍ كامل لندى الثقيل المتساقط والهجمات الضارية التي تشنّها علينا معذّباتنا المجنّحات.

لم يكن ذلك الأوّل مزعجاً جداً بالنسبة لنا، ولكن الأخرى أصبحت لا تطاق بكل معنى الكلمة، حيث دسّت هذه الحشرات خرطومها في كلِّ شيءٍ أقلّ سماكة من الجزمة العسكرية. منزعجاً جداً من هذه الحشرات الوبائية؛ نهضت وانضممت إلى صديقي الشنيور (P) الذي وجدته جالساً على كرسي التخيم بالقرب من النار ويتحدث مع شخصين مغطّيين بلفاعاتٍ وبطانيات من رأسيهما حتى أخمص أقدامهما.

ظهر أنَّ الشخصين كانا الرجل الفرنسي وزوجته الضعيفة اللذين كانا غير معتادين على مشقات السفر في الشرق وغير قادرين على احتمال التعذيب أكثر من ذلك، فلجأا إلى مكانٍ قريبٍ من نار مخيّمنا الذي عملنا على إبقائها ملتهبة طوال الليل. كما هو متوقعٌ طبعاً، كانَ البعوض قد وجد سبيلاً للدخول إلى الأكواخ أيضاً، وكما هو معروف يفضّل البعوض الجوّ المغلق في الغرفة على النسيم البارد، لذا تجمّع بأعدادٍ هائلة داخل الأكواخ المنخفضة وراح يضايق النزلاء النّعِسين دونما رحمة.

كنا نتساءل كم سيستطيع الرجل الإنكليزي والسيدتان تحت حمايته – الذين بالمناسبة

كانـوا ينزلون في الكوخ المجاور لكوخ الرجل الفرنسـي - الصّمود في الداخل، وكنا نتوقّـع في كل لحظة أن يندفعوا من تحت سـقف القصب المتقلقـل (لحجرة التعذيب خاصّتهـم)، وياللمفاجأة! عندما لازموا حجرتهم بعنـادٍ إنكليزيٍّ حقيقي، ولكن هاك! عندما ظهر الثلاثة باكراً في صباح اليوم التالي، بدوا كأنهم يتماثلون للشـفاء من مرض الجـدري، وكذلك كانت حال معظم الذيـن حاولوا النوم في الداخل، بينما كان هؤلاء الذين أُجبروا على قضاء الليلة في العراء غير متضرّرين نـسبياً.

قبل وقتٍ طويلٍ من ظهور الشعاع الأول للفجر في الأفق الشرقي البعيد نهضت بعض القامات الملفّعة المسـطوحة على الأرض كالأشباح واحداً تلو الآخر، كان هؤلاء هم السـائسين وسـائقي البغال والطهاة، أو بعض المسافرين الذين تطوّعوا لتحضير فنجان مـن القهوة أو إعداد فطورٍ اقتصـادي لأصحابهم الجائعيـن والمرتجفين اللذين نهضوا علـى أقدامهـم بتمهّل يتثاءبون ويمطّـون أطرافهم المخدّرة ويترنّحـون حول المخيم، بعضهم يتجه نحو نار المخيـم المشتعلة دون لهب، وغيرهـم بعيونٍ لا تزال نصف نائمة يطوفـون هنا وهناك بحثاً عن الأمتعة الموضـوعة في غير محلّها والأمتعة المفقودة، إلاّ أنَّ بعضهم كانوا عبثاً يبحثون، وكان اختفاء الكثير من الأشـياء القيّمة دليلاً قاطعاً على وجود لصوص بين الأعداد التي تشكّل المجموعات المختلفة.

لـم يكـن بيننـا أحد مخوّلاً بتفتيش أي شـخص أو أمتعة الشـخص الذي يُشـتبه بأنه اللص، وإذا رفض ذلك الشخص أن يتم تفتيشه فإنه لن يبقى للشخص المسـروق خيار سـوى حلّ المسـألة شـخصياً وتفتيش ممتلكات أو أي شـيءٍ لدى الشـخص المشبوه بالقـوة مـع المجازفة بتهييـج عش الدبابير والدخول في شـجار، أمـا إذا كان راغباً عن الخوض في مخاطرةٍ كهذه فعليه أن يتحمّل خسارته بقدر استطاعته.

قبل سـاعةٍ من شـروق الشـمس كان الخروج الجماعي لحشـد المسـافرين المنوّع هـذا قد بـدأ، يمتطون خيولاً وبغالاً وحميـراً نحيلة وضعيفة ومنهكـة - كما هي العادة فـي الشـرق أثناء السـفر عبر مناطـق غير آمنـة - وليس على شـكل قوافل كبيـرة، إنما مجموعات كبيرة مؤلفة من ثلاثة إلى خمسة عشر شخصاً. وكان آخر من غادرنا الرجل

الإنكليزي والرجل الفرنسي مع مرافقيهما ومترجِمَيهما وطباخين، وجماعة كبيرة من سائقي البغال، هؤلاء الآخرون كانوا موظفين لحمل الأمتعة الكثيرة نوعاً ما الخاصة بالفرنجية المبجّلين - المصطلح العربي للأوروپيين - إلى عاصمة سوريا الشمالية.

مباشرةً بعد رحيلهم أسرعنا في رحيلنا نحن أيضاً، وبالكّاد مرّت عشرون دقيقة عندما بدأنا المسير ولكن بالاتجاه المعاكس. كانت الشمس الرائعة تشرق بجلال فوق الهضاب التي بدت من الحد الشرقي لسهل أنطاكية Antioch الجميل عندما خرجنا من قرية عين البيضا، كأنها تهنئنا لأننا كنا نبعد مسير يومين عن شواطئ البحر المتوسط المضيافة. بالتقدّم غرباً عبر السهل وصلنا إلى قرا صو[1] Karasu قبل الغروب بساعةٍ واحدة تقريباً. ينبع هذا النهر من الممرات الجبلية في المنحدر الشرقي لگوزَل داغ[2] "Guzel Dagh" القسم الشمالي من السلسلة الجبلية التي تحد الساحل اليميني لخليج اسكندرونة، أما القسم الجنوبي فيُعرف باسم (جبل طوروس) Djebl Tolos الذي يبرز طرفه الغربي على مسافةٍ طويلة داخل البحر مشكلاً رأساً واضحاً شديد الانحدار يشبه كثيراً بشكله خطم الخنزير يسمّى «رأس الخنزير». وبما أنَّ سكان هذه المنطقة ذوو أصولٍ تركية وعربية بالتساوي ويتكلّمون اللغتين كلتيهما بالتساوي أيضاً، ولذا فبعض المدن والجبال والأنهار... إلخ تحمل أسماءً تركية في حين هناك أخرى تقع بجوارها مباشرةً تُعرف بأسماءٍ عربية فقط.

بعد حوالي ساعةٍ من عبور قرا صو Karasu وصلنا إلى قرية بغراس Bagras الصغيرة، التي تقع على مفترق الطريق بين أنطاكية Antioch وحلب، وفي هذا المكان دخلت قافلتنا ضمن الإفجيج الضيق العميق كثير الالتواءات الذي يفصل بين الجبلين المذكورين للتو Güzel Dagh وجبل طوروس ومن خلاله تمرّ الطريق - إذا صحَّ أن ندعو ممراً جبلياً منحدراً ووعراً كهذا باسم طريق - باتجاهٍ شماليٍّ غربي، كنا نتقدّم بحذرٍ على طريقة الرتل الهندي، إذ لم يكن هناك متّسعٌ لمسير حصانين جنباً إلى جنب،

(1) التسمية تركية Kara Su وتعني: النهر الأسود.
(2) التسمية تركية Güzel Dağ وتعني: الجبل الجميل.

عندما تسلقنا الجزء المنحدر من الطريق وسط جوٍّ مضايقٍ إلى أبعد الحدود لكنه يعبق بأطيب الروائح المنبعثة من الأزهار المعطرة لآلاف الياسمين والدّفلى وغيرها من النباتات شبه الاستوائية التي نمت بكثافة على جانبي الطريق.

وأخيراً وصلنا إلى قمة الممرّ الجبلي، وكلّما كان أحد أفراد القافلة يصل إلى قمة الشّعب انبعثت من شفتيه العطشى صيحة جذلٍ ومفاجأة، حتى الخيول اللاهثة والبغال المنهكة نصّبت آذانها عند رؤيتها للمشهد السارّ الممتد أمامنا. صيحات تعجب مثل «الحمد لله!» «وأخيراً!» اختلطت بحرّية مع التعابير الهادئة، لكنها ليست أقل جدّية مثل «البحر» «ماشاء الله» التي صدرت عن عشرين صوت عربيٍّ أجش، إذ كانت تحتنا مباشرةً صفحة المياه الباهرة المعروفة باسم المتوسط تمتدّ بلونها السماوي الرائع ومساحتها الشاسعة بعيداً إلى الأفق الغربي، وقد تناثرت فوقها الأشرعة القليلة البيضاء كالثلج التي ظهرت جميعها دون حراك، وبدا كأن هدوءاً مميتاً يعمّ المرآة المائية، حيث لم نلاحظ أدنى تموّجٍ في الماء حتى على طول حدّ الساحل الصخري بكامله.

تحت أقدامنا مباشرةً امتدّ ميناء الإسكندرونة الهام والصغير ضمن الخليج الذي يطلق عليه الاسم نفسه. كان محاطاً من الخلف بحزام من الأراضي المستنقعية أو السّبخية المغطاة بأعدادٍ كبيرة من أشجار النخيل البرّي والشجيرات، بينما على مسافة قصيرةٍ بعد الشاطئ الرّملي رست ثمانية مراكب شراعية بهمودٍ تام، وبعيداً جداً باتجاه الشمال يمتدّ الخليج الجميل الذي أعطى اسمه لتلك المدينة والميناء محاطاً بهضاب معتدلة الانحدار وقمم جبلية شاهقة ووعرة، ومعظم تلك الهضاب مغطاة بالغابات والشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة.

نحو الشمال كانت هذه السلسلة الجميلة الشاهقة المنحدرة والمهيبة المعروفة بجبال طوروس تبرز بعيداً داخل البحر وتنتهي فجأة مشكّلة الرأس الواضح المذكور تواً والمسمى برأس الخنزير.

إنَّ كولومبوس نفسه لم يرحّب برؤيته للمعالم المبهمة لجزيرة سان سالفادور San Salvador بفرحٍ وابتهاجٍ كما فعلنا نحن - الأشخاص الأوروبيين في القافلة - عند

رؤية البحر المتوسط، حيث ظهر فجأة أمامنا لحظة وصولنا إلى هذه النقطة المرتفعة، وإني لأعتقد حقاً أن هذه اللحظة السعيدة سوف تبقى إلى الأبد مطبوعةً في عقولنا كواحدة من أسعد لحظات حياتنا، فهي بشيرٌ على اقتراب نهاية رحلتنا عبر إحدى أكثر المناطق جفافاً وعزلةً ومللاً على وجه الكرة الأرضية، على الرغم من أنها وفقاً لمعطيات التاريخ كانت مهداً للبشرية.

مع زفرة انفراج قويّة هبطنا المنحدر المعتدل متجهين نحو البحر، ولزيادة ارتباكنا صادفنا في القسم الأضيق من الممر الجبلي صفاً طويلاً من الجمال التي تصعد التلة ببطءٍ على شكل الرتل الهندي، وكان كلٌّ منها يحمل صندوقاً أو حزمةً ضخمةً جداً من الأقمشة الأوروبية أو غيرها من البضائع المربوطة جيداً إلى كل جانب من جوانب الخُرج الخاص به، فتحتك وحتى تصطدم بالصخور الناتئة على طول مسار الجمال كان من شبه المستحيل لأي شخصٍ على صهوة حصانه أن يستطيع اجتياز واحدٍ من «سُفن الصحراء» هذه إذ كان البدو يسرّون بمناداة هذه المخلوقات البطيئة بهذا الاسم - دون إما أن يُسحق ويحوّل إلى هلام أو أن يُزجى نحو الهاوية - النقطة التي أودّ أن أشير إليها بكونها محدودة من إحدى الجهتين بجدار قائمٍ مرتفع وفي بعض المناطق بمنحدراتٍ ناتئة ومن الجهة الأخرى بهاويةٍ غائرة.

فقط بفضل حضور ذهن رئيس قافلتنا نجونا من الهلاك المحتم. فعند اقتراب القافلة، وضع المقبض الثقيل للسوط الخاص به على خطم الجمل الأول دون رحمة وأجبره مع من يتبعه على اتخاذ المسار الخارجي.

تجرأتُ بصعوبة على النظر إلى الخلف دون أن أتوقّع شيئاً سوى رؤية الجمال واحداً تلو الآخر تتشقلب نحو الخليج الممتد على جانبها ولكن لكي أشعر بالراحة المطلقة استطاع كل واحدٍ من هذه الحيوانات ثابتة القدم على نحوٍ رائع أن يتجاوزنا بشكلٍ سليم، واستطاعت القافلتان اجتياز بعضهما على مسارٍ بالكاد يصل عرضه إلى خمسة أقدام دون أي خدشٍ، لكنّ أكثر ما أدهشني كان اتّزان ورباطة جأش الهجّانة الذين لم يُظهروا أيَّ ارتباكٍ أو قلق في حالتهم الخطرة تلك، وذلك كونهم معتادين على مصادفاتٍ كهذه.

وبعـد التقائنا بالقافلة وعندما مررنـا من منعطفٍ في الطريق الجبلي المنحدر حول إحـدى الصخور المنحدرة الشـاهقة، وقعـت أنظارنا من الجهة اليسـرى على المنازل التي تشكل القسم الأعلى من بلدة بيلان Beilan الصغيرة، محطتنا التالية.

ولدى تقدمنا نزولاً لمسـافة ربع ميلٍ تقريباً مررنا بالعديد من الشلالات ذات الارتفاع الهائلِ، لكن مياهها قليلة، تقفز وتزبد وتفور من حدرٍ إلى حدرٍ بعيداً فوق رؤوسنا، ثم تختفـي عـن أنظارنا داخل مجرىً طبيعي شـديد التحـدّر، أو نفقٍ مفتـوحٍ بين الصخرة الشاهقة والممر.

كان واحـدٌ فقـط من بين هذه الشـلالات يقفز من منحدرٍ عالٍ وناتـئٍ بوضوح فوق الممر، إلى الهاوية المظلمة في الأسـفل، ولم تسـقط نقطة منه فوق الممر، على الرغم من أن مياهه كانت تتمدد وتتسـع أثناء سقوطها إلى أقصى درجة ممكنة، فتبدو كوشاحٍ كريسـتاليٍّ عملاق يعكس كالموشـور الزجاجي كافة ألوان الطيف أينما ألقت الشمس بأشعتها فوقه، ياله من مشهدٍ ساحرٍ يستحق الرؤية!..

في قعر الهوّة الموجودة في الأسفل يتدفّق كالرّعد نهر جبلي كبير، ينبع بالقرب من قمة المنحدر الشـمالي الشـرقي لجبـل طـوروس "Djebl Tolos" ويقفز من صخرة إلى صخرة فيرشُّ ويفور ويزبد مشكلاً عدداً لا محدود من الشلالات، ثم يصبّ مياهه المضطربـة أخيراً فـي البحر المتوسـط أو - إذا صحَّ التعبير - في خليج الإسـكندرونة الواقع على مسافة ميلين جنوب غرب الميناء الذي يحمل الاسم نفسه.

وكأنمـا لتجعـل المشـهد الجيّـاش للخانـق الجبلي أكثـر عظمة وشـاعرية، ارتأت الطبيعـة العظيمـة أنـه من المناسـب تزويـد جانبـي الممر الجبلـي بفجوات وشـقوقٍ ومغـاراتٍ واسـعة، بعضها عاليةً جداً فـي الصخور ومتعذرة البلوغ بـكل معنى الكلمة إلاَّ بالنسـبة للطيـور، حيـث تكون هذه الفتحـات محطّاً آمناً لها وأماكن مناسـبة للبيض والفقـس وخاصةً للعديد من النسـور بيضاء الرأس والصقـور والبُزاة التي تحوم طوال النهـار فوق الهوّة المظلمـة، ويلاحق بعضها بعضاً في الفضاء لتمـلأ الهواء بصرخاتها الحادّة الفظيعة التي يتردد صداها بكآبة حول الإفجيج.

إن أكثر المناظر اتقاداً في جبال الألب أو جبال الرّوكي لا تفوق هذه المنطقة بغرابتها الشاعرية والمتّقدة، ولن يستطيع أيّ رسام مناظر أن يجد بقعةً أكثر ملاءمة ليرسم وكر الذئب في أوبرا (ويبر) Weber الشهيرة، لم نلبث أن مررنا بآخر شلالٍ من سلسلة الشلالات حتى وجدنا أنفسنا عند حدود بيلان «Beilan» ننزل إلى قلب المدينة عبر النهاية الشمالية للبازار الضيق المكتظ بالناس، وسط الجلجلة المرتفعة لأجراس بغال الحمل و«الأكاديش»، وصهيل الخيول ونباح كلاب الطريق والصراخ الجعجاع للحشد المعتاد من الصعاليك الصغار الذين يطوفون عادةً بين أسواق الشرق ويهلّلون بفرحٍ بوصول قافلة ما متوقعين أن يتمكنوا من الاختلاس أو الحصول على البقشيش، وتكون هذه التوقعات مفرحة أكثر عند وجود (فرنجيّة) أي أوروبيين مع القافلة.

على الرغم من أنَّ الوقت كان لا يزال باكراً في المساء، كان البازار بأكمله يتّشح بالظلام الباهت للّيل المقبل جرّاء المظلات المهترئة داكنة اللون المصنوعة من قماش الخيام الصوفي الخشن وحصائر القش التي أحرقتها الشمس وأكل الدهر عليها وشرب، المعلقة فوق البازار من أوّله حتى آخره، تدلّت بين صفي الأكشاك والمظلات الخشبية القديمة والمتداعية والمتآكلة بفعل الديدان الموجودة على جانبي الطريق الضيّق، وقد نجحت حقاً ليس في حجب أشعة الشمس فحسب إنما ضوء النهار والهواء المنعش أيضاً عن البازار القذر والخانق. تحسّست خيولنا وبغالنا طريقها بمنتهى الصعوبة والحذر فوق الرصيف الوعر والزلق جداً نزولاً باتجاه الخان أو النزل، حيث بناءً على اقتراح عبد الله رفيقنا في السفر من حلب قررنا قضاء الليلة هناك.

سرعان ما وقفنا أمام البناء المذكور للتو، بإرشادٍ من عبد الله، إلاَّ أنَّ التفحص السريع للمبنى كشف لنا حقيقة أن المكان قذر جداً ومليء بالرطوبة ولا يتناسب مع قافلة محترمة، علاوةً على ذلك كان هناك جملٌ يحتضر ومن الجلي أنه متروك هناك، ولولا خشيتنا أن ندفع مقابل الحيوان أو أن نتسبب بالإزعاج لكنا بكلّ سرور أنهينا معاناته بطلقةٍ واحدة.

تحت هذه الظروف قررنا ألاَّ ننزل في هذا الخان ولو لليلة واحدة، وذهبنا بحثاً

عـن مهجع أكثـر ملاءمة من هـذا، وبالفعل وجدنا ذلك على مسـافةٍ ليسـت بعيدة إلى الأسـفل قليـلاً. كان مبنىً حجرياً ضخماً ومربع الشـكل يبعد حوالـي ثلاثين ياردة عن يمين الشارع الرئيسي وهو الطريق الذي يقع ضمنه البازار.

كان هـذا الخـان كالخـان الأوّل؛ عبارة عـن طابقين ويرتكـز على طابـقٍ أرضيٍّ أو سرداب أو قبو بمسـاحة كامل البناء. يمتدّ هذا الطابق تحت حوالي أربعة أقدام من سطح الأرض، بينما كان السـقف المقنطر مدعوماً بواسـطة صفّين من الأعمدة الأسـطوانية الحجرية المتينة التي ترتفع حوالي ثمانية أقدام. وكان الدخول إلى هذا السّـرداب شبه المطمور يتم بالنزول عبر سطحٍ منحدرٍ عرضه ستة أقدامٍ تقريباً ويقع مقابل المدخل.

في هذه الأبنية كانت الأدوار الأرضية فقط تسـتخدم كخانات، وكان على كل قافلة تدخل هذه الخانات الخاصة أن تدفع «للخانجي» أي المالك أو الشـخص المسـؤول عن الخان، الذي يعيش عادةً مع عائلته في أحد الطوابق العلوية، مبلغاً معيناً مقابل حق استخدام الطابق الأرضي، وهذا المبلغ اختياري بالنسـبة للخانجـي، فقد كان الطلب عادةً يتراوح ما بين عشـرين إلى خمسـةٍ وعشـرين قرشـاً، أيّ ما بين تسـعين سـنتاً إلى دولارٍ واحدٍ أو اثني عشـر سـتاً ذهبياً ونصف مقابل إقامة نهار أو ليلة لمدة اثنتي عشرة ساعة للقافلة بأسرها.

عمومـاً يتوجـب علـى الأوروبيـين أن يدفعوا أكثر مـن ذلك، وخاصـة إذا اعتبرهم الخانجي أشخاصاً مناسبين للابتزاز.

إن الخانـات العموميـة التـي تعـود للحكومـة التركية والتي أنشـأتها مـن أجل هذا الغرض مجانية للجميع، ولكن بما أنها لهذا السـبب بالتحديد ملاذاً لأفقر المسـافرين والمتشـردين وأكثرهم قذارة، فغالباً مـا تجدها قذرة ومليئة بالحشـرات الطفيلية، وإنَّ أي مسـافرٍ محترم لن يدخلها ما لم يكن مضطراً لذلك. أوت قافلتنا بسـرعة إلى الخان الفسيح بأكبر قدرٍ من الراحة ممكن أن تمنحه لنا الظروف، إلى جانب ذلك لم يكن أي منا بعد رحلة مضنيةً كهذا موسوساً أو صعب الإرضاء.

على جناح السرعة تمّ تحضير والتهام مائدةٍ سخية جداً وتمّ الاعتناء بالحيوانات المتعبة بشكلٍ جيدٍ أيضاً.

حلَّ الليل مع انتهاء العشاء وكانت ليلةً مقمرة رائعة ومضيئةً كضوء النهار تقريباً، وهي واحدة من تلك الليالي التي لطالما اشتهر الشرق بها. بعد العشاء اقترح عبد الله على رئيس القافلة أن نقوم بجولةٍ حول المدينة، فقبل بذلك على الفور. وجدنا بيلان Beilan أو Beylan مكاناً يضم خمسة آلاف نسمة معظمهم من المسلمين مع وجود بضع مئاتٍ من اليهود والمسيحيين الأرمن بينهم، كان القسم الأكبر من الذكور يعمل بالتجارة ونقل البضائع والمسافرين عبر الطريق الجبلي من وإلى ميناء إسكندرونة بواسطة الجمال وخيول الحمل والبغال والحمير، أما بقية السكان فكانوا يعملون في صناعة البضائع القطنية والصوفية والحريرية والمنتجات الجلدية والخرداوات، وفي تربية الأغنام والماعز والطيور الداجنة.

يشتهر بعض تجار بيلان Beilan بثرائهم، ويبدو أن معظم سكان المنطقة يعيشون ببحبوحة ورفاهية على الرغم من ثيابهم ومظاهرهم المتسخة وقذارة البلدة التي لا يمكن إنكارها، كانت أشكالهم التي تنمّ عن الصحة وطباعهم المرحة والمفعمة بالحياة ليست إلا نتيجة المناخ الصحي الرائع والمياه الممتازة في مساكنهم الجبلية الواقعة على ارتفاع لا يقل عن ألف وستمئة قدم فوق سطح البحر، وبالتالي فهي معرضة باستمرار للنسيم المنعش والمبهج الذي يهب من جهة خليج الإسكندرون الجميل.

بنيت بلدة بيلان Beilan على جانبي الخانق الجبلي العميق الموصوف سابقاً، إلاَّ أنَّ القسم الأهم فيها يقع على الجانب اليميني للخانق عند النزول عبر الممرّ الجبلي الذي يقع أيضاً على الجهة نفسها. ومعظم الأبنية الرئيسية في هذا القسم من المدينة مبنية بالحجارة أو القرميد المجفف بأشعة الشمس، وقد شيّدت على الطراز المعتاد للبناء السوري؛ فهي مربعة أو مستطيلة الشكل ترتفع ما بين طابقٍ واحدٍ إلى ثلاثة طوابق بما فيها الطابق الأرضي، لها أسطح مستوية، وأقبية مسردبة وفتحات نوافذ قليلة مسدودة

بقضبـان حديديـة. فيـما بنيت بقية الأبنية الموجودة على الجانـب الرئيـــي من الخانق، مـن الخشـب، وكذلك كانت تلـك المبنية علـى الجانب الآخـر. كانت تشـبه البيوت الخشـبية المؤلفة من طابقٍ واحد أو طابقين ومزودة بسقوفٍ كبيرةٍ ومنخفضة مصنوعة مـن القصب والقش أو من الألواح الخشـبية الصغيرة، وتبـرز نهاياتها إلى حدٍّ كبير بعد الجوانـب الأربعـة لبنـاء الذي يرتكز علـى جدران أساسـية أولية البنـاء، كان المنجور الخشبي بأكمله قد أصبح بنياً داكناً وتقريباً أسـود اللون بتأثير الشمس والأمطار. تذكرنا هذه الأبنية بالشّاليهات القديمة البالية بسـبب العوامل الجوية التي يمكن رؤيتها في أي مكان في مقاطعة بِرن Berne وبمحاذاة الشـواطئ الشـاعرية لبحيرة «الأقاليـم الأربعة» في سويسرا.

وبما أنها كأعشـاش السنونو معلّقة على الجانب المنحدر للجبل أكثر من كونها مبنية، وبسبب تناقضها مع أسلوب البناء الشرقي المعتاد بلونها الداكن وموقعها الخطر، كانت تضفي مظهراً مظلماً وغريباً على نحوٍ مضايق. ليس هناك مبنىً جديد يمكن إيجاده في البلـدة، وقد بدا أن كل منـزلٍ يبلغ قرناً من العمر، حتى القنـوات الصغيرة العديدة التي تحمـل المياه من البرك الموجودة أسـفل كل من الشـلالات المتسلسـلة، إلى الأحياء المختلفة والحدائق الصغيرة في البلدة كانت تحمل طابع القِدَم.

تدين بلدة بيلان Beilan بأصلها ووجودها حتى يومنا هذا إلى الطريق الجبلي الذي علـى ما يبدو كان معروفاً لدى القدماء بأنه الجزء السـفلي من المضـيقين الأمانوسـيين اللذين وصفهما شيشيرون Cicero بكونهما «سهلي الصعود بسبب ضيقهما».

ولاشكَّ أنَّ هذا الممر شكّل نقطةً استراتيجية هامة في الحرب بين الإسكندر الكبير وداريوس كودومامـوس أو دراريوس الثالث (330-334 ق.م).

يقـال إن بيـلان Beilan قبـل قرنٍ من الزمن كانـت المعقل السـرّي أو مكان اختباء القرصان سـيء السـمعة قرا يوسـف Kara Yossoof أي يوسـف الأسـود، الذي كان محاطاً بعصابةٍ من السـفاحين المستميتين أمثاله، ويترصّد جيداً من نافذة مقره في بيلان للمراكـب الشـراعية التي تلـوح في الأفق الغربي المتوقفة بسـبب قلـة الرياح، وعندما

يلمح واحدة يهبط بسرعة إلى الشاطئ بصحبة طاقمه المستميتين حيث يبقى مختبئاً بين المنحدرات أو في خليجٍ منعزلٍ مستترٍ بأشجار الغابات، ثم تنطلق (فلوكة) سريعة - مركب شراعي صغير مزود بأشرعة مثلثة وقابلة لدفع بواسطة عشرة إلى ستة عشر مجذافاً - ينقضّ بها على ضحينه ويطمس دائماً كل الدلائل التي تشير إلى جريمته وذلك بإغراق أو حرق المركب مع كامل طاقمه المقتول، وبعد ذلك كان النذل يطوف في الأنحاء حتى حلول الظلام، عندها سينزل مع غنيمته في مكانٍ مخفيٍّ ما فوق الشاطئ ثم ينسحب من خلال طرقٍ ملتوية مع الغنيمة إلى مخبئه في بيلان، وهناك سيقضي أوقات فراغه مع عصابته بأفظع طقوس العربدة.

لم يكن السكان عديمو الأخلاق - بكل ما تحمل الكلمة من معنى - يخشون أن يشوا به فحسب؛ إنما وجدوا أنَّ من مصلحتهم المادية ألاَّ يشوا بمصدر رزقهم أيضاً، ومع ذلك نجحت الحكومة في تقفي أثره والإمساك به، وأخيراً حكم عليه رسمياً بالجوع حتى الموت داخل قفصٍ حديدي. وفي عام 1832 حصلت بيلان Beilan على آخر شهرة لها في التاريخ وذلك بالمعركة التي وقعت بين جيش نائب ملك مصر محمّد علي الطموح والمولع بالحرب وجيش محمّد الثاني سلطان الإمبراطورية العثمانية، وفيها هزم الأخير ووصلت الحكومة التركية إلى حافة الهلاك لولا تدخل القوى الأوروبية الذي كان في الوقت المناسب.

* * *

عندما عدت مع صاحبيَّ من جولاتي حول المدينة كان الوقت متأخراً جداً، ومع ذلك كنّا متردّدين بشأن ذهابنا إلى النوم؛ فقد كانت الليلة جميلة جداً، حيث سَطعَ القمر المكتمل فوق المشهد الجبلي فأناره، وكان الهواء منعشاً بشكل مثير للبهجة، وعلى الرغم من أننا كنا فوق سرجنا منذ بزوغ الفجر فقد شعرنا بأننا أقوى ومعنوياتنا أفضل من الوقت الذي بدأنا فيه رحلتنا في النهار.

أن نؤوي إلى المختلى المظلم في الخان الأرضي دون ضوء القمر الجميل كان أمراً مُغضباً جداً، إلاَّ أننا كنا مجبرين على فعل ذلك في سبيل أن نبقي كل ما يخص القافلة

تحت سيطرتنا ولكي نستعد في حال حدوث أي طارئ، كالمرض الفجائي بين الرجال أو الدواب أو اندلاع حريق ما أو حدوث سرقةٍ ما، فلكي أكون أكثر وضوحاً يقال إن سكان بيلان لا يزالون مصابين بهوس السرقة، وكانوا جدّ مشتهرين بين المسافرين بكونهم «لصوصاً متسللين» على الرغم من أنهم لم يعودوا قطّاع طرق وقراصنة محترفين بعد الآن.

كلّ فردٍ من أفراد القافلة كان سيفضّل التخييم في الهواء الطلق، ولكن خارج الخان لم تكن هناك أي قطعة أرضٍ خاليةٍ ومستوية في المدينة بأكملها تتسع لمخيّم قافلةٍ أصغر حتى من قافلتنا.

* * *

سلطان تركية (نُقيشة فولاذية)

الفصل الثاني والثلاثون

نهاية رحلتنا

«ليلتنـا الأخيرة في الخارج» ـ «الحلـوى» ـ المنحدر الضيق ـ العاصفة ـ عبر البوابة ـ تسـليم البضائع ـ التاجر اليوناني الأنيـس ـ ليلةٌ لا تنسـى ـ أشياء مألوفة في الجمارك ـ الباخرة البريدية ـ وداعاً يا موطن الإسلام.

انقضت ليلتنا بهدوءٍ تام، ومع شروق شمـس الصباح التالي كنا منهمكين في التحضير ليـوم رحلتنا الأخيـر عبر «أراضي الهلال والنجم». قبل رحيلنا كان على قائد قافلتنا أن يذهب إلى البازار ليشـتري بعض الحاجيات، وعندمـا عاد أحضر معه مؤونة جيدة من تلك الحلويات العربيـة الأصيلة اللذيذة التي أشـرت إليها في حديثي عن مسقط بعبارة (حلوى)، وقد نوينا أن نقدّم بعضاً منها لأصدقائنا في أوروبا. بعد عودة قائدنا مباشـرة بـدأت القافلة رحلتها، وواصلنا الهبوط الخطيـر لذلك الممر الجبلي المنحدر والوعر على نحوٍ مخيف.

عندمـا بزغـت الشـمس ذاك الصبـاح على الخانـق الجبلي مـن فوق القمّـة الوعرة لاحظنـا بريقها القرمزي الاسـتثنائي الذي ينذر في هذه المناطـق بيومٍ حارٍّ جداً، وتبدّد ضبـاب الصباح الخفيف الـذي ظلّ معلقاً فوق هذا المنظـر الطبيعي حتى ظهور الكرة الملتهبـة، فأصبـح هواءً رطباً وكان بالإمكان رؤيته يهتز بقوة للأعلى والأسـفل في كل مكانٍ نفذت إليه الشمس منه، إنها ظاهرة شائعة جداً – ولأؤكد ذلك – حتى في مناطق دوائر العرض الأكثر ارتفاعاً، لكنه لا يتسـبب بمضايقة المسـافرين في أيِّ مكانٍ مثلما

يفعل في هذا الممرّ الجبلي الضيق والخطر إلى أبعد الحدود.

تخيّل عزيزي القارئ أنك تهبط سلّماً منحدراً على صهوة الحصان، يصل طول هذا السلّم إلى عشرة أميالٍ تقريباً في حين يتراوح عرضه ما بين عشرة أقدام وعشرة إنشات، ويقودك ضمن مسارٍ متعرّج جزءٌ منه يمرّ مباشرة بمحاذاة هاوية قائمة الانحدار، وجزء آخر عبر غابات المنحدر الجبلي القزمة والشجيرات الشوكية التي نمت تحتها، أما درجات السلّم فهي مكونة من صخور الجلمود الضخمة ذات الأحجام والأشكال المتفاوتة التي ارتمت على نحوٍ مختلط بعضها مع بعض، بالإضافة إلى ضبابٍ يهتزُّ باستمرار أمام عينيك وعيني حصانك ليبهر بصركما معاً، عندها ستحصل على صورةٍ حقيقيةٍ لممرّ بيلان Beilan.

ولكي تسوء الأمور أكثر فأكثر، لم تلبث قافلتنا أن بدأت بمسيرها مجدداً حتى أصبنا بالخوف والحيرة لرؤيتنا أنَّ الأفق الغربي كان يتخذ بسرعةٍ كبيرةٍ لوناً رصاصياً معتماً، والنسيم الضعيف ينتهي ويسود البحر الممتد أمامنا هدوءاً كهدوء الأموات، وبدا هذا الهدوء واضحاً جداً ليس فقط من السطح الساكن للمياه، إنما من الحالة الساكنة للأشرعة البيضاء المتناثرة هنا وهناك فوق الصفحة الزرقاء السماوية التي انبسطت تحت أقدامنا. تصاعدت غيوم سوداء ضخمة واحدة تلو الأخرى من البحر باتجاه الأفق الغربي وتلبّدت فوق بعضها بقوةٍ لا مردّ لها وسط هزيم مسبّبٍ للإغماء ناجمٍ عن الرّعد المتجه مباشرة نحونا باندفاع جبّار مستمر.

غرقت طيور الغابة الغرّيدة في صمت عميق، حتى الصرير المضجر للجنادب والصّراصير لم يعد مسموعاً نهائياً، واتّقد الجو بحرارةٍ خانقة، ولم يكن يسمع حفيف الأوراق ولم تكن ورقة عشب لتتحرك. في الحقيقة كان العالم الحيواني والنباتي بأسره قد غرق فجأةً في صمت القبور.

اسمع! إنها صرخة الصّقر الحادّة! هناك انطلق كالسهم إلى الخانق الجبلي يبحث عن مأوىً. إنه وميض برقٍ مسبب للعمى، تبعه مباشرةً هزيم رعدٍ مخيفٍ اهتزت على أثره الصخور التي نسير تحتها، وتردّد صداه بكآبة بين الجبال، بضع قطرات

كبيرة وثقيلة من المطر، وميضٌ آخر! وهزيمٌ آخر! ثم فيضانٌ كاملٌ من الماء مصحوباً بوميضٍ بعد وميض من البرق وقصف بعد قصف من الرعد، ليقدّم لنا ذلك كله نموذجاً عن عواصف هذه المنطقة ويزيد بشكلٍ طبيعي الصعوبات التي نواجهها في الهبوط إلى الشاطئ. استمرّ الفيضان لمدّة ساعتين من الزمن دون أدنى انقطاع. على الأقل ساعدت هذه العاصفة الماطرة في تلطيف الجو إلى حدٍّ ما، حتى إنَّ أحداً منا لم يحزن كثيراً على ابتلالنا.

مع توقّف المطر كنا قد اقتربنا من سفح الجبل، وكان القسم الأصعب من هذا الممرّ يمتدّ وراءنا، وبدأت الطريق التي كانت حتى الآن مجرّد مسارٍ وعر تتسع شيئاً فشيئاً وتقودنا باتجاهٍ شمالي عبر سهلٍ معشوشب ضيق ينحدر بلطف نحو شاطئ البحر إلى مدينة وميناء الإسكندرون.

على الرغم من أن هذا السهل يبدو مستوياً تماماً من البعيد، إلا أنه مخددٌ بمجارٍ مائية عميقة تندفع من خلالها المياه أثناء الفصل الماطر من الجبال نزولاً إلى البحر. هناك أعدادٌ كبيرة من الخيول والجمال والحمير المتعبة التي أرسلت إلى هناك لتستعيد قواها وحيويتها، ترعى بصحبة قطعانٍ من الأغنام والماعز من العشب الضئيل وأوراق الشجيرات والأجمات التي تحدُّ مجاري المياه الدورية تلك، ويحرسها رجالٌ مسنون ونساءٌ وأطفال نصف عراة يتمدّدون بكسل تحت ظلال الأشجار المنزوية.

كلما اقتربنا من الشاطئ أصبح السهل مستوياً كأنما باستخدام ميزان البنّائين الزئبقي، وسبخياً جداً ومليئاً بحفر المياه الراكدة، وقد نمت فوقه الشجيرات والنباتات المعترشة والنباتات المائية بكثافة، وهي الفردوس الحقيقي بالنسبة للزواحف والطيور المائية والخنازير البرية، والسبب الرئيس للجو المضرّ بالصحة الذي يعرف به هذا الميناء. كان سدّاً مبنياً بطريقة أولية من الخشب غير المنجور، ومليئاً بالحجارة غير المصقولة، يشكّل الطريق عبر هذا المستنقع، وفوقه زحفت قافلتنا إلى الهضاب الرملية المنخفضة في القسم الخلفي من المدينة التي لاحت أمام أنظارنا على مسافة بالكاد تبعد مئة ياردة.

بخوض هذه المسافة القصيرة ونحن غارقون حتى الرُّكب تقريباً بالرمال المتحركة، وصلنا إلى البوابة الجنوبية الضيقة المتداعية ومشينا بحذر على طول الشوارع الضيقة المتعرّجة عبر الحشد المعتاد من المتسكعين فاغري الأفواه إلى البناء الذي يقع ضمنه مكتب العميل التجاري لأصدقائنا في حلب، حيث قادنا إلى هناك حمّال صادف أنه على معرفةٍ بذلك السيّد، وفي الوقت المناسب ظهر أمامنا المنزل المطلوب، ووجدنا السيّد في الداخل، فأعطيناه رسائل التقديم الخاصة بنا وعليه وضع نفسه مباشرةً تحت خدمتنا مع فريق موظفيه بأكمله.

عندما علم السيّد بقدومنا مسبقاً عن طريق المؤسسة التجارية في حلب استأجر لنا الخان الأكبر والأفضل في المدينة وجهّزه من أجل إقامة قافلتنا وحدها، ورافقنا إلى هناك بعد أن أنعشنا ببضع كؤوسٍ من نبيذ قبرص اللذيذ، نتاج - كما أكد مضيفنا - الكروم الشهيرة في نيقوسيا عاصمة جزيرة قبرص.

لحق بقافلتنا بحماس حشدٌ متنوّع من الأولاد الصغار، والمتسوّلين رثّي الثياب، والمتسكعين الفضوليين من الجنسين كليهما، والضباط الأتراك المتبطّلين، إلى أن وصلنا إلى الخان المذكور للتوّ الذي يبعد حوالي مئة وخمسين ياردة عن مكتب مضيفنا والمسافة نفسها تقريباً عن الشاطئ.

كان مبنىً بشعاً مثل معظم الأبنية في المدن الفقيرة، وهو عبارة عن طابقٍ أرضيٍّ من البناء الثقيل فسيح جداً ومقنطر، ترتفع القنطرة عن الأرضية خمسة عشر قدماً على الأقل، وتدعمها صفوف من الأعمدة الخشبية المتينة التي تقوم على قواعد البناء. أما الطابق العلوي فقد كان بكامله مبنياً من الخشب ومغطىً بسقف ضخم وبشع له نهايات جملونية، لتحمي كلياً من أشعة الشمس الشرفة الخشبية المتقلقلة الّتي تحيط من كل الجوانب بالطابق الثاني من البناء، كان الخشب بأكمله داخل وخارج البناء مجرّداً كلياً من الطلاء، ومتشقّقاً وداكن اللون حتى غدا أسود تقريباً بسبب تأثير الشمس والرياح والأمطار، في الواقع يبدو أنَّ الإنسان والعوامل الطبيعية قد اجتمعا معاً ليضفيا على المبنى مظهراً موحشاً غير مستحبّ إلى أقصى درجة ممكنة.

في الحقيقة إنَّ هذه هي صفات الجزء الأكبر من الأبنية في الشرق بشكل عام والمنازل على وجه الخصوص، ولهذا السبب تتناقض المساجد والمآذن الجميلة بشكلٍ غريب مع غيرها من الأبنية في أية مدينة مشرقيّة، فتفعم بالحياة المدن الشرقية عموماً التي لولا ذلك لبقي مظهرها معتماً كئيباً.

كما هو الحال في معظم الأبنية التي لها بنية شبيهة في هذه المنطقة، كان الدور السفلي أو الأرضي من الخان مخصصاً لإقامة القوافل أو المسافرين، أو ليكون إصطبلاً للخيول والبغال والحمير والجمال، أو لتخزين البضائع التي لا تفنى - كما يسمّونها - والسلع الجافة والصلبة كالحديد والإسمنت والكلس والملح والأواني الفخارية والأخشاب والأسمال البالية والجوز والأخشاب المطلية وشعر الماعز وصوت الأغنام وجلود الحيونات والجلود المبطّنة، والزيت... وهلمَّ جرّاً، في حين يكون عموماً القسم العلوي من البناء منظّماً للأغراض السكنية أو للمكاتب أو غرف تخزين للمنتجات سريعة التلف والبضائع الرقيقة والفاخرة كالأقمشة والحرير الخام والحرير المصنوع والمراكشي والجلد والأسلحة والأدوات المعدنية المختلفة والتبغ والعقاقير والتوابل... الخ.

بغض النظر عن المظهر المعتم الكريه للخان، كان القسم المخصص لإقامة قافلتنا نظيفاً مقارنةً مع جميع الخانات بين بغداد والمتوسط التي تحت وطأة الظروف كان لها الشرف في استقبالنا أثناء رحلتنا الطويلة من بلاد الرافدين الأدنى، وقد بدا جلياً أن نظافته المؤقتة كانت مجرّد نتيجة العناية الدقيقة لمضيفنا الذي أمر بأن يُنظَّم المبنى ويرتَّب من أجل استقبالنا.

كان مكان إقامتنا قريباً جداً من الشاطىء، وإلى جانب ذلك، امتازت الأرضية فيه بكونها عبارة عن طبقة سميكة من رمل البحر الجاف والنظيف، الذي كان في الواقع مفضلاً على أرضيات التراب الأسود الرطب أو التراب الممزوج بالروث أو الأرضيات المرصوفة بالحصى الكبير، الموجودة عادةً في هذه الخانات. لذلك شعرنا بغاية السرور عندما أوينا إلى هذا المهجع وسرعان ما كنا نقيم بدفءٍ في الداخل،

حيواناتنا مربوطة على طول الجدران وأمتعتنا مكوّمة في وسط الحجرة، واثنان من الحراس يقفان عند المدخل من باب الوقاية فقط؛ لإعاقة أدنى محاولة للسرقة من قبل الحشد الكدر الذي يحاصر البوابة. قبل أن يعود مضيفنا الودود إلى مكتبه وبعد أن اهتم بكل طلباتنا ومستلزماتنا، دعا السّنيور (P) وكاتب هذه الرّواية لقضاء الليلة معه ومع أصدقائه في منزله الكائن في القسم الجنوبي من المدينة، ووعد بأن يوقظنا عند شروق الشمس.

عندما كان الوقت متأخراً بعد الظهر مع انتهائنا من ترتيب أمور إقامتنا في الخان بشكل جيد، قضينا الساعات القليلة المتبقية من النهار نتفحّص أمتعة السفر الخاصة بنا بعناية، بما فيها ملابسنا المجعدة والفوضوية التي كانت لا تزال رطبة من الحمّام الذي حصلنا عليه في الجبال ذاك الصباح. بعد ذلك قمنا بالغوص في الخليج الهادئ، وأكسب الحمّام المنعش والمنشفة التركية الخشنة وموسى الحلاقة المثلّم الذي أثار غضبنا مسحةً ورديةً لقسماتنا المسفوعة بأشعة الشمس.

لدى عودتنا إلى الخان تفاجأنا عندما وجدنا يوسف الطبّاخ يستخدم عن طيب خاطر الفرشاة الفنية لينظف أحذيتنا، وكأنما ذلك المسكين شعر بأنَّ خدماته المخلصة سيُستغنى عنها قريباً وإلى الأبد من قبل الرجلين الفرنجيين الذين تبعهما خطوةً بخطوة من «مدينة الخلفاء» إلى شواطئ المتوسط البعيدة. مع اقتراب وقت الغروب ظهر مضيفنا برفقة أصدقائه البائعين الثلاثة، الإيطالي واليوناني والأرمني، واصطحبونا إلى منزله متوسط الحجم الذي أحاطت به حديقةٌ جميلةٌ.

على الشرفة الواسعة جلست سيدات ثلاث يهوّين لأنفسهن، ذلك أنَّ الهواء كان حاراً ومضايقاً، والبعوض مزعجاً جداً. قدّم لنا مضيفنا أكبر سيدات الثلاثي ذاك، سيدة تبلغ حوالي اثنين وعشرين سنةً من العمر، حسناء الطالع ولها جسم جميل، وهي زوجته.

كانت يونانية الأصل من جزيرة قبرص وزوجها إيطالياً. أما السيدتان الأخريان فكانت الأصغر فتاةً جميلة في الخامسة عشرة من العمر ولكن بنموٍ مناسبٍ لامرأةٍ في

العشـرين، وهي أخت مضيفتنا، والأخيرة كانت أكبر سـناً بقليل وتمتّ لمضيفنا بصلة القرابة نفسـها.

لسـوء الحظ، لم نكن أنا أو السّنيور (P) نتحدث اليونانيـة التي كانـت مضيفتنا وشـقيقتاها يتحدثنهـا بفصاحـة، لكـن أعضـاء المجموعـة الآخريـن كانوا مـستعدّين للترجمة مع أن المحادثة بهذه الطريقة عملٌ شاقٌ إلى حدٍّ ما.

جلسنا إلى مائدة طعام شهية إلى أقصى درجة ممكن أن يمنحها لنا ميناء إسكندرون، وقد نجح نبيذ قبرص اللذيذ في تنشـيطنا بشـكلٍ رائع، وشيئاً فشيئاً استغنينا عن الشرح والترجمـة، وفـي النهاية أصبحنـا قادرين على فهم بعضنا. بعد العشـاء قـدّم لنا الخدم قهوة لذيذةً - كانت شيئاً نادر الوجود في جميع أنحاء الشـرق - وغليون الماء التقليـدي (النرجيلة) والشـطب (غليون تبغ طويل السـاق)، في حين عزفت شقيقة مضيفتنا على البيانو بعض ألحان الأغاني الشعبية اليونانية المُطربة التي غنّتها الشقيقات سوياً.

وبعد قليلٍ أوت السيدات إلى فراشهنّ وتركّزت محادثتنا حول الخيـول - الموضـوع المفضـل فـي هذه المناطـق. كان حصان مضيـفنا قد سـئم الجو المزعـج والمرهق في الإسـكندرونة، ففرّ إلى فردوس الخيول قبل وصولنا بأسبوعٍ واحدٍ فقط، وبما أنه ليس هنـاك أوروبي في الشـرق يسـتطيع البقاء دون حصـان، اقترح بأن يشـتري حصاني إذا وافقـت أن أدعه يُخضع البرذون إلى اختبارٍ مناسـب. في اليـوم التالي وبالطبع وافقت علـى ذلـك، على الرغم من أنه فـارسٌ جيد، إلا أنَّ الاختبار انتهـى بامتحانٍ لقدرته في هذا المجال أكثر من كونه اختباراً لسـرعة برذوني وقدرته على التحمّل؛ إذ لم يلبث أن اسـتقرّ على السّرج حتى طُرِحَ إلى الجانب الآخر فوق الرمال، والغريب أن ذلك جعله يغـرم بالمخلـوق اللطيف لدرجة أنه دفع لي على الفور السـعر الـذي طلبته منه والذي كان ثلاثة أضعاف ما دفعته مقابله في الموصل.

وكمبرّرٍ جزئي لا بدَّ أن أشير إلى أن الحصان كان يستحق هذا المبلغ في الإسـكندرون حيث كانت الخيول قليلة وضعيفة وبالتالي كانت الخيول الجيدة غالية الثمن.

على الرغم من أنه مجرد «كديش» - حصانٌ من سلالة سيئة - وكديش بشع أيضاً، إلاّ أنَّ الحيوان الرائع حملني طوال الرحلة من الموصل وقام بواجبه كجواد الطريق، وكان حصان صيدٍ مستعداً للجري عندما توجد الطرائد، وكم من مرةٍ اندفع بي خلف الخنازير البرية السريعة والغزلان الأسرع فوق نجود وسهول بلاد الرافدين وسوريا، وأمامنا لا تزال رحلة طويلة، مع ذلك كان هذا الفرس القزم يصبح أكثر امتلاءً يوماً بعد يوم على الرغم من كلّ الأعمال الشاقة، لذا عندما وصلنا إلى المتوسط كان ممتلئ الجسم وأملس كثعبان الماء، لم أر في حياتي قط حصاناً أكثر ثباتاً في موطئ حافره أو أكثر تحملاً أو أكثر شجاعة حقيقيّةً كشجاعته، وإنني لن أخجل من قول إنَّ قلبي في الحقيقة كاد أن ينفطر عندما حانت لحظة فراقه، ولو كنت متجهاً إلى أوروبا فقط وليس إلى أميركا البعيدة لما تركته مطلقاً.

قرابة منتصف الليل انتهت جلستنا، وعندما غدا الليل شديد الحلكة دعانا مضيفنا أنا والسّنيور (P) للبقاء حتى الصباح وقدّم لنا الغرف الأفضل في المنزل. أمّا السّنيور (P) الذي لم ينم ليلةً واحدة حتى الآن بعيداً عن الخيول الموكلة إليه فقد رفض بأدبٍ إنما بشكلٍ قاطع، ولكن كوني غير ملزمٍ بشيء قبلت الدعوة، لذا تم اصطحاب الصديق (P) إلى الخان من قبل اثنين من الخدم يحملان معهما الفوانيس، بينما تمَّ اصطحابي إلى غرفة مرتّبة، ولأنني كنت متعباً جداً سرعان ما كنت أغط في النوم ولكن لم تشأ الأقدار أن أستمتع بنومٍ طويلٍ؛ فبعد وقتٍ قصير بدأت أشعر بدبيبٍ وطنينٍ فوقي، فنهضت وأضأت النور وبالروعي عندما اكتشفت أنَّ السرير الأبيض كالثلج كان يعجّ ببقّ الفِراش والغرفة مليئة بأسراب من البعوض من النوع الأكثر تعطشاً للدماء!!

أن أنام في حجرة التعذيب هذه كانت بالتأكيد مسألة خارج نطاق المناقشة، كم لعنت حظي السيئ لأنني لم أختلق عذراً ما لأرفض دعوة مضيفي الكريمة جداً، كم تمنيت أن أكون على الرمل الطري في الزريبة وإن كان يفيض ببراغيث الرمل؛ ذلك أنها أقل تسبباً للأذى مقارنةً مع بقّ الفراش الجائع السوري!.. ويبدو أن كون الخان معرضاً لنسيم البحر يعلل يقيني بأنه خالٍ تماماً من البعوض، وتأكد أنني كنت قد أقفز

من النافذة وأتلمس طريقي عبر ظلمة الجحيم إلى الخان، لكنّ مغادرتي لمنزل مضيفي خلسةً ستكون خرقاً لا يغتفر لآداب السلوك أرفض أن أقوم به، ولم يكن بإمكاني أيضاً أن أزعج سكان المنزل وأوقظهم من نومهم بالتجول داخل الغرفة ذهاباً وإياباً طوال الليل. لم يكن أمامي كبديل سوى الجلوس بهدوء عند النافذة المفتوحة وانتظار طلوع الفجر بفارغ الصبر وإبعاد البعوض بواسطة سحابات الدّخان التي أنفثها بين الحين والآخر. كل شيء في هذا العالم تقريباً يصل إلى نهايةٍ عاجلاً أم آجلاً، وكذلك فعلت بليّتي.

ولو نظر أيٌّ فردٍ أرِق من أفراد العائلة من نافذة غرفته كان بإمكانه رؤية ضيف المنزل قبل الشروق بوقتٍ طويلٍ يتجول في الحديقة متظاهراً بأنه عاكفٌ بجدٍ على دراسة وتفحّص النباتات، بينما كان في الحقيقة يحاول البقاء مستيقظاً وقتل الوقت إلى أن يقرّر الطاهي الأرمني الكسول أن يضرب الناقوس كإشارة إلى أن الفطور جاهز.

وأخيراً فعلها وضرب الناقوس، ولكن على الرغم من أنني صغير السن، لم يبدُ لي أني سأعيش طويلاً لأرى مضيفي ومضيفتي بين الأحياء. عندما ظهرا أخيراً لم تسمح لي كياستي بأن أخبرهما بالحقيقة كاملة ولدى سؤالهما لي: «كيف نمت؟» أجبتهما: «جيداً». وهكذا لم أبقَ هناك طويلاً، وعندما عدتُ إلى الخان توجّهت مباشرةً إلى بطانياتي ودثّرت نفسي بهم وأقسمت بأنني لن أمضي أي ليلةٍ أخرى تحت ذاك السقف. بقيت نائماً إلى أن أيقظني السّنيور (P) عند الظهيرة وطلب مني أن أرافقه إلى البازار حيث كان ذاهباً ليشتري مؤونة أسبوعٍ بحاله وغيرها من الأشياء من أجل رحلتنا البحرية المرتقبة على متن الباخرة البريدية المقبلة إلى إزمير Smyrna في (آسيا الصغرى).

حملتنا مسيرةٌ قصيرةٌ عبر الطرقات الضيقة والقذرة إلى البازار. بالنسبة للمسافر القادم من المناطق الداخلية والذي رأى الأسواق الضخمة في بغداد ودمشق وحلب تختزن كميات هائلة من البضائع والمنتجات الآسيوية والأوروبية وتعجّ منذ الشروق حتى الغروب بالحشود البشرية وفوضى الحيوانات الداجنة، ومشحونة منذ الصباح

حتى حلول الظلام بجعجعة آلاف الأصوات الآدميّة وبالنشاط الصاخب والجلبة الناجمة عن جيشٍ من حرفيين شتّى، كان سوق إسكندرونة الصغير الفقير بالبضائع والذي لا يقصده الناس بكثرة بالكاد يستحق المشاهدة؛ فقد كان يحوي بضائع لا تزيد كثيراً عن المتطلّبات التي لا بدَّ منها للاستهلاك اليومي في مدينة الميناء الصغيرة.

إن الخمود النسبي في هذا القسم الموجود في أي مدينة من مدن الإسلام، والذي يكون دائماً القسم الأكثر نشاطاً، هو دليلٌ قاطع على الرّكود التجاري والصناعي، ويبدو أن الأشخاص الوحيدين الذين يمارسون التجارة في هذا البازار هم أولئك الذين يوفرون احتياجات العديد من المسافرين المتجهين إلى المناطق الداخلية أو الواصلين منها، واحتياجات أولئك الذين يرافقون قوافل الجمال والخيول والبغال والحمير العديدة التي كانت حتى ذلك الحين تشكّل وسائل التبادل والنقل الوحيدة بين الميناء والداخل، واحتياجات أولئك الذين أصبحت أغراضهم وعدّتهم بالية جداً وتالفة في السفر عبر ذلك الطريق الجبلي السيّء في (بيلان) وفوق الطرقات الرديئة بشكل عام.

على الرغم من أنه خامدٌ إلى حدٍّ ما من وجهة نظرٍ تجارية صارمة، فلم تكن هناك قلة في عدد المتردّدين على البازار أو بالأحرى على المقاهي التركية القذرة المفعمة بالدخان والحانات اليونانية والأرمنية وأماكن المقامرة وغيرها من المؤسسات ذات السمعة الأسوأ الموجودة في هذا المكان، وكذلك في أماكن أخرى من المدينة. في المقاهي يمكنك رؤية المسنّين ضعيفي البصر ومتقوسي الساقين من ضباط الجيش والأسطول التركي وتجار الخيول أو البغال أو الجمال بغيضي المظهر الذين يحاولون خداع زبونٍ غير ذي خبرة ببيعه حيواناً ما عديم القيمة، وجميعهم يجلسون متربعي الأرجل فوق مقاعد خشبية منجّدة عريضة ومنخفضة أو على كراسي خشبية صغيرة ليس لها ظهر، يتحدثون ويدخنون ويرشفون القهوة السوداء الكثيفة. أضف إلى هؤلاء موظفي الجمارك الكسولين وقذري الأجسام، الذين بدلاً من مراقبتهم للواردات في الميناء تراهم يمرحون ويأنسون مع مهرّب يونانيّ أو إيطاليٍّ ما، وقليل من المالطيّين

اليقظين وبذلك ستحصل على صورة وافية عن الجماعات التي تحتشد في هذه الأماكن.

كان هؤلاء المالطيون نموذجاً حقيقياً عن تلك الطبقة التي لا تهدأ أبداً من سكان جزيرة مالطا والذين يمكن إيجادهم في كل ميناء من موانئ البحر المتوسط، يتحدثون لغاتٍ متعددة بشكل رائع، حيث يملكون موهبة اكتساب أية لغة في العالم في أقل من أسبوعين، ونتيجة هذه الملكة تراهم يتسكعون حول هذه الموانئ راغبين أن يتم تكليفهم من قبل الأجانب بصفة (ترجمان) - مترجم ودليل سياحي ومرسال - ودائماً على استعدادٍ للذهاب مع الشخص الذي استأجرهم بعد خمس دقائق من الملاحظة إلى أي مكانٍ مسكونٍ في العالم.

قد يتمكن المراقب عن كثب من العثور على الحانات وغيرها من بؤر الفساد في كافة المدن الكبرى في المنطقة الداخلية، ولكن أن تصل الوقاحة إلى الكشف عنها جهاراً فذلك ما يمكن إيجاده فقط على عتبات الحضارة، وإسكندرون ليست استثناءً للقاعدة، ويبدو أن أوكار الخطيئة هذه تزدهر هناك كونها ملاذاً «للغوغاء» في الميناء وكذلك للبحّارة الثملين اليونانيين والرّوس والفرنسيين والنمساويين والإيطاليين، حيث كانت معظم السفن التي تدخل الميناء ترفع رايات هذه الأمم على الرغم من وجود بعض السفن الساحلية التي تقبل من تونس ومصر وفلسطين وجزر كانديا ورودوس وقبرص... وغيرها، وتبحر تحت الراية التركية وتحمل طواقم متنوعة الجنسيات من الأتراك واليونان المهجنين والعرب والزنوج الذين عندما يكونون على الشاطئ و«على البندر» - باستخدام مصطلحات البحارة - يتفوقون بشكلٍ واضحٍ على «الكفار» الذين يعملون في البحر بالانغماس في شهواتهم.

إن سكان إسكندرون - والذين بالمناسبة يتراوح عددهم ما بين اثني عشر إلى خمسة عشر ألف نسمة فقط - كسائر سكان الموانئ الأخرى متعدّدي الجنسيات؛ فهم مؤلفون من أتراك وعرب وفرس ومسيحيين أرمن ويهود وسوريين ومصريين ويونان وألبان أو أرناؤوط ومونتينيغريين وماويين وقليل من المالطيين والإيطاليين

والفرنسيين، وكان بعض هؤلاء الأخيرين يعملون كممثلين أو عملاء للبواخر البريدية الأوروبية التي تسافر بشكلٍ دوري على طول الساحل الممتد بين ميناءي الإسكندرية في مصر وإزمير Smyrna في آسيا الصغرى، وتمرّ بالموانئ الرئيسية الواقعة في الوسط وكذلك الموجودة في رودوس عاصمة الجزيرة التي تحمل الاسم نفسه.

كانت المنازل - باستثناء بعض تلك التي بنيت إلى جوار المرفأ مباشرةً - عبارة عن أكواخ صغيرة ومنخفضة ومبنية على نحوٍ فقيرٍ من الخشب أو الحجارة أو القرميد المجفّف بالشمس، ولكن الميناء كان الأفضل والأكثر أمناً على الساحل السّوري، ويتراوح عدد السفن التي تتردّد إليه سنوياً ما بين خمسمئة إلى ستمئة سفينة شراعية صغيرة أو متوسطة الاستيعاب.

عند عودتنا من البازار إلى الخان وخلفنا قافلة كاملة من خيول وبغال الحمل اللازمة لحمل المخزون الكبير من المؤن الضرورية لرحلة أسبوعٍ على متن الباخرة، قام السّنيور (P) بإعطاء جميع سائقي البغال أجورهم كاملة ثم صرفهم من الخدمة مع دواب الحمل الخاصة بهم. ألقى كلٌ منهم سلاماً موقّراً ثم انصرف بهدوءٍ مع حيواناته إلى البازار حيث كانوا جميعاً يترقبون فرصةً للعودة مع حمولةٍ ما إلى منازلهم في حلب.

في وقتٍ باكرٍ من مساء آخر يومٍ لنا على الساحل السّوري زارنا في الخان عميلنا ومضيفنا من أجل الغاية المزعومة وهي دعوتنا لقضاء الليلة معه، ولكن في الحقيقة كان يحمل لي أنباءً سارة بأن حقيبة ثياب وكتب وقرطاسية وغيرها من متطلبات المقيم الأوروبي في الشرق قد وصلت. كانت هذه الحقيبة قد أرسلت إلى عنواني في بغداد من قبل أقاربي في سويسرا، وقد وصلت إلى ميناء إسكندرون قبل ثمانية شهورٍ تقريباً من وصولي إلى هذا المكان، وبسبب الفوضى السائدة في دوائر الجمارك التركية عموماً وفي دائرة الجمارك في إسكندرون خصوصاً بقيت هناك بطريقةٍ ما واكتشفت لتوها عندما كنت هناك، واستطعت الحصول عليها بطلبٍ مني شخصياً، لمدة سنة كاملة كنت قد قطعت كل الأمل في رؤيتها مرة أخرى، وخلال فترة إقامتي بطولها في

بلاد الرافدين كنت مجبراً على إخراج كل ما هو ضروري ولا غنى عنه مما اشتريته من بومباي بأسعارٍ خيالية مدمّرة.

مع أنني شعرت بالاستياء عندما تذكّرت انزعاجي السابق ثانيةً، فإنني كنت في غاية السرور عندما استعدت ممتلكاتي من موظفي الجمارك اللصوص الأوباش. على ظهر حمّالٍ هرقلي تمّ إحضار الحقيبة إلى الخان، وهناك قمت بتفحص محتوياتها على الفور ولكن ليس هناك كلمات لتعبّر عن الحالة التي كانت بها؛ فالمعطف الهندي المطاطي المطويّ بأناقة كان ملتصقاً ببعضه بكل معنى الكلمة لدرجة أنه ليس هناك إنسانٌ يستطيع فكّه، وأدوات الحلاقة الإنكليزية الجيدة كانت صدئة كإطارات برميل الخل، ولن توجد قوّة عضلية على وجه الأرض قادرة على فتح زوجٍ من المقصات، كما كانت جميع الأحذية والجزمات الجديدة خضراء يكسوها الشعر بسبب العفونة وبدت كالجبنة المتعفنة، في حين كان العث قد أكل طبقة البزّات والثياب التحتية الجديدة حتى عمق قدمين تقريباً. باختصار: كانت محتويات الحقيبة بكاملها لا تساوي القروش الخمسة (اثنان وعشرون سنتاً أميركياً ونصف) التي دفعتها للحمّال ليحمل لي الحقيبة من مقرّ الجمارك إلى الخان. ونتيجة تفحّصي للحقيبة شعرت حقاً بالأسف لأن الضباط لم يستخدموا محتوياتها مقابل هذا الاهتمام الصادق الودود.

قضيت أنا والسّنيور (P) فترة المساء مع عميلنا ومضيفنا، ولم نكد نرجع إلى الخان ونأوي إلى الفراش حتى اهتزّ دوي مدفعين بينهما فاصلٌ قصيرٌ، وتردد صداهما بصوتٍ عالٍ وكئيب على طول الشاطئ الساكن، فعرفنا أنها إشارة الباخرة البريدية الفرنسية المرتقبة دوّت من اتجاه الشاطئ، وبذلك كما هو معتادٌ في كل مكان تقريباً تعلن وصولها إلى الميناء.

هنّأنا أنفسنا على بادرة مغادرتنا السريعة لهذا الشاطئ الباعث على الغثيان والميناء المملّ، ثم تمنينا لبعضنا ليلة سعيدة وغرقنا في النوم. ومع ظهور الخيط الأول من خيوط الشمس استيقظنا وأيقظنا رجالنا لنجهّز أنفسنا من أجل التحرّك الذي رغب السّنيور (P) بأن يكون باكراً في الصباح بأسرع ما يمكن.

كان العـدد المطلوب من الصناديق الخشـبية القوية أو المرابط التي جهّزتها شـركة السـفن البخارية من أجل إقامة خيولنا على متن السـفينة يقف على شـكل صفٍّ خلف علامـةٍ مائيةٍ عالية على الشـاطئ الرملـي، فقد تم إحضارها بناءً علـى طلب عميلنا من بيروت على متن الباخرة البريدية السـابقة، ثم أُنزلت على الشاطئ.

مع اقتراب شروق الشمس تم جرّ مراكب النقل أو قوارب الصّندل التي كانت ترسـو بجانب المرابط إلى أقرب نقطة ممكنة على الشـاطئ، وبعد ذلك بقليل أُرسـل شخصٌ من الباخرة ليحيطنا علماً بأن الكاپيتين كان مسـتعداً لاسـتقبالنا. بعد عشـر دقائق سرنا نحو الشـاطئ مع كل خيولنا متبوعين بموكب ضخم من الحمّالين الأقوياء يحملون كل متاعنا ومنقولنا. وجدنا عشـرين مربط خيلٍ فوق الشـاطئ، لكـن العدد المطلوب كان تسـعة عشـر مربطاً؛ فقط ثمانية عشـر من أجل الخيول والأخير من أجل الأتان الرائعة (زُبيـدة) التـي امتطتها (Bahri) طوال الطريق من بغـداد. تم وضع مرابط الخيول كلها علـى متن السـفينة، وكان ذلـك الزائد عن العـدد المطلوب للاسـتخدام فقط في حال تعـرض أي من المرابـط الأخرى لحادث ما أثناء رفعها على متن السـفينة. كان جسـرٌ من الألواح الخشـبية السـميكة والمتينة يشـكل وسـيلة الاتصـال بين كل من المراكب والشاطئ.

كان كل منها يسـتوعب خمسـة صناديق تم نقلها إلى سطح المراكب بواسطة القوى المشـتركة للحماليـن، ثـم عُصبت أعين خيولنا وسـيقت بحذر فوق الألواح الخشـبية ووضعـت داخل صناديقها الخاصة التي كانت أطرافهـا مبطنة جيداً لتجنب أي خدشٍ قد تتعرض له الخيول بسـبب الاحتكاك بالصـندوق عندما تصبح فوق الماء. وكان كلّ من هذه المرابط مزوداً بحزامٍ قويٍ مصنـوعٍ من القنّب يبلغ عرضه ياردةً كاملة وقد رُبط إلـى إحـدى جوانب الصندوق. عندما يصـاب الحيوان بدوار البحـر أو النعاس يمكن تمريـر هذا الحزام من تحـت بطنه ثم ربطه بالجهة المقابلة فيسـتطيع بذلك حمل وزن الجسم بالكامل؛ فقد كانت المرابط ضيقةً جداً ولا تتسـع ليبرك الحصان بداخلها.

عندما حمل كلٌّ من القوارب حمولته قفز السّـنور (P) إلى متن أحدها برفقة خمسـة

من الساسة، وركبت أنا أيضاً مع خمسة ساسة آخرين على متن قاربٍ آخر. قام ستة مجذفين أقوياء بدفع المركب الثقيل بسرعةٍ نحو الباخرة، وتزامنت ضربات مجاذيفهم مع أغنيةٍ كئيبةٍ ومملّة أنشدها الرجل الذي يمسك بدفة القيادة، وتوافق المجذفون في غناء اللازمة معاً عند نهاية كل مقطع مصحوبة مع همهمةٍ استحسانية. أوكل الرجال والخيول الذين ظلوا على الشاطئ الرملي إلى عبد الله الذي رافقنا الى الشاطئ ليرانا مغادرين. كان كابيتين الباخرة على علم بأن الخيول تخصّ جلالة إمبراطور فرنسا لذا كان يقف مستعداً مع مساعديه لاستقبالنا عندما أصبحنا بجانب السفينة، وبعد التحية ألقى أوامر صارمة على الطاقم لمساعدتنا في رفع الحمولة الحيّة القيمة إلى متن السفينة، وبما أن صاحب الأمر كان مشرفاً على العمل شخصياً والباخرة كانت مزودة بأكثر آلات الرفع البخارية تطوراً، فقد تم إنزال كل شيءٍ على سطح الباخرة بأمان في غضون أقل من ساعة واحدة.

بعد تناول بعض المشروبات المنعشة عدنا أنا والسّنيور (P) بالقوارب لنحضر بقية الحيوانات والأمتعة، وأوكلنا إلى الساسة أمر الجياد الموجودة على متن الباخرة. لم تكن مسألة رفع الحمولة الثانية بالأمر السهل؛ فقد رفض أحد الخيول - رغم أنه أحد أفضل خيول المجموعة لكن طباعه ضارية - أن تُعصب عيناه أو أن يسير خطوة واحدة باتجاه المركب، حتى اضطررنا أخيراً إلى أن نكمّمه ونربط قوائمه بطريقةٍ لم يستطع بها إيذاء أحد، ثم حمله ثمانية حمالين معاً ورفعوه إلى متن السفينة وسيق إلى مربطه.

بعد أن ودعنا عبد الله عدنا ثانيةً إلى الباخرة ورفعنا كل شيءٍ على متنها دون أية حوادث. ولكن حالما نزعنا الحبل والكمام، جعل الحصان الفحل مربطه يتحول إلى شظايا متطايرة فوق رؤوسنا وآذاننا، وبأقصى درجات الصعوبة تم تثبيته مجدداً وتكميمه وتوثيقه ثم نقل بهذه الحال إلى المربط الإضافي. ظل الحصان المجنون مقيداً إلى أن أصبحنا في عرض البحر عندها أصيب بدوار بحرٍ شديد فصار هادئاً وغير مؤذٍ أبداً كالأطفال.

بعد أن أصبح كل شيءٍ منظماً بشكلٍ جيد على متن السفينة، نادى السّنيور (P)

للعشرين مستخدماً الذين رافقونا من سكان هذه البلاد بمن فيهم الطاهي، ودفع لهم أجورهم وصرفهم من الخدمة، وشرح لهم أنه لم يعد بحاجة لخدماتهم بعد الآن باستثناء أربعة من الساسة سيبقون من أجل الاهتمام بالخيول، ثم سأل من منهم يرغب في مرافقته إلى فرنجستان (أوروبا).

كانوا جميعاً متلهفين للذهاب، لكن السّنيور (P) اختار يوسف اليزيدي رئيس الساسة، ومحمّد وعلي وأحمد كونهم الساسة الأربعة الأفضل بين الجميع. بدا جلياً أن الفرحة تغمر أربعتهم لمجرد التفكير بزيارتهم لبلاد (النصارى)، في حين ارتسمت علامات الاكتئاب بشكل واضح على وجوه الآخرين وخاصة يوسف الطباخ الذي راح ينشج بحزنٍ حقيقي، لكن بقشيشاً إضافياً من جيوبنا ساعده على استعادة رباطة جأشه جزئياً. كان باستطاعة أي أحد أن يرى بسهولة من سيماهم الحزينة كم يصعب على هؤلاء المساكين مفارقتنا، وقد ظلوا جميعاً على متن السفينة إلى أن جاء المراكبيون الذين دفع لهم السّنيور (P) حسابهم بالكامل، وأخبروهم بأن المراكب ستذهب إلى الشاطئ على الفور، عندها قدموا لي وللسّنيور (P) وللفتاة بَحري (Bahri) السلام الأكثر تعظيماً وتبجيلاً، ثم أمسكوا باليد اليمنى لكلٍّ منا وطبعوا عليها قبلةً متواضعة ونزلوا بحزنٍ من جانب السفينة إلى القوارب وبقيت عيونهم مثبتة على الباخرة إلى أن نزلوا على الشاطئ حيث بقوا هناك لبرهةٍ من الزمن ثم اختفوا تدريجياً بين المنازل.

خلال الوقت المتبقي من فترة ما قبل الظهر تزوّدت الباخرة بالفحم، وبعد الظهر وصلت عدة قوارب وأنزلت حمولتها ومسافريها على متن السفينة، كانت هذه القوارب تحمل مسافرين معظمهم من الأتراك واليونان والأرمن، وكميات كبيرة من البضائع والمنتجات السورية والفارسية ومنتجات بلاد الرافدين، وكانت هذه البضائع مؤلفة من السّجاد والبسط والحرير الخام ووبر الجمال والماعز وصوف الأغنام والتبغ والجوز والفستق واللوز والتمور... الخ وُضعت داخل علب وحصائر وصناديق.

عندما كانت الساعة تناهز الرابعة بعد الظهر، صعد عميل خط الباخرة على متنها يحمل معه البريد وبرفقته مضيفنا وعميلنا الذي جاء ليودّعنا الوداع الأخير، وبعد

عشر دقائق من الزمن بدأت رافعة الباخرة برفع سلسلة المرساة، حينها انصرف هذان السيدان المذكوران أخيراً مسرعين.

وسرعان ما كانت السفينة تنعطف متأرجحة بلطف، وداسرها قد بدأ بالدّوران. ثم خرجنا ببطءٍ من الميناء ملقين بين الحين والآخر نظرة وداعٍ على ذلك الميناء الصغير وسلسلة الجبال الشاهقة في الخلف، التي راحت تغيب عنّ أنظارنا شيئاً فشيئاً وربما إلى الأبد، تلك المنطقة المترامية جداً، والمجدبة جداً، والخاوية جداً، ولكن المليئة جداً بالغموض والتشويق؛ إنها موطن الإسلام ومهد البشرية الشهير...

* * *

محتويات الكتاب

سلسلة روّاد المشرق العربي.. 5
هذا الكتاب 7
مع الهلال والنجم... 13
قائمة المحتويات... 17
قائمة الرسوم التوضيحية... 27
مقدمة.. 29
الفصل الأول: في بومباي 31
الفصل الثاني: التجول حول مسقط.................................. 37
الفصل الثالث: الرّسوّ 55
الفصل الرابع: عبور الخليج إلى الكويت 67
الفصل الخامس: عيد المسلمين..................................... 89
الفصل السّادس: الإبحار إلى بغداد................................. 97
الفصل السّابع: حول بغداد 111
الفصل الثامن 129
الفصل التاسع: الإقامة في بغداد................................... 145
الفصل العاشر: المزيد عن بغداد والمنطقة المجاورة 163
الفصل الحادي عشر: زيارة الأماكن التاريخية 181
الفصل الثاني عشر: العيش بخشونة 215
الفصل الثالث عشر: فصل قصير في المخيم............................ 229

الفصل الرابع عشر: بالقرب من قرارة.......................... 267
الفصل الخامس عشر: الابتعاد عن بغداد 281
الفصل السّادس عشر: التقدّم إلى الأمام 303
الفصل السّابع عشر: أطوار جديدة في السفر 349
الفصل الثامن عشر: معالم شرقية.......................... 369
الفصل التاسع عشر: بالقرب من أربيل التاريخية.......................... 383
الفصل العشرون: المسير باتجاه الغرب.......................... 417
الفصل الحادي والعشرون: حول نصيبين 441
الفصل الثاني والعشرون: على جبل ماردين.......................... 453
الفصل الثالث والعشرون: وادي الجزيرة 469
الفصل الرابع والعشرون: حول ديار بكر 491
الفصل الخامس والعشرون: قرا آمِد.......................... 513
الفصل السّادس والعشرون: عبر الجبال 525
الفصل السّابع والعشرون: في قلب الوادي 541
الفصل الثامن والعشرون: في طريقنا إلى حلب 551
الفصل التاسع والعشرون: في حلب.......................... 573
الفصل الثلاثون: مشاهد منوّعة وأحداث 585
الفصل الحادي والثلاثون: الاقتراب من الهدف.......................... 601
الفصل الثاني والثلاثون: نهاية رحلتنا 617

* * *